

المنهج التربوي للسيرة النبوية

٦

# التربيـة القياديـة

الآباءُ بِإِمْسَانِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ

وَبِنَرِ الْغَضَابِ

المجزء الثالث

كتاب الوفاء

كافة حقوق الطبع محفوظة  
الطبعة الأولى  
١٤١٨ - ١٩٩٨ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.ع - المنصورة  
الإدارة : ش. الإمام محمد بن عبد الموارجع لكلية الآداب ص . ب .  
٢٣٠ ت : ٣٤٢٧٢١١ / ٣٥٦٢٢٠ - ٣٥٦٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨  
المكتبة : أمان كلية الطب ت ٣٤٧٤٤٢



الْمَسْجِدُ الْقَبُوْحِي  
لِلصَّرِيقَةِ النَّبُوْتِيِّ

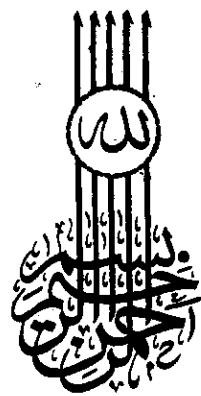
٦

إِلَى تَرْبِيَةِ الْقَيْادَيَّةِ

الذَّائِعُونَ بِإِحْسَانِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ

المجزء الثالث

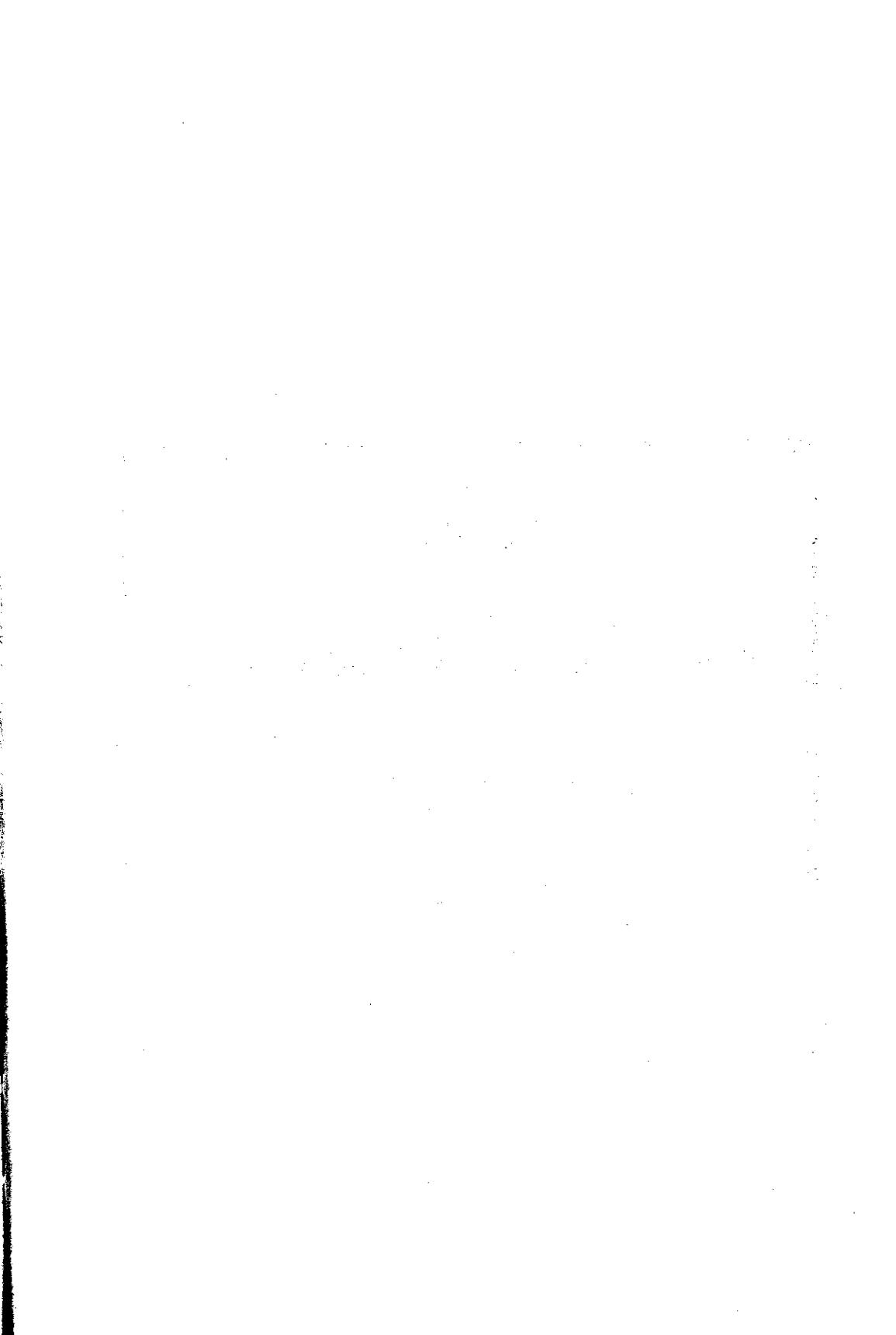
عنبر الغضباد



الإهداء

إلى جيل الصحوة الإسلامية الذي يبحث عن قيادات

أهدي هذا الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه  
أجمعين ، ومن سار بسيرته واهدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد :

فهذا هو الجزء الثالث من التربية القيادية . نلتقي فيه مع سيد القادة في هذا  
الوجود - محمد ﷺ - وهو يصوغ لبناته العظيمة في عملية البناء الكبرى في التاريخ ،  
حيث أصبح على رأس دولة الإسلام الأولى في هذا الوجود ، والتي وصفها - عليه  
الصلوة والسلام - بقوله : « اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في  
الارض » .

وفي رواية البخاري والنسائي : « اللهم إن شاء لا تعبد بعد اليوم » .

فقد روى رسول الله ﷺ هذه اللبيتان وصاغها حتى يوم بدر . حيث أنزل الله تعالى  
ملائكة سمائه لتحارب بجوارهم .

وستتابع في هذا الجزء الحياة مع هذه التربية القيادية منذ بدر إلى العام الذي غزت  
فيه العرب المدينة غزوة الخندق ، وكيف استطاع هذا الجيل أن يواجه أعظم محنة في  
حياته .

ونشهد كيف روى رسول الله ﷺ هذا الجيل ، واختيار ذوى الطاقات والكهفاء  
فيه؛ لتمارس مسؤولياتها على عينه<sup>(١)</sup> ، ويؤهلها للتتابع المسيرة من بعده ، وتقود الأجيال  
اللاحقة من خلال هديه وتوجيهه . وتبقى القدوة العليا للأمة . كما قال جل شأنه :

« وَالسَّابِقُونَ الْأُولَوْنَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ  
وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعْدَ اللَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »<sup>(٢)</sup> .

فبقى القادة الهداء هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وبقى الذين  
جاوزوا من بعدهم تبع لهم . وإن نال الفريقان رضا الله - سبحانه - وجلاته . وذلك هو  
الفوز العظيم .

(١) التربية العامة تمت معالجتها في الحلقة السابقة من البحث تحت عنوان « التربية الجهادية » . أما التربية الخاصة  
للنوعيات والنماذج المؤهلة فهي التي تتناول الحديث عنها تحت عنوان : « التربية القيادية » والتي تتابع الحديث  
عنها في أجزاء لاحقة من هذه السلسلة .

(٢) التربية / ١٠٠ .

## انتقاءات من بدر

تحديثنا عن غزوة بدر في الجزء الأول من الحلقة السابقة بصورة تفصيلية من خلال سورة: «الأنفال»، وفي مجال الحديث عن التربية الجهادية .

أما الانتقاءات هنا ، فهي النماذج الفردية التي كانت يد النبوة تبنيها وتصوغها؛ لتهلها لدورها الصعب المرتقب في قيادة الأمة كلها .

### توزيع المسؤوليات وبروز القيادات :

١ - قال ابن إسحاق : ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير – وكان أبيض – وبين يدي رسول الله ﷺ رaitan سوداوان إحداهما : مع على بن أبي طالب يقال لها : العقاب ، وكانت سُنَّةً إذ ذاك عشرون سنة ، وكانت الأخرى : مع بعض الأنصار .

وقال ابن سعد : كان لواء المهاجرين مع: مصعب بن عمير ، ولواء الخزرج مع: الحباب بن المنذر ، ولواء الأوس مع : سعد بن معاذ ، وجزم بذلك في الهدى.

قال أبو الفتح : والمعروف أن سعد بن معاذ كان يومئذ على حرس رسول الله ﷺ ، وأن لواء المهاجرين كان يد على . قلت : العريش كان بيد ، والذى ذكره ابن سعد كان في الطريق ، واستختلف ابن أم مكتوم على الصلاة ، وردد أبا لبابة من الروحاء واستخلفه على المدينة .

٢ - وروى الإمام أحمد، وابن سعد، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير وكان أبو لبابة وعلى زملي رسول الله ﷺ ، وكان إذا كانت عقبة رسول الله رضي الله عنه قالا : اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك فيقول : « ما أنتما بأقوى مني على المشي ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكم » .

قال في البداية والعيون : وهذا قبل أن يرد رسول الله رضي الله عنه أبا لبابة من الروحاء ثم كان زميلا عليه وزيداً .

وقال ابن عقبة، وابن إسحاق، والشعبي، وابن القيم : كان زميلاً مرثد بن أبي مرثد الغنوى وعلياً .

٣ - واستعمل رسول الله رضي الله عنه على المشاة - وهم في السافة - قيس بن أبي صعصعة . وأمره حين فصل من بيوت السقيا أن بعد المسلمين، فوقف بهم عند بئر أبي عنبة

فعدهم ، ثم أخبر رسول الله ﷺ بأنهم ثلاثة وثلاثة عشر فرحاً بذلك وقال : « عدة أصحاب طالوت » ... ثم انصب منه حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسبس بن عمرو الجوني حليف بنى ساعدة ، وعدى بن أبي الزعباء حليف بنى التجار إلى بدر يتحسان له الأخبار عن أبي سفيان .

٤ - وذكر موسى بن عقبة ، وابن عائذ : أن عمر قال : يا رسول الله ، إنها قريش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت ، ولا آمنت منذ كفرت ، والله لتقاتلناك . فأهاب ذلك أهبه ، وأعد لذلك عدته ، ثم استشارهم ثالثاً . ففهمت الانصار أنه يعنيهم ، وذلك أنهم عدد الناس . فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه وجراه خيراً ، فقال : يا رسول الله ، كأنك تعرض بنا . قال : « أجل » ، وكان إنما يعنيهم ؛ لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود من الناس في ديارهم . فاستشارهم ليعلم ما عندهم ، فقال سعد :

يا رسول الله ، قد آمنا بك وصدقناك ، وشهادنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيتك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت ، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الانصار ترى عليها إلا ينصروك إلا في ديارهم ، وإنى أقول عن الانصار وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصل جبل من شئت ، واقطع جبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، واعطينا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فامرنا بغيره ، فوالله لو سرت بنا حتى تبلغ البرك من غمدان - وفي رواية : بر크 الغمام من ذي يمن - لنسرين معك ، والله لو استعرضت بما هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقرئ به عينك ، ولعلك خرجت لأمر فاحدث الله غيره ، فسر بنا على بركة الله ، فتحن عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك ، ولا تكونن كالذين قالوا لموسى : « فاذهب أنت وربك فقاتلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » (١) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلَا إِنَا معكما متبعون .

فأشرق وجه رسول الله ﷺ وسرّ يقول سعد . فقال رسول الله ﷺ : « سيروا على بركة الله وأبشروا ، فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين . والله لكانى أنظر إلى مصارع القوم » .

(١) المائدة / ٢٤ .

٥ - وروى عبد بن حميد عن قتادة قال : كان النعاس أمنة من الله ، وكان النعاس نعاسين : نعاس يوم بدر ، ونعاس يوم أحد ، وكانت ليلة الجمعة ، وبين الفريقين قوز من الرمل . وبعث رسول الله عمار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما - فأطافا بالقوم ثم رجعا فأخبراه أن القوم مذعورون ، وأن السماء تسح عليهم ، وسار رسول الله رسول الله عشاء بيادهم الماء فسبقهم إليه ، ومنهم من السبق إليه: المطر أرسله الله تعالى عليهم حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل ، فقال الحباب بن المنذر بن الجموج - فيما رواه ابن إسحاق :

يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أميلاً ، أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي وال الحرب والمكيدة ؟ قال: « بل هو الرأي وال الحرب والمكيدة » قال : يا رسول الله ليس هذا المنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فنزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فتملاه ماء ، ثم نقاتل القوم . فشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله رسول الله : « لقد أشرت بالرأي . . . ». وذكر ابن سعد: أن جبريل نزل على النبي رسول الله فقال : الرأي ما أشار به الحباب . فنهض رسول الله رسول الله ، ومن معه من الناس ، حتى إذا نأتى أدنى ماء من القوم نزل عليه نصف الليل ، ثم أمر بالقلب فغورت وبني حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملأه ماء ، ثم قذفوا فيه الآية .

قال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونُعدُّ عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا . فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحبتنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلتحقق بين ورائنا من قومنا ، فلقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ، ما نحن بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، ينصحونك ويجاهدون معك ، فأننى رسول الله رسول الله عليه خيراً ، ودعا له بخير .

ثم بُني لرسول الله رسول الله عريش على تلٍ مشرف على المعركة ، فكان فيه هو وأبو بكر وليس معهما غيرهما ، وقام سعد بن معاذ رسول الله متوكلاً بالسيف ، ومشي رسول الله رسول الله في موضع المعركة ، وجعل يشير بيديه : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله » ، مما تعدد أحد منهم موضع إشارته . رواه الإمام أحمد ومسلم وغيرهما (١) .

(١) مسلم ج ٢ / ١٤٠٤ .

٦ - وخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا فصل من الصدف دعوا إلى المبارزة ، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار وهم عوف ومعاذ ابنـ الحارث - وأمهما عفرا - وعبد الله بن رواحة .

قال ابن عقبة وابن سعد وابن عائذ : ولما طلب القوم المبارزة وقام إليهم الثلاثة استحبى رسول الله ﷺ من ذلك ؛ لأنـه أول قتال التقى فيه المسلمين والمشركون ورسول الله ﷺ شاهد معهم . فأحب رسول الله ﷺ أن تكون الشوكة لبني عمـه وقومـه . فقالوا : من أنتـ؟ قالـوا : رهـط من الأنصار . فقالـوا : أكـفاء كـرام ، ما لـنا بـكم من حاجة ، ثم نادـوا : يا مـحمد أخـرج لـنا أـكـفاءـنا مـن قـومـنا ، فـنـادـاـهم رسـولـه ﷺ : «ارجـعوا إـلـى مـصـافـكـم ، ولـيـقـمـ إـلـيـهـمـ بـنـوـعـمـهـ» .

قال ابن إسحاق : فقالـ رسولـه ﷺ : «قـمـ يـاـ عـبـيـدـةـ بـنـ الـحـارـثـ ، وـقـمـ يـاـ حـمـزـةـ ، وـقـمـ يـاـ عـلـىـ» - وكانـ علىـ مـعـلـمـاـ بـصـفـةـ بـيـضـاءـ - فـقاـتـلـوـاـ بـحـقـكـمـ الـذـىـ بـعـثـ بـهـ نـبـيـكـمـ إـذـ جـاـزوـاـ بـيـاطـلـهـ لـيـطـفـنـوـ نـورـهـ» فـلـمـ قـامـواـ وـدـنـوـ مـنـهـمـ ، قـالـواـ : مـنـ أـنـتـ؟ تـكـلـمـواـ . فـقـالـ عـبـيـدـةـ : أـنـاـ عـبـيـدـةـ ، وـقـالـ حـمـزـةـ : أـنـاـ حـمـزـةـ ، وـقـالـ عـلـىـ : أـنـاـ عـلـىـ . قـالـواـ : نـعـمـ أـكـفاءـ كـرـامـ . فـبـارـزـ عـبـيـدـةـ - وـكـانـ أـسـنـ الـقـوـمـ - عـتـبـةـ بـنـ رـبـيـعـةـ ، وـبـارـزـ حـمـزـةـ شـيـبـةـ بـنـ رـبـيـعـةـ ، وـبـارـزـ عـلـىـ الـوـلـيدـ بـنـ عـتـبـةـ . فـأـمـاـ حـمـزـةـ فـلـمـ يـمـهـلـ شـيـبـةـ إـنـ قـتـلـهـ ، وـأـمـاـ عـلـىـ فـلـمـ يـمـهـلـ الـوـلـيدـ حـتـىـ قـتـلـهـ ، وـاـخـتـلـفـ عـبـيـدـةـ وـعـتـبـةـ بـيـنـهـمـ ضـرـبـتـينـ كـلاـهـمـ أـثـبـتـ صـاحـبـهـ ، وـضـرـبـ عـتـبـةـ رـجـلـ عـبـيـدـةـ فـقطـعـهـ ، وـكـرـ حـمـزـةـ وـعـلـىـ بـأـسـيـافـهـمـاـ عـلـىـ عـتـبـةـ فـدـقـقـاـ عـلـيـهـ ، وـاحـتـمـلـاـ صـاحـبـهـمـاـ فـحـازـاهـ إـلـىـ أـصـحـابـهـ ، وـلـمـ جـاـزوـاـ بـهـ رـسـولـهـ ﷺ أـضـجـعـوهـ إـلـىـ جـاـنـبـ مـوـقـفـ النـبـيـ ﷺ ، فـأـفـرـشـهـ رـسـولـهـ ﷺ قـدـمـهـ الشـرـيفـةـ وـقـالـ عـبـيـدـةـ : يـاـ رـسـولـهـ لـوـ أـنـ أـبـاـ طـالـبـ حـىـ لـعـلـمـ أـنـىـ أـحـقـ بـقـوـلـهـ :

كـذـبـتـمـ وـبـيـتـ اللـهـ نـبـيـ مـحـمـدـاـ (١) وـلـمـ نـطـاعـنـ حـولـهـ وـنـتـاضـلـ  
وـنـسـلـمـهـ حـتـىـ نـصـرـ حـولـهـ وـنـذـهـلـ عنـ أـبـنـائـاـ وـالـحـلـائـلـ

رواـهـ الإـلـمـامـ الشـافـعـيـ . وـعـنـ قـيسـ بـنـ عـبـادـ فـقـالـ : سـمـعـتـ أـبـاـ ذـرـ يـقـسـمـ قـسـمـاـ: إـنـ هـذـاـ إـلـيـةـ : «هـذـاـ خـصـمـاـنـ اخـتـصـمـوـاـ فـيـ رـبـئـمـ . . . . .» (٢) نـزـلتـ فـيـ الـذـيـنـ بـارـزـواـ يـوـمـ بـدرـ : حـمـزـةـ وـعـلـىـ وـعـبـيـدـةـ ، وـعـتـبـةـ وـشـيـبـةـ أـبـنـ رـبـيـعـةـ وـالـوـلـيدـ بـنـ عـتـبـةـ . رـوـاهـ الشـيـخـانـ . وـعـنـ عـلـىـ رـوـاـتـهـ قـالـ : نـزـلتـ هـذـهـ إـلـيـةـ فـيـ الـذـيـنـ بـارـزـواـ يـوـمـ بـدرـ : حـمـزـةـ وـعـلـىـ

(١) نـبـيـ مـحـمـدـاـ : لـاـ نـسـلـبـ وـتـغلـبـ عـلـيـهـ .

(٢) المـعـ / ١٩ .

وعبيدة بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة . قال على :  
أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله - عز وجل - يوم القيمة .

وروى البخاري عن علي رضي الله عنه قال : فيما نزلت هذه الآية : « هَذَا خَصْمَانٌ  
اخْتَصِمُوا فِي رِبِّهِمْ ... » (١) (٢) .

### طاقات شبابية :

٧ - روى الإمام أحمد والشیخان وغيرهم عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال :  
إني لواقف في الصدقة يوم بدر فنظرت عن يميني وعن شمالي ، فإذا أنا بين غلامين من  
الأنصار حديثة أستانهما ، فتمنيت أن أكون بين أصلعهما . فغمزني أحدهما سرًا من  
صاحبه فقال : أى عم ، هل تعرف أبي جهل؟ قلت : نعم ، فما حاجتك إليه يا بن أخي؟  
قال : أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى  
سواده حتى يموت الأعجل منا ، قال : وغمزنى الآخر سرًا من صاحبه فقال مثلها ،  
فعجبت لذلك . قال : فلم أنسَب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس وهو يرتجز :

ما تنقم الحرب العوان مني      بازل عامين حديث سنى

لمثل هذا ولدتني أمى

فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه . فابتدرأه بسيفيهما فضر به  
حتى برد ، وانصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه ، فقال : « أيكم قتله؟» فقال كل  
واحد منها : أنا قتله ، قال : « هل مسحتما سيفيكما؟» قالا : لا . فنظر رسول الله  
صلى الله عليه وسلم إلى السيفين وقال : « كلاكم قتله ». وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن عمرو  
ابن الجموح .

والرجلان : معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعوذ بن عفرا .

وروى الإمام أحمد والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه وابن إسحاق ، عن معاذ بن  
عمرو ، والبيهقي عن ابن عقبة ، والبيهقي عن ابن إسحاق ، قال معاذ :  
سمعت القوم ، وأبو جهل في مثل الحرجة وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص  
إليه . فلما سمعتها جعلته من شأنى فعمدت نحوه . فلما أمكننى حملت عليه فضربه  
ضربة أطنت بها قدمه بنصف ساقه ، فوالله ما شبهاها حين طاحت إلا كالنواة تطير من

(٢) فتح الباري / ٧ ٢٩٦ برقم ٣٩٦٥ .

(١) الحج / ١٩ .

تحت مرضحة النوى حين يضرب بها ، وضربي ابنه عكرمة - وأسلم بعد ذلك - على عاتقى فطرح يدى فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضنى القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومى هذا وإنى لأسجبها خلفى . فلما آذتني وضعت قدمى عليها ، ثم تعطيت بها عليها حتى طرحتها ، قال ابن إسحاق : وعاش بعد ذلك إلى زمان عثمان .

قال القاضى : زاد ابن وهب فى روايته : فجاءَ يحمل يده إلى رسول الله ﷺ فبصق عليهما رسول الله ﷺ فلصقت ، كذا نقله عن القاضى فى العيون .

قال ابن إسحاق : ثم مرَّ بأبى جهل يوم بدر معوذ بن عفرا ، فضربه حتى أثبته وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل ، ثم مر عبد الله بن مسعود بأبى جهل فذكر ما سيأتى . وأقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى فالتمس أبا جهل فلم يجده ، حتى عُرف ذلك فى وجه رسول الله ﷺ ، فقال : « اللهم لا يعجزنى فرعون هذه الأمة » وقال ﷺ : « من ينظر لنا ما صنع أبو جهل ؟ وان خفى عليكم فى القتلى ، فانظروا إلى أثر جرح فى ركبته ؛ فإننى ازدحمت أنا وهو يوماً على مأدبة لعبد الله بن جُدعان ونحن غلامان ، وكنت أشف منه بيسير ، فدفعته فوقع على ركبته فجحش<sup>(١)</sup> فى إحداهما جحشاً لم يزل أثره به » .

قال عبد الله بن مسعود : فأتيته فوجدته بآخر رمق فعرفته ، وكان مقعنًا بالحديد ، واضعًا سيفه على فخذيه ليس به جرح ، ولا يستطيع أن يحرك منه عضواً وهو منكب ينظر إلى الأرض ، فلما رأه ابن مسعود طاف حوله ليقتلته ، فاراد أن يضربه بسيفه فخشى الا يغنى سيفه شيئاً ، فأناه من ورائه - قال : ومعنى سيف رث ، ومعه سيف جيد ، فجعلت أنفف رأسه بسيفى ، وأذكر نتفاً كان برأسه حتى ضعفت يده ، فأخذت سيفه فرفع رأسه فقال : على من كانت الدبرة - وفي رواية : من الدائرة ؟ قلت : الله ورسوله . فأخذت بلحينه وقلت : الحمد لله الذى أخزاك الله يا عدو الله . قال : بم أخزانى ؟ هل أعمد من رجل قتلتهموه - أو غير أكار<sup>(٢)</sup> قتلنى ، فرفعت سابعة البيضة عن قفاه ، فضربته فوقع رأسه بين يديه ثم سلبته .

قال ابن مسعود : ثم حزوت رأسه ، ثم جئت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبى جهل . فقال رسول الله ﷺ : « آللله الذى لا إله إلا هو » فاستحلبني ثلاثة مرات . فالقيت رأسه بين يديه ، فقال : « الحمد لله الذى أعز

(١) جحش : جرح جرحًا شديداً .

(٢) أكار : مزارع ويعرض بالأنصار أنهم أهل درع .

الإسلام أهله » ثلاث مرات ، وخرّ رسول الله ﷺ ساجداً - وفي رواية: صلى ركتعين .

قال القاضي : إن ابن مسعود إنما جعل رجله على عنق أبي جهل ليصدق رؤيه ، فإن ابن قتيبة ذكر أن أبي جهل قال لابن مسعود : لاقتلك ، فقال : والله لقد رأيت في النوم أني أخذت حدة حنظل فوضعتها بين كتفيك بتعلّي ، ولكن صدقت رؤيائى لاطنان رقبتك ، ولاذبحنك ذبئع الشاة .

وروى ابن عائذ عن قتادة أن رسول الله ﷺ قال : « إن لكل أمة فرعوناً ، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل ، قتله شر قتلة ، قتله ابنا عفرا ، وقتلتة الملائكة ، وتدافنه ابن مسعود » (١) .

١ - أكبر حشد تشهده المدينة يتحرك صوب قافلة قريش على رأسه رسول الله ﷺ وقد شارك فيه المهاجرون والأوس والخزرج . وهى الجبهات المعترض عليها فى الدولة الإسلامية الفتية . وقام القائد العام - عليه الصلاة والسلام - بتوزيع الرايات (٢) على هذه الجبهات الثلاث ، حيث استلم سيد الأوس - سعد بن معاذ - راية الأوس . واستلم نائب سيد الخزرج - الحباب بن المنذر - راية الخزرج ؛ لأن سعد بن عبادة نهى فلم يتمكن من المشاركة . وسلم رسول الله ﷺ راية المهاجرين لأخيه على بن أبي طالب نيابة عنه ، وأراد - عليه الصلاة والسلام - أن يواجه مكة باعتباراتها التي توارثتها كابرًا عن كابر ، حيث إن اللواء كان لبني عبد الدار حسب توزيع أمجاد قريش فى مكة ، فأعطى رسول الله ﷺ اللواء لبني عبد الدار باسم الجيش كله . وللتمييز بين اللواء والراية . فكان لون اللواء أبيض ، بينما كان لون الرايات أسود .

لقد كان التخصص هو سمة المجتمع النبوى الرائد .

وحيث إن فريقاً كبيراً من المسلمين لا يزال فى المدينة ، فلا بد من حاكم يدير شؤونها فى غياب القائد الأعظم ﷺ . وفي الروحاء (٣) رد رسول الله ﷺ أبا لبابة بن عبد المنذر إلى المدينة ، واستعمله والياً عليها . وكان أبو لبابة من الأوس من بنى عمرو بن عوف ، إذ لا يمكن أن يكون فى المدينة أكثر من أمير واحد . أما إمرة الصلاة فقد أوكلها رسول الله ﷺ لابن أم مكتوم القارئ المجيد الذى شهدته المدينة أول إمام فيها بعد ورود المهاجرين إليها ؛ حيث كان يوم القوم وفيهم عمر رضي الله عنه وإخوانه من العشرة

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٤/٣٩ - ٧٠ مقتطفات .

(٢) هناك خلاف حول الراية واللواء أيهما الأهم . حيث يذكر الصالحي أن اللواء دون الراية .

(٣) قرية جامعة على ليلتين من المدينة . وفي معجم المعلم الجغرافية للسيرة النبوية أنها تبعد ٧٥ كم عن المدينة .

المبشرين . ونشير إلى أن التدريب الذى أراده رسول الله ﷺ لأبى لبابة كى يمارس مسؤولياته هدف مقصود بذاته ، إضافة إلى التربية الشاقة التى أرادها رسول الله ﷺ للجيل المسلم . إذ أن أكثرية أهل المدينة من الخزرج ، وأخوال رسول الله ﷺ من بنى النجار فرع منهم . عليهم أن يسمعوا جميعاً ويطيعوا للأمير الأوسي الجديد أبى لبابة . ولتنم التوازنات بين الحسين - الاوس والخزرج - فقد كان أمير المشاة قيس بن أبي صعصعة المازنى النجاري الخزرجي .

وللاستفادة من الاختصاصات كذلك ، فقد بعث رسول الله ﷺ دليلين يتحسان أخبار القافلة هم: بسبس بن عمرو ، وعدى بن أبى الزعباء ، وكلاهما جهيناً حليفان للأنصار فى المدينة . وجهينة على الساحل على طريق القوافل الغادية والرائحة إلى الشام . فهما أدرى بالطريق وأخبر به ، وبإمكانهما أن يتزلماً فى جهة فيتعرضاً ويسألاً أكثر من غيرهما . فهما أقدر من أى شخص آخر على هذه المهمة ، ولاحظنا أن اللقاء السابق بين المسلمين والشركين والذى كان حمزة رضي الله عنه على رأسه ، إنما حجز بينهما مجدى بن عمرو الجهنوى . ولاحظنا كذلك أن رسول الله ﷺ قد مضى على رأس جيش من قبل وحالف جهة ذات الموقع الاستراتيجى لهم فى تلك المنطقة ، ومجدى ابن عمرو الجهنوى هو الذى كان على ماء بدر ، فلعلها تمت مضاربها إليها .

٢ - والتطور الجديد الذى حدث باتجاه الجيش ، هو وصول الأخبار عن تحرك جيش قريش من مكة . والمسلمون قد خرجوها أصلًا للقاء القافلة . وهنا تبرز عظمة الطاقات الإسلامية فى مواجهة هذا التطور الجديد .

روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبى أبى أيوب قال : ( لما سرنا يوماً أو يومين قال لنا رسول الله ﷺ : ما ترون في القوم فإنهم قد أخبروا بمخبركم ؟ ) فقلنا : ما والله لنا طاقة بقتال القوم ، ولكن أردننا العير . ثم قال : ( ما ترون في قتال القوم ؟ ) فقلنا مثل ذلك وذكر الحديث . فأنزل الله تعالى : ( كَمَا أَخْرَجْتَ رِبِّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارُهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَائِنًا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظَرُونَ . وَإِذْ يَعْدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّافِقَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرُ ذَاتِ الشُّوَكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحَقِّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ) (١) ) (٢) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي . ٤٣ / ٤ .

(٢) الأنفال : ٨ - ٥ .

وهذه الرواية - على قلة شهرتها - نحن بحاجة إليها ؛ لتوضيع النص القرآني في البلالة على نفسيات المسلمين غير الراغبين في المواجهة . وأمام هذا الواقع النفسي ، رأى رسول الله ﷺ أن عملية المواجهة لا يمكن أن تتم بهذه النفسية حيث تتم الرواية الثانية صورة الواقع النفسي للمواجهة وهي :

( ... وسلك ذات اليمين على وادٍ يقال له : ذفران ، وجزع فيه ثم نزل ، وأتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا عيرهم . فاستشار الناس فتكلم المهاجرون وأحسنوا ، ثم استشارهم - وفي رواية : فقام أبو بكر فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب وأحسن . ثم قام المقداد بن الأسود فقال :

يا رسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله ما نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : « فَأَذْهَبْ أَنْتَ وَرِبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » (١) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلنا إنما مقاتلون ، وعن يمينك وعن شمالك ، وبين يديك ومن خلفك ، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغمام بحالتنا معك من دونه حتى تبلغه . فأشرق وجه رسول الله ﷺ وقال له خيراً ودعا له (٢) .

ولابد أن يتكلم المهاجرون ابتداء . ولا يتقدم أحد من المهاجرين على شيخ المهاجرين وسيدهم أبي بكر الصديق ، وعلى الفاروق عمر رض .

وتشي كلمة عمر رض التي روتها كتب السيرة بخطورة المواجهة : إذ يقول : يا رسول الله ، إنها قريش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت ، ولا آمنت منذ كفرت ، والله لتقاتلنك ، فأهلب لذلك أهبيه ، وأعد لذلك عدته (٢) .

ولا غرو أن نرى عمر يقف هذا الموقف ، فهو من أكبر المستشارين للنبي ﷺ ، وعليه أن يدرس الموقف بجلاء ووضوح ليضعه بين يدي قائده ، وليس الأمر أمر حماس عارم ، وإندفاع عاطفي جارف . إن عمر رض والصديق ليشاركان في صياغة القرار النبوى فهما وزيرا رسول الله ﷺ . أما الذي مثل دور الجندي ، وتحدث بلسان إخوانه المهاجرين جميعا فهو: المقداد بن الأسود رض حتى لينفس عليه جندى آخر أخ له ، كان يتمنى أن يكون صاحب القول نفسه ، يقول ابن مسعود رض :

( شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى ما عدل به .

أتنى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول لك كما قال قوم موسى

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي .

(١) المائدة / ٤٢ .

لوسى : « فَإِذْهَبْ أَنْتَ وَرِيلُكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، وبين يديك ومن خلفك ، فرأيت رسول الله ﷺ أشرق وجهه وسره (١) .

٣ - لكن هذه المواقف الثلاثة لم تكف لاتخاذ قرار المواجهة ، وما يزال - عليه الصلاة والسلام - يقول : « أشيروا على أيها الناس » .

وكان أدب الانصار ألا يتقدموا على إخوانهم المهاجرين في الرأي ، لكن إلحاح الرسول ﷺ عليهم دفع سيدهم سعد ليقول :

يا رسول الله ، كأنك تعرض علينا - وفي رواية : كأنك تعيننا يا رسول الله؟ قال : « أجل » .

ولن ينفرد رسول الله ﷺ وهو القائد الأعظم ، والمفدى بالأرواح والمهج ، لن ينفرد باتخاذ القرار مع المهاجرين . ولابد أن تشارك الانصار في الرأي خصوصاً والانصار أكثرية الجيش ؛ إذ لا يبلغ المهاجرون إلا ربع الجيش ، والمعركة تحتاج إلى المشاركة الكاملة . ومن جهة ثانية فالعهد مع الانصار أن يدافعوا عن رسول الله ﷺ داخل المدينة لا خارجها . وهذه تحتاج إلى عقد جديد وبيعة جديدة .

وسعد رض هو أبو بكر الانصار . وعندما رأى أن رسول الله ﷺ يود أن يعرف رأيهم فراح يقول :

يا رسول الله ، قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيتك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة .

فقد خص سعد رض الموقف ابتداءً بارتباط السمع والطاعة بالبيعة الكبرى على الإيمان والإسلام ، ثم عرج على البيعة الخاصة . بيعة العقبة الكبرى فقال :

ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الانصار ترى عليها ألا ينصروك إلا في ديارهم .

ولاني أقول عن الانصار وأجيب عنهم .

وعظمة سعد أنه لم يتكلم باسم الأوس فقط ، وهو سيدهم ، إنما تكلم باسم الانصار جميعاً ، فهو يعرف مدى التفاعل والالتحام مع رسول الله ﷺ من الانصار كلهم ، ومن أجل هذا قال : ولاني أقول عن الانصار وأجيب عنهم :

فاظعن حيث شئت وبذلك نقل البيعة إلى كل مكان في الأرض خارج المدينة .

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر ٢٨٧ / ٧ برقم ٣٩٥٢ من صحيح البخاري .

وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت .

فأكَد البيعة على حرب الأحمر والأسود من الناس .

وخذ من أموالنا ما شئت ، واعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت .

فليست البيعة إلا على نهكة الأموال وقتل الأشراف ليس في يثرب فقط . ولو كان في أقصى اليمن :

( وما أمرت فيه من أمر فامرنا تبع لامرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من عُمдан لتسيرن معك ) .

ولو كان في لحج البحار .

والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تختلف مثاً رجل واحد .

أى ثقة هذه ؟ وأى زعامة هذه أن يتكلم باسم قومه جمِيعاً أو سهم وخزرجهم ، ولا يستثنى فرداً واحداً من هذه الروح الفدائِيَّة العالية ؟ !

ويشير <sup>كتاب الله</sup> من جانب آخر - إلى أن هذا الكلام ليس كلام الأغْرَار أو المندفعين . إنه كلام أبناء الحرب الذين اصطلوا بنارها وخاصبوا غمراتها . وليس يوم بعث عنهم بعيد ، ولكن الفرق هائل وشاسع . كانوا هناك يذبحون بعضهم ويُكَاد يُفْنِي أولهم آخرهم ، وقد تحالفوا مع يهود ليقتلوا إخوانهم . أما اليوم فسعد بن معاذ ينطق باسم الحسين والحزين والفريقين - الأوس والخزرج - بين يدي سيدهم وحبيبهم وقادتهم محمد - عليه الصلاة والسلام - فهم : صُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء .

إنه الفخر العظيم الذي جاء في أوانه ، والذي نزل في مكانه .

والجواب ما ترى لا ما تسمع . (لعل الله يريك منا ما تقر به عينك) .

إنها التجربة الأولى للمواجهة ، والمحك الأول للنزال .

ويريد أن ينهى من نفس قائدِه - عليه الصلاة والسلام - أى أثر لتغيير القرار للظروف الجديدة . فيقول <sup>كتاب الله</sup> :

ولعلك خرجمت لأمر فأحدث الله غيره .

فسر بنا على بركة الله ، فتحن عن يمينك وعن شمالك ، وبين يديك وخلفك .

فعاد وأكَد أنه على خط إخوانه من المهاجرين الذي أعلنه المقداد حيث كرر كلماته :

ولا تكون كالذين قالوا لموسى : « فَادْهُبْ أَنْتَ وَرِبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّ هَاهُنَا قَاعِدُونَ »<sup>(١)</sup> ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم ما متبعون .

وفي مثل هذا الموقف ، يبدو أثر القادة التاريخيين في تكوين المعطفات الكبرى في القرارات الخامسة . لقد كان سعد رض قائداً تاريخياً فدائماً في سجل القادة الكبار . فهو الذي حقق في ظاهر الأمر المنعطف التاريخي من العير للتفير ، وبرأيه وبكلمته التي حدد بها موقف حزبه من الانصار تم اتخاذ القرار النبوى الحاسم الخالد .

« سيروا على بركة الله وأبشروا ، فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصائر القوم » .

فقد اختار رض - بعد كلمة سعد الخالدة باسم الانصار<sup>(٢)</sup> - التفير والواجهة حيث أكد - عليه الصلاة والسلام - أنه ( وكانه ينظر إلى مصائر القوم ) .

وكلمة سعد هي التي نقلت الجيش المسلم من الصورة الأولى :

« وَإِذْ يَعْدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوَكَةِ تَكُونُ لَكُمْ »<sup>(٣)</sup> إلى الصورة الجديدة من الاستعداد للبذل والموت والقتل في سبيل الله في ظل أي ظرف .

والله تعالى هو الذي شاء أن يجعل بدرًا فرقاناً في التاريخ ، لا غيرًا سلب وتغنم . والبشر ستار لقدر الله ، وسعد هو الذي مثل هذا الستار ، وقد هذه الأمة بهذا الاتجاه .

٤ - وفي مجال بروز القيادات الموهوبة العالمية نلحظ موقف نائب سيد الخزرج الحباب بن المنذر في مجريات المعركة :

حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل ، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح فيما رواه ابن إسحاق : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمتنلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي وال الحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأي وال Herb والمكيدة ». قال : يا رسول الله ليس هذا المنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم ،

(١) المائدة / ٢٤ .

(٢) تشير بعض الروايات التي روتها الإمام أحمد بسنده إلى أن سعد بن عبادة رض زعيم الخزرج تكلم وقال : والذي نفس بيده ، لو أمرتنا أن نخوضها البحر لاختضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغمام لفعلنا . لكن رواة السيرة مجتمعون على أن سعداً لم يحضر بدرًا؛ لأنَّه نهى وحيل بيده وبينها ، والاشتباه هو بين السعدين بالنسبة لهذه الكلمة .

(٣) الأنفال / ٧ .

فنزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرت بالرأي » .

وذكر ابن سعد أن جبريل نزل على النبي ﷺ فقال: الرأى ما أشار به الخبراب . فلthen كان سعد بن معاذ رضي الله عنه كتب الله على يديه أن يكون المنعطف التاريخي فى اتخاذ القرار . فقد كتب الله على يد الخبراب بن المنذر رضي الله عنه أن يكون المنعطف فى تغيير الخطة للمعركة ، وقدم خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة ، سرعان ما قبلها رسول الله - صلوات الله عليه .

وحين نتحدث عن التربية القيادية ، ونشهد عظمة التربية النبوية التي سرت في سعد ، فجعلته يتأنب أمام رسول الله ﷺ ، وأمام إخوانه من المهاجرين ، فلا يتقدم بالرأى ، ولا ينافس هؤلاء القوم حتى شعر بأن رسول الله ﷺ يطلب رأيه مباشرة ، فيتقدم للإجابة .

نشهد هنا كذلك عظمة التربية النبوية للقيادات في شخص الخبراب رضي الله عنه الذي تقدم هو الآن دون أن يطلب رأيه؛ ليعرض الخطة التي لديه ، لكن هذا تم بعد السؤال العظيم الذي قدمه بين يدي قائدته :

يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمتزلاً أنزلتكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى وال الحرب والمكيدة ؟

إن هذا السؤال ليشي بعظمة هذا الجوهر القيادي الفذ الذي يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم بين يدي قائدته . فإن كان الوحي هو الذي اختار هذا المنزل ، فلأنه يقدم فتقطع عنقه أحباب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة ، وإن كان الرأي البشري - فهو جذيلها المحرك - وعذيقها المرجب ، كما وصف نفسه فيما بعد رضي الله عنه .

إن هذه النفسية المبدعة التي تربت خلال هاتين المستتين عرفت أصول المشورة ، وأصول إبداء الرأى ، وأدركت مفهوم السمع والطاعة ، وأدركت مفهوم المناقشة ، ومفهوم عرض الرأى المعارض لرأى سيد ولد آدم - عليه الصلاة والسلام .

ومن الصعب جداً - مهما أفضنا في الحديث عن هذه العظمة - أن نتمكن من أن نعيش في هذا الجو النفسي الذي تمت فيه هذه الكلمة الخالدة في الاستئذان بعرض الرأى .

لقد تربت هذه النفسيات على أن تكون فاعلة إيجابية مبدعة ، وأين ؟ بين يدي

رسول رب العالمين ، فتعرض رأياً مخالفًا لرأيه . لكن تربت كذلك على خلع ذاتها والانتعاق من شخصها حين يكون الوحي الرباني هو الذي يحدد الموقف . وتبعد عظمة القيادة النبوية كذلك من سيد ولد آدم أن يستمع للخطة الجديدة ، ويؤكد ابتداء أن هذا الوقت هو وقت عرض الخطة الأولى ومناقشتها وتعديلها ، أو العدول عنها : « بل هو الرأي وال الحرب والمكيدة » .

ولم يتوان - عليه الصلاة والسلام - لحظة واحدة من الاستجابة لتغيير الخطة السابقة ، وتبني الخطة الجديدة المطروحة من جندي من جنوده ، أو قائد من قواده . بل جاء الوحي ليبارك هذه المبادرة ويدعو إلى الأخذ بها . حيث تقطع توبيفات العدو ، ويضطر إلى الاستسلام في النهاية لو استمرت الحرب .

( فنهض رسول الله ومن معه من الناس حتى إذا أتى أدنى ماءً من القوم نزل عليه نصف الليل ثم أمر بالقلب ففورت ، وبني حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملأه ماءً ، ثم قدروا فيه الآنية ) .

ونعود كذلك إلى خطة جديدة عرضها سعد - سيد الأولs - إضافة إلى خطة الحباب . فتحزن بين يدي خبراء الحرب ، وقادة الرأي وقادة المعارك في وقت واحد .

يقول سعد رسول الله :

يا رسول الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقي عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحبتنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلتحققت بمن ورائنا من قومنا . فلقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ، ما نحن بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويعاونونك معك .

هذا المستوى القيادي الذي نرى سعداً رسول الله فيه يُبَعِّدُ النظر ، ويقلب وجهاته ويحسب جميع الحسابات أحسنها وأسوأها . ويفكر بمواجهة كل موقف . و<sup>يُبَعِّدُ</sup> له عدوه هو الذي يمثل القيادة التاريخية الفذة كما ذكرنا من قبل . فليس القائد الذي يدمر أمتة بضموراته دون أن يعد للعدو حسابه ، بل القائد هو الذي يدرك كل الاحتمالات ، وبعد لكل احتمال موقفه المناسب .

فسعد رسول الله يدرك أن المسلمين ولو كان على رأسهم رسول الله رسول الله يمكن أن يهزموا في معركة من أهل الباطل ورجاله . ففي مثل هذه الحالة ، لابد من المحافظة على القائد الأعظم رسول الله في عريشه وغرفة قيادته يدير المعركة . ولا بد من إعداد البديل الجاهز وهو الطاقات الإسلامية الضخمة الموجودة في المدينة ، والتي وصفها سعد رسول الله

بقوله : ( ما نحن بأشد لك حبًا منهم ) .

فلم يأخذ الغرور فيمضي لينال من المقيمين في المدينة ، ويشهر بهم ، أو يلمز جانبيهم ، أو يغمس من قناتهم . بل قدّمهم لسيده – عليه الصلاة والسلام – أشد حبًا له ، وأشد وفاء له ، يجاهدون معه ، ويحملون الرأبة بعد هذا الجيل الفدائي كله .

فرغم كل حماس سعد رضي الله عنه واستعداده ليقذف بقومه في أتون الحرب وقلب الموت . لا يعفيه من المسؤولية أن يفكر بمصير الإسلام ورسول الإسلام بعد استشهاد هذا الجيل كله . فقدم هذه الخطة في المحافظة على القيادة في بناء العريش ، ووضع خطة التحرك في إعداد الركائب . ومتابعة معركة الثأر من الرديف الخلفي والجيش الثاني الذي يتبع المعركة من جديد في غير موازينها وغير نتائجها .

وكان من تمام الخطة الرديفة أن يكون أبو بكر الصديق رضي الله عنه الوزير الأول ، وسعد ابن معاذ الوزير الأول من الأنصار هما حرسا رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وهما بالتالي مع سيد القادة – عليه الصلاة والسلام – أصحاب القرار المناسب لكل طارئ فهم بمثابة رئاسة الأركان في الجيش . ولكن هذا لا يمنع هؤلاء الثلاثة وعلى رأسهم سيد الخلق – صلوات الله عليه – أن يمارسوا الجنديية المباشرة ، وال الحرب المباشرة بل يكونون أقرب ما يكونون إلى العدو عند التحام المعركة .

( فقد روى البيهقي عن علي رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله صلوات الله عليه وسلم وكان أشد الناس بأسا ) <sup>(١)</sup> .

وزاد في روایة : ( وما كان أقرب إلى المشركين منه ) <sup>(٢)</sup> .

وبالسرعة التي تم فيها تنفيذ الخطة الأولى تم تنفيذ الخطة الثانية :

( ثم بُني لرسول الله صلوات الله عليه وسلم عريش على تل مشرف على المعركة ، فكان فيه هو وأبو بكر وليس معهما غيرهما . وقام سعد بن معاذ رضي الله عنه على بابه متوكلاً بالسيف ، ومشى رسول الله صلوات الله عليه وسلم في موضع المعركة ، وجعل يشير بيده : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله » ، مما تعدد منهم أحد موضع إشارته ) . رواه الإمام أحمد ومسلم وغيرهما .

٥ - وبعد قرار المواجهة ، وتسويه الصنوف أصدر رسول الله صلوات الله عليه وسلم أوامره : « لا تقاتلوا حتى أوذنكم ، وإن كثبتم فارموهم بالنبال ، ولا تسلوا السيف حتى يغشوكم ، واستبقوا نبلكم » . وروى ابن إسحاق ، وابن المنذر ، عن حبان بن واسع بن حبان ،

(١) دلائل النبوة للبيهقي ت : د . عبد المعطي قلتعجي ٣ / ٧٠ .

عن أشياخ من قومه ؛ أن رسول الله ﷺ عدّ صفواف أصحابه يوم بدر، ورجع إلى العريش ، ثم اتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنياية النقع » ، وخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا فصل من الصف دعوا إلى المبارزة . فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار وهم: عوف ومعاذ ابننا الحارث ، وأمهما عفرا ، وعبد الله بن رواحة .

فهزلاء الأنصار يصدقون مقوله سيدهم سعد بن معاذ ، ومن اللحظة الأولى التي دعا فيها المشركون إلى المبارزة . كان هؤلاء الثلاثة جاهزين لها ، فانطلقوا كالسهم ، ووقفوا بين الصفين لمواجهة أكبر قادة الشرك - عتبة وشيبة والوليد .

وتعبة هو ابن الحرب المجرب ؛ إذ شارك في حرب الفجار قبل أربعين عاماً تقريباً، وهو الذي أنهاها بحكمته . ولا يقل أخوه شيبة خبرة عنه . والوليد كان كذلك في عرام الشباب، وأقرب إلى الكهولة منه إلى الفتوة. مع أن عتبة وشيبة كانوا ضد المواجهة، ودعا عتبة قريشا إلى الكف عن الحرب ، لكن أبا جهل أحفظه واتهمه بالجبن ، فغضب وخرج مع أخيه وابنه يتحدى الله ورسوله ، ويطلب المبارزة . ولطالما اعتد بقوته مع أخيه شيبة . فدعا عليه رسول الله ﷺ كما روى البخاري عن ابن مسعود ، قال :

(استقبل النبي ﷺ الكعبة ، فدعا على نفر من قريش : على شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبا جهل بن هشام ، فأشهد بالله لقد رأيتم صرعي قد غيرتهم الشمس ، وكان يوماً حاراً) (١) .

لم يكن عتبة وأخوه وابنه أعداء ألداء للإسلام، بمقدار ما كانوا عبيداً للزعامه والشهرة ، ولطالما دعا عتبة إلى الكف عن مواجهة الرسول ﷺ ، وذلك في الأيام الأولى للإسلام حين سمع القرآن فقال :

ورأى أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معاشر قريش، أطیعونی واجعلوها بی ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتهم بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملکه ملککم ، وعزه عزکم ، وكتنم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال: هذارأىي فاصنعوا فيه ما بدا لكم (٢) .

وفي يوم بدر إذ خطب في قومه فقال :

(١) البخاري برقم ٣٩٦٠ في فتح الباري ٧/٢٩٣ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

يا معاشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه ذلك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك الفاكم ولم تعرضا منه ما تربدون<sup>(١)</sup> .

وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ عند عرض رأيه هذا : « إن يكن في أحد من القوم خير ، فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا »<sup>(٢)</sup> ولم يكن عند أحدٍ من القوم خير .

فها هو عتبة حين يستثيره أبو جهل ويتهمه بالجن ، يندفع مع أخيه وابنه ليقاتل محمداً ابن عمه .

فكلامها من بني عبد مناف ، ويكون أول المتحدين والداعين للمبارزة . ويأنف من أن يiarz الانصار فيقول : أفاء كرام ما لنا بكم من حاجة وينادي : يا محمد ، أخرج لنا أفاءانا من قومنا .

وطالما أن الأمر تبلور بهذه الصيغة ، وأصرّ عتبة وابنه وأخوه على المواجهة ، فليقدم رسول الله ﷺ قرة عينه ، وقلذة كبده : حمزة وعيادة وعلى ، فهم ذاته الشريفة ليقدمهم طعمة للموت ، ووقوداً للمعركة .

نادى رسول الله ﷺ الفدائين الثلاثة ابني عفرا وشاعره ابن رواحة قائلاً : « ارجعوا إلى مصافكم ، وليقهم بنو عمهم » .

قال ابن إسحاق : فقال رسول الله ﷺ : « قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا على ، فقاتلوا بحقكم الذي بعث به نبيكم إذ جاؤوا بياطفهم ليطفئوا نور الله » .

هؤلاء الذين ادخرهم رسول الله ﷺ مثل هذا الموطن بعد صبر ثلاثة عشر عاماً وهو يكفهم ويعنفهم عن المواجهة . أما الآن ، وقد تميزت المعركة ، وتميز الصف بين العصابة المسلمة التي تمثل الحق في هذا الوجود ، وبين قريش التي خرجت بخيالها وخيانتها تحاد الله وتکذب رسوله ، ول يكن اللقاء الأول ، والمبارزة الأولى بين أبناء العم من بني عبد مناف ، وبين أبناء العم من بني هاشم ومن بني أمية ، ابني عبد مناف .

ها هو على<sup>٣</sup> الطفل ابن الثامنة من عمره ، هو الآن وقد غدا ابن اثنى وعشرين ربيعاً يقف ليواجه بطل بنى أمية الوليد بن عتبة ، ويقف القرآن الكبيران حمزة وشيبة ، وشيخاً بنى هاشم وبين أمية عتبة بن ربيعة وعيادة بن الحارث يتصاولان .

(٢) المصدر السابق ٣١٦/٢ .

(١) المصدر السابق ٣١٦/٢ .

( وأما على فلم يمهد الوليد أن قتله ، وأما حمزة فلم يمهد شيئاً أن قتله ، وانختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وضرب عتبة رجلاً عبيدة فقطعها . وكر حمزة وعلى بأسيافهم على عتبة فدفقاً عليه ، واحتلما صاحبها فجاءه إلى أصحابه ) .

الجيشان تعلقت أنظارهم بأبطال الساحة ، وانكشفت الساحة عن قادة بنى أمية الثلاثة صرعى في العراء . بينما عاد بنو عمهم مكللين بالنصر .

وتشهد السموات العلى هذه المبارزة بين بنى العم وأبناء العشيرة الواحدة في هذه البقعة القصبة النائية من الأرض ، فيجعل الله تعالى هذه المبارزة رمزاً للإسلام والكفر في الأرض ، ويترتب قول الله عز وجل :

﴿ هَذَا نَحْسُنَاءِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعْتَ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَارٍ يُصَبَّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْعَمِيمِ . يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجَلُودِ . وَلَهُمْ مَقَامٌ مِّنْ حَدِيدٍ . كُلُّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمَرٍ أَعْيَدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَبِأَسْهَمِهِمْ فِيهَا حَرَيرٌ . وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْعَمِيمِ ﴾ (١) .

إذا بعى رسول الله الذي كان في الظل في مكة يبرز على اعتاب بدر مع حمزة وعبيدة ليمثلوا أشرف معركة وأشرف مقاتلين في الوجود حتى ليقول على - رضوان الله عليه - :

( أنا أول من يجتو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيمة ) . ( وقال قيس بن عباد : وفيهم أنزلت : ﴿ هَذَا نَحْسُنَاءِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعيادة بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ) (٢) . ( وقال على رسول الله : فيما نزلت هذه الآية : ﴿ هَذَا نَحْسُنَاءِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ . . . ) (٣) . ويقول قيس بن عباد : ( سمعت أبا ذر يقسم قسمًا إن هذه الآية : ﴿ هَذَا نَحْسُنَاءِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ نزلت في الذين بارزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعيادة بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة ) (٤) .

على رسول الله الفتى الصغير . والذى أسعده الله تعالى بأن يتلقى التربية النبوية المباشرة

(١) الحج / ١٩ - ٢٤ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧ / ٢٩٦ ح (٣٩٦٥) .

(٣) المصدر نفسه رقم ٣٩٦٧ .

(٤) المصدر نفسه رقم ٣٩٦٩ .

في بيت النبوة . والذى مثل قمة التربة فى كف اليد خلال العهد المكى ، ما هو الآن يمثل إطلاق اليد ، واستفراغ الطاقات فى بدر . ولنر ما فعل فى أول فرصة أتيح له فيها أن تُنجز طاقاته .

( قال أبو عمر : ومن مشاهير القتلى : حنظلة بن أبي سفيان بن حرب قتله زيد ابن حارثة ، وعبيدة بن سعيد بن العاص قتله الزبير بن العوام ، وأخوه العاص بن سعيد قتله على - وقيل : غيره - وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة قتلهم حمزة وعبيدة وعلى كما تقدم ، وعقبة بن أبي معيط قتله عاصم بن ثابت صبراً بالسيف - وقيل : بل على بأمر رسول الله ﷺ بذلك - والحارث بن عامر بن نوفل قتله على - وطعيمة بن عدى قتلها حمزة - وقيل : بل قتل صبراً والأول أشهر - وزمعة بن الأسود بن المطلب ، وابنه الحارث بن زمعة وأخوه عقيل بن الأسود ، وأبو البخترى بن هشام ، وتقدم الخلاف فى قاتله من هو ، ونوفل بن خويلد بن أسد قتلها على - وقيل الزبير - والنضر بن الحارث قتل صبراً بالصفراء ، وعمير بن عثمان عم طلحة قتلها على بن أبي طالب ، وأبو قيس بن الوليد أخو خالد بن الوليد قتلها على عليه السلام ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة قتلها حمزة بن عبد المطلب ، والسائب بن السائب قتلها الزبير بن العوام ) <sup>(١)</sup> .

لقد كان عدد المشاهير المذكورين هنا عشرين من صناديدهم . وحين نضيف إليهم أبا جهل بن هشام وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا العجاج . يصل العدد إلى أربع وعشرين من صناديدهم سقطوا قتلى فى هذه المعركة . قتل منهم على وحده فيما روى عنه <sup>رسول الله</sup> ربعم ، وهم :

- ٢ - الوليد بن عتبة .
- ٤ - الحارث بن عامر بن نوفل .
- ٦ - عمير بن عثمان .
- ٥ - نوفل بن خويلد .
- ٧ - مسعود بن أبي أمية المخزومي .
- ٨ - أبو قيس بن الوليد .

وبتحليل هؤلاء الثمانية نلاحظ أنهم أقرب الناس رحماً على <sup>رسول الله</sup> فمن بنى أمية فقط فرع بنى عبد مناف ثلاثة ، والرابع من بنى نوفل ، الفرع الثاني من بنى عبد مناف وهم : ( الوليد وعتبة والعاص بن سعيد والحارث بن عامر بن نوفل ) واثنان من بنى مخزوم هما : مسعود بن أبي أمية وأبو قيس بن الوليد وعبدالرئي وأسدى . . كما قتل

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢ / ١١٦ .

حمزة من هؤلاء الصناديد أربعة كبار . ولم يعد رسول الله ﷺ بحاجة إلى الحزب الهاشمي (غير المسلم) الذي قاد المعركة في مكة بزعامة أبي طالب ، بل يقود المعركة اليوم (الحزب المسلم) وعلى رأسه ابن أبي طالب ، على وأخوه حمزة وتقر عين أبي طالب بهؤلاء الأبطال ولده وأخيه مصداقاً لقوله :

كذبتم وبيت الله نخلع محمداً  
ولما نطاعن دونه ونناضل

وتقر عين أبي طالب بعيدة بن الحارث ابن عمه الذي استشهد مصداقاً لقول أبي طالب :

ونسلمه حتى نصرع حوله  
ونذهب عن أبنائنا والخلاف

لقد انتهى دور الحزب الهاشمي بمكة ، وجاء دور الحزب المحمدى بالمدينة بفروعه الثلاثة المهاجرين والأوس والخزرج مصداقاً لقول أبي طالب :

وينهض قوم في الحديد إليكم  
نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

وحتى يرى ذا الضغفن يركب درعه  
من الطعن فعل الانكب المتحامل

وتقر عين أبي طالب بسقوط الأعداء الأداء جميعاً صرعي على يد الحزب المحمدى  
وعلى رأسه أسداً بنى هاشم حمزة وعلى .

روى البزار والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما جيء بأبي جهل يجر إلى القليب . قال رسول الله ﷺ :

« لو كان أبو طالب حياً لعلم أن أسيافنا قد التبست بالأمثال » .

ولذلك يقول أبو طالب :

ولانا لعمرو الله إن جد ما أرى  
لتلتبسن أسيافنا بالأمثال

هؤلاء الأمثال ، وهؤلاء الملاّهم الآن الذين اختلطت أسياف المسلمين وأسياف ملائكة الرحمن برقبتهم ، وهم يجرون اليوم إلى القليب صرعي ، لا حول لهم ولا طول . كما روى الإمام أحمد برقان ثقات عن عائشة - رضي الله عنها - : ( أن رسول الله ﷺ كان يريهم مصارع أهل بدر بالأمس يقول : « هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله - ووضع يده بالأرض - وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله » ) .

قال عمر : ( فوالذي بعثه بالحق ما أخطئوا الحدود التي حدتها رسول الله ﷺ  
وجعلوا يُصرعون عليها فجعلوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث بعضهم على بعض ) .

قال أبو طلحة : وكانوا بضعة - وفي رواية : أربعة - وعشرين رجلاً ) (١) .

هؤلاء الأربعه والعشرون قتل نصفهم أسدًا بنى هاشم حمزة وعلى . وقتل الزبير ابن العوام رضي الله عنه قريبه السادس بن الساب ، وعبيدة بن سعيد بن العاص . وقتل الأنصار باقيهم .

٦ - وهكذا سقطت قيادة بنى أمية ، أما قيادة بنى مخزوم والتي يمثلها أبو جهل بن هشام ، فشاءت إرادة الله - عز وجل - أن يُقتل على يدى الأنصار ليكون ذلك غصة في حلقة . وأن يكون مقتله على يد فتیان صغار احتقاراً لشأنه ، فيعرض بريقه ويتحسر قائلاً : لو غير أكار ) (٢) قتلنى ، ويقول : لقد ارتقى مرتفعاً صعباً يا رويعي الغنم .

ويشهد وهو في التزع الأخير الغلبة لله ولرسوله ، ويشهد قتله من ابن مسعود .

قال القاضى : إن ابن مسعود إنما جعل رجله على عنق أبي جهل ليصدق رؤياه . فإن ابن قتيبة ذكر أن أبو جهل قال لابن مسعود : لا قتلتني . فقال : والله لقد رأيت في النوم أنني أخذت حدة حنظل فوضعتها بين كتفيك بمنعلى ، ولوشن صدق رؤيائى لاطأن رقبتك ، ولاذبحتك ذبiqu الشاة ) (٣) .

ويكفى أن نعلم أنه فرعون هذه الأمة وقتل ييد فتیانها ، وشارك في قتله ملائكة السماء بعد أن أقسم قائلاً :

والله لا نرجع حتى نرد بدرأ ، فتقيم عليه ثلاثة ، فتحر الجزر ، ونظم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمتنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ، فامضوا ) (٤) .

فقد روى ابن عائذ عن قتادة ؛ أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قال : « إن لكل أمة فرعوناً ، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل ، قتله شر قتلة ، قتله أبا عفرا ، وقتلته الملائكة ، وتدافه ابن مسعود » .

فيه شر قتلة ، حيث تأتي ملائكة السماء فقتله غضباً لله ولرسوله . وحمية لسيد الخلق - عليه الصلاة والسلام - وإذا أبا عفرا اللذين فاتهما شرف قتل عتبة وشيبة يكرههما الله تعالى بقتل شر منها وهو أبو جهل ، وإذا ابن مسعود الذي كان يُضرب حتى ليغشى عليه من أبي جهل وأذنابه هو اليوم يطأ رقبة عدو الله ويجهز عليه ، ويرمى رأسه بين يدي رسول الله صلوات الله عليه وسلم .

(١) سيل الهدى والرشاد للصالحي / ٢ / ٨٤ عن الإمام أحمد ١/٢٦ .

(٢) الأكار : المزارع ، يعني بهم الأنصار .

(٣) سيل الهدى والرشاد / ٤ / ٧٩ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٣١٠ .

ولن يتنهى دوره مع ملائكة السماء بمقتله . بل يبدأ دوره بمقتله .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَعْوَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ أَنْذِيْكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبْدِ . كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخْذَهُمُ اللَّهُ بِمَا تُوْبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) .

فمن آل فرعون إلى فرعون هذه الأمة نستمع مصداق هذه الآية كما روى الطبراني وغيره . عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : بينما أنا سائر بجنبات بدر إذ خرج رجل من حفرة في عنقه سلسلة فنادني : يا عبد الله ، اسقني . فلا أدري : عرف اسمى أو دعاني بدعاية العرب ، وخرج رجل من تلك الحفرة في يده سوط فنادني : يا عبد الله ، لا تسقه فإنه كافر ، ثم ضربه بالسوط فعاد إلى حفرته ، فأتتني الشبى بِكَلِيلِهِ مسرعاً فأخبرته فقال لي :

« قد رأيته ؟ ! » قلت : نعم . قال : « ذاك عدو الله أبو جهل ، وذاك عذابه إلى يوم القيمة » (٢) .

ومن هذه الانتقامات التي شهدنا بها بروز الطاقات العسكرية والسياسية القيادية الشبابية ننتقل إلى التربية أثناء المعركة في انتقامات جديدة .

(١) الأنفال / ٥٠ - ٥٢ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٤ / ٨٠ .

## التربية أثناء المعركة

١ - الراكبون الثلاثة :

وروى الإمام أحمد وابن سعد، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :  
كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير . وكان أبو لبابة وعلى زميلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
وكان إذا كانت عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالا : اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك .  
فيقول : « ما أنتما بأقوى مني على المشي ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما » (١) .

قال في العيون : وهذا قبل أن يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو لبابة من الروحاء ، ثم كان زميلا عليه وزيدا . وقال ابن عقبة وابن إسحاق والذهبي وابن القيم : كان زميلا مرثد بن أبي مرثد الغنوبي وعليه ، وجعلوا زيدا مع حمزة .

فالقائد القدوة الذي يسوى نفسه مع جنده في تحمل المشاق يدفعهم إلى التفاني بين يديه ، والزود عنه بالأرواح والأحداق والمهج ؛ ولهذا كان جوابه - عليه الصلاة والسلام - حين عرض عليه أن يكف عن المشي وهو ابن الخامسة والخمسين ما كان جوابه إلا أن قال : « ما أنتما بأقوى مني على المشي » .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فلابد أن يشحد عزمها على متابعة المسير وتعاقبه على هذا البعير، وأن هذا الأمر يرافقه أجر الله تعالى وذرره مع كل خطوة. وحتى يطامن من نفسيات هذا الجيل ويخفف من غلوائهم ، ولا عجب أن ينالهم ذلك الاعتزاز ، ورسول رب العالمين بين ظهرانيهم يقودهم ليؤكد لهم فقره إلى الأجر كفقرهم إليه . وبذلك تخلص النية ، وتخلص النفس من حظوظها : « وما أنا بأغنى عن الأجر منكما » .

ومَنْ هذَا فِي الْأَجْرِ ، وَرَسُولُ اللهِ يُحرِّصُ عَلَيْهِ ؟ ! فَهُوَ كُمَنْ  
وَضَعُفَ فِي أَعْمَاقِهِمْ مِرْجَلَ طَاقَةَ تَنْدُفُ وَتَجْلِبُ الْأَجْرَ ، وَتَسْعَى وَرَاءَ مَرْضَاهُ اللَّهُ  
فَقَطْ دُونَ أَيِّ شَيْءٍ أَخْرَى .

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ٦٩ / ٦ وقال فيه : « رواه أحمد والبزار ، وفيه عاصم بن بهلة وحديثه حسن ، وبيبة رجال أحمد رجال الصحيح » .

٢ - ما يضحك رب من عبده :

وأصبح القوم وكأنهم يعيشون مع الله . فهذا عوف بن الحارث رضي الله عنه ابن عفرا  
يشغل باله مرضاه ربه ، فيسأل الحبيب المصطفى قائلاً :

يشغل باله مرضاه ربه ، فيسأل الحبيب المصطفى قائلاً :

يا رسول الله ، ما يضحك رب من عبده ؟ قال : « غممه بيده في العدو  
حساماً » .

فترع درعاً كانت عليه فاللقاها ثم أخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل رضي الله عنه .

لقد نزعوا من قلوبهم كل ارتباط بهذه الدنيا الفانية ، وتوجهوا بهذه القلوب إلى  
الرب سبحانه يتسبقون في مرضاته ، بعد أن كان جل همم أن تتحدى الأبرار عن  
بطولاتهم ، ويرضى سيد القبيلة عنهم ، وتشد الأشعار في شجاعتهم .

٣ - ركضاً إلى الله :

ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض ، فخرج رسول الله صلوات الله عليه وسلم إلى الناس  
فحرّضهم فقال : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، والذى نفسي بيده لا  
يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » . فقال -  
كما في صحيح مسلم وغيره - عمير بن الحمام أخوه بنى سلمة وفي يده ثمرات يأكلهن :  
بنج بنج يا رسول الله ، عرضها السموات والأرض ؟ ! قال : « نعم » . قال : أقما بيني  
وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ (وفي رواية قال : لش حيت حتى أكل ثمراتي هذه  
إنها حياة طويلة ) .

ثم قذف الثمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل<sup>(١)</sup> . وذكر ابن جرير  
أن عميراً قال وهو يقاتل :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاذ

غير التقى والبر والرشاد

قال ابن عقبة : فكان أول قتيل قتل من المسلمين . وقال ابن سعد : مهجع مولى  
عمر بن الخطاب .

(١) صحيح مسلم ١٥٠٩/٣ ، ١٥١٠ ، حديث رقم (١٩٠١) بتحقيق فؤاد عبد الباقي .

#### ٤ - رسول الله أول المقاتلين :

روى ابن سعد والفراء عن علي رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر وحضر البأس أمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتقينا به ، وكان أشد الناس بأساً يومئذ ، وما كان أحد أقرب إلى المشركين منه . وروى الإمام أحمد بلفظ : لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانية بلفظ : كنا إذا حمى البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

#### ٥ - رسول الله أول المستغاثين :

قال ابن إسحاق : ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العريش ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليس معه غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد ربه ما وعده من النصر ، يقول فيما يقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض » .

وأبو بكر رضي الله عنه يقول : يا رسول الله ، بعض مناشدتك لربك فإن الله منجز لك ما وعدك .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أيوب الأنباري رضي الله عنه أن عبد الله بن رواحة قال : يا رسول الله ، إنني أريد أنأشير عليك - ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من أن يشار عليه - إن الله تبارك وتعالى أجل وأعظم من أن ينشد وعده . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بن رواحة ، لأنشدن الله وعده إن الله لا يخلف الميعاد » .

وروى ابن سعد وابن جرير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال ، ثم جئت مسرعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنظر ما فعل فإذا هو ساجد يقول : « يا حي يا قيوم » لا يزيد عليهما ، ثم رجعت إلى القتال ، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك ، ثم ذهبت إلى القتال ، ثم رجعت وهو ساجد يقول ذلك . ففتح الله عليه .

وروى البيهقي بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما سمعت مناشداً ينشد مقالة أشد مناشدة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه يوم بدر . جعل يقول : « اللهم إنني أنشدك عهديك ووعديك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد» . ثم التفت كأن وجهه شقة قمر فقال : « كأنني أنظر إلى مصارع القوم العشية » .

وروى البيهقي عن ابن عباس وحكيم بن حزام وإبراهيم التيمي قالوا : لما حضر القتال رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه يسأل الله النصر وما وعده ويقول : « اللهم إن ظهروا

(١) رواية الإمام أحمد في المسند ٢٢٨/٢ . وقال أحمد شاكر : صحيح . عن السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري .

على هذه العصابة ظهر الشرك وما يقوم لك دين ». وأبو بكر يقول له : والله لينصرنـك الله ، ولـيـبـيـضـنـ وجهـكـ ، وخفـقـ رسولـ اللهـ خـفـقةـ وهوـ فيـ العـرـيـشـ ثمـ اـتـهـ . فأـنـزـلـ اللهـ - عـزـ وجـلـ - أـلـفـاـ منـ المـلـاـثـكـةـ مـرـدـفـيـنـ عـنـ أـكـنـافـ الـعـدـوـ ، وـقـالـ رسولـ اللهـ : أـبـشـرـ يـاـ أـبـاـ بـكـرـ ، هـذـاـ جـبـرـيـلـ مـتـعـمـ بـعـمـامـ صـفـرـاءـ آخـذـ بـعـنـانـ فـرـسـهـ بـيـنـ السـمـاءـ والـأـرـضـ ، فـلـمـ نـزـلـ إـلـىـ الـأـرـضـ تـغـيـبـ عـنـ سـاعـةـ ثـمـ طـلـعـ عـلـىـ ثـنـيـاهـ النـقـعـ بـقـوـلـهـ : أـتـاكـ نـصـرـ اللهـ إـذـ دـعـوـتـهـ ».

وروى ابن أبي شيبة والإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وغيرهم عن عمر ابن الخطاب رض قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صل إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثة وسبعين شرعاً . فاستقبل نبي الله القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه يقول : « اللهم أخـزـ لـىـ مـاـ وـعـدـتـنـىـ ، اللـهـمـ آتـنـىـ مـاـ وـعـدـتـنـىـ ، اللـهـمـ إـنـ تـهـلـكـ هـذـهـ العـصـابـةـ مـنـ أـهـلـ الـإـسـلـامـ لـاـ تـعـبـدـ فـيـ الـأـرـضـ » . فـمـاـ زـالـ يـهـتـفـ بـرـبـهـ مـاـ دـيـهـ مـسـتـقـبـلـ القـبـلـةـ حـتـىـ سـقـطـ رـدـاـوـهـ عـنـ مـنـكـيـهـ . فـأـتـاهـ أـبـوـ بـكـرـ ، فـأـخـذـ رـدـاـءـهـ وـالـقـاهـ عـلـىـ مـنـكـيـهـ ، ثـمـ التـزـمـهـ مـنـ رـدـاـنـهـ فـقـالـ : يـاـ نـبـيـ اللـهـ كـفـاـكـ تـنـاشـدـ رـبـكـ فـإـنـ سـيـنجـزـ لـكـ مـاـ وـعـدـكـ . فأـنـزـلـ اللهـ عـزـ وجـلـ : « إـذـ تـسـتـغـيـثـونـ رـبـكـمـ فـاسـتـجـابـ لـكـمـ آتـيـ مـعـدـكـمـ بـأـلـفـ مـرـدـفـيـنـ مـرـدـفـيـنـ » (١) فـأـمـدـهـ اللهـ تـعـالـىـ بـمـلـاتـكـتـهـ .

وروى البخارى والنسائى وابن المنذر عن ابن عباس : (أن رسول الله صل قال وهو في قبة بدر : « اللهم إنى أنشدك عهـدـكـ وـوـعـدـكـ ، اللـهـمـ إـنـ تـشـأـ لـاـ تـعـبـ بـعـدـ الـيـومـ » فـأـخـذـ أـبـوـ بـكـرـ بـيـدـهـ فـقـالـ : حـسـبـكـ يـاـ رـسـولـ اللـهـ ، لـقـدـ الـحـتـ عـلـىـ رـبـكـ ، فـخـرـجـ وـهـ يـثـبـ فـيـ الدـرـعـ وـهـ يـقـولـ : « سـيـهـزـ الـجـمـعـ وـيـوـلـونـ الدـبـرـ » (٢) (٣) .

لقد كانت الاستغاثة النبوية ذات أثر ضخم جداً لدى هذه العصابة المسلمة ، فالأول مرة وفي أضخم لقاء بين الكفر والإيمان حتى الآن نجد رسول الله صل يلح في الدعاء والاستغاثة . كما قال ابن مسعود رض : ( ما سمعت مناشداً ينشد حقاً له أشد من مناشدة النبي صل يوم بدر . . . . ) (٤) .

وحين يشهد المسلمين قائدهم - سيد الخلق - يخر ساجداً بين يدي رب الخلق يناجيه : « يـاـ حـىـ يـاـ قـيـوـمـ » وـيـشـهـدـونـهـ وـقـدـ سـقـطـ رـدـاـوـهـ عـنـ كـتـفـيـهـ ، وـهـوـ يـدـعـوـ وـيـلـحـ فـيـ الدـعـاءـ ، وـيـتـضـرـعـ وـيـكـثـرـ مـنـ التـضـرـعـ ، تـرـتـفـعـ مـعـانـيـ الإـيمـانـ فـيـ قـلـوبـهـ بـصـورـةـ فـرـيدةـ تعـجزـ أـىـ صـيـفةـ فـيـ التـرـبـيـةـ عـنـ تـحـقـيقـهاـ .

(١) الأنفال / ٩ .

(٢) القراء / ٤٥ .

(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٣ / ٥٠ وسنده حسن .

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٤ / ٦٠ .

أـ إن معنى التوحيد الحالص ليتمحص فى قلوبهم ، بحيث لا تشوبه أدنى ذرة من شوائب الشرك ، فرسول رب العالمين ، وإمام المرسلين والمصطفى المختار هو عبد الله لا يملك ضرًا ولا نفعاً ، ولا نصراً ولا موتاً ، ولا حياة ولا نشوراً . هو فى أعلى مقامات العبودية والرجاء فى هذا الوجود . وهذا يعني: أنه عبد خلق الله لله ، وأذل خلق الله إلى الله ، وكلما ارتفع فى مقام العبودية الحالصة ، كلما زاد عند الله سمواً ورفعه وعلاه؛ لأن قلبه الشريف قد تمحض فى الرجاء لله وحده ، والخضوع لله وحده ، والخوف من الله وحده .

وأى حديث نظرى عن التوحيد لو كتبت به المجلدات الكبار هو أعجز من أن يتحقق - فى عالم البناء القلبى - شيئاً أمام هذا المنظر المتفرد فى الوجود لسيد الخلق بين يدى خالقه وبيارته ومصوريه ، وحين يرى أهل بدر هذا التصرع والتذلل والخشوع ، تخفق قلوبهم بالتوحيد الحالص والعبودية الحالصة ، والرجاء الحالص لله سبحانه ، وبهذا البناء يتشارون بعد ذلك فى آفاق الأرض يفتحون ويحكمون ويملكون ، فلا يطيرهم الحكم ولا يغفهم الملك ، ولا تستبد بهم الشهوات . إنهم وهم يقهرون الجيوش الحرارة يذكرون يوم بدر وضراوة نبيهم الله أن ينزل نصره ، وينجز وعده ، ويعلمون أن هذا النصر الذى حققوه هو من الله وحده واهب النصر ، وحين تصبح رقاب الخلق بيدهم ، ومصائرهم تحت حكمهم ، لا يمكن أن يصيبهم البطر والأشر والكبير ، وقد تربوا فى هذه المدرسة النبوية التى جعلت قلوبهم محضة العبودية لله ، فلا يظلمون ، ولا يسفكون دمًا حراماً ، ولا يأكلون درهماً حراماً؛ لأن الله تعالى معهم فى قلوبهم ووجوداتهم ، وفي كل ذرة من ذات كيانهم ، إلا إن أعلى قمة من قمم التربية تلقاها هذا الجيل الفريد ، وهو يشهد قائده وسيده قد خرّ ساجداً لله يدعوه ، ويشهد قائده وسيده يناجي ربه حتى ليسقط الرداء عن كتفه . وهو ينشد ربه نصره الذى وعده .

فمن أين لاي تربية فى هذا الوجود أن تبلغ عشر معشار ما تبلغه هذه الصورة الحية الحالدة فى تاريخ البشرية !؟

بـ ومن جهة ثانية يشهد هذا الجيل فى هذه اللحظات الحالدة من تاريخ البشرية مدى الأمانة الملقاة على عاتقه ، وجسامته المسؤولية المناطة به ، وخطورة المهمة التى حملها من رب العالمين وهو يسمع نبيه يناجي الرب - جل وعلا - بقوله : « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض » .

فهم إذن أمناء الله على الأرض كلها أن تتحقق بهم العبودية فيها لله سبحانه ، وهم حملة هذه الرسالة إلى كل صدق؛ لينقلوا العباد جميعاً من عبودية العباد إلى عبودية

الله، وهم ستار لقدر الله سبحانه في الانتقال بهذا الدين إلى كل بادٍ وحاضرٍ؛ ليعلموا البشر مفهوم العبودية الخالصة لله . فليسوا هم إذن طلاب غنية ولا نشاد قافلة ، ولا حالي مجد تعزف عليهم القيان ويتحدى العرب بنصرهم العتيد .

إن جيش الباطل في هذا الوجود يعلن هدفه من النصر لو تحقق :

والله لن نرجع حتى نرد بدرًا ، فتقيم فيها ثلاثة أيام ، نشرب الخمور ، وتعرف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا .

أما جيش الحق في هذا الوجود فيعلن هدفه . أن يعبد الأرض كلها بأهلها وبين فيها الله : « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض » .

جـ- ومن جهة ثالثة يحس هذا الجيل الفريد إحساساً مباشراً ، وليس فكرة نظرية بحثة ، يحس هذا الجيل بمدى حب رسول الله ﷺ له ، وبمدى حدب قائدته عليه ، وبمدى حرص محمد ﷺ القائد المقدى على سلامته ، فلا غرو أن يتفاعل حب رسول الله ﷺ في قلبه أكثر وأكثر . وبذلك يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . لكن مع الفصل الكامل بين حب الرب سبحانه المفرد بالالوهية والربوبية ، وحب رسول الله ﷺ عبد الله ورسوله ومصطفاه من خلقه .

إن الحب البشري هو الذي يدفع إلى هذا الاختلاط ، ويدفع إلى الوثنية . الحب الأعمى الذي يجعل كثيراً من الناس يرتفعون من يحبونهم إلى مقام الآلهة ، ويعطونهم صفاتهم ، ويعبدونهم من دون الله ، وينسون بذلك دينهم وتنطمس عقيدتهم .  
﴿ اتَّخَذُوا أَحْجَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْتَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (١) .  
﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (٢) .

أما هذا الحب في هذا المقام لرسول الله ﷺ ، فمهما علا ، ومهما سما ، ومهما رسمخ ، يبقى حبًا لا يعطيه ذرة ولا صفة ولا شبيهة من التالية والوثنية والتبعيد له . وهذه عظمة هذه التربية التي تفرد فيها هذا الجيل ، وهو يُرعى من رسول الله ﷺ في كل خطوة من خطواته وفي كل خفقة من خفقات قلبه .

دـ- ولنجد من جهة رابعة ثقة هذه الأمة بنتيّها المصطفى والتي تمثلت في قول الصديق رضي الله عنه لل المصطفى عليه السلام :

(٢) التوبة / ٣٠ .

(١) التوبة / ٣١ .

( بعض مناشدتك لربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك ) .

( والله لينصرنـك الله ، ولـيـيـضـن وجهـك ) .

لقد كان أبو بكر رضي الله عنه يمثل هذه الأمة كلها ، ويعلن ثقته المطلقة بالنبي المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله تعالى منجز وعده له ، ومتزل نصره .

فهي الثقة بصدق النبي والثقة بالرسالة العظيمة لهذا الرسول . والثقة بأنه النبي الحق المجتبى من الله سبحانه ، وأى مكان أعظم من هذا المكان ؟ وأى موقف أعظم من هذا الموقف يحسن أن تترجم هذه الثقة في الحبيب المصطفى منه ؟

هـ - ومن مـنـةـ الـعـلـىـ - سبحانـهـ - فـىـ هـذـهـ الـاستـغـاثـةـ أـنـ جـاءـ التـعـبـيرـ الـقـرـآنـىـ عـنـهـ بـصـيـغـةـ الـجـمـعـ لـاـ بـصـيـغـةـ الـمـفـرـدـ ، رـغـمـ أـنـ كـلـ روـاـيـاتـ السـيـرـةـ تـشـيرـ إـلـىـ أـنـ الـمـسـتـغـيـثـ هـوـ الرـسـوـلـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لـكـنـهـ بـمـثـلـ هـذـهـ الـأـمـةـ فـهـوـ مـنـ أـنـفـسـهـاـ ، وـهـوـ مـنـهـاـ ؛ وـلـهـذـاـ جـاءـ التـعـبـيرـ الـقـرـآنـىـ الـخـالـدـ : «إـذـ تـسـتـغـاثـونـ رـبـكـمـ فـأـسـتـجـابـ لـكـمـ أـنـيـ مـدـدـكـمـ بـأـلـفـ مـنـ الـمـلـائـكـةـ مـوـدـفـيـنـ» (١) .

وـتـعـلـمـ هـذـهـ الـأـمـةـ أـنـ رـسـوـلـ اللهـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هوـ الـذـىـ يـمـثـلـهـاـ ، وـهـوـ الـذـىـ يـخـفـقـ بـقـلـوبـهـاـ ، وـيـحـسـ بـوـجـانـهـاـ ، وـيـنـطـقـ بـاسـمـهـاـ ، وـيـمـثـلـ ذـاتـهـاـ وـكـيـانـهـاـ ، فـتـزـادـ التـحـامـاـ بـهـ ، وـتـعـلـقـاـ بـهـ ، وـتـقـانـيـاـ فـيـهـ .

وـ وـهـوـ دـرـسـ رـبـانـىـ أـخـيـرـ مـنـ دـرـوـسـ التـرـبـيـةـ ؛ ليـعـلـمـ كـلـ فـرـدـ مـنـ أـبـنـاءـ بـدـرـ الـيـوـمـ حـينـ تـضـعـهـ الـمـسـؤـلـيـاتـ فـىـ الـمـسـتـقـبـلـ قـائـدـاـ لـجـيـشـ أوـ مـديـراـ لـمـعرـكـةـ ، أوـ حـاكـماـ لـأـمـةـ ، أوـ أمـيـراـ لـسـرـيـةـ مـاـ هـىـ مـسـؤـلـيـتـهـ فـىـ ذـاكـ الـمـوقـفـ فـيـفـعـلـ مـاـ يـفـعـلـ قـائـدـهـ فـىـ التـجـرـدـ مـنـ النـفـسـ وـحـظـهـاـ ، وـالـخـلـوصـ وـالـلـجوـهـ لـلـهـ وـحـدـهـ ، وـالـسـجـودـ وـالـجـشـىـ بـيـنـ يـدـيـ اللهـ سـبـحـانـهـ يـتـزـلـ نـصـرـهـ ، وـيـقـىـ مشـهـدـ نـبـيـهـ ، وـقـدـ خـرـ سـاجـداـ لـلـهـ ، وـقـدـ سـقطـ رـدـاؤـهـ عـنـ كـفـهـ وـهـوـ مـاـدـ يـدـيـهـ ، يـقـىـ هـذـاـ المشـهـدـ مـحـفـورـاـ بـقـلـبـهـ وـوـجـانـهـ . يـحاـوـلـ تـنـفـيـذـهـ فـىـ مـثـلـ هـذـهـ السـاعـاتـ ، وـفـىـ مـثـلـ هـذـهـ الـمـوـاطـنـ ، حـينـ تـنـاطـ بـهـ الـمـسـؤـلـيـةـ ، وـتـلـقـىـ عـلـيـهـ أـعـباءـ الـقـيـادـةـ .

٦ - ما أنا بأمن تلك الكلمة :

وـصـاحـبـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ الـخـالـدـ هـوـ أـبـوـ حـذـيفـةـ بـنـ عـتـبـةـ رضي الله عنه وـلـشـهـدـ كـلـمـتـهـ وـالـتـىـ تـحـولـتـ إـلـىـ مـعـلـمـ ضـخـمـ مـنـ مـعـالـمـ التـرـبـيـةـ فـيـمـاـ بـعـدـ .

قال ابن إسحاق : وحدثني العباس بن عبد الله بن عبد عن بعض أهله عن ابن

عباس ؛ أن النبي ﷺ قال لاصحابه يومئذ : « إني قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرهاً ». قال : فقال أبو حذيفة : أقتل آباءنا وأبناءنا وإنخوتنا وعشيرتنا ، ونترك العباس ، والله لئن لقيته لأحملمه السيف .

قال ابن هشام : لأحملمه السيف .

بلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب : « يا أبا حفص » - قال عمر : والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص - « أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف ؟ ! » فقال عمر : يا رسول الله ، دعني فلأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .

فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عن الشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيداً (١) .

إنها لحظة من لحظات الضعف البشري ، ونزغ من نزغات الشيطان في قلب هذا السيد العظيم رسول الله .

« إِنَّ الَّذِينَ أَنْتَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَأْفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » (٢) .

لحظة الضعف هذه ، ونزغ الشيطان هذا أوهمه أن الأمر هو أمر عصبية قبلية ، خاصة وبين أمية رهطه وعشيرته كلهم في الصف المعادي وعلى رأس المقاتلين والمحادين لله ورسوله .

وملاحظة أخرى هي أن آباء عتبة كان من دعاء الصلح وعدم المواجهة مع الرسول ﷺ ، وهو الذي قال عنه رسول الله ﷺ : « إن يكن في القوم خير ففي صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا » ، فكان من الممكن أن يدخل مع صف بنى هاشم في عدم قتله .

هذه الملابسات جمیعاً حدثت بأبي حذيفة أن يقول هذه الكلمة علينا ، كأنما هو تحد للأمر النبوی في هذا الموضوع ، حيث يعلن أنه سيقتل العباس لو لقيه .

وبتلع الكلمة رسول الله ﷺ ، ولو بلغت أى قائد من قادة الدنيا لكان الحكم على

(٢) الأعراف / ٢٠١ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٢٤ / ٢ .

مثل هذا القول في ساحة المعركة هو المحاكمة الميدانية ثم القتل . ففي قلب الحرب لا يحتمل مثل هذا العصيان وهو الموقف الذي عبر عنه عمر رضي الله عنه : دعني أضرب عنقه ، فوالله لقد نافق .

ولا شك أن هذا الموقف العمري قد وصل إلى مسامع أبي حذيفة . فتذكر ، وأدرك الهوة السحرية التي سقط فيها ، وأوقعه فيها الشيطان . وتذكر فإذا هو بمصر .

لقد أدرك انطلاقاً من التربية السابقة التي عاشها خمسة عشر عاماً أو تزيد على يد النبي القائد الحبيب أبعد هذه الزلة العنيفة ، وأدرك بطبيعة تركيه الإمامي وعملية التذكير التي أعادت الأمور إلى نصابها الصحيح في الحسن المسلم . أدرك أن هذا الموقف ، موقف جاهلي أقرب ما يكون إلى الردة والنفاق ، ولا يمكن لمسلم صادق الإسلام أن يعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم يتبع هواه والله تعالى برأه وزakah وقال عنه : « **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنَّهُ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** » (١) .

أدرك الصورة كاملة ، وأدرك أن هذه الخطيبة من الضخامة والجسامنة لا يمكن أن تغفر بالصلوة والصدقة والصيام والاستغفار ، ولا يمكن أن تغفر إلا ببذل الدم سخيناً في سبيل الله ، فالشهادة تُكْفَرُ كل ذنب ، ولعلها تكفر هذه الكلمة ، وفي رواية : ( فما زلت أصوم وأصلى وأتصدق رجاء أن يكفرها الله عنى ، وما أرى يكفرها إلا الشهادة ) .

والذى يعنيها من هذا القول هو الموقف من الخطيبة لدى الجيل الأول ، ولا يعنيها نوع الخطيبة كثيراً ، فكلبني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ، فإذا أدرك المسلم خطأه فماذا يفعل ؟ إننا في جيلنا النكد مهما كانت جسامنة الخطيبة وضخامتها فيكتفينا الاعتذار عنها ، تعتبر الآخر الذى يعتذر عن خطيبته ويستغفر أخاً مثالياً أو بائباً إلى الحق ، أما العادى فيماطل ويجادل ويرى خطأه .

أما في ذلك الجيل الرائد فبقيت الخطيبة والشعور بجسمتها تراقصه طيلة حياته ، فيصوم ويصلى ويتصدق رجاء أن يكفرها الله عنه ، ويختتم حياته في لحظاته الأخيرة شهيداً في سبيل الله رجاء أن تغفر له ، وتکاد تنزل معه في إحساسه في قبره .

( فذكر أن سالماً وُجد هو ومولاه أبو حذيفة رأس أحدهما عند رجل آخر صريعين - رضي الله عنهم ) (٢) .

ولعل من محاولات التوبة النصوح التي قام بها أبو حذيفة لمواجهة هذه السقطة :

(٢) سير أعلام النبلاء ١/١٦٩ .

(١) النجم / ٣ ، ٤ .

أن حاول حرق كل شوائب الجاهلية والعصبية في نفسه فierz لأبيه ودعا للبراز .

فعن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : شهد أبو حذيفة بدرًا ودعا أباه عتبة ابن ربيعة إلى البراز فقالت أخته هند بنت عتبة لما دعا أباها إلى البراز :

الأحوال الأتعلل المشؤوم طائره أبو حذيفة شر الناس في الدين

أما شكرت أبا رياك في صغر حتى شببت شيئاً غير محجون (١)

ويقى أثر هذه السقطة حيًا في ضميره ووحدهاته حتى في أعنف لحظات الثار والثورة . عندما سقط أبوه وعمه وأخوه صرعى بين يديه ، ثم عندما دفعوا جثتهم في قليب بدر . ونقف هنا لحظة لنقارن بين نفسيتين لآخر وأخت وهما : هند بنت عتبة ، وأبو حذيفة بن عتبة ؛ إذ أن كليهما نبأنا في بيته واحدة ، وأرومة واحدة . هند يمر على بدر عام ونيف ، وما أن تصل إلى حمزة رضي الله عنه قاتل أبيها وأخيها وعمها حتى تمثل به ، وتقطع أنفه وأذنيه ، وتتقر بطنها ، وتأخذ كبده فتلوكها ، وما تشتفى من الحقد .

كان هذا بعد مرور عام ونيف . وهذا أبو حذيفة ، ولا يزال الدم يغلى كالمرجل في قلبه وبجواره قتلة أبيه وأخيه وعمه ، وهو هو يرى في اللحظة نفسها أباها وعمه وأخاه يجررون إلى القليب والسيف في يده ، وينظر به رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، فيرى وجهه قد تلون في يقول : « يا أبو حذيفة ، لعله قد دخلتك من شأن أيك شيء ». فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شكت في أبي ولا في مصرعه ، ولكن كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنني ذلك (٢) .

وتتم النص : فدعا له رسول الله صلوات الله عليه وسلم بخير ، وقال له خيراً .

لقد غدا أبو حذيفة - بعد ذلك الدرس البليغ الذي تلقاه - إنساناً آخر ، غداً إنسان العقيدة الذي لا يتحرك في قلبه - أمام مصرع أبيه وأهله ، وجراهم إلى القليب - إلا داعي الإيمان والحزن على وفاته على الكفر ، أما استحقاق الموت ورمي جثته وجثة أخيه وعمه في القليب فهذا لا يهيج شيئاً في قلبه ، ولا يحرك ثاراً في نفسه ، فقد عاد إلى قواعده سالماً - كما يقولون - ولقى من رسول الله صلوات الله عليه وسلم الرضا والثناء .

والمفروض أن هذا الرضا والثناء أن يمسح عن قلبه ونفسه آثار الخطيئة السابقة ، فهذا الرضا والثناء يعني : أن قائده الحبيب قد رضى عليه ، ورضى قائد من رضا رب ، والأصل أن يمسح هذا من قلبه كل آثار الجرح السابق والكلمة السابقة ، لكن قلبه كان

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٤٢ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨٥ / ٣ .

أيقظ بالإيمان ، وكان الموقف من الخطيئة في أعلى وثيره إيمانية :

ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عن الشهادة . ولا شك أنها كانت ذكرياتها في قلبها بعد عشرة أعوام وقد استجرت الرماح في اليمامة ، وتطاونت القنا وتصفت السيف ، وسقط شهيداً يرجو ربه أن يغفر له هذه الزلة قبل عشرة أعوام على التقريب .

#### ٧- فكان من عليه أصحابه :

سلمة بن سلامة بن وقش من بنى عبد الأشهل ، قوم سعد بن معاذ وسيد من ساداتهم ، حضر بيعة العقبة الأولى والثانية ، وأكرمه الله تعالى بشهود بدر . ولنشهد كيف تمت بعض دروس التربية له :

( وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعرق الظبية لقوا رجلاً من الأعراط ، فسأله عن الناس فلم يجدوا عنده خبراً ، فقال له الناس : سلم على رسول الله ﷺ . قال : أو فيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم ، فسلم عليه ثم قال : إن كنت رسول الله فأخبرني بما في بطن ناقتي هذه ، قال له سلامة بن وقش : لا تسأل رسول الله ، وأقبل على فانا أخبرك عن ذلك ، نزوت عليها ففي بطنها منك سخلة<sup>(١)</sup> . فقال رسول الله ﷺ : « مه ! أفحشت على الرجل » ، ثم أعرض عن سلامة )<sup>(٢)</sup> .

ولم يكتف - عليه الصلاة والسلام - بهذه الكلمة الزاجرة ، بل أعرض بعدها عن سلامة .

ثم كان الدرس الثاني في طريق العودة إلى المدينة :

( ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازبة ، فقسم هنالك النفل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على النساء . ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهتلونه - كما حدثني عاصم بن عمر بن قاتدة ويزيد بن رومان - : ما الذي تهتلونا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبُلدان المعَقلة فتحرناها . فتيسّر رسول الله ﷺ ، ثم قال : « أى ابن

(١) السخلة : الصغيرة من الصدان فاستعارها لولد الناقة .

(٢) السيرة النبوية لأبي هشام ٣٠٤/٣ .

أخرى ، أولئك الملا»<sup>(١)</sup> .

وفي رواية الطبراني : ( فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى رأيته كأنما تفتقا فيه حب الرمان ) ، ثم قال :

« يا بن أخي ، لا تقل ذلك ، أولئك الملا الأكبر من قريش ، أما لو رأيتم في مجالسهم بمكة هبتهم ..... »<sup>(٢)</sup> .

وعند الواقدي في المغازى : ( فتبسم النبي ﷺ وقال : « يا بن أخي أولئك الملا ، لو رأيتم لهم ولو أمرؤك لاطعتهم ، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرته ، ويش القوم كانوا على ذلك لنبيهم » . فقال سلمة : أعود بالله من غضبه وغضب رسوله ، إنك يا رسول الله لم تزل عنى معرضًا منذ كنا بالروحاء في بدأتنا . فقال رسول الله ﷺ : « أما ما قلت للأعرابي : وقعت على ناقتك فهي حُبلى منك ، ففحشت ، وقلت ما لا علم لك به ! وأماماً ما قلت في القوم ، فإنك عمدت إلى نعم من نعم الله تزهدها » .

فاعترد إلى النبي ﷺ ، فقبل منه رسول الله ﷺ معتذرته . فكان من عليه أصحابه )<sup>(٣)</sup> .

لقد قدر الخطأ عليه مرتبين في المكان نفسه في الروحاء عند الذهاب وعند الإياب . وكان الذي يعتصر قلبه طيلة هذه الرحلة إعراض رسول الله ﷺ عنه ، وهو يدرك خطأه؛ لأن النبي ﷺ نبه بقوله : « مه ! أفحشت مع الرجل » .

وكانت الخطأ الثانية هي التي فسحت المجال للحساب على الأولى والثانية ، وذلك حين أقبل رسول الله على حبيبه المصطفى متعمداً : ( أعود بالله من غضبه وغضب رسوله ) . فتضاعر حبيبه المغضب أن يعلمه عن سبب إعراضه وغضبه ، وأوضح له إمام المربيين - عليه الصلاة والسلام - أن الإعراض ابتداء للفحص في الكلام مع الأعرابي ، فرسول الله ﷺ لا يرضى لمن يمثل هذا الدين أن يكون فاحشاً متفحشاً مهما كانت خطية الخصوم ، ومن جهة ثانية فالاصل أن ينطق المسلم بما يعرف . أما سلمة : « وقلت ما لا علم لك به » .

وأما الثانية : فهو التخفيف من غلواء هذا الغرور الذي رافق نصر بدر ، حتى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٤٦ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ٢٧ / ٢٦ ، ٢٦ وقال فيه : « رواه الطبراني وفيه حسين السلوبي ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .

(٣) المغازى للواقدي ١/١١٦ .

ليشعر سلمة رسول الله أن قريشاً كانت كالجمل المربوطة للذبح ، فجاء المسلمين فحررواها ، لقد ذاقوا هذا النصر بشمن ضئيل ، وشاءت إرادة الله - عز وجل - أن يُقْرَأ عين نبيه رسول الله وعين صحبه بِمَا لَهُ مِنْ حَقٍّ السماء مددًا له ، ولم ير المسلمين الملائكة ، ولم يدركوا بعد عوامل النصر الخارجية التي أدت إلى هذا الفرقان بين الحق والباطل ، فصغر في عين سلمة هذا العدو كما شاءت إرادة الله تعالى : « إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكُمْ قَلِيلًا ... وَيُقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ » <sup>(١)</sup> .

لابد لهذه النفوس أن تعالج ، ولا بد لهذا الاغترار أن يكبح ، ولا بد أن يعرف الأنصار أن قريشاً بخليها وخيانتها كان يمكن أن تقضى على أهل بدر جميعهم ، وخشية من ذلك ؛ كان - عليه الصلاة والسلام - يضرع إلى ربه : « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلا تبعد في الأرض » ، فكان لابد لسلمة أن يعرف من هو هذا العدو الذي انتصر عليه .

« أى ابن أخي ؟ أولئك الملا لو رأيتم لهم ، ولو أمروك لاطعمهم ، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرته » ، فهم عدو رهيب كما وصفه الله تعالى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرَثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَكُمْ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ... » <sup>(٢)</sup> .

وأن ينزل جبريل وميكائيل مع ألف من الملائكة مردفين من السموات العلي لنصرة رسول الله رسول الله في الأرض لهو أمر جلل لا مثيل له في تاريخ الأرض . فقال عندها - عليه الصلاة والسلام - وهو يمسك بقلب هذا السيد العظيم الأشهلي العقبي البدرى :

« وأما ما قلت في القوم ، فإنك عمدت إلى نعم من نعم الله تزهدنا » .

وأدرك سلمة رسول الله أبعاد خطنه ، وأمام تصوره البشري القاصر ، فاعتذر إلى رسول الله رسول الله ، فقبل عذرها ، وأخذ موقعه القيادي في الصف بعدها ، فكان من علية أصحابه .

لقد صُقل لسانه عن الفحش ، وصُقل قلبه عن الغرور ، وأدرك من الملا الذين من الله تعالى على المؤمنين بالنصر عليهم ، وعيق من رحيق النبوة ومدرسة التربية المحمدية ما جعله المقدم بين الصحابة للمسؤوليات المناطة به .

(٢) الأنفال / ٤٧ ، ٤٨ .

(١) الأنفال / ٤٣ ، ٤٤ .

## ٨- أن يمس جلدك جلدك :

قال ابن إسحاق : ( وحدثني حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه<sup>(١)</sup> : أن رسول الله ﷺ عدل صفو أصحابه يوم بدر ، وفي يده قذح يعدل به القوم ، فمر بسود بن غزية حليف بني عدي بن النجاشي - قال ابن هشام : يقال : سواد - مثقلة ، وهو مستنسل<sup>(٢)</sup> من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح ، وقال : « استوا يا سواد ». فقال : يا رسول الله ، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل ؟ فأقذني<sup>(٣)</sup> . فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ، وقال : « استقد » . قال : فاعنته فقبل بطنه . فقال : « ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله ، حضر ما ترى ، فأحييت أن يكون آخر العهد بك ، فدعاه رسول الله ﷺ وقال له ... )<sup>(٤)</sup> .

وتسوية الصفو وتعبيتها لمواجهة العدو أمر عام ، لكن الحديث الجلل الضخم هنا ، هو أن يقف جندي عادي في الصف ليقول لإمام المرسلين ولرسول رب العالمين : أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقذني من نفسك .

إن مفهوم العدل الذي انتطلقت به هذه الأمة تجوب الأرض فيه هو السمة الرئيسية العليا في هذا الوجود لهذه الأمة ، والذى تفردت به عن أتم الأرض ، فالآمم الفاقدة في أحقاب التاريخ لا تكاد تخصى ، ومفهوم القوة الذى يسود الأرض هو سمة مشتركة بين الأمم الفاقدة جميعها ، حتى ليأتى فلاسفة هذه الأرض ليصيغوا الوجود البشري والكونى كله على هذا المفهوم . مفهوم الصراع والبقاء للأقوى ، كما هو مفهوم نظرية دارون ، ونيتشه ، وماركس وغيرهم . أما مفهوم العدل ، فهو الرسالة الربانية إلى الأرض ، والتي جاءت على يد الرسل لتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

والحديث عن العدل ، وادعائه كذلك يملاً الأفق ، ويؤدي ، لكن التطبيق العملي له هو الذى يعنينا في هذه الفقرة ، وحين تبلغ القناعة بالجندي العادي أن من حقه أن يقول لسيد ولد آدم : أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق ، فأقذني من نفسك . يعني هذا أن التربية النبوية قد أضجعت هذا الجيل في أعلى مستوياته ولما يمر على عمره ستان فقط ، فنحن لا تقل عندها جرأة سواد بصفته يمثل أفراد الأمة أهمية عن استجابة رسول الله ﷺ للقود من نفسه . إن عظمة التربية التي قام بها - عليه الصلاة والسلام -

(١) رواها الحافظ ابن حجر في الإصابة عن عبد الرزاق عن أبي جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه م / ٢٤٨ .

(٢) مستنسل : متقدم .

(٣) أقذني : اقصى لي من نفسك .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣٢١ / ٢ .

هو في بناء هذه النفوس التي تنشد العدل وتُقتل في سبيله ، وترفض الظلم والسيطرة  
لأى طاغية : هو الخطوة الأولى في البناء .

بينما الخطوة الثانية هي لهذا الجيل القائد الرائد ، الذي تعلم من هذا الدرس  
العلني المباشر أن ينحني للحق ، ويستجيب للعدل ، ويتعلم عملياً لا نظرياً أن الكبر عمت  
الناس ، وبطء الحق ، وأنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من خردل من كبر .

لقد مثل سواد <sup>رسول الله</sup> الأمة الحية التي تجاوزت حد الطفولة إلى سن الرشد وال النضج  
بحيث تجاهد وتتشهد في سبيل هذا الحق والعدل ، ومثل رسول الله <sup>رسول الله</sup> لهذه الأمة  
القائدة الراشدة ، أن تقود الناس بهذا الدين ، وبهذا العدل ، وبهذا الحضور للحق ،  
والانحناء له على الملا من الناس كذلك .

وتأتي الخطوة الثالثة التي مثلت هذا الحب والتلقاني بين الجندي وقادتهم - عليه  
الصلوة والسلام - حين اندفع سواد بكل حبه ، وبكل عشقه ليقبل جسد رسول الله  
<sup>رسول الله</sup> ، ويمس جلدَه جلدَه قبل أن يمضى إلى الجنة ، ويفارق حبيبه إلى أبد لا يعلم إلا  
الله مده . إنه منبني عدى بن التجار أخواه رسول الله <sup>رسول الله</sup> الخاصة الخاصة ؛ لأن  
بني التجار أخواه الخاصة ، والخرج أخواه بعامة ، والذي مثل هذا الحب حتى في الجيل  
الذى رضع حب النبي <sup>رسول الله</sup> فراح فراحت جواريه الصغار ينشدن :

نحن جوارٍ من بني التجار يا حبذا محمد من جار

قال - عليه الصلوة والسلام - : « أتخبتي ». قلن : نعم . قال : « وأنا كذلك والله  
أحبكُنْ » .

بهذا العدل ، وبهذا الحب ، وبهذا الحق ، كانت القوة تقاد في الأمة المسلمة ،  
وبهذا قامت السموات والأرض .

٩ - إني وجدت ما وعلني ربِّي حقاً :

١ - عن قتادة قال : ( ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبِّيَ الله <sup>رسول الله</sup> ، أمر  
يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقتلُوا في طوى من أطواب بدر خبيث  
مُخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاثة أيام . فلما كان بيدر اليوم الثالث ،  
أمر براحتته فشدَّ عليها رحلها ، ثم مشى واتبعه أصحابه ، وقالوا : ما نرى ينطلق إلا  
لبعض حاجته ، حتى قام على شفة الرَّكْي ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم «  
يا فلان ابن فلان ، ويا فلان ابن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنما قد  
وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً . فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ! ! ». فقال عمر :

يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها . فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسي بيده ما أنت بأسمع لما أقول منهم » . قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبينا وتصغيراً ونقيمة وحسرة وندماً )١( .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثة أيام حتى جفوا ثم أتاهم فقام عليهم فقال : « يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني ربى حقاً ». قال : فسمع عمر صوته فقال : يا رسول الله أتنا ديمهم بعد ثلاث وهل يسمعون؟ يقول الله - عز وجل - : « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْقِي » )٢( . قال : « فوالذي نفسي بيده ما أنت بأسمع منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيئوا » )٣( .

قال الحافظ في الفتح : ( وكان الذين طرحوه في القليب كانوا الرؤساء منهم ثم من قريش ، وخصوصاً بالمخاطبة المذكورة لما تقدم منهم من المعاندة ) )٤( .

قال ابن إسحاق : ( حدثني بعض أهل العلم أنه - عليه الصلاة والسلام - قال : « يا أهل القليب بنس العشيرة كتمت لنبيكم ، وكذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وأواني الناس ، وقاتلتمني ونصرتني الناس ، فجزراكم الله عنى من عصابة شرّاً ، خوتتموني أميناً ، وكذبتموني صادقاً » ) )٥( .

وكما شهد الناس الاستغاثة حتى تنزلت ملائكة الرحمن ، ها هم الآن يشهدون ختام الحساب في الدنيا مع دولة الباطل ، وطواغيت قريش ، وشياطين الإنس .

( فقد أمر رسول الله ﷺ بأربعة وعشرين رجالاً من صناديد قريش فقدروا في طوى من أطواء بدر خيث مخبث ) ، ولم يدر الجيش المسلم سبباً لذلك ، لكنه يعلم أنهم قادة الكفر .

يقول الحافظ في الفتح : ( ومن رؤساء قريش من يصح إلحاقه بن سمي :

من بني عبد شمس بن عبد مناف : عبيدة والعاص ولدا أبي أحبيحة ، وسعيد بن العاص بن أمية ، وحنظلة بن أبي سفيان ، والوليد بن عتبة بن ربيعة (خمسة) .

ومن بني نوفل بن عبد مناف : الحارث بن عمرو بن نوفل ، وطعيمة بن عدى (اثنان) .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧ / ٣٠١ (٣٩٧٦) .

(٢) التعليل / ٨٠ .

(٣) رواه الإمام أحمد بسنده رجاله ثقات ٣ / ١٠٤ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨ .

(٤) فتح الباري ٧ / ٣٠٢ .

(٥) شرح المواهب اللدنية للزرقاني ١ / ٥٠٢ وقال : وهو مرسل أو مضلل .

ومن سائر قريش : نوفل بن خويلد بن أسد - أسد قريش - وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد وأخوه عقيل ، والعاص بن هشام أخو أبي جهل ، وأبو قيس بن الوليد أخو خالد ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهمي ، وعلى بن أمية بن خلف ، وعمرو بن عثمان عم طلحة أحد العشرة ، ومسعود بن أبي أمية أخو أم سلمة ، وقيس بن الفاكه ابن المغيرة ، والأسود بن عبد الأسد أخو أم سلمة ، وأبو العاص بن قيس بن عدي السهمي ، وأمية بن أبي رفاعة . فهؤلاء العشرون تنضم إلى الاربعة فتكمـل العدة )<sup>(١)</sup> .

لقد كـبت هذه القيادات على وجوهها جـثـثـا مـتـتـةـ فيـ أحـدـ آـبـارـ بـدرـ الخـيـثـةـ .

وبلغ الأمر العصبة المسلمة ، وغاية ما أدركوه من ذلك الامر هو إعلان انتصار الحق على الباطل الممثل بهؤلاء الصناديد .

بـ - لكن الجديد في الأمر بعد ثلاثة أيام ، يشد رسول الله ﷺ على راحلته، وتضى العصبة المسلمة خلفه ، ولا يدرؤن أين يمضى ليماجـتوـنـ بـوقـوفـهـ علىـ شـفـيرـ هـذـاـ البـشـرـ ، فيـتـزـلـ عنـ رـاحـلـتـهـ ، وـعـيـونـهـ مشـدـوـدـةـ نحوـهـ ، كـأـنـ عـلـىـ رـؤـوسـهـ الطـيرـ ، فـتـكـوـنـ المـفـاجـأـةـ الـأـكـبـرـ أـنـ يـنـادـيـهـمـ : « ياـ أـبـاـ جـهـلـ بنـ هـشـامـ ، يـاعـتـبـةـ بنـ رـبـيـعـةـ ، يـاـ شـيـةـ اـبـنـ رـبـيـعـةـ ، يـاـ أـمـيـةـ بنـ خـلـفـ ، أـيـسـرـكـمـ أـنـكـمـ أـطـعـتـمـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ ، فـإـنـاـ قدـ وـجـدـنـاـ ماـ وـعـدـنـاـ رـبـنـاـ حـقـاـ » .

إن المسلمين الآن أمام المحضر الخاتمي بين رسول الله ﷺ وبين أعدائه الآلة . يذكرهم بماضيهم الأسود ، ويعرض الخطط الطويل الذي اختاروه طيلة خمسة عشر عاماً في حرب الله ورسوله ، وبعد أن اختار رموزهم الكبـرـى للخطاب : عتبة وشيبة وأبو جهل وأمية ، عاد فخاطـبـهـمـ جـمـيـعـاـ : « يـاـ أـهـلـ القـلـبـ ، بـشـسـ العـشـيرـةـ كـتـمـ لـنـبـيـكـمـ ، كـذـبـتـمـنـىـ وـصـدـقـنـىـ النـاسـ ، وـأـخـرـجـتـمـنـىـ وـآـوـانـىـ النـاسـ ، وـقـاتـلـتـمـنـىـ وـنـصـرـنـىـ النـاسـ ، فـجـزـاـكـمـ اللهـ عـنـيـ مـنـ عـصـابـةـ شـرـاـ ، خـوـتـمـنـىـ أـمـيـةـ ، وـكـذـبـتـمـنـىـ صـادـقـاـ » .

« وـنـادـيـ أـصـحـابـ الجـنـةـ أـصـحـابـ النـارـ أـنـ قـدـ وـجـدـنـاـ مـاـ وـعـدـنـاـ رـبـنـاـ حـقـاـ فـهـلـ وـجـدـتـمـ مـاـ وـعـدـ رـبـكـمـ حـقـاـ قـالـواـ نـعـمـ فـأـذـنـ مـؤـذـنـ بـيـنـهـمـ أـنـ لـعـنـةـ اللهـ عـلـىـ الـظـالـمـينـ . الـذـينـ يـصـدـوـنـ عـنـ سـبـيلـ اللهـ وـيـغـفـونـهـاـ عـوـجـاـ وـهـمـ بـالـآـخـرـةـ كـافـرـوـنـ »<sup>(٢)</sup> .

وإن كانت تلك المحاجـةـ بينـ المؤـمـنـينـ وـالـكـافـرـينـ يومـ الـقيـامـةـ وـفـيـ الدـارـ الـآـخـرـةـ ، لكنـ كـرـامـةـ عـبـدـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ مـحـمـدـ ﷺـ أـنـ تـمـ المحـاجـةـ هـنـاـ فـيـ الدـنـيـاـ ، وـعـلـىـ رـؤـوسـ

. (١) الأعراف / ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) فتح الباري للحافظ ابن حجر ٣٠٣/٧ .

الأشهاد ، وأمام العصابة المسلمة التي لم يشأ الله أن يهلكها .

وما أسعد الأنصار ، وما أسعد المهاجرين ، وهم يعلمون أنهم الناس ، وأنهم المعينون الذين آمنوا ، والذين هاجروا ، والذين جاهدوا ، والذين آتوا والذين نصروا ، والذين قال قاتلهم : والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تختلف منا رجل واحد .

إن الإيمان لينمو في قلوبهم ، ولزيادة في صدورهم كما ينمو البقل . فسيدهم - عليه الصلاة والسلام - يثنى عليهم ويحاج العدو اللدود أمامهم .

جـ- وكل ما يدريه المسلمون حتى الآن أن رسول الله ﷺ يخاطب جثتا متنية للعبرة وللعظة في ختام الباطل ودولته ، حتى ليجرؤ الوزير الثاني عمر رضي الله عنه أن يسأل قائده بلسان العصبة المسلمة كلها : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أنت بأسمع لما أقول سنه » .

قال قنادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله ، توبيناً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً .

وتتفطر القلوب المؤمنة بالسعادة الغامرة ، وتقشعر لها جلود المؤمنين خشية من الله ، وبقيتها صادقاً برسوله ، لهؤلاء الذين زرعوا الأرض حرباً لله ورسوله . وها هم الآن يسمعون هذا التوبیخ وهذا التبکیت وهذا التقریع حيث لا تنفع الحسرة ، ولا ينفع الندم ، وقد وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً من النار التي كذبوا فيها ، والذبح الذي أرادوه للمسلمين ، والخزى والنکال ، حيث الملائكة يضربون وجوههم وأديارهم وتقول : ذوقوا عذاب الحريق . وهو هو رسولهم أمامهم يكلمهم ويدركهم ، ولكن لات ساعة متدم . فهم حتى عاجزون عن الإجابة .

وكم زرع هذا الحدث في نفوس العصبة المؤمنة من هدى ونور ! وكم تفاعل القلب بالإيمان واليقين وهم يشهدون الحساب الخاتمي الذي سيغلق عليه المسرح بعدها إلى يوم القيمة !

ويستعيد المؤمنون الشريط كله مع قائدتهم وحببيهم - عليه الصلاة والسلام - ليعلموا أن وعد الله حق ، فهو الآن ليس علمًا فقط ، بل عين اليقين يرونـه أمامهم ، يرونـ سيدهم وحببيـهم - عليه الصلاة والسلام - وهم يقفونـ وراءـه ، ويرـونـ صنـادـيدـ قـرـيشـ صـرـعـىـ فـىـ الـقـلـيـبـ ، ويرـونـ الـحـوارـ الـحـىـ مـنـ قـائـدـهـ - عليه الصلاة والسلام - أنـ قد وجدـ ماـ وـعـدـ رـبـهـ حقـاـ مـنـ التـمـكـينـ وـالـنـصـرـ ، فـهـلـ وـجـدـواـ مـاـ وـعـدـهـ ربـهـ حقـاـ ، وـيـاتـيـ

الحوار الصامت من طرفهم ، أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ولكنهم لا يستطيعون الإجابة . هذا الجيل الفريد في تاريخ البشرية الذي أتيح له أن يرى بأم عينيه رسوله وهو يستغيث فيسقط الرداء عن كتفه فيجسون قلوبهم خشية ورجاءً وتضرعاً مع قائدتهم - عليه الصلاة والسلام .

ويرونه وهو يثبت في الدرع فرحاً يقول : « سيفزم الجمع ويولون الدبر ، هذا جبريل ممسك بزمام فرسه يقود على ثنایاه النقع » ، فينطلقون كالطير ، يطيرون مع الملائكة فرحاً وسعادة وبشرى بهذا المدد السماوى ، ويصبحون والملائكة صفاً واحداً لمواجهة قريش .

ويرونه وهو يحاور الصناديد الكبار وقد انتهت المعركة ، ويدركهم بصيرهم الأسود اليوم الذى غدا حقاً يعانونه ويعاينونه ، ويستعرض معه شريط الكفر والضلال وال الحرب لله ورسوله ، أين أودت بهم اليوم ، ويحدثهم أنه قد وجد ما وعده ربها حقاً ، فقد تکللت النصر ، وتحقق الوعد ، ورميـت جثـت الـأبطـال فـي القـلـبـ.

ويرون كيف أقر الله عينه ، بأن أحياهم له ليشهدوا آخر مشاهد الخزي والذلة في الدنيا ، وينضمون بعدها إلى ركب آل فرعون .

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾<sup>(١)</sup> .

إنهم آل فرعون هذه الأمة ، إنهم آل أبى جهل ، وآل عتبة وشيبة وأمية ، فليشهدوا عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشـقـ ، وما لهم من الله من واقـ .

١٠ - رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله :

يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : ( ثم قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُونَ مَنْ حَادَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آتَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ . . . . ﴾<sup>(٢)</sup> أي : لا يوادون المحاذين ولو كانوا من الأقربين كما قال تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلَيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَقْتَلُوهُمْ تَقْتَلَهُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ . . . . ﴾<sup>(٣)</sup> الآية ) .

وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ

(١) غافر / ٤٦ .

(٢) المجادلة / ٢٢ .

(٣) آل عمران / ٢٨ .

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . . . . » إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أبوه يوم بدر ؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك السنة - رضي الله عنهم - : ولو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته . وقيل في قوله تعالى : « وَتُوْكَدُوا آبَاءُهُمْ » نزلت في أبي عبيدة قتل أبوه يوم بدر . « أَوْ أَبْنَاءُهُمْ » في الصديق هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن : « أَوْ إِخْوَانَهُمْ » في مصعب بن عمير قتل أخيه عبيد بن عمير يومئذ : « أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضاً ، وفي حمزة وعلى عبيدة قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ ، فالله أعلم . وقوله تعالى : « وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » كل هذا تقدم تفسيره ، وفي قوله تعالى : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » سر بديع هو : أنه لما سخطوا على العشاري والقرائب في الله تعالى عوَّضَهم الله بالرضا عنهم وأرضامهم بما أعطاهم من العيوب المقيمه والفوز العظيم والفضل العظيم . وقوله تعالى : « أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنْ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »<sup>(۱)</sup> أي : هؤلاء حزب الله ، أي : عباد الله وأهل كرامته . وقوله تعالى : « أَلَا إِنْ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » تنويه بفلاتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم : حزب الشيطان . ثم قال : « أَلَا إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ »<sup>(۲)</sup> .

إننا الآن نلقى ثمرة التربية السابقة والمستمرة التي تلقاها السابقون الأولون من المهاجرين . والحديث عن أمين الأمة : عامر بن عبد الله بن الجراح ، وأحد العشرة المبشرين ، من الذين قدَّرَ الله تعالى لهم الصحبة مع رسول الله ﷺ . والتلقى عنه منذ أيامه الأولى ، أو من اليوم الثاني من الدعوة . هؤلاء السابقون الأولون الذين كانوا ملتزمين بكف اليد ثلاثة عشر عاماً لم تندَّ منهم مخالفة ، ولم تسجل عليهم خطية . هؤلاء هم الآن أذن لهم أن يقاتلوا ، بعد أن خلت نفوسهم من حظوظ نفوسهم ، وبعد أن غدوا جيلاً ربانياً خالصاً لله سبحانه ، وكانت المحنة الكبرى لهم في لقاء بدر . المحنة التي كشفت عن نفاسة معدنهم ، وكشفت عن مدى تغلغل الإيمان في قلوبهم ، وعمقه في نفوسهم . وحين وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام آباءهم وإخوانهم ، لم يتربدوا لحظة واحدة في قتالهم في ساحة المعركة . وقد صبغوا بالإيمان من رؤوسهم إلى أخمص أرجلهم ، أبو عبيدة يقتل أبوه ، ومصعب بن عمير يقتل أخيه ، وأبو بكر يقول لابنه : لو بربت إلى ما أفلتك . ورسول الله هو الذي منع الصديق من مبارزة

(۱) المجادلة / ۲۲ .

(۲) المجادلة / ۱۹ .

(۳) تفسير ابن كثير ، سورة المجادلة / ۶ .

ابنه ، وعمر يقتل حاله ، وعلى وحمزة وعيادة يقتلون أبناء عمومتهم من عشيرتهم . بل إن الأمر لم يتم هكذا جزاً ، إنما تم عن تصميم وقصد .

يقول عمر رضي الله عنه لسعيد بن العاص : إن أراك كان في نفسك شيئاً ، أراك تظن أنني قتلت أباك ، إنني لو قتلت لم أعتذر لك عن قتيله ، ولكنني قتلت خالي العاص بن هشام ابن المغيرة . فاما أبوك ، فإنني مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه فحدث عنه ، وقصد له ابن عمه على قتله .

فقد كان قصد عمر حاله ، وكان قصد على ابن عمه ، وكان قصد أبي عبيدة أباه ، وذلك حتى تستوى التفوس غضباً لله وحده ، ولو على أقرب المقربين ، وإلا فكيف يطلق عليهم حزب الله . إن هذا الانتماء العظيم والشرف الكبير الذي حازوه بشهادة القرآن العظيم ، لا يمكن أن ينالوه لو كان آباءهم وأبناؤهم وعشائرهم أحباب إليهم من الله ورسوله وجهاد في سبيله . إنهم عند ذلك هم الفاسقون . أما الآن وقد قتلوا وقاتلوا أحب الناس إليهم فهم أهل الله وجنده وحزبه .

إن هذا المستوى الإيماني الرفيع ، وهذا الخلوص العظيم من نوازع النفس وحب الأهل والعشيرة لم يتم هكذا بين يوم وليلة . إنه رصيد السنوات العجاف ظاهراً والممتعات باطنًا حتى بلغوا هذا المستوى ، وتم العقد مباشرة بينهم وبين ربهم ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أولئك حزب الله إلا إن حزب الله هم المفلحون ﴾﴾ (١) .

إن الحديث عن الأمر سهل ، لكن المعاناة فيه وتنفيذه أمر يعجز القلم عن وصفه عند احتمام المشاعر ، واصطدام العواطف ، بحيث تكون الغلة بعد هذا كله لحب الله ورسوله .

وأى ثناء في هذا المقام يفوق هذا الثناء ! وأى شهادة في هذا الوجود تعديل هذه الشهادة !؟

ومن؟ من رب السموات والأرض . إنهم وصلوا هذا الأفق الوضيء ، ونكاد لو لا شهادة القرآن لا يستوعب عقلاً هذه المستويات ، بل نحسبها من المبالغات ، لكن كيف وقد أثبتها رب السموات العلي في كتابه الكريم !؟

أولئك حزب الله .

## الأسرى ومدرسة التربية

روى الإمام أحمد (١) عن أنس ، وابن مردوه عن أبي هريرة ، وابن أبي شيبة ، والإمام أحمد والترمذى (٢) وحسنه ، وابن المنذر والطبراني وغيرهم عن ابن مسعود ، وابن مردوه عن ابن عباس ، وابن مردوه وابن المنذر وأبو نعيم عن ابن عمر (٣) :

أنه لما كان يوم بدر جىء بالأسرى وفيهم العباس أسره رجل من الأنصار ، وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه . فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « لم أئم الليلة من أجل عمي العباس ، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوا » فقال له عمر : أفأتيهم ؟ قال : « نعم » . فأتى عمر الأنصار فقال لهم : أرسلوا العباس ، فقالوا : لا والله لا نرسله ، فقال لهم عمر : فإن كان رسول الله ﷺ رضي ؟ قالوا : فإن كان رسول الله ﷺ رضي فخذه . فأخذه عمر ، فلما صار في يده قال له : يا عباس أسلم ، فوالله لئن تسلم أحب إلىَّ من أن يسلم الخطاب ، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك .

فاستشار رسول الله ﷺ الناس فقال : « ما ترون في هؤلاء الأسرى ؟ إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالآمن ؟ » .

قال أبو بكر : يا رسول الله أهلك وقومك ، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم ، هؤلاء بني العم والعشيرة والإخوان ، استبقهم ، وإنى أرى أن تأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لك عضداً .

قال رسول الله ﷺ : « ما تقول يا بن الخطاب ؟ » .

قال : يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك . ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن عذكتنى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه حتى يضرب عنقه ، حتى ليعلم الله تعالى أنه ليست في قلوبنا مودة للمشركين ، هؤلاء صناديد قريش وأثتمهم وقادتهم فاضرب عناقهم ، ما أرى أن يكون لك أسرى ، فإنما نحن راعون مؤلفون . وقال عبد الله بن

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٨٣ .

(٢) سنن الترمذى ج ٤ رقم ١٧١٤ .

(٣) ورواه مسلم عن ابن عباس ٣/ ١٣٨٥ رقم ١٧٦٣ .

رواحة : يا رسول الله ، انظر وادياً كثير الخطب فاضرمه عليهم ناراً . فقال العباس وهو يسمع ما يقول : قطعت رحمك . قال أبو أيوب : فقلنا - يعني الانصار - : إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا ، فدخل رسول الله ﷺ البيت فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال أناس : يأخذ بقول ابن رواحة ، ثم خرج فقال : « إن الله تعالى ليدين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله تعالى ليشد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبي بكر في الملائكة : مثل ميكائيل ينزل بالرحمة ، ومثلك في الأنبياء مثل إبراهيم قال : « فَمَنْ تَبَعَّنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (١) ، ومثلك يا أبي بكر مثل عيسى ابن مريم ؛ إذ قال : « إنْ تَعْذِيْبَهُمْ فَلَأَنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَلَأَنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٢) ، ومثلك يا عمر في الملائكة : مثل جبريل ينزل بالشدة والبأس والنقمـة على أعداء الله تعالى ، ومثلك في الأنبياء مثل نوح ؛ إذ قال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَاراً » (٣) ، ومثلك في الأنبياء مثل موسى ؛ إذ قال : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَقَّنِي بِرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » (٤) لو اتفقتما ما خالفتكمـا ، أنتم عالة فلا يفلتون منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق » .

قال عبد الله بن مسعود : يا رسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام . فسكت رسول الله ﷺ ، فقال عبد الله : فما رأيتي في يوم أخاف أن تقع على الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ : « إلا سهيل بن بيضاء » . فلما كان من الغد غداً عمر إلى رسول الله ﷺ ، فإذا رسول الله وأبو بكر وهما يبكيان . فقال : يا رسول الله ما يبكيكمـا ؟ فإن وجدت بكاء بكـيت ، وإلا تباكيت لكـائكمـا . فقال رسول الله ﷺ : « إن كـاد ليمسـنا في خـلاف ابنـ الخطـاب عـذـاب عـظـيم ، ولو نـزل العـذـاب ما أـفـلتـ منه إلا ابنـ الخطـاب ، لـقد عـرضـ علىـ عـذـابـكمـ أـدنـيـ منـ هـذـهـ الشـجـرةـ - لـشـجـرةـ قـرـيبـةـ مـنـهـ - وـأـنـزلـ اللهـ تـعـالـىـ : « مـاـكـانـ لـيـجيـءـ أـنـ يـكـونـ لـهـ أـسـرـىـ حـقـىـ يـشـغـلـ فـيـ الـأـرـضـ تـرـيـدـونـ عـرـضـ الدـنـيـاـ وـالـلـهـ يـرـيدـ الـآخـرـةـ وـالـلـهـ عـزـيزـ حـكـيمـ . لـوـلـ كـاتـبـ مـنـ اللـهـ سـقـ لـمـسـكـمـ فـيـمـاـ أـخـذـتـمـ عـذـابـ عـظـيمـ . فـكـلـوـ مـاـ خـيـثـمـ حـلـلـاـ طـيـباـ وـأـتـقـواـ اللـهـ إـنـ اللـهـ غـفـورـ رـحـيمـ » (٥) . واستعمل ﷺ على الأسرى شـفـرانـ غـلامـهـ ، فـأـحـذـوهـ مـنـ كـلـ أـسـيرـ مـاـ لـوـ

(٢) المائدة / ١١٨ .

(١) إبراهيم / ٣٦ .

(٤) يونس / ٨٨ .

(٣) نوح / ٢٦ .

(٥) الأنفال / ٦٧ - ٦٩ .

كان حراً ما أصحابه من المقسم<sup>(١)</sup> .

وروى ابن أبي شيبة والترمذى<sup>(٢)</sup> وحسنه ، وابن سعد ، وابن جرير ، وابن حبان والبيهقى ، عن على رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال:

يا محمد ، إن الله تعالى قد كره ما صنع قومك في أخذهم فداء الأسرى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وإما أن ياخذوا منهم الفداء على أن يقتل منهم عدتهم . فدعا رسول الله ﷺ الناس ذكر لهم ذلك ، فقالوا:

يا رسول الله ، عشائرنا وأخواننا نأخذ منهم الفداء ، فتنتهي به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فليس في ذلك ما يكره .

وأقام ﷺ بالعرضة ثلاثة<sup>(٣)</sup> .

وروى أبو داود<sup>(٤)</sup> عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبي ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر : أربعيناتة ، وادعى العباس أنه لا مال عنده ، فقال له رسول الله ﷺ: « فَإِنَّ الْمَالَ الَّذِي دَفَتْهُ أَنْتُ وَأُمُّ الْفَضْلِ ، وَقَلَتْ لَهَا : إِنِّي أَصِبَّتُ فِي سَفَرِي هَذَا لِبْنَيُّ الْفَضْلِ ، وَعَبْدَ اللَّهِ ، وَقَمْ ؟ » فقال : وَاللَّهِ إِنِّي لَا عُلِمْتُ أَنَّكَ رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي هَذَا لَشِئٍ مَا عُلِمْتُ إِلَّا أَنَا وَأُمُّ الْفَضْلِ .

وروى البيهقى عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدى قال: كان فداء العباس ، وعقيل ابن أخيه ، ونوفل : كل رجل أربعيناتة دينار .

قال ابن إسحاق : وكان أكثر الأسرى فداء يوم بدر فداء العباس ، فدى نفسه بمائة أوقية من ذهب .

وروى البخارى والبيهقى عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رجالاً من الانصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ، اذدن لنا فلتدرك لابن اختنا عباس فداءه ، قال: « لا والله ، لا تذرون منه درهماً »<sup>(٥)</sup> .

وجعل رسول الله ﷺ فداء الرجل أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف ، ومنهم من من عليه ؛ لأنه لا مال له .

وروى ابن سعد عن الشعبي قال: كان أهل مكة يكتبون ، وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم ، فإذا حذقوا فهم

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٩٤ / ٤ . (٢) سنن الترمذى ج ٤ حديث رقم ( ١٥٦٧ ) .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٦٣ ، ٦٤ . (٤) سنن أبي داود ١ / ٢٦٧ .

(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٢١ ( ٤٠١٨ ) .

فداه ، وكان زيد بن ثابت ممن عُلِّم<sup>(١)</sup> .

### ١- المطعم بن عدى والأسرى :

لقد كان الأسرى حفّا يدخلون المدرسة النبوية للتربيّة وهم لا يزالون على شركهم ، وهم يستمعون إلى سيد الخلق يتحدث عنهم ويشارون من أجلهم ، ويوصي بهم ، وهم يعلمون أن قتلهم بكلمة واحدة من شفتيه الشريفتين ، ويعلمون ماذا فعلوا برسول الله ﷺ خلال ثلاثة عشر عاماً وهم الأقوى والأعلى ، وأنهم يستحقون القتل جميعاً وقد غدوا أسرى بيديه .

إننا سنعيش مع هذه القلوب البشرية التي تحس وتتّحّاف وترجو وتحب وتألم ، وكيف امتدت اليد النبوية الحانية لها وهي على شركها (أى القلوب) ؛ لتقوم ببنائها العظيم .

وهذه هي الصورة الأولى من الصور الفريدة الخالدة في التاريخ .

فعن الزهرى عن محمد بن جبیر بن مطعم عن أبيه؛ أن النبي ﷺ قال في أسرى بدر: «لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى في هؤلاء التتنى لتركتمهم له»<sup>(٢)</sup> .

والمطعم بن عدى سيد بنى نوقل الفرع الثالث من بنى عبد مناف والذى كان فى موقع القوة والسلطة فى مكة . ومع أنه لم يخرج عن رأى قريش ابتداءً وينضم لأى طالب ، لكنه كان وسطاً بين الطرفين ابتداءً ثم مثل موقف أبي طالب انتهاءً .

ها هو يلوم أبي طالب في عدم تسليمه محمداً لقريش مبادلة مع عمارة بن الوليد (فقال: والله لبعس ما تسومونى ! أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابن قاتلوكه! هذا والله لا يكون أبداً . قال: فقال المطعم بن عدى بن نوقل بن عبد مناف ابن قصى : والله يا أبي طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تزيد أن تقبل منهم شيئاً ، فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفونى ، ولكنك قد أجمعـت خذلـانـى ومظاهـرـةـ القـومـ عـلـىـ ، فاصـنـعـ ماـ بـدـاـ لـكـ)<sup>(٣)</sup> .

وها هو أبو طالب يناشد مطعماً ويثير تخوته أن يقف بجواره :

أطعم إن القوم ساموك خطأ  
واني متى أوكل فلست بوائل<sup>(٤)</sup>  
أطعم لم أخذلك في يوم نجدة  
ولا معظم عند الأمور الجلائل

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/٤ ، ١٠٥ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/٣٢٣ (٤٠٢٤) .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٣٠ ، ٣٣١ .

فلست بوائل : لست بناج .

## ولا يوم خصم إذ أتوك أللّه أولى حدل من الخصوم المساجل (١)

لكن المطعم بن عدى، وقد رأى ظهر محمد ﷺ خلاءً بعد وفاة أبي طالب، ورسول الله ﷺ عاجز عن دخول مكة بعد محبته الطائف ، عرَّض نفسه وأولاده وعشيرته للقتل ، وقرر مواجهة قريش لحماية سيد بنى عبد مناف : محمد بن عبد الله صلوات الله عليه .

( وبين ابن شاهين من وجه آخر السبب في ذلك ( أي يهب الأسرى للمطعم لو طلب ذلك ) ما وقع منه حين رجع النبي ﷺ من الطائف ، ودخل في جوار المطعم بن عدى . وقد ذكر ابن إسحاق القصة في ذلك مبسوطة ، وكذلك أوردها الفاكهي بإسناد حسن مرسل وفيه : أن المطعم أمر أربعة من أولاده ولبسوا السلاح ، وقام كل واحد منهم عند ركن من الكعبة ، فبلغ ذلك قريشاً فقالوا له : أنت الرجل الذي لا تخفر ذمتك ؟ وقيل المراد باليد المذكورة : أنه كان من أشد من قام في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بنى هاشم ، ومن معهم من المسلمين حين حصرتهم في الشعب . وروى الطبراني عن محمد بن جبير عن أبيه قال : قال المطعم بن عدى قبل وقعة بدر : إنكم فعلتم ما فعلتم بمحمد ، فكونوا أكف الناس عنه وذلك بعد الهجرة ، ثم مات المطعم بن عدى قبل وقعة بدر قوله بضع وتسعون سنة . وذكر الفاكهي بإسناد مرسل : أن حسان بن ثابت رثى لما مات مجازة له على ما صنع للنبي ﷺ ) (٢) .

إن الحياة مواقف . ولتصور وضع رسول الله ﷺ في قمة معاناته بعد عودته من الطائف ، حين غادر الطائف هائماً على وجهه ولم يستفق إلا بقرن الشعاليب . لتصور عجزه عن دخول مكة ، وأتباعه - القلة المؤمنة - موزعون بين مكة والحبشة ، وأهل الطائف قد أخرجوه منها ، وفشل محاولات الجوار مع سهيل بن عمرو ، والأخنس ابن شريق ، فأفقد الموقف المطعم ، وحمى رسول الله ﷺ حتى أصبحت له أرض صلبة يقف عليها ، ويقيم عليها دولته ، وأصبح ظافراً متصرّاً بيده سبعون أسيراً من صناديق قريش . إن ذلك الموقف العظيم للمطعم ، هو الذي ساهم في هذه النتيجة المظفرة للإسلام ، فلا غرو أن يقول عليه الصلاة والسلام :

«لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى في هؤلاء التنى لتركهم له ». (١)

إنها قمة الوفاء لمواقف الرجال - ولو كانوا مشركين - في الحالات الصعبة مع قائد الدعوة محمد ﷺ وحق حسان بن ثابت أن يقول في رثائه :

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ١ / ٣٤٣ . (٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧ / ٣٢٤ .

بدمع وإن أنزفته فاسكبي الدما  
 على الناس معروفاً له ما تكلما  
 من الناس أبقى مجده اليوم مطعما  
 عيدهك ما لبى مهل وأحرما  
 وقططان أو باقى بقية جرهما  
 وذمته يوماً إذا ما تذما  
 على مثله فيهم أعز وأعظما  
 وأنوم عن جار إذا الليل أظلم<sup>(١)</sup>  
 تذكر هذا ، وتذكر جبير بن مطعم الذي حقد لقتل عمه طعيمة بن عدي في بدر ،  
 فاستدعي وحشياً وقال له : ( إن قتلت عم محمد حمزة بعمي ، فأنت عتيق ... )<sup>(٢)</sup> .  
 وقتل وحشى حمزة بعمه طعيمة بن عدي وأعتق ، ولكن جبيراً رسول الله لم ينس أبداً  
 مقالة رسول الله رسول الله عن أبيه بأسرى بدر ، فهو الذي نقلها لنا ، ولا ننسى كذلك أن هذه  
 المقالة قد سمعها الاسارى وتعلموا كيف يكون وفاء الرجال للرجال ، وأنها قد أعطت  
 جبير بن مطعم ومضات من النور تسللت إلى قلبه ، وقادته إلى الإسلام فيما بعد .

## ٢ - مقتل النضر وعقبة :

١ - وإذا كان هذا موقف الوفاء للرجال ، فلابد أن شهد كذلك مصرع الطغاة الذين  
 قدّموا الألم وأحسن ما عندهم تجاه النبي رسول الله وهم في موقف القوة ، ومثل هذا الموقف ،  
 النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، وهما الأسيران الوحيدان اللذان قتلا صبراً  
 بأمر رسول الله رسول الله ، كما يُقتل مجرمو الحرب في أيامنا هذه .

أما النضر بن الحارث ، فقد كانت عداوته لله تعالى ولكتابه ، وكان قمة المستهزئين  
 بكتاب الله تعالى ( وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، ومن كان يؤذى رسول  
 الله رسول الله وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ،  
 وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله رسول الله مجلساً فذكرَ فيه بالله ،  
 وحضر قومه ما أصاب قبليهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم  
 قال: أنا والله يا معاشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم إلىَّ فأنا أحدثكم أحسن من

١٠٣/٣ المصدر نفسه .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٣/٢ .

حدبته ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن  
حديثاً مني )<sup>(١)</sup> .

( قال ابن هشام : وهو الذي قال فيما بلغنى : سأنزل مثل ما أنزل الله .

قال ابن إسحاق : وكان ابن عباس - رضى الله عنهما - يقول فيما بلغنى : نزل فيه  
ثمان آيات من القرآن قول الله عز وجل : ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> .  
وكل ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن )<sup>(٣)</sup> .

إن هذا الرجل المتعالي على الله والمتالى عليه ، والذى يزعم أنه سينزل أحسن ما  
أنزل الله . والذى يزعم أنه أحسن حديثاً من محمد ، لابد لمثل من يمثل هذا التيار -  
وقد أصبح بين يدى رسول رب العالمين - لابد أن يثار الله ولرسوله منه ، ومن أجل هذا  
لم يدخله رسول الله ﷺ ضمن نطاق الاستشارة ، وقد حكم القرآن بکفره ودخوله  
النار . فهو الشقى العnid الذى تقرر مصيره ، ونفذ رسول الله ﷺ الحكم فيه **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يَرُحْ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذَا الطَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْعُوَزِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسْطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُوَنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنِ آيَاتِهِ تَسْكِنُرُونَ . وَلَقَدْ جَتَّسْنَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أُولَئِكُمْ مَرْءَةٌ وَتَرَكْتُمْ مَا حَوْلَتُنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمُّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيْكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقْطَعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَرْعَمُونَ﴾<sup>(٤)</sup> .**

وبها - أى بالصفراء - قُتل النضر بن الحارث بن كلدة ، قتله على بن أبي طالب  
**رضي الله عنه** صبراً بالسيف .

وأما عقبة بن أبي معيط ، فقد كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ ولا بد أن  
نعرض ملخصاً لناريخه الملطخ بالسواد ، وماذا أنزل الله فيه :

( لقد سارع وأسلم في بداية أمره فجاءه صديقه أبي بن خلف فسألته فقال : دخل  
منزلي رجل شريف ، فأبي أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له ، فاستحببت أن يخرج من  
بيتي ولم يطعم ، فشهدت له فطعم والشهادة ليست في نفسى .

(١) المصدر السابق / ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ١ ، ٣٧٠ .

(٣) القلم / ١٥ .

(٤) الأنعام / ٩٣ ، ٩٤ .

فقال له أبي : ووجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأه ، وتبزق في وجهه ، وتلطم عينه ، فقال عقبة : لك ذلك .

ففعل ذلك عقبة بن أبي معيط - لعنه الله - فأنزل الله تعالى فيه : « وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدِهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولَ سَبِيلًا . يَا وَيَتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلنَّاسِ خَدُولاً » (١) .

ثم بعد هذه الواقعة كان أشقي القوم في أذى رسول الله ﷺ ، ولم يدع مزامرة لقتل النبي ﷺ إلا شارك فيها .

### أما الأذى فهذه صورته :

ب - كما قال ﷺ : « كنت بين شر جارين: بين أبي لهب ، وعقبة بن أبي معيط ، وإن كانوا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابي حتى أنهم ليأتون ببعض ما يطروحونه من الأذى فيطروحونه على بابي » رواه ابن سعد عن عائشة (٢) .

ج - وتتابع ذلك بوطء عنقه الشريف ﷺ ( ووطئ عقبة بن أبي معيط على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان ) (٣) .

د - ثم كان إلقاء سلا العبير عليه ﷺ كما في البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة ، وجمع قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم : ألا تنتظرون إلى هذا المرائي ؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلامها فيجيء به ، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه ؟ فاتبعوا أشقاهم . فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه ، وثبت النبي ﷺ ساجداً ، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك ، فانطلق منطلق إلى فاطمة عليها السلام - وهي جويرية - فأقبلت تسعى وثبت النبي ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه ، وأقبلت عليهم تسليم ، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال : « اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقريش ، ثم سمي : اللهم عليك بعمرو بن هشام ، وعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمارة ابن الوليد » ، قال عبد الله : فوالله لقد رأيتم صرعى يوم بدر ، ثم سُحبوا إلى القليب قليب بدر (٤) .

(٢) السيرة النبوية لأبن هشام ١/٤٤٠ ، ٤٤١ .

(١) الفرقان : ٢٧ - ٢٩ .

(٤) المصدر نفسه ١/٢٩٢ .

(٣) المواهب الدنية للزرقاني ٢٩٢ .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/٥٩٤ ، ٥٢٠ .

لقد شهدنا الذين ناداهم - عليه الصلاة والسلام - بأسمائهم على القليب خمسة : أبو جهل وعتبة وشيبة والوليد وأمية ، وهذا سادسهم عقبة الذي انضم إليهم بعد مقتله بعرق الطيبة ، وأما سابعهم فقد قتل في الحيشة ، واستجابت دعوة الرسول ﷺ في أكابر المجرمين .

هـ - ثم كانت محاولة قتله الأولى بصفة شخصية كما روى البخاري عن عروة رضي الله عنه : ( عن عروة قال : سألت ابن عمرو بن العاص : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ قال : بينما النبي ﷺ يصلى في حجر الكعبة ، إذا أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ... ) (١) .

و- ثم كانت المحاولة الجماعية الثانية : من ذلك ما حدث به عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - قال : كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده في يد أبي بكر ، وفي الحجر ثلاثة نفر جلوس : عقبة بن أبي معيط ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، فمر رسول الله ﷺ عليهم : فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره ، فعرف ذلك في وجه النبي ﷺ ، فدنوته منه حتى وسطته - أى جعله وسطاً - فكان ﷺ بيني وبين أبي بكر ، وأدخل أصابعه في أصابعى وطفنا جميعاً ، فلما حاذاهم قال أبو جهل : والله لا نصالحك ما بلّ بحر صوفة ، وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، فقال رسول الله ﷺ : « أنا ذلك » ، ثم مشى عنهم : فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك ، حتى إذا كان الشوط الرابع ناهضوه - أى قاما له ﷺ - ووش أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه رضي الله عنه ، فدفعته في صدره فوق على استه ، ودفع أبو بكر أمية بن خلف ، ودفع رسول الله رضي الله عنه عقبة بن أبي معيط ، ثم انفروا عن رسول الله رضي الله عنه وهو واقف ، ثم قال : « أما والله لا تتهرون حتى يُحلَّ الله بكم عقابه » - أى ينزل عليكم عاجلاً - قال عثمان : فوالله ما منهم رجل إلا وقد أخذته الرعدة . فجعل رسول الله رضي الله عنه يقول : « بئس القوم أنت لنبيكم » ، ثم انصرف وتبعنه حتى انتهى إلى باب بيته ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : « أبشروا فإن الله - عز وجل - مظهر دينه ، ومتهم كلمته ، وناصر نبيه ، إن هؤلاء الذين ترون ما يذبح الله على أيديكم عاجلاً » ثم انصرفنا إلى بيتنا . فوالله لقد ذبحهم الله بأيدينا يوم بدر ) (٢) .

ز- ولم يستفف صدر عقبة ، ولم يقتل النبي رضي الله عنه وعجز عن ذلك ، وامتلا حقداً

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٦٥ / ٧ ، ١٦٦ رقم (٣٨٥٦) .

(٢) السيرة الخالية ٤٧٢ / ١ والوفا في أخبار المصطفى لابن الجوزي ٣٠١ / ١ .

ثم ينشد هذا شعراً فيقول :

يا راكب الناقة القصواء هاجرنا  
عما قليل تراني راكب الفرس  
أعل رمحى فيكم ثم أنهله  
والسيف يأخذ منكم كل ملتمس  
ويقول عليه الصلاة والسلام لعقبة المصمم على قتله : « إن وجدتك خارج مكة  
ضررت عنقك صبراً ». .

أنشدها ابن الزناد ، فقال النبي ﷺ وبلغه قوله : « اللهم أكبه منخره واصرعه ». قال : فجمع به فرسه يوم بدر فأخذه عبد الله بن سلمة العجلاني ، فأمر به النبي ﷺ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلع فقتله صبراً )١( .

ح - لقد كان هذا المجرم على كل ما ذكرنا يجادل في مقتله ، ورسول الله ﷺ يصدر حكمه ( وكان أسره عبد الله بن سلمة العجلاني ، فجعل عقبة يقول : يا ولی علام أقتل يا عشر قريش من بين هاهنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لعداوتك الله ولرسوله ». قال : يا محمد منك أفضل ، فاجعلنى كرجل من قومى ، إن قتلتهم قتلتني ، وإن مننت عليهم مننت علىَ ، وإن أخذت منهم الفداء كنتُ كأحدهم ، يا محمد ، من للصبية ؟ قال رسول الله ﷺ : « النار قدّمه يا عاصم فاضرب عنقه » )٢( . فقدّمه عاصم فضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « بنس الرجل كنت ، والله ما علمتُ كافراً بالله وبرسوله وبكتابه ، مؤذياً لنبيه ، فأحمد الله الذى هو قتلك ، وأقر عيني منك » )٣( .

ويقتل هذين المجرمين علم الجيل الأول أن بعض الطغاة العتاة المعادين لا مجال إطلاقاً للتساهل معهم ، فهم رأس الشر وقادته ، ولا هوادة معهم ؛ لأنهم تجاوزوا حد العفو والصفح ، وعلم الأسرى جميعاً أن بالإمكان أن يقتلوا عن بكرة أبيهم بإشارة من رسول الله صلوات الله عليه .

### ٣- الشورى في الأسرى :

ونقف وقفة عند فقه النبوة العظيم في قضية الأسرى .

أ - ها هو ذا عليه الصلاة والسلام يستشير صحبه في الأمر ، وبين يديه سبعون

(١) المغارى للواقدى ٨٢ / ١ .

(٢) ورد هذا المقطع بسنده صحيح ، انظر مجمع الزوائد ٨٩ / ٦ إذ قال فيه : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، ورجالة رجال الصحيح » .

(٣) المغارى للواقدى ١١٤ / ١ .

أسيراً وهو الغنى عن المشورة بالوحي ، والغنى عن المشورة بسداد رأيه وعظمة تفكيره ، ولكنها التربية النبوية للقيادات بعده لا تستغني عن الاستشارة إذا نزل بها أمر ذو بال .

ب- ونجد أدب الأصحاب قد ترك الرأي لأولى النهى والرأي ، فقد كفاهم أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - الرأي ، ولم يبادر الصحاب إلى التكرار واللغو طالما أنه لم يخرج رأيهم عن هذين الرأيين ، بينما تقدم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه برأي ثالث ، هو أن يجمعهم في واد كثير الحطب ، ويضرم بهم النار ، فلقد كان سعد بن معاذ رضي الله عنه من أنصار القتل كما تذكر الرواية المشهورة :

( فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله صلوات الله عليه وسلم في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله صلوات الله عليه وسلم متوجهاً السيف في نفر من الانصار يحرسون رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، يخافون عليه كرة العدو ، ورأى رسول الله صلوات الله عليه وسلم - فيما ذكر لي - في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس . فقال له رسول الله صلوات الله عليه وسلم : « والله لكانك يا سعد تكره ما يصنع القوم » . قال : أجل يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان بالقتل أحب إلىَّ من استبقاء الرجال )<sup>(١)</sup> .

ومع ذلك لم نسمعه يبدي رأياً أو يشارك فيه وهو سيد الانصار ، طالما أن رضي الله عنه كفاه مؤونة ذلك .

ج- وتفاوت الرأيين كبير بين العفو وبين القتل أو الإحراق بالنار ، ومع ذلك لم يتم فريق الآخر كما نرى في دنيانا المعاصرة وفي رجالنا اليوم ، ومثل هذا التفاوت قد يقود إلى المقاصلة بين الفريقين ، فريق يتم لهم الأول بالمداهنة في شريعة الله ، وتفضيل القرابة على الدين والتساهم مع العدو ، وفريق يتم لهم الثاني بالاندفاع الأعمى والتعصب ، وفقدان الحكمة والمعصية الحسنة في الدعوة إلى الله ، ويتغصب ناس لهذا الرأي ، وأخرون للرأي الثاني ، وينقسم الصف ويقع الشقاق ، ومع أنها لا ننكر أن وجود رسول الله صلوات الله عليه وسلم بين ظهرانيهم يحول دون استفحال هذا الموقف أو ذاك ، لكننا نجد فرصة للنيل من أحد الرأيين طالما أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم لم يتبن أحدهما ودخل بيته ، فكل ما قاله الناس : إن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قد يأخذ برأي أبي بكر أو عمر أو ابن رواحة - رضي الله عنهم .

د- وسيد الساسة والقادة محمد - عليه الصلاة والسلام - خرج على الناس ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٢٣/٢ ، ٣٢٤ .

وكان بإمكانه أن يعلن رأيه مباشرة بترجح أحد الآراء الثلاثة ، إلا أنه أراد أن يربى هذه الأمة على اختلاف الرأي واحترام هذا الاختلاف ، وفقه الرأي الآخر - كما يقال - ومن أجل ذلك قدم للمسلمين نموذج أبي بكر رضي الله عنه في اللين ، ونموذج عمر رضي الله عنه في الشدة ، وأن كلا الرأيين منبثق من الإسلام ويتسع الإسلام لهما دون حرج ، فالشدة في الله ، واللین لدعوة الله كلاهما موقف في هذا الدين لا تعارض بينهما .

وحتى تتضح الصورة لدى الصحابة استحضر لهم خاتم الأنبياء من أولى العزم ، حيث مثل اثنان منهم الشدة في دين الله وهما: موسى، ونوح ، ومثل اثنان آخران اللين في دعوة الله هما: إبراهيم، وعيسى ، وبذلك انسكب في نفوس الصحابة الطمأنينة إلى صواب الموقفين ، وكل واحد منهمما مناسب لحالة معينة .

هـ - ومع هذه المقدمة المسهبـة التي أوضحت وزن الصالحين عند الله تعالى ورسوله ، جاء اختيار رسول الله صلوات الله عليه وسلم لرأي أبي بكر في أسلوب من الروعة والحكمة بحيث يبدو وكأنما أخذ برأي عمر : « لا ينفلت أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق » .

إن هذه الصياغة النبوية في التعبير؛ لتوحي بعظمة إمام المربيـن - وهو يعلم أمته أصول الشورى واحترام الرأي وطريقة التعبير عنه ، وفن التعامل مع الآراء المختلفة ، والنفوس المختلفة - بحيث يجعل منها كلاً واحداً لتحقيق الهدف المطلوب .

و- ويستوقفنا كذلك ذلك التجدد العظيم عند عمر رضي الله عنه بحيث لا تأخذه في الله لومة لائم ، فهو لم يكتف بالمشورة - أن يقتل قادة الشرك وصاديقـهم من الأسرى ، وفي هذا ما يكفيه للتجدد للله ، وهو يدعـو إلى قتل قومـه - بل نجد قمة التجدد يوم قال: ( ولكن أرى أن تمكنتـي من فلانـ قريبـ لـعمرـ فأـضرـبـ عـنـقـهـ ، وـعـكـنـ عـلـيـاـ منـ عـقـيلـ فـيـضـرـبـ عـنـقـهـ ، وـعـكـنـ حـمـزةـ مـنـ فـلـانـ أـخـيـهـ فـيـضـرـبـ عـنـقـهـ ، حتـىـ يـعـلـمـ اللـهـ أـنـ لـيـسـ فـيـ قـلـوبـنـاـ هـوـادـةـ لـمـشـرـكـينـ ) فهو لا يكتفى رضي الله عنه بالقتل على عمومه ، بل لابد أن يقوم الاخ بقتل أخيه ، وكل واحد يقتل أقرب الناس إليه .

ز- ويستوقفنا كذلك: الحـسـ الإسلاميـ لـدىـ عبدـ اللهـ بنـ مـسـعودـ - رـضـىـ اللـهـ عـنـهـماـ - يوم يرفع صوته تعقيـباـ على قول رسول الله صلوات الله عليه وسلم : « فلا ينفلـتـ أحدـ منـهـ إلاـ بـفـداءـ أوـ ضـرـبـ عـنـقـ » قـائـلاـ : إلاـ سـهـيلـ بنـ بـيـضـاءـ فـيـانـيـ قدـ سـمعـتـهـ يـذـكـرـ الإـسـلامـ . قالـ : فـسـكـتـ .

لقد رأى عبد الله نفسه - وقد تجاوز الأدب مع قائدـهـ عليهـ الصـلاـةـ وـالـسـلامـ - حين استثنى سهيلـ بنـ بـيـضـاءـ لـذـكـرـ الإـسـلامـ ، وـخلـالـ الـلحـظـاتـ الـقـلـيلـةـ جـداـ منـ صـمتـ النـبـيـ صلوات الله عليه وسلم أـحسـ عبدـ اللهـ أـنـ الـحجـارـةـ مـنـ السـمـاءـ سـتـرـزـ عـلـيـهـ ، وـيـقـنـىـ فيـ هـذـاـ الذـعـرـ حـتـىـ اـندـاحـ

خوفه بقول الرسول ﷺ : « إلا سهيل بن بيضاء » ، وجميل جداً أن يكون هذا الحس الإسلامي بين الجندي وقائده : بحيث لا يتجاوز الجندي حده ويدخل رأيه بكل صغيرة وكبيرة ، خاصة وقائده سيد الخلق - عليه الصلاة والسلام<sup>(١)</sup> .

ح - وتبرز بين يدينا آفاق شخصية الصديق رضي الله عنه الذي لا يغيب حس الداعية لحظة من نفسه ، وهو يرى هذه الأعداد من الأسرى وهم بنو العم والعشيرة والإخوان ، فتكون الفدية من جهة قوة لا للإثراء والغنى والترف ، ولكن قوة لقتال الكفار . أما هؤلاء الأسرى فعسى الله أن يهدى لهم فسيكونوا لنا عضداً . لقد طمع في هذه الأعداد الضخمة ، وقد وجدت في الم Hispanoislamic المحن الإسلامي ، ترى وتشهد عظمة التمكين لهذ الدين ، وترى وتشهد عظمة خلق النبوة في التعامل معها حين تعفو وهي تملك أن تقتل ، وترى وتسمع آيات الله البيانات تدوى في الصف المسلم ، فتنزاح الغشاوة عن عينيها ، وتفكر أفال قلوبها وتنضم لهذا الدين الجديد ، ولا بدع ! فأبوبكر الداعية رضي الله عنه قد قدم لهذا الدين غررة وقمه ، فعلى يديه انضم لهذا الدين ستة من العشرة المبشرين بالجنة غير من اعتقهم بماليه في سبيل الله ، فمالا عنده وسيلة للدعوة ، والجهاد وسيلة للدعوة ، وكل ما يملكه يود أن يوظفه للدعوة إلى الله عز وجل .

ط - ويفقه عمر الفاروق رضي الله عنه أبعاد شخصية الصديق ، ويعلم أنه وهو يعرض الفداء أعظم وأكبر من أن يكون لنفسه حظ ، ولذاته نصيب ، لكن التقدير يختلف للموقف بين الشخصيتين ، فيقول لهما عليه الصلاة والسلام : « لو اتفقتما ما حالفتكمَا » .

وكم هي عظمة الصابرين حين يتقيان على رأى ، فلا يخرج رسول رب العالمين عن رأيهما !؟

ي - أما وقد اختلفا ، ومثل كل واحد منها خطأ ومنهجاً في الحكم بهذه القضية ، فأخذ برأ الصديق رضي الله عنه وهو يرى جنده الحفاة العراة العالة ، أحوج ما يكونون إلى الفدية .

«أنتم عالة، فلا ينفلتون أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق»، ولعل هذا الجو الإسلامي الذي يعيشون فيه يلبي تلك القلوب الجاسية، ويفتحها للإسلام فتنضم إليه .

ث - وينزل القرآن الكريم برأي عمر رضي الله عنه فلابد من الإثمان في القتل ، حتى تتمكن قواعد الإسلام في الأرض ، وتحقق شوكة الكفر ، ويزول الخطر على دولة

(١) من كتاب (المهجر التربوي للسيرة النبوية - التربية الجهادية ، ج ١) للمؤلف .

الإسلام فعندها «فَإِمَّا مَنَا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً»<sup>(١)</sup> . وذلك حين تضع الحرب أوزارها ، وتنهار قوة العدو وتصبح عاجزة عن المواجهة والمقاومة ، وهؤلاء الأسرى لن يبقوا في الصف الإسلامي شهوراً أو سنين . بل سيعودون إلى الصف المشترك بمجرد دفع الفدية ، وسيعادون الحرب ويشكلون القوة التي تحظى لإبادة الإسلام والقضاء عليه ، وكى يدرك المسلمون أبعاد اندفاعهم ورغبتهم فى الفداء ؛ جاء الوحي الربانى ليخيرهم بين قتل الأسرى ، أو أن يُقتل منهم أعدادهم بعد ذلك فى الجولات القادمة ، ولشدة فاقتهم ، من جهة ، ولتوفهم للشهادة من جهة أخرى ، كان موقفهم كما ذكرت الرواية :

يا رسول الله ، عشائرنا وإنحواننا نأخذ منهم الفداء فنتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فليس في ذلك ما يُكره .

والوحي يرribهم ، دون أن يفرض عليهم موقفاً محدداً حيث ترك الأمر شورى فيهم ، عليه الصلاة والسلام وذكرهم بأبعد وخطورة رأى الفدية ، فاختاروا الشهادة معها على قتل أسراهם دون فداء .

لــ وأخيراً ونحن نستعرض النفوس للعصبة المسلمة مع قضية الأسرى لا يفوتنا أن نشهد عظمة عمر رسول الله وقد نزل القرآن برأيه فيما جمحت به نفسه ، ولا استطال على المسلمين بوقته ، ولا أخذه الغرور وتعالي على إخوانه .

أى نفسية هذه التي ينزل القرآن الكريم بصواب رأيها علينا وعلى مشهد من القوم ، ثم تحافظ على توازنها فلا تطير تيئاً وغوراً ، بل تتواضع وتتواضع وتذلل حتى ليجد حبيبه رسول الله رسول الله والصديق ييكيان ، ويستمع لسيده عليه الصلاة والسلام يقول له : «لو نزل عذاب لما نجا منه إلا ابن الخطاب » ، ويستمع إلى حبيبه عليه الصلاة والسلام يقول : «لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة » ، ومع هذا كله يود أن ييكي مع صاحبيه أو يتباكي إن لم يجد بكاء .

لقد استوت هذه النفسية العظيمة ، وهذا المعدن الثمين في الولاء لله ورسوله ، والحب لله ورسوله ، والخلوص من ذاتها لله ورسوله بحيث تنسى نزول القرآن الكريم ووحى السماء برأيها ، ويسغلها ألم الحبيب المصطفى وبكائه عن ذلك كله . ولتنطلق في آفاق هؤلاء الأسرى ، وهم يعيشون هذه اللحظات القليلة في صف النبوة وبين يدي سيد الخلق وأصحابه المؤمنين .

(١) محمد / ٤ .

#### ٤ - العباس عم رسول الله ﷺ :

أ - فهو الآن أسير بيد الأنصار ، والأنصار يغضبون لله ، وهم يرون عم محمد يقف ضده ، وينضم جيش مكة لمحاربه ، ورغم أن لديهم خلفية سابقة عن مواقفه في نصرة محمد ﷺ في مكة ، لكنه لم يسلم ، وهو هو يعود حاملاً السلاح مع جيش قريش هذا هو ظاهر الأمر ، أما سيد الخلق ، فلا يستطيع النوم ؛ لأنه يسمع تضور العباس في وثاقه ؛ ولأنه يعلم أن ملائكاً كريماً أعاد ذلك الصحابي القصير على أسره ، ليقي ذخراً لنبيه فيما بعد . فملائكة السماء شاركت في أسره والحفاظ عليه من القتل ، ويدرك عمر رضي الله عنه جانبًا من الحقيقة وهو الوزير الثاني في الدولة فيقول لحبيبه المصطفى : أفتاهم قال : «نعم» ، وفي الوقت الذي يرفض الأنصار وساطة عمر رضي الله عنه سرعان ما يستجيبون لرغبة حبيبهم المصطفى صلوات الله عليه .

- فإن كان رسول الله ﷺ رضي ؟

- فإن كان رسول الله ﷺ رضي فخذنه .

والجانب الذي يغيب عن عمر رضي الله عنه إسلام العباس ، فيجدنا فرصته سانحة ، وقد خلا به أن يدعوه إلى الإسلام ، ويقسم له أن إسلامه أحب إلى قلبه من إسلام أخيه الخطاب ، وما ذلك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك ، ويقذف بهذه الجملة في صدر العباس ليؤكد له مدى الحب والتلقاني الذي يكنه لابن أخيه محمد عليه الصلاة والسلام ، على مغاليق نفسه تفتح ، ويسارك ابن أخيه في تحقيق هذه الرغبة .

ب - وتبدأ عملية الفداء بعم محمد عليه الصلاة والسلام ، إذ يعرض الأنصار أن يتنازلوا عن حقهم في فداء العباس قائلين : اذن لنا فلتترك لابن اختنا العباس فداءه .

إنه الحب المتبادل بين الرسول ﷺ وجنته ، وطالما أن جهه لعمه بدا واضحاً في استنقاؤه من الأسر ، فليسارعوا إلى تلبية هذا الحب ، والتنازل عن فدائه . وكما يقول ابن حجر رحمة الله في الفتح :

وروى ابن عائذ في المغازى من طريق مرسل ، أن عمر لما ولى وثاق الأسرى شدَّ وثاق العباس ، فسمعه رسول الله ﷺ بين ، فلم يأخذنه النوم ، فبلغ الأنصار فأطلقوا العباس ، فكان الأنصار لما فهموا رضا رسول الله ﷺ بفك وثاقه ، سأله أن يتركوا له الفداء طلباً ل تمام رضاه فلم يجدهم إلى ذلك (١) . وإنما قالوا : ابن اختنا لتكون المنة عليهم في إطلاقه بخلاف ما لو قالوا : (عمك) وكانت المنة عليه ﷺ . وهذا من قوة

(١) فتح الباري ٧/٣٢٢ .

الذكاء وحسن الأدب في الخطاب ، وإنما امتنع النبي ﷺ عن إجابتهم؛ ثلثا يكون في الدين نوع محاابة )١( .

إن حسن معاملة العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتخفيف وثاقه ، وإطلاق إساره ، والمحافظة عليه من القتل شيء ، وعفوه من الفداء شيء آخر .

فالدافع إلى الأولى معرفته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والتي أعلنتها على الملا ، هو أنه خرج مكرهاً وليس بحب قتال المسلمين ، هذا هو المدى الذي أفصح عنه - عليه الصلاة والسلام - أما المدى الآخر ، دوره في مكة ، وتغطية هذا الدور تقتضي أن يعامل في الفداء كبقية الأسرى بل أشد . إن التغطية بالمال على دور العباس الذي يؤديه في مكة أمر ضروري ؟ ولهذا قال - عليه الصلاة والسلام - : « لا والله لا تذرون منه درهماً » .

إن قلب جنوده الأحبة ، عزيز على رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فليأكلوا ما غنموا حلاً طيباً ، ولم يحرم أبو اليسر من فداء أسييره العباس ، فهذا لا يفيد في قضية دور العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيئاً ، بل يساعد على كتمانها ، وتبقي الثقة في العباس عند قريش قائمة ، وسيمضي الأسرى السبعون إلى مكة ، ويتحدون بالتعامل مع العباس ، وأنه دفع الفداء أكثر منهم . فيتبخر الشك عندهم بولاء العباس لمحمد رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وسيشهد الأسرى كذلك عظمة هذا النبي الذي لم يحاب عمه بدرهم واحد ، وقد عرض عليه ذلك ، فهو رسول الله وليس ملكاً ذا مصلحة ، أو حاكماً يقدم ذراً قربة ، وهذه معانٍ حينئذ قلوب الأسرى يدركون أن محمداً رسول الله ، وليس طالب ملك ، أو داعية عصبية لسيادة بنى هاشم على الملا ، ويزداد الذين آمنوا من الانصار إيماناً ، أن المعاملة السابقة في حمايته وتخفيف الألم عنه لا تعنى حرمان الانصار حقهم من إساره . وللتتابع قضيته إلى آخر المطاف .

جـ - وروى ابن إسحاق من حديث ابن عباس أن النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: « يا عباس افد نفسك ، وابن أخويك عقيل بن أبي طالب ، ونوفل بن الحارث ، وحليفك عتبة بن عمرو فإنك ذو مال » قال: إنني كنت مسلماً ولكن القوم استنكرونني . قال : « الله أعلم بما تقول إن كنت ما تقول حقاً الله يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا » .

وذكر موسى بن عقبة أن فدائمهم كان: أربعين أوقية ذهبًا . وعند أبي نعيم في الأسائل بإسناد حسن من حديث ابن عباس: « كان فداء كل واحد أربعين أوقية . فجعل على العباس مائة أوقية ، وعلى عقيل ثمانين » ، فقال له العباس : ال القرابة

(١) سبل الهادي والرشاد للإمام الصالحي ١٣٥/٤ .

صنعت هذا ؟ قال : فأنزل الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيهِمْ مَنْ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخْذَ مِنْكُمْ » (١) فقال العباس : وددت لو كنت أخذت مني أضعافها لقوله تعالى : « يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخْذَ مِنْكُمْ » (٢) .

فال Abbas رضي الله عنه يعلن إسلامه ، وأنه كان على ذلك وهو في مكة ، والعباس لا يكذب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يكتسم إسلامه ويعامله على الظاهر ، ويضاعف الفداء عليه وعلى ولدي أخيه عقيل ونوفل ، ويحسن العباس بالضمير في ذلك ، فيأتي القرآن بلسماً لشفائه أن سيؤتيك الله خيراً مما أخذت منه ، فيفرح ، وقد علم الله تعالى في قلبه الخير ، وعلم في قلبه الإسلام فهو يحدثنا عما عوض الله تعالى عليه بعدها فيقول : في نزلت : « مَا كَانَ لِبَيْهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَشْغُلَ فِي الْأَرْضِ... » (٣) فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقية التي أخذت مني فابي ، فأبدلني الله بها عشرين عبداً كلهم تاجر مالي في يده (٤) .

وكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل علينا وأن لي الدنيا لقد قال : « يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخْذَ مِنْكُمْ » ، فقد أعطاني الله خيراً مما أخذت مني مائة ضعف وقال « وَيَغْفِرُ لَكُمْ » وأرجو أن يكون قد غفر لي (٥) .

فال Abbas قد صدق الله تعالى قلبه بإسلامه ، وأعطاه خيراً مما أخذ منه ، وهذه الشهادة الربانية كافية في صدق إسلامه ، كما يحدثنا أبو رافع رضي الله عنه مولاه عن هذا الإسلام فيقول :

( كنت غلاماً لل Abbas بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم ، وكان يكتسم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه ) (٦) .

وحين يذكر ابن إسحاق أسرى المشركين من قريش لا يذكر العباس على رأسهم ، إنما يذكر : عقبلاً ونوفلاً ، أولاد أخيه . فيتعلق الحشنى - رحمه الله - على ذلك .

وذكر في الأسرى من قريش يوم بدر عقيل بن أبي طالب ، ونوفل بن الحارث بن

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر / ٧ / ٣٢٢ .

(١) الأنفال / ٧ .

(٤) تفسير ابن كثير للمحافظ ابن حجر / ٣ / ٣٤٩ .

(٣) الأنفال / ٦٧ .

(٥) المصدر نفسه / ٣ / ٣٥٠ .

(٦) السيرة لابن هشام / ٢ / ٣٥١ ، ومجمع الزوائد / ٦ / ٨٧ وقال فيه : « رواه الطبراني والبزار وفي إسناده حسين ابن عبد الله ونeph أبو حاتم وغيره ، وضعفه آخرون ، وبقيه رجاله ثقات » .

عبد المطلب ، ولم يذكر معهم العباس بن عبد المطلب ؛ لأنه كان أسلم وكان يكتم إسلامه خوف قومه فيما ذكر عنه <sup>(١)</sup> .

فإذن نحن مع العباس المسلم الذي يدفع مائة أوقية كما في الحديث الحسن الذي مرّ علينا ، ويفدی بنی أخويه بضعف المبلغ ، ويحاول إعفاء نفسه من عشرين أوقية دفعها في الأيام العصبية رسول الله ﷺ يصر علىأخذها منه قائلًا: « ذاك شيء أعطاناه الله منك » . ويعود المسلم العباس لمكة ، وقد دفع هذا المال كله ، فيرى المسلمين ظاهراً أن رسول الله ﷺ لم يحاب أحد الناس إليه عمه العباس ، وتعامل معه على الظاهر ، رغم إلحاح الانصار بإعفائه من الفدية ، بينما يمضى العباس بعدها إلى مكة مخفياً إسلامه ، ويعمل رأس استخبارات النبي ﷺ في مكة ، طيلة عهد مكة ، حيث يتبعه دوره في فتح مكة فيعلن إسلامه قبلها بساعات .

هذا هو البناء النفسي الذي ساهم رسول الله ﷺ في بنائه لعمه العباس ، وفي بناء مفهوم العدالة الخالصة في نفس الأسرى جميعاً ، ورفض المحاباة على أعين الناس سواء الأسرى أو أصحابهم ، ويتمتعون بالحرمة الخالصة في اختيار الفداء .

## ٥ - وزينب بنت رسول الله :

قال ابن إسحاق : ( وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عائشة قالت : لما بعث أهل مكة في فداء أسرائهم ، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين عليها ؛ قالت : فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا » ؛ فقالوا : نعم يارسول الله ، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها .

فهذه سيدة من سيدات أهل الأرض ، زينب - رضى الله عنها - وفقيرة من فقيرات مكة ، تبعث ما جنته في عمرها من دراهم ، ولا تجد لإتمام الفداء إلا أغلى ما تملك ، قلادة أعطتها أمها خديجة لها يوم زواجها بأبي العاص بن الربيع ، ويرى عليه الصلاة والسلام القلادة ، فيفيض دمعه ، فالقلادة جزء من حياته كان يعهدنا عند زوجه خديجة ، ويرق القلب العظيم لهذه الزوجة الكسيرة ، فيستأذن المسلمين قائلًا : « إن أردتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا » .

وفي الوقت الذي رفض فيه رسول الله ﷺ إعفاء العباس من درهم واحدٍ من

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٧/٣ .

فداه ، يستأذن المسلمين في فداء هذه الفقيرة الخالدة . وهو في الوقت نفسه يبني في نفس صهره أبي العاص بن الربيع شحنات من الإيمان ، ودفعات جديدة عميقة من الحب ، ثم يخلو به ويطلب منه أن يُخلِّي سبيل زينب رضى الله عنها ، لتأتي إلى المدينة لتنضم إلى الركب المسلم فيه . فقد فرق الإسلام بين أبي العاص وزينب ، ولم يستجب أبو العاص للإسلام . فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، ورجالاً من الأنصار مكانه فقال : « كونا بيبطن ياجع<sup>(١)</sup> حتى تمر بكم زينب ، فتصحباها حتى تأتيني بها » . فخرجما مكانتهما ، وذلك بعد بدر أو شيء<sup>(٢)</sup> ، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت تجهز .

ولابد أن نستعيد جو مكة الموتورة الثائرة بعد بدر ، فقد خيم عليها الموت أو كاد ، لمصاب أهل بدر .

وتجددت مكة بحيث لا تبكي على قتلها ، فيشتمت محمد والمسلمون معه بها ، ويخرج كنانة بن الريبع أخو زوجها يقودها إلى بطن ياجع ، وقد سمع من أخيه أبي العاص عظمة المعاملة النبوية لأخيه ، فكان لابد أن يرد هذا الجميل ، فخرج بها نهاراً يقود بها وهي في هودج لها ، وتحدى بذلك رجال من قريش فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذى طوى ، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب الفهري ، فروعها هبار بالرمم وهي في هودجها ، وكانت المرأة حاملاً - فيما يزعمون - فلما ريعت طرحت ذا بطئها ، وبرك حموها كنانة ونشر كنانته ثم قال : والله لا يدنو مني رجل إلا وضع في سهمًا فتكرر الناس عنه وأتى أبو سفيان في جلة من قريش فقال : أيها الرجل كُفَّ عننا بذلك حتى نكلمك . فكف ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال : إنك لم تصب ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد فيظن الناس إذا خرجت بابتها علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت ، وأن ذلك منا ضعف ووهن ، ولعمري مالنا بحسبها عن أيها من حاجة ، وما لنا في ذلك من ثورة ، ولكن ارجع بالمرأة ، فإذا هدأت الأصوات ، وتحدى الناس أن قد رددناها ، فسلَّها سراً ، وألحقها بأبيها . قال : فعل ، فأقامت ليالي ، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة ، وصاحبها فقدم بها على رسول الله ﷺ ...<sup>(٣)</sup> .

(١) بطن ياجع : اسم مكان على ثمانية أميال من مكة .

(٢) أو شيء : قريب منه .

(٣) السيرة النبوية لأبن هشام ٢/٣٦٢ وقد رواه البزار وروجاته رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد ٩/٢١٢ .

ولما انصرف الذين خرجن إلى زينب لقيتهم هند بنت عتبة فقالت لهم :  
 أفي السلم أعيار (١) جفأة وغلظة      وفي الحرب أشباء النساء العوارك  
 وقال كنانة بن الريبع في أمر زينب حين دفعها إلى الرجلين :  
 عجبت لهبار وأوياس قومه      يريدون إخفارى ببنت محمد  
 ولست أبالى ما حيت عديدهم      وما استجمعت قضا يدى بالمهند (٢)

لقد كان أبو العاص يعرف حموه محمدًا صلوات الله عليه منذ أعوام طويلة ، وافتقر عنه في  
 دينه ، لكن عظمة الخلق النبوى ، وعظمة زينب بنت بيت النبوة بقينا ملائكة كيانه ،  
 وكيان أخيه كنانة ، فيحسن معاملة زينب ويزداد تعلقاً بها ، وفي شهامة الرجال يستجيب  
 لمحمد بن عبد الله ، ويضغط على عواطفه وجهه ، ويكرم محمدًا صلوات الله عليه بابته ، ويُعرض  
 كنانة حياته للخطر ، ويستعد لمواجهة مكة كلها حفاظاً على عرض بنت محمد وهو على  
 شركه ، وأبو العاص على شركه ، ويمتد الزمن ويمتد الخط ، وحسن معاملة النبي صلوات الله عليه  
 تمحف في قلب أبي العاص ، حتى ليقع ثانية أسيراً بيد المسلمين ، ويعرف ذلك القلب  
 العظيم الذي عاش معه سنوات طولاً ، قلب زينب فينر إليها ويستجير بها فتجيره ،  
 إكباراً لتلك المعاملة الكريمة العظيمة ، وتهتز المدينة كلها إجلالاً لتلك الإجارة ، بل  
 يسارع البيت المسلم ، والمدينة كلها غدت بيئاً واحداً ، تعيد تجارة أبي العاص إليه ،  
 ويزداد إكبار أبي العاص لمحمد وابنته محمد، ثم الدين محمد بعدها الذي سخر المعسكر  
 الإسلامي لخدمته حباً بمحمد رسول الله صلوات الله عليه ، ويعرف أن هذا البيت ، وهذه البيئة ،  
 هي موطنـهـ الحـقـيقـيـ ، وأن الإسلام ورسول الإسلام هو النور الذي عم الوجود فكونـ  
 هذه النماذج العظيمة ، فيعود أدراجه إلى مكة يسلم التجارة إلى أهل مكة والأرباح  
 إليـهمـ ، وفي قلب عاصمة الشرك وبين أساطينـهـ وقادتهـ يعلنـ كلمةـ التـوحـيدـ ، ويـمضـىـ  
 إلى جوار حبيـهـ المصطفـىـ صـلـوـاتـ اللهـ تـعـالـىـ عـلـيـهـ . إنـهاـ تـرـيـةـ اـبـدـأـتـ بـأـبـيـ الـعـاصـ مـنـذـ  
 لـحظـاتـ زـوـاجـهـ الـأـوـلـىـ ، وـرـافـقـتـهـ فـىـ كـلـ لـحـظـاتـ حـيـاتـهـ مـعـ زـينـبـ ، وـمضـتـ  
 صـعـداـ بـقـلـبـهـ تـزـيـعـ ذـلـكـ الرـانـ مـنـ الشـرـكـ ، حتـىـ يـغـمـ الإـيمـانـ قـلـبـهـ بـهـدـىـ ذـلـكـ السـلـوكـ .

## ٦ - إسلام عمير بن وهب (شيطان قريش) :

ولم تفجع مكة فقط بكنانة بن الريبع يشن حرباً من أجل بنت محمد صلوات الله عليه ، بل  
 فجعت بـ (شـيـطـانـ قـرـيـشـ) يـنـضـمـ إـلـىـ الصـفـ المـسـلـمـ .

(٢) السيرة النبوية لأبن هشام ٢ / ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(١) أعيار : جمع غير وهو الحمار .

قال ابن إسحاق : ( وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير قال : جلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحجر بيسير ، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ، ومن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وكانت يلقون منه عناه وهو بمكة ، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر . قال : فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله إن في العيش بعدهم خير ؟ قال له عمير : صدقت والله ، أما ولله لولا دين على ليس له عندى قضاء ، وعيال أخي علىهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإنَّ لي قبلهم علة : ابني أسير في أيديهم . قال : فاغتنمتها صفوان وقال :

على دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسفهم مابقوا ، لا يسعنى شيء ويعجز عنهم ؛ فقال له عمير : فاكتم شأنك وشأنك ؟ قال : أفعل .

قال : ثم أمر عمير بسيفه فشحد له سُمّ ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ؛ فبينما عمر ابن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمه الله به ، وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين آتاه على باب المسجد متوضحاً السيف ، فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذي حرَّش بنا وحرزنا للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله ، هذا عدو الله عمير بن وهب ، قد جاء متوضحاً سيفه ؛ قال : « فادخله على ». قال : فأقبل عمر حتى إذا أخذ بحملة سيفه في عنقه فلبيه بها ، وقال لرجال من كانوا معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الشيئ ، فإنه غير مأمون . ثم دخل به على رسول الله ﷺ . فلما رأه رسول الله ﷺ ، وعمر أخذ بحملة سيفه في عنقه . قال : « أرسله يا عمر ، ادْنِ ياعمير ». فدنا ثم قال : انعموا صباحاً ، وكانت تجية أهل الجاهلية بينهم . فقال رسول الله ﷺ : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتكم يا عمير السلام : تجية أهل الجنة » . فقال : أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد ؟ قال : « فما جاء بك يا عمير ؟ » . قال : جئت لهذا الاسير الذي بين أيديكم فاحسنوا فيه . قال : « فما بال السيف في عنقك ؟ » . قال : قبحها الله من سيف وهل أغنت عنا شيئاً ! قال : « اصدقني ما الذي جئت له ؟ » . قال : ما جئت إلا لذلك .

قال : « بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت : لولا دين على وعيال عندي ؛ لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك ، على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك ». قال

عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هداني للإسلام وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق ، فقال رسول الله ﷺ : « فقهوا أحكام فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوه أسريره » ففعلوا .

ثم قال : يا رسول الله ، إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، وأنا أحب أن تاذن لي ، فأقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ﷺ ، وإلى الإسلام لعل الله أن يهديهم ، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أؤذى أصحابك في دينهم ؟ قال : فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة . وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول : أبشروا بوعة تأييكم الآن في أيام تُنسِّيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فخلف الأَيْكَلْمَه أبداً ، ولا ينفعه بتفع أبداً . قال ابن إسحاق : فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالقه أذىً شديداً ، فاسلم على يديه ناس كثير ) (١) .

لقد صدق فراسة عمر رض فهو ما جاء إلا لشر ، وجاء الوحي يقرر ذلك دون الاعتماد على الفراسة ، وسقط السيف المسموم بين يدي رسول الله ﷺ وثيقة إدانة كاملة ، وحاول شيطان قريش التخلص من المسؤولية حين قال عن سيفه بعد التحقيق معه : « فما بال السيف معك » قال : ( قبحها الله من سيف ، وهل أغنت عنا شيئاً ) . وأمام هذه الإدانة الظاهرة كان من الطبيعي والمنطقى أن يقال لعمير : قم باعمر فاضرب عنقه .

ولكن أمر هذا الدين أنه يريد أن يحيى الإنسان لا أن يقتله ، ويريد أن يستجيش هذه الطاقات المذخورة لتكون في خدمته في سبيل الله ، ونحن مع إمام المربيين رض ، وقد خفض جناحه لهذا الشيطان المريد ، الذي جاء لقتله ، وأحسن حديثه ، وذكر له مهمته التي أعلمها إياها رب السموات والأرض ، فإذا بعمير بن وهب الجمحى يلمس لسان اليد : الوحي الربانى ، ويرى عياناً كيف انتقل هذا السر المكتوب بينه وبين صفوان إلى محمد رسول الله ﷺ ، من الذي يعلم السر وأخفى ؟ وأدرك أنه أمام النبي المصطفى من رب العالمين ، وكانت لحظات إعادة بناء كيانه من جديد .

أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٧٤ .

السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما آتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هداني للإسلام وساقنى هذا المساق .

إنها لحظات خالدة في تاريخ البشرية بين أن يقط رأس المقدم على الجريمة ، وبين أن يتتحول المجرم مؤمناً تفتح ذرات قلبه لتلقى النور الإلهي ، فيأتى التوجيه النبوى : «فَقَهُوا أَخَاكُمْ فِي دِينِهِ ، وَأَفْرَنُوهُ الْقُرْآنَ ، وَأَطْلَقُوا لَهُ أَسْيَرَهُ » .

لقد أطلقوا له أسيره ، وأطلقوا هو من عقال الكفر وظلمات الجهل ، ليصبح في لحظات عضواً في الصف المسلم ، ويسعد بهذا الصف ، ويسعد الصف به .

وها هو لا يرضى أن يكون امرءاً عادياً فحسب ، ويتناظر دوره حتى تقوم معركة مع المشركين يمارس فيها طاقاته ، بل قال : يا رسول الله ، إنى كنت جاهداً في إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله ، وأنا أحب أن تاذن لي فأقدم مكة ، فادعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسول الله ﷺ ، وإلى الإسلام لعل الله أن يهدىهم ، وإنما أذيتهم في دينهم كما كنت أوذى أصحابك .

إنه يريد أن يواجه مكة كلها كما واجهها عمر من قبل ، فهو ليس إنساناً مغموراً أو ورقة منسية . إنه طاقة قيادية بناة ، يود أن يقود مكة كلها إلى الإسلام ، أو يواجهها بشخصه وأذن له رسول الله ﷺ ، وفعل ، وواجه ، وتحدى ، وعاد أدراجه إلى المدينة ، وأسلم على يديه ناس كثير ، وكان حين تعد الرجال يطرحه عمر كوكبة من يزن عنده ألف رجل ، وكان أحد الأربعين الذين أمد بهم أمير المؤمنين عمر ، عمرو بن العاص رض الذين كان كل واحد منهم بألف .

وبعد أن كان صفوان بن أمية يعد قريشاً بقوله : أبشروا بوقعة تأييكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر . إذ به يصعد بإسلام عمير فقسم لا يكلمه أحداً .

ويمر الزمن ، ويبيقى عمير الشخصية القيادية العظيمة ، يحرص على صفوان بن أمية سيد بنى جمع أن ينضم للصف الإسلامي ، بعد أن ذاق حلاوة الإيمان في هذا الصف ، وقد خرج صفوان هارباً من مكة ، يريد جدة ليركب منها إلى اليمن ، ( فقال عمير بن وهب : يا نبى الله إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منه ليقذف بنفسه في البحر فأنه صلى الله عليه . قال : « هو آمن » . قال : يارسول الله ، فأعطيك آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التى دخل بها مكة ، فخرج بها عمير حتى أدركه ، وهو يريد أن يركب البحر ، فقال : يا صفوان فداك أبي وأمي ، الله الله فى نفسك أن تهلكها . فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به . قال : ويبحك . اغرب عنى فلا تكلمنى . قال - أى صفوان - : فداك أبي وأمي ،

أفضل الناس ، وأبر الناس ، وأحلם الناس ، وخير الناس ، ابن عمك ، عزّه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك . قال : إنني أخافه على نفسي . قال : هو أحلم من ذلك وأكرم ، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ ، فقال صفوان : إن هذا يزعم أنك أمنتني ، قال : « صدق » . قال : فاجعلنى في الخيار شهرين . قال : « أنت بالختار أربعة أشهر » (١) .

لقد بقى عمير رض يتضرر الفرصة المواتية ليضم الطاقة المذخورة القيادية صفوان حتى جاء أوانها المناسب ، وصاروا من رجالات الإسلام الكبيرى فى التاريخ بعد أن كان من الممكن أن يتنهوا من القادة الطغاة فى التاريخ . إنه إمام المربيين الذى يتعامل مع أعماق القلوب لا مع مظاهر السلوك . وهو الذى يسعى ليعمى هذه النفوس بالإسلام عوضاً عن أن يقتلها لحربها للإسلام ، وندع الحديث عن إسلام صفوان لوقته المناسب إنما عرضنا معه لتابع مدرسة التربية العظيمة فى أسري بدر ، وهى التى قادت عميراً ليتعلل بفداء ابنه ، فأفلقت به فى بؤرة النور ، مع ابنه الذى أسلم كذلك بعد .

## ٧- العلم خير من المال :

ولا ننسى أخيراً تلك الفدية العظيمة لمن لم يملك المال ، وكان يملك القراءة والكتابة أن يهدى نفسه بتعليم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة ، فقد كانت خطة تربوية لنشر وسيلة المعرفة من القراءة والكتابة في يثرب عاصمة الإسلام ، وكان من ثمار هذه الخطة : زيد بن ثابت الذى أوكل إليه على ضوئها معرفة أسرار التوراة ، وتعلم العربية بعد العربية ، ثم أوكل إليه فيما بعد حفظ أسرار القرآن ، حيث كلف بجمعه كله من صدور الحفاظ بأمر أبي بكر رض وكان هذا من آثار مدرسة التربية عند الأسرى والتي رعاها إمام المربيين - صلوات الله وسلامه عليه .

## ١- ظهور النفاق والمنافقين (المدينة بعد بدر) :

١- قال محمد بن عمرو الأسلمي : ثم مضى رسول الله ﷺ حتى دخل المدينة قبل الاسارى بيوم واحد مؤيداً منصوراً ، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، وحيثند دخل عبد الله بن أبي بن سلول فى الإسلام ظاهراً وقالت اليهود : تيقنا أنه النبي الذى نجد نعنه فى التوراة .

ودخل رسول الله ﷺ من ثنية الوداع . قال فى الامتناع : دخل رسول الله ﷺ

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ٤/٨٦ .

المدينة رجوعه من بدر يوم الأربعاء الثاني والعشرين من رمضان<sup>(١)</sup> .

ب - قال ابن إسحاق : ثم مضى رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة قبل الاسارى يوم<sup>(٢)</sup> .

ج - ... وكان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم ، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا ، فقتل به صناديد كفار قريش ، قال ابن أبي سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه . فباعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا ...<sup>(٣)</sup> .

## ٢ - مقتل عصماء بنت مروان :

في بعثة عمير بن عدي الخطمى رضى الله تعالى عنه لخمس ليالٍ بقين من رمضان من السنة الثانية إلى عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد ، زوج يزيد بن زيد بن حصن الخطمى ، وكانت تعيب الإسلام ، وتؤذى رسول الله ﷺ وتقول الشعر ، وكانت تطرح المحايض في مسجد بنى خطة ، فأهدر رسول الله ﷺ دمها . فتذر عمير ابن عدي لنن رجع رسول الله ﷺ من بدر إلى المدينة ليقتلنها ، فلما رجع رسول الله ﷺ من بدر جاء عمير ليلًا حتى دخل عليها بيتها ، وحولها نفر من ولدها نيا ، منهم من ترضعه في صدرها ، فجسأها بيده وكان ضرير البصر . فتحى الصبي عنها ، ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها .

وروى ابن عساكر في ترجمة أحمد بن أحمد البلخي ، من تاريخه عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنها - أن رسول الله ﷺ قال : « لا رجال يكفنا هذه »<sup>(٤)</sup> ؟ فقال رجل من قومها : أنا فأناها وكانت ثمارّة . فقال لها : أعندهك أجود من هذا التمر ؟ قالت : نعم ، فدخلت إلى بيته . وانكببت لتأخذ شيئاً فالتفت يميناً وشمالاً فلم أر أحداً فضررت برأسها حتى قتلتها . ثم أتى المسجد فصلى الصبح مع رسول الله ﷺ . فلما انصرف نظر إليه رسول الله ﷺ وقال : « أقتلت ابنة مروان؟ » قال : نعم فهل على في ذلك من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا ينفع فيها عزان » ، فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ وقال : « إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله عز وجل ورسوله فانظروا إلى عمير بن عدي » .

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٤/٩٨ . (٢) السيرة النبوية لأبن هشام ٢/٣٤٨ .

(٣) البخاري لـ ٦٥ تفسير القرآن ، بـ ١١ ، سورة آل عمران ج ٦ / ص ٤٩ .

(٤) وعند ابن هشام : لا آخذنى من ابنة مروان . السيرة ج ٤ .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انظروا إلى هذا الأعمى الذي يسرى في طاعة الله .  
 فقال رسول الله ﷺ : « لا تقل الأعمى ولكن البصير ». فلما رجع عمير وجد بنها في جماعة يدفنونها . فقالوا : يا عمير أنت قتلتها ؟ قال : ( نعم فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ، « والذى نفسى بيده لو قلتكم بأجمعكم ما قالت لضررتكم بسيفى هذا حتى الموت أو أقتلکم » ، فيومئذ ظهر الإسلام في بنى خطمة . وكان يستخفى بإسلامه فيهم من أسلم ، فكان أول من أسلم من بنى خطمة : عمير بن عدى ، وهو الذي يدعى القارئ ) (١) .

### ٣- مقتل أبي عفك اليهودي :

في بعثة ﷺ سالم بن عمير - رضي الله تعالى عنه - في شوال (٢) من السنة الثانية إلى أبي عفك اليهودي من بنى عمرو بن عوف ، وكان شيخاً كبيراً قد بلغ مائة وعشرين سنة ، وكان يحرّض على رسول الله ﷺ ، ويقول الشعر ، فقال رسول الله ﷺ : « من لي بهذا الحديث » فقال سالم بن عمير ، وكان قد شهد بدرًا والشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وأحد البكائيين وتوفي في خلافة معاوية : ( على نذر أن أقتل أبي عفك أو أموت دونه ) . فأنهمل يطلب له غرّة ، فلما كانت ليلة صائفة نام أبو عفك ببناء منزله ، وعلم به سالم بن عمير ، فأقبل ووضع السيف على كبدته ، ثم اعتمد عليه حتى خشن في الفراش ، وصاح عدو الله فتاب إليه ناس من نجم نفاقهم وهم على قوله ، فادخلوه منزله فقبره فقللت أمامة المربيبة :

تُكَذِّبُ دِينَ اللَّهِ وَالْمَرْءَ أَحْمَدًا  
لِعْمَرَ الَّذِي أَمْنَاكَ أَنْ يَسْنَ ما يَنْتَ  
حَبَّاكَ حَنِيفَ آخِرَ الدَّهْرِ طَعْنَة  
أَبَا عَفْكَ خَذَنَاهَا عَلَى كِبِيرِ السِّنِّ (٣)

### ٤- في غزوة بنى قينقاع :

وهم قوم عبد الله بن سلام وكانت يوم السبت للنصف من شوال ، على رأس عشرين شهراً من مهاجرته ﷺ ، وكانوا حلفاء عبد الله بن أبي بن سلول ، وعبدة بن الصامت ، وغيرهما من قومهما ، وكانوا أشجع يهود وهم صاغة ، وقد كانت الكفار بعد الهجرة مع النبي ﷺ على ثلاثة أقسام : قسم وادعهم على الا يحاربوه ولا يوالوا عليه عدواً ، وهم طائف اليهود الثلاثة : قريطة ، والنضير ، وبنو قينقاع . وقسم

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٣٦/٤ .

(٢) وكان ذلك في اثنين وعشرين من شوال كما ذكر الواقعى .

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٣٨/٤ .

حاربوه ونصبوا له العداوة ، وهم : قريش ، وقسم تاركوه وانتظروا ما يقول إليه أمره كطائف من العرب ، فمنهم من كان يحب ظهوره في الباطن كخزاعة ، وبالعكس كبني بكر ، ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوه باطنًا وهم المنافقون .

ولما قدم النبي ﷺ المدينة مهاجرًا ، وادعه اليهود كلها ، وكتب بيته وبينهم كتاباً ، وألحق كل قوم بحلفائهم وجعل بينه وبينهم أمانًا . وشرط عليهم شروطاً منها : إلا يظاهروا عليه عدواً ، فلما كان يوم بدر كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا العهد ، وأظهروا البغي والحسد وقطعوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، فجمعهم بسوق بنى قينقاع وقال : « يا معشر يهود أسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله ﷺ ؛ يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من التنمية فاسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنني مرسلاً ، تمدون ذلك في كتابكم ، وعهد الله إليكم » قالوا : يا محمد إنك ترى أنا مثل قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربتنا ، لتعلمنا أنا نحن الناس .

قال ابن عباس فيما رواه ابن إسحاق : ما أنزلت هذه الآيات إلا فيهم : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلِبُونَ وَتُعَذَّرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَيُنَسِّ الْمَهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آتِيَةٌ فِي بَيْتِنَا فَهُنَّ قَاتِلُوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أي : أصحاب بدر من أصحاب رسول الله ﷺ : « وَآخَرَى كَافِرَةً يُوَرُّونَهُم مِثْلِهِمْ رَأَيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤْيدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعْنَةً لِأُولَئِنَّ الْأَبْصَارِ »<sup>(1)</sup> فبينما هم على ما هم عليه من إظهار العداوة ونبذ العهد ، قدمت امرأة من العرب بيجلب لها ، فباعت بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ بها حلبي ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فلم تفعل ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها من ورائها فخله بشوكه وهي لا تشعر . فلما قامت بدت عورتها فضحكوا منها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهودياً فقتله . وشهدت اليهود على المسلم فقتلوا ، ونبذوا العهد إلى النبي ﷺ ، واستصرخ في أهل المسلم المسلمين على اليهودي ، وغضب المسلمون فوق الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

وأنزل الله تعالى : « وَإِمَّا تَخَالَّنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِئْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُغَالِيْنَ »<sup>(2)</sup> فقال ﷺ : « إِنَّمَا أَخَافُ مِنْ بَنِي قِينَاعٍ ». فسار إليهم رسول الله ﷺ لهذه الآية ، وحمل لواءه : حمزة بن عبد المطلب ، وكان أبيض .

قال ابن سعد : ولم تكن الرایات يومئذ ، واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد

(2) الأنفال / ٥٨ .

(1) آل عمران / ١٢ ، ١٣ .

المنذر، فتحصروا في حصنهم فحاصرهم أشد الحصار ، فأقاموا على ذلك خمس عشرة ليلة ، حتى قذف في قلوبهم الرعب ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ على أن لرسول الله ﷺ أموالهم ، وأن لهم النساء والذرية . فأمر بهم فكتبا واستعمل على كتابتهم المنذر بن قدامة السلمى ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان لهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أبي بن سلول ، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله تعالى ورسوله من حلفهم وقال : يا رسول الله ! أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبراً من حلف هؤلاء الرجال ، فقام إلى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم . فقال : يا محمد أحسن في موالي ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فابتدا عليه رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أحسن في موالي فأعرض عنه . فادخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه - وكان يقال لها : الفضول - فقال له رسول الله ﷺ : « ويحك أرسلنى » وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظلاماً ، ثم قال : « ويحك أرسلنى ». قال : والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي : أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع . قد متعمنى الأحمر والأسود من الناس تحصدتهم في غداة واحدة ، إني والله أمرت أخشى الدوائر . فقال ﷺ : « خلوهم لعنهم الله ولعنهم معهم » وتركوهم من القتل ، وأمر بهم أن يجلوا من المدينة ، فخرجوها بعد ثلاثة ، وولي إخراجهم منها عبادة بن الصامت ، وقيل : محمد بن مسلمة ، ولحقوا بأذرعات ، مما كان أقل بقاء لهم فيها .

وأنزل الله تعالى في شأن عبد الله بن أبي ، وفي شأن عبادة بن الصامت : « يا أيها الذين آمنوا لا تخذلوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ... » « فترى الذين في قلوبهم مرض ... » أي عبد الله بن أبي وقوله : إني أخشى الدوائر : « يسارعون فيهم يقولون تخشى أن تصيبنا دائرة ... » إلى قوله تعالى : « إنما وليكم الله ورسوله وألذين آمنوا ... » وذلك لتولى عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا ، وتبرأه من بنى قينقاع وحلفهم وولايتهم : « ومن يقول الله ورسوله وألذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » (١) (٢) .

#### ٥ - بناؤه ﷺ بعائشة :

(تزوجها نبي الله قبل مهاجره بعد وفاة الصديقة خديجة بنت خويلد ، وذلك قبل

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي . ٢٦٨ / ٤

(١) المائدة / ٥١ - ٥٦ .

الهجرة ببضعة عشر شهراً ، وقيل : بعامين . ودخل بها في شوال سنة اثنين منصرفه - عليه الصلاة والسلام - من غزوة بدر وهي ابنة تسع )١( .

وعن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وأدخلت عليه في شوال ، فما نسائه كان أحظمى عنده مني ؟ وكانت تستحب أن تدخل نساؤها في شوال )٢( .

#### ٦- بناء على بفاطمة - رضي الله عنها :

عن عبد الله بن محمد بن عمر بن على عن أبيه قال : تزوج على بن أبي طالب فاطمة بنت رسول الله ﷺ في رجب بعد مقدم النبي ﷺ بالمدينة بخمسة أشهر ، وبني بها مرجعه من بدر ، وفاطمة يوم بني بها على بنت ثمانى عشرة سنة )٣( .

وقال الذهبي : (مولدها قبل المبعث بقليل ، وتزوجها الإمام على بن أبي طالب في ذى القعدة أو قبيله من سنة اثنين من وقعة بدر) )٤( .

#### ٧- غزوة السويف (٥) :

وبسبتها : أن فلَّا المشركين )٦( لما رجعوا إلى مكة محزونين حرم أبو سفيان على نفسه الدهن ، ونذر لا يمس رأسه ماءً من جنابة حتى يثار من رسول الله ﷺ وأصحابه من أصيب من المشركين يوم بدر ، فخرج في ماتئي راكب من قريش ليبر بيمينه ، فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له : تبيب بالمدينة على بريد أو نحوه ، ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل ، فأتى حتى بين أخطب فضرب عليه بابه ، فأبى أن يفتح له وخافه ، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كتزهم ، فاستأذن عليه فاذن له ، فقرأه )٧( وسقاء ، وبطنه له من خبر الناس ، وخبر رسول الله ﷺ ، ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث رجالاً من قريش ، فأتوا ناحية منها يقال لها : العُرْيِض ، فحرقوا في أصوار من نخل بها ، ووجدوا رجالاً من الأنصار وحليقاً له في حرث لهما فقتلواهما .

قال في الامتناع : وهذا الأنصاري هو : معبد بن عمرو ، ورأى أبو سفيان أن يمينه قد حُلت ، وقيل : إن أبو سفيان فعل ذلك لما رجع في ليلته من عند سلام بن

(١) سير أعلام النبلاء / ٢ / ١٣٥ .  
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد / ٨ / ٦٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء / ٢ / ١١٩ .

(٤) السويف : قممح أو شعير يقلن ثم يطحن فيترود ويست ناره بما يترى به أو يسمى أو بصل وسمن .

(٥) فل المشركين : القوم المنهزمون .  
(٦) قراء : أصافه .

مشكم ، وانصرفوا راجعين ونذر بهم الناس ، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم يوم الأحد، الخامس من ذى الحجة على رأس اثنين وعشرين شهراً في مائتين من المهاجرين والأنصار ، وفي الإشارة: ثمانين ، وجمع بأن الركبان ثمانون وعامة الجيش مائتان ، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر، حتى بلغ قرفة الكدر ، وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخففون للهرب فيلقون جُرُب السوق وهي عامة أزوادهم ، فيأخذها المسلمون، فسميت غزوة السوق ، ولم يلحقوهم ، وانصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة ، وكان غاب خمسة أيام ، وقال المسلمون لرسول الله ﷺ حين رجع بهم: يا رسول الله ، أتقطع أن تكون لنا غزوة؟ قال: «نعم»<sup>(١)</sup>.

خط جديد من خطوط التربية الجهادية برز بعد بدر أو قبيلها هو: الحث على القضاء على أعداء الإسلام بمبادرات فردية وليس تكتيقياً محدداً لشخص بعينه ، فأمام مواقف عصماء بنت مروان العدوة اللدودة التي تحدي الله ورسوله ، والتي بلغ من فحشها أن تقول :

وعوف وباست بنى الخزرج	فباست (٢) بنى مالك والبيت
فلا من مراد ولا مذحج	اطعمت أباوى (٣) من غيركم
كما يرتجى مرق المنضج	ترجونه بعد قتل الرؤوس
فيقطع من أمل المرتجى	الآنفُ يتبغى عِزَّة

أمام مواقفها، وحضرها الخزرج على قتل النبي ﷺ غرة ، وإلقائها المحايض في مسجد بنى واقف قال - عليه الصلاة والسلام : «الآنفُ لى من ابنة مروان» .  
وكان نذر عمير بن عدى ، لشن رجع رسول الله ﷺ من بدر إلى المدينة ليقتلنها ، والغريب أن عميراً رضي الله عنه كان ضريراً ولم يشهد بدرأ لضرارته ، ولكن قبله الحى لم يقبل هذا التحدى من هذه المرأة الشرسة ، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ووفى بنذرها حيث دخل عليها فقتلها وحولها أبناؤها ، وعاد فصلى الفجر مع رسول الله صلوات الله عليه. إنه خسى أن يستاذن فلا يؤذن له لشخصه . فاكتفى بالإذن العام الذى أهدى دمها ، وتحت المسلمين على تنفيذ هذه المهمة . فحنن أمام طراز من الرجال الفدائين الذين ملا الإسلام عليهم قلوبهم وحياتهم ، والذين يملكون من الشجاعة ما

(١) سيل الهدى والرشاد للإمام الصالحي /٤ ، ٢٥٩ ، وقد أوردها ابن إسحاق بإسناد صحيح إلى عبد الله بن كعب بن مالك، لكنه مرسل. (السيرة ٣ / ٦٥ - ٦٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم

العمرى ٢/ ٣٧٤ .

(٢) الأباوى : الغريب.

(٣) الاست : الدبر .

يتحدون بها أهل الأرض . فهو لاء أولادها يقولون له : يا عمير أنت قتلتها ؟ فقال :  
نعم «فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظِرُونِي» (١) والذى نفسى بيده لو قلتكم بأجمعكم ما قال  
لضربتكم بسيفى هذا حتى أموت أو أقتلكم .

إن هذا الضرب الذى عذره الله تعالى على رأس من عذرهم فقال جل شأنه :  
«لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَانِ حَرَجٌ» (٢) لم يمنعه هذا العذر أن يتصرّ لله ولرسوله، ويتحدى قبيلته  
كلها فى قتل هذه الطاغية العاتية ، ويمضى إلى إمام المربيين - عليه الصلاة والسلام - لا  
ليدل بيطولته ، ويتعنى بالأشعار فخراً و خيلاً بذلك وهو الشاعر الموهوب - كما تقول  
الروايات الصحيحة - إنما مضى ليرى رأى نبئه فيما فعل .

كم هو هذا الانقلاب الهائل الذى صنعه الإسلام بهذه النفوس حين كانت تذبح  
على معبد الشهرة والمجد ، وإذا هو الآن تلميذ بين يدي نبئه ﷺ .

- «أقتلت ابنة مروان؟» .

- «نعم فهل على في ذلك من شئ؟»

- «لا ينفع فيها عزان» (٣) .

ويعد أن تأكّد من إقرار موقفه من قيادته ، عاد إلى قبيلته ، ليتحداهم جميعاً  
«فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظِرُونِي» (٤) ولم نسمع له شعراً يتعنى به مجد هذه ، إنما تكفل  
حسان بن ثابت رض شاعر الإسلام أن يسجل هذا المجد له فقال :

بنو وائل وبنو واقف	وخطة دون بنى الخزرج
متى ما دعت سُفَهًا وبحها	بقولتها والمنايا تمجي
فهزَّتْ فتىً ماجداً عرْقَه	كَرِيمَ الداخِلِ والمخرج
فضَرَّجَها من نجيع الدماء	بَعْدَ الْهُدُوِّ فَلَمْ يُحْرِج

ولم يكن الأمر مجرد إجازة لهذا البطل ، بل كان هناك ثناءً عظيمًّا عليه من قائداته -  
عليه الصلاة والسلام :

«إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله عز وجل رسوله فانظروا إلى عمير بن

(١) هود / ٥٥ .

(٢) التور / ٦١ .

(٣) كانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ ، ومعناها كما شرحها ابن الأثير في النهاية : لا  
يلتفت فيها اثنان ضيقان ، لأن الطاح من شأن التيوس والكباش لا العنوز ، وهي إشارة إلى قصبة  
مخصوصة لا يجري فيها خلف وزراع .

(٤) هود / ٥٥ .

عدى » . وكان تربية عظيمة لشباب الجيل كله في أن يتسابق في نصرة الله عز وجل .  
وسرّ الجيل كله بهذا النصر ، حيث عبر عنه قول عمر رضي الله عنه : انظروا إلى هذا  
الأعمى الذي يسرى في طاعة الله تعالى . فقال - عليه الصلاة والسلام - : « لا تقل  
الأعمى ولكن البصير » .

وقد غيرت هذه البطولة واقعاً كاملاً في بنى خطمة . حيث ( فيومئذ ظهر الإسلام  
في بنى خطمة ، وكان يستخفى بإسلامه فيهم من أسلم فكان أول من أسلم عمير بن  
عدي ) .

لقد قاد عمير الإسلام في بنى خطمة ، وحطم أسطورة بنت مروان ، وكان القارئ  
الإمام الشاعر الفدائي .

وفي أقل من خمسة عشر يوماً ، كان العدو الثاني أبو عفك يسقط مضرجاً بدمائه  
على يد سالم بن عمير البدرى رضي الله عنه في بنى عوف ، الذي كان يحرض على  
رسول الله صلوات الله عليه وسلم ويقول الشعر .

ولشن تكفل حسان رضي الله عنه بالحديث عن ثائرة عمير ، فقد تكفلت أمامة المریدية  
بالحديث عن ثائرة ابن عمير . فقالت في مقتل أبي عفك :

لعمير الذي أمناك أن بشس ما يمني  
تكذب دين الله والمرء أح마다  
أبا عفك خذها على كبر السن  
حباك حنيف آخر الليل طعنة

وبقتل أبي عفك ، وقتل ابنة مروان ، تم تطهير الجيوب داخل المدينة ، والتي  
يمكن أن تشكل بوئر مواجهه ضد الإسلام ، والتي أرادت أن تشعلها فتنة داخلية ، ضد  
الإسلام ودولته ، حيث نكثت العهد ، وأعلنت الخيانة والانحياز للصف المشرك ،  
وابتدأت المواجهة ضد الإسلام متعددة سلطاته ودولته .

### غدر بنى قبيح ومواجهتهم :

كان أكبر حدث بعد وصول رسول الله صلوات الله عليه وسلم إلى المدينة هو: دخول عبد الله بن أبي  
الإسلام ، فهو قائد المعارضة في المدينة ، وهو الذي اختارته قريش ليقود ثورة  
المواجهة الأولى للإسلام في المدينة ، وتم القضاء عليها بحكمة وروية دون إراقة دماء ،  
وهو الملك المرشح لقيادة المدينة قبل وصول رسول الله صلوات الله عليه وسلم .

وخشى عبد الله بن أبي أن ينظر حوله فلا يرى أحداً من أتباعه إذ أن خط  
الانضمام إلى الإسلام ماضٍ في وتيرة عالية ، وتصاعد مستمر ، وخاصة بعد نصر بدر ،

ورأى أنه لا يمكن أن يمسك بزمام الأمر ، ويحتفظ بزعامته وجنوده ، إلا بالانضمام إلى الإسلام ، ومثل خطأ جديداً في الصف الإسلامي سرعان ما ظهرت آثاره . وفي أقل من شهر من خلال المواجهة مع بنى قينقاع حلفائه السابقين ، فقد كان الأمر تغطية سياسية على اتفاق سري تم بينه وبين حلفائه من يهود بنى قينقاع على أن يتضمنوا العهد ، ويواجهوا محمداً صلوات الله عليه وآله وسلامه ، وسيكون هو وحزبه معهم في هذه المواجهة .

وكانت بنو قينقاع أشجع يهود ، فلما كان يوم بدر كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا العهد ، وأظهروا البغي والحسد ، وقطعوا ما بينهم وبين رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه .

ولابد أن ينذر إليهم عهدهم على سواء أمام تلك التصريحات والمواضف التي يعلنونها في الرغبة في المواجهة والإصرار على التحدى ، ولم يكن في خطة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه أي مواجهة داخلية ، وكان المفروض أن يعود بنو قينقاع إلى رشدهم ، خاصة وقد أسلم سيدهم عبد الله بن سلام منذ الأيام الأولى للدعوة ، وإذا كان حسهم الغليظ ، وزرعتهم المادية قد نزعت من قلوبهم هتف الإيمان ورفقة الروح ، فقد كان في بدر ما يعظهم أبلغ موعظة من خلال النصر الحاسم الذي تحقق فيها ، وحتى تقوم عليهم الحجة ، قال لهم - عليه الصلة والسلام - ما قال له ربه : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مُتَّغْلِبُونَ وَتَعْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمْ وَيَقْسُنَ الْمَهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي لِفْتَنَنِ الْقَتَافِيَّةِ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَآخَرَى كَافِرَةَ يَرَوْنَهُمْ مُتَّلِّهِمْ رَأَيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤْمِدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِعْنَةً لِأُولَئِكَ الْأَبْصَارِ » (١) .

وقال لهم كذلك بعد أن جمعهم بسوق بنى قينقاع : « يا عشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النكمة ، فاسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم ، وعهد الله إليكم » .

قالوا : يا محمد ، إنك ترى أنا مثل قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم فرصة ، إنما والله لئن حاربتنا لتعلمنا أنا نحن الناس .

وأمام التحدى واستعراض القوة ، كانت سرعة المبادرة الحافظة بحيث لا تستكمل بنو قينقاع استعدادهم وأهليتهم - وهم أشجع يهود - وبحيث لا يمكنون من التفاوض وضم حلفاء جدد لهم مثل : بنى الضمير ، أو بنى قريظة وتوسيع نطاق المعركة داخل المدينة وخارجها ، وطالما أنه لابد من الحرب فلتكن المباغة لهم قبل أن يجيئوا الجيوش ، ويُعدُّوا للمواجهة ( فاستختلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر ، فتحصنتوا في حصنهم ، فحاصرهم أشد الحصار ، فاقاموا على ذلك خمس عشرة ليلة ، حتى قذف

(١) آل عمران / ١٢ ، ١٣ .

الله في قلوبهم الرعب ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ على أن لرسول الله ﷺ  
أموالهم ، وأن لهم النساء والذرية ، فأمر بهم فكتّفوا ، واستعمل على كتافهم المندر بن  
قدامة السلمي ) .

لقد أنهت سرعة المبادرة المعركة ، وقضت على أشجع اليهود، الذين تحدوا بقولهم :  
( ولن لقيتنا لتعلمنا أنا نحن الناس ) وتحدوا بخبرتهم الخربة والقتالية: ولقد لقيت  
قوماً لا علم لهم بالحرب .

إننا ونحن نستعرض غزوةبني قينقاع ، نستعيد إلى الذاكرة حرب حزيران عام  
١٩٦٧ حيث انقلب الآية تماماً ، فقد كان العرب هم الذين يعلنون التحدي ، وكانت  
أبواب العرب تتطلق من كل إذاعة ، وأطنان الصحف والمجلات تريد أن ترمي باليهود  
في البحر ، وكان أبواب العرب المحاذين لله ولرسوله ، تريد أن تحطم اليهود باسم  
الاشتراكية وباسم العلمانية، حتى ليخرج قبل شهر فقط من حرب حزيران مقال المجلة  
الشهير في سوريا الذي يقول : إن الله والدين أصنام في متحف التاريخ .

هؤلاء الذين مثلوا اليهود ببني قينقاع في حربهم لله ولرسوله ، وهم يعلمون أنه  
الحق ، وسيدهم عبد الله بن سلام كان أول من غمز الإيمان قلبه فآمن .

لقد التقى عرب الـ ٦٧ ، ويهود بني قينقاع على حرب الله ورسوله ، وحرب  
الدعاة إلى الله ، أما يهود اليوم ، فقد درسوا بعناية حرب رسول الله ﷺ معهم ، ورأوا  
كيف انتصر عليهم بالحرب الخاطفة ، وفي سرعة المواجهة ، وفي عنصر المباغة، فطبقوا  
الأسلوب النبوى في الحرب، وانقضوا على الطيران العربى فى دمشق، والقاهرة، وعمان  
فحطموا أخطر أسلحة الحرب ، وأنهوا فى خمس ساعات هذا السلاح وشلوه ، وتقدموا  
خلال ستة أيام حتى دخلوا فلسطين بكلاملها ، وأضافوا إليها سيناء والقنيطرة . وأصبحت  
القاهرة ودمشق وعمان تحت رحمتهم .

وال أيام دول ، فقد كانت قادة يهود يعلمون أنهم يحاربون المسلمين الذين تخروا  
عن دينهم ، وتعلموا فن الحرب من عدوهم الأول - رسول الله ﷺ .

وجاءت حرب رمضان فاعتمدت الأسلوب النبوى من قبل العرب ، اعتمدت عنصر  
المباغة ، فهزت الكيان الإسرائيلي وعبرت القناة، لكنها كانت حرباً مرسومة ضمن إطار  
العمالة للعدو ، فتوقفت عند حدودها المرسومة؛ لتمكن اليهود ثانية من تحويل نصر  
العرب إلى هزيمة جديدة .

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (١)

وكان يمكن أن تنتهي حرب بنى قينقاع بقتل كل فرسانهم ورجالهم ، حيث أصبحوا أسرى بيد رسول الله ﷺ يحكم عليهم كما يراه ، ولم تكن آيات أسرى بدر قد جف مدادها بعد ، فلا تزال غصة طرية حية في نفوس هذا الجليل الرباني الذي عوتب على فداء الأسرى ، وكان عليه الإثخان في القتل حتى يتمكن في الأرض ، وكان الاتجاه هو تطبيق هذا النص على اليهود .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرْبَدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ أَعْزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لِمَسْكُمْ فِيمَا أَخْذَتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

كان يمكن لهذه الحرب أن تنتهي كما قلنا بقتل رجال بنى قينقاع ، لو لا العنصر الجديد الذي دخل في الإسلام ، والذي جاء ليغير هذا الحكم .

### بروز حزب المافقين :

ونحن بحاجة هنا لنقف روياً عند عبد الله بن أبي الذي كان قائداً المدينة وملكها المتوج قبل رسول الله ﷺ ، وكان على رأس أكبر وفود المجزرة إلى الحج ، فقد حضر معه ثلاثة من الأوس والخزرج في موكب ضخم يعلن وحدة يثرب تحت قيادته .

فكيف وصل ابن أبي إلى هذه الزعامة الشاملة ؟

لقد كان موقفه في حرب بعاث موقفاً مشرقاً استطاع من خلاله أن يقفز إلى الزعامة الأولى في المدينة .

( اجتمعوا الخزرج حتى جاؤوا عبد الله بن أبي ، وقالوا له : قد كان الذي بلغكم من أمر الأوس وأمر قريظة والنضير ، واجتمعوا عليهم على حربينا ، وإنما نرى أن نقاتلهم فإن هزمناهم لم يحرز أحد منهم معقله ولا ملجأه حتى لا يبقى منهم أحد .

فلما فرغوا من مقالتهم قال لهم عبد الله : إن هذا بغي منكم على قومكم وعقولكم ، والله ما أحب أن رجلاً من جراء الفيناهم ، وقد بلغنى أنهم يقولون : هؤلاء قومنا منعون الحياة أفيمنعونا الموت ؟ والله إنني لأرى قوماً لا يتهمون أو يهلكوا عامتهم ، وإنني لأنخاف إن قاتلوكم أن ينصروا عليكم لبغيكم عليهم ، فقاتلوا قومكم كما كتتم تقاتلونهم ، فإن ولوا فخلوا عنهم . فإذا هزموكم فدخلتم أدنى البيوت خلوا عنكم .

(٢) الأنفال / ٦٧ ، ٦٨ .

(١) آل عمران / ١٤٠ .

فقال له عمر بن النعمان البياضى : انفخ والله سحرك يا أبا الحارث حين بلغك حلف الأوس وقريطة والتضير . فقال عبد الله : والله لا حضرتكم أبداً ، ولا أحد أطاعنى أبداً ، ولكننى أنظر إليك قليلاً تحملك أربعة فى عباءة .

لقد ظهر ابن أبي فى متهى الحكمه؛ حين رفض أن يشارك فى حرب الأوس، ثم أشار على قومه إن انتصروا على الأوس ألا يجهزوا عليهم ، بل يدعونهم يفرون إلى بيوتهم ، ثم استعمل الحكمه ثالثاً؛ حين رفض قتل الرهائن التى فى يديه ، وكان هذا قبل الحرب ، حيث بعثت اليهود من قريطة والتضير بأربعين رهينة من أبنائهم تأكيداً لعدم حلفهم مع الأوس ، وأراد زعيم الخزرج أن يحتل ديار بنى قريطة والتضير ؛ لجودتها . فكتب إليهم : إما أن تخروا علينا وبين دياركم نسكنها ، وإما أن نقتل رهنكم ، فهموا أن يخرجوا من ديارهم ، فقال لهم كعب بن أسد القرظى : يا قوم ، امنعوا دياركم وخلوه يقتل الرهن ، والله ما هي إلا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأته حتى يولد له غلام مثل أحد الرهن . فاجتمع رأيهم على ذلك ، فأرسلوا إلى عمرو بالآ سلم لكم دورنا ، وانتظروا الذى عاهدقونا عليه فى رهنتنا فقوموا لنا به ، فقدا عمرو بن النعمان البياضى على رهنه هو ومن أطاعه من الخزرج فقتلوهم ، وأبى عبد الله بن أبي - وكان سيداً حليماً - وقال : هذا عقوق ومأثم ويغى ، فلست معيناً عليه ، ولا أحد من قومي أطاعنى ، وخلى عنى عنده من الرهن )<sup>(١)</sup> .

ورروا أنه بينما كان عبد الله بن أبي يتربدد على بغلة له قريباً من بعاث يتتجسس أخبار القوم، إذ طلع عليه عمرو بن النعمان ميتاً في عباء يحمله أربعة إلى داره ، فلما رأه قال : من هذا ؟ قالوا : عمرو بن النعمان فقال : ذق وبال العقوب .

لقد استطاع عبد الله بن أبي بوقفه هذا ، وبمقتل قيادات الخزرج وبهزيمتهم أن يثبت صواب رأيه فى عدم قتال الأوس وخلفائهم قريطة والتضير ، وأن البغي عاقبته وخيمة ، وierz السيد المطاع فى قومه ، كما سجل فى الوقت نفسه يداً عند الأوس واليهود؛ بأنه لم يحاربهم ، ولم يجار قومه فى البغي عليهم ، فاتجهت له الأنظار من الفريقين ليكون الرئيس المختار فى يثرب ، وتکاد تكون صورته شبيهة بصورة أبي سفيان فى مكة ، فقد كان أبو سفيان واحداً من القيادات الكبرى فى مكة ، وعندما نجت تجارة قريش فى بدر وقف قائلاً :

إنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله فارجعوا ، فقال أبو جهل بن هشام : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ ، فنقيم عليه ثلاثة ، فتنحر

(١) أيام العرب : لمحمد جاد المولى بك وزملاته ٧٣ ، ٧٤ .

الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبيسيرنا فلا يزالون يهابونا أبداً فامضوا .

قال أبو سفيان ذاك رأى ابن الخطولية ، ترأس فبغى . والبغى: منقصة وشوم ، وذلك حين رأى هزيمة قومه ، ويسقط صناديد قريش الكبار ، آلت القيادة إلى أبي سفيان بمكة حيث أصبح رئيسها غير المنارع .

ولكن ابن أبي وقد رأى أن الإسلام غزا قومه ، واتجهت القلوب كلها إلى محمد رسول الله ﷺ وقف بين أمراءن أحلاهما مر ، إنه الخيار الصعب بين الدخول في الإسلام ، والاعتراف بقيادة النبي ﷺ ، والمحافظة على رئاسته في قومه ، وبين أن يبقى على الكفر ، وهو يرى أن قومه يمضون إلى الإسلام غير عابثين به ، وقد يفضّون عنه جمِيعاً ، فاختار الإسلام ، وكأنما يتجرّع السم فيه لتبقى له زعامته في قومه ، ويحافظ على قيادته من التصدع .

وها هو اليوم يرى بنى قينقاع بعد أقل من شهر من دخوله في الإسلام يعرضون على الموت ، وهم حلفاؤه في الأصل فيجنونه ، ويمضي إلى رسول الله ﷺ ليقدّهم من الموت ، حفاظاً على حزبه من الانهيار ، وإثباتاً لزعامته أمام قومه ، وهو يحسب الأمر كله أمر رياضة وزعامة .

كان عبادة بن الصامت رض سيد بنى ثعلبة بن غنم بن عوف ، وكان من حضر العقبة الكبرى ، وكان من النقباء الائتين عشر ، وكان حليقاً لبني قينقاع كما كان عبد الله ابن أبي حليقاً لهم ، وقد حضر عبادة مباحثات العقبة ، التي قطعت كل الأحلاف والعهود السابقة ؛ حيث تم فيها صراحة الحديث عن هذا الأمر وإعلانه .

( قال : فاعتراض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيتنا وبين الرجال حبالاً ، وإنما قاطعواها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » (١) .

وأصبح رسول الله ﷺ هو الرئيس الذي يعقد المعاهدات باسمه بصفته حاكم المدينة وأميرها ، وهو الذي عاشر اليهود فيها ، فليس هناك سلطة ثانية تملك هذا الحق ، ومن أجل ذلك عندما أعلن رسول الله ﷺ حربه على بنى قينقاع تقدم عبادة بن الصامت

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ٢ / ٩٦

رسوله صلوات الله عليه وآله وسلامه وهو أحد أعضاء حكومة الإسلام الأولى ، وأحد النقباء الائتني عشر ، وتبرأ إلى الله تعالى ورسوله من حلفهم وقال : يا رسول الله ، أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبراً من حلف هؤلاء الرجال<sup>(١)</sup> .

أما عبد الله بن أبي فيعتبر نفسه سلطة مستقلة ، صحيح أنه دخل في الإسلام عقيدة ، لكنه لا زال يمثل كياناً سياسياً مستقلاً ، فجاء إلى رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه فقال : يا محمد أحسن في موالى ، فأبطن عليه رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه .

وهذا الإبطاء دليل في التربية النبوية على رفض الطلب ، والمسلم بعدها يكف عن ذلك ، لكن الزعيم السياسي ابن أبي ، لم يترب بعد في هذه المدرسة ، وإن انتسب إليها منذ خمسة عشر يوماً تقريباً. فقام ثانية ، وقال : يا محمد أحسن في موالى . فأعرض عنه رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ، وهذا هو المدى الأبعد للجندي المسلم حين يرى قائد المروحى إليه من ربه لا يقدم بين يديه بموقف ، أما الرأي فقد سمع ، وأدب سيد ولد آدم مع جنده الذين رياهم لا يتجاوز الامر الإبطاء والإعراض ليفقه الجندي في المدرسة المحمدية رفض نبيه صلوات الله عليه وآله وسلامه لرأيه .

أما ابن أبي الزعيم السياسي الذي دخل بكل ما يحمل في نفسه من عقد الزعامة والتنصب والشهرة لن يقف عند هذا الحد .

فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه من خلفه ، فقال له رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه : « ويحك أرسلني » ، وغضب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه حتى رأوا في وجهه ظللاً .

ورسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وهو النبي المصطفى ، لم يضطر لها الموقف أبداً في المدينة منذ أن وطئها ، فالتربيـة التي تلقاها الجيل المسلم ، لا تعرف إلا الانضباط التام للقائد الأعظم صلوات الله عليه وآله وسلامه ، ولم تشهد أحداً يضع يده في درع رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ، ويتمادي في ذلك حتى يضطر سيد الخلق لأن يقول له : « ويحك أرسلني » ، ويفضـب منه لذلك .

قال : والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى : أربعـمائة حاسـر ، وثلاثـمائة دارـع ، قد منعـوني من الأحمر والأسود تحصـلـهم في غـدة واحدة . إنـي والله امـرـؤ أخـشـى الدـوـائر .

وها هو سيد الخلق بين موقفين :

موقف يزجر فيه ابن أبي ، فيجلـه على المحاكـمة ، أو يأمر بقتـله لتجاوزـه الحدود

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/٢٦٧ .

كلها ، وإعلانه قيادة جديدة وحلقاً خاصاً به من دون المسلمين ، ووراءه من وراءه من قومه ، وتنقسم المدينة إلى حرب أهلية يضيع فيها الحق ، فكثيرون من الذين دخلوا في الإسلام بعد بدر لم تتضح في أذهانهم بعد حقيقة هذا الإسلام ، إنما دفعهم الخوف أو الانبهار بالنصر إلى الانضمام لهذا الدين الجديد ، وهؤلاء سيقون وراء ابن أبي لوقعت الحرب .

ويبين أن يفضى - عليه الصلاة والسلام - عنه ، وهو الذي لم يقل : لاقت لأحد بما يتناسب مع مقام النبوة العظمى ، ويعالج الموقف بعد ذلك ، فقال عليه السلام : «خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم » .

ورأى ابن أبي أنه قد حقق النصر الأكبر واعترف بزعامته ، حيث قُبِل طلبه ، ولم يعترف لثله بذلك ، غير أن إمام المربيين عليه الصلاة والسلام لم تفتته أبعاد هذا الموقف ، ولن يقبل أن يقيم ابن أبي دولة داخل دولة الإسلام ، على اكتاف بنى قينقاع ، وأتباعه الذين يديرون بزعامتهم ، إنها أكبر قضية واجهت الدولة الجديدة منذ أن قامت ، فالمواجهة السابقة التي قادها ابن أبي وهو على شركه ، سرعان ما انتهت بقوله - عليه الصلاة والسلام - : « والله ما كانت قريش لتکیدكم بأکثر ما تریدون أن تکیدوا به أنفسکم ، تریدون أن تقاتلوا أبناءکم وأخوانکم » فلما سمعوا ذلك من النبي صلوات الله عليه وسلم تفرقوا <sup>(١)</sup> .

وبقي تجمع ابن أبي يتناقص بعدها ، لكنه على رأس الكفر ، فخطره بين واضح ، ولن يتاثر به من المسلمين أحد ، أما الآن فهو إعلان حزب جديد تحت الراية الإسلامية يضم اليهود والمسلمين على رأسه عبد الله بن أبي ، ومن أجل هذا اتخذ رسول الله صلوات الله عليه وسلم الإجراء الخامس الذي يهدى هذا الكيان ، حيث أمر بإجلاء بنى قينقاع عن المدينة ، وصحيغ أن مقام النبوة الأعظم لا يرفض طلب ابن أبي اللجوء الأشر ، لكن هذا لن يكون على حساب الدولة الفتية ، ولن يكون على حساب التربية النبوية ، والتي يتربى عليها الجيل الأرشد في هذا الوجود ، وبعملية إجلائهم يكون الهدف الرئيسي لابن أبي قد تحطم ، وهوبقاء بنى قينقاع ليمنعوه الأحمر والأسود من الناس . وقد يمنعوه غداً من رسول الله صلوات الله عليه وسلم . ويقاومهم؛ لأنه يخشى الدوائر في المستقبل . فمن ينصره من عدوه ؟ ومن يحميه من خصومه ؟

وعملية الإجلاء هي التي تنهي هذا الاتهام كله ، واختار - عليه الصلاة والسلام - في تربيته العظيمة الخالدة عبادة بن الصامت ليقود هذه العملية ، عبادة الذي له من

(١) سنن أبي داود : كتاب الخراج والإمارة والفقء ، باب خبر بنى التفسير ١٥٦/٣ رقم (٣٠٤) .

الخلف ما لعبد الله بن أبي ، وذلك لتعلم بنو قينقاع أن الإسلام قد قطع كل المجال السابقة ، فحليفهم الثانى الذى يتوقعون منه الشفاعة فى إيقائهم فى المدينة ، هو الذى يقودهم خارجها ؛ لأنه تبرأ من حلفهم وتولى الله ورسوله وجamaة المؤمنين ، فهو عضو فى حزب الله اليوم ، وليس حليقاً ليهود ضد الأوس كما كان من قبل ، وحزب الله الذى صنع خلال هذين العامين ، هو من الأوس والخزرج والماجرين ، وعلى رأسه رسول الله ﷺ .

ومع ذلك ، فقد أراد ابن أبي أن يهتيل الفرصة ، وكما نجحت وساطته فى الإبقاء على حياتهم فليمض وساطته فى الإبقاء عليهم داخل المدينة ، فهذا هو الذى يحقق هدفه ، وعرف أن خروجهم صفة قوية له ولمركته ، فماذا حقق إن أجلى عن المدينة بنو قينقاع الذين منعوه الأحمر والأسود من الناس؟! وستدور الدوائر عليه فى المستقبل حين يفقد هذا الخليفة القوى .

( فجاء ابن أبي بحلفائه معه ، وقد أخذوا بالخروج ، يريد أن يكلم رسول الله ﷺ أن يقرهم فى ديارهم ، فيجد على باب النبي ﷺ عويم بن ساعدة ، فذهب ليدخل ، فرده عويم وقال : لا تدخل حتى يؤذن رسول الله ﷺ لك . فدفعه ابن أبي فغلظ عليه عويم حتى جمش وجهه ابن أبي الجدار ، فسال الدم . فتصايع حلفاؤه من يهود فقالوا : أبا الحباب ، لا نقيم بدار أبداً أصاب وجهك فيها هذا ، لا نقدر أن نغيره ، فجعل ابن أبي يصبح عليهم وهو يمسح الدم عن وجهه يقول: وبحكم قراؤا ! فجعلوا يتصايعون : لا نقيم أبداً بدار أصاب وجهك فيها هذا لا نستطيع له غيراً )<sup>(١)</sup> .

لقد صدَّ ابن أبي عن باب رسول الله ﷺ وجمش وجهه ، وحيل بينه وبين الدخول؛ كى يطلب إيقاع اليهود فى ديارهم ، وأصبح مهيب الجناح بذهابهم ، لكن جناحه الآخر لا يزال سالماً فقد وثق علاقته مع بنى النضير ، وإن فقد فى بنى قينقاع ركتاً ركيتاً من سلطته .

ومضى إلى عبادة بن الصامت شريكه فى الخلف يريد أن يدفعه ليقف بجواره ، فجرى بينهم الحوار التالى :

ابن أبي : تبرأت من حلف مواليك ؟ ما هذه بيدهم عندك ( فذكره مواطن قد أبلوا فيها ) فقال عبادة: أبا الحباب ، تغيير القلوب ، ومحا الإسلام العهود، أما والله إنك لعصم بأمر سترى غيَّرْه غداً .

فكان عبادة <sup>رسول الله</sup> هو الذى يحدِّر ابن أبي من مغبة مسيره ، وافتراقا كل فى اتجاه .

(١) المغارى للواقدى ١ / ١٧٨ .

وحتى تتعذر المواقف أكثر : كلف رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت حليفهم بالإشراف على جلائهم ، في الوقت الذي كان فيه ابن أبي يريد منع إجلائهم .

( وأخذ عبادة بالرحبيل والإجلاء ، وطلبوا التنفس . فقال لهم : ولا ساعة من نهار ، لكم ثلاث . لا أزيدكم عليها ؟ هذا أمر رسول الله ﷺ ، ولو كنت أنا ما نفستكم ، فلما مضت ثلاث خرج في آثارهم حتى سلكوا إلى الشام وهو يقول : الشرف الأبعد ، الأقصى ، فأقصى وبلغ خلف ذباب )<sup>(١)</sup> ، ثم رجع ولحقوا بأذرعات )<sup>(٢)</sup> .

لقد افترق الشريكان كل في طريق . فابن أبي يريد أن يشق طريقاً مستقلأً يحافظ به على زعامته ويحافظ على حلفائه تحت راية الإسلام ، ويشكل حزباً معارضاً في الصف الإسلامي . وعبادة بن الصامت ، انضم جندياً تحت راية النبي ﷺ ، وأخذ وضعه القيادي في قومه بصفته أحد النقباء الائتين عشر .

ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لهان الأمر - ولكن القضية كانت أخطر بكثير مما يرد على البال - فقد نزل القرآن الكريم من عند رب العزة والمجال ، ليتحدث عن موقف ابن أبي و موقف ابن الصامت ، ويحدد موقعهما والحكم عليهم حكماً قطعياً لا يقبل المراجعة .

جاء القرآن الكريم ليقرر خطأ على مدار التاريخ البشري كله من خلال هذين النموذجين .

ولم تعد القضية تخص هذين النموذجين . بل أصبحت قضية الأمة المسلمة كلها على امتداد الزمان والمكان ، أما نموذج ابن أبي : فهو يخاطب فيه ابن أبي رأس هذا الاتجاه بصفته عضواً في المجتمع المسلم : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاكُمْ » ، ويتنهى به خارج الصف المسلم حقيقة ، ولو بقى الغلاف الخارجي والغلافة الرقيقة من الإسلام تحوطه : « وَمَنْ يَعْوَلُهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ » وينضمون إلى الذين « فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » ، من منافقى اليهود من قبل .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاكُمْ لَا تَتَعَذَّلُوا إِلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ وَمَنْ يَعْوَلُهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

وتتابع الآيات في تحليل أسباب هذا الولاء هو : أنه الركون واللجوء إليهم من دون الله ورسوله وجماعة المؤمنين :

(١) ذباب : أكمة صغيرة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع .

(٢) المغارى للواقدى ١/ ١٧٩ .

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةً فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَنْ يَأْمُرَنَا مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْوَاءُ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبْطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَمْ يُصْبِحُوا خَاسِرِينَ ﴾ .  
وَالَّذِينَ يَتَخَذُونَ هَذَا الْوَلَاءَ هُمْ مُرْتَدُونَ عَنِ دِينِهِمْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ . . . . ﴾ (١) .

ليأتي بعد هذا الحديث عن عبادة بن الصامت شخصاً ، وعنده رمزاً بقوله عز وجل :  
 » . . . فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُجْهِمُونَ وَيُحْبِّبُونَهُ أَذْلَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَا تِيمَ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ ». وَتَتَابِعُ الْآيَاتِ تَحْدِيدَ مَلَامِحَ هَذَا النَّمْوذَجِ الَّذِي اخْتَيرَ إِبْنَ الصَّامِتِ لِيُمْثِلَهُ وَمَدِيْرَهُ وَاتِّئْمَانَهُ لِلْأَمَّةِ الْمُسْلِمَةِ .

﴿ إِنَّمَا وَلِيْكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِمُونَ . وَمَن يَقُولَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ بِهِ ﴾٢٤﴾ .

هذه هي المرة الثانية وخلال أيام قلائل يتم الحديث فيها عن حزب الله، هذا الحزب الذي يعاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعينه الساهرة وقلبه الذي لا ينام.

لقد عرض في المرة الأولى من خلال النموذج الحالى ، أبي عبيدة بن الجراح أمين الأمة رسول الله والذى قاتل أباه فى الله وقتلها ، وكان التركيز هناك على الفلاح .  
وها هو يعرض مرة ثانية من خلال النموذج الثانى : عبادة بن الصامت رسول الله والذى تبرأ من حلفه وولاته وأنصاره ، وتولى الله ورسوله وجماعة المؤمنين .  
إنه الحزب الذى أكرمه الله تعالى وشرفه فنسبه إليه ، فكان أهلاً لهذه التسمية ،  
وأهلاً لهذا الانتساب ، ورسول الله رسول الله هو الذى يقوم على بنائه وتربيته .

ولا يضير هذا الحزب وجود من يدعى الاتساب إليه ، فقد عُزِّي مباشرة بعد إعلان  
تمالكه مع العدو ، واعتبر جزءاً منه ، وسيكون نصيحة الحسّار والدمّار وهو يلوذ بالكافر  
خشية الدوائر ، وطمعاً بالنصرة .

إن الزعيم السياسي يحرص أكثر ما يحرص على كسب الشعبية ، وكسب التأييد والأنصار والأذالم له ، وكلها أصوات تصب في خانة ، والنتيجة التي يريدها هو : أن

(٢) المائدة / ٥٤ - ٥٦ .

٥٣ - ٥١ / المائدة (١)

يقول : إنه يمثل الأكثريه ، وبهذا المفهوم : فابن أبي ذكري وأوعى وأنضج من ابن الصامت ؛ لأن ابن الصامت قطع كل الخيوط مع هؤلاء الخلفاء، بل قام بعملية ترحيلهم وإجلائهم .

لكن بالمفهوم الإيماني ، فابن الصامت قدوة مثلى اختاره الله عز وجل نموذجاً للمؤمنين في الأرض إلى يوم الدين ، وابن أبي نموذج سين رديء باختيار الله تعالى له ليمثل المنافقين .

وأهم جانب في القضية هو أن هذا القرآن المتزل ، قد أصبح على كل لسان يتلى في البيوت ، ويتبعد به في الصلاة ، تعرفه النساء في خدورهن ، والأطفال في مرابعهم . فقد انتشر الوعي في كل بيت من خلال الآيات التي تنزلت بهذا الحدث ، وأصبح عبد الله بن أبي معمر من الجميع .

لكن لا بد من الإشارة : أن النوعيات التي دخلت جديداً في الإسلام معه ، قد راحت تنضم حوله وتشكل تجمعاً خطيراً يدين له بالزعامة ، وليسوا جميعاً من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطون الكفر ، بل بعضهم حديث الإسلام لا يزال جانب العصبية والرعماء هو الذي يحكمه ، وقامت في دولة الإسلام الأولى هذه الجماعة الهمامية التي يصعب مسکها ، ويدأت ملامحها تتحدد لتقوم بدور رهيب فيما بعد ، وتشكل ثغرة داخل الصف الإسلامي الواحد .

#### أعراس المدينة :

ولتنمض مع عائشة - رضي الله عنها - نشهد قدومها المدينة ، وحفلة زواجهما ودخولها على النبي ﷺ .

أما قدومها المدينة فنقول عنه : ( لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خلَّفنا وخَلَفَ بناته ، فلما قدم المدينة بعث إلينا : زيد بن حارثة ، وأبا رافع . وأعطاهما بعيرين وخمسة درهم أخذها من أبي بكر؛ يشتريان بها ما يحتاج إليه من الظهر ، وبعث أبو بكر معهما : عبد الله بن أريقطالishi<sup>(١)</sup> بعيرين أو ثلاثة ، وكتب إلى ابنه عبد الله يأمره أن يحمل أهله أم رومان ، وأنا وأختي أسماء ، فخرجوا ، فلما انتهوا إلى قُدُيد اشترى زيد بتلك الدرارِم ثلاثة أبعة ، ثم دخلوا مكة ، وصادفوا طلحة يربد الهجرة بآل أبي بكر ، فخرجنا جميعاً ، وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة وأم

(١) وهو الذي كان دليلاً على النبي ﷺ وأبي بكر في الهجرة .

(٢) اليض : هو من منازل بنى كنانة بالمخajar .

أيمن وأسامة ، فاصطحبنا جميعاً حتى إذا كنا بالبيض<sup>(٢)</sup> نفر بعيري وقدامي مجففة فيها أمي ، فجعلت أمي تقول : وابنته ! واعروساه ! حتى أدرك بعيرنا ، فقدمنا والمسجد يُعنى ذكر الحديث<sup>(١)</sup>.

لقد كانت تدرك عائشة - رضي الله عنها - وهى الفتاة اللطوب : أنها زوجاً لرسول الله ﷺ سيد الخلق ، ولما تناهز الثامنة من عمرها . وقد أدركت بحسها المرهف وبفترط ذكائها هذا الزواج منذ لحظاته الأولى إذ تقول - رضي الله عنها : تزوجنى رسول الله ﷺ وإنى لالعب مع الجوارى ، فما دريت أن رسول الله تزوجنى ، حتى أخذتني أمي فحسبتني في البيت عن الخروج ، فوقع في نفسي أنى تزوجت . فما سألتها حتى كانت أمي هي التي أخبرتني .

ولا تنسى - رضي الله عنها - أن تحدثنا عن ساعة زفافها : فعنها قالت : تزوجنى رسول الله ﷺ متوفى خديجة ، وأنا ابنة ست ، وأدخلت عليه وأنا ابنة تسع ، جاءنى نسوة وأنا ألعب على أرجوحة ، وأنا مجمرة<sup>(٢)</sup> ، مهياًنى وصفقنى ، ثم أتينى بى إليه<sup>(٣)</sup> .

قال عروة : فمكثت عنده تسع سنين .

ولا تنسى أن تحدثنا عن أحلى أيام عرسها متى كان ذلك فتقول : تزوجنى رسول الله ﷺ في شوال ، وأعرس بى في شوال ، فأى نسائه كان أحظى عنده منى . وكانت العرب تستحب لنسائها أن يدخلن على أزواجهن في شوال .

يقول الحافظ الذهبي : (تزوجها نبى الله ﷺ قبل مهاجرة ، بعد وفاة الصديقة خديجة بنت خوبيل وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهرًا ، وقيل : بعامين ، ودخل بها في شوال سنة اثنين ، منصرفه - عليه الصلاة والسلام - من غزوة بدر ، وهي ابنة تسع)<sup>(٤)</sup> .

إنه أول عيد يشهده المسلمون ، وأعراس بدر في السماء والأرض ، وفي عوالم الإنس والجن . والملائكة تشارك بهذه الأفراح في عيد الفطر العظيم ، وفي تلك

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/١٥٣ ، وقال المحقق : « أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/٦٢ ، والواقدي ضعيف » .

(٢) مجمرة : ذات جمة ، ويقال للشعر إذا سقط عن المكين : جمة ، وإذا كان إلى شحمة الأذنين : وقرأ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/١٤٨ ، وقال المحقق فيه : « أخرجه أبو داود في الأدب بباب الأرجوحة واسناده صحيح » .

(٤) المصدر نفسه ٢/١٦٤ ، وقال المحقق : « يحيى بن ميان صدوق يخطئ ، لكنه متبع ، فقد أخرجه مسلم في النكاح رقم ١٤٢٢ » .

الأجزاء: تشارك المدينة بهذا الحدث العظيم زواج رسول الله ﷺ بعنة الصديق الأكبر وجبريل - عليه الصلاة والسلام - هو الذي يعرض الخطوبة بعائشة كما روت - رضي الله عنها - عن رسول الله ﷺ : « أربتكم في النهار ثلاثة ليال ، جاء بك الملك في سرقة من حرير فيقول : هذه امرأتك ، فاكتشف عن وجهك فإذا أنت فيه . فأقول : إن يك هذا من عند الله يمضيه » (١) .

وأخرج الترمذى عن عائشة : أن جبريل جاء بصورتها فى خرقه حرير خضراء إلى النبي ﷺ فقال : « هذه زوجتك فى الدنيا والأخرة » (٢) .

ولأن استحيت - رضي الله عنها - أن تحدثنا عن ليلة زفافها ، فقد حدثتنا عنها أسماء بنت يزيد الأنصارية وهى التى هياطها بخلوتها مع رسول الله ﷺ وأدخلتها عليها مع نسوة من الأنصار ، تقول أسماء :

إنى قيئت عائشة لرسول الله ﷺ ، ثم جنته فدعوهه بخلوتها ، فجاء فجلس إلى جنبها ، فأتأتى بعس لين فشرب ، ثم ناولها النبي ﷺ فخفضت رأسها ، واستحيت ، قالت أسماء : فاتتني زفافها ، وقلت لها : خذى من يد رسول الله ﷺ ، فأخذت ، فشربت شيئاً ، ثم قال لها النبي ﷺ : « أعطى تربك » قالت أسماء : فقلت : يا رسول الله ، بل خذه فاشرب منه ، ثم ناولنيه من يدك ، فأخذ فشرب منه ثم ناولنيه ، قالت : فجلست ثم وضعته على ركبتي ، ثم طفت أديره ، وأتبعه بشفتي لاصيب منه مشرب النبي ﷺ . ثم قال النسوة عندي : ناوليهن ، فقلن : لا نشتئه فقال النبي ﷺ : « لا تجتمعن جوعاً وكذباً » (٣) .

وفى أجواء الحرب والنصر تضيع معالم الحديث عن التربية النبوية ، لهذا الجيل . فهذه أسماء - رضي الله عنها - وهى تحدثنا عن زفاف عائشة إلى رسول الله ﷺ ، ليروعننا هذا الأدب الجم منها ، فهى التى تهمى لرسول الله ﷺ زوجه ، و تعالج حياءها منه ساعة دخوله عليها ، فتتبرأ لتأخذ العس من حبيبها - عليه الصلاة والسلام - وهى التى لا ترضى أن تأخذ من عائشة - رضي الله عنها - حتى تعيد عائشة العس إلى حبيبها . فيتبادلا شراب اللبن فى هذه الساعة المباركة ، ثم تتناول العس من يد سيد الخلق تبحث عن موضع شفتيه لشرب منه فتتال بركة النبي ﷺ ، وهى التى تحدثنا فى آخر معالم التربية فى هذا الحديث عن النفسية الصافية الصادقة التى يجب أن تكون عليها المسلمة « لا تجتمعن جوعاً وكذباً » .

(١) أخرجه أحمد والبخارى ١٧٥ / ٧ في مناقب الأنصار ، ومسلم رقم (٢٤٣٨) في فضائل الصحابة .

(٢) الترمذى (٣٨٨٠) في المناقب و رجاله ثقات . (٣) مستند الإمام أحمد ٦ / ٤٥٨ .

فيسألن - رضي الله عنهن - كما في حديث آخر : يا رسول الله ، إن قالت إحداهن لشيء تشهيه : لا تستهيه ، أيعد ذلك كذبًا ؟ قال : « إن الكذب يكتب حتى تكتب الكاذبية كاذبة » .

### عرض فاطمة سيدة نساء العالمين :

وللشیء فاطمة يتقدم سادة أهل الأرض .

فعن علاء بن أحمر اليشكري: أن أبا بكر خطب فاطمة إلى النبي ﷺ فقال : « يا أبا بكر ، انتظر بها القضاء » . فذكر ذلك أبو بكر لعمر ، فقال له عمر : ربك يا أبا بكر ، ثم إن أبا بكر قال لعمر : اخطب فاطمة إلى النبي فخطبها فقال له مثل ما قال لأبي بكر : « انتظر بها القضاء » (١) .

وانتشر خبر الخطوبة هذه في أرجاء المدينة ، فتحرك أهل على تكاليفه يحتونه ليخطب فاطمة . و يحدثنا على تكاليفه عن ذلك بنفسه فيقول :

( خطب فاطمة إلى رسول الله ﷺ ) فقالت لى مولاً لى : هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ ؟ قلت : لا . قالت : فقد خطبت ، فما يمنعك أن تأتني رسول الله ﷺ فيزوجك . قلت : وعندي شيء أتزوج به ؟ فقالت : إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوجك . فوالله ما زالت ترتجين حتى دخلت على رسول الله ﷺ . وكان لرسول الله جلالة وهيبة ، فلما قعدت بين يديه أفحست ، فوالله ما استطعت أن أتكلم ، فقال رسول الله ﷺ : « ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ » فسكت ، فقال : « ما جاء بك ؟ ألك حاجة » فسكت ، فقال : « العلك جئت تخطب فاطمة » ، قلت : « نعم . قال : « وهل عندك من شيء تستحلها بها ؟ » قلت : لا والله يا رسول الله ، فقال : « ما فعلت درع سلطتكها ؟ » فوالذي نفس على بيده إنها خطميه ما ثمنها أربعة دراهم - قلت : عندي . فقال : « قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها » فإن كانت لصدق فاطمة بنت رسول الله ﷺ ) (٢) .

رضي الله عن سيدة نساء العالمين . ولعل درس التربية هذا يفقهه نسوة أهل الأرض ورجالاتها ، فقد انحرف الفهم لدى جيلنا النكد ، حيث يقيم الصداق بقيمة المرأة ، ويرتفع الصداق كلما كانت حسيبة أكثر أو جميلة أكثر أو متقدمة أكثر ، وليتعلم المؤمنون في الأرض اليوم موقف أبي الفتاة من الشاب الكفاء من خلال هذا الموقف الذي رضي

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٩/٨ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٣/١٦٠ ، والسيره النبوية لابن إسحاق برواية يونس بن بكر : ٢٤٧ .

فيه سيد الخلق صلوات الله عليه سيدة نساء أهل الجنة : درعاً حطميه لا تساوى أربعة دراهم كان قد وهبها لصهره - عليه الصلاة والسلام .

ولا ننسى ونحن في غمرة الحديث عن الزواج في أصل الهدية النبوية للفتى العظيم صلوات الله عليه فالهدية درع حطميه ، يعد بها رسول الله صلوات الله عليه فتاه علياً للحرب ، والواجهة ، فالهدية درع وليس ناقة سميته أو تحفة نادرة أو ثوباً براقياً أو غير ذلك . إنه يعد - عليه الصلاة والسلام - الجيل المجاهد ، وكانت بدر ، وبرز الفتى على <sup>أ</sup>بطلاً مغواراً يقارع صناديد قريش فيجدد لهم ، وعرفت فاطمة من فتاتها الذي تزوجته ، فهو أول من يجثو للخصوصة بين يدي الرحمن ، يوم جندل خصمه الوليد بن عتبة من اللحظات الأولى للمبارزة .

وحان موعد الزفاف . وكان الموعد عقب بدر . إذ أصبح لدى على صلوات الله عليه ما يؤودي به حفلة الزفاف ، وأثاث البيت ، فقد صار له بعد بدر جملان ريحهما من المعركة ، ولو شاء أن يثير لاثرى ، فأكثر من الأسرى ، ولكنه كان ينظر بعين الله ، فلا يقبل خصمه إلا القتل ، ولا يرضيه إلا سفع دم المشركين في سبيل الله كما وصفه عمر صلوات الله عليه في لحظة من لحظات جهاده ، حيث يقول لسعيد بن العاص :

إني أراك كان في نفسك شيئاً . أراك تظن أنني قتلت أبيك ، إني لو قتلت لم أعتذر لك عن قتيله ، ولكنني قتلت خالى العاص بن هشام ، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه فحدث عنه ، وقصد له ابن عمه على فقتله .

وعلمت سيدة نساء العالمين أن زوجها على صلوات الله عليه هو الذي شفي نفسها من عقبة بن أبي معيط ، واستعادت تلك الصورة التي يتزلزل كيانها كلما ذكرتها .

( بينما رسول الله صلوات الله عليه يصلى عند المقام ، فقال أبو جهل لاصحابه وهم جلوس عنده: من يذهب فيأتينا بسلى الجزور<sup>(١)</sup> ) ، فقام غاو منهم ( وهو عقبة بن أبي معيط كما في رواية أخرى ) فجاء به ، فقيل له : إذا رأيت محمداً ساجداً فضعه بين كتفيه ، فلما سجد رسول الله صلوات الله عليه وضعه بين كتفيه . فلم يتحلل حتى فرغ من سجوده ، فبلغ فاطمة . فجاءت وهي جارية فأخذته وجعلت تمسح عن ظهر رسول الله صلوات الله عليه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم واستضحكوا حتى صرعوا ، فلما قضى رسول الله صلوات الله عليه صلاته استقبل الكعبة فدعا عليهم : « اللهم عليك بعمرو بن هشام ، وعقبة بن ربيعة ، وشيبة بن

(١) سلى الجزر : أمواه .

ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وعمارة بن الوليد ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط)  
قال عبد الله بن مسعود :

وأنا يومئذ غلام غير ذي منعة من القوم ، فوالذي أنزل الكتاب على محمد لقد  
رأيتمه صرعى في الطوى طوى بدر )<sup>(١)</sup> .

هؤلاء السبعة قرابة نصفهم كانت منيته على يد على رضي الله عنه قتل الوليد بن عتبة ،  
وشارك عمه حمزة في قتل عتبة بن ربعة ، وكلفه - عليه الصلاة والسلام - في قتل  
عقبة بن أبي معيط صبراً في الصفراء ، وهم عائدون إلى المدينة ، وشفى نفس فاطمة  
العظيمة أن أخذ زوجها ثارها من ابن معيط .

ها هو على رضي الله عنه يستعد للعرس بعد بدر . ويتهيا للزفاف ، ولكن صدده ما فعل  
عمه حمزة بثروته رضي الله عنه ولندع الحديث لعلى كما روى البخاري عنه :

( كانت لى شارف )<sup>(٢)</sup> من نصبي من المحن يوم بدر . وكان النبي صلوات الله عليه أعطانى ما  
أناء عليه من الخمس يومئذ ، فلما أردت أن أبتنى بقاطمة - عليها السلام - بنت النبي  
صلوات الله عليه واعدت رجلاً صواغاً من بني قينقاع أن يرتحل معى فنأتى بإذخر . فأردت أن أبيعه  
من الصواغين ، فستعين به فى وليمة عرسى . فيينا أنا أجمع لشارفى من الأقتاب )<sup>(٣)</sup>  
والغرائر )<sup>(٤)</sup> والحبال ، وشارفأى مناخان إلى جنب حجرة رجل من الانصار حتى جمعت  
ما جمعت . فإذا أنا بشارفى قد أجبت أسمتهم ، وبقرت خواصرهما ، وأخذ من  
أكبادهما . فلم أملك من عيني حين رأيت المنظر ، قلت : من فعل هذا ؟ قالوا : فعله  
حمزة بن عبد المطلب ، وهو فى هذا البيت فى شرب من الانصار ، وعنهه قينة  
وأصحابه ، فقالت فى غنائها : ( ألا يا حمزة للشرف التواء ) فوثب حمزة إلى السيف  
فأجاب أسمتهم ، وبقر خواصرهما ، وأخذ من أكبادهما . قال على : فانطلقت حتى  
أدخل على النبي صلوات الله عليه وعنده زيد بن حارثة ، وعرف النبي صلوات الله عليه الذى لقيت ، فقال :  
« مالك ؟ » قلت : يا رسول الله ما رأيت كاليلوم ، عدا حمزة على ناقتي فأجاب  
أسمتهم ، وبقر خواصرهما ، وها هو ذا فى بيت شرب . فدعا النبي صلوات الله عليه بردائه  
فارتدى ، ثم انطلق يمشى واتبعه أنا وزيد بن حارثة ، حتى جاء البيت الذى فيه حمزة  
فاستاذن عليه فأذن له ، فطقق النبي صلوات الله عليه يلوم حمزة فيما فعل ، فإذا حمزة ثمل محمرة

(١) السيرة البوية لأبن إسحاق من رواية يونس : ٢١١ .

(٢) الشارف : المسن من الدواب .

(٣) الأقتاب : جمع قب و هو الرحل الصغير على سنان الجمل .

(٤) الغرائر : جمع غرارة ، وعاء من الخيش يوضع به الطعام أو الماء .

عيناه ، فنظر حمزة إلى النبي ﷺ ثم صعدَ النظر ، فنظر إلى ركبته ، ثم صعدَ النظر فنظر إلى وجهه ، ثم قال حمزة : وهل أنتم إلا عبيد لابي ؟ فعرف النبي ﷺ أنه ثمل فنكص رسول ﷺ على عقيبه القهقري ، فخرج وخرجنا معه )١( .

وأوقفت وليمة العرس ، وانشغلت المدينة بيني قينقاع ، ثم عادت فاحتفلت لخروجهم ، وعاد على ركبته ليعد لحفلة زفافه ، ونستمع فيها إلى رواية أنس رضي الله عنه قال :

جاء أبو بكر وعمر يخطبان فاطمة إلى النبي ﷺ ، فسكت ولم يرجع إليهما شيئاً . فانطلقا إلى على ركبته يأمرانه بطلب ذلك . قال على: فنبهاني لأمر ، فقمت أجر ردائى حتى أتيت النبي ﷺ فقلت: تزوجنى فاطمة ؟ قال: « عندك شيء ؟ » فقلت: فرسى ويدنى . قال: « أما فرسك فلا بد لك منها ، وأما بدنك فبعها ». فبعثتها بأربعمائة وثمانين درهماً ، فجثته بها ، فوضعتها في حجره فقبض منها قبضة فقال: « أى بلال ، اتبع لنا طيباً » وأمرهم أن يجهزوها ، فجعل لها سرير مشروط ، ووسادة من أدم حشوها ليف . وقال لعلى: « إذا أتيتك فلا تحدث شيئاً حتى آتيك » فجاءت مع أم أيمن ، حتى قعدت في جانب البيت ، وأنا في جانب ، وجاء رسول الله ﷺ . فقال: « أها هنا أخرى ؟ » قالت أم أيمن: « أخوك وقد زوجته ابنته ؟ » قال: « نعم » ، ودخل ﷺ فقال لفاطمة: « اتنى بماء » فقامت في البيت فأتأت فيه بماء فأخذنه ومج فيه . ثم قال لها: « تقدمي » . فتقدمت ، فنضج بين ثدييها وعلى رأسها وقال: « اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » ثم قال: « أدبri » . فأدبرت فصب بين كتفيها ، ثم فعل مثل ذلك بعلى ثم قال: « ادخل بأهلك بسم الله والبركة » ، أخرجه أبو حاتم بن حبان التميمي وأحمد في المناقب بنحوه )٢( .

هذه هي الحياة التي يربى عليها رسول الله ﷺ جيل المجاهدين ، البساطة والزهد في المتع ، فغرفة النوم فيها سرير مشروط ، ووسادة من جلد محشوة بليف . ونجد في روايات أخرى حديثاً عن غرفة الطعام ، وغرفة الاستقبال ، ينقل لنا هذا الحديث: عطاء ابن السائب عن أبيه عن علي قال: ( جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل )٣( ، وقرية ، ووسادة من أدم حشوها إذخر )٤( )٥( . فالقرية للشارب ، والخمير فراش النوم .

وفي رواية ثالثة عن علي: أن رسول الله ﷺ لما زوجه فاطمة: بعث معها بخميلة ، ووسادة أدم حشوها ليف ، ورحاءين وسقاءين .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر ٣١٦/٨ رقم (٤٠٠) .

(٢) المواهب اللدنية للقسطلاني ١/٨٩ ، ٩٠ . (٣) الخمير: قطيفة بئبة الفراش .

(٤) الإذخر: حشيش رطب طيب الرائحة .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي ١٦١/٢ ، ومسند الإمام أحمد ١٤/١ ، واسناده صحيح .

إنها الرحى التي تطعن بها الشعير لتأكله ، والسعاء الذي تنقل به الماء إلى البيت .  
وحين يرى هذا الجيل قائدـهـ عليه الصلاة والسلام - يزوج ابنته بهذا الصداق ، ويهبـهاـ  
بهـذاـ الآثـاثـ يـتـرـىـ كـلـهـ عـلـىـ الزـهـدـ فـىـ الدـنـيـاـ ، وـعـلـىـ اـنـخـلـاعـ هـذـهـ الدـنـيـاـ مـنـ قـلـوبـهـمـ ،  
فـكـلـ هـمـسـةـ وـكـلـ حـرـكـةـ وـكـلـ خطـوـةـ درـسـ فـىـ الـبـنـاءـ الـعـمـلـيـ وـالـنـفـسـيـ لـهـ . وكـيـفـ كـانـتـ  
تـعـيـشـ سـيـدةـ نـسـاءـ الـعـالـمـينـ ؟ـ وـهـوـ درـسـ لـكـلـ مـسـلـمـةـ وـمـسـلـمـ فـىـ هـذـاـ الـوـجـودـ .ـ لـقـدـ تـنـوـعـتـ  
الـمـسـؤـلـيـاتـ وـتـحـدـدـتـ ،ـ كـمـاـ وـزـعـهـاـ عـلـىـ تـكـفـيـةــ لـأـعـلـىـ (١)ـ .

فـعـنـ أـبـيـ الـبـخـتـرـىـ قـالـ :ـ قـالـ عـلـىـ تـكـفـيـةــ لـأـمـهـ :ـ أـكـفـىـ فـاطـمـةـ الخـدـمـةـ خـارـجـاـ ،ـ وـهـىـ  
تـكـفـيـكـ الـعـلـمـ فـىـ الـبـيـتـ وـالـعـجـنـ وـالـخـبـزـ وـالـطـحـنـ (٢)ـ .

وـهـذـهـ صـورـةـ مـنـ الـحـفـلـاتـ الضـخـمـةـ لـوـلـائـمـ سـيـدةـ نـسـاءـ الـعـالـمـينـ .

وـعـنـ عـمـرـانـ بـنـ حـصـيـنـ ؛ـ أـنـ النـبـيـ صـلـيـلـهـ عـلـىـهـ وـسـلـيـلـهــ عـادـ فـاطـمـةـ وـهـىـ مـرـيـضـةـ فـقـالـ لـهـاـ :ـ «ـ كـيـفـ  
تـجـدـيـنـكـ ؟ـ »ـ قـالـتـ :ـ إـنـىـ وـجـعـةـ ،ـ وـإـنـهـ لـيـزـيـدـنـىـ ،ـ مـاـ لـىـ طـعـامـ آـكـلـهـ .ـ قـالـ :ـ «ـ يـاـ بـنـيـةـ أـمـاـ  
تـرـضـيـنـ أـنـ تـكـوـنـيـ سـيـدةـ نـسـاءـ الـعـالـمـينـ ؟ـ »ـ قـالـتـ :ـ فـأـيـنـ مـرـيمـ ؟ـ قـالـ :ـ «ـ تـلـكـ سـيـدةـ نـسـاءـ  
عـالـمـاـ ،ـ وـأـنـتـ سـيـدةـ نـسـاءـ عـالـمـكـ ،ـ أـمـاـ وـالـلـهـ لـقـدـ زـوـجـتـكـ سـيـداـ فـىـ الـدـنـيـاـ وـالـآـخـرـةـ »ـ (٣)ـ .ـ  
فـقـدـ أـشـبـعـ جـوـعـهـاـ مـاـ أـعـدـ اللـهـ لـهـاـ مـنـ الـفـضـلـ ،ـ وـمـاـ أـكـرـمـ اللـهـ بـهـ زـوـجـهـاـ مـنـ فـضـلـ ،ـ  
وـهـذـهـ صـورـةـ عـنـ حـيـاةـ اـبـتـةـ الـحـاـكـمـ وـقـائـدـ الـأـعـظـمـ فـىـ الـمـدـيـنـةـ .

عـنـ عـلـىـ أـنـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـيـلـهـ عـلـىـهـ وـسـلـيـلـهــ لـاـ زـوـجـهـ فـاطـمـةـ بـعـثـتـ مـعـهـاـ بـخـمـيـلـةـ وـوـسـادـةـ أـدـمـ حـشـوـهـاـ  
لـيـفـ وـرـحـاءـيـنـ وـسـقـاءـيـنـ ،ـ فـقـالـ عـلـىـ لـفـاطـمـةـ يـوـمـاـ :ـ لـقـدـ شـقـوتـ حـتـىـ أـسـلـبـتـ صـدـرـىـ ،ـ  
وـقـدـ جـاءـ اللـهـ بـسـبـىـ ،ـ فـاذـهـبـىـ فـاسـتـخـدـمـىـ .ـ فـقـالـتـ :ـ وـأـنـاـ وـالـلـهـ قـدـ طـحـنـتـ حـتـىـ مـحلـتـ (٤)ـ .ـ  
يـدـاـيـ .ـ فـأـتـتـ النـبـيـ صـلـيـلـهـ عـلـىـهـ وـسـلـيـلـهــ فـقـالـ :ـ «ـ مـاـ جـاءـ بـكـ ؟ـ أـىـ بـنـيـةـ؟ـ »ـ فـقـالـتـ :ـ جـنـتـ لـاـسـلـمـ عـلـىـكـ .ـ  
وـاسـتـحـيـتـ أـنـ تـسـأـلـهـ ،ـ وـرـجـعـتـ .ـ فـأـتـيـاهـ جـمـيـعـاـ فـذـكـرـ لـهـ عـلـىـ حـالـهـمـاـ فـقـالـ :ـ «ـ لـاـ وـالـلـهـ لـاـ  
أـعـطـيـكـمـاـ ،ـ وـأـدـعـ أـهـلـ الـصـفـةـ تـتـلـوـيـ بـطـوـنـهـمـ لـاـ أـجـدـ مـاـ أـنـفـقـ عـلـيـهـمـ ،ـ وـلـكـنـ أـبـعـ وـأـنـفـقـ  
عـلـيـهـمـ أـثـمـانـهـ .ـ .ـ (٥)ـ .ـ

لـقـدـ كـانـتـ الـوـسـاطـةـ عـلـىـ أـعـلـىـ مـسـتـوـيـاتـهـ وـأـخـفـقـتـ فـىـ الـحـصـولـ عـلـىـ خـادـمـ ؛ـ لـأـنـ  
الـسـبـىـ يـرـيدـ .ـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ .ـ أـنـ بـيـعـهـ ،ـ وـيـنـفـقـ ثـمـنـهـ عـلـىـ أـهـلـ الـصـفـةـ الـذـيـنـ  
يـتـلـوـنـ مـنـ الـجـوعـ .ـ فـهـمـ أـهـلـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـيـلـهـ عـلـىـهـ وـسـلـيـلـهــ وـخـاصـتـهـ مـثـلـ عـلـىـ فـاطـمـةـ ،ـ وـالـطـعـامـ  
مـقـدـمـ عـلـىـ الـخـدـمـةـ .

(١) الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ١٥٩/٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٢٥/٢ ، وقال المحقق فيه : « رجاله ثقات » .

(٤) محلـتـ : تـشـقـقـتـ وـغـلـظـتـ .

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة ١٥٩/٨ .

فرجعوا فأتاهموا وقد دخلوا على قطيفتهما ، إذا غطيا رؤوسهما بدت أقدامهما . وإذا خطيا أقدامهما انكشفت رؤوسهما . فثارا . فقال : « مكانكما . ألا أخبركم بما سلتماني » . فقالا : بلـى . فقال : « كلمات علمـينـ جـبرـيلـ : تسبـحـانـ فيـ دـبـرـ كـلـ صـلـاةـ عـشـرـاـ ، وـتـكـبـرـانـ عـشـرـاـ ، إـذـاـ أـوـيـتـمـاـ إـلـىـ فـرـاشـكـمـ تـسـبـحـانـ ثـلـاثـاـ وـثـلـاثـينـ ، وـاحـمـدـاـ ثـلـاثـاـ وـثـلـاثـينـ ، وـكـبـرـاـ أـرـبـعـاـ وـثـلـاثـينـ » .

قال على : فوالله ما تركـتـهـنـ مـنـذـ عـلـمـيـنـ . وـقـالـ لـهـ اـبـنـ الـكـوـاءـ : وـلـاـ لـيـلـةـ صـفـيـنـ .  
فـقـالـ : قـاتـلـكـمـ اللـهـ يـاـ أـهـلـ الـعـرـاقـ . وـلـاـ لـيـلـةـ صـفـيـنـ (١) .

لقد كانت أثـرـةـ النـبـيـ ﷺ لـأـهـلـهـ وـخـاصـةـ أـنـ سـارـعـ وـنـقـلـ لـهـمـ قـبـلـ غـيرـهـمـ مـاـ عـلـمـهـ جـبـرـيلـ - عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ - مـنـ التـسـبـيـحـ وـالتـحـمـيدـ وـالتـكـبـرـ ، وـكـانـ هـذـاـ عـوـضـاـ عـنـ الـخـادـمـ ، وـتـلـقـيـ الصـهـرـ السـعـيدـ هـذـاـ عـطـاءـ مـنـذـ تـلـكـ الـلـحظـةـ ، وـحـافـظـ عـلـىـ هـذـاـ الـكـنزـ حـتـىـ آخـرـ حـظـةـ مـنـ حـيـاتـهـ ، وـهـكـذـاـ تـكـونـ التـرـيـةـ .

ويـمـرـ الزـمـنـ بـالـفـتـىـ عـلـىـ فـيـصـبـحـ السـيـدـ الـأـوـلـ فـيـ الـأـرـضـ ، وـخـلـيـفـةـ الـسـلـمـينـ فـيـ الـعـصـرـ . فـلـذـاـ بـهـ مـنـ آـثـارـ هـذـهـ التـرـيـةـ يـلـبـسـ أـخـشـنـ الثـيـابـ ، وـيـأـكـلـ أـخـشـنـ الطـعـامـ ، فـلـمـ تـغـرـهـ الدـنـيـاـ ، وـلـمـ تـفـتـهـ بـهـارـجـهـاـ وـبـيـدـهـ كـنـزـ الـأـرـضـ وـخـيـرـاتـهـ ؛ لـأـنـ ذـلـكـ الـكـنـزـ الـعـظـيمـ يـمـلـأـ قـلـبـهـ ، وـذـكـرـ اللـهـ تـعـالـىـ يـغـمـرـ وـجـودـهـ ، فـلـاـ يـنـسـاهـ حـتـىـ فـيـ لـيـلـةـ صـفـيـنـ ، وـكـانـ كـمـاـ وـصـفـهـ ضـرـارـ بـنـ ضـيـمـرـةـ فـيـ مـجـلـسـ مـعـاوـيـةـ ( ... يـسـتوـحـشـ مـنـ الدـنـيـاـ وـزـهـرـتـهـ ، وـيـسـتـأـنـسـ بـالـلـيلـ وـظـلـمـتـهـ ، كـانـ وـالـلـهـ غـيـرـ الـعـبـرـةـ ، طـوـيلـ الـفـكـرـةـ ، يـقـلـبـ كـفـهـ ، وـيـخـاطـبـ نـفـسـهـ ، يـعـجـبـهـ مـنـ الـلـبـاسـ مـاـ قـصـرـ ، وـمـنـ الطـعـامـ مـاـ جـشـبـ ... ) (٢) .

### غـزـوـةـ السـوـيـقـ :

لم يـتـهـ الـعـامـ الثـانـيـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ إـلـاـ بـهـجـومـ مـبـاغـتـ لـأـبـيـ سـفـيـانـ عـلـىـ نـوـاحـيـ الـمـدـيـنـةـ وـمـعـهـ مـائـةـ رـاكـبـ . وـاستـغـلـ الطـابـورـ الـخـامـسـ فـيـهـاـ يـهـودـ بـنـيـ النـضـيرـ حـيـثـ دـلـلـ سـيـدـهـمـ سـلـامـ بـنـ مشـكـمـ - عـلـىـ بـعـضـ عـورـاتـ الـمـدـيـنـةـ ، فـحـرـقـ بـعـضـ النـخـلـ ، وـقـتـلـ رـجـلـينـ مـنـ الـأـنـصـارـ ، وـكـرـ رـاجـعاـ ، حـيـثـ لـقـ بـهـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ فـيـ مـائـيـنـ مـنـ الـمـهاـجـرـينـ وـالـأـنـصـارـ . وـجـعـلـ أـبـوـ سـفـيـانـ وـأـصـحـابـهـ يـتـخـفـفـونـ لـلـهـرـبـ فـيـلـقـوـنـ جـرـبـ السـوـيـقـ وـهـيـ: عـامـةـ أـرـادـهـمـ ، فـيـأـخـذـهـاـ الـمـسـلـمـونـ فـسـمـيـتـ غـزـوـةـ السـوـيـقـ وـلـمـ يـلـحـقـوـهـمـ ، وـرـجـعـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ رـاجـعاـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ وـكـانـ غـابـ خـمـسـةـ أـيـامـ .

(٢) صـفـةـ الصـفـوـةـ لـابـنـ الجـوزـيـ / ٨٤ـ .

(١) الـإـصـابـةـ فـيـ تـمـيـزـ الصـحـابـةـ ١٥٩ـ / ٨ـ .

فعملية الخروج تهدف ابتداءً إلى الثأر للقتيلين المسلمين ، وأن المسلمين لا ينامون على ضيم ، ورغم أن احتمال اللحق ب أبي سفيان كان ضعيفاً ، لكنه درس له ولكل القبائل المجاورة أن هذا الأمر لا يترك سدىً . فتتجزأ القبائل المجاورة على ذلك ، هذا من الجانب السياسي . ومن الجانب التربوي : هي عملية بناء وتدريب وتعبئة ، ولو لم يقع فيها قتال ، حتى إن المسلمين يقولون لسيدهم القائد - عليه الصلاة والسلام - : أنتمع أن تكون لنا غزوة؟ قال : «نعم» .

فالذى يشغل بال هذا الجيل السعيد ويقلقه ، هو الأجر العظيم ، وابتغاء مرضاه الله ، وما يضيرهم بعدها أى نتيجة كانت ، إنما الذى يهمهم أن تُحسب لهم غزوة في سبيل الله ، وغدوة وروحه في الله ، وهذا الخروج رسالة موجهة لبني النضير الذى غالباً سيدهم على المسلمين ، ودل عدوهم على عوراتهم .

بقى علينا أن نذكر أن رسول الله ﷺ كان يعد شخصية جديدة ويدربها على الحكم والولاية في هذا العام ، هذه الشخصية هي: أبو لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه وهو من بنى عمرو بن عوف من الأوس ، وفي رواية أنه هو: رفاعة بن عبد المنذر ، فهو أحد القبائل الائتني عشر ، فقد كان أحد القادة الذين تحملوا مسؤولية الحكم بين يدي رسول الله ﷺ . وقد ردَّ رسول الله ﷺ من الروحاء إلى بدر ، واستخلفه على المدينة ، فإذا ذُنْدَن قد مارس الحكم في عهد القائد الأعظم - عليه الصلاة والسلام - وتتابعت مسؤولياته .

فعن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : استخلف رسول الله ﷺ أبو لبابة بن عبد المنذر على المدينة ثلاثة مرات : بدر القتال ، وبنى قينقاع ، وغزوة السويف . صحيح أن الفترة قصيرة ولكنها التدريبات على الحكم والمسؤولية والتي لابد منها ليخرج جيلاً قادراً على قيادة البشرية .

## العام الثالث في المدينة

### ١ - أهل الصفة :

( أعقب هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ظهور مشكلة تتعلق بمعيشة المهاجرين الذين تركوا بيوتهم وأموالهم ومتاعهم بمكة فراراً بدينه من طغيان المشركين ، ولا شك أن بعض المهاجرين لم يستطعوا العمل حال قدومهم إلى المدينة؛ لأن الطابع الزراعي يغلب على اقتصاد المدينة ، وليس للمهاجرين خبرة زراعية مجتمع مكة تجاري ، كما أنهم لا يملكون أرضاً زراعية في المدينة ، وليس لديهم رؤوس أموال فقد تركوا أموالهم بمكة ، وقد وضع الأنصار إمكانياتهم في خدمة المهاجرين ، لكن بعض المهاجرين بقي محتاجاً إلى المأوى .

وحانت الفرصة عندما تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بعد ستة عشر شهراً من هجرته إلى المدينة؛ حيث بقى حافظ القبلة الأولى في مؤخر المسجد النبوى ، فأمر النبي ﷺ فطلّ أو سُقُف ، وأطلق عليه اسم « الصفة » ، أو « الظلة » ، ولم يكن لها ما يستر جوانبها ... ولا يعرف سعة الصفة ، ولكن يبدو أنها كانت تسع لعدد كبير حتى أن النبي ﷺ استخدمها في وليمة حضرها ثلاثة عشر شخص ، وإن كان بعضهم قد جلس في حجرة من حجرات النبي ﷺ الملائقة للمسجد .

أول من سكن الصفة: المهاجرون ؛ لذلك نسبت إليهم ، فقيل: صفة المهاجرين . وكذلك كان ينزل بها الغرباء ... وكان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له عريف نزل عليه ، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة ... وإلى جانب المهاجرين والغرباء نزل بعض الأنصار في الصفة حباً لحياة الزهد والفقر ، رغم استغاثتهم عن ذلك وجود دار لهم في المدينة ، ومنهم: كعب بن مالك الانصاري ، وحنظلة بن أبي عامر الانصاري « غسل الملائكة » ، وحارثة بن النعمان الانصاري وغيرهم ، ولأن أهل الصفة كانوا أخلاقاً من قبائل شتى سماهم النبي ﷺ (الأوافض) وقيل في سبب هذه التسمية أيضاً : إن كل واحد منهم كان معه وفضة : وهي مثل الكنابة الصغيرة يلقى فيها طعامه ، لكن القول الأول أرجوed .

وكان عددهم يختلف باختلاف الأوقات ، فهم يزيدون إذا قدمت الوفود إلى المدينة ، ويقلون إذا قل الطارقون من الغرباء ، على أن عدد المقيمين منهم في الظروف

العادية كان في حدود السبعين رجلاً<sup>(١)</sup>.

ويقطع أهل الصفة للعلم ، ويعتكفون في المسجد للعبادة ، ويألفون الفقر والزهد ، فكانوا في خلوتهم يصلون ويقرؤون القرآن ، ويتدارسون آياته ، ويدذكرون الله تعالى ، ويتعلم بعضهم الكتابة ... لكن انقطاع أهل الصفة للعبادة والعلم لم يعزلهم عن المشاركة في المجتمع والإسهام في الجهاد . بل كان منهم الشهداء ... نعم هكذا كانوا رهباناً في الليل فرسانًا في النهار<sup>(٢)</sup>.

وكما وصفهم الحافظ أبو نعيم في الحلية :

( هم قوم أخلاقهم الحق من الركون إلى شيء من العروض ، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض ، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء ، لا يأوون إلى أهل ولا مال ، ولا يلهمهم عن ذكر الله تعالى تجارة ولا حال ، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ، ولا يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبي )<sup>(٣)</sup>.

وكما وصفهم أبو هريرة رض :

( وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها )<sup>(٤)</sup> ، ( المشهور من أخبارهم غلة الفقر عليهم ، وإيثارهم القلة واختيارهم لها ، فلم يجتمع لهم ثوبان ولا حضرهم من الأطعمة لونان )<sup>(٥)</sup>.

فلم يكن لهم من الملابس ما يقيهم من البرد أو يسترهم سترًا كاملاً ، فليست عندهم أردية ، ما لأحد منهم ثوب تام ، فكانوا يربطون في أغناهم الأكسية أو البرد ، أو يأتزرون بالأزر ... وكان جل طعامهم التمر . فكان النبي ﷺ يجري لكل رجلين منهم مدامًا من تمر كل يوم ... لقد قنعوا بالقليل من الطعام ، والخشى من الشياطين ، وعافت نفوسهم القصور؛ لينقطعوا إلى العبادة والعلم والمجاهدة ، فكانوا أمثلة للزهد والترفع عن الدنيا<sup>(٦)</sup>.

## ٢- غزوة قراراة الكلير<sup>(٧)</sup> :

إلى بنى سليم وغطفان على رأس ثلاثة وعشرين شهراً غاب خمس عشرة ليلة ...

(١) السيرة النبوية الصحيحة : د أكرم العمري ، مقتطفات ١/٢٥٧ - ٢٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ١/٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٣) حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم ١/٣٣٧ ، ٣٣٨ . (٤) متفق عليه .

(٥) حلية الأولياء ١/٣٤٠ . (٦) السيرة النبوية الصحيحة ١/٢٦٤ - ٢٦٦ .

(٧) هي بناية معدن بنى سليم قرية من الأراضية، بينما وبين المدينة ثمانية برد على طريق القصيم . معجم

السيرة النبوية للبلاذري : ٢٦٢ .

وكان الذى هاجه على ذلك أنه بلغه : أن بها جمعاً من غطفان وسليم ، فسار رسول الله ﷺ إليهم ، وأخذ عليهم الطريق حتى جاء فرأى آثار النعم<sup>(١)</sup> ومواردها ، ولم يجد فى المجال أحداً ، فأرسل فى أعلى الوادى نفراً من أصحابه ، واستقبلهم فى بطن الوادى فوجد رعاءً فىهم غلام يقال له : يسار ، فسألهم عن الناس فقال يسار : لا علم لى بهم ، إنما أورد لخمس ، وهذا يوم ربى ، والناس قد ارتبوا إلى المياه ، وإنما نحن عزاب فى النعم<sup>(٢)</sup> ، فانصرف رسول الله ﷺ وقد ظفر بنعم ، فانحدر إلى المدينة حتى إذا صلى الصبح ، فإذا هو بيسار فرآه يصلى .

وعن أبي أروى الدوسى قال : كنت فى السرية ، وكنت من يسوق النعم ، فلما كنا بصرار ، على ثلاثة أميال من المدينة ، خمس النعم ، وكان النعم خمسة بغير ، فأخرج خمسه ، وقسم أربعة أخماس على المسلمين ، فأصابهم بغيران بغيران . . . واستخلف يحيى بن أم مكتوم ، وكان يجمع بهم ويخطب إلى جنب المنبر ، يجعل المنبر عن يساره .

### ٣- غزوة غطفان بدئ أمر<sup>(٣)</sup> :

وكانت فى ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهراً ، خرج رسول الله ﷺ يوم الخميس لشتنى عشرة خلت من ربيع . فغاب أحد عشر يوماً ، وذلك كما روى الواقدى بستنه قالوا :

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من ثعلبة ومحارب بدئ أمر قد تجمعوا يريدون أن يصيروا من أطراف رسول الله ﷺ . جمعهم رجل منهم يقال له : دعثور بن الحارث بن محارب ، فتدب رسول الله ﷺ المسلمين ، فخرج فى أربعينات رجل وخمسين ، ومعهم أفراس فأخذ على المنفى ، ثم سلك مضيق الخبيث ، ثم خرج إلى ذى القصة ، فأصاب رجلاً منهم بدئ القصة يقال له : جبار من بنى ثعلبة ، فقالوا : أين تريد ؟ قال : أريد يشرب ، قالوا : وما حاجتك بشرب ؟ قال : أردت أن أرتاد لنفسى وأنظر . قالوا : هل مررت بجمع ، أو بذلك خبر لقومك ؟ قال : لا ، إلا أنه قد بلغنى : أن دعثور بن الحارث فى أناس من قومه عزل ، فأدخلوه على رسول الله ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم وقال : يا محمد إنهم لن يلاقوك إن سمعوا بمسيرك هربوا فى رؤوس الجبال ،

(١) النعم : المال السائب وأكثر ما يقع على الإبل .

(٢) عزاب في النعم : يعيشون في الإبل أو أنها بدون أزواجاً حيث رحلت القبيلة تبتغي الربيع .

(٣) ذو أمر : حدده الأقدمون - قرب التخيل ، والتخيل : بلدة وواد شمال الحناكية غير بعيد على طريق نجد بعد تسعين كيلماً ( معجم السيرة للبلاذري : ٢٣ ) .

وأنا سائر معك ، وداللُّك على عوراتهم ، فخرج به النبي ﷺ وضمَّه إلى بلال ، فأخذ به طريقاً أهبطه عليهم من كثيب ، وهربت منه الأعراب فوق الجبال ، وقبل ذلك ما قد غيروا في ذرى الجبال وذاريهم ، فلم يلاق رسول الله ﷺ أحداً إلا أنه ينظر إليهم في رؤوس الجبال ، فنزل رسول الله ﷺ ذا أمر وعسكر مسكنهم ، فأصابه مطر كثير ، فذهب رسول الله ﷺ لحاجته ، فأصابه ذلك المطر فبل ثوبه ، وقد جعل رسول الله ﷺ وادِي ذى أمر بيته وبين أصحابه ، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف ، وألقاها على شجرة ثم اضطجع تحتها ، والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل ، فقالت الأعراب لدعثور ، وكان سيدها وأشجعها : قد أمكنك محمد ، وقد انفرد من أصحابه حيث إن غوث باصحابه لم يُعث حتى قتله ، فاختار سيفاً من سيوفهم صارماً ، ثم أقبل مشتملاً على السيف حتى قام على رأس النبي ﷺ بالسيف مشهوراً فقال : يا محمد! من يمنعك مني اليوم؟ قال رسول الله ﷺ : « الله! » قال : ودفعه جبريل - عليه السلام - في صدره ، ووقع السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، وقام به على رأسه فقال : « من يمنعك مني اليوم؟ » قال : لا أحد . قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً . فاعطاه رسول الله ﷺ سيفه ، ثم أذير ، ثم أقبل بوجهه فقال : أما والله لانت خير مني . قال رسول الله ﷺ : « أنا أحق بذلك منك » فأتى قومه فقالوا : أين ما كنت تقول ، وقد أمكنك والسيف في يدك؟ قال : والله ، كان ذلك ، ولكنني نظرت إلى رجل أليس طويل ، دفع في صدري ، فوقيع لظوري ، فعرفت أنه ملك ، وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والله لا أكثر عليه ، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام ، ونزلت هذه الآية فيه : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قومٌ أن يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ » (١) ، وكانت غيبة النبي ﷺ إحدى عشرة ليلة ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢) .

#### ٤- غزوة بنى سليم بمحران بناحية الفرع (٣) :

لليال خلون من جمادى الأولى على رأس سبعة وعشرين شهراً غاب رسول الله ﷺ عشرة .

حدثني عمر بن راشد عن الزهرى قال : لما بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من بنى

(٢) المغازي للواقدي ١٩٣ / ١ - ١٩٦ .

(٣) الفرع : واد فحل من أودية الحجاز يمر على ١٥٠ كيلو جنوب المدينة المنورة ، كثير العيون والنخل ، وكان عند البعثة لمزيينة ( معجم السيرة للبلاذري : ٢٣٦ ) .

سلميًّا كثيًراً ببحران تهياً رسول الله ﷺ لذلك ، ولم يظهر وجهًا ، فخرج في ثلثمائة رجل من أصحابه ، فأغدوا السير حتى إذا كانوا دون بُحران بليلة ، لقي رجلاً من بنى سليم فاستخبروه عن القوم وعن جمعهم ، فأخبره أنهم قد افترقوا أمس ورجعوا إلى مائتهم ، فأمر به النبي ﷺ فحبس مع رجل من القوم ، ثم سار النبي ﷺ حتى ورد بُحران ، وليس به أحد . فآقام أيامًا ثم رجع ولم يلق كيدًا ، وأرسل رسول الله ﷺ الرجل ، وكانت غيته عشر ليالٍ .

حدثنى عبد الله بن نوح عن محمد بن سهل قال : استخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم (١) .

#### ٥ - قتل كعب بن الأشرف :

روى البخاري عن جابر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « من لى بكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله » فقام محمد بن مسلمة فقال : يا رسول الله ، أتَحْبَ أَنْ أَقْتُلَهُ ؟ قال : « نَعَمْ ». قال : فاذن لِي أَنْ أَقُولْ شَيْئًا . قال : « قُلْ » فاتَّاهُ مُحَمَّدٌ بْنُ مُسْلِمَةَ فَقَالَ : إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ سَأَلَنَا صَدْقَةً ، وَإِنَّهُ قَدْ عَنَانَاهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ أَتَيْتُكَ أَسْتِلْفَكَ ، قَالَ : وَأَيْضًا وَاللهِ لَتُمْلَأَهُ . قَالَ : إِنَّا قَدْ اتَّبَعْنَاهُ فَلَا نَحْبَ أَنْ نَدْعُهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيْ شَيْءٍ يَصِيرُ شَانَهُ ، وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ تَسْلُفَنَا وَسَقَاهُ أَوْ وَسْقِينَ . فَقَالَ : نَعَمْ ؛ ارْهُنْنِي . قَالُوا : أَيْ شَيْءٍ تَرِيدُ ؟ قَالَ : ارْهُنْنِي نِسَاءَكُمْ . قَالُوا : كَيْفَ نَرْهُنْكَ نِسَاءَنَا وَأَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ ؟ قَالَ : فَارْهُنْنِي أَبْنَاءَكُمْ . قَالُوا : كَيْفَ نَرْهُنْكَ أَبْنَاءَنَا فَيُسْبِبُ أَحَدُهُمْ فِيَّكَ : رَهْنٌ بُوسْقٌ أَوْ وَسْقِينٌ ، هَذَا عَارٌ عَلَيْنَا ، وَلَكُنَا نَرْهُنْكَ الْأَلْمَةَ ، وَقَالَ سَفِيَّانُ : (يعنى السلاح) . فَوَاعَدَهُ أَنْ يَأْتِيهِ . فَجَاءَهُ لَيْلًا وَمَعَهُ أَبُو نَاثِلَةَ . وَهُوَ أَخُو كَعبَ مِنَ الرَّضَاَعَةِ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْحَصْنِ فَتَزَلَّلُ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : أَيْنَ تَخْرُجُ هَذِهِ السَّاعَةِ ؟ قَالَ : إِنَّمَا هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ ، وَأَخْرِي أَبُو نَاثِلَةَ . وَقَالَ غَيْرُ عُمَرَ : قَالَتْ : أَسْمَعْ صَوْتًا كَأَنَّهُ يَقْطَرُ مِنْهُ الدَّمْ . قَالَ : إِنَّمَا هُوَ أَخْرِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ وَرَضِيَّعِي أَبُو نَاثِلَةَ . إِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ دَعَى إِلَى طَعْنَةِ بَلِيلٍ لِأَجَابَ . قَالَ : وَيَدْخُلُ مُحَمَّدٌ بْنُ مُسْلِمَةَ مَعَهُ رَجُلَيْنِ - وَقَالَ غَيْرُ عُمَرَ : أَبُو عَبْسٍ بْنَ جَبْرٍ بْنَ الْحَارِثِ بْنَ أَوْسٍ وَعَبَادَ بْنَ بَشَرَ - فَقَالَ : إِذَا مَا جَاءَ فَإِنِّي قَاتِلٌ بِشَعْرَهُ فَأَشْمَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي اسْتَمْكِنْتُ مِنْ رَأْسِهِ فَدُونْكُمْ فَاضْرِبُوهُ - وَقَالَ مَرْأَةٌ : ثُمَّ أَشْمَكُمْ - فَتَزَلَّلُ إِلَيْهِمْ مَتَوْشِحًا وَهُوَ يَنْفَعُ مِنْهُ رِيحُ الطَّيِّبِ فَقَالَ : مَا رَأَيْتَ كَالِيُومْ رِيحًا - أَيْ أَطِيبًا - وَقَالَ غَيْرُ عُمَرَ : قَالَ : عَنِّي

(١) المغاربي للواقدي ١٩٦ / ١٩٧ .

أعطر نساء العرب وأكمل العرب - قال عمرو . فقال : أتاذن لي أن أشم رأسك ؟ قال : نعم . فشمه ، ثم أشم أصحابه ثم قال : أتاذن لي ؟ قال : نعم . فلما استمك منه قال : دونكم ، فقتلوه ، ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه <sup>(١)</sup> .

## ٦- شأن سرية القردة <sup>(٢)</sup> :

فيها زيد بن حارثة ، وهى أول سرية خرج فيها زيد <sup>رض</sup> أميراً ، وخرج لهلال جمادى الآخرة على رأس سبعة وعشرين شهراً .

حدثنى محمد بن الحسن بن أسامه بن زيد عن أهله قالوا : كانت قريش قد حذرت طريق الشام أن يسلكوها ، وخفوا من رسول الله ﷺ وأصحابه ، وكانوا قوماً تجارة ، فقال صفوان بن أمية : إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه ، لا ييرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ، ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك ، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن فى دارنا هذه ، ما لنا بها نفاق <sup>(٣)</sup> ، إنما نزلناها على التجارة إلى الشام فى الصيف ، وفي الشتاء إلى أرض الحبيبة ، قال له الأسود بن المطلب : فنكب <sup>(٤)</sup> عن الساحل وخذ طريق العراق ، قال صفوان : لست بها عارقاً . قال أبو زمعة : فأنا أدلك على أخبار دليل بها يسلكها وهو مغمض العين إن شاء الله . قال : من هو ؟ قال : فرات بن حيان العجلانى ، قد دوخها وسلكها . قال صفوان : فذلك والله ، فأرسل إلى فرات ، فجاءه فقال : إنى أريد الشام وقد عور علينا محمد متجرنا ؛ لأن طريق عيرانتنا عليه ، فأردت طريق العراق ، قال فرات : فأنا أسلك بك فى طريق العراق ، ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد ، إنما هي أرض نجد وفياف ، قال صفوان : فهذه حاجتي ، أما الفيافي فتحن شاتون ، وحاجتنا إلى الماء قليل ، فتجهز صفوان بن أمية ، وأرسل معه أبو زمعة بثمانمائة مثقال ذهب ونقر فضة <sup>(٥)</sup> ، وبعث معه رجالاً من قريش بيصائع ، وخرج صفوان بمال كثير ألى ربيعة ، وحويطب بن عبد العزى ، ورجال من قريش ، وخرج صفوان بمال كثير نقر فضة ، وأنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم ، وخرجوا على ذات عرق .

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/٣٣٦ (٤٠٣٧) .

(٢) القردة : من أرض نجد بين الربلة والغمرة ناحية ذات عرق (طبقات ابن سعد ٢/٢٤) .

(٣) ما لنا بها نفاق : أي نفقة فهي كاسدة .

(٤) نكب : أعدل عنه وتعج .

(٥) نقر فضة : قطع مذابة من الفضة .

وقدم المدينة نعيم بن مسعود الأشجعى ، وهو على دين قومه . فنزل على كنانة بن أبي الحقيق فى بني النضير ، فشرب معه وشرب معه سليمان بن التعمان بن أسلم ، ولم تحرم الخمر يومئذ - وهو يأتي ببني النضير ويصيب من شرائهم - فذكر نعيم خروج صفوان فى عيره ، وما معهم من الأموال ، فخرج من ساعته إلى النبي ﷺ فأخبره ، فأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى مائة راكب فاعتربوا لها فأصابوا العير ، وأفاقت أعيان القوم ، وأسرروا رجلاً أو رجلين ، وقدموا بالعير على النبي ﷺ ، فخمسها ، وكان الخامس يومئذ قيمة عشرين ألف درهم ، وقسم ما بقى على أهل السرية ، وكان فى الأسرى فرات بن حيان ، فأتى به فقيل له : أسلم إن تسلم نتركك من القتل ، فأسلم فتركه من القتل<sup>(١)</sup> .

١ - فى عملية البناء التربوى التى حرص عليها رسول الله ﷺ فى المدينة كانت ظاهرة أهل الصفة ، والتى أخذت وضعها الطبيعي الواقعى على أبواب بدر ، بعد سبعة عشر شهراً أو ستة عشر شهراً من الهجرة ، حيث أقيمت دار الضيافة الكبرى بجوار بيت رسول الله ﷺ .

وحين نسمع عن دور الضيافات الملكية ، ونسمع عن ضباط الجيوش ، وأساتذة الجامعات المترغبين ، وعن الحاشية الملكية من الأعوان والأنصار ، المترغبين لخدمة الملوك والرؤساء ، وحين نسمع عن الولائم الكبرى التى تقام لأمثال هؤلاء ، والترف الكبير والبذخ الذى يعيشه أولئك المقربون من سدة الحكم ، والذين يستأثرون بالثروات ، والعلاءات الضخمة ، يمثل بين أيدينا الحالدون من أمتنا باسم - أهل الصفة - ففيهم الضيوف الوافدون وفيهم الحرمس والخدم ، وفيهم طلبة العلم والمعلمون الكبار ، وفيهم الضباط والمقاتلون الأشداء ، وفيهم المترغبون للعبادة والطاعة لله ، أهل خاصته ، هؤلاء جميعاً هم : أهل الصفة ، ولكن شتان بين صورة هؤلاء عند أهل الأرض ، وصورة هؤلاء عند سيد ولد آدم محمد رسول الله ﷺ ، إنهم خاصة رسول الله وأحبابه وقرة عينه .

وصفهم الحافظ أبو نعيم بقوله : (هم قوم أخلّهم الحق من الركون إلى شيء من العروض ، وعصّهم من الافتتان بها عن الفروض ، وجعلهم قدوة للمتجردين من القراء - كما جعل من تقدم ذكرهم أسوة للعارفين من الحكماء - لا يأowون إلى أهل ولا مال ، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا مال ، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ،

(١) المغارى للواقدى ١٩٧/١ .

ولا يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى ، كانت أفراحهم بمعبودهم وملوكهم ، وأحزانهم على فوت الاغتنام من أوقاتهم وأورادهم ، هم الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، ولم يأسوا على ما فاتهم ، ولم يفرحوا بما أتاهم ، حماهم ملوكهم عن التمتع بالدنيا والتبسيط فيها لكي لا يبغوا ولا يطغوا . رفضوا الحزن على ما فات من ذهاب وشتات ، والفرح بصاحب نسب إلى بلى ورفات) (١) .

إنها مدرسة تربوية عليا مفتوحة يمكن الدخول إليها ممن شاء ، ولكن عليه أن يخضع لنظامها في الطعام واللباس والنوم والآثار ، وقد دخلها قادة كبار ، وشعراء كبار ، وعلماء كبار ، وسادة عظام ، عاشوا فيها أيامًا أو شهورًا أو سنين ، فهي مدرسة مفتوحة وجامعة عليا يديرها رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - ويعطيها جل اهتمامه وكثيراً من وقته بأمر رب العالمين ، فعن سلمان الفارسي رض قال :

جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صل : عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وذووهم . فقالوا : يا رسول الله ، إنك لو جلست في صدر المسجد ، ونحيت عنا هؤلاء ، وأرواح جبارهم - يعنون أبا ذر وسلمان وفقراء المسلمين ، وكان عليهم جباب الصوف لم يكن عندهم غيرها - جلسنا إليك وخالفناك ، وأخذنا عنك ، فأنزل الله عز وجل : «وَأَقْلِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُدِلٌّ لِكَلْمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَحَدِّداً» (٢) . وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يربدون وجهه » حتى بلغ : «أَنَّا رَأَيْنَا حَاطِبَ بْنَ سُرَادَ قَدْ هَدَاهُمْ بِالنَّارِ» (٣) يهددهم بالنار ، فقام النبي يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله ، فقال رسول الله صل : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَعْنِيْنِيْ أَنْ أَمْرَنِيْ أَنْ أَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشَيِّ يَرِيدُونَ وَجْهَهُ» حتى بلغ : «أَنَّا رَأَيْنَا حَاطِبَ بْنَ سُرَادَ قَدْ هَدَاهُمْ بِالنَّارِ» (٤) .

وإن كان هذا الأمر قد وقع في وقت متأخر ، وبعد دخولهم في الإسلام ، فالرواية الثانية تشير إلى وقوع شيء به في وقت مبكر ، وقبل أن يدخل هذان الزعيمان في الإسلام ، وحين لم يكن في أهل الصفة إلا فقراء المهاجرين كما روى عن خباب ابن الأرت رض قال :

جاء الأقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن الفزارى ، فوجد النبي صل

(١) حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم ٢٣٨ / ١ .

(٢) لابد من الإشارة إلى أن هذه الآيات قد وردت في أسباب نزولها موقف مشركي مكة من ضعفة المسلمين ، لكن هذا لا يمنع من تكرار النزول وتكرار السب .

(٣) الكهف / ٢٧ ، ٢٨ . حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم ٣٤٥ / ١ .

قاعدًا مع بلال وعمار وصهيب وخباب في أناس من الضعفاء المؤمنين ، فلما رأوهـمـ حـقـرـوـهـمـ، فـخـلـوـاـ بهـ فـقـالـواـ : إـنـاـ نـحـنـ أـنـجـعـ لـنـاـ مـنـكـ مـجـلسـاـ تـعـرـفـ لـنـاـ الـعـرـبـ فـضـلـاـ ، فـإـنـ وـفـودـ الـعـرـبـ تـأـيـدـكـ فـنـسـتـحـىـ أـنـ تـرـانـاـ الـعـرـبـ قـعـودـاـ مـعـ هـذـهـ الـأـعـبـدـ ، فـإـذـاـ نـحـنـ جـشـنـاكـ فـأـقـمـهـمـ عـنـاـ ، فـإـذـاـ نـحـنـ فـرـغـنـاـ فـاقـعـدـهـمـ إـنـ شـثـتـ ، قـالـ : «ـ نـعـ !ـ »ـ قـالـواـ : فـاـكـتـبـ لـنـاـ عـلـيـكـ كـتـابـاـ ، فـدـعـاـ بـالـصـحـيـفـةـ لـيـكـتـبـ لـهـمـ ، وـدـعـاـ عـلـيـاـ - عـلـيـهـ السـلـامـ - لـيـكـتـبـ ، فـلـمـ أـرـادـ ذـلـكـ - وـنـحـنـ قـعـودـ فـيـ نـاحـيـةـ - إـذـ نـزـلـ جـبـرـيلـ - عـلـيـهـ السـلـامـ - فـقـالـ : «ـ وـلـاـ تـنـطـرـدـ الـذـيـنـ يـدـعـونـ رـبـهـمـ بـالـغـدـاءـ وـالـعـشـيـ بـرـيـدـوـنـ وـجـهـهـ »ـ إـلـىـ قـولـهـ : «ـ فـتـكـونـ مـنـ الـظـالـمـيـنـ »ـ ثـمـ ذـكـرـ الـأـقـرـعـ وـصـاحـبـهـ فـقـالـ : «ـ وـكـذـلـكـ فـتـأـتـ بـعـضـهـمـ بـعـضـ لـيـقـولـواـ أـهـلـوـلـاـ مـنـ اللـهـ عـلـيـهـمـ مـنـ بـيـنـنـا أـلـيـسـ اللـهـ بـأـعـلـمـ بـالـشـاكـرـيـنـ »ـ ثـمـ ذـكـرـ فـقـالـ تـعـالـىـ : «ـ وـإـذـاـ جـاءـكـ الـذـيـنـ يـؤـمـنـوـنـ بـأـيـاتـنـاـ فـقـلـ سـلـامـ عـلـيـكـمـ كـتـبـ رـبـكـمـ عـلـىـ نـفـسـيـ الرـحـمـةـ »ـ (١)ـ ، فـرـمـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ بـالـصـحـيـفـةـ ، وـدـعـانـاـ فـأـتـيـنـاهـ وـهـ يـقـولـ : «ـ سـلـامـ عـلـيـكـمـ »ـ فـدـنـوـنـاـ مـنـهـ حـتـىـ وـضـعـنـاـ رـكـبـاـ عـلـىـ رـكـبـهـ فـكـانـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ يـجـلـسـ مـعـنـاـ ، فـإـذـاـ أـرـادـ أـنـ يـقـومـ قـامـ وـتـرـكـنـاـ .ـ فـأـنـزـلـ اللـهـ - عـزـ وـجـلـ - : «ـ وـأـصـبـرـ نـفـسـكـ مـعـ الـذـيـنـ يـدـعـونـ رـبـهـمـ بـالـغـدـاءـ وـالـعـشـيـ بـرـيـدـوـنـ وـجـهـهـ وـلـاـ تـعـدـ عـيـنـاـكـ عـنـهـمـ تـرـيـدـ زـيـنةـ الـحـيـاةـ الدـنـيـاـ »ـ يـقـولـ: لـاـ تـعـدـ عـيـنـاـكـ عـنـهـمـ وـتـجـالـسـ الـاـشـرـافـ «ـ وـلـاـ تـطـعـ مـنـ أـغـفـلـنـاـ قـلـبـهـ عـنـ ذـكـرـنـاـ وـأـتـيـعـ هـوـاهـ وـكـانـ أـمـرـهـ فـرـطـاـ »ـ (٢)ـ ، ثـمـ ضـرـبـ لـهـمـ مـثـلـ الـرـجـلـ وـمـثـلـ الـحـيـاةـ الدـنـيـاـ ، وـقـالـ : فـكـنـاـ بـعـدـ ذـلـكـ نـقـدـعـ مـعـ النـبـيـ ﷺـ فـإـذـاـ بـلـغـنـاـ السـاعـةـ الـتـيـ كـانـ يـقـومـ فـيـهـاـ قـعـدـاـ وـتـرـكـنـاـ حـتـىـ يـقـومـ ، وـإـلاـ صـبـرـ أـبـدـاـ حـتـىـ نـقـومـ ، رـوـاهـ عـمـرـ بـنـ مـحـمـدـ العـنـقـزـيـ عـنـ أـسـبـاطـ مـثـلـهـ (٣)ـ .ـ

فـهـؤـلـاءـ - كـمـاـ ذـكـرـنـاـهـمـ - أـهـلـهـ وـخـاصـتـهـ ، يـرـعـاهـمـ بـعـيـنـهـ ، وـيـحـوطـهـمـ بـقـلـبـهـ ، وـيـؤـثـرـهـمـ عـلـىـ فـاطـمـةـ بـنـتـ مـحـمـدـ بـضـعـتـهـ ، فـكـمـاـ مـرـ مـعـنـاـ ، عـنـدـمـاـ جـاءـتـ فـاطـمـةـ - رـضـىـ اللـهـ عـنـهـاـ - وـقـدـ تـشـقـقـتـ يـدـاهـاـ مـنـ الرـحـىـ وـتـبـعـتـ حـتـىـ أـعـيـتـ وـجـاءـتـ تـطـلـبـ خـادـمـاـ مـنـ أـبـيهـاـ كـانـ جـوـابـهـ ﷺـ وـلـزـوجـهـ الـحـيـبـ : «ـ لـاـ أـعـطـيـكـمـ وـأـدـعـ أـهـلـ الصـفـةـ تـلـوـيـ بـطـونـهـمـ مـنـ الـجـمـوعـ »ـ (٤)ـ .ـ

إـنـ التـوـجـيـهـ الـرـبـانـيـ لـهـذـهـ النـمـاذـجـ الـعـالـيـةـ الـخـالـدـةـ أـنـ يـكـنـ لـهـمـ مـجـلسـاـ خـاصـاـ وـيـصـرـفـونـ عـنـ مـجـلسـ الـمـلاـ ، بلـ يـرـيدـ لـسـيـدـ الـخـلـقـ ، أـنـ يـصـبـرـ نـفـسـهـ مـعـهـمـ وـيـمضـيـ

(١) الأنعام / ٥٢ - ٥٤ .

(٢) الكهف / ٢٨ .

(٣) حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم ١ / ٣٤٤ ، ٧٩ ، ١٠٦ .

جل وقته في رعايتهم والاهتمام بهم ، وفرح رسول الله ﷺ بهذا التوجيه الرباني ، وأشرفت له نفسه الشريفة أن يوجد من أمته من يوصيه ربه بالصبر معهم والتفرغ لهم حيث قال : « الحمد لله الذي لم يمتنى حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي ، معكم المحيا ، ومعكم الممات » (١) .

الخراف المحشية اللحوم الوفرة والأطعمة الدسمة ، لأصحاب النفوذ المقربين من الحكام ، أما هؤلاء سادة أهل الأرض يحدثنا عن طعامهم اليومي : طلحة بن عمرو - رضي الله عنهما - يقول : ( كان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له بالمدينة عريف (٢) نزل عليه ، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة ، وكنت فيمن نزل الصفة فوافقت رجلاً ، وكان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مد (٣) من تمر بين رجلين ) (٤) .

هذا هو طعامهم اليومي ، لكن هذا لا يمنع أن يتسابق المسلمون في دعوة أضيف إلى الإسلام إليهم خاصة ، وقد يأتي يوم لا يوجد فيه قوتهم الضروري من التمر .

فعن عبد الرحمن بن أبي بكر : أن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس » وانطلق النبي ﷺ بعشرة (٥) .

فإذا كانت الضيافة من أبيات المسلمين بثلاثة ، فرسول الله ﷺ أكرم الخلق يمضى بعشرة ، وليس هو ذلك الحاكم الذي يتسابق الناس على استضافته ، ولا يشارك في استضافتهم ، أو أن الضيافة من تلك المنح الخاصة التي تخصيص للحاكم أو الرئيس فيتفق منها . إنه قد لا يجد ما يأكله ، وسبق أن مضى ﷺ بضيوف ، وسأل أبياته التسعة فلم يجد أحد منهم ولا قطعة خبز من شعير .

هذه هي القدوة الحية التي يتمثلها الجيل كله ، القدوة في الرزد ، والقدوة في التجدد عن الدنيا ، والقدوة في الاكتفاء بأقل القليل من الطعام وأبسط البسيط منه ، هي شانخصة أمم المجتمع الإسلامي كله .

هذا هو طعامهم ، ومع ذلك فلم يكن مهيناً الضيافة أحياناً ، ولا مُدُّ التمر بين الرجلين أحياناً أخرى ، وكما قال فضالة بن عبيد : ( كان رسول الله ﷺ إذا صلى

(١) الخلية لأبي نعيم ٣٤٤ / ١ ، ٣٤٥ .

(٢) المد : ملء ، كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما .

(٣) الخلية لأبي نعيم ٣٣٩ / ١ .

(٤) حليلة الأولياء للحافظ أبي نعيم ٣٣٨ / ١ ، وقال : « هذا حديث صحيح متفق عليه » .

بالتناـس يحر رجـال من قـامتـهم فـي صـلاتـهم لـما بـهـم مـن الخـاصـاـةـ . وـهـم أـصـحـابـ الصـفـةـ .  
حتـى يـقـولـ الـأـعـرـابـ : إـنـ هـؤـلـاءـ مـجاـنـينـ )١ـ( .

لـقـدـ قـفـرـغـواـ لـلـهـ وـلـرـسـوـلـهـ ، وـفـرـغـتـ قـلـوبـهـمـ مـنـ هـمـومـ الـدـنـيـاـ ، وـنـفـوسـهـمـ مـنـ مـلـذـاتـهـاـ .  
وـشـهـدـواـ لـلـهـ هـذـاـ الـرـوجـودـ ؛ بـتـلـقـيـ الـعـلـمـ كـالـشـهـدـ مـنـ فـمـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ ، حـيـثـ كـانـ  
يـحـدـثـهـمـ كـمـاـ يـقـولـ عـقـبـةـ بـنـ عـامـرـ رـضـيـ اللـهـ تـعـالـىـعـنـهـ : « أـيـكـمـ يـعـبـ أـنـ يـغـدوـ كـلـ يـوـمـ إـلـىـ بـطـحـاءـ  
وـالـعـقـيقـ فـيـأـنـيـ مـنـهـ بـنـاقـتـينـ كـوـمـاـوـيـنـ فـيـ غـيرـ إـثـمـ وـلـاـ قـطـيـعـةـ رـحـمـ ؟ » فـقـلـنـاـ : يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ ،  
كـلـنـاـ نـحـبـ ذـلـكـ ، قـالـ : « أـوـلـاـ يـغـدوـ أـحـدـكـمـ إـلـىـ الـمـسـجـدـ فـيـتـعـلـمـ أـوـ يـقـرـأـ آيـتـيـنـ مـنـ كـتـابـ اللـهـ ،  
خـيـرـ لـهـ مـنـ نـاقـتـيـنـ وـثـلـاثـ وـأـرـبـعـ ، خـيـرـ لـهـ مـنـ أـرـبـعـ وـمـنـ أـعـدـادـهـنـ مـنـ الـإـبـلـ » )٢ـ( .

وـكـانـ الـمـوـسـرـوـنـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ يـتـنـافـسـوـنـ فـيـ اـسـتـضـافـةـ أـهـلـ الصـفـةـ تـقـرـبـاـ إـلـىـ اللـهـ - عـزـ  
وـجـلـ - بـذـلـكـ ، فـكـانـ سـعـدـ بـنـ عـبـادـ يـرـجـعـ إـلـىـ أـهـلـهـ كـلـ لـيـلـةـ بـشـمـائـلـيـنـ مـنـهـمـ .

إـنـ الضـبـاطـ الـكـيـارـ ، وـقـادـةـ الـجـيـوشـ الـمـتـفـرـغـيـنـ وـالـمـتـطـوـعـيـنـ ، قـدـ يـمـضـيـ أـحـدـهـمـ عمرـهـ  
كـلـهـ ، وـلـاـ يـخـوضـ مـعـرـكـةـ وـاحـدـةـ ضـدـ الـعـدـوـ ، وـيـغـدوـ موـظـفـاـ عـادـيـاـ يـأـخـذـ أـعـلـىـ الـرـوـاتـبـ ،  
وـأـعـلـىـ الـعـلـاـوـاتـ ، وـأـعـلـىـ الـأـوـسـمـةـ ، وـيـنـظـرـ إـلـيـهـ عـلـىـ أـنـ الـحـاـكـمـ الـحـقـيـقـيـ الـمـقـدـ فيـ  
الـدـوـلـةـ ، أـمـاـ هـؤـلـاءـ الـذـيـنـ قـدـ يـخـوـضـوـنـ فـيـ الـعـامـ الـواـحـدـ أـكـثـرـ مـنـ مـعـرـكـةـ ، وـبـيـنـ الـمـعـرـكـةـ  
وـالـأـخـرـىـ يـكـونـ مـنـصـبـاـ بـكـلـ وـقـتـهـ وـجـهـهـ يـتـلـقـيـ الـعـلـمـ وـيـتـفـرـغـ لـلـذـكـرـ حـتـىـ لـيـحـرـصـ الـقـائـدـ  
الـأـعـظـمـ أـنـ يـشـارـكـهـمـ فـيـهـ . فـعـنـ ثـابـتـ الـبـنـانـيـ قـالـ : كـانـ سـلـمـانـ فـيـ عـصـابـةـ يـذـكـرـونـ اللـهـ  
عـزـ وـجـلـ - فـمـرـ النـبـيـ ﷺ ، فـكـفـواـ فـقـالـ : « مـاـ كـتـسـ تـقـولـونـ ؟ » فـقـلـنـاـ : نـذـكـرـ اللـهـ  
يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ ، قـالـ : « قـولـواـ ، فـإـنـىـ رـأـيـتـ الرـحـمـةـ تـنـزـلـ عـلـيـكـمـ ، فـأـحـبـتـ أـنـ أـشـارـكـمـ  
فـيـهـ » ثـمـ قـالـ : « الـحـمـدـ اللـهـ الـذـيـ جـعـلـ فـيـ أـمـتـيـ مـنـ أـمـرـتـ أـنـ أـصـبـرـ نـفـسـيـ مـعـهـمـ » )٣ـ( .

وـكـمـ روـىـ - عـلـيـهـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ - وـهـوـ مـسـتـغـرـقـ مـعـ أـهـلـ الصـفـةـ عـلـمـاـ ، وـاهـتـاماـ .  
فـعـنـ أـنـسـ بـنـ مـالـكـ رـضـيـ اللـهـ تـعـالـىـعـنـهـ قـالـ : أـقـبـلـ أـبـوـ طـلـحةـ يـوـمـاـ ، فـإـذـاـ النـبـيـ ﷺ قـائـمـ يـقـرـئـ  
أـصـحـابـ الصـفـةـ ، عـلـىـ بـطـنـهـ فـصـيـلـ مـنـ حـجـرـ ، يـقـيمـ بـهـ صـلـبـهـ مـنـ الجـوـعـ )٤ـ( .

وـهـذـهـ صـورـةـ ثـانـيـةـ مـنـ صـورـ لـقـاءـ إـمامـ الـمـرـيـنـ - عـلـيـهـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ - مـعـ هـذـهـ  
الـقـمـ : فـعـنـ أـبـيـ سـعـيدـ الـخـدـرـىـ رـضـيـ اللـهـ تـعـالـىـعـنـهـ قـالـ : أـتـىـ عـلـيـنـاـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ وـنـحـنـ أـنـاسـ مـنـ  
ضـعـفـةـ الـمـسـلـمـيـنـ ، وـرـجـلـ يـقـرـأـ عـلـيـنـاـ الـقـرـآنـ وـيـدـعـوـ لـنـاـ ، مـاـ أـظـنـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ يـعـرـفـ

(١) حلـيةـ الـأـوـلـيـاءـ للـحـافظـ أـبـيـ نـعـيمـ ٣٣٩ـ /ـ ١ـ .

(٢) المـصـدرـ نـفـسـهـ ٣٤١ـ /ـ ١ـ .

(٣) المـصـدرـ نـفـسـهـ ٣٤٢ـ /ـ ١ـ .

أحداً منهم وإن بعضهم ليتواتي من بعض من العرى .  
وصدرت الإشارة النبوية باجتماع كامل أهل الصفة دون أن يتواتي أو يختفي أحد .  
( فقال رسول الله ﷺ بيده . فأدارها شبه الحلقة ، فاستدارت له الحلقة ) وبدأت  
المباحثات النبوية بين الرسول - عليه الصلة والسلام - وأهل الصفة :  
- « بم كتن تراجعون؟ » .

- قالوا : هذا رجل يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا .  
- قال : « فعودوا لما كنتم فيه » ثم قال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من  
أمرت أن أصبر نفسي معهم » .  
وكان هذا إعلان الترفع الأول لهذه الصفة المختارة .

وكان الترفع الثاني صادراً لهم من الله - سبحانه - تلقوه وهم أسعد وأراغد ما  
يكونون فيه ، وقال : « ليبشر فقراء المؤمنين بالفوز يوم القيمة قبل الأغنياء بقدر  
خمسماة عام ، هؤلاء في الجنة ينعمون ، وهؤلاء يحاسبون »<sup>(١)</sup> .  
وهذه صورة ثلاثة من صور لقاء الحبيب المصطفى ﷺ مع هذه الصفة الحبية  
الائيرة إلى قلبه .

فعن الحسن قال : جاء رسول الله ﷺ إلى أهل الصفة . فقال : « كيف أصبحتم؟ »  
قالوا : بخير . فقال : « أنتم اليوم خير ، وإذا عُذْتُ على أحدكم بجفنة ، وربع  
بآخرى ، وستر أحدكم بيته كما تستر الكعبة؟ » .  
قالوا : يا رسول الله ، نصيب ذلك ونحن على ديننا ؟  
ولم يكن يخطر لهم أن نعيم الدنيا يمكن أن ينال مع سلامة الدين .  
قال : « نعم » .

قالوا : فنحن يومئذ خير تصدق ونعتق .  
فقال رسول الله ﷺ : « لا بل أنتم اليوم خير ، إنكم إذا أصبتمها تحاسدون  
وبتاغضتم وتقاطعتم »<sup>(٢)</sup> .

وعاد ﷺ فاكد لهم هذا المعنى في لقاء رابع ، كما روى الحسن - رحمة الله :  
( بنية صفة لضعفاء المسلمين ، فجعل المسلمين يوغلون إليها ما استطاعوا من

(١) حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم ٣٤٧ / ١ ، وقال : « رواه جعفر بن سليمان عن المعلى بن زياد بإسناد مثله » .

(٢) المصدر نفسه ٣٥٠ / ١ وقال فيه : « كذا رواه أبو معاوية مرسلاً » .

خير، فكان رسول الله ﷺ يأتهم فيقول: «السلام عليكم يا أهل الصفة». فيقولون: «وعليك السلام يا رسول الله»، فيقول: «كيف أصبحتم؟»، فيقولون: «بخير يا رسول الله»، فيقول: «أنتم اليوم خير من يوم يغدو على أحدكم بجفنة ويراح عليه بأخرى، ويغدو في حلة ويروح في أخرى وتسترون بيوتكم كما تستر الكعبة».

إنها صورة مغربية براقة خلابة يضعها رسول الله ﷺ بين يدي هذه الصفة في عملية تربية خالدة، وفي امتحان عسير يكشف بها نفوسهم.

كم الفرق شاسع بين أن يغدوا أحدهم في حلة ويروح في أخرى، وبينهم الآن كما وصفهم أبو هريرة رضي الله عنه فيما بعد: كان من أهل الصفة سبعون رجلاً ليس لواحد منهم رداء<sup>(١)</sup>.

كم الفرق بين الغدو في حلة والروح في أخرى، وبين أن يكون عاري الصدر والظهر لا رداء عنده؟

كم الفرق بين الغدو في جفنة، والروح في أخرى وبين السقوط من الجوع، والحلم في ثمرات طعام هذا اليوم الطويل؟

كم الفرق بين مهجم جماعي لسبعين على أقل تقدير في ظلِّ من جريد النخل، وبين قصر منيف تستر نوافذه وأبوابه وجدره كما تستر الكعبة؟

إن الفرق شاسع في مفهوم أهل الدنيا، وكان جواب هذه الصفة المختارة.

قالوا: نحن يومئذ خير، يعطينا الله تعالى، فنشكر، فقال رسول الله ﷺ: «بل أنتم اليوم خير»<sup>(٢)</sup>.

إنه البناء الداخلي من الأعمق، في أن هذا الفقر اختياري وليس إجبارياً. فالباب مفتوح لمن أراد أن يغادر هذا الموقع، ويدع هذا التفرغ ويمضي ساعياً لرزقه، وساعياً لبناء عيالٍ وبيت جديدين، فالسوق قائم، والأنصار العظام يتربون إلى الله بأخوة هؤلاء، لكن هذه الدار، دار ضيافة الإسلام، دار العلم ودار الجهاد، هذه الدار لها حظوة خاصة واهتمام خاص من سيد الخلق - عليه السلام - فبهم - عليه الصلاة والسلام - ينصر، وبهم يقدم النماذج العالية الرفيعة التي تمثل الزهد الاختياري بين يدي هذه الأمة الفتية.

(١) المصدر نفسه / ٣٤٠ .

(٢) حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم / ٣٣٩ .

» ... وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُّلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكُنِي أَرَأَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمٌ  
مَّن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنَّ طَرَدَتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ « (١) .

قال الشيخ - رحمة الله - : والتحقون بالفقير من الصحابة وتبعاً لهم إلى قيام الساعة أمارة ، وأعلام الصدق لهم شاهرة ، وبواطنهم مشاهدة الحق عامة ، إذ الحقيقة شاهدهم وسائسهم ، والرسول ﷺ سفيرهم ومؤديهم ، وحق لم يعرض عن الدنيا وغورها ، وأقبل على العقبى وحبورها ، فعزفت نفسه عن الزائل الواهى ، ونبذ الزخارف والملاهى ، وشاهد صنع الواحد الباقى ، واستروح رواحة القبر الآتى من دوام الآخرة ونضرتها ، وخلود المجاورة وبهجتها ، وحضور الزيارة وزهرتها ، ومعانقة المعبود ولذتها ، أن يكون بما اختار له المعبود من الفقر راضياً ، وعما اقطعه منه سالياً ، ولما ندبه إليه ساعياً ، ولخواطر قلبه راعياً ، ليصير في جملة المطهرين ويحضر في زمرة الضعفاء والمساكين ، ويقرب بما خص به الأبرار من المقربين ، فيغتنم ساعاته عن مخالطة المخلصين ، ويصون أوقاته عن مسللة المبطلين ، ويعجّل في معاملة رب العالمين ، مقتدياً في جميع أحواله بسيد السفراء والمرسلين ... استوطنا الصفة فصفوا من الأكدار . ونقوا من الأغيار ، وعصموا من حظوظ النفوس والآباء ، وأثبتو في جملة المصطphen لهم من الأبرار ، فأنزلوا في رياض النعيم . وسقوا من خالص التسنيم (٢) .

بقى علينا أن نعرف عن أهل الصفة هؤلاء أمران :

**الأمر الأول :** أنهم أهل الله وخاصته ، ورئيس الوزراء في دولة الإسلام ، والشخص الأول فيها مكلف بالحصول على رضاهم ، وهو خير من طلعت عليه الشمس بعد الأنبياء والمرسلين .

فعن عائذ بن عمرو : أن أبا سفيان بن حرب مر بسلمان وصهيب وبلال فقالوا : ما أخذت السيف من عنق عدو الله مأخذها ، فقال لهم أبو بكر : تقولون هذا لشيخ قريش وسيدها ؟ ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بذلك قالوا . فقال :

« يا أبا بكر لعلك أغضبهم ؟ والذى نفسى بيده لئن كنت أغضبتم لقد أغضبت ربك » ، فرجع إليهم فقال : يا إخوانى لعلى أغضبتم ؟ فقالوا : لا يا أبا بكر يغفر الله لك (٣) .

(١) هود / ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) حلية الأولياء ٣٤٣ / ١ .

(٣) المصدر نفسه ٣٤٦ / ١ ، وهو عند مسلم في الفضائل رقم (٤٥٠) .

**والامر الثاني :** هم أول الفائزين يوم القيمة ، لا يسبقهم أحد ، ولا يبلغ شأنهم أحد ولا الملائكة المقربون ، كما روى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « هل تدرؤن أول من يدخل الجنة ؟ » ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فقراء المهاجرين الذين تتفى بهم المكاره ، يموت أحدهم حاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فتقول الملائكة : ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سمواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا ، فيقول : عبادي لا يشركون بي شيئاً : تتفى بهم المكاره ، يموت أحدهم حاجته في صدره لم يستطع لها قضاء ، فعنديك تدخل عليهم الملائكة من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (١) .

**٢ - الغزوات الثلاث :** لقد كانت الغزوات الثلاث على رأسها رسول الله ﷺ ، وابتدأت بتصف المحرم من العام الثالث للهجرة ، بمعدل غزوة كل شهرين ، فقد كانت في المحرم ، وفي ربيع الأول ، وفي جمادى الأولى ، وكانت في ساحة واحدة تقريباً، ومع عدو واحد ، مع غطفان وسليم ، فهم أقرب القبائل الكبرى للمدينة ، وهم حلفاء متعاطفون مع قريش ، ولعل هذا الخلف غير المعن ، منشأه الخوف من الخطر الإسلامي الجديد الذي حل في يثرب ، ووحد الأوس والخزرج تحت راية واحدة ، وانصاع له في ظاهر الأمر كل قيادات المدينة مثل عبد الله بن أبي وغيرة بعد أن أعلن إسلامه .

وغطفان وسليم من القبائل التي خاضت غمار الحرب ، وأتقنت فن القتال ، ويكتفى أن نذكر حرب داخس والغبراء ، والتي استمرت عشر سنين لا تهدأ بين عبس ابن بغيض ، وذبيان بن بغيض من بنى غطفان ، وأكلت الأخضر واليابس ، وأقفت الشباب ورمت النساء ويرزت فيها قيادات مجرية كبرى في تاريخ الحروب ، ونذكر الحروب بين سليم وغطفان نفسها والتي خلدت الحنساء شاعرة بنى سليم ذكرها في رثائها لأكبر قوادها صخر بن الشريد ، ومعاوية بن الشريد أخويها ، وذلك في حروب سليم مع بعض قبائل غطفان .

وغطفان من القبائل الكبرى عموماً ذات الصول والجولة ، وأهم فروعها :

عبس بن بغيض ، وذبيان بن بغيض ، وأئمار بن بغيض ، وعبد الله بن غطفان ، وأشجع بن رتب . ومن بطون عبس : بنو جذيمة ، وبنو جروة؛ وبنو هرم . ومن بطون ذبيان : ثعلبة وغفارة ومرة .

أما سليم فنمت بمنسب القرى إلى هوازن وثيف وعامر بن صعصعة وبين هلال ، كبرى قبائل العرب . وللحاظ أن غطفان وسليم قد بدؤوا يفكرون بغزو المدينة ، بعد

(١) حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم ٣٤٧ / ١

مقدم أبي سفيان في ذي الحجة من العام الثاني للهجرة ، وقتله الانصارى وحلقه ، وفراره إلى مكة . وبعد أقل من شهر ، هم جمع من غطفان وسليم بالغزو ، ويقطنة الرسول ﷺ ، وتعرفه على الساحة التي يتحرك فيها ، ويقيم بها دولته ، اقتضت أن ينقض بالجيش المسلم على هذه الجموع وهى فى مهدها ، وهى لا تزال تفك بالغزو ، فكان هذا في قرارة الكدر حيث انقض الجموع هارباً بالجبال من الجيش المسلم الذى غزاه ، وعلى النهج نفسه كانت غزوة غطفان بذى أمر فى ربيع الأول حيث فكر المغامر الجرىء ( دعثور سيد بنى ثعلبة ) بغزو المدينة ، وإذا بالغبار يتكشف عن الجيش المسلم فى أرضه يفرق جموعه فى ذرى الجبال ، وعلى النهج نفسه كانت غزوة بنى سليم ببحران فى جمادى الاولى حيث هربت سليم وهى لا تزال تعد الجموع لغزو المدينة .

إنها القيادة الساهرة التى تعرف العدو : قوته ، وخططه ، ومدده ، وتصرف التصرف المناسب ، وتتخذ القرار الواقعى ، والمبادرة السريعة؛ لتحطم هذه التجمعات قبل أن يستفحلاً أمرها ، وتتصبح خطراً على المدينة .

ونظرة أخرى إلى هذه الغزوات في هذه الصحراء المترامية الأطراف ، على طريق نجد . هي أنها كانت دورات تدريبية تربوية للجيل الأول الذى بدأت تقاطر له الأعداد الجديدة بعد بدر ، والشىء الجديد فيها : أنها لم تأخذ طابع التعبئة العامة ، إنما أخذت طابع المبادرة الشخصية ، وأصبح الانصار شركاء فيها بعد أن كانت الغزوات قبل بدر خاصة بالمهاجرين ، وترتفع الأعداد في هذه الغزوات ، من ثلاثة إلى خمسة ، وتسعد هذه الأعداد بالقيادة النبوية ترافقها ، وتدريبها وتربيتها ، فتكلاد تكون على رأس كل شهرين دورة تمت من خمسة أيام إلى خمسة عشر يوماً ، تتم فيها الحياة الجماعية ، ويختبر بها الانضباط العالى ، والتدريب المتقن ، والخبرة الجديدة على المواجهة ، فالغزوات الثلاثة هذه لم يلق فيها رسول الله ﷺ كيداً ، ولم يخض حرباً ، إنما كانت هجوماً مباغتاً على مواقع العدو ، وتحدياً عظيماً لقوتهم ، وعرضأً للقوة الإسلامية داخل أرضه وفي مضاربه ، فتشيع الإرهاب والذعر في نفوس العدو من أن يفكر في هجوم لاحق .

إن جو المدينة ، والمسجد النبوى تتم التربية فيه من خلال الموعظة العامة ، ومن خلال القدوة العظيمة ، ومن خلال العبادة الخاشعة لله - عز وجل - لكن تحويل هذه المواقع إلى واقع عملى ما كان ليتم إلا من خلال هذه الحياة العسكرية الخشنة ، حيث يتم التطبيق العملى لهذه المعانى من خلال هذه الحياة الجهادية .

ولعل أهم حدث في هذه الغزوات الثلاث هي محاولة اغتيال رسول الله ﷺ من دعثور بن محارب سيد بنى ثعلبة وفاتها وفارسها الجرىء حيث وقف على رأس رسول

الله ﷺ بسيفه وهو يقول له : من يمنعك مني ، فيقول له ﷺ : « الله » ويتقدم سيد الفدائين جبريل - عليه الصلاة والسلام - ليحمى حبيبه محمداً ﷺ من هذا الفارس ويلكته منه يسقط السيف من يد دعثور ، ليصبح في يد محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فيسأل دعثوراً قائلاً : « من يمنعك مني ؟ » فيقول : لا أحد . فيغفو عنه رسول الله ﷺ ليمضى دعثور بعدها داعية إلى رسول الله ﷺ ، يقص على قومه هذه المعجزة الخالدة . فيضع في أعماقهم بنور الإيمان ، التي تشرب بعد عمر طويل ، وتتغمر بها نفوسهم ، حتى وهم يحاربون الرسول - عليه الصلاة والسلام .

ويأتي القرآن الكريم ليقص على الجيش المسلم قصة هذه المعجزة ، وكيف حمى الله تعالى نبيه - عليه الصلاة والسلام - دون حول ولا طول من الجيش المسلم : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاكُمْ إِذْ كُنْتُمْ فَلَمْ تَكُنْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ فَكَفَأَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَنْقُواهُمْ إِلَيْكُمْ فَلَمْ يَكُنْ لَّهُ مُؤْمِنُونَ » (١) .

وهي إشارة إلى أن رسول الله ﷺ هو الأمة كلها ، وقد حفظ الله الأمة بحفظه .

الفترة قصيرة جداً بين بدر وأحد ، هي سنة ونيف ، وقد انضمت أعداد كبيرة إلى المجتمع الإسلامي الجديد . وفيها كثير من لا يزال الإسلام ضعيفاً في قلبه ، فلا بد من دورات تربية وعسكرية مكثفة ، لتهيئة انضمام هذه الأعداد إلى الإسلام انضماماً فعلياً ، وليس لزعامة عبد الله بن أبي ، فكانت هذه الدورات الدؤوبة . تصد هجمات العدو ، وترص الصف الإسلامي ، وتكسبه الخبرة والدرية المطلوبة ، وتصهره ليكون على أقدام السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

٣ - ويطالعنا من طرف آخر هاتان المهمتان الضخمتان اللتان مثلتا عظمة التربية في هذا الجيل ، وأثارها الضخمة التي بدأت تؤثى أكلها في قلب الأحداث .

هاتان المهمتان الضخمتان هما : سرية قتل كعب بن الأشرف ، وعلى رأسها سيدُ أنصارى هو : محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسرية القردة ، وعلى رأسها سيد مهاجرى هو : زيد بن حارثة - رضوان الله عليه - حيث نقف عندهما بإسهاب .

هذه هي صورة المدينة كما ذكرها الواقعى قبيل مقتل كعب بن الأشرف .

كان رسول الله ﷺ قد أسلم المدينة ، وأهلها أخلاق . منهم المسلمين الذين تجمعهم دعوة الإسلام ، فيهم أهل الحلقة والخصوص ، ومنهم حلفاء للحرين جميعاً الأوس والخزرج ، فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم وموادعهم ، وكان

(١) المائدة / ١١ .

الرجل يكون مسلماً وأبواه مشركاً ، فكان المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أذى شديداً ، فأمر الله - عز وجل - نبيه وال المسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم وفيهم أنزل : « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْيَ كَثِيرًا إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَقَوَّلُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأَمْرِ » (١) ، وفيهم أنزل الله - عز وجل - : « وَدَكَبِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... » (٢) ، فلما أبى ابن الأشرف أن يتزع عن أذى النبي ﷺ وأذى المسلمين ، وقد بلغ منهم . فلما قدم زيد بن حارثة بالبشرة من بدر بقتل المشركين ، وأسر من أسر منهم ، فرأى الأسرى مقرئين كتب وذل ، ثم قال لقومه : ويلكم والله لبطن الأرض خير لكم من ظهرها اليوم ، هؤلاء سراة الناس قد قتلوا وأسرروا ، فما عندكم ؟ قالوا : عداوه ما حينا ، قال : وما أنتم وقد وطئ قومه وأصابهم ؟ ولكنني أخرج إلى قريش فاحضهم وأبكي قتلامهم ، فعلهم يتدبرون فآخر ج معهم ، فخرج حتى قدم مكة ، ووضع رحله عند أبي وداعه بن ضبيرة السهمي ، وتحته عاتكة بنت أسد بن أبي العيص ، فجعل يرنى قريشاً ويقول :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولشل بدر تستهل وتندمع

قتلت سراة الناس حول حياضه لا تبعدوا إن الملوك تصرع

ويقول أقوام أذل لسخطهم إن ابن أشرف ظل كعباً يجزع

صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا

كم قد أصب بها من أبيض ماجد ذي بهجة ياوى إليه الضيّع

طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت

نبشت أن بنى المغيرة كلهم خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا

وابننا ربيعة عنده ومنبه هل نال مثل المهلkin التبع

ودعا رسول الله ﷺ حساناً ، فأخبره بتزول كعب على من نزل ، فقال حسان:

ألا أبلغوا عنى أسدًا رسالة فحالك عبد بالسراب مجرّب

لعمرك ما أوفى أسد بجاره ولا خالد ولا المفاضة زينب

وعتاب عبد غير موف بذمة كذوب شؤون الرأس قرد مجرّب

(٢) البقرة / ١٠٩ .

(١)آل عمران / ١٨٦ .

(٤) أخلفت الكواكب : أخلّت فلم يكن فيها مطر .

(٣) الضيّع : جمع ضائع وهو الجائع .

فلما بلغها هجاوه نبذت رحله وقالت : ما لنا ولهذا اليهودي ؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسان ؟ فتحول ، فكلما تحول عند قوم دعا رسول الله ﷺ حسانا ، فقال : ابن الأشرف نزل على فلان . فلا يزال يهجوهم حتى نبذ رحله ، فلما لم يجد مأوى ، قدم المدينة<sup>(١)</sup> .

كان كعب بن الأشرف يهوديا ، قال ابن عقية : هو من بنى التنصير ، وقال ابن إسحاق : هو من بنى نبهان ، من طين وأمه من بنى التنصير ، وكان شاعراً يؤذى رسول الله ﷺ وبهجو الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - ويحرض عليهم الكفار<sup>(٢)</sup> .

وروى ابن سعد عن الزهرى في قوله تعالى : **«وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قِبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْرَى كَثِيرًا»**<sup>(٣)</sup> قال : هو كعب بن الأشرف . فإنه كان يحرض المشركين على رسول الله ﷺ وأصحابه - يعني في شعره يهجو النبي ﷺ وأصحابه .

فقد أجمعت المصادر على أنه رأس الحرية في مواجهة النبي ﷺ . وكان العام الأول في المدينة ، عام صبر ومسالمة ، خاصة داخل يثرب ومع اليهود ، في محاولة جذبهم للإسلام من خلال الحوار الهادئ والجدال الحسن ، فهم أهل الكتاب الأول ، وزلت الأوامر الربانية بالصبر عليهم وتحمل أذاهم ، لكنهم أظهروا من ضروب الكيد وفتنون المواجهة ما لا سبيل إلى التغاضي عنه ، وكان القرآن الكريم ينزل تباعاً في فضح هذا الكيد وكشف تلك المؤامرات ، وكانت العهود تحكم بين المسلمين واليهود ، بحيث لا يتجاوز الخلاف الإطار الفكري ، أما في الجانب السياسي : فقد كانت العهود إعلاناً بالولاء للدولة المسلمة الجديدة ، وألا يناصروا على رسول الله ﷺ عدواً ، وأن عليهم النصرة على من دهم يثرب ، لكن كعب بن الأشرف ، وزميله حني بن أخطب من قادة بنى التنصير ، كان حقدتهم أكبر من عقلهم ، فأظهروا العداوة والبغضاء للله ولرسوله ، وجاءت غزوة بدر ، لتكون فرقاً بين عهدين - عهد الصبر والمصابرة ، وعهد المواجهة والحركة - وأعلن كعب بن الأشرف انتقامته صراحة لعسكر قريش .

ثم رأى بيته ما حلّ بين قينقاع الذين نبذوا عهدهم لرسول الله ﷺ . وأرادوا خيانته ، وأعلنوا الحرب ضد المسلمين يتهدونهم ويطلبون مواجهتهم ، وانتهت المعركة بين قينقاع جميماً . أن يُجلوا عن المدينة بعد شفاعة ابن أبي لهم عن القتل .

ولم تثن هذه التائج كعباً عن طريقه . وتجاوز عملية الهجاء والنيل من رسول الله ﷺ وصحبه إلى الخطوات التأمرية المعلنة فيمضي إلى مكة يحرضهم على غزو المدينة .

(١) المغارى للواقدى / ١ - ١٨٦ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٦ - ٤٠ .

(٣) آل عمران / ١٨٦ .

وافتتح رسول الله ﷺ المعركة معه وهو في مكة ، حيث كان حسان بن ثابت رضي الله عنه يرد على تباكيه على قريش ، ويهجو كل من يستضيفه منهم ، وينبذ كعب من بيوتات قريش جميعاً ، وهزم في المعركة السياسية ، وكان المفروض بهذا الدرس الثالث أن يثنى عن عزمه .

عاد والحدق يأكل قلبه إلى المدينة ، لا ليعتذر ويعلن توبته عن خياناته السافرة ، إنما لি�تابع المعركة داخل المدينة ، ويتبع هجاء النبي ﷺ وصحابه ، والتشبيب بنساء المسلمين ، ونال من أم الفضل بنت الحارث زوجة العباس عم رسول الله ﷺ فشب بها وقال :

أرا حل أنت لم نحل بعقبة      وترك أنت أم الفضل بالحرم

وفي رواية موسى بن عقبة ما يبرر هذا العداء المعلن أكثر فأكثر . إذ يقول :

( وكان كعب بن الأشرف اليهودي وهو أحد بنى النضير وقيمه ، قد آذى رسول الله ﷺ بالهجاجة ، وركب إلى قريش ، فقدم عليهم فاستغواهم على رسول الله ﷺ فقال له أبو سفيان : أناشدك الله أدينا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأينا أهدي برأيك وأقرب إلى الحق ؟ فإنما نطعم الجوزر الكوماء ، ونسقى اللبن على الماء ، ونطعم ما هبت الشمائل ، فقال ابن الأشرف : أنت أهدي منه سبيلاً ، ثم خرج مقلباً قد أجمع رأى المشركين على قتال رسول الله ﷺ معلنًا بعداوته وهجائه . . . ) .

وهنا نلحظ ذلك الخط الذي اخترطه - عليه الصلاة والسلام - في التربية منذ بدر ، وفي استخلاص أعظم الطاقات لتكون في خدمة الدعوة . حيث يحدد - عليه الصلاة والسلام - المهمة الجسورة المطلوبة ، ويطلب من الطاقات الكامنة أن تبرز إلى الساحة لأدائها .

قال رسول الله ﷺ : « من لنا من ابن الأشرف فقد استعلن بعداوتنا وهجانا ، وخرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا قد أخبرني الله - عز وجل - بذلك ، ثم قدم على أخيث ما كان يتضرر قريشاً أن يقدم ، فيقاتلنا معهم » ثم قرأ رسول الله ﷺ على المسلمين ما أنزل الله فيه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْرِ وَالْطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هُوَلَاءُ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾<sup>(1)</sup> وآيات في قريش معها <sup>(2)</sup> .

وكما سبق أن تم مقتل عصماء بنت مروان ، ومقتل أبي عفك اليهودي . وكما في

(2) دلائل النبوة للبيهقي ١٩٠ / ٣ .

(1) النساء / ٥١ .

رواية الصحيحين : « من لى بکعب بن الأشرف ، فقد آذى الله ورسوله؟ » وانبعث السيد الأوسي البدرى العظيم محمد بن مسلمة . فقال : أنا لك يا رسول الله ، أنا أقتله ، قال : « أنت له فافعل إن قدرت على ذلك ». .

وابن الأشرف في حصن حصين<sup>(١)</sup> لا يستطيع الطير الوصول إليه ، فكيف بالناس؟ !

وكان التوجيه النبوى عاماً ، فهو يريد أن يفجر الطاقات الإسلامية ، وترك له أن يضع الخطة المناسبة ، وينفذها كما يريد .

إنها هنا تكمن تربية القيادات ، فمهمة بهذه الضخامة ، وهذه الصعوبة ، لابد لها من دراسة شاملة ومستوعبة ، لكن رسول الله ﷺ يعرف رصيده المذكور من رجالاته الكبار ، فاكفى بإعطاء الإذن لهم بذلك .

وكانت المفاجأة بعد ذلك : ( فمكث ثلاثة لا يأكل ولا يشرب إلا ما تعلق به نفسه ) ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال له : « لم تركت الطعام والشراب؟ » فقال : يا رسول الله ، قلت قولًا لا أدرى هل أفي لك به أم لا ، فقال : « إنما عليك الجهد » ، وقال رسول الله ﷺ : « شاور سعد بن معاذ في أمره » .

وكان التوجيه النبوى الثاني لهذا القائد العظيم الذى قال كلمة كانت بمثابة عهد الشرف إليه ، إما أن ينفذها وإما أن يموت دونها ، أمضى أيامه الثلاثة يفكر في تنفيذ هذه المهمة ، ونسى طعامه وشرابه وحياته حرصاً على تنفيذ كلمته ، فكان التوجيه التربوى النبوى الثاني له : « إنما عليك الجهد » ، وكان التوجيه الثالث : « شاور سعد ابن معاذ في أمره » .

فقد دله على سيد الأولين سعد؛ ليشتراكا معاً في الرأي ووضع الخطة ، ورأى سعد <sup>رض</sup> أن المهمة من الجسامه والضخامة بحيث لا يكفيها بطل واحد ، إنها بحاجة إلى سرية فدائمة كاملة ، وتم بعد المدارسة الاتفاق على أن يشارك في هذه المهمة أربعة آخرون هم :

عبد بن بشر ، وأبو نائلة سلكان بن سلامة ، والحارث بن أوس بن معاذ بعثه عمه سعد بن معاذ ، وأبو عبس بن جبر ، فأصبحت المجموعة خمسة فدائين يتوزعون مهامات التنفيذ .

فلا بد من اقتحام الحصن ، والدخول إلى قلب العدو ، وقد يؤدي الأمر إلى صراع

(١) ولا تزال آثار هذا الحصن باقية في المدينة - كما رأيتها - إلى اليوم تدل على مناعتها وصعوبة الوصول لأن الأشرف فيها .

مبادر مع اليهود يودي بهم جميعاً ، ومع ذلك بقيت المعضلة قائمة ، فكيف يمكن دخول الحصن واقتحامه إلا بحيلة حرية ؟ وهل يجوز الكذب في الحرب ؟ إنهم تلاميذ مدرسة النبوة ، ولا يعلمون عن ذلك شيئاً ، فجاوا إلى قائدتهم - عليه الصلاة والسلام - فقالوا له : يا رسول الله نحن نقتله فأذن لنا أن نقول شيئاً : فقال رسول الله ﷺ : « قولوا ما بدا لكم ، فأنتم في حل من ذلك » .

وبعد أخذ هذا المعلم العام من المصطفى ﷺ ، راحوا يضعون الخطة المناسبة لذلك بكل تفاصيلها ، وتحديد جزئياتها ، للاستفادة من القرابة بين أبي نائلة سلكان بن سلامة أخي كعب من الرضاع . وندع الخطة تنطق كما هي بحيث تبدو في كل جزئية من جزئياتها في غاية الدراسة والتدقيق ، واستعراض الاحتمالات المتعددة ، والماوقف المفاجئة .

( فخرج أبو نائلة كما قال جل أئمة المغاري ، وكان أخا كعب من الرضاعة ، وفي الصحيح : خرج إليه محمد بن مسلمة ، فلما رأه كعب انكر شأنه وذرع منه . فقال أبو نائلة ، أو - محمد بن مسلمة : حدثت حاجة . فقال كعب وهو في نادى قومه وجماعتهم : ادن إلى فخبرني بحاجتك ، فتحدثنا ساعة ، وأبو نائلة أو محمد بن مسلمة ينشده الشعر ، فقال كعب : ما حاجتك لعلك أحب أن يقوم القوم من عندنا فلما سمع القوم قاموا ) .

وكانت هذه المرحلة الأولى من الخطة ، أن يخلوا بكعب ويحدثوه ، ولم يقع خلل في التنفيذ ، إنما لجؤوا إلى مناشدة الشعر حتى تحقق الهدف .

( فقال محمد بن مسلمة أو أبو نائلة : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، ونحن لا نجد ما نأكل ، وإنه قد عنانا ) قال كعب : وأيضاً والله لتعلمه ( وفي غير الصحيح ) فقال أبو نائلة : ( إنى قد جئتكم في حاجة أريد أن أذكرها لك فاكتم عنى ) قال : أفعل . قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء ، عادتنا العرب ، ورمونا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل ، حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا . فقال كعب بن الأشرف : ( أما والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول ، ولكن أصدقني ما الذي تريدون من أمره ؟ ) قال : خذلانه والتخلّي عنه ، قال : سررتني ألم يأن لكم أن تعرفوا ما عليه من الباطل ؟ فقال أبو نائلة : ومعي رجال من أصحابي على مثل رأىي ...<sup>(1)</sup> )

ونجحت المرحلة الثانية من الخطة ، فقد وثق كعب بن الأشرف بهم ووقع في

(1) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤٢/٦ ، ٤٣ .

الشرك الذي نصبوه له .

وتأتي المرحلة الثالثة من الخطة التي تبرر قدوم بقية العصبة المسلمة بسيوفهم  
الباترة .

قال أبو نائلة : ومعي رجال من أصحابي على مثل رأسي ، وقد أردت أن آتيك بهم  
فتبايع منك طعاماً أو ثمراً وتحسن في ذلك إلينا ، وزرهنك ما يكون لك فيه ثقة ، قال  
كعب : أما إن رفاقت تقصف ثمراً من عجوة يغيب فيها الضرس ، أما والله ما كنت أحاب  
يا أبي نائلة أن أرى هذه الخصاصة بك ، وإن كنت من أكرم الناس على ، أنت أخي ،  
نازعتك الثدي ! قال سلكان : اكتمن عننا ما حدثتك من ذكر محمد . قال كعب : لا  
أذكر منه حرفاً ، ثم قال كعب : يا أبي نائلة ، أصدقني ذات نفسك ، ما الذي تريدون  
من أمره ؟ قال : خذلانه والتنحى عنه . قال : سررتني يا أبي نائلة ، فماذا ترهنونني ،  
أبناءكم ونساءكم ؟ فقال : لقد أردت أن تفضحنا وتظهر أمرنا ، ولكننا نرهنك من الحلقة  
ما ترضي به ، قال كعب : إن في الحلقة لوفاء ، وإنما يقول ذلك سلكان لثلا ينكرهم  
إذا جاؤوا بالسلاح<sup>(١)</sup> .

إنها النفسية والسلبية اليهودية تبدو مكشوفة عارية ، فأبو نائلة أخوه ، وأحب  
الناس إليه ، لكن عندما يصل إلى الرهن ، فلا يتورع أن يطلب رهن النساء والأولاد  
على قليل من التمر ، فهو الجشع اليهودي البشع ، وهو الحقد اليهودي الدفين ، ثانياً  
حين رقصت أساريره بخذلان محمد والتنحى عنه .

﴿ قَدْ بَدَتِ الْغُضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرٌ ... ﴾<sup>(٢)</sup> .

وكانت المرحلة الرابعة في ابتداء التنفيذ حيث تتوجه العصبة المسلمة إلى كعب بن  
الأشرف ، لا تخاف حرباً أو مواجهة ، قد ثبتت الأرض تحت قدميها بهذه الصفة  
الوهمية .

( فخرج أبو نائلة من عنده على ميعاد ، فأتى أصحابه فأجمعوا أمرهم على أن  
يأتوه إذ أمسى لميعاده ، ثم أتوا النبي ﷺ عشاء فأخبروه ، فمشى معهم حتى أتى  
البيع ، ثم وجههم ثم قال : « امضوا على بركة الله وعونه » ويقال : وجههم بعد أن  
صلوا العشاء في ليلة مقمرة مثل النهار - في ليلة أربع عشرة من ربيع الأول على رأس  
خمسة وعشرين شهراً ... ) .

إنها ذكري قدومه الأول إلى يشرب ﷺ ، فقبل ستين من هذا الموعد ، وفي الثاني

(١) المغازي للواقدي ١ / ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) آل عمران / ١١٨ .

عشر من ربيع الأول ، تشرفت المدينة بوطه ثراها وها هو اليوم - عليه الصلة والسلام - وبعد دخول يومين بعد ذكرى عام الوصول ، يجد نفسه - عليه الصلة والسلام - يوجه الكتبة للعدو اللدود الذى خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين ، ومضي يعيى القوى ضدهم ، ويشبّب بنسائهم ويستهزئ ويستخف بعقيدتهم وأشخاصهم ، وعلى هذه الكتبة المؤمنة أن تتحقق هدفها فى قلب حصن العدو ، وتتنزعه من فراشه لتجهز عليه بعد أن أعلن العداوة السافرة ، ولن يعاقب بنو النضير بموقفه ، رغم أن هواهم معه ، ولن يمضى جيش لحربيهم طالما أنهم لا يزالون ظاهرين متمسكون بالعهد ، فهو المجرم العريق ، ولن يُقتل بجريته أحد ، إلا من تحدى وخان مثله .

والدرس الذى نفقهه هنا من هذه الحادثة وأمثالها: أن حرب العصابات لها فن وخطة تختلف عن الحرب النظامية التى تقوم على المواجهة ، ومن أجل ذلك : فعصبة صغيرة تبدأ من الرجل الواحد إلى العشرة أو أقل أو أكثر ، تستطيع أن تدخل أرض العدو ، وتضرب موقعه ، أو تقاتل أحد قياداته وتسحب ، وطبيعة هذه الحرب تختلف عن طبيعة الحرب النظامية التى تقتضى أعداداً أوفر ، وعدة أضعف ، وتناسبأً لحد ما فى العدد ، لقد بارك الله هذه الخطوات ، ومفضوا على عين رسول الله ﷺ ترعاهم عنابة الله حيث ابتدأت الخطوة الأولى من مرحلة التنفيذ العملى .

( قال : فمضوا حتى أتوا ابن الأشرف ، فلما انتهوا إلى حصنه هتف به أبو نائلة ، وكان ابن الأشرف حديث عهد بعرس ، فوشب ، فأخذت امرأته بناحية ملحته وقالت : أين تذهب ؟ إنك رجل محارب ، ولا يتزل مثلك في هذه الساعة ، فقال : ميعاد ! إنما هو أخى أبو نائلة ، والله لو وجدنى نائماً ما أيقظنى ، ثم ضرب بيده الملحة وهو يقول : لو دعى الفتى لطعنة أجاب ، ثم نزل إليهم فحياهم ، ثم جلسوا فتحدثوا ساعة حتى انبسط إليهم . . . ) .

وكانت الخطوة الثانية فى تنفيذ العملية الجريئة هي استدراجه بعيداً عن حصنه ، فى إحكام دقيق غاية الدقة لتحقيق الهدف المطلوب ، وراحوا فى مخططهم يتبعون تنفيذ الخطوة الثانية :

ثم قالوا له : يا بن الأشرف ! هل لك أن تتمشى إلى شرج العجوز<sup>(١)</sup> ، فتتحدث فيه بقية ليتنا ؟ قال : فخرجوا يتعاشون حتى وُجّهوا قبل الشرج .

وكانت الخطوة التالية من عملية التنفيذ: هي التمكّن منه لقتله ، فطرحت هذه المداعبة البديعة لذلك ، فادخل أبو نائلة يده فى رأس كعب ثم قال : وبحكم ما أطيب

(١) شرج العجوز : موطن قرب المدينة ، كما ذكر السهودى ، وفأه الوفا ٣٢٨ / ٢

عطرك هذا يابن الأشرف : وإنما كان كعب يدهن بالمسك الفتى بالماء والعنبر حتى يتبلد في صدغيه ، وكان جعداً جميلاً ، ثم مشى ساعة ، فعاد بعثتها حتى اطمأن إليه ، وسلست يداه في شعره ، وأخذ بقرون رأسه وقال لاصحابه : أقتلوا عدو الله .

وكانت الخطوة الثالثة من عملية التنفيذ الفعلى للقتل أن يتم الأمر بعد التمكّن من أن يفر أو يستجير بأحد .

( فضربوه بأسيافهم ، فاللتقت عليه قلم تغن شيئاً ، ورد بعضها بعضاً ، ولصق بآبئ نائلة . قال محمد بن مسلمة : فذكرت مغولاً<sup>(١)</sup> معنـى كان في سيفي ، فانتزعته فوضعته في سرته ، ثم تحاملت عليه فقططته حتى انتهيت إلى عاته ، فصاح عدو الله صيحة ما بقي أظم من آطام يهود إلا أوقدت عليه نار ، فقال ابن سنينة - يهودي من يهود بنـى حارثة - وبينهما ثلاثة أميال : إنـى لأجد ريح دم يشرب مسـفوح ، وقد كان بعض القوم أصابـوا الحارث بنـى أوس بسيـفه وهم يضرـبونـى كعبـاً ، فـكلـمـهـ فيـ رـجـلـهـ ، فـلـمـ فـرـغـواـ اـحـتـزاـواـ رـأـسـهـ ثـمـ حـمـلـوـهـ مـعـهـ .

لقد نفذـتـ العمـلـيةـ بـدـقـةـ بـالـغـةـ لـكـنـ تـنـمـةـ التـخـطـيـطـ المـحـكـمـ العـمـيقـ الدـقـيقـ هوـ خطـوـاتـ العـودـةـ السـلـيمـةـ منـ أـرـضـ الـعـدـوـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ ، وـتـحـاجـ إـلـىـ الـخـبـرـةـ فـيـ الـطـرـيـقـ ، والـسـرـيـةـ فـيـ السـيـرـ .

ثم خرجـواـ يـشـتـدـونـ وـهـمـ يـخـافـونـ مـنـ يـهـودـ الـأـرـصادـ ، حتىـ أـخـذـواـ عـلـىـ بـنـىـ أـمـيـةـ ابنـ زـيدـ ، ثـمـ عـلـىـ قـرـيـظـةـ ، وـإـنـ نـيـرانـهـمـ فـيـ الـآـطـامـ لـعـالـيـةـ ، ثـمـ عـلـىـ بـعـاثـ<sup>(٢)</sup> ، حتىـ إـذـاـ كانواـ بـحـرـةـ العـرـيـضـ نـزـفـ الـحـارـثـ الدـمـ . . . )

لقد اضطـرـواـ إـلـىـ الـمـرـورـ مـنـ أـرـضـ يـهـودـ بـنـىـ قـرـيـظـةـ ، وـيـهـودـ بـنـىـ قـرـيـظـةـ يـوـمـهـاـ غـيرـ مـحـارـبـينـ ، وـحـافـظـواـ مـعـ ذـلـكـ عـلـىـ السـرـيـةـ التـامـةـ فـيـ الـمـرـورـ لـيـلـاـ مـنـ أـرـضـهـمـ ، غـيرـ أـنـهـمـ فـاجـأـتـهـمـ أـزـمـةـ لـمـ تـكـنـ فـيـ الـمـخـطـطـ ، هـذـهـ الـأـزـمـةـ هـىـ الـجـرـحـ الغـائـرـ لـلـحـارـثـ بـنـ أـوسـ ، وـلـابـدـ مـنـ الـتـصـرـفـ لـمـقـابـلـةـ هـذـهـ الـأـزـمـةـ ، وـكـانـ مـوـقـفـ الـجـنـدـيـ الـعـظـيمـ الـحـارـثـ الـذـىـ نـزـفـ جـرـحـهـ أـنـ يـمـضـواـ وـيـدـعـوهـ ، فـسـلـامـتـهـ مـقـدـمـةـ عـلـىـ سـلامـتـهـ الشـخـصـيـةـ ، وـسـوـفـ يـعـيـقـهـمـ أـوـ يـجـعـلـهـمـ فـيـ خـطـرـ لـوـ مـكـثـواـ يـداـوـونـهـ ، وـهـوـ عـاجـزـ عـنـ الـمـسـيرـ مـعـهـمـ ، فـلـيـكـنـ الـفـدـائـيـ الـأـوـلـ إـذـنـ وـيـسـلـمـ إـخـوانـهـ ، وـمـنـ أـجـلـ ذـلـكـ : وـدـعـهـمـ وـطـلـبـهـمـ أـنـ يـلـغـواـ سـلامـهـ لـحـيـيـهـ الـمـصـطـفـيـ رسـلـهـ ، لـكـنـ الـعـصـبـةـ الـمـسـلـمـةـ وـبـدـيـهـةـ حـاضـرـةـ وـوـعـيـ دـقـيقـ حـمـلـهـ مـعـهـمـ وـلـمـ يـتـخلـلـوـهـ عـنـهـ لـيـكـونـ طـعـمـةـ لـلـعـدـوـ .

(١) المـغـولـ : سـيفـ دـقـيقـ لـهـ قـفـاـ ، أوـ حـدـيـدةـ دـقـيقـ لـهـ حـدـ مـاضـ ( القـامـوسـ الـمـحيـطـ ٤/٢٧ ) ، طـ بـيـرـوـتـ .

(٢) بـعـاثـ : مـنـ ضـواـحـيـ الـمـدـيـنـةـ ، وـيـقـالـ : حـصـنـ ، وـيـقـالـ : مـزـرـعةـ .

حتى إذا كانوا بحراً العريض نزف الحارث الدم ، فابطأ عنهم فنادهم : أقرنا  
رسول الله ﷺ من السلام ، فعطفوا عليه فاحتملوه حتى أتوا النبي ﷺ فلما بلغوا بقبيع  
الغرقد كبروا ، وقد قام رسول الله ﷺ تلك الليلة يصلي ، فلما سمع رسول الله ﷺ  
تكبيرهم بالبقيع ، كَبَرَ وعرف أن قد قتلوه ، ثم اتبهوا يعدون حتى وجدوا رسول الله  
ﷺ واقفاً على باب المسجد .

إنه القائد العظيم والمربي الأكبر - عليه الصلاة والسلام - والساهر مع جنده يتربّع  
نتائج المهمة التي كلفهم بها ، ولم تذق عنده النوم ينتظر بفارغ الصبر نتائج المهمة الصعبة  
التي كلف بها جنده ، إنه يتنتظرهم أمام الباب ، فهو يعيش خطوات نفوسهم ، ويعيش  
لحظات الخطر التي يمكن أن تنزل بهم ، فلا يرقا له جفن من أجلهم ، وكان ذلك  
اللقاء السعيد بين الجندي والقائد ، بين الجندي القادة الكبار ، وسيد القادة في الوجود .

فقال : « أفلحت الوجه ! » فقالوا : ووجهك يا رسول الله ! ورموا برأسه بين  
يديه ، فحمد الله على قتله ، ثم أتوا ب أصحابهم الحارث ، فقتل في جرحه فلم يؤذه .  
إنه فرعون يهود يرمي برأسه كما رمى برأس فرعون الأمة - أبي جهل - بين قدميه -  
عليه الصلاة والسلام ، وهكذا يكون مصرع الطواغيت التي تحاد الله ورسوله .  
وخلد عباد بن بشر رض أحد القادة الثلاثة الكبار في الأوس ، هذه العملية  
العظيمة بشعر حي ، كأنما شهدنا معه العملية كاملة ، حيث يقول رض :

صرختُ به فلم يجفل لصوتي وأوفى طالعاً من فوق قصر  
فعدتُ فقال : من هذا المنادي ؟  
فقال محمد<sup>(١)</sup> : أسرع إلينا  
وترددنا فقد جئنا سفاباً<sup>(٢)</sup>  
وهذى درعنارهمنا فخذلها  
وأقبل نحوها يهوى سريعاً  
وفى أيامنا بيض<sup>(٤)</sup> حداد  
فعانقه ابن مسلمة المرادي  
وشدَّ بسيفه صلتَا عليه  
وصلتُ أصحابي فكان لـ

(٢) سفاباً : جياعاً .

(٤) البيض : السيف .

(١) هو ابن مسلمة .

(٣) الوست : ستون صاعاً أو حمل بغير .

(٥) العترة : وهي شاة كانوا يذبحونها في رجب لأنهم .

ومسر برأسه نفر كرام هم ناهوك من صدقٍ وبرٍ  
وكان الله سادسنا فابننا بأفضل نعمة وأعز نصر

قال ابن أبي حبيبة : أنا رأيت قائل هذا الشعر ، قال ابن أبي الزناد : لولا قول  
ابن أبي حبيبة لظننت أنها ثبت (١) .

وأراد النبي ﷺ أن يستثمر هذه الحادثة لاستصال الغدر اليهودي كلّه ، وإنها لهذا  
التحدى الذي بُرِزَّ من أكثر من زعيم من زعمائهم .

فلمّا أصبح رسول الله ﷺ في الليلة التي قُتِلَ فيها ابن الأشرف قال رسول الله  
ﷺ : من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه ، فخافت اليهود ، فلم يطلع عظيم من  
عظمائهم ولم ينطقوا ، وخافوا أن يبيتوا كما بَيَّنَ ابن الأشرف .

وكان ابن سينية من يهود بنى حارثة ، وكان حليقاً حويصه بن مسعود ، فوثب  
محيصة بن مسعود على ابن سينية - رجل من تخار يهود كان يلابسهم ويبايعهم - فقتله ،  
وكان حويصه بن مسعود إذ ذاك لم يسلم ، وكان أنسٌ من محيصة ، فلما قتله : جعل  
حويصه يضربه ويقول : أى عدو الله ، أقتلته ! أما والله لرب شحم في بطنك من  
ماله . قال محيصة : والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضررت عنقك ؛ قال  
فوالله إن كان لأول إسلام حويصه . قال : والله لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني ؟ قال :  
نعم . والله لو أمرني بضرب عنقك لضررتها . قال : والله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب ،  
فأسلم حويصه .

قال ابن إسحاق : حدثني هذا الحديث مولى لبني حارثة عن ابنة محيصة عن أبيها  
محيصة ، فقال محيصة في ذلك :

يلوم ابن أمي لو أمرت بقتله  
لئن ما أصوبه فليس بكاذب  
حسام كلون الملح أخلص صقله  
طبقت ذفراه بأبيض قاضب  
ما سرني أني قتلتك طائعاً  
وأن لنا ما بين بصرى ومأرب (٢)

وهذه الحدث الثاني - قتل ابن سينية - كيان اليهود كلّه ، ففرّعت اليهود ومن معها  
من المشركين ، فجاؤوا إلى النبي ﷺ حين أصبحوا فقالوا : قد طرق صاحبنا الليلة ،  
وهو سيد من ساداتنا قُتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه ، فقال رسول الله ﷺ : إنه  
لو قرّ كما قرّ غيره من هو على مثل رأيه ما أُغتيل ، ولكنه نال منا الأذى وهجانا

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٨٤ ، ٨٥ .

(١) المغازي للواقدي ١/١٨٨-١٩٢ ، مقتطفات .

بالشعر ، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان له السيف » .

ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينهم كتاباً يتنهون إلى ما فيه ، فكتباً بينه وبينهم كتاباً تحت العدق في دار رملة بنت الحارث ، فحضرت يهود وخافت ، وذلت من يوم قتل ابن الأشرف (١) .

لا نزال ضمن الخط التربوي الذي طرحة رسول الله ﷺ في هذه المرحلة ، خط استشارة الطاقات ، وإبراز الموهب الفردية ، وتدربيها على المسؤولية ، من خلال المبادرة الذاتية ، وكل عمليات القتل التي تمت ، بترت بهذه الصورة . فمقتل ابن سينية تم ضمن هذا الخط : « من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه » .

ويدرك - عليه الصلاة والسلام - طبيعة هذه العصبة التي رباهما ، ويعرف أن القصد لن يتغير عندها أو يفهم خطأ ؛ إذ القصد هو قتل الذي يتعرض بالأذى والهجاء للمسلمين ، وليس قتل كل يهودي أو زعيم من زعماء اليهود .

وحتى ندرك مستوى التربية الرفيع الذي وصل له حزب الله ، يستوقفنا ذلك الجواب العظيم من الأخ الشقيق محيصنة لأخيه حويصة : والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضررت عنقك .

فقد ارتفع الولاء لله ولرسوله فوق أى ولاء آخر ، وفوق أى رابطة أخرى من الأهل والولد والزوج والعشيرة ، وعاد كل حدث ينطوي بالآية ويتترجمها واقعاً عملياً .  
﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُونَ مِنْ حَادَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءُهُمْ أَوْ أَبْنَاءُهُمْ أَوْ إِخْرَانِهِمْ أَوْ عَشِيرَتِهِمْ ...﴾ (٢) .

ونجد هذا الارتفاع العظيم في الولاء لله ورسوله هو الذي حدا بالأخ الشقيق أن يسلم إذ رأه أن يبلغ الولاء لهذا الدين هذا المبلغ ، إنه ليس مكانه وتصديقه كما هو دين هؤلاء الوثنين الذين ينجررون خشبة ويعبدونها ، أو ينحثرون صخرة ويعبدونها ، إنه أمر تغلغل في أعماق هذا الإنسان حتى ملا عليه كيانه كله .

- آوالله لو أمرك محمد بقتل لقتلتني ؟

- نعم والله لو أمرني بضرب عنقك لضررتها .

- والله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب ! فأسلم حويصة .

ويحاول محيصنة أن يعلم الأمة معنى هذه التربية ؛ فهو ليس ضئيلاً بأخيه عن

(٢) المجادلة / ٢٢ .

(١) المفاizi للواقدى ١ / ١٩٢ .

الحياة ، إنه أعز ما عنده ، ولو يقتله طائعاً ، ولو عرض عليه ملك ما بين بصرى ومارب ،  
لو عرض عليه ملك جزيرة العرب ما قتل أخيه طائعاً .

ولو أن لى ما بين بصرى ومارب  
واما عند الأمر النبوى ، فلن يشنى لحظة عن التنفيذ .

يلوم ابن أمى لو أمرت بقتله  
لطبقت ذفراه بأيضاً قاصب  
إنها تربية العقيدة ، إنها الحب فى الله والله .

٤ - المهمة الثانية : سرية القردة : ونلحظ فى هذه السرية جوانب وأفاقاً خلف  
العملية العسكرية .

لقد استطاع أبو سفيان أن يغزو المدينة ، ويقتل رجالاً من الأنصار ، ويُكفر عن  
يمينه التي أقسمها : ألا يمس رأسه جنابة حتى يغزو محمداً ، واستفاد من الجيب  
اليهودي داخل أرض الإسلام ، الذى دله على بعض التغزوات في الحصن الإسلامي ،  
وكان هذا في ذى الحجة من العام الثاني للهجرة ، وبعد أن أخضع رسول الله ﷺ هذا  
الجipp اليهودي من بنى النضير الذين دلوا أبو سفيان على عورات الناس ، وقتل  
عظيمين من عظمائهم ، كانوا يحملون نار العداوة ضد المسلمين ، ويقومون بصفقات  
علنية مع مشركي مكة ، بعد أن طهر - عليه الصلاة والسلام - هذا الجيب اليهودي الذي  
عقد معه معايدة جديدة في دار رملة بنت الحارث؛ على أن يقر ويسلم ، وحضرت يهود  
وخافت ، وذلت من يوم قتل ابن الأشرف ، كان من الممكن بعد هذا كله أن يتفرغ  
لقرىش ويؤدب زعيمها أبو سفيان ، وهي التي تمثل ضراوة الحرب لله ولرسوله ، لقد كان  
قتل ابن الأشرف في ربيع الأول الذكرى الثالثة لوصوله ﷺ المدينة ، وفي جمادى  
الأولى كانت سرية القردة .

لقد أحكم - عليه الصلاة والسلام - الحصار الاقتصادي على عدوه في مكة ، وكما  
وصفه صفوان بدقة : إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف  
نصنع بأصحابه ، لا يبرحون الساحل وأهل الساحل ، قد وادعهم ، ودخل عامتهم  
معه ، فما ندرى أين نسلك ، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في دارنا هذه ، وما  
لنا بها نفاق ، وشلت بذلك تجارة قريش ، لو لا أن استطاعوا بعد تدارس الأمر أن يفكوا  
هذا الحصار ، باختيار طريق جديد لتجارتهم ، بعيداً عن طريق الساحل وهو طريق  
العراق .

ورغم خطورة هذا الطريق ومقاراته المهلكة ، وجهمهم التام به ، فلم يكن لهم  
خيار عنه ؛ لأن حياتهم بتجارتهم ، فهي الشريان الذي يغذي وجودهم ، ويمدهم في

معركتهم ضد الإسلام وأهله ، واستفادوا من طاقات أكبر الخبراء آنذاك في هذا الطريق ، ووضع خبرته تحت تصرفهم ، وهو : فرات بن حيان العجلي . والحضار الاقتصادي هو بداية السقوط السياسي والعسكري ، وفي فك هذا الحصار بعث دم جديد فيهم للمواجهة وال الحرب .

لم يكن - عليه الصلة والسلام - سيد القادة لينام على أمجاد بدر ، ويمضي عامه في احتفالات هذه الانتصارات ، ولم يكن لينام على أمجاد الحصار الاقتصادي الذي حقق فيه السيطرة السياسية على المنطقة ، بل كانت عينه الشريفة لا تنام عن أي خطوة يمكن أن يخطتها العدو ، كما كان يضع الخطط في مواجهة حلفاء هذا العدو وكسر شوكتهم كلما هموا بالتحرك .

وشاء قدر الله تعالى أن يحيط خطة قريش الجديدة في فك الحصار .

فهذا سليمان بن النعمان بن أسلم الانصارى يأتي بنى النضير ، ويصيب من شرائهم ، وهو عين رسول الله ﷺ عندهم ، يتعرف على أخبارهم . فهو صاحب مهمة يؤديها في صلته الوثيقة بهم ، وكان أن جاء رسول الله ﷺ بالخبر الخطير .

قدم المدينة نعيم بن مسعود الأشجعى ، وهو على دين قومه ، فنزل على كنانة بن أبي الحقيق في بنى النضير ، فشرب معه ، وشرب معه سليمان بن النعمان بن أسلم ، ولم تحرم الخمر يومئذ ، فذكر نعيم خروج صفوان في عيره وما معهم من الأموال ، (فخرج من ساعته إلى النبي ﷺ فأخبره) .

إنه التخطيط الوااعى ، والميظنة الدقيقة من القيادة ، والجندي المنضبطة التي تنفذ الأمر للتو ، فخرج من ساعته إلى النبي ﷺ فأخبره .

وهكذا أصبحت ساحة العدو مكشوفة ، وأخبار الخط الجديد للتجارة واضحة ، فماذا يفعل - عليه الصلة والسلام ؟ ومن أين له الخبراء في طريق العراق ؟ وهل يضع خطة خمسية يستدعي الخبراء والمصورات والمخططات ليواجه هذا التحرك الجديد في الساحة ، وقد تحركت القافلة ومضت في طريقها الجديد ؟ !

ها هو - عليه الصلة والسلام - يستدعي أحد القادة الكبار عنده ، والذي رياهم على عينه ، إنه المولى الأول في الأمة ، وهو أحد الأربعية الأوائل الذين قام الإسلام على أكتافهم ، وهو أحب الناس إليه ، هو زيد بن حارثة يدعوه ليتحرك بمائة راكب ليلاحق قافلة قريش ويعترض طريقها الجديد في المجاهيل في هذه البيد ، والتي وصفها أكبر خبراء المنطقة : فرات بن حيان بقوله لصفوان : فأنا أسلك بك في طريق العراق ، وليس يطؤها أحد من أصحاب محمد ، إنما هي أرض نجد وفياف ، قال صفوان : فهذه

حاجتي ، أما الفيافي فنحن شاتون وحاجتنا إلى الماء قليل .

ولم يكن يدور بخلد أحد من الناس أن يصل الخبر إلى محمد ، بله أن يتمكن من مهاجمة القافلة ، لقد آن الأوان لأن يقطف رسول الله ﷺ ثمرة تربية خمسة عشر عاماً الآن ، فزيد ابن الخمسة عشر ربيعاً يوم دخل بيت سيد الخلق .

عن أبي فزارة قال : أبصر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة غلاماً ذا ذئابة قد أوقفه قومه بالبطحاء للبيع ، فأتني خديجة ، فقالت : كم ثمنه ؟ قال : «سبع مائة». قالت : خذ سبع مائة . فاشتراه وجاء به إليها ، فقال : «أما إنه لو كان لي لاعتقته » ، قالت : هو لك . فاعتقه <sup>(١)</sup> .

وعن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمد ، فنزلت : «ادعوه لأبائهم هو أقسط عبد الله ... » <sup>(٢)</sup> <sup>(٣)</sup> .

فهو إذن الآن زيد بن محمد ، يوم يدعى لهذه المهمة ، وهو آخر رجالاته عنده ، رباه رسول الله ﷺ على عينه قبل النبوة خمسة عشر عاماً ، وبعدها إلى هذا اليوم خمسة عشر عاماً أخرى ، فهو رببه وحبيبه منذ ثلاثين عاماً ، وأن الأوان أن يتحمل مسؤولياته ، وبعث معه مائة راكب ، ليس بين يدينا أسماءهم . وكل الذي نعرفه أنهم من المهاجرين والأنصار ، من الجيل الذي تربى على يد الحبيب المصطفى ﷺ .

ونلاحظ منذ الآن وبعد بدر ، أن الأسماء التي تذكر ، والشخصيات التي تعرّض ، إنما هي أسماء القيادات الفاعلة ، والنماذج الهامة ، وبعد إحصاء بدر - انتهت الإحصاءات في السيرة النبوية - وبدأت الشخصيات الهامة تبرز فقط ، إنما الذي يرد علينا فقط من الإحصاءات بعد بدر هم : شهداء أحد سبعون من سبعمائة .

مضى زيد <sup>رض</sup> ومعه مائة راكب في هذه الفيافي المجهولة ، والصحراء المقفرة ، وليس لدينا أي تفصيات عن المسيرة ، وطريق السير ، وأحداث السرية ، إنما كل الذي بين يدينا : أن الهدف الرئيسي قد تحقق للسرية ، ووّقعت قافلة قريش بيدي أسود محمد <sup>رض</sup> ، فاعتربوا فأصابوا العير ، وأفلت أعيان القوم وأسروا رجلاً أو رجلين ، وقدموا بالعيير على النبي ﷺ فخمسها .

إنها مهمة ضخمة ، حطمت هذا الشريان من جديد ، وأعادت الطوق من جديد ،

(١) سير أعلام النبلاء / ٢٢٣ ، وقال المحقق فيه : «إسناده منقطع» .

(٢) الأحزاب / ٥ .

(٣) المصدر نفسه / ٢٤٤ ، وقال المحقق فيه : «أخرج البخاري (٤٧٨٢) في التفسير ، ومسلم (٤٤٢٥) وغيرهما» .

فأحكامه على ربة قريش ، وأهم ما في الأمر : أن كبير خبراء هذا الطريق ، فرات بن حيان العجلى تم أسره ، وعرض عليه الإسلام ، فأسلم ، وأصبحت هذه الخبرة الضخمة بين يدي المسلمين ، ولن تستطيع قريش أن تتحرك من جديد ، بعد أن انتقلت الخبرات التي تعاقدت معها إلى الصفة الإسلامية: محمد بن مسلمة ، القائد الانصارى الفذ وسريرته من الخمسة الكبار، أعادوا الكيان اليهودي إلى الانصياع للإسلام ، وزيد بن حارثة القائد البطل من المهاجرين يحطم التحرك التجارى الجديد لقريش ، ويأسر القافلة بكل ما فيها من ثروة ، فقد بلغ خمسها فقط عشرون ألف درهم ، وكان فى الأسرى فرات بن حيان ، فأتى به فقيل له : أسلم ، إن تسلم نتركك من القتل فأسلم ، فتركه من القتل .

نحن أمام القائد الفذ زيد الذى وصفته عائشة - رضى الله عنها - بقولها : ( ما بعث رسول الله ﷺ زيداً في جيش قط إلا أمره عليهم ، ولو بقى بعده لاستخلفه ) .  
رواہ النسائی (۱) .

انتهى شهر جمادى الآخرة ، ورسول الله ﷺ يتبع انتصاراته وتحركاته على الساحة ، لكنه لا ينسى البناء المستمر لجذبه وأمنه ، ورأى - عليه الصلاة والسلام - صفين من جنده يعانيان أزمة حادة منذ بدر ، فهذا عثمان رضي الله عنه وقد تأيم بعد فقدان رقية - رضى الله عنها - والتى كانت أرباء انتصارات بدر قد غزت المدينة ، والتراب يهال عليها - رضى الله عنها - وقد عزف عثمان عن الزواج بعد فقدانه بنت أحب خلق الله إليه ، وذلك عمر رضي الله عنه وقد تأيمت ابنته حفصة - رضى الله عنها - بعد وفاة زوجها خنيس بن حداقة متاثراً بجراحة نالته يوم بدر ، ورسول الله ﷺ صامت يود أن يمسح جراح أحب الناس إليه ، بحيث لا تصرفه مواجهة العدو عن شفاء القلوب المكلومة .

وإن كان عثمان بقى صامتاً ، منظرياً على آلامه الدفينة . فقد تحرك عمر رضي الله عنه لشفاء قلب ابنته الحبيبة يعرضها على أحبابه الأذنين ، بعد أن أنهت عدتها أربعة أشهر وعشراً ، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول ، وها هو: عبد الله بن عمر رضي الله عنه ينقل لنا صورة لهذا التحرك العمري .

فنع سالم بن عبد الله بن عمر: أنه سمع عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - يحدث : أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حداقة السهمى ، وكان من أصحاب رسول الله فتوفى فى المدينة . قال عمر : فأتت عثمان بن

(۱) سير أعلام النبلاء ٢٢٨/١ ، وقال المحقق فيه : « أخرجه أحمد ٢٢٦ / ٦ ، وابن سعد في الطبقات ، وابن أبي شيبة ، وسنده حسن » .

عفان فعرضت عليه حفصة ، قال : قلت : إن شئت أنكحتك حفصة ، فقال : سأنظر في أمرى ، فمكث ليالى ثم لقينى . فقال : قد بدا لي ألا أتزوج يومى هذا ، قال عمر ، فلقيت أبي بكر الصديق فقلت : إن شئت زوجتك حفصة . قال عمر : فصمت أبو بكر ، فلم يرجع إلى شيئاً ، فكنت عليه أوجد مني على عثمان ، فمكثت ليالى ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه ، فلقينى أبو بكر فقال : لعلك وجدت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئاً . قال عمر : فقلت : نعم ، قال أبو بكر : إنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أنى قد كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها ، فلم أكن أخشى سر رسول الله ، ولو تركها رسول الله قبلتها<sup>(١)</sup> .

لم يكن يدور بخلد عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يود الزواج ، فهذه عائشة الفتاة البكر تملأ عليه حياته ووجوده ، وهى بنت الصديق رضي الله عنه وبجوارها سودة بنت زمعة ، ولم يمر عام بعد على بنائه بعائشة - رضوان الله عليها - وهو يشعر أنه ليس بمقام الصديق ، وأن حفصة ليست بمقام عائشة ، فقد جاء جبريل بعائشة - رضى الله عنها - بسرقة من حرير ليزوجه إياها كما رآها فى المنام رضي الله عنه ، ومضى شاكياً لحبيبه المصطفى ، صد أعز حبيبين له بعد رسول الله رضي الله عنه عن الزواج من حفصة ، وكانت المفاجأة الحالدة عنده ، والتي أقرت عينه . يحدثنا عنها فيقول :

( لما توفي خنيس بن حذافة ، عرضت حفصة على عثمان فأعرض عنى ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، ألا تعجب من عثمان ! إنى عرضت عليه حفصة فأعرض عنى ، فقال رسول الله ﷺ : « قد زوج الله عثمان خيراً من ابنته ، وزوج ابنته خيراً من عثمان » ، قالا : وكان عمر عرض حفصة على عثمان متوفى رقية بنت النبي رضي الله عنه وعثمان يومئذ يريد أم كلثوم بنت النبي رضي الله عنه ، فأعرض عثمان عن عمر لذلك ، فتزوج رسول الله حفصة ، وزوج أم كلثوم من عثمان بن عفان) <sup>(٢)</sup> .

لقد مسح - عليه الصلاة والسلام - جراح حبيبيه : عمر ، وعثمان ، فزوج عثمان بعنته من أم كلثوم ، وأكرم حفصة - رضى الله عنها - بزواجه منها ، وبذلك أصبح رجالات الإسلام الأربع ذوى قربة وثيقة بالقائد الأعظم رضي الله عنه ، فقد زوج ابنته لعلى وعثمان ، وتزوج ابته الصديق والفاروق .

إنه مجتمع يعيش قضية هذا الدين ، ولن يرتفع إلى عظمة هذه القضية إلا من تربى في بيت هذه القمم الشامخة ، فكان هذا التلاميذ العظيم في أعلى قياداته ، وكانت أفراد المسلمين متالية . ففي جمادى الآخرة تم زواج عثمان رضي الله عنه من أم كلثوم ، وفي

(٢) المصدر نفسه / ٨ / ٨٣ .

(١) الطبقات الكبرى لأبن سعد / ٨ / ٨٢ .

شعبان تم زواج حفصة من رسول الله ﷺ . كما روى ابن سعد : ( تزوج رسول الله ﷺ حفصة في شعبان على رأس ثلاثين شهراً قبل أحد )<sup>(١)</sup> . وهذه أم كلثوم بنت سيد الخلق - رضي الله عنها - والتي عاشت محنـة الدعـوة مـنذ أيامها الأولى .

أم كلثوم بنت رسول الله ، وأمها خديجة بنت خويلد . . . تزوجها عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب قبل النبوة ، فلما بُعث رسول الله ﷺ وأنزل الله : «تَبَّأْتِ يَدَا أَبْيَأْ لَهَبٍ . . . هُ» (٢) قال له أبوه أبو لهب : رأسى من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته ، ففارقها ولم يكن قد دخل بها ، فلم تزل بمكة مع رسول الله وأسلمت حين أسلمت أمها ، وبايعت رسول الله مع أخواتها حين بايعه النساء ، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله ، وخرجت مع عيال رسول الله ﷺ إلى المدينة فلم تزل بها ، فلما توفيت رقية بنت رسول الله ﷺ خلف عثمان بن عفان على أم كلثوم بنت رسول الله وكانت بكرًا، وذلك في شهر ربیع الأول سنة ثلاثة من الهجرة ، وأدخلت عليه في هذه السنة في جمادی الآخرة ، فلم تزل عنده إلى أن ماتت ولم تلد له شيئاً . وماتت في شعبان سنة تسع من الهجرة . فقال رسول الله ﷺ : «لَوْ كُنْ عَشْرًا لَرَوْجَتْهُنَّ عُثْمَانَ» (٣) . إنهمما نموذجتان خالستان نسائيتان ، احتفت المدينة بزواجهما العظيم .

أم كلثوم - رضي الله عنها - التي طلقت من عدو الله أذىً وحقداً . فصبرت واحتسبت ، وتابعت طريقها مهاجرة مع المهاجرات تعيش للدعوة ، وفي الدعوة ، وتحيا في أعظم بيت أشرقت عليه الشمس بعد بيت الله تعالى ، تتلقى منه التربية ، والعناية والرعاية ، والتوجيه .

وحفصة - رضي الله عنها - التي افتتحت حياتها بالإسلام ، ومضت مهاجرة إلى الجبنة مع زوجها خنيس بن حذافة السهمي رضي الله عنه وذاقت آلام الغربة والوحدة والوحشة ، وفارقت أباها الذي كان ألد أعداء الإسلام ، وعادت لتراثه أعظم رجالاته ، وتضي في هجرتها الثانية إلى المدينة ، وترى أن قول القائل قد صدق فيها :

**فالقلت عصاها واستقر بها النوى** كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وأن لها أن تفرغ إلى سعادتها وبيتها وزوجها ، وعاشت أفراح بدر كما عاشها

(٢) سورة المسد .

• آرٹ / آرٹیسٹ اکٹوبر 2011

(٣) الطلاقان الكري لام سنه ٢٧ / ٨

ال المسلمين ، لكنها اللحظة الخامسة التي قدرَ الله تعالى عليها الترمل ، فيترى زوجها متأثراً بجراحه في بدر ، وتبقي وحيدة في هذا الوجود لترى كرامة الله تعالى وقد سبقت إليها ، فتغمر في أعظم نعمة بعد أن عانت أعظم محنة وتتضم لليت النبوى بجوار عائشة - رضى الله عنها - وتصبح زوجاً لسيد الخلق - صلوات الله عليه .

وكانت أفراح رمضان في المسلمين ، وذكرى بدر وانتصاراتها تهل عليهم ، ليحمل شوال في أجوانه الخطوب العظام بعد رمضان ، ف تكون محنة أحد بعد هذا العام السعيد .

## المدينة قبل أحد<sup>(١)</sup>

وخرجت قريش وهم ثلاثة آلاف بن ضوى إليهم ، وكان فيهم من ثقيف مائة رجل ، وخرجوا بعدة وسلاط كثير ، وقادوا مائتي فرس ، وكان فيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير ، فلما أجمعوا السير كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً وختمه ، واستأجر رجالاً من بنى غفار ، واشتربط عليه أن يسير ثلاثة إلى رسول الله ﷺ ، يخبره أن قريشاً قد أجمعت المسير إليك ، فما كنت صانعاً إذا حلوا بك فاصنعني ، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف ، وقادوا مائتي فرس ، وفيهم سبعمائة دارع ، وثلاثة ألف بعير وأوعبوا من السلاح ، فقدم الغفارى فلم يجد رسول الله ﷺ بالمدينة ، وووجهه بقباء؛ فخرج حتى يجد رسول الله ﷺ على باب مسجد قباء يركب حماره ، فدفع إليه الكتاب ، فقرأه عليه أبي بن كعب ، واستكتم أيّاً ما فيه ، فدخل منزل سعد بن الربيع فقال : في البيت أحد ؟ فقال سعد : لا فتكلم بحاجتك ، فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب ، وجعل سعد يقول : يا رسول الله ، إنّي لارجو أن يكون في ذلك خير ، وقد أرجفت يهود المدينة والمناقفون وقالوا : ما جاء محمداً شيء يحبه ، فانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، واستكتم سعداً الخبر ، فلما خرج رسول الله ﷺ خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه فقالت : ما قال لك رسول الله ؟ فقال : ما لك وذلك ؟ لا أمّ لك ؟ قالت : قد كنت أسمع عليك ، وأخبرت سعداً الخبر ، فاسترجع سعد وقال : لا أراك تستمعين علينا وأنا أقول لرسول الله ﷺ : تكلم بحاجتك ؟ ثم أخذ يجمع ليتها<sup>(٢)</sup> ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله ﷺ بالمسير وقد بلحت<sup>(٣)</sup> ، فقال : يا رسول الله إن امرأتي سالتني عما قلت . فكتمتها ، فقالت : قد سمعت قول رسول الله ﷺ ، فجاءت بالحديث كله . فخشيت يا رسول الله أن يظهر من ذلك شيء ، فتظنن أنّي أفشيت سرك ، فقال رسول الله ﷺ : « خلّ سبيلاً » .

وشاع الخبر في الناس بمسير قريش ، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر من خزاعة ، ساروا من مكة أربعاء ، فوافوا قريشاً وقد عسروا بذى طوى ، فأخبروا رسول الله ﷺ الخبر ، ثم انصرفوا فوجدوا قريشاً يبطن رابع ، فنكبا عن قريش ،

(١) تحدثنا في (المنهج التربوي للسيرة النبوية - التربية الجهادية ، الجزء الثاني ، بشكل واف ومستفيض عن غزوة أحد من خلال آيات آل عمران ، وأما هذه السرايا التي تستعرضها هنا فقد كان الحديث مقتضياً عنها هناك ، وناقشه هنا تفصيلاً ، وعرضًا بجواب آخر تناسب مع الهدف من هذا الكتاب) .

(٢) ليتها : نحرها وموضع القلادة من الصدر . (٣) بلحت : انقطعت من الإعياء .

ورابع على ليالٍ من المدينة .

وكان أبو عامر الفاسق قد خرج في خمسين رجلاً من أوس الله، حتى قدم بهم مكة حين قدم النبي ﷺ المدينة ، فاقام مع قريش ، وكان دعا قومه فقال لهم : إن محمداً ظاهر ، فاخرجوا بنا إلى قوم نوازدهم ، فخرج إلى قريش يحرضها ، ويعلمها أنها على الحق ، وما جاء به محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر ، ولم يسر معها ، فلما خرجت قريش إلى أحد سار معها ، وكان يقول لقريش : إنني لو قدمت على قومي لم يختلف عليكم منهم رجلان ، وهؤلاء معى نفر من قومي وهم خمسون رجلاً . فصدقوه بما قال ، وطمعوا بنصره ... وخرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة ، حتى إذا كان بأدنى العرض<sup>(۱)</sup> إذا طلعة خيل المشركين عشرة أفراس ، فركضوا في أثره فوقق لهم على نشر<sup>(۲)</sup> من الحرة ، فراشقهم بالنبل مرة وبالحجارة مرة حتى انكشفوا عنه ، فلما ولأوا جاء إلى مزرعته بأدنى العرض ، فاستخرج سيفاً كان له ، ودرع حديد كانا دفنا بالمزرعة ، فخرج بهما يعدو حتى أتى بني عبد الأشهل ، ف الخبر قومه بما لقى منهم ، وكان مقدمهم يوم الخميس خمس ليالٍ خلون من شوال ، وكانت الواقعة يوم السبت لسبعين ليالٍ خلون من شوال .

وباتت وجوه الأوس والخزرج : سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، في عدة ليلة الجمعة ، عليهم السلاح في المسجد بباب النبي ﷺ خوفاً من بيات المشركين ، وحرست المدينة تلك الليلة حتى أصبحوا ، ورأى رسول الله ﷺ رؤيا ليلة الجمعة ، فلما أصبح رسول الله ﷺ ، واجتمع المسلمين خطب .

فعن محمود بن لبيد قال : ظهر النبي ﷺ على المنبر ، فحمد الله وأتني عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، إنني رأيت في منامي رؤيا ، رأيت كأني في درع حصينة ، ورأيت كأن سيفي ذا الفقار انقض من عند ظبيته<sup>(۳)</sup> ، ورأيت بقرًا تذبح ، ورأيت كأني مردف ك بشًا » فقال الناس : يا رسول الله : فما أولتها ؟ قال : « أما الدرع الحصينة فالمدينة ، فامكثوا فيها ، وأما انقسام سيفي من عند ظبيته ، فقصبة في نفسي ، وأما البقر المذبح ، فقتلى في أصحابي ، وأما مردف ك بشًا ، فكبش الكتبية نقتله إن شاء الله ».

وعن ابن عباس يقول : قال رسول الله ﷺ : « وأما انقسام سيفي ، فقتل رجل من أهل بيتي » .

(۱) العرض ، أو العريض : ناحية من المدينة من طرف حرة واقم شملها اليوم العمران ما زالت معروفة .

(۲) نشر : مرتفع .

(۳) الظبة - بظاء مضمومة - حد السيف ، وجمعه : ظبات .

وعن المسور بن مخرمة قال : قال النبي ﷺ : « ورأيت في سيفي فلاً (١) فكرهته »  
 فهو الذي أصاب وجهه ﷺ .

وقال النبي ﷺ : « أشيروا على أيها الناس » ورأى رسول الله ﷺ إلا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ... فقام عبد الله بن أبي فقال : يا رسول الله ، كنا نقاتل في الجاهلية فيها ، ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي ، ونجعل معهم الحجارة ، والله لربما مكث الولدان شهراً ينتظرون الحجارة إعداداً لعدونا ، ونشيك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، وترمى المرأة والصبي من فوق الصياصي والأطام ، ونقاتل بأسياقنا في السكك ، يا رسول الله ، إن مدتيتنا عذراء ما فضّت علينا قط ، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصحابنا ، وما دخل علينا إلا أصحابنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين ، لم ينالوا خيراً ، يا رسول الله أطعني في هذا الأمر ، واعلم أنّي ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم ، فهم كانوا أهل الرأي والتجربة .

وكان رأى رسول الله ﷺ مع رأى ابن أبي ، وكان ذلك رأى الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ، فقال رسول الله ﷺ : « امكثوا في المدينة ، واجعلوا النساء والذراري في الأطام ، فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة ، فعن أعلم بها منهم ، وارموا من فوق الصياصي والأطام » .

فقال في بيان أحداث - لم يشهدوا بدرًا وطلبوا من رسول الله ﷺ الخروج إلى عدوهم ورغبا في الشهادة ، وأحبوا لقاء العدو - : اخرج بنا إلى عدونا .

وقال رجال من أهل السن وأهل النية ، منهم حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عبادة ، والنعمان بن مالك بن ثعلبة ، في غيرهم من الأوس والخزرج : إننا نخشى يارسول الله ، أن يظنّ عدونا أنا كرهنا الخروج إليه جيناً عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت في بدر ثلاثة رجال فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، وقد كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعوا الله به ، وقد ساقه الله إلينا في ساحتنا .

ورسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم يتسامون كأنهم الفحول ، وقال مالك بن سنان ( أبو أبي سعيد الخدري ) : يا رسول الله ، نحن والله بين إحدى الحسينين : إما أن يظفرنا الله بهم وهذا الذي نريد ، فيذلهم الله لنا ف تكون وقعة بدر ، فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والآخر يا رسول الله :

(١) الفل : الكسر .

يرزقنا الله الشهادة، والله يا رسول الله ما أبالي أيهما كان ؟ إن كلامه الخير !

فلم يبلغنا أن رسول الله رجع إلـهـ قولاً ، وسكت . وقال حمزة بن عبد المطلب  
والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج  
المدينة ، ( وكان يقال : كان حمزة يوم الجمعة صائمًا ، ويوم السبت صائمًا ، فلا فاهم  
وهو صائم ) قالوا : وقال النعمان بن مالك : يا رسول الله ، أنا أشهد أن البقر المذبح  
قتلى من أصحابك ، وإنى منهم فلم تحرمنا الجنة ؟ فوالذى لا إله إلا هو لا دخلنها .  
 فقال رسول الله ﷺ : « صدقت » فاستشهد يومئذ . وقال إيساس بن أوس بن  
عتيك : يا رسول الله نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبح ، نرجو يا رسول الله أن  
تذبح في القوم ويدبح فينا . فنصير إلى الجنة ، ويسيرون إلى النار ، مع أنى يا رسول  
الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومهم فيقولون : حضرنا محمداً في صياصي يترب  
وأطامها فيكون هذا جرأة لقريش ، وقد وطئوا سعنـا ، وقد كـنا يا رسول الله في  
جهـليـتنا والـعـرب يـاتـونـا ولا يـطـمـعونـ بهـذاـ ماـ حتـىـ نـخـرـجـ إـلـيـهـمـ يـأسـيـافـناـ حتـىـ نـذـبـهمـ عـناـ  
فتحـنـ الـيـوـمـ أـحـقـ ؟ إذـ أـيـدـنـاـ اللهـ بـكـ ، وـعـرـفـنـاـ مـصـيـافـنـاـ ، لاـ نـحـصـرـ أـنـفـسـنـاـ فـيـ بـيوـتـنـاـ .

وقام خيثمة - أبو سعد بن خيثمة - فقال: إن قريشاً مكثت حولاً تجتمع الجموع وستجلب العرب في بواديها ومن تبعها من أحبابها ، ثم جاؤونا وقد قادوا الخيل، وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصروننا في بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرين لم يكلموا ، فيجرئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا ، ويصيروا أطرافتنا ، ويضعوا العيون والأرصاد علينا مع ما صنعوا في حروثنا ، ويجترى علينا العرب حتى يطمعوا فيما إذا رأوا لم نخرج إليهم ، فتنبهم عن جوارنا ، وعسى الله أن يظفرنا بهم ؛ فتلك عادة الله عندنا ، أو تكون الأخرى فهي الشهادة ، لقد أخطأتني وقعة بدر ، وقد كنت عليها حريضاً ، لقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني في الخروج ، فخرج سهمه فرزق الشهادة ، وقد كنت حريضاً على الشهادة ، وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول : الحق بنا ترافتنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربّي حقاً ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشفتاً إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سنّي ، ورق عظمي ، وأحييت لقاء ربّي ، فادع الله لي يا رسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقته سعد في الجنة . فدعاه عليه السلام فقتل في أحد شهيداً . وقالوا: قال أنس بن قتادة : يا رسول الله ، هي إحدى الحسينين : إما الشهادة ، وإما الضرر والغنية في قتلهم ، فقال رسول الله عليه السلام : «إني أخاف عليكم الهزيمة» .

قالوا : فلما أبوا إلا الخروج صلى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس ، ثم وعظ الناس

وأمرهم بالجذ والجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، ففرح الناس بذلك؛ حيث أعلمهم رسول الله ﷺ بالشخصوص إلى عددهم ، وكروه ذلك المخرج بشر كثير من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم .

ثم صلى رسول الله ﷺ العصر بالناس ، وقد حشد الناس ، وحضر أهل العوالى ، ورفعوا النساء فى الآطام ، فحضرت بنو عمرو بن عوف ولفها ، والنبيت ولفها ، وتلبسوا السلاح ، فدخل رسول الله ﷺ ، ودخل معه أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - فعمماه ولبساه ، وصُفَّ الناس له ما بين حجرته إلى منبره يتظرون خروجه . ف جاءهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا : قلتم لرسول الله ﷺ ما قلتم ، واستكرهتموه على الخروج ، والأمر ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه . فما أمركم به فافعلوا ، وما رأيتم له فيه هوى أو رأى فأطيعوه .

فيينا القوم على ذلك الأمر . وبعض القوم يقول : القول ما قال سعد ! وبعضهم على بصيرة على الشخصوص ، وبعضهم للخروج كاره ؛ إذ خرج رسول الله ﷺ قد لبس لامته ، وقد لبس الدرع فأظهرها وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف من أدم . . . واعتم ، وتقلد السيف ، فلما خرج رسول الله ﷺ ندموا جميعاً على ما صنعوا ، وقال الذين يلحون على رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك ، والأمر إلى الله ثم إليك ، فقال : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبitem ، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . . . انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم » .

وكان مالك بن عمرو النجاري مات يوم الجمعة ، فلما دخل رسول الله ﷺ فلبس لامته ثم خرج - وهو موضوع موضع الجنائز - صلى عليه ، ثم دعا بذاته فركب إلى أحد .

ثم دعا رسول الله ﷺ ثلاثة أرماح ، فعقد ثلاثة ألوية . فدفع لواء الأول : إلى أسيد بن حضير ، ودفع لواء الخزرج : إلى الحباب بن المنذر - ويقال : إلى سعد بن عبادة ، ودفع لواء المهاجرين : إلى علي بن أبي طالب - عليه السلام - ويقال : إلى مصعب بن عمير - ثم دعا النبي ﷺ بفرسه فركبه ، وأخذ النبي ﷺ القوس ، وأخذ قناة بيده - زج الرمح يومئذ من شبه<sup>(١)</sup> - وال المسلمين متلبسون السلاح قد أظهروا الدروع ،

(١) الشبه : ضرب من النحاس .

فيهم مائة دارع ، فلما ركب رسول الله ﷺ خرج السعدان أمامه يدعوان : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، كل واحد منها دارع ، والناس عن يمينه وعن شماله حتى سلك على البدائع<sup>(١)</sup> ، ثم زفاف الحسى<sup>(٢)</sup> ، حتى أتى الشيixinين<sup>(٣)</sup> ، وهما أطمان... حتى انتهى إلى رأس الثنية ، التفت فنظر إلى كتبية خشنة لها زجل خلفه . فقال : « ما هذه ؟ قالوا : يا رسول الله ، هؤلاء حلفاء ابن أبي من يهود . فقال رسول الله ﷺ : « لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك » ، ومضى رسول الله ﷺ حتى أتى الشيixinين فعسكر فيه ، وعرض عليه غلمان : عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، والنعمان بن بشير ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وأبيه بن طهير ، وعراة بن أوس ، وأبو سعيد الخدري ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، فردهم ، قال رافع ابن خديج ، فقال ظهير بن رافع : يا رسول الله ، إنه رام ، وجعلت أتطاول على خفاف لى . فأجازني رسول الله ﷺ . فلما أجازني قال سمرة بن جندب لربيه مرى بن سنان الحارثي وهو زوج أمه : يا أبا ، أجاز رسول الله رافع بن خديج وردني ، وأنا أصرع رافع بن خديج ، فقال مرى بن سنان : يا رسول الله ردت ابن وأجزت رافع بن خديج وابني يصرعه . فقال رسول الله ﷺ : « تصارعا ! » فصرع سمرة رافعاً فأجازه رسول الله ﷺ ، وكانت أمه امرأة من بني أسد .

وأقبل ابن أبي فنزل ناحية من العسكر ، فجعل حلفاؤه ومن معه من المنافقين يقولون لابن أبي : أشرت عليه بالرأي ونصحته ، وأنخبرته أن هذا رأي من مضى من آبائك ، وكان ذلك رأيه مع رأيك فأبى أن يقبله ، وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه ، فصادفوا من أبى نفاقاً وغشاً .

فيات رسول الله ﷺ بالشيixinين ، وبات ابن أبي في أصحابه ، وفرغ رسول الله ﷺ من عرض أصحابه ، وغابت الشمس فاذن بلال بالغرب ، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ، ثم أذن بالعشاء ، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ، ورسول الله ﷺ نازل في بنى النجار ، واستعمل رسول الله ﷺ على الحرس : محمد بن مسلمة في خمسين رجلاً يطوفون بالعسكر حتى أدليع رسول الله ﷺ ... ونام حتى أدليع ، فلما كان من السحر قال رسول الله ﷺ : « أين الأدلة ، من رجل يدلنا على الطريق ، ويخرجنا على القوم من كثب؟ » . فقام أبو خيثمة الحارثي فقال : أنا يا رسول الله ... فخرج رسول الله ﷺ فركب فرسه ، وسلك به في بنى حارثة ، ثم أخذ في الأموال حتى يمر

(١) البدائع : موضع من ديار خصم .

(٢) الحسى : يطن الرمة .

(٣) الشيixinان : موضع بين المدينة وجبل أحد على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أحد .

بحائط مربع بن قيظى ، وكان أعمى البصر منافقاً . فلما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه حائطه قام يحشى التراب فى وجوههم وجعل يقول : إن كنت رسول الله ﷺ فلا تدخل حائطي ، فيضرره سعد بن زيد الأشهلى بقوس فى يده ، فشجه فى رأسه ، فسال الدم ، فغضب له بعض بنى حارثة ممن هو على مثل رأيه فقال : هى عداوتكم يا بنى عبد الأشهل ، لا تدعوها أبداً لنا ، فقال أسيد بن حضير : لا والله ولكته نفاقكم . والله لولا أنى لا أدرى ما يوافق النبي ﷺ من ذلك لضررت عنقه ، وعنق من هو على مثل رأيه ! فأسكنتوا .

ولبس رسول الله ﷺ من الشيفيين درعاً واحدة حتى انتهى إلى أحد ، فلبس درعاً آخرى ومغفرأ ، وبيبة فوق المغفر ، فلما نهض رسول الله ﷺ من الشيفيين ، زحف المشركون على تعبية حتى انتهوا إلى موضع أرض بنى عامر اليوم ، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أحد - إلى موضع القنطرة اليوم - جاءه وقد حانت الصلاة وهو يرى المشركين أمر بلاً فاذن واقم وصلى بأصحابه الصبح صفوياً وارتحل ابن أبي من ذلك المكان فى كتبية كان هيق<sup>(١)</sup> يقدمهم ، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال : أذركم الله دينكم ونبيكم ، وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم ، فقال ابن أبي :

ما أرى أن يكون قتال ، ولئن أطعنتى يا أبو جابر لترجعن ، فإن أهل الرأى والمحجى قد رجعوا ، ونحن ناصروه فى مديتها ، وقد خالفنا وأشارت عليه بالرأى ، فابى إلا طواعية الغلمان . فلما أبى على عبد الله أن يرجع ، ودخلوا أزقة المدينة . قال لهم أبو جابر : أبعدكم الله ، إن الله سيغنى النبي المؤمنين عن نصركم ! فانصرف ابن أبي وهو يقول :

أيعصينى ويطيع الولدان ؟ ! وانصرف عبد الله بن عمرو بن حرام يudo حتى لحق برسول الله ﷺ وهو يسوى الصفوف<sup>(٢)</sup> .

وعند البيهقي فى الدلائل من روایة موسى بن عقبة :

فخرج رسول الله ﷺ فسلكوا على البدائع وهم ألف رجل ، والمشركون ثلاثة آلاف ، فمضى رسول الله ﷺ حتى نزل بأحد ، ورجع عنه عبد الله بن أبي بن سلول فى ثلاثة ، فبقى رسول الله ﷺ فى سبع مائة فقال كعب بن مالك الانصارى :

(٢) المغارى للواقدى ، مقتطفات من ١ / ٢٠٣ - ٢١٩ .

(١) البهـى : الذكر من العام .

سوانا لقد ساروا بليل فاقشعوا  
على هالك عينا لنا الدهر تدمع  
ثلاث مثين أن كثروا وأربع  
غمام هراقت ماءها الريح تقلع  
أسود على لحم بيشه ظلّع

إنا بهذا الجذع لو كان أهله  
جلاد على ريب الحوادث لا ترى  
ثلاثة آلاف ونحن نصبة<sup>(١)</sup>  
فراحوا سراعاً موجفين كأنهم  
ورحانا وأخرانا بطاء كأننا

فلما رجع عبد الله بن أبي بالثلاثمائة ، سقط في أيدي الطائفتين من المسلمين ، وهما أن تقتلوا<sup>(٢)</sup> وهو بن حارثة ، وبنو سلمة كما يقال ، وصف رسول الله ﷺ المسلمين بأصل أحد ، وصف المشركون بالسبحة التي قبل أحد ، وتبع الفريقيان للقتال<sup>(٣)</sup> .

#### وعند الصالحي في السيرة الشامية :

ما بلغ رسول الله ﷺ الشوط<sup>(٤)</sup> انخزل عبد الله بن أبي بثلث الناس كافة كأنه هيق  
فقال : أطاع الولدان ومن لا رأى له وعصانى ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس  
ها هنا ! فرجع من اتبعه من أهل النفاق والريب ، وتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام  
يقول : يا قوم أذركم الله الا تخذلوا نبيكم ، عندما حضر عدوهم ، يا قوم تعالوا  
فقاتلوا في سبيل الله او ادفعوا ، فقالوا : لو نعلم قتالاً ما أسلمناكم ، لا نرى أن  
يكون قتال ، ولنن أطعتنا لترجعن معنا ، فلما استعصوا عليه ، وأبوا إلا الانصراف قال :  
أعدكم الله ، أعداء الله ، فسيغنى الله تعالى نبيه عنكم . وأنزل الله تعالى : « مَا كَانَ  
اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْرَ مِنَ الطَّيْبِ »<sup>(٥)</sup> قال مجاهد : ميزهم  
يوم أحد وهم المرادون بقوله تعالى : « ... وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقَبْلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتَلُوا  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْهَبُوا قَاتَلُوا لَوْ نَعْلَمْ قَاتَلًا لَا تَعْنَاكُمْ هُمُ الْكُفَّارُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُهُمْ مِنْهُمْ لِلْمِيَانِ يَقُولُونَ  
بِأَنَّفُوا هُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ »<sup>(٦)</sup> .

وذكر عروة وموسى بن عقبة أن بنى سلمة - بكسر اللام - وبنى حارثة لما رجع

(١) النصبة : الخيار من القوم .

(٢) رغم ورودها في أكثر من مرجع ( تقتلا ) فاعتتقد أنها تصحيف عن كلمة ( تفشل ) كما هو النص القرآني  
« ... إِذْ هُمْ طَائِقَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلُوا » .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢٠٨/٣ ، ٢٠٩ وهي من روایة موسى بن عقبة .

(٤) الشوط : مكانها بين وادي قنة وبين المدينة من شرقى السبحة .

(٥) آل عمران / ١٧٩ . (٦) آل عمران / ١٦٧ .

عبد الله بن أبي سقط في أيديهما وهما أن يقتلا، فنبههما الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى:  
﴿إِذْ هَمَّ طَائِفَانٌ مِّنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ (١).

وروى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والشیخان ، والبیهقی عن جابر بن عبد الله قال : فینا نزلت هذه في بنی حارثة وبنی سلمة : « إذ هم طائفتان منکم أن شفلا » . وما سمعنا أنها لم تنزل ؛ لقول الله تعالى : « والله ولیهمما » .

وروى الشیخان عن زید بن ثابت ، وابن إسحاق عن البراء بن عازب - رضى الله عنهما - قالا: لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد خرج معه باناس ، فرجعوا . فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقين ، فقالت فرقة: نقتلهم ، وقالت فرقة: لا نقتلهم . فأنزل الله تعالى : «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَّافِقِينَ فَتَقْتِلُنَّهُ أَرْكَسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا» (٢) ردّهم إلى كفرهم بما كسبوا بأعمالهم فقال رسول الله ﷺ : «إنها طيبة وإنها تنفي الحديث كما تنفي النار خيث الفضة » .

وذكر الزهرى أن الانصار استأذنوا رسول الله ﷺ : لما رجع ابن أبي فى الاستعنة بحلفائهم من يهود المدينة فقال رسول الله ﷺ : « لا حاجة لنا بهم » قال الجمهور : بقى رسول الله ﷺ فى سبعمائة وفرسه ، وفرسٍ لأبي بردة ، وقال ابن عقبة : لم يكن مع المسلمين فرس ، ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، واستقبل المدينة ، وجعل عينين ، الجبل عن يمينه ، وصف المسلمون بأصل أحد ، وحانَت الصلاة يوم السبت ، وصلى رسول الله ﷺ بأصحابه الصبح صفوًا <sup>(٣)</sup> .

قال محمد بن عمرو الأسلمي ، ثم قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال : «أيها الناس، أوصيكم بما أوصاني الله تعالى في كتابه من العمل بطاعته والتناهى عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه له على الصبر واليقين ، والحمد والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد ، شديد كربه ، قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله رشده ، فإن الله مع من أطاعه ، وإن الشيطان مع من عصاه ، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذي أمركم به ، فإني حريص على رشدمكم ، فإن الاختلاف والتنازع والتسيط من أمر العجز والضعف مما

. ٨٨ / النساء (٢)

(١) آل عمران / ١٢٢ .  
 (٢) سما، الهدى والرشاد للصالحي / ٤، ٢٨٠، ٢٨١ .

لا يحب الله ، ولا يعطي عليه النصر ولا الظفر ، يا أيها الناس جُدد في صدرى أنَّ من كان على حرام فرق الله بينه وبينه ، ومن رغب له عنه غفر الله ذنبه ، ومن صلَّى علىَ صلَّى الله عليه وملائكته عشرًا ، ومن أحسن من مسلم أو كافر وقع أجره على الله في عاجل دنياه أو آجل آخرته ، ومن كان يؤمِّن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا صبياً أو امرأة أو مريضاً أو عبداً ملوكاً ، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غنى حميد ، ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه ، وإنَّه قد نَفَثَ في روْعِي الروح الأمين ، أنه لئن ثُمِّوت نفس حتى تستوْفِي أقصى رزقها لا ينقص منه شيء وإنْ أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم وأجملوا في الرزق ، ولا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوا بمعصية ربكم ، فإنه لا يُقدر على ما عنده إلا بطاعته ، قد بين لكم الحلال والحرام ، غير أنَّ بينهما شبهًا من الامر لم يعلمهَا كثير من الناس إلا من عصم ، فمن تركها حفظ عرضه ودينه ، ومن وقع فيها كان كالراعي إلى جنب الحمى أو شُكَّ أن يقع فيه ، وليس ملك إلا وله حمى ، إلا وإن حمى الله محارمه ، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعى عليه سائر الجسد ». والسلام عليكم .

حدَثَنِي ابن أبي سِيرَة، عن خالد بن رياح عن المطلب بن عبد الله قال : إنَّ أول من أُشْبِحَ الحَرَبَ بِيَنْهُمْ أَبُو عَامِرٍ ، طَلَعَ فِي خَمْسِينَ مِنْ قَوْمِهِ عَبِيدِ قَرِيشٍ ، فَنَادَى أَبُو عَامِرَ - وَهُوَ عَبْدُ عَمْرُو - : يَا أَكَلْمَنْ ، أَنَا أَبُو عَامِرٍ ! فَقَالُوا : لَا مَرْحَبًا بِكَ وَلَا أَهْلًا يَا فَاسِقَ ، فَقَالَ : لَقَدْ أَصَابَ قَوْمِي بَعْدِ شَرٍ ! وَمَعَهُ عَبِيدٌ أَهْلُ مَكَّةَ فَتَرَامَوْا بِالْحَجَّارَةِ هُمْ وَالْمُسْلِمُونَ حَتَّى تَرَاضَخُوا بِهَا سَاعَةً ، حَتَّى وَلَى أَبُو عَامِرٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَدَعَا طَلْحَةَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ إِلَى الْبَرَازِ ، وَيَقُولُ : إِنَّ عَبِيدَ لَمْ يَقْاتِلُوا ، وَأَمْرُوهُمْ بِحَفْظِ عَسْكُرِهِمْ<sup>(١)</sup> .

نَحْنُ أَمَامُ مَرْحَلَةٍ جَدِيدَةٍ كُلُّ الْجَدَةِ لَمْ تَظْهُرْ آثَارُهَا تَعْمَلًا إِلَّا فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ ابْتَدَأَتْ بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ ، هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ هِيَ : ظَهُورُ النِّفَاقِ الَّذِي اسْتَشْرَى خَطْرُهُ فِي قَلْبِ الْمُجَتَمِعِ الإِسْلَامِيِّ ، وَإِنْ كَانَ خَلَالَ الْعَامِ الْفَاتِحِ لَمْ يَظْهُرْ هَذَا الْخَطَرُ دَاخِلَ الْمُجَتَمِعِ الإِسْلَامِيِّ إِلَّا بِشَكْلٍ جُزْئِيٍّ مِنْ خَلَالِ مَوْقِفِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فِي غَزْوَةِ بَنِي قَيْنَاعَ ، غَيْرُ أَنْ حَجْمَهُ وَامْتَدَادُهُ وَتَغْلِفَلَهُ لَمْ يَبْرُزْ حَادَةً جَلِيلَةً وَاضْبَحَةً كَمَا بَرَزَتْ فِي أَحَدٍ ، وَبَرَزَ ثُلُّهُ هَذَا الْحَجْمُ وَضَخَامَتْهُ ، حِينَ وَقَعَ الْخَطَرُ ، وَوَصَلَ الْعَدُوُّ إِلَى حَدُودِ الْمَدِينَةِ ، حِيثُ كَانَ عَلَى النِّفَاقِ وَحْزَبِ النِّفَاقِ أَنْ يَتَحَرَّكَ بِكُلِّ طَاقَتِهِ ، لِيمَدِ الْعَدُوَّ فِي الْلَّهُوَّةِ الْخَامِسَةِ ، وَيَقْوِضَ الْمُجَتَمِعِ الإِسْلَامِيِّ ، وَبِنَاءً عَلَى هَذِهِ النِّظَرَةِ ، فَسَبَدَ مَرْحَلَةً جَدِيدَةً

(١) المغارى للواقدى ٢٢١ / ١ - ٢٢٣ .

من التربية تناسب ونجمون النفاق ، ويزور معظم أشخاصه ورجالاته ، ونشهد في هذه التربية خطوطاً عريضة جديدة لمعالجة هذا الحزب وتفتيته واحتواه ، كما أن المستويات الإيمانية المفاوقة قد برزت على أعلى ما يكون ، وأوضاع ما يكون في هذه الغزوة ، ونشهد الصراع المستمر بين حزب الله وحزب النفاق في جزء ضعاف الإيمان لهذا الصف أو ذاك . إننا في هذه المرحلة نحتاج إلى كل جزئية فيها ، وكل خطة من خطط التربية النبوية العظيمة ؛ لأن النماذج التي توجد في مجتمعاتنا المعاصرة ، تبدو نسخاً مكررة من المافقين أو ضعاف الإيمان ، وهي أحوج ما تكون إلى التربية المستمرة على شرط وجود نماذج عالية قادرة على الجihad والسلوك الإسلامي الرفيع الذي تمثل به القدوة والأسوة لهذه المساحة العربية من النفوس ، ونستطيع أن نقول : إننا قد انتقلنا الآن جلياً في تاريخ السيرة من مرحلة : (السابقين الأولين) إلى مرحلة (الذين اتبعوهم بإحسان) وهي موضوع الجزء الثالث وما يليه من المنهج التربوي للسيرة النبوية في التربية القيادية ، وسنعالج بعد هذه التوطئة هذه المفاهيم على ضوء الواقع العملي للسيرة من خلال الأحداث والأشخاص المذكورين .

#### ١- تعبئة قريش للمواجهة :

تركنا الحديث في الفصل السابق عن جو المدينة التي واجهت كل محاولات العداء ، وتم غزو قريش في طريقها التجاري الجديد فأحكم الحصار الاقتصادي حولها . كان هذا الجلو هو الهدوء الذي يسبق العاصفة ، فقد كانت قريش تعد العدة لهجوم شامل صاعق ينهي الوجود الإسلامي للمدينة ، وووَضعت أرباح تجاراتها التي نجت كلها ، وفي رواية : رأسمالها وأرباحها – لتنفق في حرب محمد ﷺ ، ولم تكتف قريش في هذه الجولة الجديدة أن تكون وحدها في الساحة ، فهي لن تعنى أكثر من ألف رجل ، وقد هُزم الألف في بدر ، فاستطاعت بتخطيطها ودعایتها الضخمة أن تعنى ثلاثة أضعاف جيشها الذي عبّأته في بدر خلال عام كامل ، وكان كل جهدها منصبًا على دعوة أقرب المقربين لقريش وهم : عبد مناة بن كنانة .

( فلما أجمعوا السير قالوا : نسير في العرب فنستنصرهم ، فإن عبد مناة غير متخلفين عنا ، هم أوصل العرب لارحامنا )؛ لأن قريشاً يتنهى نسبهم عند النضر بن كنانة ، وهو قريش نفسه ، وأخوه عبد مناة بن كنانة الذي أُنجب بطوناً ضخمة كما في جمهرة أنساب العرب : ( ولد عبد مناة بن كنانة بكر بطْن ضخم ، وعامر بطْن ضخم ، ومرة بطْن ضخم ، فولد بكر بن عبد مناة لبْث بطْن ، والدَّلَل بطْن ، وضمْرة بطْن ،

والتربيع بطن . . . )<sup>(١)</sup> .

هؤلاء إذن: الحلف الجديد الذي انضم إلى قريش ، والحلف الثاني هم: الأحابيش كما في نص الرواية : ( فلما أجمعوا المسير قالوا : نسير في العرب فستنصرهم فإن عبد مناة غير متخلفين عنا ، هم أوصل العرب لآرحامنا ، من اتبعنا ومن الأحابيش ) .

وهؤلاء الأحابيش كذلك من فروع عبد مناة بن كنانة البعيدة ، وكما يذكر ابن حزم في الجمهرة .

وهؤلاء بنو الحارث بن عبد مناة ، هم بنو الرشد ، وكانوا يدعون بنو غُوي - وسماهم الرسول ﷺ بنى الرشد - وهم من بنى عوف بن الحارث بن عبد مناة ، ومنهم الشماخ ، وتييم ابنا عامر بن عوف بن الحارث بن عبد مناة ، عقد الشماخ حلف الأحابيش مع قريش ، وعقد تيم حلف القارة معهم ، والخليس بن علقمة سيد الأحابيش يوم أحد من ولد عامر بن عوف بن الحارث بن عبد مناة ، وعمرمة بنت علقمة التي رفعت اللواء يوم أحد لكتاف قريش من ولد عامر بن عوف بن الحارث بن عبد مناة.

فإذن هذان الخليدان هما اللذان انضما إلى قريش ، فأمكن تعيين ثلاثة آلاف هم ثلاثة أضعاف جيش بدر ، وانضم من ثقيف في الطائف مئة مثلث اشتراكاً رمزياً معنوياً لقريش ضد رسول الله ﷺ .

أما وزراء الإعلام ، وأبطال التعبئة . فكانوا أربعة من قريش هم : عمرو بن العاص ، وهبيرة بن أبي وهب ، وابن الزبعرى ، وأبو عزة الجمحى<sup>(٢)</sup> ، وثلاثة منهم أكبر شعراء قريش ، والذين قادوا الحرب الإعلامية ضد رسول الله ﷺ طيلة السنوات العشر ، وأما عمرو فلخصاته التي اشتهر بها في العرب ولدهاته الذي كان يضرب به المثل ، وقع اختيار قريش عليه ليكون أحد هؤلاء الأربع . ولا أدلى على نجاح مهمتهم من تعيين هذه الآلوف في الحرب ، وكان عمرو بن العاص ، وابن الزبعرى من بني سهم ، وهبيرة بن أبي وهب من بني مخزوم ، وأبو عزة من جمع .

يقول الواقدى : ( فاجتمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسيرون في العرب يدعونهم إلى نصرهم ، فبعثوا عمرو بن العاص ، وهبيرة بن أبي وهب ، وابن الزبعرى ، وأبا عزة الجمحى ، فأطاع النفر ، وأبى أبو عزة أن يسير ، وقال : منْ علىَ

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٨٠ .

(٢) وقدر الله أن يقع أبو عزة الجمحى أبئراً بين المسلمين بعد أحد ، فضررت عنقه ، حيث قال له عليه الصلاة والسلام : « لا تمسح عارضيك بمكة تقول : خدعت مهمنا مرتين » ، ثم أمر به عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

محمد يوم بدر ، ولم يمن على غيري ، وحلفت لا أظاهر عليه عدواً أبداً . فمشى إليه صفوان بن أمية فقال : اخرج ، فأبى . فقال : عاهدت محمداً يوم بدر لا أظاهر عليه عدواً أبداً ، وأنا أقى له بما عاهدته عليه ، منَّ علىَ ولم يمن على غيري حتى قتله أو أخذ منه القداء ، فقال له صفوان : اخرج معنا ، فإن تسلم أعطك من المال ما شئت ، وإن تُقتل كان عيالك مع عيالي ، فأبى أبو عزة حتى كان الغد جاءه صفوان بن أمية وجير بن مطعم ، فقال له صفوان الكلام الأول فأبى ، فقال جير : ما كنت أظن أن أعيش حتى يمشي إليك أبو وهب في أمر نابي عليه ! فأحفظه . فقال : فانا أخرج قال : فخرج في العرب يجمعها وهو يقول :

يا بني عبد مناة الرزام (١)  
أنتم حماة وأبوكم حام  
لا تسلموني لا يحل إسلام  
لا تدعوني نصركم بعد العام

قال : وخرج معه النفر ، فألّبوا العرب وجمعوها ، وبلغوا ثقيفاً فأوعبوا (٢) .  
ولابد أن نشير إلى قوة تأثير هذا الفريق الإعلامي الذي استطاع أن يجمع هذه الجموع رغم الثارات السابقة التي كانت بين قريش وكتانة . فالثابت أن قريشاً في بدر خافت أن تغادر مكة برجالتها ، فتنقض عليها كنانة من خلفها ، وتشتعل القتل فيها ، حتى جاءهم الشيطان بصورة سراقة بن مالك وطمأنهم كى يخرجوا ( فلما أجمعت قريش المسير ، ذكروا الذي بينهم وبين بكر من العداوة ، وخفافوهم على من تخلف ، وكان أشدتهم خوفاً : عتبة بن ربيعة فكان يقول : يا عشر قريش ، إنكم وإن ظفرتم بالذى تريدون ، فإننا لا نأمن على من تخلف ، إنما تخلف نساءً وذرية ، ومن لا طعم به فارتؤوا آراءكم ، فتصور لهم إيليس فى صورة سراقة بن جعشن المدبلي ) فقال : يا عشر قريش ، قد عرفتم شرفى ومكاني فى قومى ، أنا لكم جار أن تأتىكم كنانة بشيء تكرهونه ، فطابت نفس عتبة ، وقال أبو جهل : فما تريد ؟ فهذا سيد كنانة ، وهو لنا جار على من تخلف ، فقال عتبة : لا شيء ، أنا خارج (٣) .

فالانتقال بيني كنانة من خوف غزوها لقريش ، إلى أن تعين معها بضعفى أعدادها ، لا شك أمر يدل على مدى الجهد الدؤوب الذى بذلته قريش لهذه المواجهة ، وعبرية

(١) الرزام : جمع رازم وهو الذى يثبت فى مكانه لا يرحم ، أي: يثبتون ولا ينهرون .

(٢) المغارى للواقدى ٢٠١/٢ .

(٣) المغارى للواقدى ١/٣٧ ، ٣٨ . وهو الذى ذكره القرآن بالنص : « وَإِذْ نَزَّلْنَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غالبَ لَكُمْ يَوْمٌ مِّنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَنَادِ نَكَسَ عَنْ عَيْنِيهِ وَقَالَ إِنِّي بُرِيَّةٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَوَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » [ الأنفال : ٤٨ ] .

الفريق الإعلامي والسياسي الذي قادهم إلى هذه المواجهة .

ومع ذلك فالامر هين من خلال التعبئة الخارجية ، لكن الخطر من الثغرة الداخلية المفتوحة داخل المجتمع الإسلامي ، ( وكان أبو عامر الفاسق قد خرج في خمسين رجلاً من أوس الله حتى قدم بهم مكة ؛ حين قدم النبي ﷺ المدينة ، فأقام مع قريش وكان دعا قومه فقال لهم : إن محمدًا ظاهر فاخرجوه بما إلى قوم نوازدهم ، فخرج إلى قريش يعرضها ، ويعلمها أنها على الحق ، وما جاء به محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر فلم يسر معها ، فلما خرجت قريش إلى أحد سار معها ، وكان يقول لقريش : إنى لو قدمت على قومى لم يختلف عليكم منهم رجلان ، وهؤلاء معى نفر من قومى وهم خمسون رجلاً ، فصدقوه بما قال ، وطمعوا بنصره ) .

هذا هو جو التعبئة في قريش ، على قلب واحد ، وقرار واحد في المسير إلى محمد ﷺ ، ومعهم حلفاؤهم من بنى عبد مناة من كنانة ، ومعهم أبو عامر الفاسق من أوس الله من المدينة ، والذى سيحاول أن يشق الصف الإسلامي عند اللقاء ، ومعهم مائة من أبطال ثقيف وشجاعتها ، وكان هذا الرأى الموحد ، مختلف تماماً عما كان عليه وضعهم في بدر؛ بين كاره للخروج ، وراغب فيه ، ومتعدد فيه ، وانختلفت قياداتهم مرات قبل لقاء بدر .

وكانت المخابرات النبوية ترصد الحدث بدقة من قلب قريش ، والتى مثلها العباس ابن عبد المطلب رض حيث وافى الرسول ﷺ بالصورة كاملة ، كما جاءت الصورة من تقرير آخر قدمه وقد خزاعة الذين كانوا يتعاطفون مع المسلمين في المدينة ، فماذا فعل سيد الخلق أمام هذا الحدث ؟ استدعي أولاً أبي بن كعب فقرأ له الكتاب ، واستكتمه إيه ، واستشار سعد بن الربيع - أحد سادات الخزرج - واستكتمه الخبر ، وكاد أن يفشوا مضمونه عندما استمعت زوجة سعد له ، وكيف كان الدرس قاسياً لها من زوجها وجراها من لبها حتى أتى بها رسول الله ﷺ ليحكم فيها ، فأطلق رسول الله ﷺ سراحها ، بعد أن عرفت خطورة إفشاء هذا السر النبوى ، وفي يوم الخميس خمس خلون من شوال ، كانت طلائع الليل تقع أبواب المدينة .

وجمع رسول الله ﷺ أركان حرره من المهاجرين والأنصار ، وقصّ عليهم نبأ الغزو الخارجي ، فباتت وجوه الأوس والخزرج: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأبي حبيب ، في عدة ليلة الجمعة عليهم السلاح في المسجد بباب النبي ﷺ خوفاً من بيات المشركين ، وحرست المدينة تلك الليلة حتى أصبحوا .

والشيء المألوف في مثل هذه الحالة: أن يقتصر قرار الحرب على القيادات الكبرى، ولكن النبي ﷺ يريد أن يعيد للفرد المسلم كيانه بحيث لا يذوب ضمن إطار قبيلته أو عشيرته ، ويريد - عليه الصلاة والسلام - أن يبني الإنسان الفاعل القائد، لا الإنسان الإمعة الفاقد للرأي ، ويريد - عليه الصلاة والسلام - أن يبني إنساناً قيادياً قادرًا على المناقشة وتقليل وجوه الرأي .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فالاستشارة هنا في قضية الحرب والمواجهة مع العدو ، وعادة إنما تؤخذ هذه القرارات في مجلس الوزراء ، والخطة في أركان حرب الجيش ، وال المجالس النيابية والبرلمانات تشارك في اتخاذ هذه القرارات ، أما هنا فنجد رسول الله ﷺ يعرض الأمر على كل جنوده ويطلب منهم إبداء الرأي ؛ لأن هؤلاء الجنود هم الذي يذلون أرواحهم في سبيل الله ، هم يذلون أعز ما يملكون في هذا الوجود ، أفلأ يحق لهم أن يشاركون في قرار الحرب والمواجهة ؟

إن العقلية التي تجعل أرواح الناس ودماءهم وأموالهم في يد طاغية أي كان هذا الطاغية : شيخ قبيلة ، أو رئيس حزب ، أو قائد جيش ، أو ملكاً مستبداً ، أو رئيساً قاهراً، هذه العقلية ، يدرّب رسول الله ﷺ جيشه وأمته على إلغائها ، وإعادة الثقة بكل فرد بذاته وبعينه ، فهو صاحب قرار في اختيار المواجهة ؛ لأنه هو الذي ستحصده الحرب ، وهو الذي سيذبح في المعركة لهذا كلّه ، وفي اليوم الثاني ، ظهر النبي ﷺ على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس إنّي رأيت في منامي رؤيا ، رأيت كأنّي في درع حصينة .. ورأيت كأنّي سيفي ذا الفقار انفصّم من عند ظبيه ، ورأيت بقرًا تذبح ، ورأيت كأنّي مردف كبشًا ». فقال الناس: يا رسول الله ، فما أولتها؟ قال : « أما الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها ، وأما انفصام سيفي من عند ظبيه فمحضية في نفسي ، وأما البقر المذبح ، فقتلني في أصحابي ، وأما مردف كبشًا ، فكخش الكتبة فقتله إن شاء الله ». وعن ابن عباس يقول : قال رسول الله ﷺ : « وأما انفصام سيفي فقتل رجل من أهل بيتي » ، وعن المسور بن مخرمة قال: قال النبي ﷺ : « ورأيت في سيفي فلأ فكرهته » فهو الذي أصاب وجهه ﷺ .

فالرؤيا يقصها - عليه الصلاة والسلام - على جميع أصحابه ، ورؤيا رسول الله ﷺ وهي ، فلم ير رؤيا إلا وجاءت كفلق الصبح ، وهو الذي يأولها - عليه الصلاة والسلام - ويبدي رأيه - صلوات الله وسلامه عليه - في أن الدرع الحصينة هي المدينة ، ويقول: « فامكثوا فيها » ، بكلام صريح وبين واضح .

وقال النبي ﷺ : « أشيروا على أيها الناس » ، ورأى رسول الله ﷺ ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا .

وتقديم عبد الله بن أبي على الجميع يدِي رأيه ، خاصة ورأيه موافق لرسول الله ﷺ ، وبفصاحته وقوه شخصيته يقول : يا رسول الله ، كنا نقاتل في الجاهلية فيها ، ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي ، نجعل معهم الحجارة ، والله لربما مكث الولدان شهراً ينقلون الحجارة إعداداً لعدونا ، ونشبّك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، وترمى المرأة والصبي من فوق الصياصي والأطام ، ونقاتل بأسيايفنا في السكك ، يا رسول الله ، إن مديتها عذراء ما فضت علينا قط ، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصحابنا ، وما دخل علينا إلا أصحابنا منه ، فدعهم يا رسول الله فإنهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن رجعوا رجعوا خاتبين مغلوبين ، لم ينالوا خيراً ، يا رسول الله أطعني في هذا الأمر ، واعلم أنى ورثت هذا الرأي من أكابر قومي ، وأهل الرأي منهم ، فهم كانوا أهل الرأي والتجربة .

وسندرج الحديث عن عبد الله بن أبي إلى فقرة لاحقة ؛ خاصة وأن رأيه موافق لرأي رسول الله ﷺ ، لكننا نقول : إن حقه في المشورة محفوظ رغم موافقه السابقة المشبوهة ، فهو فرد في الأمة ، وأحد الشخصيات القيادية فيها ، فلا نص يمنعه من إبداء الرأي ، ولا حجر على القناعات والمواقف في الأمور المطروحة على الشورى .

لكن الموقف الأعجب والأروع هو موقف المستويان العظيمين اللذين عارضا رأي البقاء في المدينة . هذان المستويان هما : فتیان أحداث لم يشهدوا بدرًا ، ورجال من أهل السن وأهل النية .

كيف يجرؤ هؤلاء على عرض رأيهم المخالف صراحة لرأي رسول الله ﷺ وهو الموحى إليه ، إننا نجد بعض المشعوذين الذين يوهّمون الناس بأنهم أرباب من دون الله ، أو أنبياء أو ملهمون ، فتمسخ شخصية الأمة كلها أمامهم ، ويصبح الناس جميعاً يرون بهم الحكمة والعبقرية والعظمة ، وكثير من هؤلاء الذين تمسخ أشخاصهم أمامهم ؛ نتيجة إعجاب وفتنة وعبودية مذلة ، والبعض القليل يচمت خوفاً من سلطان الطاغية فُيماًلىٰ وينافق ، لقد كانشيخ القبيلة يعلن حرباً ؛ لأن ماجنا خليعاً في القبيلة أحدث حدثاً ، أو قتل رجلاً من العدو ، فلا يجرؤ أحد على الوقوف أمام هذا الشيخ ، ولقد رأينا اليهودي الخبيث « كيسنجر » كما ذُكر عنه ، أنه عندما فكر أن يبيع الأمة العربية لليهود من خلال اتفاقية كامب ديفيد ، عرف المدخل لذلك وهو مبدأ شيخ القبيلة ،

حيث أقمع السادات وانتهى الأمر ، فهو السلطان الحاكم بأمره ، وهو قادر بعدها على أن يعلن رأيه ، فتاتي الموافقة الرسمية من البرلمان ، والجماهير الشعبية من كل مكان تتداء بعقرية بطل الحرب وبطل السلام ، إننا نجد هذه النماذج في القرن العشرين ، وتحت ستار الحرية والديمقراطية ، تباع الشعوب من خلالها ، وتذبح الشعوب من خلالها ، وتبقي فكرة المللهم والعقرى ، والقائد الفذ تمسح وجود كل الناس حوله<sup>(١)</sup> .

وهنا ونحن بين يدي سيد ولد آدم ، والذى وضع أمته كلها فى الميزان ، ووضع فى الكفة الثانية فرجع بها ، ومع ذلك يندفع الشباب والفتىـان يعلنون رأيهم دون تهـيب أو خوف ، فقد بنى - عليه الصلة والسلام - رجالاً من طراز رفيع ، يطلب منهم المشورة رغم الرؤيا الصادقة ، ويطلب منهم الرأى رغم التفسير والتـأويل الواضح كـفـلق الصـبع ، ومع ذلك يندفع إـيـاسـ بنـ أـوسـ بنـ عـتـيكـ ، الشـابـ المتـوـثـبـ حـمـاسـةـ وـحـيـوـيـةـ فيـقـولـ : نـحـنـ بـنـوـ عـبـدـ الأـشـهـلـ ، نـحـنـ الـبـقـرـ الـمـذـيـعـ ، نـرـجـوـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ أـنـ نـذـبـحـ فـىـ الـقـوـمـ ، وـيـنـبـيـعـ فـيـنـاـ ، فـنـصـيـرـ إـلـىـ الـجـنـةـ ، وـيـصـيـرـونـ إـلـىـ النـارـ ، مـعـ أـنـىـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ لـاـ أـحـبـ أـنـ تـرـجـعـ قـرـيـشـ إـلـىـ قـوـمـهـ فـيـقـولـونـ : حـصـرـنـاـ مـحـمـداـ فـيـ صـيـاصـيـ شـرـبـ وـآـطـامـهـ ، فـيـكـوـنـ هـذـاـ جـرـأـ لـقـرـيـشـ وـقـدـ وـطـنـواـ سـعـفـنـاـ ، قـدـ كـنـاـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ فـيـ جـاهـلـيـتـاـ ، وـالـعـرـبـ يـأـتـونـنـاـ ، وـلـاـ يـطـمـعـونـ بـهـذـاـ مـاـ حـتـىـ نـخـرـجـ إـلـيـهـمـ بـأـسـيـافـنـاـ حـتـىـ نـذـبـهـمـ عـنـاـ ، فـتـحـنـ الـيـوـمـ أـحـقـ ، إـذـ أـيـدـنـاـ اللـهـ بـكـ ، وـعـرـقـنـاـ مـصـيـرـنـاـ لـاـ نـحـصـرـ أـنـسـنـاـ فـيـ بـيـوتـنـاـ .

ويـنـدـفـعـ أـنـسـ بـنـ قـتـادـةـ فـيـقـولـ : يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ هـىـ إـحـدـىـ الـحـسـنـيـنـ : إـمـاـ الشـهـادـةـ ، وـإـمـاـ الـظـفـرـ وـالـغـنـيـمةـ فـىـ قـتـلـهـمـ ، فـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ : «ـ إـنـىـ أـخـافـ عـلـيـكـمـ الـهـزـيـمةـ »ـ .  
ولـوـ وـقـفـ الـأـمـرـ عـنـ حـمـاسـ الشـابـ لـهـانـ الـأـمـرـ ، فـقـدـ شـارـكـ فـيـ الرـأـيـ المـعـارـضـ  
شـخـصـيـاتـ قـيـادـيـةـ مـنـ الـمـهـاجـرـينـ وـالـأـنـصـارـ مـنـهـمـ : سـيدـ الشـهـداءـ حـمـزةـ بـنـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ  
ـوـالـذـيـ قـالـ : وـالـذـيـ أـنـزـلـ عـلـيـكـ الـكـتـابـ لـاـ أـطـعـمـ الـيـوـمـ طـعـامـاـ حـتـىـ أـجـالـهـمـ  
بـسـيـفـيـ خـارـجـ الـمـدـيـنـةـ .

وـشـارـكـ حـمـزةـ ﷺـ سـيدـ الـخـزـرـجـ سـعـدـ بـنـ عـبـادـةـ ، وـأـحـدـ قـيـادـاتـهاـ النـعـمـانـ بـنـ مـالـكـ  
ـفـقـالـاـ : إـنـاـ نـحـشـىـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ أـنـ يـظـنـ عـدـوـنـاـ أـنـاـ كـرـهـنـاـ الـخـرـوـجـ إـلـيـهـ جـبـنـاـ عـنـ لـقـائـهــ ،  
ـفـيـكـوـنـ هـذـاـ جـرـأـ لـقـرـيـشـ وـقـدـ كـنـتـ فـيـ بـدـرـ فـيـ ثـلـثـانـةـ رـجـلـ فـظـفـرـكـ اللـهـ عـلـيـهــ ،  
ـوـنـحـنـ الـيـوـمـ بـشـرـ كـثـيرـ ، وـقـدـ كـنـاـ تـنـمـيـنـاـ هـذـاـ الـيـوـمـ ، وـنـدـعـوـ اللـهـ بـهـ ، وـقـدـ سـاقـهـ اللـهـ إـلـيـنـاـ  
ـفـيـ سـاعـةـنـاـ .

(١) خـريفـ الغـضـبـ دـ . مـحـمـدـ حـسـنـ هـيـكلـ .

وقال مالك بن سنان سيد بنى حذرة : يا رسول الله نحن والله بين إحدى الحسينين :  
إما أن يظفرنا الله بهم فهذا الذى نريد ، فيذلهم الله لنا فتكون وقعة كوعنة بدر ، فلا  
يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى يارسول الله يرزقنا الله الشهادة ، والله يا رسول الله  
ما أبالي أيهما كان ، إن كلاً لغيه الخير . وقد مثل هذا الرأى قطاعاً عريضاً من الصحابة ،  
ومثل قناعة الشباب المتعطش للجهاد .

ورسول الله ﷺ كاره لهذا الرأى ، ولا تزال الروايا مائة أمام عينيه عن الدرع  
الحسينية ، والذين يرون البقاء في المدينة هم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ حيث  
يعرضون جوانب الخطة الحربية التي تكفل النصر في عالم الأسباب .

ومع هذا كله يكتفى - عليه الصلاة والسلام - بما سمع ويقول لهم : « لكم النصر  
ما صبرتم » ، ويمضي ليلبس لأمة الحرب استجابة للرأى الآخر الذى يمثله جمهور  
الصحابة ، والذى يمثله عنصر الشباب الذى هو قرة عينه ، وقد رأى - عليه الصلاة  
والسلام - ثمرة التربية الدّوّوبة التى مضى بها بأمر ربه ، حيث رأى حب الاستشهاد  
والموت فى سبيل الله قد غدا فى الصف المسلم لا يقل عن حب النصر .

ورأى الجيل أمامه يستعد بكل طاقاته ليتحمل مسؤولياته ، ويرغب فى المواجهة  
خارج المدينة ، ومراعاة هذه النماذج لقتائل وهى مرتبطة قريرة العين ، غير قتالها وهى  
محبوسة داخل الأطام والمحصون ، ويرى رأى فريق ثالث من خلال التربية النبوية ، هذا  
الفريق ينظر للأمر من خلال هوى قائد - عليه الصلاة والسلام - ورغبتـه ، حتى ولو لم  
يكن هناك أمر من السماء بذلك ، ومثل هذا الرأى قادة الأوس العظام : سعد بن  
معاذ ، وأبيه بن حبيب ، وطرحـا هذا الرأى على المسلمين بعد أن غادر رسول الله ﷺ  
المسجد ليـته فقالـا : قلتـ لرسول الله ﷺ ما قلتـ ، واستـكرـتهمـ على الخروـج ،  
والامر يـنزلـ عـلـيـهـ مـنـ السـمـاءـ ، فـرـدـواـ الـامـرـ إـلـيـهـ ، فـمـاـ اـمـرـكـمـ بـهـ فـاقـعـلـواـ ، وـمـاـ رـأـيـتـ لـهـ  
فـيـهـ هوـىـ وـرـأـيـهـ ، وـقـدـ أـوـضـعـ هـذـهـ الـآـرـاءـ الـثـلـاثـةـ مـاـ ذـكـرـهـ الـوـاقـدـىـ : فـيـنـاـ الـقـوـمـ  
عـلـىـ ذـلـكـ مـنـ الـأـمـرـ ، وـبـعـضـ الـقـوـمـ يـقـوـلـ : الـقـوـلـ مـاـ قـالـ سـعـدـ ، وـبـعـضـهـمـ عـلـىـ  
الـبـصـيرـةـ عـلـىـ الشـخـوصـ ، وـبـعـضـهـمـ لـلـخـروـجـ كـارـهـ .

في هذه الحالة ، فاجأ القوم رسول الله ﷺ ، وقد لبس لأمة الحرب الكاملة ،  
وكان الواقع النفسي أمام هذا المنظر العظيم لسيدهم وحبيبهـم - عليه الصلاة والسلام - أن  
أخذـواـ جـمـيـعـاـ بـرـأـيـ سـعـدـ :

إـذـ خـرـجـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ قـدـ لـبـسـ لـأـمـتـهـ (1) ، وـقـدـ لـبـسـ الـدـرـعـ فـأـظـهـرـهـاـ ، وـحـزـمـ وـسـطـهـاـ .

(1) الـأـلـمـةـ : ثـيـابـ الـحـرـبـ وـعـدـتـهـ .

بنطقة من حمائل سيفه من أدم ، واعتم ، وتقلد السيف ، فلما خرج رسول الله ﷺ ندموا جميعاً على ما صنعوا وقال الذين يلحون على رسول الله ﷺ: يا رسول الله ، ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك ، والأمر إلى الله ثم إيلك .

وكانت فرصة سانحة لسيد الخلق ، وقد تراجع صحبه جميعاً وتركوا له الرأى أن يعود إلى رأيه ويقودهم وقد وافقوا رأيه ، لكن المربى الأعظم ﷺ ، يريد لهذا الجيل أن يقود العالم ، ويريد أن يعلمه كل قواعد الشورى ، واحترام الرأى ، ويريد لهذه الشعلة المتقدة من الحماس للمواجهة أن تبقى لاهبة متوجهة ، فقرار المواجهة قد صدر بناءً على رأى جمهور الشباب المسلم ، ولن يتغير القرار :

« قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبیتم ، ولا ينبغي لنبي إذا ليس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله ، فلكم النصر ما صبرتم » .

ويتعلم كل فرد من هذا الجيش عندما يكون غداً على رأس جيش ، أو خوض معركة ، يتعلم من هذا الدرس كيف تكون القيادة ، وكيف تكون الشورى ، وكيف تكون العزيمة .

وجاء القرآن الكريم بعد محنـة أحد ، يقرر هذا الأمر ، ويقر نبيه بكل خطواته الأولى والثانية ، ويقر عينه بهذه العصبة العظيمة التي حوله ، ويقر عينها ببنيها فيقول : « **فَيَمَّا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَتَتَّلَمُهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّا غَلِيلَهُ القَلْبَ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاغْفُ عنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَارِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** » (١) .

جاء الوحي الرباني ، ليقر لين نبيه المصطفى ﷺ لهذا الشباب المتحمس الوثاب ، ولو كان غير ذلك ، لانقضى جنده عنده ، وانفضوا من حوله ، وقرر خطأ رأيهم في الإصرار على الخروج الذي قاد إلى أن يشع وجهه الشريف ، وتكلم شفهه ، وتكسر ثباته ﷺ ، فليغف عنهم ، وليسغف لهم على ما اندفعوا به من الخروج .

وجاء ليقر وراء ذلك كله صحة الموقف بالأخذ برأى الشورى ، وصححة احترام رأيهم وأنهم لو أخطئوا مرة ، فسوف يصيرون مرات ، فهم أهل للمشورة ، وأهل للأخذ بأرائهم . فاغف عنهم واستغف لهم ، وشاورهم في الأمر . ثم تكون مسؤولية القيادة بعد اتخاذ القرار ضمن الأطر الشورية بيد القائد الأعظم ﷺ .

(١) آل عمران / ١٥٩ .

﴿فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْتَ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ .

( إن السياق يتوجه هنا إلى رسول الله ﷺ وفي نفسه شيء من القوم ؛ تحمسوا للخروج ، ثم اضطربت صفوهم ، فرجع ثلث الجيش قبل المعركة ، وخالفوا - بعد ذلك - عن أمره ، وضعفوا أمام إغراء الغنيمة ، ووهنوا أمام إشاعة مقتله ، وانقلبوا على أعقابهم مهزومين ، وأفردوه في النهر القليل ، وتركوه يشنخ بالجراح ، وهو صائم يدعوه في آخرهم ، وهم لا يلرون على أحد... يتوجه إليه ﷺ يطيب قلبه . وإلى المسلمين يشعرهم نعمة الله عليهم به ، ويدركهم ويدركه رحمة الله المثلثة في خلقه الكريم الرحيم ، الذي تجتمع حوله القلوب .. ذلك ليستجيش كوابئ الرحمة في قلبه ﷺ ، فتغلب على ما أثاره تصرفهم فيه ، وليحسوا همحقيقة النعمة الإلهية بهذا النبي الرحيم ، ثم يدعوه أن يغفو عنهم ، ويستغفر الله لهم ، وأن يشاورهم في الأمر كما كان يشاورهم غير متأثر بنتائج الموقف لإبطال هذا المبدأ الأساسي في الحياة الإسلامية . )

﴿فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لَتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَأً غَلِيلَ الْقَلْبِ لَا نَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (١) .

فهي رحمة الله التي نالتهم ، فجعلته ﷺ رحيمًا بهم ، ليأتا معهم ، ولو كان فطاً غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب ، ولا تجتمع حوله المشاعر . فالناس في حاجة إلى كف رحيم وإلى رعاية فائقة ، وإلى بشاشة سمحاء ، وإلى ود يسعهم ، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقفهم ، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ، ولا يحتاج منهم إلى عطاء ، ويعمل همومهم ، ولا يعنهم بهمه ، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضا ، وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ ، وهكذا كانت حياته مع الناس ، ما غضب لنفسه قط ، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري ، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة ، بل أعطاه كل ما ملكت يداه في سماحة ندية ، ووسعهم حلمه وبره وعطافه ووده الكريم ، وما من واحد منهم عاشره أو رأه إلا امتلاً قلبه بجهة ، نتيجة لما أفضى - عليه الصلاة والسلام - من نفسه الكبيرة الرحيمة .

وكان هذا كله رحمة من الله به وبآمنته ، يذكرهم بها في هذا الموقف ، ليترتب عليها ما يريده سبحانه لحياة هذه الأمة من تنظيم .

﴿فَاغْفُّ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَأْوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (٢) .

وبهذا النص الجازم **وَشَارِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ** يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم ، حتى و محمد رسول الله ﷺ هو الذي يتولاه ، وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكًا في أن الشوري مبدأ أساسى لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه ، أما شكل الشوري ، والوسيلة التي يتحقق بها ، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها، وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشوري - لا مظهرها - فهى من الإسلام .

ولم يكن رسول الله ﷺ يجهل التداعي الخطير الذى تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج ، فقد كان لديه الإرهاص من رؤياه الصادقة التى رأها والتى يعرف مدى صدقها ، وقد تأولها قتيلًا من أهل بيته ، وقتل من صحابته ، وتأول المدينة درعًا حصينة ، وكان من حقه أن يلغى ما استقر عليه الأمر نتيجة الشوري ... ولكنه أمضها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات ؛ لأن إقرار المبدأ وتعليم الجماعة وتربية الأمة ، أكبر من الحسائر الوقتية .

ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشوري كله بعد المعركة ، أمام ما أحدهته من انقسام في الصفة في أخرج الظروف <sup>(١)</sup> ، وأمام التداعي المريرة التي انتهت إليها المعركة ! ولكن الإسلام كان ينشئ أمة ويربيها ويعدها لقيادة البشرية ، وكان الله يعلم أن خير وسيلة ل التربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة أن تربى بالشوري ، وأن تدرب على حمل التبعية ، وأن تخطئ مهما يكن الخطأ جسيماً وذا نتائج مريرة ؛ لتعرف كيف تصصح خطأها ، وكيف تحمل تبعات رأيها وتصرفها ، فهي لا تتعلم الصواب إلا إذا زارت الخطأ ، والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هي إنشاء الأمة المدرية المقدرة للتبعات واختصار الأخطاء والutherford ، والخسائر في حياة الأمة ليس في حياة الأمة فيها شيء من الكسب لها ، إذا كانت نتيجة أن تظل هذه الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية ، إنها في هذه الحالة تتلقى خسائر مادية ، وتحقق مكاسب مادية ، ولكنها تخسر نفسها ، وتخسر وجودها ، وتخسر تربيتها ، وتخسر تدريبيها على الحياة الواقعية ، كالطفل الذي يمنع من مزاولة المشي - مثلاً - لتوفير العثرات والخطبات أو توفير الحذاء .

كان الإسلام ينشئ أمة ويربيها ويعدها للقيادة الراشدة ، فلم يكن بد أن يتحقق لهذه الأمة رشدتها ، ويرفع عنها الوصاية في حركات حياتها العملية الواقعية كى تدرب عليها في حياة الرسول ﷺ وبإشرافه ، ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشوري ، وينعى تدريب الأمة عليها تدريباً عملياً واقعياً في أحطر الشؤون ؛ كمعركة أحد التي قد تقرر مصير الأمة المسلمة نهائياً ، وهى أمة ناشئة تحيط بها العداوات والمخاطر من كل

(١) هنا في ظاهر الأمر ، لكن موقف عبد الله بن أبي وحبيبه يهدف إلى ضرب الإسلام ، ولو أخذ الرسول **بِرَأْيِهِ** ، وقد تكون له مواقف خذلان وانقسام داخل المعركة حتى لو أخذت القيادة برأيه .

جانب ، ويحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة ، لو كان وجود القيادة الراشدة في الأمة يكفى ويسد مسد مزاولة الشورى فى أخطر الشؤون ؛ لكن وجود محمد ﷺ - ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى - كافياً لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى ، وبخاصة على ضوء النتائج المريضة التى صاحبتها فى ظل الملابسات الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة ، ولكن وجود محمد ﷺ رسول الله ومعه الوحي الإلهى ، ووقوع تلك الأحداث ، ووقوع تلك الملابسات ، لم يلغ هذا الحق ؛ لأن الله تعالى يعلم أن لابد من مزاولته فى أخطر الشؤون ، ومهما تكن النتائج ، ومهما تكن الخسائر ، ومهما يكن انقسام الصنف ، ومهما تكن التضحيات المريضة ، ومهما تكن الأخطر المحيطة ؛ لأن هذه كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة ، المدرية بالفعل على الحياة ، المدركة لبيعات الرأى والعمل ، الوعائية لنتائج الرأى والعمل . ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهى ، فى هذا الوقت بالذات « فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » .

ليقر المبدأ فى مواجهة أخطر الأخطار التى صاحت استعماله ، وليثبت هذا القرار فى حياة الأمة المسلمة أيًا كانت الأخطار التى تقع فى أثناء التطبيق ، وليسقط الحجة الواهية التى تثار لإبطال هذا المبدأ فى حياة الأمة المسلمة ، كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التى تبدو سيئة ، ولو كان هو انقسام الصنف - كما وقع فى أحد - والعدو على الأبواب ؛ لأن وجود الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ ، ووجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى فى الطريق .

على أن الصورة الحقيقة للنظام الإسلامى لا تكمل حتى تنسى مع بقية الآية ، فنرى أن الشورى لا تنتهى أبداً إلى الأرجحه والتعويق ، ولا تغنى كذلك عن التوكل على الله فى نهاية المطاف .

« إِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » (١) .

إن مهمة الثورى هي : تقليل أوجه الرأى ، و اختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة ، فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحال ، انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ فى عزم و حسم ، وفي توكل على الله ، يصل الأمر بقدر الله ويدع المشيئة تصوغ العواقب كما تشاء .

وكما ألقى النبي ﷺ درسه البوى الربانى ، وهو يعلم الأمة الشورى ، ويعلمها إبداء الرأى ، واحتمال تبعه تنفيذه فى أخطر الشؤون وأكبرها . . . ، كذلك ألقى درسه الثاني فى المضاء بعد الشورى ، وفي التوكل على الله ، وإسلام النفس لقدرها على علم

(١) آل عمران / ١٥٩ .

بمجراه واتجاهه ، فامضى الأمر في الخروج ، ودخل بيته فليس درعه ولا مته ، وهو يعلم إلى أين هو ماضٍ ، وما الذي يتنتظره ويتنظر الصحابة معه من آلام وتضحيات ، وحتى حين أتيحت فرصة أخرى بتردد المتحمسين ، وخوفهم من أن يكونوا استكراهون على الله تعالى على ما لا يريد ، وتركهم الأمر له ليخرج أو يبقى ، حتى حين أتيحت له هذه الفرصة لم ينتهها ليرجع ؛ لأنَّه أراد أن يعلمهم الدرس كله ، درس الشورى ، ثم العزم والمضي مع التوكل على الله والاستسلام لقدرِه ، وأن يعلمهم أن للشوري وقتها ، ولا مجال بعدها للتrepidation والتراجُح الذي لا ينتهي . . . إنما هو رأي وشوري ، وعزم ومضاء ، وتوكل على الله يحبه الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١).

والخلة التي يحبها الله ويحب أهلها هي : الخلة التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمنون ، بل هي التي تميز المؤمنين ، والتوكل على الله ، ورد الأمر إليه في النهاية ، هو خط التوازن الأخير في التصور الإسلامي ، وفي الحياة الإسلامية ، وهو التعامل مع الحقيقة الكبيرة ، حقيقة أن مرد الأمر إلى الله ، وأن الله فعال لما يريد .  
لقد كان هذا درساً من دروس ( أحد ) الكبار ، هو رصيد الأمة المسلمة في أجيالها كلها وليس رصيد جيل بعينه في زمن من الأزمان) (٢) .

### ٣- طبيعة الصف الإسلامي في أحد :

لابد لنا من وقفة مستأنية لدراسة طبيعة الصف الإسلامي ، وتركيبة قبيل غزوة أحد ، ومن خلال المقارنة مع طبيعة الصف الإسلامي قبيل غزوة بدر ، تتضح معالم هذا الصف أكثر وأكثر .

لقد رأينا رسول الله ﷺ قبيل بدر ، ولم يعد الإعداد المادي الكافى للمواجهة ؛ إذ أن خروج الجيش الإسلامي كان لمواجهة قافلة يقودها سبعون شخصاً ، ولم يكن خروجه لمواجهة جيش قوامه ألف رجل ، ومع هذا كله ، وبعد الاستشارات العديدة التي أقدم عليها رسول الله ﷺ في مبدأ المواجهة مع العدو ، وخصَّ الانتصار بالذكر والرأي ، وحيث أجمعت القيادات الكبرى بعد التردد النفسي البشري خوف المواجهة ، على لقاء العدو ، كان ذلك التوجه النبوى العظيم إلى الله رب العرش العظيم بطلب النصر .

صحيح أن العدة المادية لم تكن كاملة ولم تكن كافية ، والكثير من المسلمين في المدينة ، وفيهم قيادات عظيمة كان يمكن أن تكون في الصف لو عرفوا أن رسول الله

(٢) في ظلال القرآن ١ / ٥٠٠ - ٥٠٣ بتصريف

(١) آل عمران / ١٥٩ .

يُلقي حرّياً ، لكن النبي ﷺ مطمئن إلى الإعداد المعنوي ، مطمئن إلى سلامه صفة كلّه ، فليس منهم شخص دون المستوى الإيماني المطلوب ، رغم قصر مدة التربية النبوية ، التي لم تبلغ لبعضهم ستين فقط ، رغم هذا كله فهو مطمئن إلى أن النماذج التي معه في بدر هي خيرة أهل الأرض ، وهذا هو أعظم إعداد في البناء ، كان التوجّه النبوي الكريم إلى رب العزة والجلال أن ينزل نصره ، وكان ذلك الإلحاد الشديد في التزلل والتصرّع إلى الله أن ينجز وعده حتى ليسقط رداوته الشريف عن منكبيه وهو لا يشعر من عظمة التوجّه إلى الله تعالى بتحقيق موعده بالنصر ، ولا أدل على ثقته بهذا الصّف من صيغة دعائه - عليه الصلاة والسلام - :

« اللهم إن تهلك هذه العصابة ، فلن تبعد في الأرض ». .

فهذه العصابة عنده هي خيرة أهل الأرض ، وهي المنوط بها الخلافة الراشدة فيها . لكننا نجد في أحد صورة معاكسة تماماً ، ورغم مظاهر الحماس الطاغي من الشباب للمواجهة ، ومن الشيوخ الكبار ، خاصة الذين لم يتع لهم أن يشهدوا بدرأ ، فقد كانت نظرته - عليه الصلاة والسلام - لهذا الصّف تختلف كثيراً عن نظرته لصف بدر .

لقد انضم إلى الصّف الإسلامي ثلاثة أضعاف أو ضعفين على أقل تقدير خلال عام واحد ، وهذا العام لم يكن كافياً لإتمام التدريب والتربية ؛ لرفع هذه الأعداد الجديدة إلى المستوى الإيماني المطلوب والموجود عند السابقين الأولين ، ورغم أن الإعداد لم يتقطع خلال هذا العام من خلال الغزوات المستمرة للعدو ، والسرايا العظيمة من الرجالات الكبار القدوة ، رغم هذا كله لم يكن الصّف بعد قد غدا مؤهلاً لمثل هذه المواجهة ، ولم نجد هذا الإلحاد الشديد على رب العزة والجلال في إنزال نصره ؛ لأن الإعداد المعنوي في الصّف لا يزال دون المستوى المطلوب للمواجهة ، ولا نتحدث هنا عن المناقين إنما نتحدث عن ضعاف الإيمان داخل الصّف الإسلامي الواحد .

وإن القائد العادي الذي يرى هؤلاء الجنود ليدرك بثاقب نظره تخلخل المستويات الإيمانية ، وضعف بعض النماذج داخل الصّف ، فكيف بسيد الخلق ، وسيد القادة ، وسيد العباقة في الوجود لا يدرك أبعاد هذا الصّف ، ونوعياته ، ومستوياته ؛ ولهذا كله كان جواب رسول الله ﷺ ، ليس إلحاداً في التصرّع بإنزال النصر بمقدار ما كان تقريراً يتاسب مع واقع الصّف الجديد : « ولكم النصر ما صبرتم » .

وهذا ما يقرره القرآن الكريم ابتداء : « بِلَّى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِّنْ فَوْرِيهِمْ هَذَا يُمْدِدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » (١) .

(١) آل عمران / ١٢٥ .

ولم يصبروا ويتقوا - أى كل الصف بكل أفراده - فلم يأت مدد الخمسة آلاف من الملائكة ، وكل الذى ورد عن نزول الملائكة فى نص صحيح ، وما ورد على لسان سعد رضي الله عنه عن نزول جبريل وميكائيل ؛ لحماية رسول الله ﷺ ، عندما استفرد وحده من العدو كما يقول سعد : (رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ، ومعه رجال يقاتلان عنه عليهما ثياب بيضاء كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد) <sup>(١)</sup>.

وقد نزل القرآن الكريم بعد الغزوء يعالج طبيعة هذا الصف .

ولابد من إيضاح كذلك فى هذا الصدد : أن هذه العاقبة كانت منصبة على السبعمائة الذين ثبتو مع رسول الله ﷺ ، أما الحديث عن المنافقين ، فكان صريحاً عنهم باسمائهم وموافقهم ، بينما يأتي التعبير القرآنى ليصف الصف المسلم نفسه :

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا . . . . .﴾ <sup>(٢)</sup>

﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ . . . . .﴾ <sup>(٣)</sup>

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلُوْنَ عَلَى أَحَدٍ . . . . .﴾ <sup>(٤)</sup>

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مَنْ بَعْدَ الْفَمِ أَمْنَةً تَعَاصِي يَقْشِنَ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةً قَدْ أَهْمَمْتُمُ أَنفُسَهُمْ يَظْنُنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ . . . . .﴾ <sup>(٥)</sup>

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلُّوْنَا مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . . . .﴾ <sup>(٦)</sup>

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ . . . . .﴾ <sup>(٧)</sup>

أما الحديث عن المنافقين ، فكان يأتي :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا إِلَّا خَوَانِيهِمْ . . . . .﴾ <sup>(٨)</sup>

﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقَبِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَاتَّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَاتُلُوا لَوْ نَعْلَمْ قِتَالًا لَا تَبْغَنَاكُمْ هُمْ لِكُفُرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . . . . .﴾

(١) البخارى ، ك١ ٦٤ ، باب إذ همت طائفتان ١٨ ، ٥ / ١٢٤ .

(٢) آل عمران / ١٥٢ .

(٣) آل عمران / ١٥٤ .

(٤) آل عمران / ١٤٤ .

(٥) آل عمران / ١٥٥ .

(٦) آل عمران / ١٥٦ .

(٧) آل عمران / ١٥٣ .

(٨) آل عمران / ١٥٧ .

بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَاتَلُوا لِإِخْرَانِهِمْ وَقَعُدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرُءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ  
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (١) .

وكل ما فعله - عليه الصلاة والسلام - أمام هذا الجيش الذي عرف نوعياته ، وفقه مستوياته : أن خطب تلك الخطبة العظيمة التي تحت على الجهاد ، وتوضح العديد من الأسس والقواعد الإمامية التي قد تغيب عن الذهن أثناء المعركة ، والتي تسوق العديد من الأحكام الشرعية التي تترى كل يوم من رب العالمين :

١ - فمناط الأمر كله هو طاعة الله ورسوله ، والبعد عن معصيته : « أَيُّهَا النَّاسُ ، أَوْصِيكُمْ بِمَا أَوْصَانِي اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنَ الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَالتَّاهِي عَنْ مُحَارَمِهِ » .

٢ - ولابد من الإيضاح لطبيعة هذه الحرب ، فقد انتهت حروب الذكر والشهرة والصيت ، حروب العصبية والقبلية المتناثرة ، إنها بدء مرحلة حرب جديدة قوامها الإيمان والكفر ، وهدفها الحرص على مرضاة الله ، وما أعد الله للمؤمنين في الجنان ، وكثير من النماذج داخل هذا الصف ، لم تبلور القضية في نفوسهم بعد ، خلال هذه الأشهر القليلة : « ثُمَّ إِنَّكُمُ الْيَوْمَ بِمَنْزِلٍ أَجْرٍ وَذُخْرٍ لِمَنْ ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ ، وَالْجَدْ وَالشَّبَاطِ ، فَإِنَّ جَهَادَ الْعُدُوِّ شَدِيدٌ كَرِيمٌ ، قَلِيلٌ مِنْ يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ عَزْمِ اللَّهِ رَشْدُهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ مَنْ أَطَاعَهُ ، وَالشَّيْطَانُ مَعَ مَنْ عَصَاهُ ، فَافْتَحُوا أَعْمَالَكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى الْجَهَادِ ، وَالْتَّمَسُوا بِذَلِكَ مَا وَعَدَكُمُ اللَّهُ بِهِ » .

٣ - والقضية ليست قضية الجihad فقط ، وإن خلاص البنية في قلب المعركة ؛ إنما الجihad حلقة من سلسلة مستمرة من الطاعات ، أو حلقة من سلسلة مستمرة من المعاصي : « وَعَلَيْكُمْ بِالَّذِي أَمْرَكُمْ بِهِ ، فَإِنَّى حَرِيصٌ عَلَى رَشْدِكُمْ ، فَإِنَّ الْاِخْتِلَافَ وَالتَّنَازُعَ وَالشَّيْطَانَ مِنْ أَمْرٍ عَجِزَ وَضُعِفَ مَا لَا يُحِبِّهُ اللَّهُ ، وَلَا يُعْطِي عَلَيْهِ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ » .

وكانه كان - عليه الصلاة والسلام - يرى التائج المرة رأى العين ، حين يأتى الاجتهاد الشخصى مكان الأمر النبوى ، ويقع الاختلاف والتنازع ، ويحال بين الجيش والنصر ، وجاء القرآن الكريم بعد المعركة ليقول لهؤلاء السبعمائة : « هُنَّ أَنْتُمْ فَشَّلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَأَكُمْ مَا تُعْبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِسَيْلِكُمْ » (٢) .

٤ - وهو هو - عليه الصلاة والسلام - : يذكر أحكاماً شرعية بعينها، يعلمها هذا

(٢) آل عمران / ١٦٧ ، ١٦٨ .

الجبل ، فهو يدخل إلى أعمقه ليقول له في معركة الضمير قبل معركة السلاح : إن الذي **يُبَيِّنُ** غير الطاعة فالله تعالى سيكشفه ، فليزورب إلى ربه قبل أن يفضح .

أـ « يا أيها الناس جدد في صدرى أنَّ من كان على حرام فرق الله بينه وبينه ، ومن رغب له عنه غفر الله ذنبه » .

بـ وصلة الجيش بقائده ونبيه صلة روح وحب وتفان وتحصية : « ومن صلَى علىَ صلَى الله عليه وملائكته عشراً ». إنها الصلاة التي تربط هؤلاء المؤمنين بالقلب المحرك لهم ، الذي منَّ به عليهم : « لَقَدْ مَنَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » (١) .

جـ والله تعالى يثيب على الإحسان ، ويعاقب على المعصية ، والذين هم داخل الجيش ووقفوا مع الصف الإسلامي ، ولم يعتنقوا عقيدته ، فسيأخذون أجراً لهم في دنياهم ، أمثال قرمان وغيره : « ومن أحسن من مسلم أو كافر ، وقع أجره على الله في عاجل دنياه أو آجل آخرته » .

دـ وأهم معلم من معالم التربية العامة لهذا الصف المسلم هو : يوم الجمعة حيث يخطب - عليه الصلاة والسلام - في المسلمين ، يبلغهم أوامر ربهم ، ويصوغهم على هدى الله ، والذين تخروا عن الجمعة فاتتهم خير كبير ، ولم يعد الأمر في الخيار بل على سبيل الوجوب والفرض : « ومن كان يؤمِّن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة - يوم الجمعة - إلا صبياً أو امرأة أو مريضاً أو عبداً ملوكاً ، ومن استغنى الله عنه والله غنى حميد » .

هـ وما هو - عليه الصلاة والسلام - : كأنه في خطبة مودع ، فقد أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة : « وما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه » .

وـ وأخطر قضية قبيل المعركة يجب أن يفقها الجيل المجاهد هي : أن الأعمار والأرزاق بيد الله ، ولن تقدم الحرب أو المعركة أو توخر شيئاً فيها ، ففيهم يكون الجن ، فالموت لا يأتي إلا بقدر محدد ، ولو كان المقاتل على فراشه : « قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَمَرَّ الَّذِينَ كَيْبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ . . . . . » ؟ ! (٢) .

(١) آل عمران / ١٦٤ .

(٢) آل عمران / ١٥٤ .

والمعانم التي تتشوق بعض النفوس لها بعد النصر ، لن تطلب بمعصية الله ، ومعصية أوامرها : « وإنه قد نفث في روعي الروح الأمين ، أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لا ينقص من شئ » ، وإن أبطا عنها ، فاتقوا الله ربكم وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء أن تطلبوه بمعصية ربكم ، فإنه لا يقدر على ما عنده لا بطاعته » .

ز- ويبقى القلب المؤمن الحى هو الميزان الحساس في الحال والحرام بعد ما بينها الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ، وذلك في الشبهات بين الحال والحرام : « قد بين لكم الحال والحرام ، غير أن بينهما شيئاً من الأمر لم يعلمه كثير من الناس إلا من عصم فمن تركها حفظ عرضه ودينه » .

وها نحن نجد هذه المعانى التى وردت في الخطبة النبوية التربوية قبيل المعركة . قد جاء القرآن بعد المعركة ليحاسب الصف الإسلامى على ضوئها جمیعاً ، ومدى التزامه بها من عدم التزامه .

#### ٤- النفاق وقادته :

لابد لنا من العودة قليلاً إلى الوراء ؛ لنشهد خريطة المدينة بعد دخول رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ إليها ، وأهم شيء في هذه الخريطة ، هو الحديث عن القيادات في المدينة .

وقلت فيما مضى : إن القيادات الشابة انضمت كلها تحت الراية الإسلامية ، وتبنت الإسلام بروحها وقلبها وحياتها ، أما القيادات الكبيرة التي تقدم بها السن ، وأصبح حب الرعامة دينها ، فقد اختلف موقفها عن القيادات الشابة ، وسنعرض ثلاثة من الأوس والخزرج كانوا أكبر جيب معايد للإسلام في الصف الإسلامي .

قبل حرب بعاث انتهت القيادة في يثرب إلى خمسة قادة كبار : اثنين من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، أكلت الحرب اثنين منهم هما ، القائد الأعلى للأوس : حضير بن سماك الأشهمي ، والقائد الأعلى للخزرج : النعمان بن عمرو البياضي ، وبقى من القيادات الكبرى ثلاثة : عبد الله بن أبي من الخزرج ، وأبو قيس بن الأسلت ، وأبو عامر الراهب من الأوس ، فماذا كان موقف هؤلاء الثلاثة من الدعوة ؟

ولابد قبل الإجابة على هذا السؤال من عرض الأرضية التي يقف عليها هؤلاء الثلاثة قبل حرب بعاث ، حيث تحددت مواقفهم بعدها على ضوئها .

( فاجتمع الملا منهم - أى الأوس - واستحكם أمرهم ، وجدوا في حربهم ، فلما سمعت الخزرج اجتمعوا حتى جاؤوا عبد الله بن أبي وقالوا له : قد كان الذى بلغك

من أمر الأوس ، وأمر قريظة والنضير ، واجتمعهم على حربنا ، وإن نرى أن نقاتلهم ، فإن هزمناهم لم يحرز أحد منهم معقله ولا ملجأه حتى لا يبقى منهم أحد . فلما فرغوا من مقاتلتهم قال لهم عبد الله : إن هذا بغي منكم على قومكم وعقولك ، والله ما أحب أن رجلًا من جراد (١) الفيناهم ، وقد بلغنى أنهم يقولون : هؤلاء قومنا منعون الحياة ، أفيمنعوننا الموت ؟ والله إنى أرى قومًا لا ينتهون أو يهلكوا عامتهم ، وإنى لآخاف إن قاتلوكم أن يُنصروا عليكم لبغيكم عليهم ، فقاتلوا قومكم كما كتتم تقاتلونهم ، فإذا ولوا فخلوا عنهم ، فإذا هزموكم فدخلتكم أدنى البيوت خلوا عنكم ، فقال له عمرو بن النعمان البياضى : اتفتح والله سحرك (٢) يا أبي الحارث ، حين بلغك حلف الأوس وقريظة والنضير ، فقال عبد الله : والله لا حضرتكم أبدًا ولا أحد أطاعنى أبدًا ، ولكنى أنظر إليك قتيلاً تحملك أربعة في عباء .

وابع عبد الله بن أبي رجال من الخزرج ، واجتمع كلام الخزرج على أن رأسوا عليهم : عمرو بن النعمان البياضى وولوه أمر حربهم ، ولبث الأوس والخزرج أربعين ليلة يتصنعون للحرب ، ويجمع بعضهم البعض ، ويرسلون إلى حلفائهم من قبائل العرب . فأرسلت الخزرج إلى جهينة وأشجع ، وأرسلت الأوس إلى مزينة ، وذهب حضير الكتاب الشهلى (ابن سماك) إلى أبي قيس بن الأسلت ، فأمره أن يجمع له أوس الله ، فجمعهم له أبو قيس ، فقام حضير ، فاعتمد على قوته ، وعليه غرة تشفع عن عورته ، فحرّضهم وأمرهم بالجذ في حربهم . . . فأجابته أوس الله بالذى يُحب من النصرة والمُؤازرة والجذ في الحرب ، ثم اجتمع الأوس مرتين أخرى فأجالوا الرأى فقالوا : إن ظفرنا بالخزرج لم نبق منهم أحدًا ولم نقاتلهم كما كنا نقاتلهم ، فقال حضير : يا معاشر الأوس ما سميت الأوس إلا لأنكم توسون الأمور (٣) الواسعة .

يا قوم قد أصبحتكم دوارا  
لمعشر قد قاتلوا الخيارا  
يوشك أن يستأصلوا الديسارا

ثم طرحا بين أيديهم تمرًا وجعلوا يأكلون ، وحضر الكتاب جالس وعليه بردة له قد اشتمل بها الصماء (٤) ، وما يأكل معهم ، ولا يدنو إلى التمر غصباً وحنقاً . فقال : يا قوم ، اعقدوا لأبي قيس بن الأسلت ، فقال لهم أبو قيس : لا أقبل ذلك ، فإنى

(١) رجلًا من جراد : جماعة الجراد .

(٢) أصل السحر : ما التصنف بالحلقوم والمرىء ، ويقال للجبان : اتفتح سهره ، أى ملا الخوف قلبه .

(٣) توسون الأمور : تعاملونها .

(٤) اشتمال الصماء : أن يرد الكساد من قبل يعيشه على يده اليسرى وعلى عاتقه اليسير ، ويرده ثانية من خلفه

على يده اليمنى وعاتقه اليمين فيعطيهما جميماً .

لم أرأس على قوم في حرب قط إلا هزموا وتشاءموا برياستي .

ثم جاءتهم أوس منا ، وقدمت مزينة ، فانطلق حضير وأبو عامر الراهن إلى أبي قيس ، فقالوا: قد جاءتنا مزينة ، واجتمع إلينا من أهل يثرب ما لا قبل للخروج به ، فما الرأي إن نحن ظهرنا عليهم ، الإنذار أم البقية؟ فقال أبو قيس: اقتلوهم حتى يقولوا: بزابر<sup>(١)</sup> ، ثم اختلفوا في ذلك ، فأقسم حضير إلا يشرب الخمر ، أو يظهر وبهدم (مراحماً) أطم عبد الله بن أبي ، ثم لبتوا شهرين يعدون ويستعدون<sup>(٢)</sup> .

انتهت حرب بعاث بهزيمة الخزرج هزيمة منكرة ، وقتل قائده جيشهم عمرو بن النعمان البياضي ، وثبت أن رأى عبد الله بن أبي كان أحكم وأصوب ، فأصبح ابن أبي القائد الوحيد في الخزرج بلا منازع ، وحيث إن ابن أبي لم يدخل الحرب ، فقد حفظ الأوس له هذا الموقف ، وصار من الممكن أن يوافقوا على توحيد كلمتهم تحت قيادته ، وقد برزت هذه الصورة الفريدة في تاريخ المدينة؛ حيث مضى وفدها يضم ثلاثةمائة من الحجاج الأوس والخزرج ، حيث كان أقل من ثلثهم من الأوس ، والباقي من الخزرج ، ذلك الوفد الذي قاتل بيعة العقبة من خلالها ، وتم بروز اثنى عشر قائداً جديداً ليس فيهم أحد من القادة الثلاث من الأوس والخزرج ، وهم القباء الاثنا عشر : ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج ، وكانت هذه البيعة قاصمة الظهر لعبد الله بن أبي ، حيث فقد صوابه فقد حكمته ، وقد توازن بعدها ، وانقلب كالحية الرقطان ينفتح سماً على الإسلام والمسلمين طيلة حياته ، ورأى أن محمداً ﷺ هو الذي أطاح بزعامته ، وقبل الاسترسال في عرض موقف عبد الله بن أبي . نعرض ل موقف الزعيمين الآخرين أبي قيس بن الأسلت ، وأبي عامر الراهن ، أما أبو قيس بن الأسلت ، فكما تذكر كتب السيرة أنه حجز قومه عن الإسلام فترة طويلة ، وعند ابن هشام: واستجتمع له إسلام هذا الحمى من الأنصار ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها - إلا ما كان من خطمة وواقف ووائل وأمية - وتلك أوس الله ، وهم حى من الأوس فإنهم أقاموا على شركهم<sup>(٣)</sup> .

(فولد زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس أمية بطن، ووائل بطن، وعطيه بطن . فمن بنى وائل صيفي الشاعر ، وهو أبو قيس بن الأسلت ، واسم الأسلت: عامر، وكان سيد قومه، فتأخر إسلامه إلى أن مضى يوم الخندق، وتأخر إسلام جمهور بنى خطمة ، وهم بنو جشم بن مالك بن الأوس ، وإسلام جمهور بنى

(١) أيام العرب بلاد المولى وإنخوانه ص ٧٤ - ٧٦ .

(٢) بزابر : كلمة كانوا يقولونها إذا غلبو .

(٣) السيرة النبوية لأبن هشام ٢ / ١٦٦ .

واقف وهم بنو امرئ القيس بن مالك بن الاوس ، وإسلام أوس الله ، وهم هؤلاء  
البطون وهم من ولد مرة بن مالك بن الاوس )<sup>(١)</sup> .

فقد حجز قومه قربة ست سنوات عن الاسلام ، ثم أسلموا بإسلامه )<sup>(٢)</sup> .

وذكر ابن سعد عن الواقدي بأسانيد متعددة قالوا : لم يكن أحد من الاوس  
والخزرج أوصى لدين الحنيفية ، ولا أكثر مسألة عنها من أبي قيس بن الأسلت ، وكان  
يُسأَل من اليهود على دينهم فكان يقاربهم ، ثم خرج إلى الشام فنزل على آل جفنة  
فاكرموه ووصلوه ، وسائل الرهبان والأخبار ، فدعوه إلى دينهم فامتنع . فقال له راهب  
منهم : يا أبو قيس إن كنت ت يريد دين الحنيفية فهو من حيث خرجم ، وهو دين إبراهيم ،  
فقال أبو قيس : أنا على دين إبراهيم ، ثم خرج إلى مكة معتمراً ، فبلغ زيد بن عمرو بن  
نفيل فكلمه فكان يقول : ليس أحد على دين إبراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو ، وكان  
يذكر صفة النبي ﷺ وأنه يهاجر إلى يثرب وشهد وقعة بعاث ، وكانت قبل الهجرة  
بخمس سنين ، فلما قدم النبي ﷺ المدينة جاء إليه فقال : إلام تدعونا ؟ فذكر له شرائع  
الإسلام ، فقال : ما أحسن هذا وأجمله ، فلقيه عبد الله بن أبي بن سلول فقال : لقد  
لذت من حزينا كل ملاذ ، تارة تختلف قريشاً ، وتارة تتبع محمداً فقال : لا جرم ، لا  
تبنته إلا آخر الناس ، فزعموا أنه لما حضره الموت أرسل النبي - صلى الله عليه وآله  
وسلم - يقول له : « قل : لا إله إلا الله أشفع لك بها » ، فسمع يقول ذلك ، وفي لفظ :  
 كانوا يقولون : فقد سمع يوحده عند الموت )<sup>(٣)</sup> .

وأما أبو عامر الراهب فكما ذُكر آنفًا .

( وكان أبو عامر الفاسق قد خرج في خمسين رجلاً من أوس الله حتى قدم بهم  
مكة حين قدم النبي ﷺ المدينة ، فاقام مع قريش ، وكان دعا قومه فقال لهم : إن  
محمدًا ظاهر ، فاخرجوا بنا إلى قوم نوازيرهم ، فخرج إلى قريش يحرضها ، ويعلمها  
أنها على الحق ، وما جاء به محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر ولم يسر معها ، فلما  
خرجت قريش إلى أحد سار معها وكان يقول لقريش : إنني لو قدمت على قومي لم  
يختلف عليكم منهم رجلان ، وهؤلاء معنٰ نفر من قومي وهم خمسون رجلاً ،  
فصدقوا بما قال وطمعوا بنصره )<sup>(٤)</sup> .

لكن الظواهر توحى أن خروجه لم يكن طفراً ، وكان بينه وبين عبد الله بن أبي

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٣٤٥ .

(٢) ويذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة أنه اختلف في إسلامه .

(٣) المغارى للواقدى لابن حجر ٤ ، ٧ / ١٥٨ .

(٤) الإصابة لابن حجر ٤ ، ٢٠٥ / ١ .

مخيط رهيب مشترك تم الاتفاق سرًا عليه ، مع أن ابن أبي زعيم الخزرج ، وأبا عامر الفاسق من قادة الأوس ، وتشير الأمور إلى اتحاد الموقف ضد الإسلام بينهما منذ اللحظات الأولى ، وأبو قيس بن الأسلت وإن شارك في الموقف والإصرار على الكفر ، لكنه لم يمض أبداً في طريق التأمر ، كما فعل هذين الرجلين من أكابر مجرميها ، وحتى تتم تغطية الصلات المشبوهة المستمرة بينهما : أقدمًا على عقد مصاهرة ، فزوج عبد الله بن أبي ابنته جميلة إلى حنظلة بن أبي عامر .

أما جميلة وحنظلة فقد أشرق قلبهما بالإسلام ، ولم يدنس بالشرك ، فأسقط في يد المجرمين ، وغادر أبو عامر المدينة إلى مكة ، وكان من الممكن أن تتصور انقطاع العلاقات بينهما ، لكن ما تم في أحد يوحى بأن الرجلين كانوا على خطة مشتركة موحدة في حرب رسول الله ﷺ ، إذ تكفل عبد الله بن أبي بنتفید جريمته داخل الصف ، وشق الجيش الإسلامي والعودة بثلثه إلى المدينة ، وتکفل أبو عامر الراهب أن ينخذل بالأوس عن التقاء الصفين ، فتتم خلخلة الجيش وتخطيمه من فريق الأوس والخزرج ؛ ولهذا كان أول من أشعل الحرب أبو عامر الراهب .

(إن أول من أشعل الحرب بينهم أبو عامر ، طلع في خمسين من قومه معه عبيد قريش ، فنادى أبو عامر - وهو عبد عمرو - : يا آل أوس ، أنا أبو عامر ! فقالوا : لا مرحبا بك ولا أهلاً يا فاسقا ! فقال : لقد أصاب قومي بعدي شر ، ومعه عبيد أهل مكة ، فتراموا بالحجارة هم والمسلمون حتى تراضخوا بها ساعة حتى ولّ أبو عامر وأصحابه ) (١) .

وحيث عجز أن يفعل شيئاً مع قومه ، حتى ولا ابنه حنظلة الذي بلغ من علو كعبه في الإسلام أن يكون غسيل الملائكة في الوقت الذي كان أبوه أبو عامر لعين الملائكة ، حيث حفر حفرًا وغطاءها ووقع رسول الله ﷺ في إحداها في قلب المعركة .

ونأتي إلى عبد الله بن أبي ، أكبر المجرمين الثلاثة ، الذي لم يصل سوانه بعد في بني قينقاع ، وبعد أن فضحه القرآن بآن من يتولى اليهود والنصارى فهو منهم ، لم يهز كيانه هذا كله ، ويقى له مقامه في قومه ، يتصدر المجالس ، خاصة وقد اعتنق الإسلام وراح يتكلّم فيه بعد بدر مباشرة ؛ لأن بني قينقاع تمت بعدها بخمسة عشر يوماً ، حيث قدم وساطته اللثيمة .

وها هو أول المتكلمين في أحد . وإن كان في الموقف الشوري قد التقى مع رسول

(١) المخارق للواقدي ١ / ٢٢٣ .

الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ، لكنه كان يخبطط لأن يكون بطل أحد ، وأن يكون الثغرة التي يدخل المشركون من خلالها المدينة ، فلم يكن شخص ابن أبي خافيا على قريش ، ولما خابت خطته الأولى في إبقاء الجيش الإسلامي داخل المدينة ، وشاهد أن لابد من الخروج ، استدعى كتابة بنى التضير ، فجاءت مناصرة له لا لمحمد بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ .

( ثم ركب رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ فرسه السَّكُب ، وتقلد القوس ، وأخذ قناة بيده ، والملعون عليهم السلاح بينهم مائة دارع ، وخرج السعدان أمامه يدعوان : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة كل منهما دارع ، والناس عن يمينه وشماله ، حتى إذا انتهى إلى رئيس الثانية رأى كتيبة خشنة لها زجل فقال : « ما هذا ؟ » قالوا : هؤلاء حلفاء عبد الله ابن أبي من يهود ، فقال : « أسلموا ؟ » فقيل : لا ، فقال : « إنا لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك » ) (١) .

وتعرف على عدد هؤلاء من خلال رواية الطبراني .

( وقد روى الطبراني في الكبير والأوسط برجال ثقates عن أبي حميد الساعدي : أن النبي بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ خرج يوم أحد ، حتى إذاجاوز ثنية الوداع ، فإذا هو بكتيبة خشنة فقال : « من هؤلاء ؟ » قالوا : عبد الله بن أبي في ستمائة من مواليه من اليهود ، فقال : « وقد أسلموا ؟ » قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « مروهم فليرجعوا ، فإننا لا نستعين بالمرتكين على المشركين » ) (٢) .

فابن أبي بريد أن يثبت أنه القائد الأول في المدينة، فإذا انضم إلى الجيش الإسلامي ستمائة من اليهود بالإضافة إلى أنصاره المئات داخل الألف المسلمة ، فإن تحققت الهزيمة فسيكون هو الملك المتوج ولن ينزعه أحد، وقريش على تفاهم تام معه ، وإن كان النصر فهو الشريك الأول فيه .

هذا هو الجو الذي كانت المدينة تعج فيه من الصف المتخلل ؛ إذ يحمي ابن أبي سبعمائة دارع وحاسر من بنى قينقاع من قبل . وهذا هو يستقدم ستمائة من بنى التضير من حلفائه ؛ لينضموا للجيش الإسلامي .

وها هو - عليه الصلاة والسلام - أمام هذه الأعداد الضخمة ، فقد انضم للجيش أكثر من نصفه ، فمن القائد في هذه الجموع الغفيرة ؟! والملعون ينظرون إلى حبيبه المصطفى بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ كيف يتصرف مع هذه الكتيبة الضخمة التي تفوق نصف الجيش الإسلامي ، ترى هل يستشير أصحابه في ذلك ؟ وقد استشارهم في أخطر وأهم من ذلك - في

(٢) شرح المواهب اللدنية للزرقاوي ٢ / ٢٥ .

(١) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٢٧٧ .

استراتيجية المعركة وخطتها - لكنه - عليه الصلاة والسلام - يتأكد فقط : « وقد أسلموا ؟ »  
قالوا : لا .

ولم تنتظر هذه القضية عند المصطفى ﷺ لحظة من لحظات المشورة ، أو التردد ، أو دراسة العواقب ، فهي لا تقبل مثل هذا الجدل ، وقوة اليهود المعلنة تصاهي وتقرب من قوة المسلمين ، وتجعلهم أصحاب شوكة - وشركاء في النصر - وأصحاب شروط في الحكم من جديد في المدينة ، فكان الجواب النبوى الحاسم دون تردد ولا تلعثم ولا انتظار : « مروهم فليرجعوا ، فإننا لا نستعين بالشركين على المشركين » .

لأنهم لا يقلون خطراً عن قريش داخل الصدف ، ولو كانت قريش خمسة أضعافهم . وكانت صدمة عنيفة لشخص عبد الله بن أبي ، ويدرك - عليه الصلاة والسلام - أن مثل هذه الصدمة ستقع ، ويدرك أنه مقدم على انقسام خطير داخل صفه ، فلم يستشر أحداً في ذلك ، وأصدر أمره بعودة اليهود ، وهل يجرؤ عبد الله بن أبي أمام الحلفاء الذين ردهم رسول الله ﷺ أن يسكن دون أن يقدم على جريمته الرهيبة ؟ إنه لا شك سيفقد هؤلاء الحلفاء .

واجتمعت القضيتان معاً ، فجعل منها سبب إعلان العصيان المسلح ، ومبرراً للخروج على محمد ﷺ أمام قومه من الخزرج .

( فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أحد - إلى موضع القنطرة اليوم - جاء وقد حانت الصلاة وهو يرى المشركين ، أمر بلاً فاذن فأقام وصلى بأصحابه صفوقاً ، وارتاح ابن أبي من ذلك المكان في كتبة كأنه هيق يقدمهم ، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال : أذركم الله دينكم ونبيكم ، وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم ، فقال ابن أبي : ما أرى أن يكون بينهم قتال ، ولئن أطعنتني يا أبو جابر لترجعن ، فإن أهل الرأى والحجج قد رجعوا ، ونحن ناصروه في مديتها ، وقد خالفنا وأشارت عليه بالرأى ، فأبي إلا طوعية الغلمان ، فلما أبى على عبد الله أن يرجع ودخلوا أرقة المدينة ، قال لهم أبو جابر : أبعدكم الله ، إن الله سيعنى النبي والمؤمنين عن نصركم ، فانصرف ابن أبي وهو يقول : أيعصي بي ويطيع الولدان ؟ وانصرف عبد الله بن عمرو بن حرام يudo حتى لحق رسول الله ﷺ وهو يسوى الصفوف ، فلما أصيّب أصحاب النبي ﷺ سر ابن أبي ، وأظهر الشماتة وقال : عصاني وأطاع من لا رأي له ) (١) .

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (٢) .

(١) المخاري للواقدي ٢١٩ / ١ .

(٢) آل عمران / ١٧٩ .

لم يكن - عليه الصلاة والسلام - قادرًا على رفض هذا الحديث من ابن أبي وصحبه المدخولين في الجيش وهم يقولون : لا إله إلا الله ، ويتظاهرون بالإسلام ، على أمل أن يتمكن الصف القوى من صهرهم مع الزمن وتربيتهم ، لكن عاماً واحداً لا يكفي لمثل هذه التربية لمثل هذه الأعداد الهائلة ، وهذا الحديث الذي انفصل مع عبد الله بن أبي ، وإن كان ابتداءً قد يفت في عضد المسلمين ، لكنه عند الله تعالى رب السموات والأرض حكم ، وقد تم هذا الأمر بالتقدير الرباني في أعنف لحظة ، وأشدتها هولاً عندما التقى الصفان في أحد ، وتراءى الجمعان ، وبعد صلاة الفجر حيث صلوا جميعاً صفوًا .

وحتى تعرف قريش كذلك فضل ابن أبي ، وتعرف وزنه وحجمه ، وتعرف استقلال حزبه وشخصه عن محمد ﷺ أقدم على جريمته دون استذان ، والذين مضوا معه ، إنما مضوا بقرار ميت مدروس وليس بانفعال طارئ ، فكما تصفهم الرواية ( ارتحل في كتبية كأنه هيق يقدمهم ) .

فهؤلاء الثلاثمائة حزبه وردهه وأتباعه ، إنما الذين كادوا أن يتأثروا به ، فريقان من المؤمنين : بنو سلمة ، وبنو حارثة .

أما بنو سلمة ، فهم من الخخرج ولا سلطان لابن أبي عليهم ، لكن قيادتهم قد آلت إلى منافق من عترة المناقفين في السنة الأولى في المدينة ، مثل ربع عبد الله بن أبي ، وهو الجد بن قيس ، فكما تقول الرواية :

( روى البخاري في الأدب المفرد ، والسراج وأبو الشيخ في الأمثال ، وأبو نعيم في المعرفة من طريق حجاج الصواف ، عن أبي الزبير : حدثنا جابر قال لنا رسول الله ﷺ : « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ » قالوا : الجد بن قيس على أنا نبجله ، فقال بيده مكذا ، ومد بيده : « وأى داء أدوا من البخل . سيدكم عمرو بن الجموح » )<sup>(١)</sup> .

والجد بن قيس كان في مكة ضمن الوفد يوم بيعة العقبة ، ولم يبايع رسول الله ﷺ ، ولم يدخل في الإسلام آنذاك ، بينما شاركت قيادات بنى سلمة ، عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ، وكعب بن مالك شاعر الإسلام العظيم ، والبراء بن معروف ، الذي كان أول من بايع رسول الله ﷺ .

فسيادة الجد بن قيس ، والذي مر الزمن ويقى متهمًا على نفاته حتى تبوك وبعدها ، ولم يثبت توبيه وحسن إسلامه هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ذهب عبد الله بن عمرو ابن حرام ﷺ في محاولة مستحبة لصرف عبد الله بن أبي عن رأيه ، ووصوله المدينة معه ، أو همت بعض بنى سلمة أن سيدهم انصرف مع ابن أبي ، لكن الله عصّهم من

(١) الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٢٩٠ / ٤ .

هذه اللوحة بشهادة القرآن نفسه : « إِذْ هَمَّ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَوْكِلُ الْمُؤْمِنُونَ » (١) .

يقول جابر رضي الله عنه فينا نزلت : « إِذْ هَمَّ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا » قال : نحن الطائفتان ، بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب ، أو ما يسرني أنها لم تنزل لقوله تعالى : « وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ... » (٢) ، لكن جمهور بنى سلمة كان أكثر الناس حضوراً مع رسول الله ﷺ في أحد ، وأكثرهم جرحًا مع بنى التجار وبنى عبد الأشهل ، فكان أول قتيل في أحد عبد الله بن عمرو رضي الله عنه الذي مضى ليصد ابن أبي عن جريمته .

قال جابر : كان أبي أول قتيل قتل من المسلمين ، قتله سفيان بن عبد شمس ، وهو والد أبي الأعور السلمي (٣) .

وأما بنو حارثة فهم من الأوس ، ولهم مواقف سابقة في الضعف قبل الإسلام ، وكان بينهم وبين بنى عبد الأشهل توتر من أجل ذلك ، ففي يوم بعاث بين الأوس والخزرج ( تخلف بنو حارثة فبعثوا إلى الخزرج : إنا والله ما نزيد قتالكم ، فبعثوا لهم أن ابعثوا إلينا برهائن منكم يكونون في أيدينا فبعثوا إليهم اثنى عشر رجلاً ) (٤) .

ولقد شهدنا بعض هذا التوتر قبيل وصول رسول الله ﷺ على أحد وهو في طريقه إليها ( فلما كان السحر قال رسول الله ﷺ : « أين الأدلة ؟ من رجل يدلنا على الطريق ، ويخرجنا على القوم من كثب ؟ » فقام أبو حمزة الحارثي فقال : أنا يا رسول الله ... قال : فخرج رسول الله ﷺ فركب فرسه ، فسلك به في بنى حارثة ، ثم أخذ في الأموال حتى يمر بحانط مربع بن قيظي ، وكان أعمى البصر منافقاً ، فلما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه حانطه قام يحshi التراب في وجههم وجعل يقول : إن كنت رسول الله فلا تدخل حانطى ، فيضرره سعد بن زيد الأشهل بقوس في يده فشجه في رأسه فنزل الدم ، فغضب له بعض بنى حارثة من هو على مثل رأيه فقال : هي عداوتك يا بنى عبد الأشهل لا تدعونها أبداً لنا ، فقال أسيد بن حضير : لا والله ، ولكنه نفاقكم ، والله لو لا أنى لا أدرى ما يوافق النبي ﷺ من ذلك لضررت عنقه وعنق من هو على مثل رأيه . فاسكتوا ) (٥) .

(١) آل عمران / ١٢٢ .

(٢) فتح الباري ٧ / ٣٥٧ (٤٠٥١) .

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٤ / ٣٦ .

(٤) أيام العرب : جلاد المولى بك وزملاه ص ٢١٨ .

(٥) المغازي للواقدي ١ / ٧٦ .

وفي رواية : ( فنهاهم النبي ﷺ عن الكلام فأسكتوا ) (١) .

وبلغت القمة بالمنافق ما ذكر أنه أخذ حفنة من تراب في يده ثم قال لرسول الله ﷺ : والله لو أعلم أنى لا أصيب غيرك فضررت بها وجهك ، فابتدره القوم ليقتلوه فقال رسول الله ﷺ : « لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر » ، وقد بدر إليه سعد بن زيد الأشهلی قبل نهى رسول الله ﷺ فضررته في القوس فشجه ، فغضب له ناس من بنى حارثة وهم قومه وكانوا على مثل رأيه ، فهم به أسيد بن حضير حتى أوما إليه رسول الله ﷺ فكف (٢) .

هذا الجيل الأول الذى لم يعد يرى فى الوجود غير شخص رسول الله ﷺ ، هاموا يجد فى الصد وفى قلب من يزعم الإسلام ، من يقف هذه المواقف : ( إن كنت رسول الله فلا تدخل حائطى ) .

( لو علم أنى لا أصيب بها غيرك فضررت بها وجهك ) كيف تصير أعصاب هذا الجيل على أمثال هذه النماذج ، ولو لا التربية النبوية العميقة العظيمة له لقطعت رؤوس عن أجسادها خاصة من راحوا يتتصرون له ، لكن عظمة التربية أو قفهم بالإيمان فتقروا ، وقلوبهم تتغلب كالرجل غضباً لله ورسوله ، ولكنها ستتحول إلى عصبية قبلية ، ورأينا آثارها مباشرة فى أن كان بنو حارثة قد هموا أن يرجعوا مع ابن أبي ، ثم عصّهم الله بيديهم ، لكنها لم تكن آخر سوانحهم ، فهم الذى تحدث عنهم القرآن كذلك يوم الخندق « وَإِذْ قَاتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ بَيْرُبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوهُ وَيَسْأَذُونَ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيُّ يَقُولُونَ إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلْتُ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَفْطَارِهَا ثُمَّ سُلُّوا الْفِتْنَةَ لَا تَوْهُنَا وَمَا تَلْبِيَنَا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا » (٣) . قال العوفى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق ، وكذا قال غير واحد ، وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك هو أوس بن قيظى (٤) .

لكن بنى حارثة يقى حسابهم ضمن المؤمنين ، وضمن الطيب الذى هم بالخطيئة ، وعصمه الله بإيمانه ، أما الذى انكشف بوقاشه وسوءه ، وفصله الله تعالى من الصد المظلم ، فهم هؤلاء الثلاثمائة الذينقادهم عبد الله بن أبي ووصفهم القرآن فيما بعد فقال : « وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَأَقْبَلُوا وَقَبْلَهُمْ تَعَالَوْا قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَاتَلُوا لَوْ نَعْلَمُ قَاتَلُوا لَا تَبْغُنَاكُمْ هُمُ الْكُفَّارُ يُوَمِّدُ أَقْرَبَ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِآفَوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

(٢) سيل الهدى والرشاد ٤/٢٧٩ .

(١) المغارى للواقدى ١ / ٢١٨ .

(٤) تفسير ابن كثير ٦/٤٣٥ .

(٣) الأحزاب / ١٣ ، ١٤ .

بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَاتَلُوا لِإِخْرَاهِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوكُمْ مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرُءُوهُا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتُ  
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ (١) .

لقد ازدادت ثقة رسول الله ﷺ بالنصر عندما غادر المنافقون ، فهو يعلم أن الله تعالى لن ينزل نصره على صف ثالث من المنافقين ، أو أدنى من ذلك بكثير ، وبعد أن ميز الله تعالى الصف وظهره من النفاق ، كان التمييز الثاني في قلب المعركة بين الجيل الأول ، بين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وبين الذين اتبعوهم ، فبعضهم مرض صعداً بإحسانه ليقف بجوارهم ، وبعضهم كان يسقط حيناً ويتعثر آخر ، وتتلغأ التربية القرآنية ثم التربية النبوية الدؤوبة المستمرة ، ليتابع خطاه على الطريق نفسه . لقد كان هذا الانفصال أضخم حدث شهدته الأمة المسلمة ، منذ أن قامت دولتها على الأرض ، وبعد عامين ونيفٍ من تأسيسها ، وكان - عليه الصلاة والسلام - يحسب حساب مثل هذا الامتداد الأفقي ، وبعد له العدة المناسبة لامتصاصه وتنقيته .

لكن الذين يظهرون الإسلام ويبطون الكفر ، لا بد لهؤلاء من دخول الإيمان إلى قلوبهم ابتداءً ، ثم الحديث معهم في جزئيات الإسلام بعد ذلك .

هذا التركيب الذي غدا بين يدي النبي ﷺ غداً أحد ، وهذا الاشقاق الذي حدث ، ثم المعركة المصيرية الرهيبة التي وقعت بين المؤمنين والكافرين ، والنتائج الباهرة من الثبات والصمود ، وفشل العدو في التقدم شبراً نحو المدينة ، والنتائج المريرة من الضحايا والشهداء التي مضت إلى بارتها ، وفوات النصر العظيم الذي تحقق لمعصية قائهم - عليه الصلاة والسلام - كل هذه الأمور كانت مخبأة في قدر الله إلى أن انتهت المعركة ، وبرز الإيمان كله ، والنفاق كله ، والكفر كله ، والعصيان كله ، جاء القرآن الكريم بعدها لعرض كل ما تم من خلال الآيات الستين من آل عمران ، والتي تمت معالجتها في ( التربية الجهادية ) . وتابع هنا خلاصة الموقف من النفاق بعد انتهاء المعركة ، والأثار العنيفة في الصف لهذا الانشطار .

ولعل فرصة قليلة قبل اندلاع المعركة غضبت بها الفوس المسلم لله ، ودعت إلى قتل أولئك المنافقين الثلاثمائة ، بينما كان فريق آخر يرى التريث معهم ، لما يقدم عليه المسلمون من الحرب ، وقد سجل القرآن لهم هذين الموقفين : « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَتَهْتَمُنَّ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مِنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلَ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا » (٢) .

(١) آل عمران / ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٢) النساء / ٨٨ .

( فقد روی الشیخان عن زید بن ثابت و ابن اسحاق عن البراء بن عازب - رضى الله عنهم ) قالا : لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد خرج معه بناس فرجعوا ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين ، فقالت فرقه : نقتلهم ، وقالت فرقه : لا نقتلهم ، فأنزل الله تعالى : « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَرَأَيْتَهُمْ يَمْعَلُونَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا » ردهم إلى كفرهم بأعمالهم فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا طَيْبَةٌ ، إِنَّهَا تَنْفِي الْخَبَثَ كَمَا تَنْفِي النَّارَ خَبْثَ الْفَضْلَةِ » (١) .

إن أكبر القضايا التي كان رسول الله ﷺ يعاني منها في صهر هذا الجيل الجديد بالإسلام هي : قضية العصبية القبلية ، إذ أن العرب كان دينهم أن ينصر أحدهم أخيه ظالماً أو مظلوماً ، وجاء الإسلام ليجتث هذه القضية من جذورها ، لكن القرار النظري شيء ، والممارسة والتدريب العملي على الخلوص منها شيء آخر ، وهذه الأفراح الجديدة التي انضمت إلى الإسلام ليست كلها مدخوله أو مشكوك في عقيدتها ، لكن وجود عبد الله بن أبي في هذا الموقع بصفته مركز قوة كبرى كان يجعل هذه الأرجحة في صف الخزرج ، وبعد تغير صفة من المنافقين ، كان المؤمنون الصادقون من المهاجرين والأنصار فرقتين في الموقع المناسب من هذا الحزب ورئيسه ، فرقه ترى قتالهم ولا يأخذ المسلمين منهم لومة لائم ، وتطهير المجتمع الإسلامي منهم ، وفرقه ترى التريث والصبر عليهم على أمل أن يصلح حالهم ، ويفضح أمر عبد الله بن أبي معهم . ولا شك أن الصادقين الأولين من الخزرج كان أكثرهم على هذا الرأي ، ففي المنافقين أقرباؤهم وإخوانهم وذووهم ، وحرصهم على أن تُطهَّر قلوب هؤلاء الأقارب من المنافقين ، وأن يُنقذوا من النار يحدوهم أن يطلبوا التمهيل والتريث في قتالهم ، قبل أن تراق الدماء ، وتنهي العصبيات من جديد . ويتنفس الباطل ثاراً واندفعاً عن ذاته ووجوده ، فيتميز الصف الإسلامي ويتبادر ، إضافة إلى تميزه وخلله الذي ذكرناه من قبل .

ولنستمع إلى هذا الحوار بين رسول الله ﷺ وبين أكبر مستشاريه عمر الفاروق رضي الله عنه .

( ... وجعل المنافقون يدخلون عن رسول الله ﷺ أصحابه ، ويأمرونهم بالتفريق عنه ويقولون : لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل ، وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك في أماكن ، فمشى إلى رسول الله ﷺ ، ليستأذهن في قتل من سمع ذلك منه من

اليهود والمنافقين ، فقال ﷺ : « يا عمر إن الله تعالى مظهر دينه ، ومعز نبيه ، ولليهود ذمة فلا أقتلهم » قال : فهؤلاء المنافقون ؟ قال : « أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ؟ » قال : بلـى يا رسول الله ، وإنما يفعلون ذلك تعودـاً من السيف ، فقد بـان لنا أمرـهم وأبـدى الله تعالى أضـغانـهم عندـ هذهـ النـكـبة ، فقال : « إنـي نـهـيـتـ عنـ قـتـلـ منـ قـالـ : لـا إـلـهـ إـلـاـ اللهـ ، وـأـنـ مـحـمـدـ رـسـولـ اللهـ ، يـاـ بنـ الخطـابـ ، إـنـ قـرـيـشـاـ لـنـ يـنـالـواـ مـاـ مـثـلـ هـذـاـ الـيـوـمـ حـتـىـ نـسـلـمـ الرـكـنـ » (١) .

ها نحن بين يدي سيد القادة الذى رأى بصيرته النافذة كل الآثار المترتبة على المواقف الخبيثة للمنافقين ، والضعفـة لـضعـافـ الإيمـانـ ، وـحينـ تكونـ القضـيةـ قضـيـةـ انتـصـارـ فيـ حـرـبـ ، أوـ هـزـيمـةـ فيـ مـعرـكـةـ ، فـكـثـيرـاـ ماـ يـلـجـأـ القـادـةـ الكـبـارـ إـلـىـ مـحاـكمـاتـ مـيـدانـيـةـ ، وـتـصـفيـاتـ جـسـديـةـ ، وـإـعدـامـاتـ لـمـنـ تـسـبـبـ فيـ هـذـهـ المـحـنةـ وـهـذـهـ الـهـزـيمـةـ ؛ لـفـرـضـ الـرـهـبةـ وـالـقـوـةـ فيـ الدـوـلـةـ ، وـامـتـصـاصـ التـقـمـةـ الشـعـبـيـةـ بـسـبـبـ فـوـاتـ النـصـرـ العـظـيمـ الـمـتـوقـعـ ، وـقـدـ تـقـضـيـ المـصلـحةـ مـثـلـ هـذـهـ الـإـعـدـامـاتـ عـنـدـمـاـ يـتـحـركـ الطـابـورـ الـخـامـسـ ؛ ليـكونـ مـعـارـضـةـ وـنـقـدـاـ جـارـحـينـ عـنـيفـينـ لـقـيـادـةـ الـمـعرـكـةـ .

وـقـدـ رـأـيـناـ هـذـاـ الجـوـ يـنـفـثـ سـمـومـهـ فـيـ كـلـ مـكـانـ ، فـيـ دـاخـلـ حـزـبـ التـنـافـقـ الذـىـ رـاحـ يـؤـلـبـ الجـوـ ضـدـ الـمـسـلـمـينـ ، وـيـسـتـغـلـ الـجـراـحـاتـ الفـاشـيـةـ ، وـالـدـمـاءـ الـمـرـاقـةـ ؛ لـإـثـبـاتـ صـحـةـ مـوـقـفـهـ ، وـعـقـمـ تـخـطـيـطـهـ ، كـمـاـ بـدـاـ مـثـلـ هـذـهـ الرـوـحـ كـذـلـكـ بـالـتـعـاـونـ مـعـ الـيـهـودـ ، الـعـدـوـ الدـاخـلـىـ الـأـلـدـ ، لـلـتـشـكـىـكـ بـقـيـادـةـ الـمـصـطـفـىـ ﷺ ، وـالـنـيلـ مـنـ الـخـطـةـ الـحـرـبـيـةـ الـتـىـ اـخـتـارـهـاـ لـمـعـرـكـةـ .

إـنـ المـوـقـفـ الـبـشـرـىـ الذـىـ يـتـعـاـمـلـ مـعـ ظـواـهـرـ الـأـمـورـ يـقـضـيـ مـوقـفـاـ جـادـاـ ، حـازـماـ ؛ لـمـواجهـهـ هـذـهـ الـاضـطـرـابـاتـ ، وـلـفـرـضـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ الـمـوـقـفـ ، أـمـاـ فـيـ التـقـوـيـمـ الـرـيـانـىـ ، وـفـيـ التـرـبـيـةـ الـتـبـوـيـةـ ، فـالـأـمـرـ أـبـدـعـ بـكـثـيرـ وـأـعـقـمـ بـكـثـيرـ مـنـ فـرـضـ الـقـوـةـ ، وـأـكـبـرـ بـكـثـيرـ مـنـ فـرـضـ الـإـرـهـابـ ، لـيـقـىـ الـإـسـلـامـ هوـ الـحـاـكـمـ .

لـقـدـ نـزـلـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ بـالـمـنهـجـ الـفـصـلـ فـيـ هـذـاـ الـمـوـضـوعـ بـقـوـلـهـ - عـزـ وـجـلـ - : «فـمـاـ لـكـمـ فـيـ الـمـنـافـقـينـ فـتـيـنـ وـالـلـهـ أـرـكـسـهـمـ بـمـاـ كـسـبـواـ أـتـرـيـدـوـنـ أـنـ تـهـدـوـنـ مـنـ أـضـلـلـ اللـهـ فـلـنـ تـجـدـ لـهـ سـبـيـلاـ . وـذـلـىـ لـوـ تـكـفـرـوـنـ كـمـاـ كـفـرـوـاـ فـتـكـوـنـوـنـ سـوـاءـ فـلـاـ تـتـخـذـوـنـ مـنـهـمـ أـوـلـيـاءـ حـتـىـ يـهـاجـرـوـاـ فـيـ سـبـيـلـ اللـهـ فـإـنـ تـوـلـوـاـ فـلـخـذـوـهـمـ وـأـقـتـلـوـهـمـ حـيـثـ وـجـدـتـمـهـمـ وـلـاـ تـتـخـذـوـنـ مـنـهـمـ وـلـيـأـ وـلـاـ نـصـيـراـ » (٢) .

(١) سـبـلـ الـهـلـىـ وـالـرـشـادـ لـلـإـلـامـ الصـالـحـىـ ٤ / ٣٣٨ ، ٨٨ . (٢) النـسـاءـ / ٤ .

لقد كان موقفهم كفراً حين خذلوا نبيهم في قلب المعركة ، ولا يجوز التعامل معهم ، أو لا يفهم حتى يعلموا خطأهم وتبتهم من هذا الكفر ، فليحذر المؤمنون أن يقيموا معهم حزبًا عصبية أو ثاراً ، ولابد من عزلهم ومماطلتهم ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ما لم يعلموا انضمامهم لصف اليهود أو صف قريش ، أو ارتداهم علينا عن دينهم فلا داعي لقتلهم ومواجهتهم ، ويكتفى ضرب الحصار عليهم لمراقبة تصرفاتهم ، وابتداء معالجتهم ، أما عندما يتضمنون للصف المشرك المعادي ، ويعملون خروجهم عن الإسلام **﴿فَإِنْ تَوَلُّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدُوكُمْمَ وَلَا تَتَّخِذُوْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾**

هذا هو الخط القرآني في التربية ، ومن روحه ، ومن عبق النبوة كان الموقف الموائم والمتألم معه ، نرى رسول الله ﷺ يرد على أكبر مستشاريه رأيه في قتالهم ، ويحدد - عليه الصلاة والسلام - خطأً أصيلاً من خطوط التربية في التعامل مع هذه النماذج ، وهو خط عدم القتل لمن يقول: لا إله إلا الله ، مع اليقظة التامة لكل الأعيщين وخبطتهم الخبيثة الماكرة: **«إِنِّي نَهَيْتُ عَنِ قَتْلِ مَنْ قَاتَلَنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ . يَا بْنَ الْخَطَابِ إِنْ قَرِيشًا لَنْ يَنْلَوَا مَنْ مِثْلُ هَذَا الْيَوْمِ حَتَّى نَسْتَلِمَ الرَّكْنَ»**.

لم تكن المعالجة في القتل والقتال في هذا الصف المضطرب المترلز ، وفيه قلاع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وفيه ضعاف الإيمان ، وفيه المنافقون المغموس عليهم في النفاق ، فكيف تكون المعالجة ؟ هذا ما نجيب عليه في الفصل القاسم بإذن الله .

## الأيام الأربعية بعد أحد

ذكر دعائه ﷺ بعد الواقعة يوم أحد :

روى الإمام أحمد والنسائي ، والحاكم وقال : على شرط الشيفيين ، وأقره الذهبي ومحمد بن عمر الإسلامي ، عن رفاعة بن رافع الزرقاني رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ لما فرغ من دفن أصحابه ركب فرسه، وخرج المسلمون حوله - عامتهم جرحى - ولا مثل لبني سلمة وبني عبد الأشهل ، ومعه أربع عشرة امرأة ، فلما كانوا بأصل أحد قال : « اصطفوا حتى أثني على ربى عز وجل » ، فاصطف الرجال خلفه صفوفاً ، خلفهم النساء ، فقال : « اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لمن منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك وفضلك ورحمتك ورزقك ، اللهم إنا نسائلك التعميم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، اللهم إنا نسائلك التعميم يوم العيля ، اللهم إنا نسائلك الأمان يوم الخوف ، والغنى يوم الفاقة ، اللهم إني عاذ بك من شر ما أعطينا ، ومن شر ما منعتنا ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين ، وأحياناً مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرا الذين يكذبون رسليك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعداك ، اللهم قاتل الكفرا الذين أوتوا الكتاب ، إله الحق أمين » .

ذكر رحيل النبي ﷺ إلى المدينة :

لما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه - رضى الله عنهم - ركب فرسه، وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة ، فلقيته حمنة بنت جحش فقال لها رسول الله ﷺ : « يا حمنة احتسبى » قالت : من يا رسول الله ؟ قال : « خالك حمزة بن عبد المطلب » فقالت : إنا لله وإننا إليه راجعون غفر الله له ، هنئنا له الشهادة ، ثم قال لها : « احتسبى » قالت : من يا رسول الله ؟ قال : « أخوك عبد الله بن جحش » . قالت : إنا لله وإننا إليه راجعون غفر الله له ، هنئنا له الشهادة ، ثم قال لها : « احتسبى » قالت : من يا رسول الله ؟ قال : « زوجك مصعب بن عمير » فقلت : واحزناه ، وفي لفظ : واعقراء ، وصاحت ولو لوت . فقال رسول الله ﷺ : « إن زوج المرأة منها لم يمكان » لما رأى من

تبثها على أخيها وختالها ، وصياحها على زوجها . ثم قال لها : « لم قلت هذا ؟ »  
قالت : يا رسول الله ذكرت يتم بنيه فراغني ، فدعا لها رسول الله ﷺ ولولدها أن  
يحسن الله عليهم من الخلف .

وروى ابن ماجه عن حمنة بنت جحش أنه قيل لها : قُتل أخوك ، فقالت : رحمه  
الله ، وإنما الله وإنما إليه راجعون . فقالوا : قتل زوجك ؟ فقالت : واحزناه ! فقال  
رسول الله ﷺ : « إن للزوج من المرأة لشفقة ما هي لشيء » .

وأقبل رسول الله ﷺ حتى طلع على بنى عبد الأشهل وهم يكرون على قتلامن ،  
فذرفت عينا رسول الله ﷺ ثم قال : « لكن حمزة لا يبكي له ! » فخرج النساء ينظرن  
إلى سلامة رسول الله ﷺ . فقالت أم عامر الأشهلية : كل مصيبة بعده جلل .

ومر رسول الله ﷺ بأمرأة من بنى دينار قد أصيب أبوها وزوجها وأخوها مع  
رسول الله ﷺ بأحد ، فلما نعوا إليها قالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً  
يا أم فلان هو بحمد الله كما تخبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير بها إليه ،  
فلما رأته قالت : كل مصيبة بعده جلل .

وروى الطبراني عن أنس بن مالك قال : لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيمة ،  
وقالوا : قتل محمد ، حتى كثر الصراخ في ناحية المدينة ، فخرجت امرأة من الأنصار  
محزنة ، فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها - لا أدرى أيهم استقبلت بهم أولاً -  
فلما مرت على آخرهم قالوا : أبوك ، زوجك ، أخوك ، ابنك . فتقول : ما فعل  
رسول الله ؟ يقولون : أمامك ، حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ ، فأخذت بناحية ثوبه ،  
ثم قالت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله : لا أبابلي إذا سلمت من عَطَب !

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة مرسلاً قال : لما أبطأ الخبر على النساء خرجن  
يستخبرن ، فإذا رجلان مقتولان على دابة أو بعير ، فقالت امرأة من الأنصار : من  
هذان ؟ قالوا : فلان وفلان أخوها وزوجها ، أو زوجها وابنها ، فقالت : ما فعل  
رسول الله ﷺ ؟ قالوا : حي ، قالت : فلا أبابلي يتخذ الله من عباده شهداء ، وأنزل  
الله تعالى على ما قالت : « .. وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ » (١).

وجاءت أم سعد بن معاذ - وهي كبيرة بنت رافع - تدعوا نحو رسول الله ﷺ ، وقد  
وقف على فرسه ، وسعد بن معاذ أخذ بعنان فرسه ، فقال سعد : يا رسول الله !  
أمي ، فقال : « مرحباً بها » فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ ، وقالت : أما إذا

(١) آل عمران / ١٢١ .

رأيتك سالماً ، فقد أشوت المصيبة ، فعزها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذ ابنها ثم قال : « يا أم سعد أبشرى وشرى أهليهم ، أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً ، وقد شفعوا في أهليهم » قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يبكي عليهم بعد هذا ، ثم قالت : يا رسول الله ، ادع إلى من خلقوا . فقال : « اللهم اذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبيتهم ، وأحسن الخلف على من خلقوا » .

ثم قال : « خل يا أبا عمرو - يعني سعد بن معاذ - الدابة » ، فخل سعد الفرس ، فتبعه الناس . فقال : « يا أبا عمرو إن الجراح في أهل دارك فاشية ، وليس منهم محروم إلا يأتي يوم القيمة جرحه كاغز ما كان ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك . فمن كان محروحاً فليقير في داره ، وليداو جرحه ولا يبلغ معى بيته عزيمة منى » فنادى فيهم سعد : عزيمة من رسول الله ﷺ إلا يتبع رسول الله ﷺ جريحاً من بني عبد الأشهل ، فتخلف كل محروم ، فباتوا يوقدون النيران ، ويداونون الجرحى ، ومضى سعد مع رسول الله ﷺ حتى جاء بيته فما نزل رسول الله ﷺ عن فرسه إلا حملأ ، واتكأ على سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة حتى دخل بيته ، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أهله ، ناول سيفه ابنته فاطمة فقال : « اغسل عن هذا دمه ، فوالله لقد صدقني اليوم » وناولها على بن أبي طالب سيفه . فقال : وهذا فاغسل عنده دمه ، فوالله لقد صدقني اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « لئن كنت صدقت القتال اليوم لقد صدقة معك سهل بن حنيف ، وأبو دجانة » .

وروى الحاكم بسنده صحيح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : جاء على بسيفه يوم أحد وقد انحنى ، فقال لفاطمة : هاك السيف حميداً ، فإنه قد شفاني اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « لئن أجدت الضرب بسيفك لقد أجاد سهل بن حنيف ، وأبو دجانة ، وعاصم بن ثابت ، والحارث بن الصمة » .

قال ابن هشام : وحدثنى ابن أبي نجيع قال : نادى مناد يوم أحد :

لا سيف إلا ذو الفقار  
ولا فتى إلا على

يعنى بذلك الفقار : سيف رسول الله ﷺ ، وهو الذي غنم يوم بدر ، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد .

ولما أذن بلال المغرب ، خرج رسول الله ﷺ وهو على تلك الحال ، يتوكأ على السعدين ، فصلى بهم ، ثم عاد إلى بيته ، ومضى سعد بن معاذ إلى نسائه ونساء قومه فساقهن حتى لم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ يبكين حمزة بين المغرب والعشاء ، والناس في المسجد يتكمدون بها من الجراح .

وأذن بلال العشاء حين غاب الشفق الأحمر ، فلم يخرج رسول الله ﷺ حتى ذهب ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة يا رسول الله ، فهبَ رسول الله ﷺ من نومه وخرج ، فإذا هو أخف في مشيته منه حين دخل ، وسمع البكاء فقال : « ما هذا ؟ » فقيل : نساء الأنصار ي يكن على حمزة . فقال : « رضى الله عنكن وعن أولادكن وأمر أن ترد النساء إلى منازلهن .

وذكر ابن هشام أنه ﷺ خرج عليهن وهن ي يكن على باب المسجد على حمزة فقال : « ارجعن رحمك الله - لقد واسين ، رحم الله الأنصار ، فإن المواساة فيهم ما علمت قديمة » ، فرجعن بليل مع رجالهن .

وروى أبو يعلى ب الرجال الصحيح عن ابن عمر وعن أنس ، والإمام أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عمر ، والطبراني عن ابن عباس - رضي الله عنهم - أن رسول الله ﷺ لما رجع من أحد سمع نساء الأنصار ي يكن على أزواجهن . فقال : « لكن حمزة لا بواكى له » ، فبلغ النساء ذلك فجئن ، فبكين على حمزة ، فانتبه من الليل فسمعنوهن وهن ي يكن ، فقال : « ويجهن ما زلن ي يكن منذ الليلة ، مروهن فليرجعن ، ولا ي يكن على هالك بعد اليوم » .

وصلى رسول الله ﷺ العشاء ، ثم رجع إلى بيته ، وقد صُفَّ له الرجال ، ما بين بيته إلى مصلاه يمشي وحده حتى دخل ، وباتت وجوه الأوس والخزرج على بابه بحرسونه .

### ذكر إظهار المنافقين واليهود الشماتة والسرور بما حصل للMuslimين :

ولما حصل لرسول الله ﷺ وأصحابه ما حصل ، جعل عبد الله بن أبي بن سلوان ، والمنافقون يشمون ويسرون بما أصاب المسلمين ، ويظهرون أقبح القول ، فيقول ابن أبي لابنه عبد الله وهو جريع : قد بات يكوى الجراحة في النار : ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي ، عصاني محمد وأطاع الولدان ، والله لكأني كنت أنظر إلى هذا . فقال ابنه: الذي صنع الله تعالى لرسوله وللمسلمين خير . وأظهر اليهود القول السيء ، فقالوا : ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هكذا نبي قط . أصيب في بدنه ، وأصيب في أصحابه ، وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله ﷺ وأصحابه ويأمرنهم بالتفرق عنه ويقولون : لو كان من قتل منكم عندنا ما قُتل .

### ذكر إرادة عبد الله بن أبي الخطبة ومنع المسلمين له من ذلك :

قال ابن شهاب الزهرى : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كان عبد الله بن أبي بن

سلول يقوم كل جماعة ، لا ينكر شيئاً قاله في نفسه ولا في قومه ، وكان شريطاً فيهم ، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام عبد الله فقال : أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم ، أكرمكم الله تعالى ، وأعزكم به ، فانصروه وعزروه ، واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ، ورجم بالناس ، قام يفعل ذلك كما يفعل ، فأخذ المسلمون بثوبه من نواحيه وقالوا له : اجلس أي عدو الله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يخطب رقاب الناس ويقول : والله لكأنا قلت بُجراً أن قمت لأشد أمره ، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال : ويلك ، مالك ! قال : قمت أشد أمره ، فوثب رجال من أصحابه يجذبونى ويعنفونى ، لكأني قلت بُجراً أن قمت أشد أمره . قال : ويلك ! ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ : فقال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي .

### ذكر ما نزل من القرآن في شأن أحد :

قال ابن إسحاق : وكان مما أنزل الله تعالى في يوم أحد من القرآن ستون آية من آل عمران ، فيها صفة ما كان في يومهم ذلك .

وروى أبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم عن المسور بن مخرمة قال : قلت لعبد الرحمن بن عوف : يا خال : أخبرنى عن قصتكم يوم أحد ، قال : أقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا ، أي من قوله تعالى : «إِذَا غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوَّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ...» (١) إلى آخر الستين (٢) .

### غزوة حمراء الأسد :

اختلقو في سبها ، فقال ابن إسحاق ومتابعوه : إنما خرج رسول الله ﷺ مرهأً للعدو ، وليلتهم أنه خرج في طلبهم ، ليظنو به قوة ، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم .

وقال موسى بن عقبة ، ومحمد بن عمر الأسلمي : السبب أن رسول الله ﷺ بلغه أن أبا سفيان ، وأكثر من معه يريدون أن يرجعوا ؛ ليستأصلوا من بقى من أصحاب رسول الله ﷺ ، فحيثئذٍ حثَ رسول الله ﷺ الناس على الخروج في طلب العدو . ويزيد هذا ما رواه الفريابي والنسائي والطبراني بسند صحيح ، عن ابن عباس قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ،

(١) آل عمران / ١٢١ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٤/٣٣٣ - ٣٣٩ .

بسم الله صنعتم ، ارجعوا . فسمع بذلك رسول الله ﷺ ، فندب المسلمين فانتدبو ، وذكر الحديث .

قال محمد بن عمر : لما رجع رسول الله ﷺ من أحد يوم السبت ، باتت وجوه الأوس والخزرج على بابه خوفاً من كرّة العدو ، فلما طلع الفجر من يوم الأحد أذنَ بلال ، وجلس يتظاهر خروج النبي ﷺ ، فأتى عبد الله بن عمرو بن عوف المُزنى يطلب النبي ﷺ ، فلما خرج قام إليه وأخبره أنه أقبل من أهله حتى إذا كان مبلل<sup>(١)</sup> إذا قرشي قد نزلوا ، فسمع أبو سفيان وأصحابه يقولون : ما صنعتم شيئاً ، أصبحتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموه ولم تُبِدوهم ، فقد بقي فيهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا نستأصل من بقى ، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول : يا قوم إن القوم قد حربوا ، وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف من المخروج ، فارجعوا والدولة لكم ، فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم ، فقال رسول الله ﷺ : أرشدهم صفوان وما كان برشيد ، والذى نفسي بيده لقد سوت لهم الحجارة ولو رجعوا لكانوا كامس الذاهب » .

ودعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر - رضي الله عنهم - فذكر لهما ما أخبره به المزنى ، فقالا : يا رسول الله ، اطلب العدو ، ولا يقحمون على الذريعة ، فلما انصر رسول الله ﷺ من الصبح ندب الناس وأمر بلالاً ينادي : إن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس ، وقال أسيد بن حضير ، وبه تسع جراحات وهو يريده أن يداويها لما سمع النداء : سمعاً وطاعة لله ولرسوله ، ولم يعرج على دواء جرحه ، وخرج من بنى سلمة أربعون جريحاً ، وبالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً ، وبخراس بن الصمة عشر جراحات ، وبكعب ابن مالك بسبعين عشر جرحاً ، وبقطبة بن عامر بضع جراحات ، ووثب المسلمين إلى سلاحهم ، وما عرجوا على دواء جراحاتهم .

قال ابن عقبة : وأتى عبد الله بن أبي رسول الله ﷺ فقال : أنا راكب معك ، فقال : « لا » .

قال ابن إسحاق وابن عمر : وأتى جابر بن عبد الله رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن مناديك نادى : ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس ، وقد كنت حريصاً على الحضور ، ولكن أبي خلفني على أخوات لي سبع - وفي لفظ : تسع وهو

(١) مبلل : موضع في طريق مكة بين الحرمين . وقال ابن السكبيت : مبلل على طريق المدينة إلى مكة عن ثمانية وعشرين ميلاً عن المدينة .

الصحيح - وقال : يا بني لا ينبغي لى ولا لك أن ترك هؤلاء النساء ولا رجل معهن ، وأخاف عليهن وهن نسأت ضعاف ، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسى ، فتختلف على إخوتك ، وأنا خارج مع رسول الله ﷺ ، لعل الله تعالى يرزقنى الشهادة ، و كنت رجوتها ، فتختلف عليهن فاستأثر على الشهادة ، فأذن لى يا رسول الله أسر معك .

فأذن له رسول الله ﷺ ، وقال جابر : فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيري ، واستأذنه رجال لم يحضروا القتال فأبى ذلك عليهم ، ودعا رسول الله ﷺ بلوانه ، وهو معقود لم يحل من الأمس ، فدفعه إلى على بن أبي طالب - ويقال : دفعه إلى أبي بكر الصديق - واستختلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح ، في وجهه إنزال الحلقتين ، وهو مشحوج في جبهته في أصول الشعر ، ورباعيته قد شُطِّيت ، وشنته السفلى قد كُلِّمت من باطنها ، وهو متوهن منكب اليمين ؛ لضربة ابن قمةة - لعنه الله تعالى - وركبته ممحوشتان ، فدخل ﷺ المسجد ، فركع فيه ركعتين ، والناس قد حشدوا ، كما نزل أهل العوالى حيث جاءهم الخبر .

ثم دعا رسول الله ﷺ بفرسه (السكب) على باب المسجد ، ولم يكن مع أصحابه ﷺ بحمراء الأسد فرس إلا فرس رسول الله ﷺ ، وتلقاه طلحة بن عبيد الله رض وقد سمع المنادي فخرج ينظر متى يسير رسول الله ﷺ ، فإذا رسول الله ﷺ عليه الدرع والمغار ، وما يُرى منه إلا عيناه ، فقال : « يا طلحة أين سلاحك؟ » قال : قريب يا رسول الله ، فخرج فأتى بسلاحه ، وإذا به في صدره تسع جراحات ، قال : ولانا أئم بجراح رسول الله ﷺ مني بجراحى ، ثم أقبل رسول الله ﷺ على طلحة ، فقال : « أين تُرى القوم الآن؟ » قال : هم بالسيالة <sup>(١)</sup> ، قال رسول الله ﷺ : « ذلك الذى ظنت ، أما إنهم يا طلحة لن ينالوا مما مثلها حتى يفتح الله تعالى مكة علينا ». وكان دليلاً رض إلى حمراء الأسد ثابت بن ثعلبة الخزرجى .

وبعد رسول الله ﷺ من أسلم طليعة فى آثار القوم : سليطاً ونعمان ابنى سفيان ابن طلق بن عوف بن دارم من بنى سهم ، ومعهما ثالث من بنى عوير - بطن من أسلم - لم يسم لنا ، فلتحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد ، وللقوم زجل وهم يائرون بالرجوع ، وصفوان بن أمية ينهاهم عن ذلك فيصرروا بالرجلين ، فعطفوا عليهمما فقتلوهما ومضوا .

(١) السيالة : قرية جامعة بينها وبين المدينة تسعة وعشرون ميلاً .

ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه ، حتى عسكر بحمراء الأسد (١) ، فدفن الرجلين في قبر واحد ، وهما القرینان .

وذكر ابن إسحاق ومحمد بن عمر واللّفظ له : أن عبد الله بن سهل ورافع بن سهل - من بنى عبد الأشهل - رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة ، وعبد الله أثقلهما من الجراح ، فلما سمعا بخروج رسول الله ﷺ وأمره به . قال أحدهما لصاحبه : والله إن تركنا غزوة مع رسول الله ﷺ لغبن ، والله ما عندنا دابة نركبها ، وما ندرى كيف نصنع ؟ قال عبد الله : انطلق بنا . قال رافع : والله ما بي مشى ، قال أخيه : انطلق بنا تجارةً ونقصد رسول الله ﷺ ، فخرجا يتراحمان ، فضعف رافع ، فكان عبد الله يحمله على ظهره عقبة ، ويمشي الآخر عقبة ، ولا حرفة به حتى أتوا رسول الله ﷺ عند العشاء وهو يوقدون النيران ، فأتى إلى رسول الله ﷺ ، وعلى حرسه تلك الليلة - عباد بن بشر - فقال : « ما حبسكم » ، فأخبراه بعلتهما ، فدعاهما بخير ، وقال : « إن طالت بكم مدة كانت لكم مراكب من خيل وبغال وابل وليس ذلك بخير لكم » .

ويقال : إن هذين : أنس ومؤنس ابنا فضالة الظفريين ، ولا مانع أن يكون حصل للأولين والآخرين .

قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنهم - : وكان عامه زادنا التمر ، وحمل سعد ابن عبادة رضي الله عنه ثالثين بعيرًا حتى وافت حمراء الأسد ، وساق جُزُرًا لتنحر ، فنحروا في يوماثنين وفي يوم ثلاثة .

وكان رسول الله ﷺ يأمرهم بالنهار بجمع الخطب ، فإذا أمسوا أمرهم أن توقد النيران ، فيوقد كل رجل ناراً ، فلقد أودعوا خمسماة نار حتى رؤيت من مكان بعيد ، وذهب ذكر معسكر المسلمين ونيرانهم في كل وجه ، وكان ذلك مما كتب الله به عدوهم ، فاقام بحمراء الأسد الإثنين والثلاثاء والأربعاء ، ولقى معبد بن أبي عبد وهو يومئذ مشرك - وجزم عمرو بن الجوزي في التلقيح بإسلامه - وكانت خزاعة - مسلمهم وكافرهم - عية نصوح لرسول الله ﷺ بتهامة ، صفتهم معه ، لا يخفون عنه شيئاً كان بها . فقال : يا محمد ، والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولو ددنا أن الله تعالى أعلى كعبك ، وأن المصيبة كانت بغيرك .

ثم مضى معبد ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد ، حتى أتى أبا سفيان بن حرب ، ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وقالوا : أصبنا خير أصحابه

(١) حمراء الأسد : وهي على ثمانية أميال من المدينة على يسار الطريق إذا أردت (ذا الحليفة) .

وقادتهم وأشرافهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ، لنكرن على بقائهم فلنفرغنَّ منهم .  
فلمَّا رأى أبو سفيان معبداً قال : هذا معبد وعنده الخبر : ما وراءك يا معبد ؟ قال :

تركت محمداً وأصحابه قد خرج بطلبكم في جمع لم أو مثله فقط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، وقد اجتمع معه من كان تختلف عنه بالأمس ، من الأوس والخزرج ، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثاروا منكم ، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً ، وندموا على ما فعلوا ، وفيهم من الحق عليكم شيء لم أو مثله فقط ، قال : ويلك ما تقول ! قال : والله ما أرى أن ترحل حتى ترى نواصي الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكورة عليهم لستأصل بقائهم . قال : فإني أنهاك عن ذلك ، ووالله لقد حملني ما رأيت أن قلت فيهم أيائنا من الشعر قال : وما قلت ، قال : قلت :

إذا سالت الأرض بالجرد (١) الآباءيل (٢)  
عند اللقاء ولا ميل (٤) معاذيل (٥)  
لما سموا برئيس غير مخلول  
إذا تقطعت (٦) البطحاء بالجبل (٧)  
لكل ذي إرية منهم ومعقول  
وليس يوصف ما اندرت بالليل

كادت تُهدِّي من الأصوات راحتلي  
تردِّي (٣) بأشد كرام لا تقابله  
فظلت عذواً أظن الأرض مائة  
فقلت : ويل ابن حرب من لقائكم  
إنس نذير لأهل البُلْ ضاحية  
من جيشِ أَحمد لا وَخْش تقابلة

فتحي ذلك من كلام صفوان ، أبي سفيان ومن معه ، وفتَّ أكبادهم ، فانصرفوا سراعاً خائفين من الطلب .

ومر ركب من عبد القيس بأبي سفيان ، فقال : أين ت يريدون ؟ قالوا : نريد المدينة .  
قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأوقر لكم أباعركم زبيباً غداً بعказاط إذا وافتموها . قالوا : نعم . قال :

إذا وفيتكم محمداً فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه ، لستأصل بقائهم ، وأنا في آثاركم ، فانطلق أبو سفيان ، وقدم الركب برسول الله ﷺ بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه ، فقال رسول الله ﷺ :

« حسينا الله ونعم الوكيل » .

(١) الجرد : جمع أجرد ، وهو من الخيل ما رق شعره وقصير .

(٢) الآباءيل : الجماعات ، واحدتها إبيل .

(٣) تردِّي : تسرع .

(٤) جمع أميل ، وهو الذى لا رمح أو لا ترس معه . (٥) المعاذيل : الذين لا سلاح معهم .

(٦) تقطعت : اهتزت وارتجت .

(٧) الجبل : الصنف من الناس .

وأخذ رسول الله ﷺ في وجهه ذلك قبل رجوعه إلى المدينة معاوية بن أبي العاص بن أمية ، وكان جائياً إلى عثمان بن عفان ، فاستأمن له رسول الله ﷺ ، فأنه على إن وجد بعد ثلاث قتل ، فأقام بعد ثلاث ، وتوارى ، فيبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر - رضي الله عنهما - وقال: «إنكما ستتجدان بموضع كذا وكذا» فوجداه فقتلاه .

وأخذ أيضاً أبا عزة الجمحي ، وكان رسول الله ﷺ أسره بيدر ، ثم من عليه ، فقال: يا رسول الله أقلني ، فقال رسول الله ﷺ : «والله لا تمسح عارضيك بمكة وتقول: خدعت محمداً مرتين ، اضرب عنقه يا زبير» فضرب عنقه .

قال ابن هشام : وبليغني عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين» والحديث رواه البخاري وغيره عن سعيد عن أبي هريرة مرفوعاً ، وانصرف رسول الله ﷺ بعد أن أقام الإثنين والثلاثاء والأربعاء (١) .

### ال يوم الأول :

هذا هو وصف الجيش العظيم بعد انتهاء المعركة ، والذي قدم سبعين شهيداً قد خرجوا بدمائهم وصدوا الهجوم الشرس العاتي من الشرك ، والذي عجز أن يتقدم خطوة واحدة باتجاه يثرب ، ومضى وقد فشل هجومه فشلاً ذريعاً في تحقيق أهدافه ، وخلخلة الصف المسلم والضعف الذي بز في المعركة حال دون المحافظة على النصر المؤزر على قريش وحلفائها ، وأدى إلى هذه المحنـة العظيمة من القتلى والجرحـى .

( لما فرغ من دفن أصحابه، ركب فرسه، وخرج المسلمين حوله ، عامتهم جرحـى، ولا مثل لبني سلمة وبنـي عبد الأـشـهـل ، ومعه أربع عشرة امرأة ) .

فقد استطاع بنو سلمة الذين همـوا بالرجـوع أن يفسـلوا ذلك العـار بدمائهم وشهـدائـهم وجـراـهمـ ، وـسـقطـ اثنـانـ منـ أعـظمـ قـادـتهمـ شـهـداءـ فـىـ المـعرـكـةـ هـمـاـ: عبدـ اللهـ ابنـ عمـروـ بنـ حـرامـ ، وـعـمـروـ بنـ الجـمـوحـ .

هـذاـ الجـيشـ الجـريـعـ الذـىـ أـحـبـهـ رسـولـ اللهـ ﷺ ، وـهـوـ عـلـىـ رـأـسـ الجـرـحـىـ فـيهـ ، وـعـلـىـ رـأـسـ الـمجـاهـدـيـنـ وـالـمـقـاتـلـيـنـ فـيهـ: هـوـ أـحـبـ إـلـيـهـ مـنـ ذـلـكـ التـجـمـعـ الذـىـ بـدـاـ قـبـلـ يـوـمـ واحدـ ، وـكـانـ الخـيـثـ مـنـ النـفـاقـ فـيـهـ لـاـ يـزـالـ ضـيـمـتـهـ ، مـهـمـاـ كـبـرـ عـدـدـهـ وـضـخـمـ حـجمـهـ . فـهـوـ الـيـوـمـ مـعـ هـؤـلـاءـ الجـرـحـىـ السـتـمـائـةـ يـطـلـبـ مـنـهـمـ أـنـ يـقـفـواـ وـرـاءـهـ ؛ـ لـيـؤـدـواـ الثـنـاءـ

(١) سـبـلـ الـهـدـىـ وـالـرـشـادـ ٤ / ٤٣٨ - ٤٤٤ .

خلالقهم ومليكهم الذى منحهم هذا الثبات وأعطاهم هذه السكينة والطمأنينة حتى صدوا العدوان الشرس من المشركين فى الجزيرة .

«... اصطفوا حتى أتنى على ربى عز وجل » .

ولا ننسى فى هذا الصف العظيم أولئك المجاهدات العظيمات الأربع عشرة الالاتى أصررن على الانضمام إلى المعركة بجوار المئات من المجاهدين ، فكن مثلاً لمن وراءهن من المسلمات اللاتى عشن بقلوبهن وأرواحهن جو المعركة .

ويتوجه سيد خلق الله إلى ربه بهذا الثناء الحالص ، والتبرير الحالص ، والتسليم الحالص ، والدعاء الحالص : «... اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لمن منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت » .

وبعد هذا الثناء العظيم يتوجه بالتلذل والدعاء والتضرع إلى رب العظيم :

« اللهم ابسط علينا من بركاتك وفضلك ورحمتك ورزقك ، اللهم إنا نسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، اللهم إنا نسألك النعيم يوم العيля ، ونسألك الأمان يوم الخوف ، والغنى يوم الفاقة ، اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطينا ، ومن شر ما منتنا ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين ، وأحياناً مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرا الذين يكنبون رسلاك ، واجعل عليهم رجزك وعداك ، اللهم قاتل الكفرا الذين أتوا الكتاب ، إله الحق آمين » .

وحين تتحدث عن البطولة ، لا يفوتنا أن نذكر بطولة المرأة المسلمة التى برزت فى أحد وبذلت بطولة الرجال فى مجال اختصاصهم من قبل : أم عمارة - رضى الله عنها - والتى تلقت أربع عشرة جرحًا وهى تزود عن الحبيب المصطفى - صلوات الله عليه - إلى جانب تلك البطولة التى شهدناها من هؤلاء النساء اللاتى خرجن من المدينة ، وقلوبهن متعلقات بالقائد الحبيب - عليه الصلاة والسلام - الذى أحببته أكثر من كل شيء فى وجودهن ، أكثر من أزواجهن وأولادهن وأبايهن وإخوانهن ، فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم . « لا يؤمن أحدكم حتى تكون أحب إليه من ولده ووالده ومن الناس أجمعين » (١) .

وإذا كان أكثر الشهداء والجرحى من رجال بنى عبد الأشهل وبنى سلمة وبنى

(١) أحمد والنمساني وابن ماجه والبيهقي عن أنس وهو حديث صحيح .

النبار ، فهذا يعني أن أكثر المفجوعات والأرامل والأكالى منهن كذلك .

لقد كانت هولاء النسوة على مستوى القضية ، على مستوى الإسلام الذى عشن له ، فدفعن أرواجهن وأولادهن للاستشهاد فى سبيله ، وتلقينن أخبار الشهادة والجرح بنفسيات سامية فوق الدنيا وهمومها ، وحين وقع ما وقع فى أحد ، اتجهت كل الأنظار إلى سلامة القائد الحبيب - عليه الصلاة والسلام - وانكبت كل القلوب لا تحس بفجيعة لها إلا أن تخسر قائلها .

فهذه أم عامر الأشهلية - من الأوس - خرجت مع النساء ينظرن إلى سلامه رسول الله ﷺ فقالت حين رأته : كل مصيبة بعده جلل .

وهذه المرأة الدينارية من بنى النبار من الخزرج اللواتي أحببن رسول الله ﷺ حباً تغلغل فى كل ذرة من كيانهن ، فهن أهل رسول الله ﷺ ، وهن اللاتى يعشن جواريهن الصغار فرحات مزغردات يغنين وينشدن :

نحن جوار من بنى النبار      يا حبذا محمد من جار

وتفاعل - عليه الصلاة والسلام - معهن ، فقال رسول الله ﷺ : « أتحببتي » .  
قلن: نعم يا رسول الله . وفي رواية الطبراني في الصغير قال - عليه السلام - : « والله يعلم أن قلبي يحبكم » (١) .

هولاء بنى النبار لا ننسى أن أم عمارة من بنى النبار، وأم سليم من بنى النبار ، وهذه المرأة الدينارية من بنى النبار، والتي كلفها الحب ثمناً باهظاً لم يدفعه أحد مثلها ، والتي فقدت صوابها حين بلغها الخبر بمقتل رسول الله ﷺ ، كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه :

لما كان يوم أحد : حاصن أهل المدينة حيصة ، وقالوا : قُتل محمد ، حتى كثر الصراخ في ناحية المدينة فخرجت امرأة من الانصار محزنة ( وهي المرأة الدينارية النبارية أو ثانية من بنى النبار ) فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها ، لا أدرى أيهم استقبلت بهم أولاً حتى مرت على آخرهم قالوا : أبوك ، زوجك ، أخوك ، ابنك ، فقول : ما فعل رسول الله ؟ يقولون : أمامك ، حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ ، فانجذبت بناحية ثوبه ثم قالت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لا أبابي إذا سلمت من عَطْب .

هذا هو الحب الحقيقي الذى لم تعرف له البشرية مثيلاً إلا في هذا الجيل .

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١ / ٤١٨ .

## ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهب عن أبنائنا والخلائل

لقد ذهلت عن ابنها ، وذهلت عن حليلها ، وذهلت عن أيتها ، وذهلت عن أخيها ، ولا تحس بأحد ، إنما كل همها سلامة قائدتها الحبيب ، سلامة نبئها المدوى ، ولا عجب لها هي تفديه بأعز ما في وجودها ، بيتها وأخيها وابنها وزوجها ، وما أن وقع نظرها عليه ، فما كادت لتصدق أنه سليم حتى معافى ، حتى لمست ثيابه وصاحت من الفرح :

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لا أبالى إذا سلمت من عَطْب .

وهؤلا نسوة بنى عبد الأشهل اللاتي نافسن بنى النجار ، وبنى سلمة في الجراح والشهادة . نرى أم سعد بن معاذ - رضى الله عنها - تقف على القمة فيهن ، وتقديم ل تستقبل حبيبها المصطفى بعد عودته من أحد ، فقال سعد: يا رسول الله أمي ! ( سعد ابن معاذ سيد الأوس ) فقال: « مرحباً بها » فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ . إنها تتأمل بأحباب خلق الله إليها ، وتفرك عينيها هل صحيح أنه سالم معافى رغم جراحه الداميات ، ورسول الله ﷺ يقدم العزاء لها في ابنها الشهيد عمرو بن معاذ أخي سعد ، فماذا تقول ، أتصرخ وتولو ؟ إنها لا تصدق عينها ، تقول له : أما إذا رأيتكم سالما فقد اشتوت المصيبة .

قال - عليه الصلاة والسلام - : « يا أم سعد ، أبشرى وبشرى أهليهم أن قتلامهم ترافقوا في الجنة جميعاً ، وقد شفعوا في أهليهم » فقالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يكفي عليهم بعد هذا . ثم قالت : يا رسول الله ، ادع إلى من خلفوا ، فقال : « اللهم اذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبيتهم ، وأحسن الخلف على من خلفوا » .

إن مصابي الحرب عندما تقع ، والبلight عندما تصل ، والنواح عندما يمتد ، والعويل عندما يعوي في المجتمعات العادية ، ينقلب سماً ناقعاً على القائد الذي خسر المعركة ، والذى سبب الهزيمة ، والذى أفقد الأهل والولد ، أما فى مجتمع النبوة ، فيزداد الحب ، وتلتاحم الأمة ، ويتبارى الرجال والنساء فى إبراز حب سيد من فى الوجود ، وأحب من فى الوجود إلى القلب .

وتلكم الصورة الأخرى لهند بنت عمرو بن حرام النجارية كذلك ، التى جاءت بجملها وقد حملت عليه جثة زوجها وأخيها وابنها لتقبرهم فى المدينة ، وتلتقي بوفد الفتيات المسلمات اللاتى لم يملكن عقلهن أن يصبرن فى المدينة ، وقد سمعن بقتل رسول الله ﷺ ، وعلى رأس هذا الوفد ابنة الرابعة عشرة عائشة أم المؤمنين تسأل عن زوجها وحبيبها المصطفى - عليه الصلاة والسلام - مع صريحاتها اللاتى نسين وجودهن

وچن يسألن عن رسول الله ﷺ . .

تقول هند وهي تسوق البعير بشهادتها الثلاثة: زوجها ، وابنها ، وأخيها ويسألونها :  
ما فعل رسول الله ؟ فتقول :

فلا جي . ويسألونها عن حمل بعيرها ، فتحذنهم عن أحبابها الثلاثة ، ثم تقول : فلا  
أبالى ، يتخذ الله من عباده شهداء .

وينزل وحي الله تعالى على لسان جبريل بكلمة هند - رضي الله عنها - : « وَيَعْلَدُ  
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ » (١) هذه قلوب نسوة المدينة ، وهن يستقبلن شهداءهن ، ويستقبلن  
جرحاهن في اليوم الأول ، فأين قلوب الرجال ؟

قلوب الرجال من العصبة المؤمنة لا تزال تحوم حول قائدتها وحبيبتها ، فقد وصل  
الجيش المظفر الجريح إلى المدينة ، وهذا سعد بن معاذ سيد الأول ، وسعد بن عبادة  
سيد الخزرج : يحفان بالقائد العظيم والسيد الحبيب وخلفهما المقاتلون المستماثة .

( ثم قال : « خل يا أبا عمرو » - يعني سعد بن معاذ - فخلى سعد الفرس ، قتبه  
الناس فقال : « يا أبا عمرو ، إن الجراح في أهل دارك فاشية ، وليس منهم مجروح إلا  
يأتي يوم القيمة جرحه كاغزر ما كان . اللون لون دم ، والريح ريح مسك ، فمن كان  
مجروراً فليقير في داره ، وليداو جرحه ولا يبلغ بيته معنى عزيمة مني » فنادى فيهم  
سعد : عزيمة من رسول الله ﷺ لا يتبع رسول الله ﷺ جريح من بنى عبد الأشهل ،  
فتخلف كل مجروح ) .

لقد غدا رسول الله ﷺ كل شيء في حياتهم ورغم جراحهم التي تنزف الدم ،  
ورغم آلامهمفهم يودون أن يعيشوا كل لحظة من لحظات حياتهم مع قادتهم الجريح ،  
والأ يدعوه في لحظة من ليل أو نهار ، ولو لا عزيمة رسول الله ﷺ عليهم وأمرهم الا  
يتبعه جريح من بنى عبد الأشهل ؛ لمضوا جميعاً معه يقومون حيث يقوم ، ويدعونه ينام  
حين يتظروننه في المسجد . لقد أصبح القائد الأعظم - عليه الصلاة والسلام - كل شيء  
في حياتهم ، وغدوا هم كل شيء في حياته ، لقد وحدت الجراح القلوب أكثر وأكثر ،  
وعقدت الدماء التفاني في الحب أكد وأكد ، ويسرهم - عليه الصلاة والسلام - قبل أن  
يفادرهم أن « ليس منهم مجروح إلا يأتي يوم القيمة جرحه كاغزر ما يكون ، اللون  
لون دم ، والريح ريح مسك » وما أحلاها من بشارة . فستشهد لهم هذه الدماء يوم  
القيمة أنهم جرحوا مع سيد الخلق محمد ﷺ أمام الخلق كافة ، وينسم لها ريحها

الخلائق يوم الحشر ، شهادة تزكية لهم على جهادهم مع حبّهم العظيم ، ولم يكن أمام الجرحي من خيار أن يستجيبوا لعزيمة قائدتهم الحبيب فباتوا يوقدون التيران ويداونون الجرحي .

لكن حظ النساء من الحب والوفاء كان أعظم ، ولئن بقى الجرحي يعالجون جراحتهم ، قد رحلت نساء بنى عبد الأشهل كلهن إلى بيت رسول الله ﷺ ، لماذا ؟

لقد انتبه سيد الأوس - سعد - إلى قائدته - عليه الصلاة والسلام - حين سمع بكاء الانصار على قتلهم في ديار بنى عبد الأشهل ، سمعه يقول : « أما حمزة فلا بواكى له » .

وأسرّها سعد في نفسه ، فكيف يكون سيد الشهداء بطل الإسلام العظيم لا بواكى له ؟ وهو الذي فعل الأفاعيل بالمشاركين في بدر واحد ، وهو الذي شج رأس أبي جهل في مكة ، وهو أسد الله وأسد رسوله ، يسقط هكذا غريباً شهيداً لا بواكى له ، إلا صفة أخته !

سمع سعد بن معاذ كلمة قائد الحبيب فكوت قلبه كيًّا بالنار ، في كيف يكون حمزة لا بواكى . وصمت السيد العظيم الذي يعرف حق السيد العظيم ، وتتابع مع قائدته محمد - عليه الصلاة والسلام - إلى بيته ، فما نزل رسول الله ﷺ عن فرسه إلا حملًا ، واتكأ على سعد بن معاذ وسعد بن عبادة حتى دخل بيته . . . ولما أذن بلال بصلة المغرب خرج رسول الله ﷺ وهو يتوكأ على السعديين فصلى بهم ، ثم عاد إلى بيته .

ويطعن سعد بن معاذ على قائد الحبيب ( فمضى إلى نسائه ونساء قومه فساقهن حتى لم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ يبكين حمزة بين المغرب والعشاء ) .

هؤلاء النساء الخالدات تركن جراحهن ، وتركتن شهداءهن ، وجشن إلى بيت رسول الله ﷺ يبكين حمزة ، فإن كان حمزة لا بواكى له من أهله في المدينة ، فكل المدينة تبكيه شبيهاً وشابهاً ورجالها ونساؤها وأطفالها وحجاراتها ، وعلى من يبكي إن لم يبك على حمزة ! ولو راجعنا شعر المسلمين في أحد لكان يكون كله على حمزة البطل الفقيد الذي لم يحزن رسول الله ﷺ على أحد حزنه عليه ، وما يبكي أحداً ما يبكي عليه . ويعرف سيد الأوس محبة رسول الله ﷺ لحمزة ، فيسوق كل نساء بنى عبد الأشهل يبكين عليه .

إنها التربية بالحب ، التي لم يعرف لها التاريخ مثيلاً . ( ما رأيت أحداً يحب أحداً

كحب أصحاب محمد محمداً ) .

إنها شهادة العدو في هذا الحب ، وإنما فكيف سقط الشهداء السبعون ذوداً عن قائدتهم وديفهم؟ وكيف تقاتل المرأة ويقاتل العجوز ، ويقاتل المريض ، لولا الحب العظيم لرسوله ودينه؟ !

لقد اختلط الحب ، وتجاوز الأحباء إلى الجمادات إلى جبل أحد الذي كان يلقاه - عليه الصلاة والسلام - وهو قادم من سفر ، فتغورق عيناه بالدموع ويقول : « أَحُدْ جَبَلٌ يَحْبَنَا وَنَحْبُنَاهُ » .

فقد اختلط بدماء المسلمين ، وتزوى ثراه بتجيدهم الزكي ، وضم أجسادهم الطاهرة في رفاته ، فكيف لا يحبهم ويحبونه؟ !

ولا نزال في اليوم الأول ، حيث يشتند الألم برسول الله ﷺ ، وبعد الإعياء ينام ولم يخرج رسول الله ﷺ حتى ذهب ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة يا رسول الله ، فهبة رسول الله ﷺ من نومه وخرج .

رسول الله ﷺ ينام بعد الإعياء ، ونسوة بنى عبد الأشهل يبكين حمزة في بيت رسول الله - صلوات الله عليه .

( فإذا هو أخف في مشيته منه حين دخل ، وسمع البكاء . فقال : « ما هذا؟ » فقيل : نساء الأنصار يبكين على حمزة فقال :

« رضى الله عنكن وعن أولادكن » وأمر أن ترد النساء إلى منازلهن قائلاً :

« ارجعن رحمكن الله ، لقد واسين ، رحم الله الأنصار ، فإن المواساة ما علمت فيما قديمة » فرجعن بليل مع رجالهن ) .

لقد غدت المدينة أسرة واحدة ، وقلباً واحداً ينبع بالحب ، وهذا كله في الصف المؤمن ، ضعيفه وقويه . أما المنافقون والكافرون ، فأين هم من هذا الصف ؟ إنهم مفصلون عنه روحياً وجسدياً ونفسياً . لقد ارتبط المنافقون باليهود من حيث الهوى ، ومن حيث الموقف ، ومن حيث المصلحة .

( ولما حصل لرسول الله ﷺ وأصحابه ما حصل ، جعل عبد الله بن أبي بن سلول والمنافقون يشمون ، ويسيرون بما أصاب المسلمين ، ويظهرون أقبح القول ) .

فبعد الزعامة - ابن أبي - يريد أن يغير الجو كله لصالحه بزعمه كما جرى عقب بعاث . فحين هزمت الخزرج ، ظهر حكيم المدينة - ابن أبي - أنه هو العاقل المجرب ،

ولو أطاعوه ما قتلوا ، ولم يصيحو له فندموا ، ولم يسمعوا له فخسروا ، وبذلك تربع على عرش الملك في يثرب ، وراحوا يعتقدون له التاج لحكمته وتجربته ، وهو يرى أنه سعيد الصورة نفسها ، فقد ظهر أنه الحكيم المجرب (عصانى محمد وأطاع الغلمان ، والله لكأني أنظر إلى هذا) .

وتوقع أن يأتي المسلمين إليه ذرافات ووحدانا يثنون على عقربيه ، ويعيدون له التاج المسلوب ويندمون على مخالفته ، خاصة وقد خسروا الشهداء - حسب تصوره - ونالتهم الجراحات . وهذا هو ابنه أمامه ، لعله يرعوي حين خالف أبياه ، وجاء مضرجاً بدمائه ، قد بات يكوى جراحه في النار فيقول لأبنه مكتباً ومؤنباً :

ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأى ، عصانى محمد وأطاع الولدان والله لكأني أنظر إلى هذا .

فقال ابنه : الذى صنع الله تعالى لرسوله وللمسلمين خير .

وكان صفة عنيفة له من ولده ، فمئى يرعوي ابنه إن لم يرعوه وهو يكتوى بالجراح من النار ، ويصر أن ما أصابه والمسلمين خير ، فهو يتسب إلى تلك العصبة المسلمة المؤمنة التي يحيا رسول الله ﷺ بقلبهها ، وينفر من أبيه ومن قول أبيه أشد النفور ، لكنه يستحق أن يهينه لقامة الآبوبة منه .

ويخرج ابن أبي هاتما على وجهه ، يكاد يأكل بعضه من الغيط ، فابنه عبد الله يحيا بروح محمد ﷺ ، وابنته جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول ، وقد قتل زوجها حنظلة بن أبي عامر ، فبكى حبيبها الفقيد ، لكنها لا تنسى أنها تُوجّت بتاج من العز يلبسها لآخر الدهر ، فغدت ليست فقط زوجة حنظلة بن أبي عامر الفاسق ، بل زوجة حنظلة غسيل الملائكة .

لقد أراد من مصاورة أبي عامر الراهب أن يجعل بيت الزوجية هذا من ابنته جميلة وصهره حنظلة وكرأ للتأمر ضد النبي ﷺ ولكن هُشم وجهه بهذا الزواج .

فقد روى ابن شاهين بأسناد حسن إلى هشام بن عروة عن أبيه قال :

(استأذن حنظلة بن أبي عامر وعبد الله بن أبي بن سلول رسول الله ﷺ في مقتل أبيهما فنهما عن ذلك ) (١) . ولا شك أنه قد بلغ الآبوبين مثل هذا الإذن .

ولم يكن حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة ، وتفرد بهذ المجد ، وكيف تربى ابن عدو الله حتى ارتفع ليكون غسيل الملائكة في التاريخ الإسلامي ؟ لقد فوجئ - عليه

(١) الإصابة في تميز الصحابة للحافظ ابن حجر م ٤٥ / ٤ .

الصلة والسلام - بذلك ، كما يحدثنا ابن إسحاق في المغازى عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده قال :

كان حنظلة بن أبي عامر الغسيل التقى هو وأبو سفيان بن حرب ، فلما استعلى حنظلة رأه شداد بن شعوب ، فعلاه بالسيف حتى قتله ، وقد كاد يقتل أبا سفيان فقال النبي ﷺ : « إن صاحبكم تغسله الملائكة فسألوا صاحبته » فقالت : خرج وهو جنب لما سمع الهمامة (١) . فقال النبي ﷺ : « بذلك تغسله الملائكة » (٢) .

خرج ابن أبي هاثمة على وجهه ، يتلظى حقداً على ابنه وابنته ، وينظر فيمن حوله ، فلا يرى من يروي حقده إلا اليهود ، فهم الذين يعرفون قدره ، ويصيرون له في كل ما يتلظى به من حقد على محمد ﷺ ، أو يرى بعض أتباعه الذين انفصلا عنه ، فيحدثهم بالغيط الذي يقتله ، من هؤلاء المسلمين ، وهكذا وصف الله تعالى طبيعة العلاقة بين ابن أبي وأتباعه وأنصاره وبين اليهود : « ألم تر إلى الدين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب... » (٣) .

فهي الأخوة الحميضة بينهما ، وكذلك وصفهم الله تعالى في موقع آخر : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم » (٤) .

فعندهم يتنفس ابن أبي الصداء ، ويتحدث بكل مكنون نفسه ، ولكنه خط خطأ في دخوله في حزب محمد . حيث يستطيع من خلاله أن يبقى ذا صلة وثيقة من الجميع خزرجهم وأوسهم ، وأراد أن يفطري عملية انفصالة عن الجيش ، فيبت أمره للصلوة في اليوم الثاني .

## ال يوم الثاني :

لقد كان ابن أبي يُعد حساباته على أمل ضعيف في أن يستعيد موقعه بين الخزرج ، وقد ثبت صواب رأيه وحكمته في عدم ملاقاة المشركين ، وهو لن يستطيع أن ينال من محمد ﷺ ، وقد جرّب حظه مع ابنه وابنته فصفع من موقفهما على وجهه . فليتجاوز

(١) الهمامة : هكذا في الإصابة ، لكنها عند ابن إسحاق : (الهمامة) ، وفسرها ابن هشام : الهمامة : الصيحة التي فيها الفزع .

(٢) الإصابة في غير الصحابة ٢ ، ٤ / ٤٥ وهي في السيرة عند ابن هشام ٣ / ١٠٧ ، وقال المحقق فيه : « ورواه ابن إسحاق معلقاً ، ورواه الحاكم في المستدرك عن طريق ابن إسحاق وصرح في السمع ، وسنده متصل وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى فى التلخيص ، وقال الهيثمى عن رواية الطبرانى : إسناده حسن ، فيكون الحديث صحيحاً » (انظر: السيرة ٢ / ١٠٧) .

(٣) المشر / ١١ .

الآن فكرة إثبات حكمته وعبقريته ، وليثبت ولاءه من جديد لـ محمد ﷺ ، ليغطى سوأته في انفصاله بثلث الجيش قبل يوم واحد قبل المعركة الفاصلة .

قال ابن إسحاق : ( فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وكان عبد الله بن أبي بن سلول كما حدثني ابن شهاب الزهرى له مقام يقامه كل جمعة وهو يخطب الناس ، قام فقال :

أيها الناس ، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه واعزروه واسمعوا له وأطيعوه ، ثم يجلس . حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجم بالناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمين بشيابه من نواحيه وقالوا : اجلس أى عدو لله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بُجراً (١) أن قمت أشد أمره ) (٢) .

وتأتى روایة الواقدى لتزيد الأمر جلاءً : فالذى قام لمواجهةه هو أقرب الناس حلماً إليه وهو زعيم من أكبر زعماء الخزرج ، إنه عبادة بن الصامت ، فمن حيث القرابة ، كان عبد الله بن أبي من بنى غنم بن عوف بن عمرو بن عوف ، وكان عبادة بن الصامت من بنى عزير بن عوف بن عمرو بن عوف ، وعبادة اكتفى فى بنى قينقاع بأن أَبَهْ حين قال ابن أبي له :

تبرأت من حلف مواليك ، فقال له : أبا الحباب ، تغيرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود ، أما والله إنك لمحض بامر سترى غيّه جداً .

وكان ابن أبي ، وعبادة بن الصامت منهم - من بنى قينقاع - بمنزلة واحدة فى الحلف (٣) . لكن عبادة هنا أقدم على خطوة جسورة لا يقدر عليها أحد غيره ؛ لأنه هو الذى يحميه لو تعرض لسوء بصفته أقرب الناس له فى النسب ، أخذ يدفع فى رقبته ، وأبو أيوب الانصاري يجره من لحيته ، ويقولان له : لست لهذا المقام بأهل .

أما أبو أيوب فهو من سادة بنى النجار ، وابن أبي أقرب الناس جواراً لهم ، وكانت دارهم - أى بنى غنم بن عوف - بين دار بنى النجار وبين دار بنى ساعدة (٤) . وترك سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وجار ابن أبي القوم يعنفونه ويجلسونه ، وكانت هذه أكبر إهانة وجهت له فى حياته ، وانزوى رهطه المنافقون خزايا لا ير Fulton حراكاً ،

(١) بُجراً : وهو الأمر العظيم الذاهى .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٥٣/٣ .

(٤) جمهرة أنساب العرب : ٣٥٥ .

(٣) المغازى للواقدى ١/١٧٩ .

ولا يجرؤون على المواجهة . فالصف الإسلامي كله يمثله ابن الصامت . وأبو أيوب في تعنيفه وإجلاسه ، والقول له : اجلس أى عدو الله لست لذلك بأهل .

يقول الواقدي : ( فخرج بعدهما أرسلاه ، وهو يختطف رقاب الناس وهو يقول : كأنما قلت هجراً قمت لأشد أمره ، فلقيه معوذ بن عفراه فقال : ما لك؟ قال : قمت ذلك المقام الذي كنت أقوم أولاً ، فقام إلى رجال من قومي ، فكان أشدتهم على عبادة ، وخالد بن زيد ، فقال له : ارجع يستغفر لك رسول الله ، فقال : والله ما أبغى يستغفر لي ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ... ﴾ الآية (١) . قال : ولكنني أنظر إلى ابنه عبد الله جالس في الناس ، ما يشد الطرف إليه .

يجعل يقول : أخرجنى محمد من مرید سهل وسهيل ) (٢) .

فعبد الله كان قد استأذن في قتل أبيه فلم يأذن له ، وقررت عينه أن كان عبادة بن الصامت أقرب المقربين من أبيه وهو الذي يجلسه .

والرسول ﷺ القائد يشهد المشهد ، ويطمئن إلى أن ابن أبي ، والثالث الذين مضوا معه : هم أقل وأذل من أن يشقوا الصفة الإسلامية المؤمن الموحد . فعبد الله ابن أبي أشد الناس ضد أبيه مع أنه أكثر الناس برآ به ، وعبادة بن الصامت حليفه الأول هو الذي تكفل بفضح نفاقه وتعريته وإجلاسه ، وأبو أيوب الانصاري جاره الأقرب هو الذي يجره من لحيته ليجلس حتى تتم تعريته مع حزبه ، ومعوذ بن عفراه يشكوا له ما ألم به من قومه فيدعوه إلى أن يستسلم ويأتى لرسول الله ﷺ يستغفر له خطيبته في خذلانه المسلمين يوم أحد ، فيجيب بعنجهته :

والله ما أبتغي أن يستغفر لي . معلنًا إصراره على رعامته ، وتلقى الإهانة وإصراره على موقفه ، وكان درسًا بلیغاً للمنافقين أن يقبعوا في جحورهم ، ويكتفوا بتبادل الهموم مع اليهود ، اليهود تقول : ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هذانبي فقط ، أصيب في بدنـه ، وأصيب في أصحابـه ، والمنافقون يخذلون عن رسول الله ﷺ أصحابـه ، ويقولون لهم : لو كان من قـتل منكم عندنا ما قـتل .

وشهد اليوم الثاني استزان الفاروق عمر رض في قتل المنافقين ، فقد آن الأوان لتصفية الحساب معهم ، وقد خذلوا رسول الله ﷺ ، وهام الآن يظهرون فرحتهم وشماتتهم بال المسلمين . ورأينا كيف خط رسول الله ﷺ خطه التربوي الخامس في الآية يقتل من يقول : لا إله إلا الله ، فلا بد من العمل الدؤوب في صفهم ؛ لإقناعهم

(٢) المغارى للواقدى / ٣١٨ ، ٣١٩ .

(١) المنافقون / ٥ .

بإسلاماً أولاً وانضمهم إلى الصفة المسلم ثانياً كما قال القرآن عنهم :

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدُّرُكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَأَعْصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسُوفَ يُؤْتَنَّ الْأَجْرَ عَظِيمًا » (١) . ويتجلّى هذا الخطّ التربوي الذي يهدف إلى غزو صفهم ، دون احتلالهم بالصف الإسلامي واندساسهم فيه من خلال أحداث اليوم الثاني يوم الأحد .

قال محمد بن عمر : لما رجع رسول الله ﷺ من أحد يوم السبت ، باتت وجوه الأوس والخزرج على بابه ؛ خوفاً من كراهة العدو ، فلما طلع الفجر يوم الأحد أذن بلال ، وجلس يتظاهر خروج النبي ﷺ ، فأتى عبد الله بن عمرو بن عوف المزنبي يطلب النبي ﷺ ، فلما خرج قام إليه وأخبره أنه أقبل من أهله حتى إذا كان بملل (٢) ، إذا قريش قد نزلوا فسمع أبو سفيان وأصحابه يقولون : ما صنعتم شيئاً ، أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهن ولم تبidoهم ، فقد بقي فيهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا نستأصل من بقى ، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول : يا قوم إن القوم قد حربوا ، وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف من الخروج ، فارجعوا والدولة لكم ، فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم ، فقال رسول الله ﷺ : أرشدهم صفوان وما كان برشيد ، والذي نفسي بيده لقد سُوت لهم الحجارة ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب » .

تلقي رسول الله ﷺ النبأ فجر الأحد ، فاستدعى أركان حربه وأكبر قادته ومستشاريه استدعى - أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما ، وذكر الرسول ﷺ « أنهما لو أجمعا على أمر ما خالفتهما » فهما اللذان يعتد بجماعهما فقط .

( ...) ذكر لهما ما أخبره به المزنبي ، فقالا : يا رسول الله ، أطلب العدو ، ولا يتقدمون على الذرية ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من الصبح ندب الناس ، وأمر بلايا ينادي : إن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس ) .

وأجمع الشيوخان - أبو بكر وعمر - على طلب العدو ، فأصدر رسول الله ﷺ أمره بجشه بالتحرك ، لكن أكثر ما يلفت الانتباه في الطلب : « ألا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس » .

وهذا يعني : أن الثلاثمائة الذين خذلوا الجيش بالأمس وانفصلوا عنه ، لن

(٢) ممل : مكان قريب من المدينة .

(١) النساء / ١٤٥ ، ١٤٦ .

ينضموا إلى الجيش والمعركة اليوم . فلابد أن يستمر عزلهم ، وحاول ابن أبي أن يتلافي الأمر ، ويلتفت التفاته بارعة ، بحيث يبدو أن أمر المدينة والخطورة التي تتعرض لها تهمه ، فجاء وكأنما ليس هناك شيء ذو باع فعله ، وكان الخيانة التي أقدم عليها بالأمس قد أُغفى عليها الزمن ، ولم يكن يشك لحظة أن يرفضه الرسول ﷺ وهو أحوج ما يكون له وحزبه ؛ ليكونوا قوة معه ، ويفوتوا على قريش شماتتها بالانقسام الذي تم ، وأن الصف الداخلي في المدينة عاد فتوحد ، وهذا ابن أبي وحزبه بجوار محمد ﷺ ، وقد تجاوزوا خلافاتهم ، وقبل ابن أبي أن يعود فينضم تحت قيادة محمد - عليه الصلاة والسلام .

هكذا كان يفكر ابن أبي ولها جاء مسرعاً ، وقد تناهى القسط الذي ناله من الذل عقب الصلاة ليقول للقائد العظيم - عليه الصلاة والسلام :-

- أنا راكب معك .

فقال : « لا » .

بهذه الصرامة وهذا الحسم الذي لا يقبل النقاش رفض - عليه الصلاة والسلام - ابن أبي وحزبه وهم يفوقون ثلث الجيش ، ورفض كل التصورات والتبريرات التي تقتضي قبوله في هذا الجيش المؤمن ، رفض هذا كله - عليه الصلاة والسلام ؛ لأن الله تعالى قال له : « مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ ... الطَّيْبَ ... » (١) .

وقد ماز الخيث من الطيب ، وانفصل المنافقون في اللحظات العصيبة الحرجية ، فلن تذكر المأساة مرة ثانية ، ويختلط الخيث بالطيب ، ويقبل التعامل مع ابن أبي بصفته رئيس حزب ، أو قائد معارضة ، لقد تلقى من قومه الدرس المناسب حين أراد أن يستخف بعقل المسلمين ويدعوا قومه لنصرة رسول الله ﷺ وهو الذي خذله أمن ، وشمت به البارحة واليوم ، وتلقى الدرس الأبلغ يوم رفضه رسول الله ﷺ ، ورفض كل فرد من حزبه انفصل عن الجيش بالأمس . وحرصاً على استمرار التميز ، واستمرار المفضلة ، كان النداء واضحًا لا يتحمل أي تأويل :

« ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس » .

وهكذا يتجلّي الخط التربوي الحاسم في طريقة التعامل مع المنافقين . فصحّح أنهم لم تنفذ بهم عقوبة الإعدام على الخيانة العظمى التي أقدموا عليها ، وفرروا من

(١) آل عمران / ١٧٩ .

المعركة ، وأعلنوا ولاءهم لليهود ، لكن نفذت فيهم عقوبة الفصل من الجسم الإسلامي ، ولابد لكل فرد منهم أن يعاد النظر به بشكل شخصي بحيث يصبح مؤهلاً للانضمام للصف الإسلامي أو غير مؤهل لذلك . والوحيد الذي استثنى وانضم إلى الجيش هو ابن الشهيد الحى : عبد الله بن عمرو بن حرام - جابر بن عبد الله - والذى فرض عليه أبوه الإقامة على أخواته التسع يرعى شؤونهم ، وقبل رسول الله ﷺ انضمامه .

وحتى الصبيان الأربعين عشر الذين ردهم - عليه الصلاة والسلام - أمس من أحد ، لم يسمح لهم بالمشاركة . إنه الجيش الجريح نفسه وما يمر عليه أربعاً وعشرين ساعة ، يدعى من جديد للمواجهة والمعركة ، فكيف كان هذا الصف العظيم !

( فوثبوا إلى سلاحهم ، وما عرجوا على جراحاتهم ، فخرج من بني سلمة أربعون جريحاً . بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً ، وبقطبة بن عامر بن حديدة تسع جراحات ، وبخراس بن الصمة عشر جراحات ، وبكعب بن مالك بستة عشر جرحاً ، حتى وافوا النبي ﷺ بين أبي عنبة إلى رأس الثنية - الطريق الأولى يومئذ - عليهم السلاح ، قد صدوا لرسول الله ﷺ ، فلما نظر رسول الله ﷺ إليهم والجرح فيه فاشية قال : « اللهم ارحم بني سلمة » . )

هؤلاء بنو سلمة الذين كادوا أن يفشلوا ويتأثروا بعد الله بن أبي ، قد محوا تلك الصفحة وتولاهم الله برعايته ، وحاول سيدُهم عبد الله بن عمرو أن يثنى ابن أبي عن خذلان المصطفى - عليه الصلاة والسلام - فلم يفلح ، وخاضوا غزوة أحد بسالة منقطعة النظير ، وأبدوا من ضروب البسالة والشجاعة ما رفعته إلى المقام الأول من المجاهدين ، وكانوا أكثر المؤمنين جراحاً في أحد كما ذكرت الرواية السابقة ( فخرج من بني سلمة أربعون جريحاً ) ، وما أن تلقاهم - عليه الصلاة والسلام - حتى قرَّت عينه بهذا الالتزام العجيب والطاعة العظيمة ، فقال : « اللهم ارحم بني سلمة » .

ومن بني سلمة وحدهم من سمع له أن ينضم للجيش ، ولم يكن فيه من قبل وهو : جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - وكان الأبطال الآخرون من الأوس هم بنو عبد الأشهل ، وفيهم سيد الأوس سعد بن معاذ .

( فخرج سعد بن معاذ راجعاً إلى داره ، يأمر قومه بالمسير ، قال : والجراح في الناس فاشية ، عامة بن عبد الأشهل جريح بل كلها ، فجاء سعد بن معاذ فقال : إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تطلبوا عدوكم . قال : يقول أسد بن حضير ، وبه سبع جراحات وهو يريد أن يداويها : سمعاً وطاعة لله ولرسوله ، فأخذ سلاحه ، ولم يرجع على دواء جراحه ، ولحق برسول الله ﷺ ) .

وبالامس كانت الاوامر عزيمة من النبي ﷺ لبني عبد الاشهل ألاً يغادروا مرابعهم شفقة عليهم ، برفقة الرسول الله ﷺ ليداوا جراحهم ، وها هم اليوم توجه إليه الاوامر ، أن يتحرکوا بجراحتهم للراحتة العدو ، فكان سعد وأسید الجريح سيداً بني عبد الاشهل على رأس قومهم يلتحقون برسول الله ﷺ .

وهذا سعد بن عبادة سيد الخخرج عامة وسيد بني ساعدة خاصة يلتحق بالركب .

( وجاء سعد بن عبادة قومه بني ساعدة فأمرهم بالمسير فتبسووا ولحقوا . وجاء أبو قتادة أهل خربى وهم يداون الجراح ، فقال : هذا منادى رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، فوثبوا إلى سلاحهم ، وما عرجوا على جراحتهم ) (١) .

لقد حمل هذا العام بعد بدر إلى الآن جيلاً جديداً أضيف إلى جيل بدر بعده ، وهو يترى ويصاغ على يد النبوة ، وكانت تجربة حمراء الأسد التي يدعى فيها القوم إلى المعركة الجديدة ، مع العدو الذي انتهوا بالامس من مواجهته من أعسر وأشق التجارب ، ففى أقل من أربع وعشرين ساعة ، وبجراحتهم التي تزف ، كان عليهم لا أن ينتصموا بيبيتهم لحماية المدينة ، بل عليهم أن يخرجوها بسلاحهم للراحتة العدو الذي أوقع بهم الامس أعنف ضرباته ، وصمدوا في وجه تلك الضربات ، واليوم يطلب منهم هذه المواجهة الجديدة . يا لها من تربية لهذا الجيل تعرضه على الموت في كل لحظة ، وتحرك قياداته الجريحة ، فتتادي بالأمر بالراحتة ، ويشب الجيش الجريح كله إلى سلاحه ، تاركاً جراحه وغير عابئ بها ، هذا في الصف المؤمن الحالصل .

ويقف الصف المناق بمنائه الثلاث ومن وراءهم وهو سليم معافي ، فيحظر عليه أن يشارك ولو بشخص واحد في هذه المواجهة .

لقد أمر هذا العام جيلاً جديداً ارتفع الثلاثمائة وبضعة عشر فيه إلى الستمائة ونيف ، وسقط بقية السبعمائة شهداء في سبيل الله . ولنشهد صورة من صور هذا الصف الجريح ، الذى استجاب للنداء فى بني عبد الاشهل الذين جعل فىهم رسول الله ﷺ الخيرية الثانية : « خير دور الانصار بنو النجار ، وبنو عبد الاشهل ، وبنو الحارث بن الخخرج ، وبنو ساعدة ، وفي كل دور الانصار خير » لندع الحادثة تنطق عن هذين الاشھلین .

قال الواقدى : ( وحدثنى عقبة بن جبيرة عن رجال من قومه قالوا : إن عبد الله ابن سهل ورافع بن سهل بن عبد الاشهل رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة ، وعبد الله أثقلهما في الجراح ، فلما أصبحوا وجاءهم سعد بن معاذ يخبرهم أن رسول الله ﷺ

(١) المغارى للواقدى ٣٣٥ / ١ .

يأمرهم بطلب عدوهم قال أحدهما لصاحبه : إن تركنا غزوة مع رسول الله لغبن ! والله ما عندنا دابة نركبها ، وما ندرى كيف نصنع ! قال عبد الله : انطلق بنا ! قال رافع : لا والله ! ما بي مشى . قال أخوه : انطلق بنا نتجار<sup>(١)</sup> ونقصد ، فخرجا يزحفان ، فضعف رافع ، فكان عبد الله يحمله على ظهره عقبة ، ويمشي الآخر عقبة حتى أتيا رسول الله ﷺ عند العشاء وهو يوقدون النيران ، فأتى بهما إلى رسول الله ﷺ ، وعلى حرسه تلك الليل عبد بن بشر ، فقال : « ما جبسكما ؟ » فأخبراه بعلتهما ، فدعا لهما بخير وقال : « إن طالت لكم مدة كانت لكم مراكب من خيل وبغال وإبل وليس ذلك بخير لكم »<sup>(٢)</sup> .

فهذا الجريحان العظيمان يعطيانا صورة عن هذا الجيش الذى استجاب لقائده فى مواجهة عدوه ، وكيف لا يكون الجيش بهذه النفسية وهو يرى قائدہ على رأسه يتحرك بجرأة للمواجهة فكان كما وصفه رواة السيرة رض :

( وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح ، في وجهه أثر الحلفتين ، وشجوج في جبهته في أصول الشعر ، ورباعيته قد شظيت ، وشفته قد كلمت من باطنها ، وهو متوهن من منكبه الأيمن من ضربة ابن قميحة ، وركبتاه ممحوشتان ، فدخل رسول الله ﷺ المسجد فركع ركعتين ، والناس قد حشدوا ، ونزل أهل العوالى حيث جاءهم الصريح ، ثم رکع رسول الله ﷺ ركعتين فدعوا بفرسه على باب المسجد )<sup>(٣)</sup> .

وذاك بطل أحد - طلحة بن عبيد الله - الذى قاتل قاتل الأحد عشر وهو يذود عن رسول الله ﷺ ، وسقط مضرجاً بدمائه بين يدي قائدہ . طلحة الذى كان إذا ذكر يوم أحد قال أبو بكر رضي عنه فيه : ( كان ذلك اليوم كله لطلحة )<sup>(٤)</sup> . طلحة الذى كان يقول فيه - عليه الصلاة والسلام - على إثر أحد : « من سره أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة »<sup>(٥)</sup> .

( وتلقاه طلحة رضي عنه وقد سمع المنادى ، فخرج ينظر متى يسير رسول الله ﷺ ، فإذا رسول الله ﷺ عليه الدرع والمغفر وما يرى منه إلا عيناه ، فقال : « يا أبا طلحة ، سلاحك ! » فقلت : قريباً . قال طلحة : فأخرج أعدو فالبس درعى ، وآخذ سيفى ،

(٢) المغارى للواقدى ١ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(١) تجار : يجر بعضنا بعضاً .

(٤) شرح المواهب اللدنية للزرقاوى ٢ / ٣٩ .

(٣) المصدر نفسه ١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

(٥) مجمع الزوائد للهيثمى ١٤٨٩ / ١٤٨٩ وقال فيه : « رواه أبو يعلى والطبرانى فى الاوسط وفيه صالح بن موسى وهو متوفى » .

وأطرب درقى فى صدرى ، وإن بي لتسع جراحات ، ولأننا أهتم بجراح رسول الله ﷺ من جراحتى )<sup>(١)</sup> .

### ال يوم الثالث :

( فأقام بحمراء الأسد )<sup>(٢)</sup> الإثنين والثلاثاء والأربعاء ) .

فكيف كانت الإقامة ؟ وما هي تموينات الجيش ؟ وما هي مهماته في هذا المقام ؟

يحدثنا جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - الجندي الجديد عن ذلك فيقول :

( وكان عامة زادنا التمر . وحمل سعد بن عبادة ثلاثين جملًا حتى وافت الحمراء ، وساق جزراً فنحرروا في يوم اثنين ، وفي يوم ثلاثة . وكان رسول الله ﷺ يأمرهم في النهار بجمع الخطب ، فإذا أمسوا أمرنا أن توقد النيران ، فيوقد كل رجل ناراً ، فقد كان تلك الليالي نوقد خمسة نار حتى ترى من المكان بعيد ، وذهب ذكر معسkenنا ونيراننا في كل وجه حتى كان مما كتب الله تعالى عدونا )<sup>(٣)</sup> .

فقد كان طعام الجيش التمر ، وكان المamon الأكبر له سيد الخزرج ، وفياضهم سعد ابن عباد ، فهو الذي حمل ثلاثين جملًا حتى وافت الحمراء ، وساق جزراً ، فنحرروا في يوم اثنين وفي يوم ثلاثة .

أما المهمة اليومية لهذا الجيش فهو جمع الخطب ، وإيقاد النار في الليل ، بحيث يوقد كل جندي في الجيش ناراً مستقلة به ، وكلما كانت النار أكبر ، كلما كان تنفيذ المهمة أحدر ؛ وذلك لأن الحرب معنوية ، وإيقاد خمسة نار في موقع من الواقع ، تراها مصارب القبائل العربية في كل مكان فتكون حديث الركبان ، وقصص السماء عن هول هذا الجيش الذي يرعب ويحيف أن يقترب منه أحد بعده . وهذا ما تم ( وذهب ذكر معسkenنا ونيراننا في كل وجه ) . وكان من أهم أحداث هذا اليوم واليوم الذي يليه ما تم مهمة النار في الحرب المعنوية وهو ضد قريش ، وهو قدومن الخليف السرى لرسول الله ﷺ ، وهو عبد بن عبد الخزاعي ، الذي مثل قبيلته ، وقدم المواساة ، وتجديد الحلف والولاء للرسول ﷺ . وعبر عن المشاركة المعنوية في أحداث أحد .

( وانتهى عبد بن أبي عبد الخزاعي وهو يومئذ مشرك ، وكانت خزاعة سلما للنبي ﷺ فقال :

(١) المغارى للواقدى / ١ ٣٣٧ .

(٢) حمراء الأسد : جبل أحمر جنوب المدينة على ٢٠ كيلو إذا خرجمت من ذى الخليفة تؤم مكة .

(٣) المغارى للواقدى / ١ ٣٣٨ .

يا محمد لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله أعلى كعبك ،  
وأن المصيبة كانت بغيرك ) .

ومضى معبد بعد أن رأى الجيش الإسلامي مرابطاً على ثغر المدينة ، مستعداً  
لمواجهة أي طارئ ، على رأسه سيد الجزيرة محمد بن عبد الله رض ، مضى ليلقى  
قريشاً في الروحاء وقد أزمعت العودة لاحتلال المدينة .

( ثم مضى معبد حتى يجد أبي سفيان وقريشاً بالروحاء وهم يقولون : لا محمدًا  
أصبتهم ، ولا الكواكب أرددتم ، فبليس ما صنعتم ، فهم مجتمعون على الرجوع ،  
ويقول قائلهم فيما بينهم : ما صنعنا شيئاً ، أصبتنا أشرافهم ، ثم رجعنا قبل أن  
نستأصلهم ، قبل أن يكون لهم وفر ، والمتكلم بهذا عكرمة بن أبي جهل ، فلما جاء  
معبد إلى أبي سفيان قال : هذا معبد وعنه الخبر ، ما وراءك يا معبد ؟ . . . ) (١) .

وكانت الفرصة الذهبية الثمينة لمعبد أن يخوض حربه المعنوية ضد قريش - دون أن  
تشك قريش به فهو على شركه ، ويتم رسالة النيران المتهبة في حمراء الأسد ، فقد  
عرضًا لجيش محمد رض . استطاع أن يحطم به أعصاب قريش ، ويفتح في عضدها ،  
ويغير خططها كاملة ، ويذف الرعب في قلبه ، قال :

تركت محمداً وأصحابه خلفي يتحرون عليكم بمثل النيران ، وقد أجمع من  
تلخف عنه بالأمس من الأوس والخزرج وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوك فيثاروا  
منكم ، وغضبو لقومهم غضباً شديداً ولمن أصبتهم من أشرافهم .

وعند ابن هشام : فيهم من الحقن عليكم شيء لم أر مثله قط .

قال : ويلك ما تقول ! قال : والله ما أرى أن ترحل حتى ترى نواصي الخيل .

قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لستأصل بقيتهم .

قال : فإني أنهاك عن ذلك ، والله لقد حملني ما رأيت أن قلت فيهم أبداً من  
الشعر . قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

إذا سالت الأرض بالجرد الأبابيل  
تردى بأسد كرام لا تنبالة  
عند اللقاء ولا ميل معاريل  
فقلت : ويل ابن حرب من لقائكم  
إذا تقطّعت البطحاء بالجبل

فأنصرف القوم سراعاً خائفين من الطلب (٢) .

(١) المغارى للواقى / ٣٣٨ ، ٣٣٩ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ١٤٩/٣ ، ١٥٠ .

رسول الله ﷺ في حمراء الأسد ، وحليفه السرى العبرى في الروحاء يخوضن الحرب عنه ، فيشنى أبو سفيان عن وجهه ، ويعيد الجيش القرشى خائفاً كما أكد القرآن الكريم ذلك :

﴿ مُنْلَقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا وَهُمْ  
النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

اليوم الرابع :

وحاول أبو سفيان فيه أن يخوض حرباً معنوية جديدة ، فيرد الكرة على المسلمين من خبر معبد الخزاعى .

( وَمَرَّ رَكْبٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ بْنَيْ سَفِيَّانَ فَقَالَ : أَيْنَ تَرِيدُونَ ؟ قَالُوا : نَرِيدُ  
الْمَدِينَةَ . قَالَ : وَلَمْ ؟ قَالُوا : نَرِيدُ الْمِيرَةَ ، قَالَ : فَهَلْ أَنْتُمْ مُبْلَغُونَ عَنِ الْمُحَمَّدَ رَسُولَ  
أَرْسَلَكُمْ بِهَا إِلَيْهِ ، وَأَوْقِرُ لَكُمْ أَبَا عُرْكَمَ زَيْبَيَا غَدَّاً بِعِكَاظٍ إِذَا وَافَيْتُمُوهَا ؟ قَالُوا : نَعَمْ .  
قَالَ : إِذَا وَافَيْتُمْ الْمُحَمَّدَ فَأَخْبِرُوهُ أَنَا قَدْ أَجْمَعْنَا السِّيرَ إِلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ لِنَسْأَلُ  
بِقِيمَتِهِمْ ، وَأَنَا فِي آثارِكُمْ ، فَانْطَلَقَ أَبُو سَفِيَّانَ . وَقَدِمَ الرَّكْبُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَمْرَاءِ  
الْأَسَدِ ، فَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو سَفِيَّانَ وَأَصْحَابُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « حَسْبَنَا اللَّهُ  
وَنَعَمُ الْوَكِيلُ » (٢) .

لقد كانت خطة ذكية وناجحة ولا شك من أبي سفيان في حرب الأعصاب هذه .  
لكنَّ الجيل الذي تربى بالقرآن ، وصاغته يد النبوة ، ما كان مثل هذه الأخبار أن تفت  
في عضده كما فتت أخبار معبد في جيش مكة ؛ وذلك لأنهم خرجوا أصلاً للقاء  
الجيش ، وهم يحسّبون احتمال عودته ، ولأنهم ثانيةً يرکنون إلى ركن ركين من  
التوكل على الله - عز وجل ، فكان جوابهم : حسبنا الله ونعم الوكيل . وكان هو  
جواب قادتهم - عليه الصلاة والسلام - : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

ومالنا نصدُّ ونصوب ، وبين يدينا شهادة رب العالمين بهذا الجيل ، وذلك فيما  
رواه البخارى والنسائى وابن أبي حاتم والبيهقي فى الدلائل عن ابن عباس - رضى الله  
عنهم - قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها  
محمد حين قالوا : « إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبَنَا اللَّهُ  
وَنَعَمُ الْوَكِيلُ » (٣) .

(٢) فتح البارى / ٨ ٢٢٩ / برقم (٤٥٦٢) .

(١) آل عمران / ١٥١ .

(٣) آل عمران / ١٧٣ .

وبناءً على هذه العصبة .

﴿ فَانقُلُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِ لَمْ يَمْسِهِمْ سُوءٌ وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

وبعد أن بز مدنهم الأصيل ، وجدهم النفيس بالصبر والاعتماد على الله ، جاءهم البشير برحيل القوم ، وذلك كما روى الواقدي في مغاريته :

( وكان معبد قد أرسل رجلاً من خزاعة إلى رسول الله ﷺ يعلمه أن قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ) (٢) .

ولم يعد رسول الله ﷺ إلى المدينة في اليوم الخامس يوم الخميس ، إلا وقد ظفر بعدوين لذويدين من قادة قريش قتلهما ثاراً لأصحابه ، وكان هذان الزعيمان : أبي عزة الجمحى الشاعر ، ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية ، ولكل منها قصته .

أما أبو عزة الجمحى ، فسبق أن تحدثنا عنه ، وكيف أنه أسر في بدر ، ومن عليه رسول الله ﷺ بالحرية دون فداء بعد أن عاهده ألا يعيث ضده جمعاً ، لكن عصبيته وجاليلته تحركت بفعل قريش التي كانت بأمس الحاجة إليه وإلى شعره ، واختارتة واحداً من أربعة ؛ ليكونوا وفدا الإعلامي إلى بني عبد مناة والذين عبوا أكثر مما عبوا قريش عدداً وعدة ، ومضى شعر أبي عزة الجمحى يسرى في المصارب والمجالس ، يبحث الناس على حرب محمد - صلوات الله عليه ، وشاء قدر الله تعالى أن يقع أبو عزة الجمحى أسيراً مرة ثانية بيد محمد ﷺ عقب المعركة ، وبعد العودة من حراء الأسد ، وبعوقب نزل جبان ، عاد ثانية يتذلل لرسول الله ﷺ طالباً منه أن يغفو عنه ويهب له الأمان ، وال المسلمين يتحرقون غيطاً منه ، فكان الجواب النبوى الحاسم الذى أقر عين العصبة المؤمنة :

« والله لا تسع عارضيك بحكة ، وتقول : خدعت محمداً مرتين ، اضرب عنقه يا زبير » .

أما معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية فقد انهزم يومئذ فمضى على وجهه فنام قريباً من المدينة ، فلما أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبي العاص ابن أمية رضي الله عنه فضرب بابه فقالت امرأته أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ : ليس هو هاهنا (٣) .

(٢) المغارى للواقدى / ١ / ٣٤٠ .

(١) آل عمران / ١٧٤ .

(٣) المصدر نفسه / ١ / ٣٣٣ .

ولا غرابة ألا يدرى معاوية بن المغيرة ما جرى من تطورات المعركة فقد انهزم مع من انهزم في الجولة الأولى ، ولم يكن أمس رحمة به من عثمان بن عفان فهو ابن عمه الأدنى ، ومشكلة عثمان رسول الله الرجل الثالث في الأمة أن عشيرته - بنى أمية - تكون كلها في الصف المعادى ، فهو الذى يلجأ إليه رجالات بنى أمية جميعاً حين يطلبون الأمان من محمد رسول الله .

( فلما رأه قال : ويحك أهلكتنى وأهلكت نفسك ما جاء بك ؟ قال : يا ابن عم لم يكن أحد أقرب إلى منك ولا أحق ، فأدخله عثمان فى ناحية البيت ... واستأمن له رسول الله رسول الله ، فوهبه له وأمنه وأجله ثلاثة فإن وجد بعدهن قتل .

فخرج عثمان فاشترى له بعيراً وجهزه ثم قال : ارتحل ، فارتحل ، وسار رسول الله رسول الله إلى حمراء الأسد ، وخرج عثمان مع المسلمين إلى حمراء الأسد ، وأقام معاوية حتى كان اليوم الثالث ، فجلس على راحلته وخرج ، حتى إذا كان بتصور العقيق قال رسول الله رسول الله : « إن معاوية قد أصبح قريباً فاطلبوه » ، فخرج الناس في طلبه فإذا هو قد أخططا الطريق فخرجوه في أثره حتى أدركوه في اليوم الرابع ، وكان زيد بن حارثة ، وعمار بن ياسر أسرعوا في طلبه ، فأدركاه بالجمام ( داخل المدينة ) فضربه زيد بن حارثة وقال عمار : إن لي فيه حقاً فرماه عمار بسهم فقتله ) (١) .

لقد تماطل واستخف ، فانتهى وقت أمانه ، وتلقى عقوبة الموت ، بصفته من كبار الشخصيات المحاربة للإسلام ، ولا تزال الدماء لم تجف بعد .

بقى علينا أن نذكر على آثار العودة إلى المدينة يوم الخميس ، وبعد الظفر بهاتين الشخصيتين القياديتين أن نذكر أن هذه المجموعة المؤمنة ، وهذا الجيش الفتى المسلم بكل مستوياته اليمانية العالية والعادية والضعيفة ، قد دخل في إطار الثناء الرباني العظيم ، حين استجواب للنداء النبوي العظيم بلاحقة المشركين ، وهذا يعني : أن ما لقيه من عتاب شديد على مواقفه في أحد ، لم ير يوم التقى الجمعان ، ولم ين قال الله تعالى فيهم : « إِذْ تُصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُنَّ عَلَى أَحَدٍ » (٢) ولم ين أهتمهم أنفسهم ، ولم ين قال الله تعالى فيهم : « مَنِّكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنِّكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » (٣) ولم ين قال الله تعالى فيهم : « إِذْ هَمْتُ طَافِقَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا » (٤) .

(٢) آل عمران / ١٥٣ .

(٤) آل عمران / ١٢٢ .

(١) المغارى للواقدى ١/ ٣٣٥ .

(٣) آل عمران / ١٥٢ .

كان هذا الخروج لحرماء الأسد : قد مسح هذا الضعف كله من خلال هذه التجربة التربوية الجديدة التي لم تتجاوز الأربع أيام ، لتعلن دخول هذا الصف كله في إطار الثناء الرباني العظيم ، على أن يتبع خط الارتفاع الصعب العظيم الإحسان والتقوى فيمضي صعداً نحو السابقين الأولين : ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحَ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَأَتَقَوْا أَبْغَرَ عَظِيمٍ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوهُمْ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبَنَا اللَّهُ وَنَعَمُ الرَّوْكَيْلُ . فَانْقَلَبُوا بِيَنْعَمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضَلَّ لَمْ يَمْسِهِمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١) .

ولابد عن الإشارة أخيراً إلى ما ورد في البخاري حول الذين استجابوا لله ولرسول من بعد ما أصابهم القرح .

( فعن هشام عن أبيه - عروة بن الزبير - عن عائشة - رضى الله عنها ) ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحَ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَأَتَقَوْا أَبْغَرَ عَظِيمٍ ﴾ قالـتـ عـروـةـ :ـ يـاـ بـنـ أـخـتـيـ كـانـ أـبـوـاـكـ مـنـهـمـ :ـ الزـبـيرـ وـأـبـوـ بـكـرـ ،ـ لـمـ أـصـابـ رـسـوـلـ اللهـ مـنـهـ ماـ أـثـرـهـ ،ـ فـانـتـدـبـ مـنـهـمـ سـبـعـونـ رـجـلـاـ ،ـ قـالـ :ـ كـانـ فـيـهـمـ أـبـوـ بـكـرـ وـالـزـبـيرـ ) (٢) .

هـذـاـ هوـ نـصـ عـائـشـةـ - رـضـىـ اللهـ عـنـهـاـ - فـىـ الـبـخـارـىـ ،ـ فـهـلـ هـؤـلـاءـ السـبـعـونـ اـنـتـدـبـهـمـ وـهـدـهـمـ رـسـوـلـ اللهـ مـنـهـمـ وـعـادـوـاـ ؟ـ أـمـ هـمـ مـقـدـمـةـ الجـيـشـ الذـىـ مـضـىـ لـحـرـمـاءـ الـأـسـدـ ،ـ وـذـلـكـ لـلـجـمـعـ بـيـنـ الـرـوـاـيـاتـ الـوارـدـةـ فـىـ الـحـدـيـثـ وـالـسـيـرـةـ ؟ـ

يقول الصالحي في ذلك : ( قال في البداية : هذا سياق غريب جداً ، فإن المشهور عند أصحاب المغارى : أن الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى حرماء الأسد كل من شهد أحداً ، وكانوا سبعونا كما تقدم . قتل منهم سبعون وبقي الباقون . قلت : الظاهر - والله أعلم - لا تختلف بين قول عائشة وما ذكره أصحاب المغارى ؛ لأن معنى قولها : فانتدب منهم سبعون : أنهم سبقو غيرهم ثم تلاحق الباقون ، ولم يتبه على ذلك الحافظ في الفتح ) (٣) .

كما أورد الصالحي ملاحظته الثانية بقوله :

( الثاني : كان خروج النبي ﷺ إليها - أي أحد - صبيحة يوم الأحد لست عشرة

(٢) فتح الباري / ٧ / ٣٧٣ رقم (٤٠٧٧) .

(١) آل عمران / ١٧٤ - ١٧٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٤٤٦ .

مضت من شوال - عند ابن إسحاق - وعند ابن سعد لثمان خلون منه ، والخلاف عندهم في أحد كما سبق )١( . ولا ندرى إن كانت الآيات القرآنية عن أحد قد نزلت قبل حمراء الأسد أو بعدها ، وإن كنا نرجح أنها بعدها ؛ لأن حمراء الأسد في اليوم الثاني بعد أحد ؛ ولأن التربية الربانية تدع الصف المسلم يعمل ويجاهد ، ثم يأتي عرض المواقف والحكم عليها والتوجيه الرباني بعد ذلك )٢( .

### وقفة عند أحد وشهادتها :

حين نذكر أحد : نذكر عظمة سيد القادة الذي استطاع رغم الخلل العظيم في جيشه أن يعيد ترتيب هذا الجيش ، ويواجه أعنف هجوم قاده أحد عظماء قادة التاريخ : خالد بن الوليد ، ويصد هذا الهجوم بعقرية التخطيط ، وعظمة الثبات ، والتضحية بالعصبة المؤمنة التي بزرت في ساعة المحن ، وأسقطت هجوماً كان من الممكن أن ينهي الإسلام ودولته إلى الأبد .

إن عظمة هذا الانتصار ، وتجاوز هذه المحن ، وملائحة العدو ، وقدف الرعب في قلبه ، وإحباط المخطط الرهيب الذي عبّر له ثلاثة آلاف ليواجه بسبعينة فقط ، وعجز هذا العدو أن يتقدم شبراً واحداً من الأرض الإسلامية المقدسة؛ لهو في مفهوم الحروب انتصار من أكبر الانتصارات في التاريخ ، وذلك حين يقارن بما يمكن أن تكون النتيجة عليه لو انهزم المسلمون ، واحتلت المدينة ، وتمطرت المقاومة .

وحين نذكر سيد القادة في الوجود ، وقد واجه بشخصه ، ثم بالعصبة معه ، حيث مرت فترة حرجة كان يواجه العدو وحده ، ثم انضم إليه خمسة من العشرة المبشرين في اللحظة الخامسة ، وهم : طلحة ، وسعد ، وأبو بكر ، وأبو عبيدة عامر ابن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ، بينما كان الخمسة الآخرون يصدون الهجوم في موقع آخر ، ثم انضمت عصبة الانتصار كأبى طلحة ، وأبى دجانة ، ومالك بن سنان ، حيث ارتفع العدد لثلاثين ، ثم اقتحام صفوف العدو للوصول إلى جيشه المحاصر ، ثم صد الهجوم الشرس وإعادته على أعقابه ؛ لهو بطولة وعقرية عز نظيرها في التاريخ كله . وفي الأزمان والمحن تظهر البطولة والعظمة الفذة . إن كل الذي تم في أحد هو الخسائر البشرية - في المفهوم البشري - ولم تقوَ معركة أبداً في التاريخ من خلال عدد الخسائر بمقدار ما تقوم بتحقيق الأهداف .

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/٤٤٦ .

(٢) تم استعراض التربية القرآنية من خلال آيات أحد ، تفصيلاً في المنهج التربوي للسيرة النبوية ج ١ .  
فيمكن العودة إليه هناك .

لقد كانت المرحلة الأولى صدًا للعدوان دون خسائر قبل أن يبرز الخلل في الجيش ، ثم كانت المرحلة الثانية صدًا للعدوان كذلك بسبعين من الشهداء ومئات من الجرحى في الجيش الإسلامي العظيم ، وعجز العدو أن يحقق شيئاً من أهدافه في اقتحام المدينة ، واستصال شافة المسلمين ، واستباحة بيضتهم .

وقد اتبه فقهاؤنا لهذا الجانب ، فقد ذكر القسطلاني في المawahب اللدنية ذلك بقوله :

( تنبية : ذكر القاضي عياض في الشفاء عن القاضي أبي عبد الله بن المرابط من المالكية أنه من قال : إن النبي ﷺ هزم يستتاب ، فإن تاب وإن قتل ؛ لأنه تنقص ، إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصيته ﷺ ، وهذا موافق لذهبنا – أى الشافعية . لكن قال العلامة البساطي من المالكية : هذا القائل إن كان يخالف في أصل المسألة – أعني حكم السباب – فله وجه ، وإن وافق على أن الساب لا تقبل توبته فمشكل ؛ لمخالفته نص مالك وأصحابه ) (١) .

وحين يتحدث علماؤنا عن أحد يقولون :

( وقد كان في قصة أحد وما أصيب به المسلمين من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة ، منها : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، وشوم ارتكاب النهي لما وقع من ترك الرماة موقعهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ إلا ييرحوا منه . ومنها : أن عادة الرسل أن تبتلي و تكون لهم العاقبة – كما قاله هرقل لابي سفيان – والحكمة في ذلك : أن لو انتصروا دائمًا للدخل في المسلمين من ليس منهم ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسرموا دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الجمع بين الأمرين ؛ ليتميز الصادق من الكاذب ، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين ، فلما جرت هذه القصة ، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من التحول والفعل ، عاد التلويع تصريحاً ، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم فاستعدوا لهم ، وتحرزوا منهم .

ومنها : أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضمًا للنفس ، وكسرًا لشماختها .  
فلمما ابتلى المسلمين صبروا وجزع المنافقون .

ومنها : أن الله تعالى هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فقيص لهم أسباب الابلاء والمحن ليصلوا إليها .

ومنها : أن الشهادة هي أعلى مراتب الأولياء فساقهم إليها .

ومنها : أنه أراد هلاك أعدائه فقيص لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من

(١) المawahب اللدنية للقسطلاني ١ / ٩٨ ، ٩٩ .

كفرهم وبغיהם وطغيانهم في أذى أوليائه ، فمحض قلوب المؤمنين ومحق بذلك الكافرين )١( .

ونقف عند الشهداء العظام ، الذين جاءهم من ربهم هذا الثناء : « **وَلَا تَخْسِنَ الَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ اللَّهُ مِنْ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبِشُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْعَمُوا بِهِمْ مِنْ خَلْقِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ . يَسْتَبِشُونَ بِعِصْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ ۼ ۴ ۲( ) .**

لقد صدق الشهداء وعدهم من ربهم سبحانه ، فأولئك الذين بايعوا في العقبة على أن يحموا رسول الله ﷺ ما يحمون منه نساءهم وأولادهم ، عندما جد الجد ؛ قدموا سبعين شهيداً مع مئات الجرحى ، ولم يخذلوا نبيهم في اللحظة الحاسمة ، فإن كان المبايعون من الأنصار سبعون ، فالشهداء في أحد سبعون .

لقد ضحي القادة بأنفسهم حين لم يكن الحل إلا نفوسهم ، فسقط ثلاثة من النقباء الاثنين عشر شهداء في المعركة ، أي : ربهم على أقل تقدير ، وسقط حوالي خمسة عشر من المبايعين السبعين شهداء في المعركة ، أي قرابة الخامس منهم ، وسقط من الجيل الرائد من أهل بدر ما ينوف عن العشرة . فكان هذا الحى من الأنصار قد صدق الله ما وعده ، فكان القياديون منهم ينوفون عن ثلاثين . بينما كان الأربعون الآخرون من الطاقات الشبابية المعطاءة ، ومن الجيل الجديد الذي انضم للإسلام ، ودفع الثمن مباشرة من دمه وروحه .

أما ذلك الحى من المهاجرين فقد قدم سيد الشهداء على الإطلاق في هذا الوجود - حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله - الذي كان أعظم هدف حقيقه المشركون ، فهو الذي فعل بهم الأفاعيل في بدر وفي أحد ، فكان يمشي بين الصفين كالأسد الهائج ، لا يقف في وجهه أحد من العدو . وقتل غيلة وغدرًا لا مواجهة ومبرزة . وأحسن رسول الله ﷺ بفقده حتى إنه لم ير في حياته كلها أشد بكاء وتاثيرًا منه يوم فقد عمه حمزة ، فهو الذي كان بين يديه رجل المهمات وبطل الساحة ، وهو عمه الحبيب وأخوه الأحب ، فقد رضعا معاً من ثدي واحد ، كما فقد بطلاً آخر من بنى هاشم يوم بدر وهو : ابن عمه عبيدة بن الحارث .

وفقد - عليه الصلاة والسلام - قائداً فذاً من قادته وأهله وهو : عبد الله بن

(٢) آل عمران / ١٦٩ - ١٧١ .

(١) المواهب اللدنية للقططاني ١ / ٩٩ .

جحش، أول أمير للمؤمنين في الوجود الإسلامي ، وأصبر القادة على الجوع والعطش. وهو ابن عمته وسند مكين كان يدخله للصعب والأحوال، فقد سيداً عظيماً من السادات عنده ، وقادها عبقرياً في الحرب والسلم وهو : مصعب بن عمير رض الذي تجمع صفة الانصار كلها في ملف حسناته . فله التدح المعلى في انضمام المدينة إلى الإسلام، أو بتعبير أدق في انضمام الإسلام إلى المدينة : « إن الإيمان ليأزر إلى المدينة كما تأزر الحياة إلى جحرها » (١) .

وفقد قائدًا رابعًا من أهله - عليه الصلاة والسلام - وهو : شemas بن عثمان المخزومي . قال الزبير بن بكار عنه : كان من أحسن الناس وجهًا . وقال حسان يرثيه ويعزى فيه أخته :

أقنى حباءك في ستر وفي كرم     فإنما كان شemas من الناس  
قد ذاق حمزة سيف الله فاصطبرى     كأسى رواه لكأس المرء شemas (٢)

وأما أكبر قادة الانصار الذين افتقدهم - عليه الصلاة والسلام - فكانوا سيد بنى الحارث بن الخزرج ونقيبهم في العقبة : سعد بن الربيع ، الذي افتقده - عليه الصلاة والسلام - وأرسل الرسل يبحثون عنه وهو يقول : « من ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الاموات ؟ » فقال رجل من الانصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد . فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق . فقلت له : إن رسول الله صل أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم في الاموات ؟ قال: أنا في الاموات ، وأبلغ رسول الله صل عن السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جراك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عن السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم صل ومنكم عين تطرف . قال : ثم لم أُبرح حتى مات ، قال : فجئت رسول الله صل فأخبرته خبره (٣) .

والقائد الثاني هو : عبد الله بن عمرو بن حرام سيد بنى سلمة ونقيبهم ، الذي قال فيه رسول الله صل لولده جابر : « ما كلام الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وأحياناً أباك فكلمه كفاحاً (٤) » فقال: يا عبدى ! ثمَّ علىَّ أعطك . قال: يا رب تخيبني فأقتل فيك ثانية . قال الرب - عز وجل -: إنه قد سبق القول مني وأنهم إليها لا يرجعون .

(١) البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، وابن ماجه .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م ٢ ، ٣ / ٢١٢ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٦٣ . وقد رواه الحاكم ٣ / ٢٠١ وصححه ، ووافقه التهبي وقال عنه : « صحيح » .

(٤) كفاحاً : مواجهة .

قال: وأنزلت هذه الآية « وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُلُّوا » (١) ، (٢) .

والقائد الثالث من بنى سلمة ، كذلك وهو : عمرو بن الجموح الذى قلله رسول الله ﷺ سيدة بنى سلمة ، وذلك كما روى ابن المنكدر: أن رسول الله ﷺ قال: « يابنى سلمة ، من سيدكم ؟ » قالوا : الجد بن قيس ، وإنما لنبلخله . قال : « وأى داء أدوا من البخل ، بل سيدكم الجعد الأبيض ، عمرو بن الجموح » (٣) .

وعن أبي الضحى: أن عمرو بن الجموح قال لبنيه : أنتم منعتموني الجنة يوم بدر ، والله لئن بقيت لادخلنَّ الجنة . فلما كان يوم أحد ، قال عمر : لم يكن لى هم غيره . فطلبه ، فإذا هو في الرعيل الأول (٤) .

ويبلغ من حب رسول الله ﷺ هؤلاء الشهداء جميـعاً : أن تمنى أنه كان واحداً منهم ومعهم ، فعن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا ذكر أصحاب أحد : « أما والله ، لو ددت أني غودرت مع أصحاب فحص (٥) الجبل » (٦) .

---

(١) آل عمران / ١٦٩ .

(٢) رواه الترمذى وقال : « حديث حسن غريب » .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ٢٥٤ . وقال المحقق عنه : « رجاله ثقات ولكنه مرسلاً ، وأخرجه البخارى في الأدب المفرد عن جابر بسند قوى .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي وقال المحقق فيه : « رجاله ثقات لكنه منقطع » .

(٥) فحص : سفح .

(٦) سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ١٨٤ ، وقال المحقق فيه : « إسناده قوى » ، وهو في المسند ٣٧٥/ ٣ .

## تحريم الخمر

شهد شهر شوال حدثاً لا يقل أثراً عن غزوة أحد في خط البناء الداخلي للأمة؛  
ألا وهو : التحريم النهائي للخمر الذي كان جزءاً لا يتجزأ من حياة العرب في الجاهلية  
وفي الإسلام ، حتى تم تحريمه ، إلا بعض الأشخاص النوادر الذين يعدون على  
الأصابع من حرم على نفسه الخمر في الجاهلية وفي الإسلام ، ونحن في صدد الحديث  
عن المنهج التربوي للسيرة النبوية نستمع إلى صاحب الظلال - رحمة الله - يحدثنا عن  
هذا المنهج بمناسبة الحديث عن تحريم الخمر وأشباهه من المحرمات فيقول :

(وفي سياق قضية التشريع بالتحريم والتحليل ، وفي خط التربية للأمة المسلمة في  
المدينة ، وتخلصها من جو الجاهلية ، وأسسها وتقاليدها الشخصية والاجتماعية .  
يعنى النص القاطع الأخير في تحريم الخمر والميسر مقتولين إلى تحريم الانصاب  
والآذlam ، أى إلى الشرك بالله ) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَذْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ  
فَاجْتَبَيْهُ لِعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْعَمَرِ  
وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهُلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ  
وَأَحْذِرُوكُمْ فَإِنْ تَوَلِّتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ . لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا أَتَقْوَى وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ أَتَقْوَى وَآمَنُوا ثُمَّ أَتَقْوَى  
وَآخَسْتُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

لقد كانت الخمر والميسر والأنصاب والآذلام من معالم الحياة الجاهلية ، ومن  
التقاليد المتغلغلة في المجتمع الجاهيلي ، وكانت كلها حزمة واحدة ذات ارتباط عميق في  
مزاؤلتها ، وفي كونها من سمات ذلك المجتمع وتقاليده ، فقد كانوا يشربون الخمر في  
إسراف ، ويجعلونها من المفاخر التي يتسابقون في مجالسها ويتکاثرون ، ويدبرون عليها  
فخرهم في الشعر ومدحهم كذلك ! وكان يصاحب مجالس الشراب نحر الذبائح واتخاذ  
الشواء منها للشاربين وللسقاة وللاحлас هذه المجالس ، ومن يلوذون بها ويلتفون  
حولها ، وكانت هذه الذبائح تحر على الانصاب وهي : أصنام لهم كانوا يذبحون عليها  
ذبائحهم وينضحونها بدمها ( كما كانت الذبائح التي تقدم لها تذبح عليها ) ، وفي ذبائح

(١) المائدة / ٩٣ - .

مجالس الخمر وغيرها من المناسبات الاجتماعية التي تشبهها : يجري الميسر على طريق الأزلام ، وهى قداح كانوا يستقسمون بها الذبيحة ، فإذاً كل منهم نصيبه منها بحسب قدمه ، فالذى قدح المعلى يأخذ النصيب الأول ، وهكذا حتى يكون من لا نصيب لقدمه ، وقد يكون هو صاحب الذبيحة فيخسرها كلها .

وهكذا يبدو تشابك العادات والتقاليد الاجتماعية ، ويبدو جريانها كذلك وفق حال الجاهلية وتصوراتها الاعتقادية .

ولم يبدأ المنهج الإسلامي في معالجة هذه التقاليد أول الأمر ؛ لأنها إنما تقوم على جذور اعتقادية فاسدة ، فعلاجها من فوق السطح قبل علاج جذورها الغائرة جهد ضائع . حاشا للمنهج الرباني أن يفعله ! إنما بدأ الإسلام من عقدة النفس البشرية الأولى ، عقدة العقيدة ، بدأ باجتثاث التصور الجاهلي الاعتقادي جملة من جذوره ، وإقامة التصور الإسلامي الصحيح ، إقامته من أعماق القاعدة المرتكزة إلى الفطرة . . . بين الناس فساد تصوراتهم عن الألوهية ، وهداهم إلى الإله الحق ، وحين عرفوا بهم الحق بدأت نفوسهم تستمع إلى ما يحبه منهم هذا الإله الحق ، وما يكرهه ، وما كانوا قبل ذلك ليسمعوا أو يطيعوا أمراً ولا نهياً ، وما كانوا ليقلعوا عن مألفاتهم الجاهلية مهما تكرر لهم النهي وبذلت لهم النصيحة . . . إن عقدة الفطرة البشرية هي : عقدة العقيدة ، وما لم تخل هذه العقدة أولاً فلن يثبت فيها شيء من خلق أو تهذيب أو إصلاح اجتماعي . . . إن مفتاح الفطرة البشرية هاهنا . وما لم نفتح بمحفاتها فستظل سراديبها مغلقة ، ودوربها ملتوية ، وكلما كشف منها زقاق انهمت أرقه ، وكلما ضاء منها جانب أظلمت جوانب ، وكلما حلت منها عقدة تعقدت عقد ، وكلما فتح منها درب سدت دروب ومسالك . . . إلى ما لا نهاية .

لذلك لم يبدأ المنهج الإسلامي في علاج الجاهلية وانحرافاتها من هذه الرذائل . والانحرافات إنما بدأ من العقيدة . . . بدأ من شهادة أن لا إله إلا الله ، وطالت فترة إنشاء لا إله إلا الله هذه في الزمن حتى بلغت ثلاثة عشر عاماً ، لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية : تعريف الناس باليهيم الحق ، وتعبيدهم له ، وتطريعهم لسلطانه . . . حتى إذا خلصت نفوسهم له ، وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما يختاره الله . . . عندئذ بدأت التكاليف - بما فيها الشعائر التعبدية - وعندئذ بدأت عملية تنمية روابط الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والسلوكية . . . بدأت في الوقت الذي يأمر الله فيطيع العباد بلا جدال ؛ لأنهم لا يعلمون لهم خيرة فيما يأمر الله به أو ينهى عنه آنئـا كان .

أو بتعير آخر : بدأت الأوامر والنواهى بعد ( الإسلام ) بعد الاستسلام ، بعد أن لم يعد للمسلم في نفسه شيء ، بعد أن لم يعد يفكر في أن يكون له إلى جانب الله رأى أو اختيار ، أو كما يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى في كتابه : ( ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ) تحت عنوان : انحلت العقدة الكبرى ... انحلت العقدة الكبرى عقدة الشرك والكفر ... فانحلت العقد كلها ، ومجاهدهم رسول الله ﷺ جهاده الأول ، فلم يحتاج إلى جهاد مستأنف لكل أمر أو نهى ، وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه في كل معركة ، وقد دخلوا في السلم كافة ، بقلوبهم ، وجوارحهم ، وأرواحهم كافة ، لا يشاؤن الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى . حدثوا الرسول بما اختنانوا به أنفسهم ، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد ، إذا فرطت منهم زلة استوجبها الحد . نزل تحريم الخمر ، والكتؤوس المتدافع على راحتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاعة الملتزمة ، والأكباد المتقدمة ، وكسرت دنان الخمر فسألت في سكك المدينة ) ( ١ ) .

ونستاذن صاحب الظلال - رحمه الله - في هذه الإضافة .

فلا شك أن التربية اتجهت ابتداءً إلى معالجة العقيدة، حتى دخل الناس في الإسلام، وبقى الأمر في المجتمع المكي ثلاثة عشر عاماً ينصب على بناء العقيدة ، دون أن تستغرق هذه المرحلة التشريعات الكبرى في بناء الدولة ، ولكننا نسأل : هل احتاج بناء العقيدة في نفوس العصبة المسلمة الأولى هذا الزمن كله ؟ ما أعتقد ذلك ، فالمسلم الذي ينضم إلى الدين الجديد مؤهل لتنفيذ كل ما يتطلب منه بعد لحظة إيمانه الحق ، ولطالما طلبت روحه فأدتها وترك أرضه وأهله ووطنه في سبيل الله ، وهاجر في سبيل الله ، وأوذى في سبيل الله ، ولم يكن العربي في ذلك الوقت ليجهل مفهوم الالوهية والتوحيد والرسالة ، فهو يعرف أن إيمانه برسالة محمد ﷺ يعني تخليه عن شخصه وذاته وأهواه واتباع النبي الموحى إليه في كل شيء . لقد كان التركيز ابتداءً في القرآن المكي على نقض عقائد المجتمع الجاهلي كله .

وحين ينضم المسلم إلى الإسلام أو يدخل دار الأرقام ، فهو يعرف أنه وضع روحه على كفه ، وهو جاهز لتنفيذ كل ما يتطلب منه منذ اللحظات الأولى لإسلامه . لقد كان الجهاد كله ليس لاقناع المسلمين في عقيدتهم الحقة بعد أن دخلوا في الإسلام ، إنما كان الجهاد كله منصباً على النقلة للرجل من الجاهلية إلى الإسلام ، وانضمامه إلى العصبة

( ١ ) في ظلال القرآن / ٢٩٤ .

المسلمة التي لا تملك أرضاً ولا تملك مجتمعاً تعيش فيه، فهي ملاحقة مضطهدة مطاردة ، إلى أن أذن الله - عز وجل - بتكوين العصبة المسلمة الكافية عدداً ؛ لتكون نواة مجتمع مسلم ، وأذن الله بتكوين القاعدة الصلبة التي أشرف الإسلام في قلبها فعلاً عليها حياتها وجودها ، عندئذ انتقلت هذه القاعدة إلى المدينة حيث قام المجتمع الإسلامي الأول .

ولا أدل على ذلك من أن السابقين الأولين من الأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان لم يحتاجوا إلى ثلاثة عشر عاماً جديدة لثبتت العقيدة في قلوبهم ، فحين نزل تحريم الحمر نزل في أواخر السنة الثالثة للهجرة ، أي أنه : مر على أكثرهم ثلاثة أعوام فقط في هذا الدين ، ويمكن أن يكون أكثرهم لم يمر عليه عام واحد ، كما رأينا من تضاعف عدد المسلمين من ثلاثة ونيف إلى سبعمائة ونيف في شوال في السنة الثالثة ، ومع ذلك لم يسجل تاريخ الإسلام مخالفة واحدة لمن مر عليه في الإسلام ساعات أو أيام أو سنتين بعد أن انضم إلى المجتمع الإسلامي الجديد ، ولا يغيب عن ذهتنا مجتمع المافقين الذي حاول أن يكون وجوداً له ، وقيادة خاصة له ، وسقطت هذه المحاولة .

وكان شخص رسول الله ﷺ على رأس دولة الإسلام وهو إمام المربيين في الوجود ، وهو القدوة والأسوة ، وهو الحب والحياة والوجود للمسلم . له دور كبير جداً في تنفيذ العقيدة ونشرها في النفوس ، وكان لقيام المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية دور كبير في اختصار الزمن للانتقال من طور العقيدة إلى طور التحليل والتحريم والتشريع ، بحيث إن المسلم يسلم اليوم ، ويدخل لتوه في تنفيذ ما أحل وما حرم عليه من قبل ، ولديه الجاهزية الكاملة لتنفيذ ما يطلب منه في كل لحظة عن طريق قائد العظيم - عليه الصلاة والسلام .

وأجدني مضطراً لعرض هذه الصورة من خلال هذا المثال .

قال ابن هشام : وحدثني أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه ، قال رسول الله ﷺ : « أفضالة ؟ » قال : نعم فضالة يا رسول الله ، قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » . قال : لا شيء كنت أذكر الله . قال : فضحك النبي ﷺ ثم قال : « أستغفر الله » ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه . قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بأمرأة كنت تحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ، فقلت لا . وابتعد فضالة يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا يا بني عليك الله والإسلام  
بالفتح يوم تكسر الأصنام لـ ما رأيت محمداً وقيله  
لرأيت دين الله أصحي بينا والشرك يغشى وجهه الأظلام (١)  
والمثال يوضح لنا الجوانب الثلاثة معاً :

يوضح لنا أولاً : انهيار الأصنام وزيفها يوم كسرت وتحطم ، لكن هذا عكس في نفسه حقداً جديداً رغم وضوح الرؤبة في عقله ، فقرر قتل النبي ﷺ وحاول ذلك .

ويوضح لنا ثانياً : عظمة سيد ولد آدم وهو يهز هذا الكيان بالسؤال أولاً عن مكون القلب ، ثم وضع يده الشريفة على صدر فضالة ليسكن قلبه من الخوف أولاً ، وليتغير الكيان كله مع دعوة رسول الله ﷺ مع هذه اللمسة العظيمة والدعاء العظيم التي لا يملكها في هذا الوجود من خلق الله إلا رسول الله ﷺ ، فينبغي إنساناً آخر يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه .

ويوضح لنا ثالثاً: الاستجابة المباشرة الحية لهذه العقيدة ، فلم يمر عليه ساعة بعد ، حين التقى بالمرأة التي يحبها ويحدثها ، فندعوه إلى الحديث فيابي ، ويرى النور الآن بعد العم السابق ، يرى الأصنام قد كسرت ؛ لأنها باطل ، ويرى الشرك وقد أغشى وجهه بالإسلام ودين الله أصحي حاجزاً يحول بينها وبينه ، ولما يمر على إسلامه ساعة واحدة .

ونعود بعدها إلى الخمر وتحريمها ، وهي التي كانت أهم مقومات العربي في الجاهلية ، وذلك حين تلخص حياته كلها بالثالوث المقدس عنده من شهواته وبطشه : (خمر ، وسيف ، نساء) وهذه هي خلاصة لذة الحياة عنده كما لخصها طرفة بن العبد :

ولولا ثلات هنَّ من عيشة الفتى	وحقك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبق العادات بشريبة	كميت متى ما فعل بماله تزيد (٢)
وتبكير يوم الدجن والدجن معجب	ببهكة تخت الفراش المورد (٣)
وكري إذا نادى المضاف محنياً	كسيد الفضا نبهته المتورد (٤) (٥)

ولأن الخمر من التغلغل والتاثير في النفس البشرية التي اعتادت عليها وأدمنت شربها ، لا يمكن أن يتم التخلص منها في لحظة واحدة ، فقد كان منهج التربية القرآنية

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/٨٤ ، ٨٥ . (٢) يصف شريه للخمر الذي اخالط بالملاء .

(٣) يصف للذئبة الجنسية مع خليلة له وقد اخترل بها . (٤) يصف اندفاعه للقتال وإيجاباته لناديه .

(٥) من معلقة طرفة بن العبد ص ٨٢ ، ٨٣ شرح العلاقات السبع للزرزوني ، ط . المكتبة الفيصلية .

يعرض هذا التحرير على مراحل متلاحقة .

ونعود إلى صاحب الظلال مرة ثانية : ( كانت المرحلة الأولى مرحلة إطلاق سهم في الاتجاه حين قال الله سبحانه في سورة النحل المكية : ﴿ وَمِنْ نَعْرَاتِ النُّخْلِ وَالْأَعْنَابِ تَسْخَدُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا . . . . ﴾ (١) فكانت أول ما يطرق حسن المسلم من وضع ( السكر ) وهو المخمر في مقابل الرزق الحسن فكانها هو شيء والرزق الحسن شيء آخر .

ثم كانت الثانية بتحريك الوجدان الديني عن طريق المطلق التشريعى في نفوس المسلمين حين نزلت التي في سورة البقرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِنْهُ كَبِيرٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرٌ مِنْ نَعْمَلَهُمْ . . . . ﴾ (٢) وفي هذا إيحاء إلى أن تركهما هو الأولى ما دام الإثم أكبر من النفع ؛ إذ قلما يخلو شيء من نفع ، ولكن حله أو حرمه إنما ترتكز على غلبة الضر والنفع .

ثم كانت الثالثة بكسر عادة الشراب وإيقاع التناحر بينها وبين فريضة الصلاة حين نزلت التي في النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . . . . ﴾ (٣) .

والصلاحة في خمسة أوقات معظمها متقارب ، ولا يكفى ما بينها للسكر ثم للإفافة ، وفي هذا تضييق لغرض المزاولة العملية لعادة الشراب ، وخاصة عادة الصبور في الصباح ، والنبوغ بعد العصر أو المغرب كما كانت عادة الجahلين ، وفيه كسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد الطعام - وفيه أمر له وزنه في نفس المسلم - ذلك التناقض بين الوفاء لفريضة الصلاة في مواعيدها بعاده الشراب في مواعيدها .

ثم كانت الرابعة الخامسة والأخيرة ، وقد تهيأت النفوس لها تهيئاً كاملاً ، فلم يكن إلا النهى حتى تتبعه الطاعة الفورية والإذعان .

ولما نزلت آية التحرير في سنة ثلاثة بعد وقعة أحد ، لم يحتاج الأمر إلى أكثر من مناد في نوادي المدينة : « ألا أيها القوم ، إن الخمر قد حرمت » فمن كان في يده كأس حطّمها ، ومن كان في فمه جرعة مجّها ، وشققت رقاد الخمر ، وكسرت قناته ،

(٢) البقرة / ٢١٩ .

(١) النحل / ٦٧ .

(٣) النساء / ٤٣ .

وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر ) (١) .

لقد كانت الآيات تنزل منفردة من الخمر دون أن تشير إلى تحريمها . كما روى أصحاب السنن من طريق أبي ميسرة عن عمر أنه قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في البقرة : ﴿... قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ...﴾ (٢) فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت التي في النساء : ﴿... لَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سَكَارَىٰ ...﴾ (٣) فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت التي في المائدة : ﴿فَاجْتَبِيْهُ﴾ إلى قوله : ﴿مُتَهْوِنَ﴾ (٤) فقال عمر : انتهينا ، وصححه على بن المديني ، والترمذى (٥) .

لقد كانت الآيات الحس النفسي عند المسلمين ضد الخمر ، وقد استجاب لهذا التوجيه الكبير من المسلمين فابتعدوا عن الخمر لهذا الوصف الذميم لها ، ولكن الأكبر يبقى يتعامل معها ؛ لشدة تأثيرها في نفسه ولعدم التزويه بحرمتها ، لكن الحديث الذى تم أثناء الصلاة كون جوأً عنيفاً ضد الخمر ، وهيا هذه التفوس للتفاعل مع تحريم الخمر أثناء الصلاة .

أخرج أحمد من حديث أبي هريرة قوله : ( ... عند نزول آية البقرة قال الناس : ما حرم علينا ، فكانوا يشربون حتى أَمَّ رجل أصحابه في المغرب فخلط في قراءته ، فنزلت الآية التي في النساء ، فكانوا يشربون ولا يقرب الرجل الصلاة حتى يفيق ، ثم نزلت آية المائدة فقالوا : يا رسول الله ، ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على فرشهم وكانوا يشربونها فأنزل الله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آتَيْنَا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا ...﴾ الآية (٦) ، فقال النبي ﷺ : « لو حرم عليهم لتركوه كما تركتموه » . وفي مسند الطيالسى من حديث ابن عمر نحوه وقال : في الآية الأولى : قيل : حرمت الخمر فقالوا : دعنا يا رسول الله نتفعل بها ، وفي الثانية فقيل : حرمت الخمر ، فقالوا : لا . إنما لا نشربها قرب الصلاة . وقال في الثالثة . فقالوا : يا رسول الله حرمت الخمر ) (٧) .

ولهذا كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو بعد كل آية تتعلق في الخمر : اللهم أنزل لنا في الخمر

(١) في ظلال القرآن ٢ / ٩٧٤ ، ٩٧٥ .

(٢) البقرة / ٢١٩ .

(٣) النساء / ٤٣ .

(٤) المائدة / ٩٠ ، ٩١ .

(٥) فتح البارى في شرح صحيح البخارى ٨ / ٢٧٩ .

(٦) المائدة / ٩٣ .

(٧) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٨ / ٢٨٠ والحديث عند أحمد .

بياناً شافياً ، وأصبح المسلمين يتوقون في كل وقت نزول بيان شافٍ في الخمر ولو أنهم لم يمتنعوا عنها ، لكن عملية التخفيف منها ثبتت بالتأكيد خاصة بعد الآية الثالثة في النساء ﴿... لا تقربوا الصلاة وتأتُم سكاري...﴾<sup>(١)</sup> كما ذكر سيد - رحمة الله .

ثم كانت الثالثة بكسر عادة الشراب وإيقاع التناحر بينها وبين فريضة الصلاة حين نزلت التي في النساء ... والصلاحة في خمسة أوقات معظمها متقارب ، ولا يكفي ما بينها للسكر ثم للإفاقه ، وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشراب ، وخاصة عادة الصبوح في الصباح ، والنبوغ عند العصر أو المغرب كما كانت عادة الجاهليين ، وفيه كسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطى وفيه - وهو أمر له وزنه في نفس المسلم - ذلك التناقض بين الوفاء بفريضة الصلاة في مواعيدها ، والوفاء بعادة الشراب في مواعيدها .

وكانت الآية الأخيرة التي أنهت موضوع الخمر من حياة المجتمع المسلم بأية واحدة .

لم يشهد تاريخ الأمم والشعوب على امتداد التاريخ حدثاً تربوياً يعدل هذا الحدث في مدى الالتزام بالنصر في عادة مستأصلة متغلغلة في أعماق وحنياً النفس البشرية ، ولا تزال البشرية تعاني إلى اليوم من هذا البلاء الفتاك ، وتعجز عن معالجته ، وستبقى عاجزة عن معالجته رغم كل الأبحاث الطبية والتوعية الإعلامية على خطره ، وحين تكتب عشرات الملايين من الصفحات في التحذير من الخمر وأخطاره ، وعشرات الآلوف من الكتب والمقالات في محاربته ، تكتفى آية واحدة لاجتناث هذه العادة المستأصلة في هذا المجتمع المسلم الجديد من جذوره ، كما يروى لنا أنس رضي الله عنه بقوله :

( كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة ، فترى تحرير الخمر ، فأمر منادياً فنادي ، فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ما هذا الصوت . قال : فخرجت فقلت : هذا منادٍ ينادي : ألا إن الخمر قد حرمت . فقال لي : اذهب فاهرقها . قال : فجرت في سكك المدينة . قال : وكان خمرهم يومئذ الفضييخ <sup>(٢)</sup> . فقال بعض القوم : قتل قوم وهي في بطونهم . قال : فأنزل الله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الدِّينِ أَمْنًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا...﴾<sup>(٣)</sup> )<sup>(٤)</sup> .

(١) النساء / ٤٣ .

(٢) الفضييخ : شراب يتخذ من البسر دون أن تمسه النار .

(٣) المائدة / ٩٣ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨ / ٢٧٨ برقم (٤٦٢) .

وفي رواية أخرى عن أنس : ( ما كان لنا خمر غير فضيحةكم هذا الذي تسمونه الفضيحة . فلاني لقائم أسبق أبا طلحة وفلانا ؛ إذ جاء رجل فقال : وهل بلغكم الخبر ؟ فقالوا : وما ذاك ؟ قال : حرمت الخمر . قالوا : أهرق هذه القلال يا أنس . قال : فما سأله عنها ولا راجعواها بعد خبر الرجل ) (١) .

ويجمع الحافظ ابن حجر بين الحديثين فيقول : ( وظاهرهما التعارض ؛ لأن الأول يشعر بأن المنادى بذلك شافههم ، والثانى يشعر بأن الذى نقل لهم ذلك غير أنس . فنقل ابن التين عن الداودى أنه قال : لا اختلاف بين الروايتين ؛ لأن الآتى أخبر أنساً ، وأنس أخبر القوم . وتعقبه ابن التين : بأن نص الرواية الأولى أن الآتى أخبر القوم مشافهة بذلك . قلت : فيمكن الجمع بوجه آخر ، وهو أن المنادى غير الذى أخبرهم ، أو أن أنساً لما أخبرهم عن المنادى جاء المنادى أيضاً فى أثره فشافههم ) (٢) .

إنها المعجزة حقاً أن يصل المجتمع الإسلامي إلى هذا المستوى من الانضباط والتلاحم والثقة ، فيكفى أن يسأل أبو طلحة رض عن النداء ، ويعود أنس ليقول : إن المنادى يذكر أن الخمر قد حرمت ، حتى يستجيب الجالسون المعاقرن للخمرة لخبر ابن الثالثة عشر من العمر ، ذلك الصبي المراهق ، فيصدر أمر أبي طلحة لانس : اذهب فأهرقها ، وأبو طلحة زوج أم سليم ، أم أنس بن مالك ، فأنس يسكن القوم فى بيته ، وتسارع الناس فى إهراقها حتى جرت بها سكل المدينة ، دون أن يتظروا حتى سماع الآية القرآنية ، فقد يكون التحرير بأمر نبوى دون نزول آية قرآنية ، فهو المصدق عن ربه فيما يحدث عنه .

هذا الخمر الذى كانوا يقضون عامهم فى تموينه؛ ليكون خمراً معتقداً يشربون منه طيلة العام ، فمؤونة العام كلها تخرج وترمى خارج البيوت ، ولم يخطر بذهنهم أن يحتفظوا بها لبيعوها ، وقد كلفتهم ثمناً غالياً حتى حصلوا عليها ، فتحرر الخمر لا يقضى مباشرة إهراقها ولا نص بذلك ، ويمكن أن يتربثوا حتى يسألوا رسول الله صل أن يبيع لهم بيعها ، لكنه الحسن العجيب الذى كون لديهم هذا الفقه من قوله تعالى : « **فاجتبوه** » والاجتناب يقتضى : البعد عنه والتخلى عنه والنبذ له ، وليس اجتناب شربه فقط ؛ ولهذا سارعوا إلى ذلك حتى قبل وصول النص لجواب أنس أو لقول الرجل : حرمت الخمر ، فكما يقول النص : فما سأله عنها ، ولا راجعواها بعد خبر الرجل .

(٢) فتح البارى ٨ / ٢٨٠ .

(١) المصدر السابق (٤٦١٧) .

ولكن الذى ألقهم هو : خوفهم على إخوانهم الذين سبقوهم بإحسان ومضوا إلى ربهم ، والخمرة رجس ، والرجس فى بطونهم ، فهل هذا يحيط عملهم ؟ إنه التواد والتراحم بين الأحياء والشهداء الذين لا تزال آثار دمائهم لم تجف بعد .

( فعن جابر رضي الله عنه قال : صبع ناس غداة أحد الخمر ، فقتلوا من يومهم جميعاً شهداء وذلك قبل تحريمها ) (١) .

والنص الآخر ( قتل قوم وهى فى بطونهم ) وفى رواية أحمد : ( يا رسول الله ، قتلوا فى سبيل الله وما توا على فرشهم وكانوا يشربونها ) ، فجاء الجواب النبوى الذى أقرَّ عيونهم ونفوسهم : « لو حُرِّمَ عليهم لتركوه كما تركتموه ». وأنزل الله تعالى شفاءً لما في الصدور في قوله - عز وجل - : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا آتَقُوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ أَتَقُوا وَآمَنُوا ثُمَّ أَتَقُوا وَأَخْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (٢) .

ويحدثنا سيد - رحمة الله - عن الأثر النفسي للآيات القرآنية من خلال منهج التربية القرآني فيقول :

والآن ننظر في صياغة النص القرآني والمنهج الذى يتجلى فيه منهج التربية والتوجيه « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْغَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَذَلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَبِيُوهُ لِمَلَكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بِيَنْكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ فِي الْغَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهُلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلِّتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » (٣) .

إنه يبدأ بالنداء المأثور في هذا القطاع : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » لاستجاشة قلوب المؤمنين من جهة ، ولتذكيرهم بمقتضى هذا الإيمان من الالتزام والطاعة من جهة أخرى ، يلى هذا النداء الموحى تقرير حاسم على سبيل القصر والحصر « إِنَّمَا الْغَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَذَلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » ، فهي دنسة لا ينطبق عليها وصف الطييات التي أحلاها الله ، وهى من عمل الشيطان ، والشيطان عدو الإنسان القديم ، ويكتفى أن يعلم المؤمن أن شيئاً ما من عمل الشيطان حتى ينفر منه حسه ، وتشمئز منه نفسه ، ويحفل منه كيانه ، ويبعد عنه من خوف ويتقه .

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ٢٧٧ برقم (٤٦١٨) .

(٢) المائدة / ٩٣ .

وفي هذه اللحظة يصدر النهى مصحوبًا كذلك بالإطماع في الفلاح ، وهي لستة أخرى من لسات الإيهام النفسي العميق **﴿فَاجتِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾** ثم يستمر السياق في كشف خطة الشيطان من وراء هذا الرجس : **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوَقِّعَ بِكُمُ الدَّهَوَةَ وَالْبُغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُتَهَوْنُونَ﴾** .

بهذا ينكشف لضمير المسلم هدف الشيطان، وغاية كيده ، وثمرة رجسه ... إنها إيقاع العداوة والبغضاء في الصيف المسلم - في الخمر والميسر - كما أنها هي صد **﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾** عن ذكر الله وعن الصلاة ويا لها إذن من مكيدة !

وهذه الأهداف التي يريدها الشيطان أمور واقعة يستطيع المسلمين أن يروها في عالم الواقع بعد تصديقها من خلال القول الإلهي الصادق بذاته ، فما يحتاج المسلم إلى طول بحث حتى يرى أن الشيطان يوقع العداوة والبغضاء في الخمر والميسر بين الناس ، فالخمر بما تُفقد من الوعي ، وبما تثير من عراة اللحم والدم ، وبما تهيج من نزوات ودفعات ، والميسر الذي يصاحبها وتصاحبه بما يتركه في النفوس من خسارات وأحقاد ؛ إذ المعمور لابد أن يحقد على قامره الذي يستولي على ماله أمام عينيه ، ويزدب به غائباً وصاحب مقعده مقهور ... إن من طبيعة هذه الأمور أن تثير العداوة والبغضاء مهما جمعت بين القرناء في مجالات من العربدة والانطلاق للذين يخيل للنظرية السطحية أنها سعادة .

وأما الصد عن ذكر الله وعن الصلاة فلا يحتاجان إلى نظر ، فالخمر تنسى ، والميسر يلهي ، وغيبوبة الميسر لا تقل عن غيبة الخمر عند المقامرين ، وعالم المقامر كعالم السكير ، لا يتعدى الموائد والأقداح والقداح .

وهكذا عندما تبلغ هذه الإشارة إلى هدف الشيطان من هذا الرجس غايتها في إيقاظ القلوب - قلوب **﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾** وتحفظها - يجيء السؤال الذي لا جواب له عندئذ إلا جواب عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وهو يسمع : **﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُتَهَوْنُونَ﴾** ؟ فيجيب لتهه : انتهينا انتهينا .

ولكن السياق يمضي بعد ذلك يوقع إيقاعه الكبير : **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَكِّلُمْ فَاعْلَمُوا أَمَّا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾** .

إنها القاعدة التي يرجع إليها الأمر كله ، طاعة الله وطاعة الرسول ... الإسلام

الذى لا يبقى منه إلا الطاعة المطلقة لله والرسول ، والخذر من المخالفه ، والتهديد الملفوف : «**فَإِنْ تَوْلِيهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**» . وقد بلغ وبين فتحدت التبعة على المخالفين بعد البلاغ المبين .

إنه التهديد القاصل فى هذا الأسلوب الملفوف ، الذى ترتعد له فرائص المؤمنين ! إنهم حين يوصون ولا يطيعون ، لا يضرون أحداً إلا أنفسهم ، لقد بلغ الرسول ﷺ وأدى ، ولقد نقض يديه من أمرهم ، إذن فما هو مسؤول عنهم ، وما هو بداع عنهم عذاباً - وقد عصوه ولم يطعوه - ولقد صار أمرهم كله إلى الله سبحانه وهو القادر على مجازاة العصاة المتولين .

إنه المنهج القرآنى يطرق القلوب ، فتنفتح له مغاليقها ، وتكتشف له فيها المسالك والdroob )١( .

ولعل الصورة الواقعية التى تمت فى المدينة من جراء الخمر وأثره فى تهيج النفوس ، وإغاظة القلوب : تعطينا جواباً شافياً على فعل الخمر فى إثارة البغضاء فى النفوس ، وهى الصورة التى نقلها لنا على **تقطّع** مع عمه - وأحب الناس له بعد رسول الله - حمزة بن عبد المطلب :

( كان لى شارف )٢( من نصبه من المغم يوم بدر . . . في بينما أنا أجمع لشارفى من الأقتاب والغرائب والحبال ، وشارفأى مناخان إلى جنب حجرة رجل من الانصار حتى جمعت ما جمعت ، فإذا أنا بشارفى قد أجبت )٣( أستمتهما ، وبقر خواصرهما ، وأخذ من أكبادهما ، فلم أملك عيني . حين رأيت النظر قلت : من فعل هذا ؟ قالوا : فعله حمزة بن عبد المطلب ، وهو فى هذا البيت فى شرب )٤( من الانصار ، وعنه قبة وأصحابه . فقالت فى غناها : « ألا يا حمز للشرف النوء » فوثب حمزة إلى السيف فأجب أستمتهما ، وبقر خواصرهما ، وأخذ من أكبادهما . قال على : فانطلقت حتى أدخل على رسول الله ﷺ وعنده زيد بن حراثة . وعرف النبي ﷺ الذى لقيت . قال : « مالك ؟ » قلت : يا رسول الله ، ما رأيت كاليلوم ، عدا حمزة على ناقتي ، فأجب أستمتهما ، وبقر خواصرهما ، وها هو ذا فى بيته شرب . فدعى النبي ﷺ برداءه فارتدى ، ثم انطلق يمشى ، واتبعته أنا وزيد بن حراثة ، حتى جاء البيت الذى فيه حمزة ، فاستأذن عليه ، فأذن له ، فطفق النبي ﷺ يلوم حمزة

(١) في ظلال القرآن ٢ / ١٧٦ .

(٢) شارف - بفتح الشين - : قوم يشربون .

(٣) أجبت : قطعت .

فيما فعل . فإذا حمزة ثمل محمراً عيناه من الشراب ، فنظر حمزة إلى النبي ﷺ ثم صعدَ النظر . فنظر إلى ركبته ، ثم صعدَ النظر ، فنظر إلى وجهه ، ثم قال حمزة : وهل أنت إلا عبيد لأبي ؟ فعرف النبي ﷺ أنه ثمل ، فنكص رسول الله ﷺ على عقبيه القهقري ، فخرج وخرجنا معه ) ١( .

ولو أن هذا الأمر وقع في الجاهلية ؛ لما انتهى دون عددٍ من القتلى ، فلطالما وقعت حروب لاتفاقه من ذلك . وما حرب البسوس عنا بسر ، ولو كان الحاكم في الجاهلية وقال له أحد رعاياه : إن أنت إلا عبيد أبي ، لأصدر أوامره بقطع رأسه عن جسده ، فلا شيء يقطع الأرحام ، ويثير العداوة والبغضاء كالخمر والميسر ، ولعل الميسر بالذات ذا أثر أكبر من إثارة العداوة والبغضاء والخذد ، حين يتحكم الحظ فيه ، وبخسر المقامر على موائد القمار حاله دون ذنب إلا حمقه .

وإذا كان الخمر والميسر لا يزال حتى الآن هو الداء العضال ، والبلاء القاتل للأمم رغم مرور القرون تلو القرون ، وعجزت الأمم فلاستتها ومفكروها عن العلاج ، فنذكر بذلك عظمة هذا الدين الذي بني هذه التفوس، ورباها وعافاها من تلك الأدواء .

### ختام السنة الثالثة :

إننا ونحن في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ، لا نشهد حدثاً يذكر في السيرة خلال هذين الشهرين : ذي القعدة وذى الحجة ، ولكن التقدير - والله أعلم - أن هذين الشهرين قد كان فيما الحساب الخاتمي للعام ، كان فيما نزول آيات آل عمران ، التي عرضت المسلمين الذين مضوا إلى أحد عرضاً شاملأً وافياً من داخل قلوبهم ومن حيثيات نفوسهم ، وسلوكهم المنطلق من تلك التفوس ، وعاش المسلمون بين يدي ربهم سبحانه ، يستمعون إلى قول الله تعالى فيهم ، وفي المحنة التي نزلت بهم وعرض أسبابها القرية والبعيدة .

ابتدأت الآيات بمسمح الجراح والهدى على الآلام بعد عرض يسير للماضي ) ٢( :

﴿ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَنَّ الْقَوْمُ قَرْحَ مُتَّلِّهٖ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَوِّلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَعَذَّدُ مِنْكُمْ شَهِداءٌ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الطَّالِمِينَ ﴾ ) ٣( .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧ / ٣٦٦ برقم (٤٠٣) .

(٢) إذ أن آيات أحد ابتدأت من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَلَوْتُ مِنْ أَهْلِكِ ... ﴾ .

(٣) آل عمران / ١٣٩ ، ١٤٠ .

وانتهت بعرض المفاصلة التامة بين المؤمنين والمنافقين :

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيْبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلَعَكُمْ عَلَىٰ الْفَحْشَاءِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِمَا فِي الصُّدُوقِ فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَنْقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

وانكب المؤمنون على كتاب الله يتلونه ويتمعنون في معانيه ، ويعرضون أنفسهم على ضوئه (٢) . وينظرون من جهة ثانية إلى هذا الحزب الجديد الذي ابعت من بين ظهرانيهم ، من آبائهم وإخوانهم وأبنائهم ، وقد التفت حول عنق عبد الله بن أبي ؛ ليقوم كل مؤمن بمحاولاتة في انتزاع هذا القريب من هذا الحزب الدنس ، الذي أسماه الله تعالى الخبيث ، ومizerه عن الطيب .

ولشن كان التمييز بين الخبيث والطيب في بدر هو تميز بين المؤمنين والكافرين ، فإن التمييز بين الخبيث والطيب في أحد هو بين المؤمنين والمنافقين .

إن مراجعة الحساب عقب أحد كانت ذات أهمية قصوى ، يرعاها رسول الله ﷺ، ويدفع بها إلى تجاوز المحنـة ، وتجاوز الأخطاء ، والارتفاع إلى القمة العليا التي برزت في أحد من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

وجاءت سورة النساء لتعالج مرحلة جديدة بعد أحد ، وتكميل البناء فتكاد تكون آياتها علاجًا لأثار غزوة أحد ، فيما نشأ في المجتمع من أرامل ويتامى وأيامى ، وما لهن من حقوق ، وفي عمليات الزواج وحقوق المرأة التي فقدت المعيل والناصر ، إلى معالجة موضوع الفراق تفصيلًا ، ومواجهته إلى الحث على الجهاد ومتابعة الدرب الصعب الشاق ، إلى مواجهة اليهود والنصارى الموجودين بين ظهراني المسلمين ، وتفنيد دعواهم وعقائدهم . لنبدأ مع بداية السنة الجديدة من الهجرة ، في رؤية آثار هذه التربية القرآنية والنبوية وكيف فعلت في هذه النفوس المتعبة الصابرة .

(١) آل عمران / ١٧٩ .

(٢) راجع الآيات وآثارها تفصيلًا في: المنهج التربوي ، التربية الجهادية ج ١ .

## انتصارات المحرم في السنة الرابعة

سرية أبي سلمة إلى بنى أسد :

قال الواقدي : حدثني عمر بن عثمان بن عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع ، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد ، وغيره ... وعماد الحديث عن عمر بن عثمان عن سلمة قالوا :

شهد أبو سلمة بن عبد الأسد أحداً ، وكان نازلاً في بني أمية بن زيد بالعالية حين تحول إلى قباء ومعه زوجته أم سلمة بنت أبي أمية ، فجرح بأحد جرحاً على عضده فرجع إلى منزله ، فجاءه الخبر أن رسول الله ﷺ سار إلى حمراء الأسد، فركب حماراً ، وخرج يعارض رسول الله ﷺ حتى لقيه حين هبط من العصبة <sup>(١)</sup> بالحقيقة ، فسار مع النبي ﷺ إلى حمراء الأسد ، فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة انصرف مع المسلمين ورجع من العصبة ، فاقام شهراً يداوى جرحه حتىرأى أنه قد برأ ، ودخل الجرح على بني <sup>(٢)</sup> لا يدرى به ، فلما كان هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة ، دعاه رسول الله ﷺ فقال : « اخرج في هذه السرية فقد استعملتك عليك » ، وعقد له لواء وقال : « سر حتى ترد أرض بني أسد فأغیر عليهم قبل أن تلاقى عليك جموعهم » ، وأوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، فخرج معه في تلك السرية خمسون ومائة .

والذى هاجه أن رجلاً من طين قدم المدينة يريد امرأة ذات رحم به من طين متزوجة رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فنزل على صهره الذى هو من أصحاب رسول الله ﷺ ، فأخبره أن طليحة وسلمة ابنة خوبلد تركهما قد سارا في قومهما ومن أطاعهما بدعوتهم إلى حرب رسول الله ﷺ ؛ يريدون أن يدنسوا للمدينة وقالوا : نسير إلى محمد في عقر داره ، ونصيب من أطرافه ، فإن له سرحاً يرعى جوانب المدينة ، ونخرج على متون الخيل ، فقد أربعنا خيلنا <sup>(٣)</sup> ونخرج على النجائب المخiorة <sup>(٤)</sup> ، فإن

(١) العصبة : منزل بنى جعجوبا غربى مسجد قباء . (٢) على بني : على فساد .

(٣) أربعنا خيلنا : ربعتها في الربيع . (٤) النجائب المخiorة : النبات الغزيرة للبن .

أصبنا نهايًّا لم ندرك ، وإن لاقينا جمعهم كنا قد أخذنا للحرب عدتها ، معنا خيل ولا خيل معهم ، ومعنا ثجائب أمثال الخيل ، والقوم منكوبون قد أوقعت بهم قريش حديثاً ، فهم لا يستبلون <sup>(١)</sup> دهراً ، ولا يثوب لهم جمع <sup>(٢)</sup> ، فقام فيهم رجل منهم يقال له : قيس بن الحارث بن عمير فقال : ياقوم ، والله ما هذا برأي ! مالنا قبلَهم وتر وماهم نهبة لمن تحب ، إن دارنا لبعيدة من يثرب ، وما لنا جمع كجمع قريش ، مكثت قريش دهراً تسير في العرب تستنصرها ، ولهم وتر يطلبون ، ثم ساروا وقد امتطوا الإبل ، وقادوا الخيل ، وحملوا السلاح مع العدد الكثير - ثلاثة آلاف مقاتل سوى أتباعهم - وإنما جهدهم أن تخرجوا في ثلاثة أيام رجل إن كملوا ، فتفرون بأنفسكم ، وتخرجون من بلدكم ، ولا آمن أن تكون الدائرة عليكم ، فكاد ذلك أن يشككم في المسير ، وهم على ما هم عليه بعد .

فخرج به الرجل الذي من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبي ﷺ ، فأخبره ما أخبر الرجل ، فبعث رسول الله ﷺ أبا سلمة ، فخرج في أصحابه ، وخرج معه الطائي دليلاً ، فأغذنوا السير <sup>(٣)</sup> ، ونكب بهم عن سنن الطريق <sup>(٤)</sup> ، وعارض الطريق ، وسار بهم ليلاً ونهاراً فسبقوا الأخبار ، وانتهوا إلى أدنى قطن <sup>(٥)</sup> - ماء من مياه بني الأسد - هو الذي كان عليه جمعهم ، فيجدون سرحاً ، فأغاروا على سرحهم فضموه ، وأخذنوا رعاءً لهم - ماليك ثلاثة - وأفلت سائرهم ، فجازوا جمعهم فخبروهم الخبر ، وحدروهم جمع أبي سلمة ، وكثروه عندهم ، فتفرق الجمع في كل وجه ، وورد أبو سلمة الماء فيجد الجمع قد تفرق ، فعسكر وفرق أصحابه في طلب النعم والشاء ، فجعلهم ثلاث فرق ، فرقة أقامت معه ، وفرقتان أغارت في ناحيتين شتى ، وأوعز إليهم إلا يعنوا في طلب ، وألا يبيتوا إلا عنده إن سلموا ، وأمرهم ألا يفترقوا ، واستعمل على كل فرقه عاملًا منهم ، فأبوا إليه جميعاً سالمين ، قد أصابوا إيلاماً وشاء ولم يلقوا أحداً ، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة راجعاً ، ورجع معه الطائي ، فلما ساروا ليلة قال أبو سلمة : اقتسموا غنائمكم ، فاعطى أبو سلمة الطائي الدليل رضاه من الغنم ، ثم أخرج صفيما <sup>(٦)</sup> لرسول الله ﷺ عبداً ، ثم أخرج الخمس ، ثم قسم ما

(١) لا يستبلون : لا يصحون أو تحسن أحوالهم .

(٢) لا يثوب لهم جمع : لا يرجع ويجتمع لهم جمع . (٣) أغذنوا السير : أسرعوا .

(٤) نكب بهم عن سنن الطريق : ترك الطريق الواضح إلى طرق غير مطرورة .

(٥) قطن : جبل مازال معروفاً على الصفة اليسرى من وادي الرمة يمر به الطريق من المدينة إلى القصيم على قرابة ٣٣ كيلوًّا من المدينة .

(٦) الصفي : الذي يصطفيه الأمير لرسول الله ﷺ وهو غير الخمس .

بقي بين أصحابه فعرفوا سهماً منهم ، ثم أقبلوا بالنعم والشاء يسوقونها حتى دخلوا المدينة .

قال عمرو بن عثمان : فحدثني عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن سعيد عن عمر بن أبي سلمة قال : كان الذي جرح أبا سلمة أبوأسامة الجشمي ، رماه يوم أحد بعقبة<sup>(١)</sup> في عضده ، فمكث شهراً يداووه فبراً فيما نرى ، وبعثه رسول الله ﷺ في المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً إلى قطن ، وغاب بضع عشرة ، فلما قدم المدينة انقض الجرح ، فمات لثلاث ليالٍ يقين من جمادى الآخرة ، فغسل من العسيرة - بشر بنى أمية بين القرنين - ثم حمل من بنى أمية فدفن بالمدينة .

قال أبو عبد الله الواقدي : فحدثت عمر بن عثمان الجحشى ، فعرف السرية ومخرج أبي سلمة إلى قطن وقال : أما سمي لك الطائى ؟ قلتُ : لا . قال : هو الوليد بن زهير بن ذريف عم زينب الطائى ، وكانت تحت طليب بن عمير ، فنزل الطائى عليه فأخبره خبره ، فذهب به طليب إلى النبي ﷺ فأخبره خبر بنى أسد ، وما كان من همومهم بالمسير ، ورجع معهم الطائى دليلاً وكان خزيناً<sup>(٢)</sup> ، فسار معهم أربعاء إلى قطن ، وسلك بهم غير الطريق لأن يُعْنِي الخبر على القوم ، فجاوزوا القوم وهم غارون على صرمة<sup>(٣)</sup> فوجدوا الصرم قد نذروا<sup>(٤)</sup> ، وخافوهم فهم معدون ، فاقتتلوا فكانت بينهم جراحة واقتروا ، ثم أغار الطائيون بعد ذلك على بنى أسد فكان بينهم أيضاً جراح ، وأصابوا لهم نعماً وشاء ، فما تخلصوا منهم شيئاً حتى دخل الإسلام .

وفي رواية عن أبوبن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال :

فوجدوا القوم قد جمعوا جمعاً فأحاط بهم أبو سلمة في غمامة الصبح ، وقد وعظ القوم - وأمرهم بتقوى الله - ورغبهم في الجهاد وحضهم عليه ، وأوعز إليهم في الإيمان في الطلب ، وألف بين كل رجلين ، فانتبه الحاضر قبل حملة القوم عليهم ، فتهيؤوا وأخذوا السلاح - أو من أخذه منهم - وصفوا للقتال ، وحمل سعد بن أبي وقاص على رجل منهم فضربه فأبان رجله ، ثم ذَفَّ عليه<sup>(٥)</sup> ، وحمل رجل من الأعراب على مسعود بن عروة ، فحمل عليه بالرمي فقتله ، وخلف المسلمين على صاحبهم أن يسلب من ثيابه فحازوه إليهم ، ثم صاح سعد : ما يتظر ؟ ! فحمل أبو سلمة ،

(١) المعلبة : النصل العريض يجعله في السهم . (٢) خزيناً : دليلاً حاذفاً .

(٣) الصرمة : القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الخمسين .

(٤) نذروا : علموا . (٥) ذَفَّ عليه : أجهز عليه وقتلـه .

فانكشف المشركون على حاميتهم ، وتبعهم المسلمون ثم تفرق المشركون في كل وجه ، وأخذوا ما خفَّ لهم من متعة القوم ، ولم يكن في المحلة ذرية ، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة ، حتى إذا كانوا من الماء على مسيرة ليلة أخطلوا الطريق فهجموا على نعم لهم فيهم رعاوهم وإنما نكبا عن السنن ، فاستاقوا النعم ، واستاقوا الرعاء ، فكانت غنائمهم سبعة أبعة .

فحدثني ابن أبي سارة عن الحارث بن الفضيل قال : قال سعد بن أبي وقاص : فلما أخطلنا الطريق استأجرنا رجلاً من العرب دليلاً يدلنا على الطريق ، فقال : أنا أهجم بكم على نعم ، فما تجعلون لي منه ؟ قالوا : الخمس . قال : فذلئم على النعم وأخذ خمسه .

١ - هذا الخط التربوي سبق أن تحدثنا عنه وهو اختبار الكفاءات العالية للمهام الصعبة ، وهو يختلف عن الخط السابق الذي شهدناه كذلك في عرض المهمة الصعبة ليتقدم إليها الرجال العظام ، ونجده هنا مع الخط الأول الذي تم فيه اختبار أبي سلمة ابن عبد الأسد رض لمواجهةبنيأسد - القبيلة العربية الكبيرة - التمرسة بالقتال والخبرة فيه - فشخص طليحة بن خويلد الأسد وزعامته في قومه ، والمعارك التي خاضها بهم ضد خصومهم : جعلت شهرته تتجاوز البيئة المحلية إلى البيئة العربية .

أما قائمنا أبو سلمة ، فلم يتع له في العهد الملكي أكثر من المسرعة للهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وأكثر من التحدى للمشركين في عقر دارهم بعد عودته من الحبشة ، لم تكن هناك الدولة التي يتحرك فيها لتبرز طاقاته وعبقريته ، إنما كانت التربية النبوية تعدد مثل ذلك ، ويكتفيه في نصاعة شخصيته ابتداء : أن اختار الإسلام على الشرك تاركاً موضع قبيلته ، منضمًا إلى محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه وبنى هاشم ، وإن كان له فيبني هاشم جذر ونسب ، فأنمه : برة بنت عبد المطلب عممة رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ، ولتشهد هذا التحدى ابتداءً لتأخذ من خلاله معالم شخصيته ، والتي كانت محطة ثقة قائد هذه المهمة الصعبة .

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه من المهاجرين من قريش من بنى مخزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بستة ، وكان قدم على رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الانصار خرج إلى المدينة مهاجرًا .

قال ابن إسحاق : فحدثنى أبي إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة عن جدته أم سلمة زوج النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه قالت :

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل إلى بعيره ، ثم حملني عليه ، وحمل معى ابنى سلمة بن أبي سلمة فى حجرى ، ثم خرج بي يقود بي بعيره ، فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام تتركك تسير بها فى البلاد ؟ فتزعوا خطام البعير من يده فأخذونى منه ، قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة فقالوا : لا والله لا نترك ابنتنا عندها ؛ إذ نرعنوها من صاحبنا ، فتجاذبوا ابنى سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد (١) .

فهو يتحدى قومه فى هجرته وقد يشوا من السيطرة عليه ومنعه من الهجرة ، لكنهم منعوا زوجته من ذلك ، وها هو يتحرك بجراحه بعد أحد فركب حماراً وخرج يعارض رسول الله ﷺ حتى لقيه حين هبط من العصبة بالعقبى ، فسار مع النبي ﷺ إلى حمراء الأسد .

٢ - ونعود إلى الحديث عن أسد فى البيئة العربية ، فقد اعتبرها رسول الله ﷺ واحدة من كربارات القبائل العربية الأربع التى يعتد بها والتى تعتبر ذات خطر ونفوذ فى الأرض العربية آنذاك وهى : أسد وتميم وغطفان وهوازن - أو عامر بن صعصعة - وكلاهما واحد تقريباً فعامر أضخم فروع هوازن .

يقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : « أسلم وغفار وشىء من مزينة وجهينة خير عند الله من أسد وتميم وهوازن وغطفان » (٢) .

وفي رواية أخرى عن أبي بكرة رضي الله عنه : « أسلم وغفار ومزينة خير من تميم وأسد وغطفان وعامر بن صعصعة » (٣) .

ورسول الله ﷺ يجد نفسه الآن فى مواجهة هذه القبيلة .

ونشير ثانية إلى أن عدداً كبيراً من الصحابة المهاجرين من الرعيل الأول هم أصلاً من أسد بن خزيمة وقد حالفوا بنى أمية ، فهم من قريش ولاءً ومن أسد نسباً ، ذُكر عنهم :

كان من خرج فى الهجرة إلى المدينة فأوعبوا رجالهم ونسائهم ، وغلقوا دورهم فلم يبق منهم أحد إلا خرج مهاجرًا : دار بنى غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٣٢/٢ ، وقال المحقق فيه : لم أجده عند غير ابن إسحاق وقد صرخ بالساع وسند رجاله ثقات .

(٢) أحمد والبخارى ومسلم .

(٣) الترمذى ، وقال فيه : « هذا حديث حسن صحيح » . م ٥ باب المناقب (٣٩٥٢) .

ودار بنى أبي البكير ، ودار بنى مظعون <sup>(١)</sup> . ونذكر من أسمائهم : عبد الله بن جحش ، ويزيد بن رقيش ، وعكاشة بن محسن ، وأبو سنان بن محسن ، وسنان بن أبي سنان ، وشجاع بن وهب ، وأخوه عقبة بن وهب ، وريعة بن أكتم ، ومحرِّز بن نضلة ، وأربيد بن حميرة . فهم عشرة وكلهم بدريون من جيل الاصطفاء الأول ، ولا ننسى أباً أحمد بن جحش والى رسول الله ﷺ على المدينة في أكثر من غزوة ، الضرير العظيم .

ويذكر دائمًا علماء السير : أن بنى أسد هم ثُمن المهاجرين يوم بدر <sup>(٢)</sup> .

فإذن رغم وجود هذا العدد الضخم من بنى أسد في الصف الإسلامي ، فقد اختار رسول الله ﷺ أبا سلمة بن عبد الأسد لهذه المهمة الضخمة ، ولهذه المواجهة الخطيرة مع قائد من أكبر القادة العرب المشهورين آنذاك : طليحة بن خويلد الأسدي <sup>(٣)</sup> . ولما تندمل جراح أبي سلمة بعد ، فكم هي ثقة النبي ﷺ بأبي سلمة ابن عمته ، ولعل من أهم أسباب اختياره لذلك : هو هذه القرابة القريبة . فقد كان يعد مثل هذه المهمات عمه حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي افتقد في أحد وابن عمته عبد الله بن جحش الذي افتقد أيضاً في أحد ، وعيادة بن الحارث ابن عمته الذي افتقد في بدر أيضاً ، وأما على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلم يضعه - عليه الصلاة والسلام - على رأس سرية حتى الآن وهو أقرب المقربين إليه لا لأنه أقل كفاءة من هؤلاء ، فهو كرم الله وجهه يرجع على الكثير منهم فضلاً وطاقة وخبرة - لكن سنه في الخامسة والعشرين ربيعاً لا يحب - عليه الصلاة والسلام - أن يجعله أميراً على الكثير من الصحابة الذين هم أكبر سنًا منه ، فقيادة السرية هنا إضافة إلى الجانب الخطير فيها ، فقد تبرز تشريفاً وتكريماً لمن اصطفاه رسول الله ﷺ وهي كذلك ، ولا يريد عليه الصلاة والسلام أن يقدم لواقع التشريف أقرب الناس وأحبيهم إليه وهو دونهم سناً رغم أنه من أقدمهم سابقة وخبرة وقدماً في الإسلام ، لكن عندما كان الأمر والخطورة والتضحية والموت ، فقد أعده لذلك - عليه الصلاة والسلام - وتركه وحده في الهجرة ينام في فراشه ، وتركه وحده في مكة يواجه الأموال والأخطر ، ويوزع الامانات إلى أصحابها ، ويعود وحده مهاجرًا إلى المدينة كذلك ، وهو ابن الحادية والعشرين من عمره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٩٠ ، وفي السيرة لابن هشام ١٢٦ / ٢ .

(٢) كان عدد المهاجرين في بدر خمساً وثمانين رجلاً .

(٣) وصفه ابن الأثير في أسد الغابة ٦٥ / ٦٦ ، بأنه كان من أشجع العرب وبعد بالف فارس . وكان عمر ابن الخطاب يقدر مزاياه العسكرية بدليل أنه كتب إلى التuman بن مقرن : أن استعن في حربك بطليحة ، وعمرو بن معدى كرب ، واستشرهما في الحرب ، ولا توليهما من الأمر شيئاً ، فإن كل صانع أعلم بصناعته .

وعامل آخر من عوامل اختيار أبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه يبرز في هذا الجانب: هو أنه شريف بني مخزوم وسليلهم ، وخالد بن الوليد المخزومي ، هو الذي قاد الهجوم المضاد في أحد ، وقلب موازين المعركة ، وأوقع المحنـة في المسلمين ، وانتشر اسمه علمـاً ضخـماً عسكـرياً من أعلام القيادات في الأرض العـربية ، فليـكـنـ الذي يقود الهجـومـ علىـ بـنـيـ أـسـدـ مـخـزـومـيـاًـ كـذـلـكـ ، وـمـنـ قـبـيلـةـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيدـ رضي الله عنهـ وـيـعـرـفـ العربـ جـمـيـعاًـ أـنـ بـنـيـ مـخـزـومـ فـىـ قـرـيـشـ هـمـ قـادـةـ الـمـواـجـهـةـ ضـدـ إـسـلـامـ ، وـلـاـ يـنـسـونـ عـلـىـ رـأـسـهـ الـوـلـيدـ بـنـ الـمـغـيـرـةـ وـحـيـدـ قـرـيـشـ ، وـعـمـرـوـ بـنـ هـشـامـ فـرـعـونـ هـذـهـ الـأـمـةـ ، فـبـرـوـزـ أـبـيـ سـلـمـةـ فـىـ الصـفـ الـإـسـلـامـىـ ، دـفـعـ لـكـلـ مـنـ يـرـاـوـدـ إـسـلـامـ قـلـبـهـ مـنـ أـبـنـاءـ الـقـبـائلـ الـعـرـبـيـةـ أـنـ يـسـارـعـ إـلـىـ اـنـضـمـامـ إـلـىـ الصـفـ الـإـسـلـامـىـ ، وـلـوـ كـانـتـ قـبـيلـةـ تـحـمـلـ الـمـواـجـهـةـ ضـدـ إـسـلـامـ ، كـمـاـ هـوـ حـالـ أـبـيـ سـلـمـةـ الـمـخـزـومـيـ - رـضـوانـ اللـهـ عـلـيـهـ - فـهـوـ النـهجـ التـرـبـويـ الـنـبـوـيـ فـىـ الـاصـطـفـاءـ ، حـيـثـ تـكـوـنـ كـلـ الـعـوـاـمـ مـدـرـوـسـةـ وـيـتـرـجـيـعـ وـيـتـغـلـبـ بـيـنـهـاـ فـيـ حـسـنـ اـخـتـيـارـ الـقـائـدـ مـنـ صـاحـبـ الـبـصـيرـةـ الـتـافـذـةـ ، وـمـنـ النـظـرـةـ الـواـحـدـةـ لـلـمـصـطـفـىـ - عـلـيـ الـصـلـةـ وـالـسـلـامـ - إـمـامـ الـمـرـبـينـ فـىـ الـوـجـودـ .

ونشير في هذه السرية إلى اشتراك كثير من أعظم قيادات المهاجرين والأنصار تحت لواء أبي سلمة رضي الله عنه .

فعلى رأس جنوده من المهاجرين اثنان من العشرة المشرين بالختمة وهما : سعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح . وبقية الخيار من جيل بدر .

( فخرج معه في تلك السرية خمسون ومائة منهم أبو سيرة بن أبي رهم - وهو أخو أبي سلمة لامه ، أمه برة بنت عبد المطلب - وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وعبد الله ابن مخرمة العامري ، ومن بني مخزوم معتب بن الفضل بن حمراء الخزاعي حليف فيهم ، وأرقم بن أبي الأرق من أنفسهم ، ومن بني فهر : أبو عبيدة بن الجراح وسهيل ابن بيضاء <sup>(١)</sup> . وفيهم سعد بن أبي وقاص ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وسالم مولى أبي حذيفة <sup>(٢)</sup> . ومن الأنصار : أسيد بن الحضير ، وعباد بن بشر ، وأبي نائلة ، وأبو عبس ، وقتادة بن النعمان ، ونصر بن الحارث الظفرى ، وأبو قتادة ، وأبو عياش الزرقى ، وعبد الله بن زيد ، وخبيب بن يساف ومن لم يسم لنا ) <sup>(٣)</sup> .

(١) المغارى للواقدى / ١ ٣٤٣ .

(٢) المصدر نفسه / ١ ٣٤٥ .

(٣) بمراجعة الأسماء التي ذكرت آنفـاً من المهاجرين واشتركت في السـرـيةـ : ظـهـرـ أـنـهـمـ جـمـيـعاًـ بـدـرـيونـ شـارـكـواـ فـيـ غـرـوـةـ بـدـرـ ، بـيـنـماـ بـرـزـتـ وـجـوهـ جـدـيـدـةـ شـابـةـ مـنـ الـأـنـصـارـ لـمـ تـخـضـرـ بـدـرـاًـ مـثـلـ : أـبـيـ نـائـلـةـ وـأـبـيـ قـتـادـةـ وـأـبـيـ عـيـاشـ الزـرقـىـ .

فالسيد الثاني والثالث في الأوس بعد سعد بن معاذ رضي الله عنه وهمما أسد بن حضير ، وعبداد بن بشر ، كانوا من جنود أبي سلمة رضي الله عنه في هذه السرية إضافة إلى سادات الخزرج المشاركين فيها ، ونستطيع القول : إن خيرة الطاقات والخبرات المسلمة العسكرية والخربية انضمت تحت لواء أبي سلمة رضي الله عنه لمواجهة خيرة الطاقات والخبرات العسكرية والخربية عند بنى أسد تحت لواء طلبيحة بن خوبيل الأسدى ، ونعود إلى صورة المسلمين في البيئة العربية بعد أحد من خلال النقاش في القيادة العليا لبني أسد حول موضوع التحرك لمواجهة المسلمين :

انقسم قيادة بنى أسد إلى رأيين في موضوع المواجهة مع المسلمين :

الرأي الأول يقول : القوم منكوبون قد أوقعت بهم قريش حديثاً ، فهم لا يستبلون دهراً ، ولا يثوب لهم جمع .

الرأي الثاني يقول : ما هم نهبة لمنتهب ، مكثت قريش دهراً تسير في العرب تستنصرها ولهم وتر يطلبونه ، ثم ساروا وقد امتطوا الإبل ، وقادوا الخيل وحملوا السلاح مع العدد الكبير - ثلاثة آلاف مقاتل سوى أتباعهم - وإنما جهدهم أن تخروا في ثلاثة رجال إن كملوا فتفرون بأنفسكم وتخرجون من بلدكم، ولا آمن أن تكون الدائرة عليكم .

والرأيان متفاوتان في الحكم على قوة المسلمين ، لكن بنى أسد حين رجع عندهم الرأي الأول في المواجهة ليس من قبيل الحرب الشاملة بين القوتين ، فهذا لم يكن طليحة يحلم به ، لكن من باب حرب العصابات في النيل من أطراف المدينة ، أو استلاب النعم والشاء عندهم ، كما فعل أبو سفيان بن حرب بعد بدر حين غزا ظاهر المدينة وأخذ بعض نعمها وقتل راعيها .

وطالعنا سرعة المبادرة العجيبة التي شهدتها لدى سيد القادة - عليه الصلاة والسلام - في التحرك السريع الخاطف والاستفادة من خبرة الطائى الذى نقل الخبر ، وعرفته بارض بنى أسد جيران طين ، وبين طين وأسد ثارات سابقة وأيام ملاحم قديمة - يزيد الطائى من خلالها أن يثار لقبيلته بال المسلمين ، ولذلك اختار - عليه الصلاة والسلام - نخبة متقدة من صنه ، وجعل أمرها أبا سلمة بن عبد الأسد ؛ لتضرب العدو في موقعه قبل أن يتحرك ، وتجهز عليه وهو يعد الخطة للهجوم على المسلمين .

وكان أبو سلمة رضي الله عنه عند مستوى ثقة قيادته به ، فهو لم يكتفى أن يرد قطن ماء بنى أسد ويعسرك حيث كان الجموع وتفرق ، ويعود ظافراً إلى المدينة ، فقد اقتضى وجوده في أعماق البادية أن يغامر في ملاحقة العدو داخل أرضه ، والرجال العظام هم

الذين يفكرون بهذا المستوى ، فالجندي الكفاء هو الذي ينفذ الأوامر الحرفية الملقاة عليه من قائد ، أما القائد الفذ فهو الذي يدرس الموقف بصفته القيادية ، ويوضع الخطة المناسبة حسب مقتضيات الظروف ، ويسعى إلى تحقيق هدف عسكري معين وراء هذه الخطة وهذا التحرك . ، فطبيعة الأوامر الصادرة له من قيادته النبوية تجعل مهمته قد انتهت من خلال تفرق جمع بنى أسد .

كان الأمر النبوى الأول : « اخرج فى هذه السرية فقد استعملتك علينا » .

وكان الأمر النبوى الثانى : « سر حتى ترد أرض بنى أسد فأغز عليهم قبل أن تلقي عليك جموعهم » .

وكان التوجيه النبوى الثالث : أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً .

فإذن هي قيادة تقويض مطلقة ضمن الهدف العام ، وهو يقدر حدود تنفيذ هذا الهدف ، ورأى <sup>رسوله</sup> أن هذا الأمر غير كاف بتفريق الجمع قبل لقاء المسلمين ، ولو أخذنا بالرواية الثانية أنهم صفووا للقتال فتعالج تلك الرواية فيما بعد ؛ لأن لها من الخطة ما يناسبها ، فتحن إذن الآن مع الرواية الأولى : فتفريق الجمع في كل وجه ، وورد أبو سلمة الماء ، فوجد الجمع قد تفرق . . .

إنه الانتقال من الخطة الدفاعية إلى الخطة الهجومية . ففى مفهوم الحرب العربية ، لم يتحقق أبو سلمة من هدفه شيئاً ، ولا بد من النيل من العدو بأى شكل حتى يذوق طعم قوة المسلمين ، ويتجزع غصص الهزيمة أمامهم ، فماذا فعل <sup>رسوله</sup> ؟ وما هي خطته ؟

فرق أصحابه فى طلب النعم والشاء ، فجعلهم ثلاثة فرق :

- فرقة أقامت معه .

- وفرقتان أغارتان فى ناحيتين شتى .

وكانت الأوامر الموجهة للفرقتين المغيرتين محددة :

١ - أوعز إليهما ألا يمعنا فى الطلب .

٢ - ألا يبيتوا إلا عنده إن سلعوا .

٣ - ألا يفترقا .

ونفذت الخطة كاملة ، فآبوا إليه جميعاً سالمين ، قد أصابوا إيلاماً وشاء ولم يلقو أحداً ، فليس الهدف مواجهة العدو ، إنما الهدف الإغارة على نعمه وشائه ، وبث الذعر والخوف فى صفه ، وقد تحقق الهدف .

أما الرواية الأخرى : فتشير إلى الصدام ووقوع القتلى بين الطرفين ، فحمل سعد ابن أبي وقاص على رجل فضربه فأبان رجله ، ثم ذفَّ عليه ، وحمل رجل من الأعراب على مسعود بن عروة فحمل عليه بالرمح فقتله ، وخف المسلمون على صاحبهم أن يسلب من ثيابه فحازوه إليهم ، ثم صاح سعد : ما يتظر ؟ فحمل أبو سلمة ، فانكشف المشركون على حاميتهم وتبعهم المسلمون ، ثم تفرق المشركون في كل وجه . . . ثم انتصروا راجعين إلى المدينة حتى إذا كانوا من الماء على مسيرة ليلة أخطروا الطريق ، فهجموا على نَعَم لهم فيهم رعاوهم ، وإنما نكوا عن سنتهم فاستاقوا النعم واستاقوا الرعاع ، وكانت غنائمهم سبعة أبعة .

والرواية الأولى : تؤكد الغنائم ضمن خطة وتصميم ، والرواية الثانية : تتحدث عنها نتيجة خطأ تم في الطريق ، لكن النتيجة في كلتا الروايتين : أن كان نصيب كل صحابي سبعة أبعة بعد فرز صفي رسول الله ﷺ ، وفرز الخامس له ، وفرز نصيب للطائى الذى دَلَّهم على الطريق .

وبدلاً من أن تتناقل الركبان آثار هجوم بنى أسد على المدينة ، فتسارع القبائل الأخرى للغزو والإغارة عليها ، وراحت تتناقل وصول المسلمين إلى أعماق البايدية ، ومضارب بنى أسد حوالي ثلاثة وعشرين كيلوًّا بعيداً عن المدينة باتجاه القصيم ، والعودة بالغنم والشاء منها دون أن ينال المسلمين سوء أو مكره ، فتقلب تفكير قيادات القبائل كله في هذا المجال .

ونعود مع قائدنا المظفر أبي سلمة بن عبد الأسد رض إلى المدينة ، لنودعه إلى مثواه الأخير ، فينضم إلى قافلة الشهداء الكبار في أحد ، فعن عمر بن أبي سلمة قال : ( كان الذي جرح أبا سلمة بن عبد الأسد أبو أسامة الجشمي رماه يوم أحد بمعبلة في عضده ، فمكث شهراً يداويه فبراً فيما نرى ، وبعثه رسول الله ﷺ في الحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً إلى قطن ، وغاب بضع عشرة ، فلما قدم المدينة انتقض الجرح ، فمات لثلاث بقين من جُمادى الآخرة ، ففسُّل من اليسيرة - بشر بنى أمية - بين القرنين . . . ثم حمل من بنى أمية فدفن بالمدينة ) <sup>(١)</sup> .

فقد كتب الله هذا النصر على يديه قبل أن يلقى وجه ربه متأثراً بجراحه .

قال الواقدي : ( وأصحابنا يقولون : أبو سلمة من شهداء أحد للجرح الذي جُرح يوم أحد ثم انتقض به ، وكذلك أبو خالد الزرقى من أهل العقبة ، جرح باليمامه جرحاً ،

(١) المغارى للواقدى ١ / ٣٤٣ .

فلما كان في خلافة عمر انتقض به الجرح فمات فيه ، فصلى عليه عمر وقال : هو من شهداء اليمامة ؛ لأنَّه جرح في اليمامة )١).

سرية عبد الله بن أنيس :

( ... في بعثة ﷺ عبد الله بن أنيس بن أسعد الجهنمي القضايعي الانصارى السُّلْمَى - بفتحتين - حليف بنى سلمة من الانصار توفي إلى إلى سفيان بن خالد بعرنة )٢). روى أبو داود بسنده حسن والبيهقي وأبو نعيم عن عبد الله بن أنيس توفي ومحمد ابن عمر عن شيوخه ، والبيهقي وأبو نعيم عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب ، وعن عروة قال شيخ محمد بن عمر :

خرج عبد الله بن أنيس من المدينة يوم الإثنين لخمسين خلون من المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ . قالوا : واللفظ لمحمد بن عمر :

قال عبد الله بن أنيس توفي : دعاني رسول الله ﷺ : فقال : « إنَّه بلغنى أنَّ سفيان بن خالد بن نبيح يجمع لى الناس ليغزونى وهو بنخلة أو عُرَنَةَ فأنَّه فاقته » فقلت : يا رسول الله : صفة لي حتى أعرفه . فقال : « آية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته هبته وفرقت منه ، ووُجِدَت له قشعريرة ، وذُكرت الشيطان » قال عبد الله : و كنت لا أهاب الرجال فقلت : يا رسول الله ، ما فرقت من شيءٍ قط . فقال : « بلى آية ما بينك وبينه ذلك أن تجد له قشعريرة إذا رأيته » . قال : واستأذنت رسول الله توفي أن أقول . فقال : « قل ما بدا لك » وقال : « انتسب لخزاعة » فأخذت سيفي ، ولم أزد عليه ، وخرجت أعزتى لخزاعة ، حتى إذا كنت ببطن عرنة ، لقيته يمشي ووراءه الأحابيش ، فلما رأيته هبته وعرفته بالنعت الذي نعمت لي رسول الله توفي . فقلت : صدق رسول الله ، وقد دخل وقت العصر ، فصلحت وأنا أمشي أومئى برأسى أيام ، فلما دنوت منه قال : من الرجل ؟ فقلت : رجل من خزاعة ، سمعت بجمعك لمحمد فجئت لاكون معك عليه . قال : أجل إني لفني الجمع له ، فمشيت معه وحدّثه فاستحللى حديثي وأشندته وقلت : عجبًا لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث ، فارق الآباء وسفه أحلامهم ، قال : لم ألق أحدًا يشبهني ولا يُحسِن قتاله ، وهو يتوكأ على عصا يهد الأرض ، حتى انتهى إلى خبائه ، وتفرق عنه أصحابه إلى منازل قريبة منه ، وهم يطيفون به فقال : هلْم يا أخَا خزاعة ، فدنوت منه . فقال : اجلس ، فجلست معه

(١) المصدر السابق ١/٣٤٣ - ٣٤٥ .

(٢) عُرَنَةَ : هو وادي بحزام عرفات ، وبطن عرفة هو بطن الوادي الذي فيه مسجد عرفة .

حتى إذا هدا الناس ونام اغتررته ، وفي أكثر الروايات أنه قال : فمشيت معه حتى إذا أمكننى حملت عليه السيف فقتلته وأخذت رأسه ثم أقبلت فصعدت جبلًا ، فدخلت غاراً ، وأقبل الطلب من الخيل ، والرجال تمعج <sup>(١)</sup> في كل وجه وأنا مكتمن <sup>(٢)</sup> في الغار ، وضررت العنكبوت على الغار ، وأقبل رجل معه إداوته ونعله في يده وكنت خائفاً . فوضع إداوته ونعله ، وجلس يبول قريباً من فم الغار ، ثم قال لاصحابه : ليس في الغار أحد ، فانصرفوا راجعين ، وخرجت إلى الإداوة فشربت ما فيها ، وأخذت التعليين فلبستهما . فكنت أسير الليل وأكمم النهار حتى جئت المدينة ، فوجدت رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ في المسجد . فلما رأى قال : « أفلح الوجه » فقلت : وأفلح وجهك يا رسول الله ، فوضعت الرأس بين يديه ، وأخبرته خبرى ، فدفع إلى عصا وقال : « تخصر بها في الجنة فإن التخscribers في الجنة قليل » ، فكانت العصا عند عبد الله بن أبيس حتى إذا حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدرجوا العصا في أكفانه ، ففعلوا ذلك . قال ابن عقبة : فيزعمون أن رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ أخْبَرَ بقتل عبد الله بن أبيس سفيان بن خالد قبل قدومه . عبد الله بن أبيس رضي الله عنه <sup>(٣)</sup> . وكانت غيته ثمان عشرة ليلة وقدم يوم السبت لسيع بقين من المحرم <sup>(٤)</sup> .

في الشهر نفسه الذي تم فيه اختيار أبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه لمواجهة أسد في أرضهم وباديتهم ، وبعد خمسة أيام فقط يتم اختيار عبد الله بن أبيس رضي الله عنه لقتل سفيان ابن خالد الهذلي على مشارف مكة . والهدف من السريتين واحد ، إذ أن كليهما لضرب تجمعات العدو قبل تحركها ، وتفریقها في مهدها ، وإذا كان الهدف واحداً من السريتين ، لكن خطة تحقيق الهدف اختلفت اختلافاً جذرياً لكليهما كذلك ، في بينما اقتضى إنهاء جموع بني أسد سرية تحمل نخبة من أكبر القياديين والفدائيين قوامها مائة وخمسون رجلاً ، اقتضى إنهاء جموع هذيل ، والاحابيش معهما سرية قوامها بطل واحد فقط هو : عبد الله بن أبيس ، وفي الوقت الذي حدد فيه عليه الصلاة والسلام مهمة السرية الأولى بالإغارة على ديار بني أسد وتفتيت جموعهم والظفر بنعمهم وشائهم ، حدد فيه - عليه الصلاة والسلام - مهمة عبد الله بن أبيس بقتل سفيان بن خالد الهذلي فقط ، وكلتا الخططين تحققان الهدف المذكور آنفًا من تفريق تجمعات العدو ، وبث الرعب في صفوفه .

(٢) مكتمن : مختبئ .

(١) معجم البحر معجة أي : ماج واضطراب .

(٤) المواهب اللدنية للقسطلاني ١ / ١٠٠ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦ / ٥٧ - ٥٩ .

ولابد أن نشير أن مهمة عبد الله بن أبي سفيان رضي الله عنه في قتل سفيان، ليست لأن ابن أبيس خارق في قوته لا مثيل له في الصف الإسلامي ، فكل الرعيل الأول وجيل بدر، والرجال العظام الذين انضموا بعدها ويرزوا في أحد ، يعتبر ابن أبيس واحداً من طبقتهم وفي مستوىهم ، ويمكن أن يقوم بهمته أي واحد منهم. ونعود بعدها لابن أبيس رضي الله عنه .

( هو عبد الله بن أبي الجهنمي أبو يحيى المدنى حليف بنى سلمة من الأنصار ، وقال ابن الكلبى ، والواقدى : هو من ولد البرك بن وبرة من قضاة ، واسم جده أسد بن حرام بن ..... بن كعب بن تيم ، وقد دخل ولد البرك في جهة ، فقيل له: الجهنمى والقضاعى والأنصارى والسلمى ) <sup>(١)</sup> .

وأعظم مناقبه التي نعرفها عنه من قبل : هو أنه من رعيل العقبة الأول ، ومن السبعين الذين بايعوا رسول الله صلوات الله عليه وسلم على حرب الأحمر والأسود من الناس ، ولم يتحقق له أن يحضر بدرًا ، إذ أن بدرًا فاتت الكثير من فضلاء الصحابة .

( ومن بنى نابى بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة : ثعلبة بن غنمة ابن عدى بن نابى شهد بدرًا ، وقتل بالخدق شهيداً ... وعبد الله بن أبيس حليف لهم من قضاة ... ) <sup>(٢)</sup> .

وكل ما نعرفه عنه ماعدا بيعة العقبة : أنه كان مع الشباب المسلم المتحمس من بنى سلمة ، والذين كانوا يكسرن أصنام بنى سلمة ، وذلك قبل قيام الدولة المسلمة ، فكان من طراز معاذ بن عمرو بن الجحوم ومعاذ بن جبل ، وكلاهما علما عظيمان من أعلام بنى سلمة .

يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله - عنه في الإصابة : ( وكان أحد من يكسر أصنام بنى سلمة من الأنصار ) <sup>(٣)</sup> .

فهو لا يحمل إذن تاريخياً عريقاً من الحرب والجهاد والخبرة القتالية ، ولا ندري إن كان يرى في حرب بعاث أو شارك فيها ، لكن عظمة القيادة النبوية هي التي تفترست فيه هذه القدرة العظيمة على مثل هذه المهمة ، وعلى منهج الخط التربوي الموارى من خلال اختيار الطاقات ، لامن خلال بروزها ، وكما اختار - عليه الصلاة والسلام - أبا سلمة المهاجر ، اختار ابن أبيس الأنصاري لمهمة مكافحة .

(١) الإصابة في تمييز الصحابة م ٢ ، ج ٤ / ٣٧ ت (٤٥٥) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١١٧ .

وحيث نلجم في الحديث عن المهمة العظيمة تُطالعنا هذه المحادثة التالية بين القائد الأعظم عليه السلام وبين جنديه القيادي عبد الله بن أنيس .

قال عبد الله : دعاني رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه فقال : « إنه بلغنى أن سفيان بن خالد بن نبيح يجمع لي الناس ليغزونني وهو بخصلة أو بعمرنة فاته فاقتله ». فقلت : يارسول الله صفة لي حتى أعرفه . فقال : « آية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته هبته ، وفرقته منه ، ووجدت له قصيرة وذكرت الشيطان » .

قال عبد الله : وكنت لا أهاب الرجال ، فقلت : يارسول الله ، ما فرقتك من شيء قط . قال : « بلى آية ما بينك وبينه ذلك أن تجد له قصيرة إذا رأيته » .

فقد اختاره - عليه الصلاة والسلام - دون مقدمات ، دون تمييز مسبق ، وذكر له كل ما يحتاجه لتنفيذ مهمته ، حدد له مكانها بخصلة أو بعمرنة ، وحدد له أسبابها ، وهو جمع سفيان بن خالد الهذلي الجموع لحرب محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه ، وحدد له هدفها ، وهو قتل سفيان .

ويقف الجندي العظيم ، والعقربى القائد أمام هذه المهمة ، يسأل سؤلاً واحداً فقط ، هو الذى يحتاجه لمهنته ، كيف يقتله وهو لا يعرفه ، لحكمة عظيمة أجل - عليه الصلاة والسلام - الإجابة على هذا السؤال ، وكان من الممكن أن يتبع حديثه بقوله : « آية ما بينك وبينه ... ». لكنه وقف - عليه الصلاة والسلام - فاقداً يؤجل هذه المعلومة المهمة . قال ابن أنيس : صفة لي يارسول الله حتى أعرفه ، فقال : « آية ما بينك وما بينك أنك إذا رأيته هبته ، وفرقته منه ، ووجدت له قصيرة وذكرت الشيطان » .

فالعنصر النفسي هو الذى اختاره - عليه الصلاة والسلام - علامته له ، ولم يصف له صفاته الجسدية أو المعنوية ، إنما كان الوصف أعمق عبد الله بن أنيس وأغواره في مهمة أول ما تحتاج إلى نفس شجاعة مقدامة ، ورباطة جأش عالية تنفذ داخل أرض العدو ، وليس مهمته تخبيس وانتهى الأمر ، بل مهمته قتل القيادة العليا عنده .

وهنا يرد الحديث عن عظمة هذا الاصطفاء النبوى لهذا الطراز الرفيع من الرجال ، فبعد الله بن أنيس يعلم نفسه من هي ، ويعلم أنه لا يهاب الرجال ، ويعلم أنه لا يخاف شيئاً قط ، لكن كيف عرفها رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه فيه ، فهو معدن النبوة أشرف المعادن في الوجود وأعلاها وأغلاها ، فهو خيار الله من خلقه جميعاً .

ولكن عظمة التربية من جهة أخرى هي التي تعيننا في هذا المقام ، فرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه يريد أن يطمأن من اعتداد ابن أنيس وثقته ، ويريد أن ينزله إلى أرض الواقع في ملاقاة سفيان « إذا رأيته ، هبته ، وفرقته منه ، ووجدت له قصيرة ... ». فليس هيبة

وانتهى الأمر ، كما يهاب المرء من الإقدام على أمر جديد لا يعرف أبعاده ، أو هيبة الوهله الأولى ثم تزول هذه الهيبة ، لكن فرقـت منه ، أى خفتـ ، وكيف ذلك وهو لايخاف شيئاً قـط ؟ وليس خوفـاً عاديـاً فقط ، بل وجدـت له قـشعريرة . إنه الخوف الذى يصل لحد الرعب والفزـع ، فرسـول الله ﷺ يتحدث عن صـفات هـى أبعد مـا تكون عن نفس عبد الله بن أنيس رضـي الله عنهـ ولاول وهـلة ، استـفطم ابن أنيـس هـذا الوصف لـشخصـه ، مع أنه يـعد لهمـة ضـخمة تـناسب مع شـجاعـته وكـفاءـته ، ويـقول للمـصطفـى - عليه الصـلاة والـسلام - : يـارسـول الله ما فـرقـت من شـيء قـط . ويـعود - عليه الصـلاة والـسلام - ليـؤكـد له المعنى نفسه ، ولكـنه لاينـفى شـجاعـته ، ولاينـفى بـطولـته ، ولاينـفى إـقادـمه ، ولو لم يكن كذلك ما وقع الاختـيار عليه ، ولكـنه التـوجـيه الـربـانـي والتـوجـيه النـبـوي الذـى يـمضـى دائمـاً فى تـوازن عـجيب بين تـغيـير الطـاقـات ودفع الإـبداع من جهة ، وبين كـسر العـجب ، وتحـطيم الغـرور والـاعـتـداد بالـطـاقـات من جهة ثـانية .

ولايسـأل ابن أنيـس بـعدهـا عن شـيء ، وأـنـاه تـوجـيه نـبـوي واحدـ أن اـنتـسب لـخـزـاعة ، واستـأذـن قـائـدهـ شـيء واحدـ فـقط أـنـ يقول . فـقالـ : « قـلـ ما بـدـاكـ » .

فـأخذـت سـيفـى وـلمـ أـزـدـ عـلـيـهـ فـمـثـلـ هـذـهـ المـهـمـةـ لـاتـحـتمـلـ أـنـ يـثـقـلـ نـفـسـهـ بـالـبـلـ أوـ الرـمـحـ ، وكـيفـ يـسـتطـيـعـ أـنـ يـتـحرـكـ بـعـدـها بـعـهـتـةـ الـخـاطـفـةـ ، وـرـفـقـةـ السـيـفـ لـلـمـسـافـرـ أـمـرـ مـالـوفـ عـنـدـ النـاسـ ، وـهـذـاـ لـاـ يـجـعـلـهـ مـقـاتـلـاـ أوـ مـحـارـبـاـ ، وـدـلـيلـ ذـلـكـ أـنـ قـرـيشـاـ اـشـتـرـطـتـ عـلـىـ مـحـمـدـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ فـيـ الـحـديـيـةـ أـلـاـ دـخـلـ مـكـةـ إـلـاـ بـسـلاحـ المـسـافـرـ : السـيـفـ فـيـ الـقـرـبـ . وإنـماـ اـشـتـرـطـواـ ذـلـكـ لـيـكـونـ عـلـمـاـ وـأـمـارـةـ لـلـسـلـمـ ؛ إـذـ كـانـ دـخـولـهـ صـلـحاـ (١) .

( وـخـرـجـتـ أـعـتـرـىـ لـخـزـاعةـ حـتـىـ إـذـ كـنـتـ بـيـطـنـ عـرـنـةـ لـقـيـتـهـ يـمـشـيـ وـرـاءـ الـأـحـابـيـشـ ، فـلـمـ رـأـيـتـ هـبـتـهـ وـعـرـفـتـهـ بـالـنـعـتـ الذـىـ نـعـتـ لـيـ رـسـولـ اللهـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ فـقـلتـ : صـدـقـ اللهـ وـرـسـولـهـ ، وـقـدـ دـخـلـ وـقـتـ الـعـصـرـ حـيـنـ رـأـيـتـهـ ، فـصـلـيـتـ وـأـنـاـ أـمـشـيـ أـوـمـيـ بـرـأسـ إـيمـاءـ . . . ) .

وابـنـ أـنـيـسـ ذـوـ قـدـمـ رـاسـخـةـ فـيـ الـفـقـهـ فـيـ دـيـنـ اللهـ ، وـلـاـ غـرـوـ فـهـوـ مـنـ الرـعـيلـ الـأـوـلـ مـنـ الـأـنـصـارـ الذـينـ شـهـدواـ الـعـقـبةـ ، وـهـوـ لـاـ يـنـسـىـ فـيـ أـشـدـ حـالـاتـ خـوفـ وـفـزـعـهـ صـلاـةـ الـعـصـرـ ، وـيـصـلـيـهـ إـيمـاءـ بـرـأسـ حـفـاظـاـ عـلـىـ سـرـيـةـ الـمـهـمـةـ الـتـىـ جـاءـ مـنـ أـجـلـهـ ، وـأـلـاـ يـكـشـفـ أـحـدـ أـنـهـ عـلـىـ دـيـنـ مـحـمـدـ فـيـقـتـلـ قـبـلـ أـنـ يـقـتـلـ . قالـ : مـنـ الرـجـلـ ؟ قـلـتـ : رـجـلـ مـنـ خـزـاعةـ سـمعـتـ بـجـمـعـكـ لـمـحـمـدـ فـجـتـ لـاـكـونـ مـعـكـ عـلـيـهـ ، قـالـ : أـجـلـ إـنـىـ لـفـيـ الجـمـعـ لـهـ .

وـلـاـ يـكـفـيـ مـلـلـ هـذـهـ الـمـهـمـةـ الشـجـاعـةـ الـفـائـقـةـ فـقـطـ ، وـلـاـ يـكـفـيـ لـهـ الـقـدـمـ الرـاسـخـةـ فـيـ الـفـقـهـ فـقـطـ ، فـلـابـدـ لـهـ مـنـ الإـضـافـةـ إـلـىـ ذـلـكـ الـلـبـاقـةـ وـحـسـنـ الـحـدـيـثـ وـالـقـدـرـةـ عـلـىـ التـأـثـيرـ

(١) المـواـبـ الـلـدـنـيـ لـلـقـسـطـلـانـيـ ١٣١/١ .

على الخصم ، حتى يتمكن الفدائي من الوصول إلى الواقع الأولى للعدو ، وإلا لو فقد العنصر الثالث؛ ليقى في مؤخرة القوم، وحيل بينه وبين الوصول إلى قيادة العدو ، بله أن يؤثر عليه بسحر حديثه وحلاؤه منطقه ( فمشيت معه وحدثه ، فاستحل حديثي وأنشدته وقلت : عجبًا لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث ، فارق الآباء وسفه أحالمهم . قال : لم ألق أحدًا يشبهني ولا يحسن قتاله ) .

فقد ارتفع في ذهن سفيان إلى مستوى في الشجاعة والذكاء والعبقرية ، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه من طلب الخلوة مع هذا الخزاعي اللبيب الأريب ، والشجاع الفذ . ( وهو يتوكأ على عصا يهد الأرض حتى انتهى إلى خبائه ، وتفرق عنه أصحابه إلى منازل قريبة منه ، وهم يطيفون به . فقال : هل يا أخا خزانة فدنوت منه . فقال : أجلس . فجلست معه حتى إذا هدا الناس ونام اغتررته ) وفي أكثر الروايات أنه قال : ( فمشيت معه حتى إذا أمكنتني حملت عليه السيف فقتلته وأخذت رأسه ) .

إنه لو كشف أمره بعد القتل وقبض عليه فقتل مثل به ، وكانت المهمة ناجحة مائة في المائة ؛ لأن الهدف هو قتله ، لكن هذه الشخصية العظيمة التي نفذت مهمتها في خباء القائد نفسه وبين حراسه وحجابه الذين يطيفون به ؛ من المهارة والتدريب بحيث استطاع أن يأخذ الرأس ، وأخذ الرأس وحده مع السيف معيق لحركته ، ولكن ليس على الأبطال وصناديد الرجال الذي استطاع أن ينقذ من بين حراب العدو المشهورة ، وسيوفهم المتلمظة .

( حتى إذا أمكنتني حملت عليه السيف فقتلته وأخذت رأسه ، ثم أقبلت فصعدت جبلًا فدخلت غاراً ، وأقبل الطلب من الخيول ، والرجال تمعج في كل وجه ، وأنا مكتمن في الغار ، وضررت العنكبوت على الغار ) .

وأى عجب في ذلك وهو في مهمة رسول الله ﷺ ، وقد اجتمع عليه الكفر يريده ليقطعه إرباً إرباً ، وعين الله ساهرة ترقمه وترعاه ، أى عجب أن تكلف العنكبوت فتسنج بتها في فم الغار ، وكل هذه المخلوقات أمثلنا .

وإذا عرفت النملة بمهمة سليمان - عليه الصلاة والسلام - فخطبت قومها قائلة : « يَا أَيُّهَا النَّمَلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَعْظِمُنَّكُمْ سَلِيمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » (١) فلا غرابة أن تعرف العنكبوت بمهمة رسول الله ﷺ ، فتضرب بنسجها على فم الغار بأمر ربيها سبحانه ، هو الحق له ما في السموات وما في الأرض .

(١) النمل / ١٨ .

وإذا خاف الصديق الأعظم رسول الله على رسول الله رسول الله في الغار ، وقال لصاحبه :  
لو نظر أحدهم إلى خلل قدميه لرأنا ، فأجابه سيد الوجود رسول الله : « لا تحزن إن الله  
معنا » وأنزل الله سكينته على أبي بكر ، وأيده بجنود لم تروها ، فلا عجب أن يخاف  
ابن أنيس الذي لا يهاب الرجال ولا يخاف شيئاً قط ، فهو ليس بأكمل من أبي بكر -  
رضوان الله عليه .

وأقبل رجل معه إدواته ونعله في يده وكانت خائفاً ، فوضع إدواته ونعله ، وجلس  
بيول قريباً من فم الغار ، ثم قال لاصحابه : ليس في الغار أحد . فانصرفوا راجعين .  
( وخرجت إلى الإداوة فشربت ما فيها وأخذت النعلين فلبستهما ) وما أحوجه إلى  
النعلين في مهمة شاقة قربة أربعمائه كيل على الأقدام ( فكانت أسير الليل وأكمن النهار  
حتى جئت المدينة ) .

قدرة في التنفيذ ، وسرعة في الأداء ، ولطالما سمع بقصة الهجرة وقصة الغار مع  
رسول الله رسول الله ، فنجد هذه جزءاً من ثقافته وخبرته العسكرية والفدائية ، ومن أجل  
هذا كمن في الغار حتى هذا الطلب ، واطمأن أن القوم قد انصرفوا راجعين عن الغار ،  
كان ذلك المسير الليلي ، والاختباء في النهار ، إذ يتناقل القوم خبره ويضعوا الجوازات لن  
 يأتي برأسه حتى جئت المدينة ، فلما رأى قال : « أفلح الوجه » . فقلت : وأفلح  
 وجهك يا رسول الله .

فوضعت الرأس بين يديه وأخبرته خبري .

وكانت الفراسة النبوية في ابن أنيس ، وقدرته الفائقة لهذه المهمة درساً لكل القادة  
في الأرض في حسن اختيار الطاقات والكافئات للمسؤوليات المناسبة .

وكان الوسام الخالد الذي أهداه رسول الله رسول الله لجندية العظيم من أرفع الأوسمة  
في الأرض ؛ لأنه أخذ إجازة الخلود في الجنة .

فدفع إلى عصا وقال : « تخسر بها في الجنة فإن المتخسرین في الجنة قليل » .

لقد كانت البشرة في الجنة ثمناً لهذه المهمة الكبرى ، وكانت العصا التي ترافقه في  
الجنة علامه بينه وبين رسول الله رسول الله في دار الخلود ، ومن أجل هذا لم ينس أبداً أن  
يأخذها معه إلى الدار الآخرة .

فكانت العصا عند عبد الله بن أنيس حتى إذا حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدرجوا  
العصا في أكفانه ففعلوا ذلك .

واهتزت مكة للنبي الرعيب ، فقد وصل محمد رسول الله إلى جوارها في عرفة ، وقتل

فتاكاً طاغية ، حليفاً لها ، كانت تقيم على غزوه لمحمد صلوات الله عليه وسلام الوزن الكبير .  
وسنرى فيما بعد آثار مقتل هذا الجبار العنيد الذي يذكر الشيطان من يراه ، فهو  
أحد شياطين الإنس في دنيا العرب آنذاك .

## محثنا صفر

### « سریتا بشر معونة والرجیع (١) »

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

(بعث النبي ﷺ سرية عيناً ، وأمرَّ عليهم عاصم بن ثابت - وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فانطلقوا حتى إذا كان بين عسفان ومكة ذُكروا لحي من هذيل يقال لهم : بنو لحيان ، فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتصوا آثارهم ، حتى أتو متولا نزلوه ، فوجدوا فيه نوى عمر تزودوه من المدينة فقالوا : هذا تمريث ، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم ، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدف ، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا لا نقتل منكم رجلاً . فقال عاصم أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك ، فقاتلوا لهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالليل ، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر فأعطوههم العهد والميثاق ، فلما أطعوههم العهد والميثاق نزلوا إليهم ، فلما استمكنا منهم ، حلوا أوتار قسيهم فربطوه بها ، فقال الرجل الثالث الذي معهما : هذا أول الغدر ، فأبى أن يصحبهم ، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى ياعورهما بمكة ، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر ، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله ، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها ، فأغارته . قالت : ففقلت عن صبي لي ، فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذنه ، فلما رأيته فزعه عرف ذلك مني وفي يده الموسى ، فقال : أتخشين أن أقتله ، ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله ، وكانت تقول : ما رأيتأسيراً قط خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قطف عنبر وما يمكّه يومئذ ثمرة ، وإنه لموثق بالحديد ، وما كان إلا رزق رزقه الله ، فخرجوا به من الحرم ليقتلواه قال : دعوني أصلى ركعتين ، ثم انصرف إليهم فقال : لو لا أن تروا ما بي جزع من الموت لزدت . فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو . ثم قال : اللهم احصهم عدداً ثم قال :

ما أبالي حين أقتل مسلماً      على أي شقِّ كان في الله مصرعى  
وذلك في ذات الإله وإن يشاً      يبارك على أوصال شلوا مزع

---

(١) الرجیع : ماء لهذيل على سبعة أمیال من الهدأة ، انظر : فتح الباری شرح صحيح البخاری ٧ / ٣٧٨ ، ح (٤٠٨٦) .

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله ، ويعتذر قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده كانوا يعرفونه ، وكان عاصم قتل عظيماً من عظامهم يوم بدر ، فبعث الله عليه مثل الظللة من الدبر فحتمته من رسليهم ، فلم يقدروا منه على شيء . وعن سفيان عن عمرو سمع جابرًا يقول : الذي قتل خبيباً هو أبوسروعة ) (١) .

١ - تناقلت الركبان مقتل سفيان بن خالد الهذلي ، وصار حديث السُّمَّار ، وأدرك هذيل أن مقتل قائدتها على يد رجل من أصحاب محمد صلوات الله عليه سيلحق بها العار إن لم تثار لذلك .

وحيث أورد البخاري أن سبب سرية الرجيع هو إرسالها عيوناً إلى مكة ليأتوا رسول الله صلوات الله عليه بخبر قريش . ذكر أئمة المغاري مثل ابن عقبة وابن إسحاق وابن سعد ومحمد ابن عمر الواقدي سبباً آخر لها . ذا صلة وثيقة بقتل سفيان بن خالد . هو أقرب احتمالاً من السبب الأول وذلك كما رواه الواقدي :

( مشت بنو حيان من هذيل بعد مقتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي إلى عضل والقارة - وهو حيآن - ) (٢) فجعلوا لهم فرائض (٣) أن يقدموا على رسول الله صلوات الله عليه فيكلموه، فيخرج لهم نفراً من أصحابه يدعونهم إلى الإسلام، قالوا : فقتل من أردنا ، ونسير بهم إلى قريش بمكة فنصيب منهم ثمناً فإنه ليس شيء أحబ إليهم من أن يؤتوا بأحد من أصحاب محمد يمثلون به ويقتلونه بن قتل منهم بدر ، فقدم سبعة نفر من عضل والقارة مقررين بالإسلام فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلاماً فاشياً فابعث معنا نفراً من أصحابك يقرئوننا القرآن ، ويفهموننا الإسلام فبعث معهم رسول الله صلوات الله عليه سبعة نفر ، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد ، ويقال: عاصم بن ثابت بن أبي الأقلع ، قلت: وهو الصحيح فقد رواه البخاري عن أبي هريرة . . . . ) (٤) .

وعملية الانتساب إلى الإسلام بنية الغدر تبرز لأول مرة في الأرض العربية ، ولم تكن بالحسنان ، وأراد الله تعالى لهذه السرية أن تلقى الشهادة . ولم يعلم الله تعالى نبيه نية الغدر عند هؤلاء ، فمضوا دعاء إلى الله تعالى ، واصطفاهم الله شهداء عنده .  
٢ - ونقف عند أمير السرية عاصم بن ثابت بن أبي الأقلع رحمه الله فهو بطل معلم وعبقري مجريب .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/٣٧٨ ، ٣٧٩ (٤٠٨٧) .

(٢) حيآن : بطنان من بني الهون بن خزيمة بن مدركة . وبنو حيان من هذيل بن مدركة .

(٣) فرائض: جميع فريضة وهو البعير المأذوذ في الزكاة ، ثم أتبع حتى سمي البعير فريضة في غير الزكاة .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦/٦٤ .

فقد روى الحسن بن سفيان لما كان ليلة العقبة - أو ليلة بدو - قال عليه السلام لمن معه : «كيف تقاتلون؟» فقام عاصم بن ثابت فأخذ الفوس والنبل وقال : إذا كان القوم قريباً من مائتي ذراع كان الرمي ، وإذا دنوا حتى تناولهم الرماح كانت المداعبة حتى تتصفت. فإذا تتصفت وضعناها وأخذنا السيوف ، وكانت المجالدة ، فقال عليه السلام : «هكذا نزلت الحرب ، من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم » شهد العقبة بدرأ واحداً (١) .

وإذا كان قاتل أحد ثلاثة وعشرين قتيلاً من المشركين . فقد ظفر عاصم بثلاثة منهم على الأقل . أما الاثنان فهما من حملة لواء المشركين يوم أحد وهما أخوان :

(وقاتل عاصم بن ثابت بن أبي القلح . فقتل مسافع بن طلحة وأخاه الجلاس بن طلحة كلاهما يشعره سهماً (٢) ، فيأتي أمه سلافة (٣) ، فيضع رأسه في حجرها فتقول: يا بني ، من أصابك؟ فيقول : سمعت رجلاً يقول حين رمانى : خذها وأنا ابن أبي القلح . فتنزرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر ، وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة ) (٤) .

أما القتيل الثالث : فكان أبو عزة الجمحى الذى قتله عاصم بأمر رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وكان عاصم هو الذى أسره . ( وكان الذى أخذه عاصم بن ثابت فامرها النبي صلوات الله عليه وسلم فضرب عنقه ) (٥) . وبلغ من شدة عاصم فى الله تعالى أنه نذر أن لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك . وستشهد فيما بعد كيف رمى الله تعالى عبده عاصم فى هذا النذر بعد موته . كما رعاه فى حياته .

( ويكتفى عاصم أبو سليمان ، وأخى رسول الله صلوات الله عليه وسلم بينه وبين عبد الله بن جحش ، وشهد عاصم بدرأ واحداً ، وثبت يوم أحد مع رسول الله صلوات الله عليه وسلم حين ولى الناس ، وبابعه على الموت ، وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وقتل يوم أحد من أصحاب اللواء من المشركين الحارث ، ومسافعاً ابنى طلحة بن أبي طلحة ، وأمهما سلافة بنت سعد بن الشهيد من بنى عمرو بن عوف ، فتنزرت أن تشرب فى قحف رأس عاصم الخمر ، وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة ) (٦) .

وللافة بنت الشهيد أوسية من بنى عمرو بن عوف ، وعاصم بن ثابت أوسى من

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ٦٤/٣ . (٢) يشعره سهماً : أي يصييه في جسده .

(٣) سلافة بنت الشهيد : أنصارية أوسية زوج طلحة بن أبي طلحة ، أسلمت يوم فتح مكة .

(٤) المواهب اللدنية للقسطلاني ١٠٣/١ وأورده عن الطبرى .

(٥) المغازي للواقدى ٣٠٩/١ .

(٦) الطبقات الكبرى لأبن سعد ٤٦٢/٣ .

بني عمرو بن عوف ، فقد كانت المصيبة عندها أكثر فجاعة ، وأشد ضراوة ؛ لأنها تعرف عاصماً وهو من رهطها .

( فحمل إلى أمه سلافة بنت سعد بن الشهيد وهي مع النساء فقالت: من أصابك ؟ قال: لا أدرى سمعته يقول: خذها وأنا ابن أبي الأقلح ! قالت سلافة: ألقحى والله ، أى من رهطى ) (١) .

هذا البطل العظيم هو أمير سرية الرجيع .

٣ - أما الستة الذين معه فهم : مرثد بن أبي مرثد الغنوبي ، وعبد الله بن طارق حليف بني ظفر ، وخبيب بن عدى من بني عمرو بن عوف ، وزيد بن الدثنة البياضي ، وخالد بن البكير الليبي ، ومعتب بن عبيد ، فكلهم بدريون من الجيل الرائد ، فيهم اثنان من المهاجرين من الرعيل الأول وهما : مرثد بن أبي مرثد الغنوبي حليف حمزة بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخالد بن البكير الليبي حليف بني عدى .

أما مرثد ( فقد آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أوس بن الصامت وشهد مرثد يوم بدر على فرس يقال له : السبل ) (٢) . قال محمد بن عمر: وشهد أحداً وقتل يوم الرجيع شهيداً وكان أميراً (٣) في هذه السرية وذلك في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ) (٤) .

وأما خالد بن البكير فقد استشهد أخوه في الإسلام معه وهما في السرية نفسها وهو زيد بن الدثنة رسول الله صلى الله عليه وسلم البياضي الخزرجي .

أما الأخوان الآخران في هذه السرية ، واللذان استشهدوا فيها كذلك فهما عبد الله ابن طارق حليف بني ظفر من الخزرج ، ومعتب بن عبيد حليف بني ظفر كذلك وهو أخو عبد الله بن طارق لامه .

سابعهم خبيب بن عدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصاري الاوسي شهد بدرًا ، وذكره ابن سعد فيمن شهد أحداً . فهم من غرّة الصحابة وأكرمهم على الله تعالى . هذا وتدل الروايات على أنهم كانوا عشرة ( والظاهر أن الثلاثة كانوا تبعاً فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم ) (٥) .

(١) المغارى للواقدى / ٢٢٨ / ١ .

(٢) وال الصحيح أنه لم يكن في بدر إلا فرسين للمقداد بن عمرو وللزبير بن العوام .

(٣) وهو مخالف لما في صحيح البخارى من أن أمير السرية هو عاصم بن ثابت .

(٤) الطبقات الكبرى لأبن سعد ٤٨ / ٣ .

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦ / ٦٢ .

٤ - وعندنا روایتان حول الغدر الذي تم بهم ، الأولى : ما قاله أبو هريرة وعروة وابن عقبة (فغدروا بهم فنفروا لهم ، وفي لفظ : فاستصرخوا عليهم قريباً من مائة رام ، وفي روایة في الصحيح في الجهاد : فنفروا لهم قريباً من مائة رجل ) والجمع واضح بأن تكون المائة الأخرى غير رماة .

وأما الثانية : فهي التي رواها أبو معشر في مغازيه : ( أن الصحابة - رضي الله عنهم - نزلوا بالرجوع سحراً ، فأكلوا ثم عجوة نواه في الأرض ، وكانوا يسيرون الليل ويكون النهار فجاءت امرأة من هذيل ترعى غنمًا فرأيت النوى فأنكرت صفرهن ، وقالت : هذا ثم يشرب ، فصاحت في قومها : قد أتيتم . فاقتصرت آثارهم حتى نزلوا متزلاً فوجدوا فيه نوى ثم تزودوه من المدينة فجاوزوا في طلبهم فوجدوهم قد ركنا إلى الجبل ) <sup>(١)</sup> . ( فلم يرع القوم إلا بالرجال قد غشوهم بأيديهم السيف . فلما أحس بهم عاصم وأصحابه جلزوا إلى فدفده <sup>(٢)</sup> بواه يقال له : غران <sup>(٣)</sup> ) <sup>(٤)</sup> .

ولابد من الإشارة إلى أن هذا الغدر مرفوض في البيئة العربية بين قبيلتين ليس بينهما حرب ولا ثارات ، وليس بين عضل والقارة وبين المسلمين ثارات أو دماء أو حرب . فهي خيانة لا تألفها البيئة العربية آنذاك ، وكان غدر هؤلاء المرافقين أنهم : استصرخوا عليهم هذيلاً في ديارهم حسب المؤامرة المبيبة بين الفريقين ؛ ليأخذوا ثارهم بمقتل سفيان بن خالد .

٥ - وانقسمت السرية إلى موقفين تجاه العهد والميثاق الذي أعطاه لهم المشركون . أما عاصم بن ثابت أمير السرية ومرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير ، فقد رفضوا العهد بلسان أميرهم عاصم قائلين : والله لا نقبل من مشرك عقداً ولا عهداً أبداً . وأخذوا سيفهم وراحوا يقاتلون عدوهم ، و العاصم أميرهم يرتجز :

ما عملتى وأنا جلد نابل <sup>(٥)</sup> والقوس فيها وتر عنابل <sup>(٦)</sup>  
تزل عن صفحتها المعابل <sup>(٧)</sup> الموت حق والحياة باطل

(١) المصدر السابق ٦٤/٦ ، ٦٥ .

(٢) فدفده وفي لفظ قردد : وهو المرتفع من الأرض .

(٣) غران : واد بناية عسفان .

(٤) سبل الهدى والرشاد ٦٤/٦ ، ٦٥ .

(٥) التابل : صاحب النبل ، ومن رواه باذل أى قوى .

(٦) عنابل : غليظ شديد .

(٧) المعابل : جمع معبل وهو نصل عريض طويل .

وكل ما حمَّ (١) الإله نازل بالمرء والمرء إليه آيل (٢)

إن لم أقاتلكم فآمى هابل (٣)

وقال كذلك وهو يقاتلهم ويرتجز :

أبو سليمان ومثلى رامى وكان قومي معاشرًا كراما

ثم قاتل القوم حتى قتل وقتل صاحباه (٤).

وكان عاصم رَجُلَةَ عند ربه رجاءً دعاهما قبل أن يلقاه .

قال : أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر ، اللهم إني أحمى لك اليوم دينك . فاحم لى  
لحمى ، اللهم أخبر عنا رسولك .

فهو يريد رَجُلَةَ : أن يطمئن قائله إلى أنه لم يخن العهد ، ولم يقتصر في الأمانة ،  
ولم ينك عن الميثاق ، وإنما مضى غدرًا وغيلة ، ورفض أن ينزل في ذمة كافر ، هذا ما  
يريده من دنياه قبل أن يودعها ، وليس له إلا ربه جل وعلا أن يبلغه لرسوله في هذه  
الصحراء المهلكة ، وكان طلبه الثاني : أن يعينه على الوفاء بذاته فلا يمس مشركاً ، ولا  
يمسه مشرك أبداً « اللهم إني أحمى لك اليوم دينك ، فاحم لى لحمى » .

ولنشهد نذر سلافة بنت سعد أن تشرب في قحف عاصم الخمر ، ونذر عاصم بن  
ثابت ألا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك ، ولنشهد كذلك دعوته الحرّى أن يبلغ ربه  
رسوله ما جرى .

( قال إبراهيم بن سعد كما رواه أبو داود الطيالسي : « فاستجاب الله تعالى ل العاصم ،  
فأخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبره وخبر أصحابه بذلك يوم أصيروا » وفي حديث أبي هريرة  
رَجُلَةَ كما في الصحيح : « وأخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أصيروا خبرهم . فقاتلتهم  
فرماهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنبل ، وبقي خبيب وزيد وعبد الله بن  
طارق . كما عند ابن إسحاق . قال ابن إسحاق وغيره : فلما قتل عاصم أرادت هذيل  
أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد - وأسلمت بعد ذلك - وكانت قد  
نذرت حين قتل ابنها مسافع والجلاس ابنتي طلحة لشئ قدرت لتشرين الخمر في

(١) حمَّ : قتل .

(٢) آيل : راجع .

(٣) هابل : فائد .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٤/٣ .

قفه . . . وفي حديث أبي هريرة في الصحيح : وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا شيء من جسده يعرفونه ، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر - قال الحافظ : لعله عقبة بن أبي معيط ، فإن عاصماً قتله صبراً بإذن رسول الله ﷺ بعد أن انصروا من بدر - وكان قريشاً لم تشعر بما جرى لهذيل من منع الدبر<sup>(١)</sup> لها من أخذ رأس عاصم . فارسلت من يأخذنه أو عرفوا بذلك ، ورجوا أن تكون الدبر تركته فيتمكنوا من أخذنه ) انتهى .

( بعث الله تعالى عليه مثل الظلة من الدبر<sup>٢</sup> يطير في وجوههم ويلدغهم فحملته من رسليهم فلم يقدروا منه على شيء ، انتهى . فلما حالت بينهم وبينه قالوا : دعوه حتى يمسى . فذهب عنه فناخذه ، بعث الله تبارك وتعالى الوادي فاحتمله فذهب به ، وكان عاصم<sup>٣</sup> قد أعطى الله عهداً لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك ، فبِرَّ الله - عز وجل - قسمه ، فلم يروه ولم يصلوا منه إلى شيء .

وكان عمر بن الخطاب<sup>٤</sup> يقول حين بلغه خبره : يحفظ الله تبارك وتعالى العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته )<sup>(٢)</sup> .

لقد أصبح حديث عاصم ونذرها ، وحديث سلافة ونذرها ، وحديث سرية الرجيع . تناقله الركبان في مضارب الباادية العربية ، وأصبح الحديث عن رسول الله ﷺ وجيشه ودعوته وجنده وسراباه هو الخبر الأول الذي يتتصدر الجزيرة العربية من أقصاها لاقصاها . فهو الذي هزَّ ركام القرون ، وطفى على كل الأحاديث عن أيام العرب وثاراتهم .

٦ - وبقدر ما شهدنا روعة عاصم<sup>٥</sup> وبطولته في رفضه عهد المشركين ، وقتاله العدو ، بمقدار ما نشهد عظمة خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة وهما أسران في العدو ، ونشهد سريان روح محمد<sup>٦</sup> في كل ذرة من ذراة كيانهما ، وذلك من خلال مقتلهم . سريان الحب والتفاني والتضحية ، الذي تمجد بهذه المواقف .

قتل زيد بن الدثنة :

قال ابن إسحاق وابن سعد : فاشترى زيداً صفوان بن أمية - وأسلم بعد ذلك - ليقتله بأبيه - أمية بن خلف - وجسه عند ناسٍ من بنى جمح ، ويقال : عند نسطناس غلامه . فلما انسلخت الأشهر الحرم بعثه صفوان مع غلامه نسطناس إلى التنعيم

(١) الدبر : اسم جماعة النحل .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٦٥/٦ ، ٦٦ .

وأخرجه من الحرم ليقتله ، واجتمع رهط من قريش ، منهم أبو سفيان بن حرب .  
فقال أبو سفيان حين قُدِّمَ ليُقتل : أنشدك الله يازيد أحب أنَّ محمداً عندنا الآن مكانك  
تضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ قال : والله ما أحب أنَّ محمداً الآن في مكانه الذي  
هو فيه نصيحة شوكة تؤذيه ، وأنى جالس في أهلى ، فقال أبو سفيان : ما رأيت من  
الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً . ثم قتله نسطاس ، وأسلم بعد  
ذلك .

وذكر ابن عقبة أن زيداً وخبيباً قتلا في يوم واحد ، وأن رسول الله ﷺ سمع يوم  
قتلا وهو يقول : « وعليكم السلام ورحمة الله » (١) .

قالوا : وكان زيد بن الدثنة عند آل صفوان بن أمية محبوساً في حديث ، وكان  
يتهجد بالليل ويصوم بالنهار ، ولا يأكل شيئاً مما أتى به من الذبائح فشق ذلك على  
صفوان ، وكانوا قد أحسنوا إسراره فأرسل إليه صفوان : فما الذي تأكل من الطعام ؟  
قال : لست أكل مما ذبح لغير الله ، ولكنني أشرب اللبن ، فأمر له صفوان بعسٍ من لبن  
عند فطره فيشرب منه حتى يكون مثلها في القابلة ، فلما خرج به وبخبيب في يوم  
واحد التقى ، ومع كل واحد منهمما فتام من الناس ، فالترنم كل منها صاحبه ، وأوصى  
كل واحد منهمما صاحبه بالصبر على ما أصابه . . . ثم جعلوا يقولون لزيد : ارجع عن  
دينك المحدث ، واتبع ديننا ونرسلك ! قال : لا والله لا أفارق ديني أبداً (٢) .

**مقتل خبيب بن علدي :**

( قال أبو هريرة كما في الصحيح : فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ،  
وقال ابن عقبة : واشتراك في ابتياع خبيب ، زعموا أبا إهاب بن عزيز ، وعكرمة بن  
أبي جهل ، والأخنس بن شريق ، وعيادة بن حكيم ، وأمية بن أبي عتبة ، وصفوان  
ابن أمية وبنو الحضرمي ، وهم أبناء من قتل من المشركين يوم بدر ، وقال ابن إسحاق :  
فابتاع خبيباً حجير بن أبي إهاب التميمي حليف بني نوفل وكان أخا الحارث بن عامر  
لامه . . . فجلس خبيب في بيت امرأة يقال لها : ماوية مولاية حجير بن أبي إهاب -  
وأنسلمت بعد ذلك - فأساؤوا إساءة فقال لهم : ما يصنع القوم الكرام هنا بأسيرهم  
فأحسنوا إليه بعد .

وروى ابن سعد عن موهب مولى الحارث أنه جعلوا خبيباً عنده ، فكانه زوج  
ماوية . قالت ماوية كما عند محمد بن عمر ، وهب كما عند ابن سعد أنهاهما قالا  
لخبيب : ألم حاجة ؟ فقال : نعم لا تسقونى إلا العذب ، ولا تطعمونى ما ذبح على  
النصب ، وتخبرونى إذا أرادوا قتلي .

(٢) المغازي لمحمد بن عمر الواقدي ١ / ٣٦٢ .

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٦٧ / ٦ .

وروى البخاري عن بعض بنات الحارث بن عامر - قال : خلف في الأطراف : اسمها زينب - وابن إسحاق ومحمد بن عمر عن ماوية قالت زينب : ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما يمكّه يومئذ ثمرة ، وإنه لموثق في الحديد ، وما كان إلا رزقاً رزقه الله تعالى خبيباً ، وقالت ماوية : اطلعنا عليه من صير الباب وإنه لفى الحديد ، وإن في يده لقطفًا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ، وما أعلم في أرض الله تعالى عنباً يؤكل . زاد محمد بن عمر : كان خبيب يتهجد بالقرآن فكان يسمعه النساء في يكن ويرفقن عليه .

فلما انسلاخت الأشهر الحرم ، وأجمعوا على قتلها قالت ماوية - كما عند محمد بن عمر - : فأتيته فأخبرته فوالله ما اكتثر بذلك وقال : أبعش بحديدة استصلاح بها . قالت : فبعثت إليه بموسى مع أبي ميسين بن الحارث . . . فلما ولى الغلام قلت : والله أدرك الرجل ثأره ، أى شيء صنعت ؟ بعثت هذا الغلام بهذه الحديدية فيقتله ويقول رجل برجل ، فلما ناوله الحديدية أخذها من يده ثم قال : لعمراك ما خافت أمك غدرى حين بعثتك بهذه الحديدية ؟ ثم خلى سبيله . فقلت : يا خبيب إنما أمنتك بأمانة الله ، فقال خبيب : ما كنت لأقتله وما يستحل في ديننا الغدر .

فأنخرجوه من الحديد حتى انتهوا به إلى التنعيم وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة فلم يتخلّف أحد؛ إنما موتور فهو يريد أن يشتفي بالنظر إلى وتره . وإنما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله ، فلما انتهوا إلى التنعيم أمروا بخشبة طويلة فحرروا لها . فلما انتهوا بخبيب إليها قال : هل أنتم تاركى فأصلى ركتعن ؟ قالوا : نعم . فركع ركتعن أتمهما من غير أن يطول فيهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لو لا أن ظنوا أنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة .

وذكر ابن عقبة - رحمه الله - أنه صلى الركعتين في موقع مسجد التنعيم . قال أبو هريرة كما في الصحيح : فكان خبيب رجلاً أول من سن هاتين الركعتين عند القتل ، انتهى . ثم قال خبيب : اللهم احصهم عدداً واقتلمهم بددوا ولا تغادر منهم أحداً . قال معاوية بن أبي سفيان : لقد حضرت مع أبي سفيان فلقد رأيتني وإن أنا سفيان ليضجعني إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب ، وكانوا يقولون : إن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه . وقال حويطب بن عبد العزى - وأسلم بعد ذلك - : لقد رأيتني أدخلت إصبعي في أذني وعدوت هارباً فرقاً أن أسمع دعاءه ، وكذلك قال جماعة منهم . فلما صلى الركعتين جعلوه على الخشبة ثم وجهوه إلى المدينة وأوثقوه رباطاً ، ثم قالوا له : ارجع عن الإسلام نخل سبيلك . قال : ألا والله ما أحب أن

رجعت عن الإسلام وأن لى ما فى الأرض جميماً . . . فجعلوا يقولون: ارجع يا خبيب .  
 فقال: لا أرجع أبداً . قالوا: أما واللات والعزى لئن لم تفعل لقتلنك . فقال: إن  
 قتلى فى الله قليل . ثم قال: اللهم إنى لا أرى إلا وجه عدو ، اللهم إنى ليس هنا أحد  
 يبلغ رسولك عن السلام فبلغه أنت عن السلام . فلما رفع على الخشبة استقبل الدعاء .  
 وروى محمد بن عمر عن أسامة بن زيد - رضي الله تعالى عنهما - أن رسول الله ﷺ  
 كان جالساً في أصحابه ، فأخذته غمية كما كانت تأخذه ، فلما نزل عليه الوحي سمعناه  
 يقول: « وعليه السلام ورحمة الله وبركاته » ، ثم قال: « هذا جبريل يقرئني من خبيب  
 السلام » وفي رواية أبي الأسود عن عروة . فجاء جبريل عليه السلام فأخبره ، فأخبر  
 أصحابه بذلك . . . ثم دعا المشركون أربعين ولداً من قتل آباؤهم بيد كفاراً فأعطوا كل  
 غلام رمحًا وقالوا: هذا الذي قتل آباءكم . فطعنوه برماحهم طعنًا خفيفًا . فاضطراب  
 على الخشبة فانقلب فصار وجهه إلى الكعبة . فقال: الحمد لله الذي جعل وجهي نحو  
 قبلته التي رضي لنفسه ، ثم قتلوه - رحمة الله - وروى ابن إسحاق بسند صحيح عن  
 عقبة بن الحارث قال: لأننا كنّا أضعف من ذلك ، ولكن أبو ميسرة العبدري أخذ  
 الحرية فجعلها في يدي ثم أخذ بيدي وبالحرية ، ثم طعنته بها حتى قتله . وذكر محمد  
 ابن إسحاق ومحمد بن عمر وغيرهما أن خبيباً <sup>رحمه الله</sup> حين رأى ما صنعوا به قال:

قبائلهم واستجمعوا كل مجمع  
 على لاني في وثاق بمضيع  
 وقربت من جذع طويل منع  
 وقد هملت عيناي من غير مجزع  
 ولكن حذاري جهنم نار ملفع  
 وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعى  
 فقد بضعوا لحمى وقد ياس مطعمى  
 ببارك على أوصال شلو مزع  
 على أي جنب كان في الله مصرعى  
 ولا جزعاً إنى إلى الله مرجعى

لقد جمع الأحزاب حولي وألبو  
 وكلهم مبدى العداوة جاهد  
 وقد جمعوا أبناءهم ونسائهم  
 وقد خيروني الكفر والموت دونه  
 وما بسى حذار الموت إنى ليت  
 إلى الله أشكو غربتى ثم كربتى  
 فإذا العرش صبرتى على ما يراد بي  
 وذلك في ذات الإله وإن يشا  
 لعمرك ما آسى إذا مت مسلماً  
 فلست بمبد للعدو تخشعأ

وروى البخاري عن أبي هريرة <sup>رحمه الله</sup> أن خبيباً <sup>رحمه الله</sup> قال :

على أي جنب كان في الله مصرعى  
 ببارك على أوصال شلو مزع

فلست أبالى حين أقتل مسلماً  
 وذلك في ذات الإله وإن يشا

وذكر القيروانى فى حُلُى العلى : أن خبيباً لما قتل جعلوا وجهه إلى غير القبلة ، فوجدوه مستقبلاً لها ، فأداروها مراراً ثم عجزوا فتركوه . وروى ابن إسحاق عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال : لما أصيّبت السرية التي كان فيها مرئى وعاصم بالرجيم قال رجال من المنافقين ياويع هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا ، لامم قعدوا في أهلهم ، ولاهم أدوا رسالة صاحبهم . فأنزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فِي ذَلِكَ فِي قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ : « وَمَنِ النَّاسُ مَنْ يُعْجِلُكَ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشَهِّدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ... » وهو مخالف لما يقوله بلسانه : « وَهُوَ اللَّهُ الْخَصَامُ » أي : ذو جدال إذا كلمك وراجعتك : « وَإِذَا تُوَلِّنِي » أي : خرج من عندك « سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسَدَ فِيهَا وَيُهَلِّكَ الْحَرَثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ » أي : لا يحب عمله ولا يرضاه « وَإِذَا قِيلَ لَهُ أَتَقِنَ اللَّهَ أَخْلَقَهُ الْغَرَّةَ بِالْأَثْمِ فَحَسِبَهُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمِهَادُ » (١) .

ولنا مع مقتل هذين الشهيدين العظيمين هذه الوقفات :

أ - لقد طفت أخبار خبيب وزيد على أخبار عاصم وصحبه ، فهما رسولان حيان داخل مكة ، وهما يمثلان رسول الله ﷺ ، وهذه أول مواجهة حية بين أسيرين من المدينة وبين قيادات قريش .

ب - لقد أرسل رسول الله ﷺ هذه السرية من القيادات العالية عنده ، وهو مطمئن كل الاطمئنان إليها ، وإلى قدرتها على تثيله ، وقتل هذه الدعوة ، وقدرتها على مواجهة الأحداث الكبار بالحكمة البالغة ، ولthen اختلف الموقفان ابتداء ؟ بين من استجاب للعمد ونزل عليه ، وبين من رفضه ، لكن كلا الفريقين مثل الصورة العالية المشرفة لهذا الدين ، ولم تكن الدعوة من خلال الكلام كما كان مقرراً لهم ، بل كانت الدعوة من خلال السلوك والممارسة ، فخبيب وزيد - رضوان الله عليهم - رغم أن كل واحد منها قد أسر في مكان متزلاً عن الآخر ، لكنهما بربما غواذجين خالدين كائناً يصردان عن مشكاة واحدة .

ج - زيد يرفض أن يأكل ما ذبح على التصب ( ولا يأكل شيئاً مما أتى به من الذبائح ...) ويجد صفوان بن أمية حرجاً في ضيقه الأسير ( فشق ذلك على صفوان وكانتا قد أحسنا إساره فأرسل إليه صفوان ، فما الذي تأكل من الطعام ؟ قال : لست أكل ما ذبح لغير الله ، ولكنني أشرب اللبن ) لقد كان خارجاً عن سلطان بطنه ، وكانت التربية النبوية قد صاغته تلك الصيانتة العالية ، فهو يمثل شريعة الله في هذه الأرض ، ومن شريعة الله ألا يأكل ما لم يذكر اسم الله، أو ذكر عليه غير اسم الله ، وإذا خبيب

(١) البقرة / ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

**لِتَوْلِيقَةِ** يقف الموقف نفسه ، وي تعرض للمحنة نفسها ، فيرتفع نفس الارتفاع ، ويسمى السمو نفسه ، وذلك حين تأثرت النساء به فقلن له : يا خبيب ! هل لك من حاجة ؟ قال : ( لا ، إلا أن تسقيني العذب ، ولا تطعمني ما ذبح على النصب ، وتخبريني إذا أرادوا قتلى ) .

د - وهما يقفان الموقف نفسه بصفتها دعاة إلى الله - عز وجل - وسط هذا الوحل من الشرك . فهم في الليل صافين أقدامهم بين يدي ربهم - عز وجل - ينادونه ويتصرون إليه ، ويصومون نهارهم قربى إلى الله ، إنهم مغوغجان حيان للإنسان المسلم الداعية ( وكان خبيب يتهجد بالقرآن ، وكان يسمعه النساء في يكن ويرفقن عليه ... ) ( وكان زيد بن الدثة عند آل صفوان بن أمية محبوساً في حديد ، وكان يتهجد بالليل ويصوم بالنهار ) .

لقد كان زيد وخبيب هما حديث قريش ، وحديث نسائها وأطفالها ، فهما طراز لا مثيل له عندهم ، وقد فرضا احترامهما رغم العداوة والبغضاء ، وكانت فرصة طيبة ، ومناسبة ثمينة ليتحقق للأسرى هدفهم في الدعوة إلى الله ، وذلك بانتظار انتصارهم الأشهر الحرم ، ليقتللا خارج الأشهر ، وخارج الحرم ، وأن تدع مسلماً داعية قائداً ، وسط بيت من الشرك - حتى ولو كان أسيراً - مثل هذا الأمر : كفيل أن يغزو قلوب هذا البيت ، ويكون الحديث عنه ملء أفتدة رجاله ونسائه وأطفاله ، ( وكان يسمعه النساء في يكن ويرفقن عليه ... ) .

هـ - ويلتقى الأخوان الحبيبان يوم خروجهما للقتل . مثل يتيمين في المدينة فتعانق أرواحهما قبل تعلق أجسادهما ، وإذا هما روح واحدة ، يوصي كل واحد منهما أخيه بالصبر والثبات على الدين أمام جموع مكة الحاشدة ، والتي خرجت لتحقيق ثأرها من محمد صلوات الله عليه .

وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة ، فلم يختلف أحد ، إما موتور فهو يريد أن يتشفى بالنظر من وتره ، وإما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله .

و- وأمام هذه الحشود الجامحة تتجسد بين يدينا من جديد قصة أصحاب الأخدود في حزب محمد صلوات الله عليه ، وإذا الغلام المؤمن يكبر ليكون الرجل المؤمن ، وتتأتي قصة كتابة تاريخ هذا الدين بالدم الزكي ، والدعوة إلى الله بالشهادة في سبيله ، وتتأتي مغريات الدنيا ، فإما الموت ، والصلب ، وإما الحياة الرغيدة الهنية ، لهذين البطلين القرميين . ( ثم قالوا - لزيد - ارجع عن الإسلام نخل سبيلك . قال : لا والله ما أحب أنني

رجعت عن الإسلام وأن لم ينفعها إلا ما في الأرض جميعاً) .

وخلد خبيبُ لكل مسلم في الوجود هذا المعنى بشره الحى في قلب الموت.

وقد خيروني الكفر والموت دونه وقد هملت عيني من غير مجzen

وما بي حذار الموت إني لميت ولكن حذاري جهنم نار ملعن

وخلد خبيبُ موقفه من الموت في سبيل الله ، واستشهاده على هدى هذا الدين ولو قطعت أوصاله ، وغدا أشلاءً عزقة .

إلى الله أشكوك غربتي ثم كربلي وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعى

فلست أبالى حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعى

وذلك في ذات الإله وإن يشا يبارك على أوصال شلو منزع

وهو هو الموقف نفسه عند زيد بن الدشت رضي الله عنه (ثم جعلوا يقولون لزيد : ارجع عن دينك المحدث ، واتبع ديننا وترسلك قال : لا والله لا أفارق ديني أبداً) .

ز - ويقف العظيمان الموقف نفسه وهو يخرجان مخبوء قلبيهما ومكتون صدريهما نحو قائددهما الحبيب صلوات الله وسلامه عليه ، علاقة الحب والتلقاني في الحب .

قالوا - خبيب - : أيسرك أن محمداً في أيدينا مكانك وأنت في بيتك ؟ قال : ما يسرني أن محمداً أشيك بشوكة وأنت في بيتك ، فجعلوا يقولون : ارجع يا خبيب . قال : لا أرجع أبداً ! قالوا : أما واللات والعزى ، لئن لم تفعل لاقتلك . فقال : إن قتلي في الله قليل .

فقال له أبو سفيان حين قُدُّم ليقتل : أنسدك الله يازيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه ، وأنت في أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنت جالس في أهلي .

ح - وأنطق الحق أبا سفيان بن حرب . قائد الشرك آنذاك كلمة مضت مثلاً في التاريخ وهزت كيان مكة كلها . وغزت قلوب المحتشدين شبابهم وشاباتهم : يقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .

لقد سطرَ هذان العظيمان بدمنها أنصع صفحات التاريخ الإسلامي ، وأعظم دعوة إلى الله - عز وجل - لهذا الدين ، فهذا الطراز الرفيع من الرجال هو الذي يحاربه ، قريش فكيف يتصررون عليه .

ط - وللن مرضى زيد ~~رَجُلَيْهِ~~ صامتاً إلى ربه فقد مضى خبيب وأضاف سنة لكل مسلم في الأرض . ( فلما انتهوا بخبيب إلى خشبة قال : هل أنتم تاركى فأصلى ركعتين ؟ قالوا : نعم فركع ركعتين أتمهما من غير أن يطول فيهما . فحدثنى معاشر عن الزهرى عن عمرو بن أبي سفيان عن أبي هريرة قال : أول من سن الركعتين عند القتل خبيب . قالوا ثم قال : أما والله لولا أن تروا أنى جزعت من الموت لاستكثرت من الصلاة ) .

ى - وشاءت إرادة الله تعالى أن تظهر كرامة خبيب خاصة ، كما تحدثنا ماوية التي غزا قلبها - رضى الله عنها - فتقول عنه في إسرارة :

( والله ما رأيت أحد خيراً من خبيب ، والله لقد اطلعت عليه من صير الباب ، وإنه لفى الحديد ما أعلم في الأرض حبة عنب توكل ، وإن في يده لقطف عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ، وما هو إلا رزق رزقه الله ) .

﴿ كُلُّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَا الْمَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرِيمُ أَتَنِي لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

فهما من مدرسة واحدة . مدرسة أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوْرُوا وَلَا تَحْزَنُوْرُوا وَأَبْشِرُوْرُوا بِالْعَجْنَةِ الَّتِي كَتَّسْتُمْ تُوعَدُوْرُونَ . نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشَتَّمُ فِي الْفَسْكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورِ رَحِيمٍ ﴾ (٢) .

وظهرت الكرامة الأكبر أمام الحشد كله ( فاضطررت على الخشبة فانقلب فصار وجهه إلى الكعبة فقال : الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبته التي رضى لنفسه ولنبيه وللمؤمنين ) .

ك - ورغم كل مظاهر الحقد والعداوة في قتل خبيب ( ثم دعوا أبناءه من أبناء من قتل بيدر فوجدوهم أربعين غلاماً ، فاعطوا كل غلام رمحًا ، ثم قالوا : هذا الذي قتل آباءكم ، فطعنوه برماحهم طعنًا خفيفًا . . . وكان عقبة بن الحارث بن عامر من حضر وكان يقول : والله ما أنا قتلت خبيباً إن كنت يومئذ لغلاماً صغيراً ، ولكن رجلاً من بني عبد الدار يقال له : أبو ميسرة بن عوف أخذ بيدي فوضعها على الحربة ثم أمسك بيدي ثم جعل يطعن بيده حتى قتله ، فلما طعنه بالحربة أفلت فصاحوا : يا أبا سروعة بش ما طعنه أبو ميسرة ، فطعنه أبو سروعة حتى أخرجها من ظهره . فمكث ساعة

(٢) فصلت / ٣٠ - ٣٢ .

(١) آل عمران / ٣٧ .

يُوحَدُ اللَّهُ وَيُشَهِّدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ .

رغم مظاهر الحقد هذا ، والذى يربون عليه أولادهم عليه ، فقد تزلزل كيان الأخنس بن شريق أيام ذكر خبيب لحببه المصطفى وهو يقتل . فقال : لو ترك ذكر محمد على حالٍ لتركه على هذه الحال ، ما رأينا قط والدًا يجد (١) بولده ما يجد أصحاب محمد بمحملة (٢) .

ورغم كل مظاهر الحقد هذه . فقد تكشف ضعف المجتمع الجاهلى كله ، أمام دعوة خبيب (٣) وهو على خسبته تلك الدعوة التى صعقت قادة مكة . كما يصفها من حضر تلك الدعوة : ( ... ثم قال : اللهم احصهم عدداً ، واقتلمهم بددًا ، ولا تغادر منهم أحداً ) .

فقال معاوية بن أبي سفيان : لقد حضرت دعوته ولقد رأيتني وإن أبي سفيان ليضجعني إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب ، ولقد جذبني يومئذ أبو سفيان جذبة ، فسقطت على عجب ذنبي فلم أزل أشتكي السقطة زماناً .

وقال حويطب بن عبد العزى : لقد رأيتني أدخلت إصبعي في أذنى ، وعدوت هريراً ، فرقاً أن أسمع دعاءه .

وقال حكيم بن حرام : لقد رأيتني أتوارى بالشجر فرقاً دعوة خبيب .

فحذثني عبد الله بن يزيد قال : حدثني سعيد بن عمرو قال سمعت جبير بن مطعم يقول : لقد رأيتني يومئذ أستر بالرجال فرقاً من أن أشرف لدعوته .

وقال الحارث بن برصاء : ( والله ما ظنت أن تغادر دعوة خبيب منهم أحداً ) (٤) .

وحدثني عبد الله بن جعفر عن عثمان بن محمد الأخنس قال : استعمل عمر بن الخطاب (٥) سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي على حمص ، وكانت تصيبه غشية وهو بين ظهرى أصحابه . فذُكر ذلك لعمر بن الخطاب فسأله فى قدمه قدم عليه من حمص فقال : ياسعيد ما الذى يصيبك ؟ أبك جنة ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكننى كنت فيمن حضر خبيباً حين قتل ، وسمعت دعوته فوالله ما خطرت على قلبي وأنا فى مجلس إلا غشى على . قال : فزادته عند عمر خيراً (٦) .

إنهم في حقيقة أمرهم يعرفون مقام خبيب عند الله ، ويعرفون أنه على الحق

(١) يجد : من الوجود وهو زيادة الحب .

(٢) المغارى للواقدى / ١ . ٣٦٠ .

(٣) المغارى للواقدى / ١ . ٣٥٩ .

الأملقِ ، ولا أدلَّ على ذلك من خشيتهم من دعوته ، وإن ثباته ، وتحديه ، وصلاته ، وسلوكيه ، قد غزاهم في قلوبهم جميعاً . فكانت خيوط النور الأولى التي تسللت إلى قلوبهم من خلاله ، وما منهم من أحد إلا أكرمه الله بالإسلام بعد ذلك .

ل - أما المأفونون من المنافقين الذين يتحركون في الظلام فراحوا يتهمسون بينهم بالنقد والتشفى ويقولون : يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا . لام قعدوا في أهليهم ، ولاهم أدوا رسالة صاحبهم ، ويتسمون في الحرص على الإسلام وأهله . فنزل القرآن عليهم كالصواعق ليفضحهم ، ويفضح ملسمهم الناعم النجس :

**﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشَهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَّا يُحِبُّ الْخِصَامَ . إِذَا تَوَلَّنِي سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهَلِّكَ الْحَرَثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ . إِذَا قِيلَ لَهُ أَتَى اللَّهَ أَخْذَتْهُ الْغَرَةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبَهُ جَهَنَّمَ وَلَبِسَ الْمَهَادُ ﴾ (١) .**

م - ومضت سربة الرجيع رمزاً من رموز هذه الأمة ، وسجلأ من سجلات صمودها ، ومضى خبيب خاصة علماً على الصبر ، والثبات والتضحية ، حتى لينشد المسلمين فيه الأشعار وخاصة : ملك البيان في عهد النبوة حسان بن ثابت فمما قاله :

ما بال عينك لا ترقا (٢) مدامعها سُحَالاً (٣) على الصدر مثل اللؤلؤ القلق (٤)  
على خبيب فتي الفتى قد علموا لافشل (٥) حين تلقاه ولا نزرق (٦)  
فاذهب خبيب جراحك الله طيبة وجنة الخلد عند الخور في الرُّفق (٧)  
ماذا تقولون إن قال النبي لكم حين الملائكة الأبرار في الأفق  
فيم قلتكم شهيد الله في رجل طاغ قد أوعث (٨) في البلدان والرُّفق (٩) (١٠)

وقال حسان رَحْمَةُ اللَّهِ كَذَلِكَ :

الوى (١٢) من القوم صقر خاله أنس  
ولم يُشَدِّ عليه السجن والحرس

لو كان في الدار قرم (١١) ماجد بطل  
إذن وجدت خُبِيئاً مجلساً فسحا

(٢) لا ترقا مدامعها : لا تنقطع .

(١) البقرة / ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٤) القلق : التحرك الساقط .

(٣) السُّحُّ : الصَّبَّ .

(٦) النزرق : السنن الخفيف .

(٥) الفشل : الجبان الفاسد .

(٨) أوعث : اشتد فساده .

(٧) الرُّفق : جمع رفقاء .

(٩) رفقة : جمع رفقة .

(١٠) السيرة النبوية لأبن هشام ٢٥٢/٣ ، ٢٥٣ .

(١١) القرم : الرجل السيد : وأصله الفحل من الإبل .

(١٢) الوى : شديد الخصومة .

ولم تسقك إلى التنعيم زعنفة<sup>(١)</sup> من القبائل منهم من نفت عُدَّس<sup>(٢)</sup>  
دلوک<sup>(٣)</sup> غدرًا وهم فيها أولو خُلُفٍ<sup>(٤)</sup> وأنت ضيِّم<sup>(٥)</sup> لها في الدار محبس<sup>(٦)</sup>

سرية بشر معونة :

أ - روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : (بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً حاجة يقال لهم : القراء ، فعرض لهم حيّان من بنى سليم : رعل وذكوان عند بشر يقال له : بشر معونة . فقال القوم : والله ما إياكم أردننا ، وإنما نحن مجتازون في حاجة النبي ﷺ . فقتلواهم فدعا النبي ﷺ عليهم شهراً في صلاة الغداة وذلك بده القنوت وما كانوا نفنت)<sup>(٧)</sup> .

ب - وفي رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه : (أن رعلا وذكوان وعصبة وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو ، فامدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القراء في زمانهم كانوا يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل حتى كانوا يبشر معونة قتلواهم وغدروا بهم ، فبلغ النبي ﷺ فقتلت شهرًا يدعوه في الصبح على أحياء العرب ، على رعل وذكوان وعصبة وبني لحيان . قال أنس : فقرأنا فيهم قرائنا ثم إن ذلك رفع : (بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)<sup>(٨)</sup> .

ج - وروى ابن إسحاق عن المغيرة بن عبد الرحمن وعبد الله بن أبي بكر وغيرهما ، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا : قدم عامر بن مالك بن جعفر - أبو براء - ملاعب الأسنة العامري على رسول الله ﷺ فأهدى إليه فرسين وراحلتين . فقال رسول الله ﷺ : « لا أقبل هدية من مشرك » ، وفي رواية : « إني نهيت عن زيد المشركين » وعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فلم يسلم ولم يبعد وقال : يا محمد إني أرى أمرك هذا حسناً شريعاً ، وقومي خلفي فلو أنك بعثت معي نفراً من أصحابك لرجوتُ أن يتبعوا أمرك فإنهم إن اتباعوك فما أعز أمرك . فقال رسول الله ﷺ : « إني أخاف عليهم أهل نجد » فقال عامر : لا تخاف إني لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد ، وخرج عامر بن مالك إلى ناحية نجد فأخبرهم أنه قد أغار أصحاب محمد ﷺ فلا تعرضا

(١) الزعنفة : الذين يتسمون إلى القبائل ويكونون أتباعاً لهم .

(٢) عُدَّس : هنا قبيلة من تميم .

(٣) دلوک : عزوك .

(٤) أولو خُلُفٍ : بضم اللام للاتباع .

(٥) الضيِّم : النمل ولراد ذو ضيِّم فمحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .

(٦) السيرة النبوية ٢٥٣/٣ ، ٢٥٤ .

(٧) فتح الباري في شرح صحيح البخاري م ٧ ص ٣٨٥ .

لهم، وكان من الانصار سبعون رجلاً شبيه يُسمون: القراء. كانوا إذا أمسوا أنوا ناحية من المدينة إلى معلم لهم فتدارسو القرآن وصلوا ، حتى إذا كان وجه الصبح استعدبوا من الماء وحطبوا من الخطب فجاؤوا به إلى حجر أزواج النبي ﷺ ، وفي رواية : ( يحطبون فيبيعون ويشرتون به الطعام لأهل المسجد والفقراء ، وفي رواية : ومن كان عنده سعة اجتمعوا واشتروا الشاة فأصلحوها ، فيصبح ذلك معلقاً بحجر أزواج رسول الله ﷺ فكان أهلوهم يظنون أنهم في المسجد ، وكان أهل المسجد يظنون أنهم في أهليهم ...) بعثهم رسول الله ﷺ وبعث معهم كتاباً ، وأمرَ عليهم المنذر بن عمرو الساعدي .

فخرج المنذر بن عمرو بدليل من بنى سليم يقال له : المطلب ( السلمي ) فخرجوها حتى إذا كانوا على بئر معونة عس克روا بها وسرحوا ظهرهم مع عمرو بن أمية الصمرى ، والحارث بن الصمة فيما ذكره أبو عمر .

وذكر ابن إسحاق وتبعه ابن هشام بدل الحارث المنذر بن محمد بن عقبة بن أبيحة ابن الجلاح ، وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيلي في رجال من بنى عامر . فلما انتهى حرام إليهم لم يقرؤوا الكتاب ، وواثب عامر بن الطفيلي في رجال من بنى عامر على حرام فقتلوه .

وفي الصحيح عن أنس : فتقدتهم خالى حرام بن ملحان ورجل أعرج ... فتقدم فأمنوه . في بينما هو يحدثهم عن رسول الله ﷺ إذ أومأوا إلى رجل منهم فأتى من خلفه فطعنه فأنفذه فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة . ثم قال بالدم هكذا ، فنضجه على وجهه ، ونجا كعب بن زيد - الأعرج - لأنَّه كان في جبل ، واستصرخ عامر بن الطفيلي عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيئوه إلى مادعاهم إليه وقالوا : لن نخفر جوار أبي براء وقد عقد لهم عقداً و جواراً .

فلما أبْتَ بنو عامر أن تُنْفَرَ مع عامر بن الطفيلي استصرخ عليهم قبائل من بنى سليم عصبة ورِعْلٍ وذِكْوان وزِعْب فنفروا معه ورأسوه عليهم . فقال عامر بن الطفيلي ، أخلف بالله ما أقبل هذا وحده فاتبعوا أثره حتى وجدوا القوم . فلما استبطوا صاحبهم أقبلوا في أثرهم فلقاهم القوم والمنذر بن عمرو معهم فأحاطوا بهم في رحالهم . فلما رأهم المسلمون أخذوا سيفهم ثم قاتلواهم حتى قتلوا عن آخرهم . قال ابن إسحاق إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار فإنهم تركوه وبه رقم . فارتُّ من بين القتلى . فعاش حتى قُتِلَ في الخندق شهيداً .

وقال محمد بن عمر : وبقي المنذر بن عمرو فقالوا له : إن شئت أمناك فقال : لن أعطى بيدي ، ولن أقبل لكم أمانا حتى مقتل حرام ثم بري من جواركم . فامنوه حتى أتى مصرع حرام ثم برثوا إليه من جوارهم ، ثم قاتلهم حتى قتل ، فذلك قول رسول الله ﷺ : « أعتق ليموت » ، وأقبل المنذر بن محمد بن عقبة كما ذكره ابن إسحاق وغيره ، وقال ابن عمر : الحارث بن الصمة ، وعمرو بن أمية بالسرح ، وقد ارتابا بعكوف الطير على متزلمهم ، أو قريباً من متزلمهم . فجعلوا يقولان : قتل والله أصحابنا ، فأوفيا على نشر من الأرض ، فإذا أصحابهما مقتولين ، وإذا الخيل واقفة فقال المنذر - أو الحارث - لعمرو بن أمية : ماترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فتخبره الخبر ، فقال الآخر : ما كنت لأنتأخر عن موطن قتل فيه المنذر ، ما كنت لتخبرني عنه الرجال . فا قبلـا فلقيا القوم فقاتلهم الحارث فقتل منهم اثنين ، ثم أخذوه فأسروه وأسروا عمرو بن أمية وقالوا للحارث : ما تحب أن نصنع بك فإننا لا نحب قتلك . قال : أبلغوني مصرع المنذر بن عمرو وحرام بن ملحان ثم برث من ذمتك . قالوا نفعل . فبلغوا به ثم أرسلوه فقاتلهم فقتل منهم اثنين ثم قتل ، وما قتلوه حتى شرعوا له الرماح فنظموا فيها ، وأخبرهم عمرو بن أمية وهو أسير في أيديهم أنه من مضر ولم يقاتل . فقال عامر ابن الطفيلي : إنه قد كان على أمي نسمة فانت حر عنها وجراً ناصيته .

وروى البخاري من طريق هشام بن عروة قال : أخبرنى أبي قال : لما قتل الذين قتلوا بشر معونة ، وأسر عمرو بن أمية قال عامر بن الطفيلي لعمرو : من هذا ؟ وأشار إلى قتيل . فقال : هذا عامر بن فهيرة ، فقال : قد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء حتى أتى لأنظر إلى السماء بيته وبين الأرض ثم وضع .

وروى البيهقي عنه أنه قال : هل تعرف أصحابك ؟ قال : نعم فطاف فيهم يعني في القتل وجعل يسأله عن أنسابهم . قال : هل تفقد منهم من أحد ؟ قال : أ فقد مولى لابى بكر يقال له : عامر بن فهيرة ، قال : كيف كان فيكم ؟ قلت : كان من أفضلنا . قلت : ألا أخبرك خبره ، وأشار له إلى رجل فقال : هذا طعنه برمحة ثم انتزع رمحه فذهب الرجل علواً في السماء حتى والله ما أراه . قال عمرو : قلت ذلك عامر بن فهيرة ، وكان الذى قتله رجل من كلاب يقال له : جبار بن سلمى ذكر أنه لما طعنه سمعته يقول : فزت والله . فقلت فى نفسي ما قوله : فزت ، فأتيت الضحاك بن سفيان الكلابي فأخبرته بما كان وسألته عن قوله : فزت والله ، قال : الجنـة ، وعرض على الإسلام فأسلمـت ، ودعـانـى إلى الإسلام ما رأـيـتـ من مـقـتـلـ عامـرـ بنـ فـهـيرـةـ ، وـمـنـ رـفـعـهـ إلىـ السـمـاءـ عـلـوـاـ . وـكـتـبـ الضـحـاكـ إلىـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ يـخـبـرـهـ بـإـسـلـامـيـ ، وـمـاـ رـأـيـتـ

من مقتل عامر بن فهيرة فقال رسول الله ﷺ: «بأن الملائكة وارت جسنه وأنزل عليهن». قلت : يحتمل أنه رفع ثم وضع ثم فقد بعد ذلك بأن وارت الملائكة جسنه ، فقد روينا في مغازى موسى بن عقبة ، في هذه القصة قال : فقال عروة بن الزبير: لم يوجد جسد عامر يرون أن الملائكة وارتة (١) .

(... فدعا رسول الله ﷺ أربعين صباحاً على رعي وذكوان وبني حيان وبني عصيَّة الذين عصوا الله ورسوله. وفي رواية الإمام أحمد: قال أنس رضي الله عنه : فما رأيت رسول الله ﷺ وجَدَ على شيء وجده عليهم ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ كلما صلى الغداة رفع يده فدعا عليهم ، فلما كان بعد ذلك ، إذا أبو طلحة يقول : هل لك في قاتل حرام؟ قلت : ما له؟ فعل الله تعالى به وفعل؟ قال : مهلاً فإنه قد أسلم ) (٢) .

١ - رأينا من قبل كيف ذكر رسول الله ﷺ القبائل الأربع الكبرى التي يتغاضر العرب بها ، وأنها أسد وقليم وغطفان والرابعة هوازن أو عامر بن صعصعة ، كما هو نص الحديث : «أسلم وغفار ومزينة خير من قليم وأسد وغطفان وعامر بن صعصعة» (٣) .

وحين يذكر ابن حزم القبائل الكبرى في عدنان وقططان يقول :

( فإذا كان ذلك وجب أن ننظر قبائل هؤلاء بنظرتها من قبائل هؤلاء ، فوجدنا القبائل العظام من عدنان ثلاثة ؛ وهم : تميم بن مر ، وعامر بن صعصعة ، وبكر بن وائل . ووجدنا قبائل اليمن العظام ثلاثة أيضاً وهي : الأزد بعد إسقاط الأنصار ، وملوكيهم من كندة ولخم وغسان ، وحمير بعد إسقاط ملوكيهم ، ومذحج فتعارض كل قبيلة من هذه قبيلة من تلك ... فتعارض كل قبيلة بنتظيرها يظهر الbon حيث ذكرنا . الأولى : تميم للأزد ، بنو عامر لحمير ، بكر بن وائل لمذحج ) (٤) .

وإذا كان أبو سلمة البطل المخزومي رضي الله عنه قد واجه بنى أسد وفبن جموعهم ، وفيهم أبطال بنى أسد طليحة بن خويلد وأخوه . فبنو عامر لم يفكروا - عليه الصلاة والسلام - بمواجهةتهم .

٢ - ونعيد إلى الذكرة لقاء رسول الله ﷺ مع وفد هم في من قبل خمس سنين حين عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل ، كما وردت في السيرة لابن هشام :

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٣٥٣ / ٣ ، والسير النبوية لابن هشام ٣ / ٢٦٠ - ٢٦٣ ، وغازى الواقدي ١ / ٣٤٦ - ٣٥٠ . والإمام أحمد .

(٢) الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٦٧ .

(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٨٨ ، ٤٨٩ .

قال ابن إسحاق : ( وحدثني الزهرى : أنه أتى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله - عز وجل - وعرض عليهم نفسه . فقال له رجل منهم يقال له : بياحة بن فراس : والله لو أتىأخذت هذا الفتى من قريش لاكلت به العرب ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعتم على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال : « الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء » . قال : فقال له : أفتهدف نحومنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك . فأبوا عليه .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كانت أدركته السن ، حتى لا يقدر أن يوافى معهم المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم . فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا : جاءنا فتى من قريش ثم أحد بنى عبد المطلب يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه وتخرج به إلى بلادنا . قال : فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يابنى عامر هل لها من تلاف ، هل لذنابها من مطلب ، والذي نفس فلان بيده ، ما تقولوا إسماعيلى قط ، وإنها حلق ، فain رأيكم كان عنكم ) (١) .

هؤلاء بنو عامر طيبة زعامة وقيادة يرون أنفسهم أهلاً لذلك ، وكل ما كانوا ي يريدونه من رسول الله ﷺ أن يجعل الأمر لهم بعده ، وفي أشد لحظات الضعف وال الحاجة رفض رسول الله ﷺ ذلك العرض قائلاً : « الأمر لله يضعه حيث يشاء » .

ونزعة الصلف والاعتداء عندهم أصلية . ففي رواية الواقدى : أن رسول الله ﷺ لما قام عن بنى عامر وانصرف إلى راحلته ليركبها أتاه بياحة ورجلان معه فتخسوا به راحلته حتى سقط عنها فقامت امرأة منهم يقال : لها ضباعة بنت قرط وصاحت : يابنى عامر أيؤذى محمد وأتنا شاهدة . فقام إليهم غطيف وغطفان ابنا سهيل وعذرة بن عبد الله بن سلمة بن قشير فضربواهم حتى هزمواهم فقال رسول الله ﷺ : « اللهم بارك على هؤلاء ، والعن هؤلاء الآخرين » . فأسلم الذين بارك الله عليهم جميعاً ومات الذين لعن لهم كفار . وذكر الواقدى من حديث جهم بن أبي جهم : أن رسول الله ﷺ وقف على بنى عامر يدعوهم إلى الله ، فقام رجل منهم فقال له : عجبًا لك والله أعياك قومك ، ثم أعياك أحياء العرب كلها حتى تأتينا وتردد علينا مرة بعد مرة : والله لا جعلتك حديثاً لأهل الموسم . ونهض إلى رسول الله ﷺ وكان جالساً فكسر الله - عز وجل - ساقه ، فجعل يصبح من رجله ، وانصرف رسول الله ﷺ عنه (٢) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) الأكتاف ، في مغارى المصطفى للكلاغى الاندلسى ١ / ٤٠٤ .

وقد خاضوا حروباً عنيفة في الجاهلية ، وتمرسوا بالقتال وفنونه ، وبرزت منهم قيادات ضخمة أشهرها أبو براء بن عامر بن مالك ملاعب الأستة ، وأبن أخيه عامر بن الطفيلي ، وجبار بن سلمي ، وغيرهم .

فخرجوا سائرين وخرج عامر وطفيل وعبيدة ومعاوية وهم بنو أم البنين – وبنو مالك – وسلمي بن مالك وحنظلة بن عامر ابنا طفيل ولبيد بن ربيعة ، ونزلت بنو جعفر في ناحية أرض قشير ، ثم قصدوا إلى بنى أبي بكر يريدون مالك بن كعب بن عبيد ، فوجدوه يميح <sup>(١)</sup> ركيماً <sup>(٢)</sup> فتلوا حتى خرج منها ، فلما رأهم رحباً بهم ودعوا بلقحة <sup>(٣)</sup> ثم أمر حالياً فحلبها فقال : اسق سيد بنى عامر . فسقى عامر بن مالك – أبو براء – ثم قال : اسق سيد بن عامر فسقى بعده طفيلاً (والد عامر بن الطفيلي) ، ثم قال : اسق سيد بنى عامر فسقى معاوية <sup>(٤)</sup> . وكان ثلاثة إخوة انتهت إليه زعامة بنى عامر .

٣ - ومن خلال هذا الإيضاح ندلل إلى سرية بث معونة . فأبو البراء عامر بن مالك سيد بنى عامر وسيد أهل الوبر هو الذي قدم المدينة ، كما روى ابن إسحاق يريد أن يفتح صفحة مع رسول الله ﷺ بعيدة عن المواجهة وال الحرب ، وكان قد تقدمت به السن وحذكت التجارب ، وأدرك مدى القوة والنفوذ لمحمد ﷺ في المدينة وهو أشبه ما يكون بشيخ بنى عامر الذي صاح عندما سمع بخبر محمد ﷺ : يابنى عامر هل لها من تلاف ، هل للذنابها من مطلب ، والذي نفسى بيده ما تقولها إسماعيلي فقط ، فain رأيككم كان عنكم . ولعل أثر هذا الموقف حداً بأبي البراء ملاعب الأستة أن يمضى بنفسه إلى محمد ﷺ ، ويختبر دعوته وقوته .

(١) قدم عامر بن مالك بن جعفر أبو براء ملاعب الأستة <sup>(٥)</sup> العامری على رسول الله ﷺ فأهدى إليه فرسين وراحلتين . فقال رسول الله ﷺ : لا أقبل هدية من مشرك <sup>(٦)</sup> ، وفي رواية : « إنني نهيت عن زيد المشركين » ، وعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فلم يسلم ولم يبعد وقال : يا محمد : إنني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً وقومي خلفي ، فلو أنك بعثت معى نفراً من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك ، فإنهم إن اتبعوك بما

(١) الميع : أن تدخل البئر فتملا الدلو لقلة مائها .

(٢) الركي : البئر .

(٣) أيام العرب بجاذب المولى بك وزملائه ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٤) لقبه بذلك درار بن عمر القيس وهو يحاربه في يوم السور ، وهو يوم من أيام العرب بين تميم وخبة . فقال درار : ما هذا إلا ملاعب الأستة ؟ وذلك لطعن عامر ولدي دراراً . ثم غلت عليه .

انظر : الإصابة لابن حجر م / ج ٤ ص ١٧ .

أعز أمرك . فقال رسول الله ﷺ : « إني أخاف عليهم أهل نجد » . فقال عامر : لاتخاف إني لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد ) .

وكان ذلك المدخل عن بنى عامر فى غاية الأهمية لندرك سر حرص رسول الله ﷺ على هداية بنى عامر ، وهذا سيدهم هو الذى يطلب الدعاة لقومه . فدخول بنى عامر ابن صعصعة فى الإسلام يعتبر من أكبر الأحداث فى الأرض العربية ، ويعتبر نقطة تحول كبرى فى تاريخ الإسلام خاصة بعد محنـة أحد ، ولكن خشية رسول الله ﷺ من مجاهيل الأعراب والبادية ، وغدر الأعراب لم يخفها أمام سيد بنى عامر ، فكان جواب أبي براء حاسماً : لاتخاف إني لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد .

ومن يجرؤ على أن يخفر ذمة أبي براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وقانون الإجارة فى قبائل العرب قانون يدين به العرب جميعاً ، ولعل من مصلحة الإسلام الآيعلن أبو البراء إسلامه أو أن يسلم ؛ لأن القانون يخرق آنذاك ولا يعتد به ، وكما تقول الرواية :

فلم يسلم ولم يبعـد وقال : يا محمد ، إنى أرى أمرك هذا حسناً شريفاً وقومى خلفـى ، إـن صورة أبي طالب سيد بنـى هاشم - تتجسد من جديد - الذى تبني دعـوة رسول الله ﷺ ووراءـه الحزب الهاشمى مستعدـلـلـموت عن آخرـ فـردـ فيـ لـحـماـيـةـ المصـطـفىـ ، إـنـ الذـىـ أـرـادـهـ رسـولـ اللهـ ﷺـ مـنـ بـنـىـ عـامـرـ فـىـ مـنـىـ قـبـلـ سـبـعـ سـنـينـ ، إـنـهـ الآـنـ يـتـحـقـقـ عـلـىـ يـدـ سـيدـ بـنـىـ عـامـرـ الذـىـ يـقـولـ :

( فلو أـنـكـ بـعـثـتـ مـعـيـ نـفـرـاـ مـنـ أـصـحـابـكـ لـرـجـوتـ أـنـ يـتـبعـواـ أـمـرـكـ فـإـنـهـمـ إـنـ اـتـبـعـوكـ فـمـاـ أـعـزـ أـمـرـكـ ) . وـصـدـقـ أـبـوـ البرـاءـ . فـلوـ اـتـبـعـتـ بـنـوـ عـامـرـ إـلـاـسـلامـ ، فـمـاـ أـعـزـ إـلـاـسـلامـ فـىـ جـزـيرـةـ الـعـربـ .

٤ - ولأهمية الأمر وخطورته ، اختار له رسول الله ﷺ قرة عينه من أصحابه ، واختار سبعين منهم لهذه المهمة الخطيرة ، ونأتى على وصف هذه المجموعة العظيمة . ففى رواية البخارى : ( فبعث إليهم سبعين رجلاً من الانصار يقال لهم : القراء ) . فمن هؤلاء القراء ؟ نجد وصفهم فى رواية أخرى : . . . سبعون رجلاً شيبة يسمون القراء ، كانوا إذا أمسوا أتوا ناحية من المدينة إلى معلم لهم فتدارسوا القرآن وصلوا ، حتى إذا كان وجه الصبح استعملوا من الماء وحطموا من الخطب فجاوزوا به إلى حجر أزواج رسول الله ﷺ ، وفي رواية : يحتطبون فيسيعونه ويشرتون به الطعام لأهل الصفة والقراء ، وفي رواية : ومن كان عنده سعة اجتمعوا واشتروا الشاة فأصلحوها فتصبح ذلك معلقاً بحجر أزواج رسول الله ﷺ ، فكان أهلهم يظنون أنهم فى المسجد ،

وكان أهل المسجد يظنون أنهم في أهليهم .

إنهم من خيار هذه الأمة، ومن الجيل الجديد الذي تربى بالقرآن ، ويرحىق النبوة ، فرَّغ نفسه لطاعة الله ورسوله ، فليلهم علم وعبادة ، إنهم أحلاس الليل ورهبانه يتعلمون القرآن ويصلون به يناجون ربهم جل شأنه، وفي النهار تكفلوا بمسؤولية الضيافة النبوية . مسؤولية الدولة في إطعام الفقراء ، فيستعذبون الماء ، ويحتطبون ويشترون الطعام لله ، ولمرضاته ، لا يؤويهم سقف ، ولا يطمئنون لأهل ، فنهارهم جد وجهد وكفاح ، ليسدوا ثغرة الدولة و حاجتها لأخوانهم الفقراء وأهل الصفة ، وليلهم جلسات الله تعالى مع كتابه ، وعبادته .

هذه هي سمة الجيل الجديد الذي يربيه - عليه الصلة والسلام - ويدخره للدعوة ، ويعده لحمل الإسلام إلى كل صدق ، فلما لاحت بارقة بنى عامر ، وحاجتهم إلى الدعاة ، كان هذا المدخول عنده ، وكان هذا الكتز بين يديه ، فوجهم جميعاً للدعوة إلى الله في الصحراء المترامية الأطراف ، وقد تمرسوا بالعمل والكفاح ، وتدرسوا حياة الخشونة والعمل ، فهم يحتطبون وبيعون ، ويستعذبون الماء ، وهم الجيل المثقف الذي عمر قلبه بالقرآن ، وعاش فيه وله . مع الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ أضاف إليهم عدداً من الشخصيات القيادية ؛ لتكون معهم في هذه المهمة الضخمة الدعوية .

إننا أمام خط تربوي جديد في المنهج التربوي للسنة النبوية ، هذا الخط هو : تربية الدعاة على الجهاد وعلى الكفاح وإرسالهم في مهمات دعوية خالصة ، ليتمثل بهم الإسلام ، ويكونون القدوة الحية المتحركة في المجتمع ، إنهم رجال النظام الخاص عند رسول الله ﷺ ، وقد رأينا الطراز الرفيع لسرية الرجيع ، وها نحن نرى هذا الطراز الرفيع كذلك .

يدلنا على هذا الدمج بين الشباب والقيادات الكبرى ما ذكره الصالحي في تعليق الخلاف بين السبعين والأربعين في الروايات الواردة عنهم نقاً عن الحافظ ابن حجر .

( الثاني ) : في الصحيح أن القراء كانوا سبعين رجلاً ، وعند ابن إسحاق أربعين . قال الحافظ : وهم من قال : إنهم ثلاثون ، وما في الصحيح هو الصحيح . ويمكن الجمع بأن الأربعين كانوا رؤساء ، وبقيمة العدة كانوا أتباعاً ، وجرى على ذلك في الغرر ) (١) .

وسنرى ونحن نستعرض الأسماء التي ذكرت منهم فيما بعد هذه النماذج القيادية

(1) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ١٠٢/٦ ، ١٠٣ .

التي أطلق الحافظ عليها لفظ الرؤساء . ويكتفى أن نعلم أن على رأسهم المنذر بن عمرو الساعدي الشخص الثاني في الخزرج بعد سعد بن عبادة ؛ إذ كان كلاهما سعد والمنذر نقباء بني ساعدة من الخزرج ليلة العقبة ، ونذكر أن المنذر بن عمرو هو الذي أعجز فريشاً هرباً يوم كشفت البيعة ، وأسر سعد بن عبادة ، وقال شاعرهم يتحسر على ما فاته من إدراك المنذر بن عمرو :

تدرافت سعداً عنوة فأخذته  
وكان شفاء لو تداركت منذراً  
ولسو نلت طلت هناك جراحه  
وكان حرباً أن يهان ويهدراً (١)

٥ - وحيث ألقينا الضوء على سيد بني عامر - أبي البراء - فلا بد من إلقاء الضوء على عامر بن الطفيلي بن مالك - وهو ابن أخي أبي البراء - وكان ينادى عمه الزعامة والشرف في بني عامر وكان ( من أشهر فرسان العرب بأساً ومجدة ) ، وأبعدها إسمًا وشهرة ، أدرك الإسلام ولكنه لم يسلم ، ولما مات نصبت له بنو عامر أنصاباً ميلاً في ميل حمى على قبره ، لا تنشر فيه راعية ، ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماشي ، وله وقائع مشهورة في مذجع وخشم وغطفان ) (٢) .

وحين كان عمه قد هوى الإسلام ولم يسلم ، أما هو فلا يزال عبد الزعامة والشهرة ، وكما يروى البخاري في صحيحه عن مقدمه على رسول الله ﷺ يريد أن يتقاسم معه زعامة العرب : ( وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيلي خير بين ثلاث خصال فقال : يكون لك أهل السهل ولـى أهل المدر ، أو أكون خليفتـك ، أو أغزوـك بأهل غطفـان بـألف وـألف ... ) (٣) .

ويفسـر لنا الحافظ ابن حجر هذا النص ، فـمـا يـقولـهـ فـيهـ : ( وكان رئيس المـشـركـينـ عامـرـ بنـ الطـفـيلـ ) أيـ : ابنـ مـالـكـ بنـ جـعـفـرـ بنـ كـلـابـ وـهـوـ اـبـنـ أـخـيـ أـبـيـ بـرـاءـ عـامـرـ بنـ مـالـكـ ، وـقـوـلـهـ : ( خـيـرـ ) بـفتحـ أـوـلـهـ وـحـذـفـ المـفـعـولـ أيـ : خـيـرـ النـبـيـ ﷺـ ، وـبـيـنـ الـبـيـهـقـيـ فـيـ الدـلـائـلـ مـنـ روـاـيـةـ عـشـمـانـ بنـ سـعـيدـ عـنـ مـوسـىـ بنـ إـسـمـاعـيلـ شـيـخـ الـبـخـارـيـ فـيـ وـلـفـظـهـ : وـكـانـ أـتـىـ النـبـيـ ﷺـ فـقـالـ لـهـ : أـخـيـرـكـ بـيـنـ ثـلـاثـ خـصـالـ ، فـذـكـرـ الـحـدـيـثـ . قـوـلـهـ : ( بـأـلـفـ وـأـلـفـ ) ، فـيـ روـاـيـةـ عـشـمـانـ بنـ سـعـيدـ : بـأـلـفـ أـشـقـرـ وـأـلـفـ شـقـراءـ (٤) ... وـبـيـنـ الـطـبـرـانـيـ قـدـومـ عـامـرـ بنـ الطـفـيلـ عـلـىـ النـبـيـ ﷺـ : وـأـنـ قـالـ فـيـهـ : لـأـغـزوـنـكـ بـأـلـفـ أـشـقـرـ وـأـلـفـ شـقـراءـ . وـأـنـ النـبـيـ ﷺـ أـرـسـلـ أـصـحـابـ بـثـرـ مـعـونـةـ بـعـدـ عـامـرـ ، وـأـنـ غـدـرـ بـهـ

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٠٥ / ٢ . (٢) أيام العرب بجـادـ المـولـيـ بـكـ وـزـملـاهـ ٢٧٨ .

(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٢٨٦ / ٩١ ( ٤٠٩١ ) .

(٤) ألف أشقر وألف شقراء : كتابة عن الحيل .

وأخفر ذمة عمه أبي براء ، وأن النبي ﷺ دعا عليه فقال : « اللهم اكفى عامراً » (١) .  
فإذن نحن أمام جو متواتر في المدينة بين بنى عامر ، وال المسلمين من خلال قدوم  
عامر بن الطفيلي الذي جاء إلى رسول الله ﷺ ، وعرض زعامة الصحراء له وزعامة  
المدينة لرسول الله ﷺ ، وعرض كذلك أن يكون الخليفة في الزعامة العربية بعد رسول  
الله ﷺ ، كما عرض قومه قبل سبع سنين (رأيت إن نحن منعناك أيكون لنا الأمر من  
بعدك ؟ ) فبني عامر بن صعصعة لا يقررون بالزعامة لأحد ، ورفض رسول الله ﷺ عروض  
عامر ، فهدى عندها بغزو المدينة بألف فارس وألف فرس شراء ، ولكن الغريب  
في العرض والتهديد هو أن يغزو بعطفان وهو من سيد بنى عامر ، لكنه يعلم أن سيادة  
عمه تحول دون ذلك ، ولعله كان من عمه بمثابة أبي لهب من أبي طالب ، فقد غنى  
الحقد قلبه حين رفض رسول الله ﷺ مساومته ، وأراد أن يغزو المدينة لكن قومه لن  
يستجيبوا له بوجود عمه أبي البراء الذي صادق محمداً ﷺ ، وأرسل له الهدايا ، ثم  
كان أن زار بشخصه المدينة بعد زيارة ابن أخيه ، ودعا رسول الله ﷺ لإرسال الدعاة  
الهداة إلى قومه ، وأعلن إجارته لهؤلاء الدعاة في فيافي نجد وقارها .

٦ - وكان أن مضى حرام بن ملحان بخطاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيلي ،  
لتبدأ مهمه الدعاة في مضارب بنى عامر ، وقد عامر بن الطفيلي صوابه ، وقد قيمه  
وتحدى جوار عمه أبي البراء لهؤلاء الدعاة ، وقام بالمجزرة الأولى بقتل حرام بن ملحان  
غدرًا وغية وهو يقرأ كتاب رسول الله ﷺ . (في بينما هو يحدثهم إذا أموموا إلى رجل  
منهم فأتى من خلفه فطعنه فأنفعنه ) فقال : (الله أكبر ، فرت ورب الكعبة ) ثم قال بالدم  
مكذا فتضنه على وجهه .

وطالما أن عامراً قد تورط وأخفر ذمة عمه . فليتابع غدرته . فاستصرخ عامر بن  
الطفيلي عليهم بنى عامر فابوا أن يجبيوه إلى ما دعاهم وقالوا: لن نخفر جوار أبي براء ،  
وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا ، فلما أبى بنو عامر أن تنفر مع عامر بن الطفيلي استصرخ  
عليهم قبائل من بنى سليم عصبة ورغل وذكوران ، وزيغ فنفروا معه ورأسوه عليهم ،  
فقال عامر بن الطفيلي: أحلف بالله ما أقبل هذا وحده ، فاتبعوا أثره حتى وجدوا القوم ،  
فاحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأهم المسلمين أخذوا سيفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا  
عن آخرهم .

ونفذ عامر بن الطفيلي مجزرته الكبرى بسبعين من الأنصار هم من زهرة الأنصار  
وخيرتهم ، ولم تجف بعد دماء السبعين في أحد ، فيبين المحتين أقل من أربعة أشهر .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧ / ٣٨٧ .

ولابد أن نشير أن سليم ، هي من أقرب القبائل لبني عامر بن صعصعة ، فعامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ، وسليم بن منصور بن عكرمة ، وفروع سليم التي أجرمت بحق أصحاب رسول الله ﷺ هي :

أ- بنو عصبة بن خفاف بن امرئ القيس بن بهة بن سليم .

ب- بنو رعل بن مالك بن عوف بن مالك بن امرئ القيس بن بهة بن سليم .

ج- وبنو ذكوان بن رفاعة بن الحارث بن بهة بن سليم ، ولبني سليم حروب وثارات ، فلا تنسى صخراً ومعاوية أخوى الخنساء والحروب التي خاضها وهما من بنى عصبة من سليم ، لقد كنَّ عامر بن الطفيلي بخطفان ، واستمد سليم ، وخاته عامر فلم تخفر ذمة سيدها أبي البراء .

٧ - وهذا سيد المسلمين من الانصار في بشر معونة وقائد السرية يعرض عليهم الأمان فيرفض ، فقالوا له : إن شئت أمناك . فقال : لن أعطى بيدي ولن أقبل لكم أماناً حتى آتني مقتل حرام ثم برئ من جواركم ، فامتهنوه حتى آتني مصع حرام ، ثم برئوا إليه من جوارهم ثم قاتلهم حتى قتل ، وذاك عامر بن فهيرة سيد المهاجرين في بشر معونة ، والذى دعا إلى الله تعالى بدمه وجسده بدل أن يدعو بسانه حتى أسلم قاتله .

فروى البيهقي عن جبار بن سلمي بن مالك ( ابن عم عامر بن الطفيلي بن مالك ) أنه قال لما طعنته : فزت وربَّ الكعبة ، قلت في قلبي : ما معنى قوله : فُزْتَ . أليس قد قتلت؟ قال: فأتيت الصحاك بن سفيان الكلابي فأخبرته بما كان وسألته عن قوله: فزت . فقال : في الجنة . فقلت : فاز لعمرو الله قال: وعرض على الإسلام فأسلمت ، ودعاني إلى الإسلام ما رأيت من مقتل عامر بن فهيرة ومن رفعه إلى السماء علوًّا . وكما قال عنه ﷺ : « إن الملائكة وارت جُسْته وأنزل علينا ». .

وهذا الحارث بن الصمة ( أو المنذر بن محمد ) وقد نجا من القتل ؛ إذ كان مع عمرو بن أمية الضمرى في رعاية ظهرهم بعيداً عن الخطر . قال : ما كنت لأنتحر عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لتخبرني عنه الرجال ، فأقبلنا فلقينا القوم فقاتلهم الحارث حتى قتل منهم اثنين ، ثم أخذوه فأسروه وأسروا عمرو بن أمية ، وقالوا للحارث : ما تحب أن نصنع بك؟ فإننا لانحب قتلك؟ قال : أبلغونى مصرع المنذر بن عمرو وحرام بن ملحان ، ثم برئت من ذمتك . قالوا : نفعل . فبلغوا به ثم أرسلوه فقاتلهم ، فقتل منهم اثنين ثم قُتِلَ وما قُتِلَ حتى شرعوا له الرماح فنظموه فيها .

ولا غرو أن يفعل الحارث بن الصمة ذلك ، فيقتل أربعة من المشركين ، فهو من الأبطال المعدودين في أحد ، الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بذلك . فقد روى الحاكم

بسند صحيح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : جاء على يوم أحد بسيفه وقد انحنى ، فقال لفاطمة : هاك السيف حميداً فإنه قد شفاني اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « لئن أجدت الضرب بسيفك لقد أجاد سهل بن حنيف ، وأبو دجانة ، وعاصم بن ثابت ، والحارث بن الصمة » (١) .

٨ - ولئن رأينا خبيباً رسول الله يستأسر في سرية الرجيع فيصنع الكرامات والمعجزات بإمساره ، فها نحن نرى عمرو بن أمية الضميري يستأسر ، وهو الأسد المهزوز ، ( وأخبرهم عمرو بن أمية وهو أسير في أيديهم إنه من مضر ولم يقاتل ) ، فقال عامر ابن الطفيلي : إنه قد كان على أمي نسمة فأنت حر عنها ، وجز ناصيته .

ها هو عمرو يحدثنا عن أعماق الفاتح المجرم عامر بن الطفيلي ، والذى أدهله ما رأى من عامر بن فهيرة ، فعن عروة أن عامر بن الطفيلي قال لعمرو بن أمية : هل تعرف أصحابك ؟ قال : نعم ، قال : فطاف في القتل وجعل يسأله عن أنسابهم فقال : هل تفقد منهم أحداً ؟ قال : أفقد مولى لأبي بكر يقال له : عامر بن فهيرة . فقال : كيف كان فيكم ؟ قلت : كان من أفضلنا ومن أول أصحاب نبينا . فقال : ألا أخبرك خبره ؟ وأشار إلى رجل فقال : هذا طعنه برمحة ثم انتزع رمحه فلَهُبَ بالرجل علواً في السماء حتى والله ما أراه .

وهو الذي مضى بخبر مصاب القوم إلى المدينة ، فاقبل عمرو بن أمية حتى قدم على النبي ﷺ سار على رجليه أربعين . فلما كان بتصور قتلة لقى رجلين من كلاب قد كانوا قدما على رسول الله ﷺ فكساهما ولهمانه أمان ، ولم يعلم بذلك عمرو ، فقابلهما فلما ناما وثبت عليهما فقتلهم للذى أصابت بنو عامر من أصحاب بثر معونة ، ثم قدم على النبي ﷺ فأخبره بقتل أصحاب بثر معونة ، فقال : أنت من بينهم ، وأخبر عمرو النبي ﷺ بمقتل العامريين فقال : « بش ما صنعت قتلت رجلين كان لهم مني أمان وجوار لأدينهما » ، فكتب إليه عامر بن الطفيلي وبعث نفرًا من أصحابه يخبره : إن رجلاً من أصحابك قتل رجلين من أصحابي ولهمانه أمان وجوار فأخرج رسول الله ﷺ ديه ديهما ، دية حرين مسلمين فبعث بها إليهم .

ولنا عودة إلى البطل العظيم عمرو بن أمية عقب انتهاء الحديث عن بثر معونة .

٩ - وكان من بين القتلى عروة بن الصلت . فهو من بنى سليم وهو حليف للأنصار ، وقد حرص المشركون بعروة بن الصلت أن يؤمنوه فأبى ، وكان ذا خلعة بعامر ،

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢٤/٣ .

مع أن قومه من بني سليم حرصوا على ذلك فأبى وقال : لا أقبل لكم أماناً ولا أرحب ببنفسى عن مصرع أصحابي .

إنها النماذج الفردية كل فرد بعينه ربه رسول الله ﷺ ، لم يخضع أحد منهم لرابطة دم كما رأينا من عروة بن الصلت ، أو يأخذ بريق الدنيا والحياة بقلبه ، كما رأينا المنذر بن عمرو والحارث بن الصمة ، ولم يتراجع أو ينكمل واحد من السبعين إذ أقصوا جميعاً شهداء ، رفعوا راية الإسلام بدمائهم الذكية ، وعرف العرب أنهم يقاتلون قوماً لا عهد لهم بقتالهم ، فلا يعرفون الفرار أو يعرفون الخوف ، بل رأوا ما أذهل قلوبهم ، ورأوهم يهتفون حين يشرع الرمح فيهم ، وحين تقطر الدماء من أجسادهم يقولون : فرتُ رب الكعبة . وهؤلاء المقاتلون لهم يرون هذه النماذج ، لاشك أن الإيمان يغزو قلوبهم فيقاوموه ، ثم يغزوه فيقاوموه أمام ضغط القرابة ، وضغط قيم القبيلة إلى أن يأتي الوقت الذي يهزم هذه القيم . فيستجيبون لداعي الهدى ، وينضمون إلى ركب الإيمان .

١٠ - وتنكفل الله تعالى بإخبار نبيه بمحنتي الرجيع وبئر معونة بعد أن عقد الآمال العظام على هاتين السرتين ، وذلك في ليلة واحدة من أواخر صفر ، ( فلما جاء رسول الله ﷺ خبر بئر معونة ، جاء معها في ليلة واحدة مصابهم ومصاب مرثد بن أبي مرثد . فجعل رسول الله ﷺ يقول : « هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارها » ، ودعا رسول الله ﷺ على قتلتهم بعد الركعة من الصبح ، في صبح تلك الليلة التي جاءه الخبر فلما قال : سمع الله لمن حمده ، قال : « اللهم اشدد وطأتك على مصر ، اللهم عليك ببني لحيان - الذين غدروا بسرية الرجيع - وزعب ورغل وذكوان وعصبة ، فإنهم عصوا الله ورسوله ، اللهم عليك ببني لحيان وغضيل والقارة ، اللهم انج الوليد ابن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين ، غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله » ، ثم سجد . فقال ذلك خمس عشرة ، ويقال : أربعين يوماً حتى نزلت هذه الآية : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١) ولم يجد (٢) رسول الله ﷺ على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة ، وكان أنس بن مالك يقول : أنزل الله فيهم قرآنآنا قرآنآه حتى نسخ (بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه) (٣) .

(١) آل عمران / ١٢٨ .

(٢) يجد : من الوجود والالم والأس .

(٣) المغازى للواقدى / ١ / ٣٥٠ وهي في الصحيح .

لقد جاءت أخبار المحتين بدماء الشهداء الذكية في أواخر صفر بعد انتصارات المحرر العظيمة . ليبدأ رسول الله ﷺ جولة جديدة يواجه فيها آثار هاتين المحتين ، وفي الوقت الذي كان يعاني فيه أعظم الآلام على فقدان مائة وخمسين من أصحابه خلال أقل من أربعة أشهر ، فإن هذا لم يمنع أبداً من متابعة خوض المعركة مع العدو في كل جانب ، ولم يمنعه من جهة ثانية غدر عامر بن الطفيلي ، من قبول الغدر بالعامريين اللذين قتلهم عمرو ، بل سارع فدفع ديتهم كدية حرين مسلمين ، كما لم يدفعه ﷺ ما رأى من غدر عامر بن الطفيلي أن يتهم أبو براء بالغدر ، حتى أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يدع علىبني عامر . إنما دعا على قبائل سليم الغادرة وقال عنبني عامر: « اللهم اهدبني عامر واطلب خفترتي من عامر بن الطفيلي » .

إن الرحمة المهدأة ، وإنه رسول البشرية كافة ، وإن الرحمة للعالمين جميعاً . فلا يمكن أن يؤخذ إنسان بجريرة آخر في شريعة الله - عز وجل - وحين نفت رسول الله ﷺ عن روعه ، ونفّس عن كربله - وهو الرسول البشر - لما ألمَّ بصحبه أربعين صباحاً . جاءه جبريل - عليه الصلاة والسلام - ليقول له : إن هذه القبائل قد يتوب الله عليها ، ولا بد أن تناول منه الرحمة ، رغم ما عصته به الله ورسوله .

جاء القرآن الكريم ليقول له : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ » (١) .

١١ - ولم يمر غدر عامر بن الطفيلي بدون ثمن ، فقد كان أبو براء يحرص على صداقه محمد ﷺ ، ويحرص على وده ، لكن تقدم السن به حالت دون تحقيق أهدافه . أقبل أبو براء سائراً وهو شيخ كبير هم<sup>(٢)</sup> ، فبعث من العيص (٣) ابن أخيه ليبدِّل ابن ربيعة - الشاعر - بهدية ، فرده النبي ﷺ وقال: « لا أقبل هدية مشرك » فقال ليبدِّل ما كنت أظن أن أحداً من مضر يريد هدية أبي براء . فقال النبي ﷺ: « لو قبلت هدية مشرك لقبلت هدية أبي براء » قال : فإنه بعث يستشفيك من وجعه ، وكانت به الدبالة (٤) ، فتناول النبي ﷺ جبوبة (٥) من الأرض فتنقل فيها ثم ناوله وقال : « دفها بماء ثم اسقها إياه » ففعل فبرئ . ويقال : إنه بعث إليه بعكة (٦) عسل فلم ينزل يلعقها حتى برئ ، فكان أبو براء يومئذ سائراً في قومه يريد أرض بلى ، فمر بالعصي فبعث

(١) آل عمران / ١٢٨ .

(٢) العيص : وادٌ جبئنة بين المدينة والبحر .

(٣) الدبالة : داء في الجوف .

(٤) جبوبة : ما نبت على ظهر الأرض .

(٥) العكة : وعاء من جلد مستدير يختص بالسمن والعسل .

ابنه ربيعة مع ليد يحملان طعاماً فقال رسول الله ﷺ لربيعة : « ما فعلت ذمة أبيك ؟ » قال ربيعة : نقضتها ضربة بسيف أو طعن برمي ! فقال رسول الله ﷺ : « نعم » .

فخرج ابن أبي براء فخبر أباه ، فشقّ عليه ما فعل عامر بن الطفيلي ، وما صنع بأصحاب النبي ﷺ ولا حركة به من الكبّر والضعف فقال : أخضرنى ابن أخي من بينبني عامر ، وسار حتى كانوا على ماءٍ من مياه بلى يقال لها : الهدم . فيركب ربيعة فرساً له ويلحق عامراً وهو على جملٍ له فطعنه بالرمي فأخطأ مقاتله ، وتصايح الناس . فقال عامر بن الطفيلي : إنها لم تضرني ! إنها لم تضرني ، وقال : قُضيت ذمة أبي براء ، وقال عامر بن الطفيلي : قد عفوت عن عمي ، هذا فعله !

وعند ابن هشام : فحمل ربيعة بن عامر بن مالك على عامر بن الطفيلي فطعنه بالرمي فوق فخذنه فأشوأه <sup>(١)</sup> ، ووقع عن فرسه ، فقال : هذا عمل أبي براء ، إن أمت فدمي لعمى فلا يتبعنَّ به ، وإن أعش فساري رأى فيما أتى إلى <sup>(٢)</sup> .

١٢ - ولابد لنا من وقفة أخيرة مع شهداء بشر معونة ، أولئك القراء من خيرة صحاب محمد ﷺ الذين ذهبوا ضحية الغدر عند الأعراب من قبائل سليم . كان بين الشهداء ثلاثة من قريش ، وعلى رأسهم :

عامر بن فهيرة <sup>رض</sup> : الذي أخذت الملائكة جنته ، ووارته في عليين ، وتساءل عن عظمة عامر بن فهيرة وفضلة من أين جاءته ، ولا يعنينا الجواب . فهو مولى الصديق <sup>رض</sup> لكنه فاز بصحبة المصطفى <sup>ص</sup> أيامًا متالية وكان وحده مع الصديق <sup>رض</sup> وهو في طريق الهجرة إلى المدينة ، وإذا ذكر فضل الصديق بالقرآن : « ثانٍ آثْيَنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » <sup>(٣)</sup> وبعد أن غادر الرسول <sup>ص</sup> وصاحب الغار انضم عامر إليهم حتى وصل ثلاثتهم المدينة ، فقد اختلف من هذا الكثر في لحظات الوحدة والصفاء هذه ، ما جعل نظرة السبعين إليه أنه أفضليهم .

الحكم بن كيسان : وهو الذي أسر في غزوة عبد الله بن جحشن في شعبان قبل بدر . وعوضًا عن أن يلتحق بالشركين التحق بالإسلام ، وشرح الله صدره له ، ثم أكرمه الله تعالى بالشهادة في بشر معونة وهو حليف لبني مخزوم .

نافع بن بدليل بن ورقاء : وهو ابن سيد خزاعة . كان قديم الإسلام من الرعيل الأول ، ورثاه عبد الله بن رواحة بقوله :

(١) أشواه : لم يصب مقتله .

(٢) السيرة النبوية لأبن هشام ٣ / ٢٦٥ .

(٣) التوبية / ٤٠ .

رحم الله نافع بن بديل      رحمة المبتغى ثواب الجهاد  
صابراً صادق الحديث إذا ما      أكثر القوم قال قول السداد

هؤلاء الثلاثة من المهاجرين ، أما الأنصار : فقد اكتفت المصادر بذكر القيادات أو الرؤساء منهم كما عبر الحافظ ابن حجر عن ذلك ، والأسماء التي تبرز بين يدينا من الآن ، هي الأسماء ذات الطاقات العالية ، والشخصيات القيادية ، فكل من ذكرته المصادر من السبعين قرابة خمس وعشرين ذكروا المهاجرين الثلاثة منهم ، ونعرض الباقين من أنصار الله ورسوله .

**البدريون** : وهم اثنى عشر : المنذر بن محمد بن عقبة ، والحارث بن الصمة ، وأبي بن معاذ ، وأنس بن معاذ ، وعامر بن فهيرة ، وحرام بن ملحان ، وسليم بن ملحان ، والمنذر بن عمرو ، ومعاذ بن ماعض ، وعائذ بن ماعض ، ومسعود بن سعد ابن قيس - أبو شيخ بن ثابت - ويقى اثنان أحباء هما عمرو بن أمية ، وكعب بن زيد .  
**الأحديون** : اثنان وهم : سفيان بن حاطب بن أمية ، وسعد بن عمرو بن ثقف .

فالنصف من الخمس والعشرين قُدّر لهم أن يكونوا في الصف الأول الجهادي .  
والنصف الثاني لأنعرف عنهم إلا أنهم استشهدوا ببشر معونة وهم : ١٥- عمرو بن محسن ، ١٦- سفيان بن ثابت ، ١٧- عروة بن أسماء بن الصلت ، ١٨- قطبة بن عبد عمرو ، ١٩- خالد بن ثابت بن التعمان ، ٢٠- الطفيلي بن سعد بن عمرو ، ٢١- سهل ابن عامر بن سعد ، ٢٢- عبد الله بن قيس بن صرمة ، ٢٣- نافع بن بديل بن ورقاء ، ٢٤- الحكم بن كيسان ، وبقيت بقية الأسماء تسرح في أبهاء الجنة عند ربها سبحانه ولا يضيرها إلا نعرف عنها إلا الشهادة ، فشهادة الله تعالى لها فيما قرئ ونسخ كما في الصحيح : (بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا) .

## ربيع الأول ولمخرج بنى النضير

قال الحافظ ابن حجر في الفتح : وروى ابن مردوه قصة بنى النضير بأسناد صحيح إلى معاشر عن الزهرى : أخبرنى عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبي وغيره من بعد الأوئل قبل بدر يهددونهم باليهود النبي وأصحابه ، وتوعدوهم أن يغزوهם بجميع العرب ، فهم ابن أبي ومن معه بقتال المسلمين ، فأتاهم النبي ﷺ فقال : « ما كادكم أحد بمثل ما كادتم قريش يريدون أن تلقوا بأسمكم » فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فتفرقوا ، فلما كانت وقعة بدر كتب كفار قريش بعدها إلى اليهود إنكم أهل الحلقة والمحصون ، يتهددونهم . فاجتمع بنو النضير على الغدر ، فأرسلوا إلى النبي ﷺ : أخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك يلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتبعناك . ففعل ، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر ، فأرسلت امرأة من بنى النضير إلى أخي لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بنى النضير ، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم ، فرجع ، وصبهم بالكتائب فحاصروا يومه ، ثم غدا على بنى قريظة ، فحاصرتهم فعاددوه ، فانصرف عنهم إلى بنى النضير فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا السلاح ، فاحتملوا حتى أبواب بيوتهم ، فكانتوا يخربون بيوتهم بآيديهم فيهدمونها ، ويحملون ما يوافقهم من خشبها ، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام ، وكذا أخرجه عبد بن حميد في تفسيره عن عبد الرزاق ، وفي ذلك رد على ابن التين في زعمه أنه ليس في هذه القصة حديث بأسناد .

قلت : فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق أن سبب غزوة بنى النضير : طلبه ﷺ أن يعينوه في دية الرجلين ، لكن وافق ابن إسحاق جل أهل المغازي (١) ، وإذا ثبت أن سبب إجلاء بنى النضير ما ذكر من همهم بالغدر به ﷺ ، وهو إنما وقع عندما جاء إليهم ليستعين بهم في دية قتيلى عمرو بن أمية ، تعين ما قال ابن إسحاق ؛ لأن بشر معونة كانت بعد أحد بالاتفاق (٢) .

(١) أي : أن غزوة بنى النضير بعد أحد وليست بعد بدر كما هي في البخاري عن الزهرى عن عروة . أما رواية أبي الأسود عن عروة فهي بعد أحد .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧ / ٣٣١ ، ٣٣٢ .

وفي رواية أبي الأسود عن عروة قال : خرج رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه إلى بني النضير يستعينهم في عقل الكلابين ، وكانوا قد دسوا إلى قريش حين نزلوا بأحد لقتال رسول الله ﷺ وأصحابه ، فحضوه على القتال ودلوهم على العورة ، فلما كتمهم في عقل الكلابين ، قالوا : اجلس أبو القاسم حتى تطعم وترجع بحاجتك التي جئت لها - وتقوم - فنشاور ونصلح أمرنا فيما جئت له ، فجلس رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه إلى ظل جدار ينتظر أن يصلحوا أمرهم ، فلما دخلوا ومعهم الشيطان لا يفارقهم ، اتسروا بقتله وقالوا : لأنجدونه أقرب منه الساعة ، استريحوا منه ، تأمنوا في دياركم ويرفع عنكم البلاء ، قال رجل منهم : إن شتم رقيت على الجدار الذي هو تحته ، فدللت عليه حجراً فقتلته ، فأوحى الله - عز وجل - إليه ، فقام رسول الله ﷺ كأنه يريد أن يقضى حاجة ، وترك أصحابه مكانهم ، وأعداء الله في نحيمهم ، فلما فرغوا وقضوا حاجتهم ، وأمرهم في محمد ، أتوا فجلسوا مع أصحاب رسول الله ﷺ يتظرون ، فأقبل رجل من المدينة بعد أن رأى عليهم ، فسألوا عنه ، فقال : لقيته عامد المدينة قد دخل في أرقها ، فقالوا : عجل أبو القاسم أن نقيم أمرنا في حاجته التي جاء لها ، ثم قام أصحاب رسول الله ﷺ ونزل القرآن على رسول الله ﷺ بالذى أراده أعداء الله به فقال : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قومٌ أن يَسْطُوُا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَّ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ » (١) .

وأمر رسول الله ﷺ بإجلائهم ، لما أرادوا برسول الله ﷺ ، فلما أخذهم بأمر الله ، وأمرهم أن يخرجوا من ديارهم فيسروا حيث شاؤوا ، قالوا : أين تخرجنا ؟ قال : « إلى الحشر » (٢) .

فلما سمع المنافقون ما يراد بأخوانهم وأوليائهم من أهل الكتاب أرسلوا إليهم فقالوا لهم : إننا معكم محياناً ومماتنا إن قوتلتكم فلكم علينا النصر ، وإن خرجتم لنختلف عنكم ، وسيد اليهود أبو صفيه حبي بن أخطب ، فلما وثقوا بأمانى المنافقين عظمت غرائمهم ومنائهم الشيطان الظاهر ، فنادوا النبي ﷺ إنا والله لانخرج ولن قاتلنا لنقاتلنك ، فمضى النبي ﷺ لأمر الله تعالى ، فأخذوا السلاح ، ثم مضى إليهم ، وتحصنت اليهود في دورهم وحصونهم ، وحفظ الله - عز وجل - له أمره ، وعزم على رشه ، فأمر بالأدنى فالآدنى من دورهم أن تهدم ، وبالنخل أن تحرق وتنقطع ، وكفَ الله تعالى أيديهم وأيدي المنافقين ، فلم ينتصروهم ، وألقى الله - عز وجل - في قلوب الفريقين كلاماً الرعب ، ثم جعلت اليهود كلما خلص رسول الله ﷺ من هدم ما يلى مدينته ،

(١) المائدة / ١١ .

(٢) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير تحقيق د . محمد مصطفى الاعظمي ١٦٤ ، ١٦٥ .

القى الله - عز وجل - فى قلوبهم الرعب ، فهدموا الدور التى هم فيها من أدبارها ، ولم يستطيعوا أن يخرجوا على النبي وأصحابه يهدمون ما أتوا عليه الأول فالاول ، فلما كادت اليهود أن تبلغ آخر دورها ، وهم يتظرون المنافقين وما كانوا منوهم ، فلما يشوا ما عندهم سألا رسول الله ﷺ الذى كان عرض عليهم قبل ذلك فقضاهم رسول الله ﷺ على أن يجعلهم ولهم ما استقلت به الإبل من الذى كان لهم إلا ما كان من حلفة أو سلاح ، فطاروا كل مطير ، وذهبوا كل مذهب ، ولحق بـنـو أبـي الحـقـيق طـير معـهم آية كثيرة من فضـة قـد رـأـها النـبـى ﷺ وأصـحـابـه وـالـسـلـمـونـ حين خـرـجـواـ بهاـ ، وـعـمـدـ حـسـىـ ابنـ أـخـطـبـ حينـ قـدـمـ مـكـةـ عـلـىـ فـرـيـشـ فـاسـغـواـهـمـ عـلـىـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ وـاستـصـرـهـمـ ، وـبـيـنـ اللهـ - عـزـ وـجلـ - لـرسـوـلـ اللهـ ﷺـ حـدـيـثـ أـهـلـ النـفـاقـ وـمـاـ بـيـنـهـ وـمـاـ بـيـنـ الـيـهـودـ ، وـكـانـواـ قـدـ عـيـرـواـ الـسـلـمـيـنـ حينـ يـهـدـمـونـ الدـوـرـ وـيـقـطـعـونـ النـخـيلـ فـقـالـواـ :ـ ماـ ذـنـبـ شـجـرـةـ وـأـنـتـمـ تـزـعـمـونـ أـنـکـمـ مـصـلـحـوـنـ ؟ـ فـأـنـزـلـ اللهـ عـزـ وـجلـ :ـ «ـ سـبـحـ لـهـ مـاـ فـيـ السـمـوـاتـ وـمـاـ فـيـ الـأـرـضـ وـهـوـ الـغـيـرـ الـحـكـيمـ »ـ إـلـىـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ :ـ «ـ مـاـ قـطـعـتـ مـنـ لـيـنـةـ (١)ـ أـوـ تـرـكـمـوـهـاـ قـائـمـةـ عـلـىـ أـصـوـلـهـاـ فـيـإـذـنـ اللهـ وـلـيـخـرـىـ الـفـاسـقـيـنـ (٢)ـ »ـ ثـمـ جـعـلـهـ نـفـلـاـ لـرـسـوـلـ اللهـ ﷺـ وـلـمـ يـجـعـلـ فـيـهـ سـهـمـاـ لـاحـدـ غـيـرـهـ فـقـالـ :ـ «ـ وـمـاـ أـفـاءـ اللهـ عـلـىـ رـسـوـلـهـ مـنـهـ فـمـاـ أـوـجـفـتـهـ عـلـىـهـ مـنـ خـيـلـ وـلـأـ رـكـابـ وـلـكـنـ اللهـ يـسـلـطـ رـسـلـهـ عـلـىـ مـنـ يـشـاءـ وـالـلـهـ عـلـىـ كـلـ شـيـءـ قـدـيرـ (٣)ـ »ـ .ـ فـقـسـمـهـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ فـيـمـاـ أـرـأـهـ اللهـ - عـزـ وـجلـ - مـنـ الـمـاهـجـرـيـنـ الـأـوـلـيـنـ ،ـ وـأـعـطـىـ مـنـهـ الـأـنصـارـ رـجـلـيـنـ :ـ سـمـاـكـ بـنـ أـوـسـ بـنـ خـرـشـةـ -ـ وـهـوـ أـبـوـ دـجـانـةـ -ـ وـسـهـلـ بـنـ حـنـيفـ ،ـ وـأـعـطـىـ زـعـمـواـ -ـ سـعـدـ بـنـ مـعـاذـ سـيـفـ بـنـ أـبـيـ الـحـقـيقـ (٤)ـ .ـ

ونعرض صورتين متقابلتين على أعقاب الحديث عن بنى النضير تمثلان صورة المجتمع الإسلامي ، وصورة المجتمع اليهودي :

الأولى :

حدثني عمر عن الزهرى عن خارجة بن زيد عن أم العلاء (٥) قال :

صار (٦) لنا عثمان بن مطعمون في القرعة ، وكان في منزلنا حتى توفي ، وكان

(١) اللينة : النخلة .

(٢) المخثر / ٦ .

(٤) دلائل الشبه للبيهقي ٣/١٨٠-١٨٣ . و قال البيهقي بعدها : « هنا لفظ موسى بن عقبة ، وحديث ابن لهيعة يعنده إلى إعطاء سعد بن معاذ سيف بن أبي الحقيق » .

(٥) سند الواقدى المتصل بام العلاء - رضى الله عنها - جميعهم ثقات ومن رجال الصحيح .

(٦) الوارد في البخارى : طار بدل صار .

المهاجرون في دورهم وأموالهم ، فلما غنم رسول الله ﷺ بن النمير دعا ثابت بن قيس بن شماس فقال : « ادع لى قومك » قال ثابت : الخزرج يارسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : « الأنصار كلها » فدعا له الأوس والخزرج فتكلم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالهاجرين ، وإنزالهم إياهم في منازلهم ، وأثربتهم على أنفسهم ثم قال : « إن أحبيتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله على من بنى النمير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكْنَى في مساكنكم وأموالكم ، وإن أحبيتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » ، فتكلم سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ فقالا : يارسول الله ، بل نقسمه للمهاجرين ، ويكونون في دورنا كما كانوا ، ونادت الأنصار : رضينا وسلمتنا يارسول الله . قال رسول الله ﷺ : « اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ! » فقسم رسول الله ﷺ على ما أفاء الله عليه ، وأعطى المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار من ذلك الغُنْيَة شيئاً إلا رجلين كانا محتاجين - سهل بن حنيف ، وأبا دجانة - وأعطى سعد ابن معاذ سيف بن أبي الحقيق ، وكان سيفاً له ذكر عندهم <sup>(١)</sup> .

( وذكر البلاذري في كتاب فتوح البلدان أن رسول الله ﷺ قال للأنصار : « ليس لأخوانكم من المهاجرين أموال ، فإن شتم قسمتم هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً ، وإن شتمت أموالكم، وقسمت هذه فيهم خاصة » قالوا: بل قسم هذه فيهم، واقسم لهم من أموالنا ما شئت فنزلت: **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانُ بِهِمْ خَاصَّةٌ** <sup>(٢)</sup> .

قال أبو بكر رضي الله عنه : جزاك الله يا عشر الأنصار خيراً ، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوي :

جزى الله عنا جعراً حين أزلفت      بنا نعلنا في الواطئين فزللت  
أبواً أن يملونا ولو أن أمنا      تلاقى الذي يلقون منا مللت

قلت : روى الآجرى في كتاب الشريعة عن قيس بن أبي حازم : قال أبو بكر رضي الله عنه ذكر نحو ما تقدم <sup>(٣)</sup> .

الثانية :

وتمثل صورة المجتمع اليهودي الآسن .

(٢) الحشر / ٩ .

(١) المغازي للواقدي ٣٧٩/١ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٤٦٣/٤ .

روى البيهقي بسنده عن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : لما خرجت بنو النضير من المدينة أقبل عمرو بن سعدى فأطاف بمنازلهم فرأى خرابها ، وفكراً ثم رجع إلى بنى قريظة فوجدهم في الكنيسة ، فنفح في بوقهم فاجتمعوا فقال الزبير بن باطا : يا أبا سعيد ! أين كنت منذ اليوم لم نرك ؟ وكان لا يفارق الكنيسة ، وكان يتألم في اليهودية . قال :

رأيت اليوم عبراً قد عَبَرْنا بها ، رأيت منازل إخواننا خالية بعد ذلك العز والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع ، قد تركوا أموالهم ، وملكتها غيرهم ، وخرجوا خروج ذل ، ولا التوراة ما سُلِطَ هذا على قوم الله بهم حاجة ، وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف ذي عِزِّهم ، ثم بيته آمنا ، وأوقع بين سنتيه سيدهم ، وأوقع في بنى قينقاع فأجلهم وهم أهل جد يهود ، كانوا أهل عِدَّة وسلاح ونجدة فحصরهم ، فلم يُخرج إنسان منهم رأسه حتى سباهم فكُلُّم فيهم فتركهم على أن أجلاهم عن يثرب ، يأقوه ! قد رأيتم ما رأيتم فاطيغوني ، وتعالوا تبع محمدًا ، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبي ، وقد بُشِّرْنا به ، ويأمرهم ابن الهبيان أبو عمير ، وابن حراش وهما أعلم يهود جاءوا من بيت المقدس يتوكفان قدومه ، وأمرانا باتباعه ، وأمرانا أن نقرئه منهمما السلام ، ثم ماتا على دينهما ودفنا هما بحرتنا هذه .

فأسكت القوم ، فلم يتكلم منهم متكلم ، فأعاد هذا الكلام وتوهّفهم بالحرب والسباء والجلاء ، فقال الزبير بن باطا : قد والتوراة قرأت صفتة في كتاب باطا التوراة التي أنزلت على موسى ، ليس في المثاني الذي أحدثنا . قال : فقال له كعب بن أسد : ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه ؟ قال : أنت . قال كعب : ولِمَ والتوراة ما حلُّتُ بينك وبينه قط . قال الزبير : أنت صاحب عقدنا وعهدنا ، فإن اتبعته اتبعناه ، وإن أتيت أينا ، فأقبل عمرو بن سعدى على كعب فقال (١) :

أما والتوراة التي أنزلت على موسى يوم طور سينا إنه للعز والشرف في الدنيا ، وإنه لعلى منهاج موسى ، وينزل معه وأمته غداً في الجنة .

قال كعب : نقيم على عهدهنا وعقدنا فلا يخفر لنا محمد ذمَّة ، وننظر ما يصنع حبي ، فقد أخرج لإخراج ذل وصغار ، فلا أراه يقرُّ حتى يغزو محمدًا ، فإن ظفر بمحمد فهو ما أردنا ، وأقمنا على ديننا ، وإن ظفر بحبي فما في العيش خير ، وتحولنا من جواره .

قال عمرو بن سعدى : ولم تؤخر الأمر وهو مقبل ؟ قال كعب : ما على هذا فوق ، متى أردت هذا من محمد أجابني إليه . قال عمرو : والتوراة إن عليه لغوياً إذا

(١) دلائل النبوة للبيهقي ، وقد رواه عن الواقدي ٣٦١ ، ٣٦٢ .

سار إلينا محمد فتخابنا في حصوننا هذه التي قد خدعَتْنا فلا تفارق حصوننا حتى ننزل على حكمه ، فيضرب أعناقنا .

قال كعب بن أسد : ما عندي من أمره إلا ما قلت ، ما تطيب نفسى أن أصبر تابعاً لقول هذا الإسرائىلى ، ولا يعرف فضل النبوة ولا قدر الفعال . قال عمرو بن سعدى : بل لعمرى ليعرفن ذلك (١) ، وعن المسور بن رفاعة قال : وقبض رسول الله ﷺ الاموال وقبض الحلقة ، فوجد من الحلقة خمسين درعًا وخمسين بيضة ، وثلاثمائة سيف وأربعين سيفاً ، ويقال : غيبوا بعض سلاحهم وخرجوا به (٢) .

١ - شخص رسول الله ﷺ هو الهدف الرئيسي عند المشركين وأهل الكتاب وعند معسكر الكفر وحزب الشيطان ، فهم يعلمون أن القضاء على رسول الله ﷺ قضاء على الإسلام حسب تصورهم ، ونلاحظ هنا من خلال المخططات التالية :

أ - إبليس - لعنه الله - هو الذى يقود الحرب فى أحد ، ويشارك فيها ، ويعرف عظمة شخص النبي وأثره فى أمته ، وهو الذى أتم خطوة خالد بن الوليد انقضى على المسلمين من الخلف :

قال ابن إسحاق : وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عبد الله بن الزبير عن الزبير أنه قال : والله لقد رأيتى أنظر إلى خدم (٣) هند بنت عتبة وصواحبها مشرفات هوارب ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير ، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه ، وخلوا ظهورنا للخيل فأتيتنا من خلفنا وصرخ صارخ : إلا إن محمداً قد قُتل ، فانكفأنا وانكفا علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم (٤) .

وقد نهى القرآن الكريم على الأمة المسلمة انهيارها خبر مقتل رسول الله ﷺ وربما على أن ترتبط بالله وحده لا برسول الله ولو كان أحب خلق الله إلى الله ، لكنه الأمر الواقع .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبِهِ فَلَنْ يَضُرُّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٥) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي / ٤ ٤٦٣ - ٤٦٥ . (٢) المغازي للواقدى / ١ ٣٧٧ .

(٣) الخدم : جمع خدمة وهي الخلل .

(٤) السيرة النبوية لأبن هشام ١١٢/٣ وقال المحقق فيه : «صرح ابن إسحاق بالسماع ، وسنده متصل ، ورجاه ثقات . فيكون الحديث صحيحًا » .

(٥) آل عمران / ١٤٤ .

ب - ولقناعة معسكر الشرك بعظمته المصطفى ﷺ ودوره في هذه الدعوة فهو رسول الله وهو قائد الأمة ، فقد كان الهدف الرئيسي عندهم قتله .

( وكان أربعة من قريش قد تعااهدوا أو تعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ وعرفهم المشركون بذلك : عبد الله بن شهاب ، وعتبة بن أبي وقاص ، وأبي بن خلف ... وأقبل ابن قميثة وهو يقول : دلوني على محمد ، فوالذي يحلف به لئن رأيته لاقتله ! فعلاه بالسيف ، ورمي عتبة بن أبي وقاص مع تحليل السيف ، وكان عليه ﷺ درعان ، فوق رسول الله ﷺ في الحفرة التي أمامه فجحشت ركبته ، ولم يصنع سيف بن قميثة شيئاً إلا وهن الضربة بثقل السيف ... ) (١) .

( ولما أستد رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أى مهدداً لأنجوت إإن نجا . فقال القوم : يارسول الله أيعطف عليه رجال منا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « دعوه » ! فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة . فلما أخذها رسول الله ﷺ انتقض بها انتفاضة طابرنا عنه تطوير الشعراة (٢) عن ظهر البعير إذا انتقض ، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تداداً (٣) بها عن فرسه مراراً (٤) .

وعن نافع بن جبير قال : سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أحداً فنظرت إلى النبل تائياً من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطها كل ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ : دلونى على محمد فلا نجوت إإن نجا ، وإن رسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد ، ثم جاوزه ، ولقي عبد الله بن شهاب صفوان ابن أمية فقال صفوان : ترجمت ، ألم يمكنك أن تضرب محمداً فتقطع هذه الشافة فقد أحلفت بالله إيه منزع ، خرجنا أربعة تعااهدنا وتعاقدنا على قتله ، فلم نخلص إلى ذلك ) (٥) .

وهذا غير المحاولات الجانبيّة الأخرى لقتله ﷺ مثل محاولة عبد الله بن زهير ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي والذين لقيا مصرعهما على يد أبي دجانة رضي الله عنه وعلى بن أبي طالب رضي الله عنه .

ج - وهو قائد جيش المشركين يتحدث عن هدفه الأعلى بقتل محمد ﷺ في نهاية المعركة :

(١) المغارى للواقدى / ٢٤٤ . (٢) الشعراة : ذباب له لدغ .

(٣) تداداً : مال أو تقلب عن فرسه يجعل يتدرج . كما فسرها ابن هشام .

(٤) السيرة النبوية لأبن هشام ١٢١ / ٣ ، ١٢٢ . (٥) المغارى للواقدى / ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

( وأشار أبو سفيان فقال : أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ ؟ فَقَالَ : « لَا تَحْبِبُوهُ ». فَقَالَ : أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِيهِ قَحَافَةً ؟ قَالَ : « لَا تَحْبِبُوهُ ». فَقَالَ : أَفِي الْقَوْمِ ابْنَ الْخَطَابَ ؟ فَقَالَ : إِنْ هُؤُلَاءِ قُتِلُوا ، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لَأَجَابُوكُمْ . فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَبْقَى اللَّهَ عَلَيْكَ مَا يَخْزِنُكَ ) (١) . وَعِنْ أَبِنِ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ :

( قَالَ لَهُ أَبُو سَفِيَّانَ : هَلْمَ إِلَيْهِ يَأْمُرُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ائْتُهُ فَانظُرْ مَا شَاءَ » فَجَاءَهُ أَبُو سَفِيَّانَ : أَنْشَدْتَ اللَّهَ يَأْمُرُ ، أَقْتَلْنَا مُحَمَّداً ؟ قَالَ عُمَرُ : اللَّهُمَّ لَا ، وَإِنَّهُ لِي سَمِعَ كَلَامَكَ الْآنَ . قَالَ : أَنْتَ أَصْدِقُ عَنِّي مِنْ أَبْنَى قَمِيَّةَ وَأَبْرَى ، لِقَوْلِ أَبْنِي قَمِيَّةَ لَهُمْ : إِنِّي قَتَلْتُ مُحَمَّداً ) (٢) .

د - وَحِينَ فَشَلَ أَبُو سَفِيَّانَ فِي تَحْقِيقِ هَدْفِهِ الْأَعْلَى ؛ رَأَيْنَا كَيْفَ تَوَاطَأَ مَعَ الْأَعْرَابِيِّ وَبِعِثَتِ لَاغْتِيَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَحَدٍ وَبِشَرْ مَعْوَنَةٍ ، وَكَيْفَ بَاءَتِ الْمَحاوِلَةُ بِالْفَشَلِ الْدُّرِيعِ ، وَأَسْلَمَ الْأَعْرَابِيِّ .

هـ - وَهَذِهِ مَحاوِلَةُ الْيَهُودِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا سَيَّانَ عَلَى رَوَايَةِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي تَقُولُ : ( فَأَشَتَّمَ الْيَهُودَ الْثَلَاثَةَ عَلَى الْخَنَاجِرِ ، فَأَرْسَلَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى أَخِيْنَ الْأَنْصَارِ مُسْلِمٌ تَخْبِرُهُ بِأَمْرِ بَنِي النَّضِيرِ ، بِأَمْرِ تَبِيتِ الْغَدَرِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَثْنَاءَ الْمَقْبَلَةِ ) أَوْ فِي رَوَايَةِ أَصْحَابِ الْمَغَازِيِّ : ( فَلَمَّا دَخَلُوا وَمَعْهُمُ الشَّيْطَانُ لِيَفَارِقُوهُمْ ؛ اتَّمَرُوا بِقَتْلِهِ وَقَالُوا : لَا تَجْدُونَهُ أَقْرَبَ مِنَ السَّاعَةِ ، اسْتَرِيَحُوا مِنْهُ تَأْمِنُوا فِي دِيَارِكُمْ ، وَرِفْعُ عَنْكُمُ الْبَلَاءِ . قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : إِنْ شَتَّمْتَ رَقِيتَ عَلَى الْجَدَارِ الَّذِي هُوَ تَحْتَهُ ، فَدَلَّلَتِ عَلَيْهِ حَجْرًا فَقَتَلَتْهُ . فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَائِنًا يَرِيدُ أَنْ يَقْضِي حَاجَةً وَتَرَكَ أَصْحَابَهُ مَكَانَهُمْ ) (٣) .

وَبَاءَتِ جَمِيعُ الْمَحاوِلَاتِ بِالْفَشَلِ ؛ لَانَّ اللَّهَ تَعَالَى عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكُمْ مِنَ النَّاسِ » (٤) فِيهِمُ مَنْ يَحْمِيَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حِينَ يَتَهَىَ النَّاسُ أَوْ يَتَقَاصِرُونَ كَمَا قَالَ سَعْدُ رَبِّ الْأَوْتَافِ : ( رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلَيْنِ يَقْتَلَاهُنَّ عَنْهُ عَلِيهِمَا ثِيَابٌ يَبْيَضُ كَائِدُ الْقَتَالِ ، مَا رَأَيْتَهُمَا قَبْلَ وَلَآبَعْدَ ، هُمَا جَبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، كَمَا وَقَعَ فِي مُسْلِمٍ مِنْ طَرِيقِ أُخْرَى عَنْ مَسْعِرٍ ، وَفِي آخِرِهِ يَعْنِي : جَبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ) (٥) .

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر في شرح البخاري ج ٧ ص ٣٤٩ (٤٠٤٣) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٣٦ / ٣ .

(٣) مغاري رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير ١٦٤، ١٦٥ .

(٤) المائدة / ٦٧ .

(٥) فتح الباري شرح البخاري ج ٧ ص ٣٥٨ (٤٠٥٤) .

٢ - وحيث إننا ناقشنا بأسهاب غزوة بنى النضير في ( التربية الجهادية ) فتتحدث هنا عن : صورة المدينة وقد رحل عنها بنو النضير كما شهدنا وصف عمرو بن سعدى لها حين طاف بمنازلهم ، فرأى خرابها وقال لبني قريطة : البقية الباقية من اليهود في المدينة .

رأيت منازل إخواننا خالية بعد ذلك العز والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع ، قد تركوا أموالهم وملكتها غيرهم ، خرجوا خروج ذل ، لا والتوراة ما سلط هذا على قوم قط لله بهم حاجة ، وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف ذي عزّهم ثم بيته في بيته آمنا ، وأوقع بابن سنينة سيدهم .

هؤلاء بنو النضير الذين تحركت عقارب الغدر عندهم بعد أحد والرجيع وبشر معونة ، وحسبوا أن الفرصة كانت مواتية للانقضاض على محمد ﷺ ، ويدرُّوا يدبرون بالخفاء المؤامرات لمواجهة رسول الله ﷺ يحسبون أنهم قادرُون الآن على النيل منه ، واعتمدوا على الحزب الهش - حزب المنافقين - ليكون لهم سنداً وملادعاً .

( فأرسل حبي أخاه جُدَّى بن أخطب إلى رسول الله ﷺ : إننا لانبرح من دارنا وأموالنا فاصنع ما أنت صانع ، وأمره أن يأتي ابن أبي فيخبره برسالته إلى محمد وأمر بتعجيل ما وعد من النصر .. وخرج جدي حتى دخل على ابن أبي وهو جالس في بيته مع نغير من حلفائه ، وقد نادى منادي رسول الله ﷺ يأمرهم بالمسير إلى بنى النضير . فيدخل عبد الله بن عبد الله بن أبي على عبدالله أبيه وعلى التفر معه ، وعنته جُدَّى بن أخطب ، فلبس درعه ، وأخذ سيفه وخرج يعدو ، فقال جدي : لما رأيت ابن أبي جالساً في ناحية البيت ، وابنه عليه السلاح يشتت من نصره ، فمزقت أعدو إلى حُى فقال : ما وراءك؟ قلت : الشر . ساعة أخبرتُ محمداً بما أرسلت به إليه أظهر التكبير وقال : « حاربت يهود ». فقال : هذه مكيدة منه . قال : وجئت ابن أبي فأعلمه ، ونادي منادي محمد بالمسير إلى بنى النضير . قال : وما ردَ عليك ابن أبي . فقال جُدَّى : لم أر عنده خيراً . قال: أنا أرسل إلى حلفائهم فيدخلون معكم )<sup>(١)</sup> .

وقد كان ابن أبي وعدهم بقوله : لاتخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا في حصنكم ، فإن معى ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وتملكم قريطة فإنهم لن يدخلوكم ، ويمدُّكم حلفاؤكم من غطفان .

---

(١) المغازي للواقدي / ١ - ٣٧٠ .

٣ - وفضح القرآن الكريم هذا التامر كله بعد الهزيمة الشنيعة ، والخلاء الكبير الذي تم بقوله عز وجل : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقُولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لتعرّجُونَ معاًكم ولا نُطْبِعُ فيكم أحداً أبداً وإن قوتنتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكافارون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا يتصرّونهم ولكن نصروهم ليؤلّن الأدبار ثم لا يتصرّون . لأنتم أشد رهبة في مُسُدورهم من الله ذلك بأنّهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جمِيعاً إلا في قُرْى مُحصنة أو من وراء جدر يأسهم بيتهم شديداً تخسّبهم جمِيعاً وقلوبهم شئي ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون » (١) .

هذه المدينة قد خلت من بنى النضير ، فقال عنهم رسول الله ﷺ وقد شقوا سوق المدينة ، والنساء في المهاجرة عليهن الحرير والديباج ، وقطفوا الخنزير والحمير ، وقد صفت لهن الناس ، فجعلوا يمرون قطاراً في أثر قطار ، فحملوا على ستمائة بعير ، يقول رسول الله ﷺ : « هؤلاء في قومهم مبتهلة بنى المغيرة في قريش .. » ولقد المافقون عليهم يوم خرجوا حزنًا شديداً ، لقد لقيت زيد بن رفاعة بن التابوت ، وهو مع عبد الله بن أبي ، وهو ينادي في بنى غنم وهو يقول: توحشت يثرب لقد بنى النضير ، ولكنهم يخرجون إلى عز وثروة من حلفائهم وإلى حصول منيعة شامخة في رؤوس الجبال ليست كما هاهنا . فاستمعت عليهما ساعة وكل واحدٍ منها غاش لله ولرسوله .

وانهد أكبر ركن من أركان حزب المنافقين الذي كانوا يلوذون به ، ويتآمرون عليه ، فقد فقد عبد الله بن أبي الركن الأول من بنى قينقاع ، وهم كانوا أصحاب الجد والسلاح ، ثم فقد ركنه الأخير بجلاء بنى النضير ، يوم خار وعجز عن نصرتهم ، وأصبح بلا جناح ، فبني قريطة ليسوا حلفاء إلّا هم حلفاء خصومه الأوّل ، وانكمش حزب التفاق بعد انتفاثة وانتفاجه ، واعتماده ولاء اليهود رغم ادعائه الإسلام وزعمه إيه ، وكانت آيات فضح المنافقين تتنزل في هذه المرحلة تلهمهم كالسياط وتلذّعهم كالنار ، فلا يقومون من مطب ، إلا ويقعون في غيره ، ويدأّ كثير من الناس يتخلون عن ابن أبي وحزبه ، وقد هتك الأستار ، وتكلّفت العورات ، وهدم الولي والنمير بجلاء بنى النضير ، والمجتمع الإسلامي يفتح ذراعيه وبحدّر ، لكل من عاد إليه وعيه ، أو أفاق من سكرته ، أو صحا من جنونه ، وفتح الحق مغاليق قلبه .

٤ - لقد انتهت معركة أحد ، وانتهى التعقيب عليها في آيات آل عمران ، ولكن أيامًا لا تنهى قصة التربية ، وأثار المعركة لم تنته بل بقى جو محنّة أحد قراية ثلاثة أعوام ، والقرآن الكريم يتنزل ليعالج الموقف ، ونلحظ هذه المعالجة في سورة النساء ،

وهي تتفرغ للحديث عن الصف الإسلامي ، والبناء الداخلى فيه تتناول موضوع الجهاد والمحث عليه ، كما تتحدث عن المنافقين ومواقفهم ومواقفاتهم ، وتقتضى في تنظيم المجتمع المسلم في المدينة بكل أوضاعه الفكرية والاجتماعية والسياسية والعبادية والعسكرية وغير ذلك سواءً سواءً .

وحيث إن الحديث عن المنافقين أخذ أشواطاً كبيرة في سورة النساء ، وحضرت شوكة يهود بعد رحيل بنى النفسير ، اتجه المنافقون بخطة جديدة في محاولة للاختلاط والانضمام للصف الإسلامي ، بعد أن أصبحوا في العراء وحيدين ، وفي مثل هذه الحالة ، قد يختلط الصادق الذي اعتصم بالله وانضم جماعة المؤمنين مع الكاذب المراوغ الذي يريد أن يدخل الصف لتنفيذ جريمة من جرائمها ، أو بث فتنة داخل هذا الصف القوى ، غير أن الوعي العظيم للقيادة النبوية ، وسمات الإيمان التي تكشف الناس ، والمواقف الخامسة ، يمكنها أن تميز بين الدخيل والأصيل المنضم لهذا الصف ، وعلى أثر ذل يهود وانكسار شوكتهم ، أراد المنافقون أن يتسلقوا على هذه الشجرة ، وذلك بتحقيق بعض المكاسب والمنافع على ظهر بعض أفراد يهود الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي ، والمنافقون من خلال رفعهم شارة الإسلام يستطيعون أن يصلوا إلى داخل الصف ، ومن خلال وجودهم بين إخوانهم وأهليهم من المسلمين الصادقين ، وحرصن هؤلاء المسلمين على إسلامهم وظهورهم من لوحة التفاق قد يندفع هؤلاء الأهل للدفاع عنهم وعن مواقفهم قبل أن يتجلّى الأمر بوحى ناطق من الله تعالى أو رسوله ، خاصة وقد نزلت الآيات بجوار بعضها فيم اعتبر منافقاً فهو في الدرك الأسفل من النار ، وفيمن استثنى منهم فهو مع جماعة المؤمنين .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدُّرُكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ تَأْبُوا وَأَصْلَحُوا وَأَعْتَصُمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِيْنَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

٥ - وك Touي من رد النار والتشفي والانتقام بعد فضيحة المنافقين ومواقفهم في سورة الحشر ، أخذ هذا الحقد عند عبد الله بن أبي ينشار ويأخذ أبعاده ، ورأى أعضاء هذا الحزب المنافق أن يستغلوا ظروف هذا العداء ضد اليهود ، وظروف البعض لهم فيسللون من خلال ذلك لتحقيق بعض أهوائهم والوصول إلى شهوات ضعيفة منحطة من خلال انتسابهم إلى هذا المجتمع المسلم .

ومثل هذه الصورة بنو أبيرق كما يقول قادة بن النعمان رَوَيَ عَنْهُ :

(١) النساء / ١٤٥ ، ١٤٦ .

( كان أهل بيت منا يقال لهم : بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر ، وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم ينحله لبعض العرب ، ثم يقول : قال فلان : كذا وكذا ، وقال فلان : كذا وكذا ، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا : والله ما يقول الشعر إلا هذا الرجل الخبيث أو كما قال الرجل ، وقالوا : ابن أبيرق قالها . قالوا : و كانوا أهل فاقة وحاجة في الجاهلية والإسلام ) (١) .

أراد هؤلاء أن ينتزوا بعض الأموال من الرقيق والسلاح ، وهذا الابتزاز يسهل في أن يُرمى به أحد يهود، فينكل به، ويُخسف به في هذا الجو المشحون بالبغضاء والخذل .

فيتابع لنا قنادة <sup>كتاب الله</sup> الحديث عن هؤلاء بقوله :

وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة (٢) من الشام من الدرمك اباع الرجل منها فخصّ بها نفسه ، وأما العيال وإنما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعة بن زيد حملًا من الدرمك ، فجعله في مشربة له ، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف ، فعدى عليه من تحت البيت فتفقّبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح ، فلما أصبح أتاني عمى رفاعة فقال : يابن أخي إنه قد عدى علينا في ليلتنا هذه ، فتفقّبت مشربتنا ، فذهب بطعمانا وسلاحنا . قال : فتحسست في الدار وسألنا فقيل لنا : قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم . قال :

وكان بنو أبيرق قالوا : ونحن نسأل في الدار : والله ما نرى صاحبكم إلا لييد بن سهل رجل منا له صلاح وإسلام . فلما سمع لييد اختلط سيفه وقال : أنا أسرق ؟! فوالله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبين هذه السرقة ، قالوا : إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها ، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها (٣) .

وفي هذه الأجواء ، وحيث حامت الشبهات حولهم ، رموا بالسرقة على رجل شريف من المسلمين ، فلم يتمالك حين رمى بذلك إلا أن يختلط سيفه ليزدود عن شرفه أمام هؤلاء الذين رموه زوراً وبهتاناً .

إنه نموذج من هذا الغباء الذي انضم مع ابن أبي إلى هذا الدين ، يرغبون أن يحققوا من خلاله المكاسب ، ويسلقون على شجرته وميادنه لتحقيق أطماعهم

(١) الجامع الصحيح للترمذى ٤٤٤ / ٥ ( ٣٠٣٦ ) .

(٢) الضافطة : الضفاط : القوم الذين يجلبون الميرة والطعام إلى المدن ، وكانوا يومئذ قوماً من الانبطاط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت . والدرمك : الدقيق .

(٣) الجامع الصحيح للترمذى ٤٤٤ / ٥ ( ٢٤٥ ) .

وأهدافهم ، وحين ووجهو بالقوة ، تراجعوا مذعورين من السيف - هذه النماذج العارية التي لم يخالط قلبها بشاشة الإسلام بعد ، أو لاتزال تعيش جاهليتها دون أن يتناول الإسلام بناءها من الجذور .

ولعل بشير بن أبيرق هو الذي انضم إلى الرب بين أخويه بشر وبشر ، دون قناعة بهذا الدين ، لكن أخويه لم يدركا هذا الجانب منه ، وعندما وقعت الجريمة ، راحا يدافعان عنه ، وبشير هذا الذي لا يجد حرجاً من هجاء الإسلام والمسلمين سراً ، ثم يرمي بهذا الشعر رجلاً آخر، لا يجد حرجاً في أن يقذف بالسرقة في عنق رجل آخر ، لكنه أخطأ الهدف ، وكاد يقط رأسه عن جسده ، فوجد أن رمي يهودي بها أجدى ، واليهود قد ذلت بعد مقتل ابن الأشرف ، واليهود أعداء هذا الدين ، فلا يصدق لهم قول ، ولا يسمع لهم رأى ، وخطط كما في الرواية الأخرى بحيث يرمي السرقة في بيت اليهودي المتهم .

وهذا السلوك هو سلوك يهودي بحت ، فهم قوم بهت كما وصفهم عبد الله بن سلام ، وجاء من تعلم من مدرستهم واستعمل أسلوبهم نفسه معهم ، ووضع السرقة في بيت أحدهم وجعل الجريمة تحيق به، كما يفعل مع الدعاة إلى الله في الأرض اليوم ، بحيث تلقى التهم والحكم الجائرة من الطواغيت جاهزة، وكل مسلم متهم ومدان ، ومهدور الدم من أصحاب سلطته ، ووسائل الإعلام كلها تحت يدهم ، تعرض على الشعب جرائمهم المصاغة من حكامهم ، ومن يستطيع أن يذود عنهم أو يدافع عنهم فهو متهم معهم .

هذه الصورة التي راح بشير بن أبيرق يتحرك من خلالها في قذف هذا اليهودي المهيض الجناح بالجريمة وراح يطالب بشرفته من الذين اتهموه بالسرقة ، تعطينا وضع الدخل والدخن الذي بدأ يتسلل لهذا المجتمع الفقى الذى كان قبل بدر لا يشوبه إلا التفاق اليهودي المكشوف ، وأما في هذا العام الجديد ، وبعد انتهاء معسكر الشرك برحل قائد ابن أبي إلى الصف الإسلامي ، بدأ بعض الخلل يظهر في هذا البناء الضخم ، والذي رأينا صورة منه من خلال بشير المنافق ، واندفاع قومه معه يطلبون براءته ، دون وعلى لما يحمل في صفهم من سوء .

وندع الحديث هنا لصاحب الظلال يبرز هذا الخلل ، وويرز عظمة القرآن الكريم ، وعظمة هذا الدين الإلهي الخالد في المعالجة :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلنَّاجِئِينَ خَصِيمًا . وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَلَا تُجَادِلِ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ ﴾

لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا . يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ عَمَّهُمْ إِذْ يَسْتَوْنَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُعْبِطًا . هَا أَنْتُمْ هُؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا . وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَعْدُ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمًا . وَمَنْ يَكْسِبْ حَطَبَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيَّا فَلَدَّ احْتَمَلَ بَهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكُ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَصْرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِمْتَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا <sup>(١)</sup> .

هذه الآيات تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيرًا ، ولا تعرف لها البشرية شبيهاً ، وتشهد وحدتها بأن هذا القرآن وهذا الدين لابد أن يكون من عند الله ؛ لأن البشر مهما ارتفع تصورهم ، ومهما صفت أرواحهم ، ومهما استقامت طبائعهم لا يمكن أن يرتفعوا بأنفسهم إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات إلا بوسعي من الله . هذا المستوى الذي يرسم خطًا على الأفق لم تصعد إليه البشرية - إلا في ظل هذا النهج - ولا تملك الصعود إليه أبداً إلا في ظل هذا النهج كذلك إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة التي تغويها جعبتهم اللثيمة على الإسلام وال المسلمين ، والتي حكت هذه السورة وسورة البقرة ، وسورة آل عمران جانبًا منها ومن فعلها في الصف المسلم .

في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب ويؤلبون المشركين ، ويشجعون المنافقين ، ويرسمون لهم الطريق ، ويطلقون الإشاعات ، ويضللون العقول ، ويطعنون في القيادة النبوية ، ويشكرون في الوحي والرسالة ، ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل ، وفي الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج ، والإسلام ناشئ في المدينة ، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها في النفوس ، ووسائل القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم ، تظل خطراً حقيقياً على ثبات الصف المسلم وتناسقه .

في هذا الوقت الخرج ، الخطير الشديد الخطورة . . . كانت هذه الآيات تنزل على رسول الله ﷺ ، وعلى الجماعة المسلمة ، لتنصف رجلاً يهودياً اتهم ظلمًا بسرقة ، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه ، وهم بيت من الانصار في المدينة ، والأنصار يومئذ

(١) النساء / ١٠٦-١١٣ .

هم عدة الرسول ﷺ وجنده ، في مقاومة هذا الكيد الناصب حوله ، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة ، أى مستوىً هذا من النظافة والعدالة والتسامي ! ثم أى كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى ! وكل كلام ، وكل تعليق ، وكل تعقيب ، يتهاوى دون هذه القمة السامية التي لا يبلغها البشر وحدهم ، بل لا يعرفها البشر وحدهم ، إلا أن يقادوا بمنهج الله ، إلى هذا الأفق العلوى الكريم الواضع<sup>١٩</sup>

والقصة التي رويت من عدة مصادر في سبب نزول هذه الآيات. أن نفرًا من الأنصار: قتادة بن النعمان وعمه رفاعة، غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فسرقت درع لأحدهم (رفاعة). فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم: بنو أبيرق، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعى (وفي روایة: إنه بشير بن أبيرق . . وفي هذه الروایة: أن بشيرًا هذا كان منافقاً يقول الشعر في ذم الصحابة ويتباهي لبعض العرب) فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل من اليهود (اسمه زيد بن السمين) وقال لنفر من عشيرته:

إنى غيَّبت الدرع ، وألقيتها في بيت فلان ، وستوجد عنده . فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ . فقالوا : يابن الله ! إن صاحبنا برىء . وإن الذى سرق الدرع فلان ، وقد أحطنا بذلك علما ، فاعذر صاحبنا على رؤوس الأشهاد ، وجادل عنه ، فإن لم يعصمه الله بك يهلك . . ولما عرف رسول الله ﷺ أن الدرع وجدت في بيت اليهودي ؟ قام فبرا ابن أبيرق ، وعذرها على رؤوس الناس ، وكان أهله قد قالوا للنبي ﷺ قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي ، إن قتادة بن النعمان وعمه عدوا إلى أهل بيته من أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت ! قال قتادة : فأتيت رسول الله ﷺ فتكلمه ، فقال : « عمدت إلى أهل بيته يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة ؟ » قال : فرجعت ، ولو ددت أنى خرجت من بعض مالى ، ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك ، فأتاني عمى رفاعة فقال : يا ابن أخي ما صنعت ؟ فأخبرته ما قال لي رسول الله ﷺ فقال : الله المستعان .

فلم تثبت أن نزلت : « إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً بِالْحَقِّ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَأَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَكُنُ لِّلْخَاتَنِينَ خَصِيمًا » أى بنى أبيرق . وخصيمًا : أى محاميًا ومدافعاً ومجادلاً عنهم « وَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ . . . » أى ما قلت لقتادة « إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيمًا » ، « وَلَا تُجَادِلُ عَنِ الظِّنَنِ يَعْتَذِرُونَ أَنفُسُهُمْ » إلى قوله : « إِنَّمَا مُبَيِّنًا » ، « وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُه . . . » إلى قوله : « فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » (١) فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة . . قال قتادة : لما أتيت عمى بالسلاح ، وكان

شيخاً قد عمى أو عشى في الجاهلية ، و كنت أرى إسلامه مدخولاً ، فلما أتيته بالسلاح قال : يا ابن أخي هى في سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه صحيحًا ، فلما نزل القرآن لحق بشير بالشركين ، فأنزل الله تعالى : « وَمَن يُشَاقِّ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّنِي وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْفَرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَقْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لَمْ يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكَ بِاللَّهِ فَقَدْ حَلَ ضَلَالًا بَعِيدًا » (١) .

إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء تأمرت عليه عصبة لتوقعه في الاتهام - وإن كانت تبرئة بريء أمراً هائلاً ثقيل الوزن في ميزان الله - إنما كانت أكبر من ذلك . كانت هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى ، ولا مع العصبية ، ولا يتراجع مع المودة والشنان أيها كانت الملابسات والأحوال . وكانت المسألة هي تطهير هذا المجتمع الجديد ، وعلاج عناصر الضعف البشري فيه مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية في كل صورها حتى في صورة العقيدة ، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس ، وإقامة هذا المجتمع الجديد الفريد في تاريخ البشرية ، على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة المتينة ، التي لا تندسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية ، والتي لا تترجرج مع الاهواء والميول والشهوات !

ولقد كان هناك أكثر من سبب لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تحكم وتحكم ، ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هي التي يرجع إليها هذا المنهج .

كان هناك سبب واضح عريض .. أن هذا المتهم « يهودي » من « يهود » .. يهود التي لا تندع سهلاً مسموماً إلا أطلقته في حرب الإسلام وأهله ، يهود التي يذوق المسلمون الأمرين في هذه الحقيقة ( ويشاء الله أن يكون ذلك في كل حقبة ) يهود التي لا تعرف حقاً ولا عدلاً ولا نصافة ، ولا تقيم اعتباراً لقيمة واحدة من قيم الأخلاق في التعامل مع المسلمين على الإطلاق .

وكان هنالك سبب آخر ، وهو : أن الأمر في الانصار ، الانصار الذين آتوا ونصروا ، والذين قد يوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم ما يوجد من الضيقان ، بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودي ، يبعد شبع النفاق !

وكان هناك سبب ثالث هو : عدم إعطاء اليهود سهماً جديداً يوجهونه إلى الانصار ، وهو أن بعضهم يسرق بعضاً ، ثم يتهمون اليهود ! وهم لا يدعون هذه الفرصة نفلت للتشهير بها والتغريب ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله ، كان أكبر من كل الاعتبارات

(١) النساء / ١١٥ ، ١١٦ .

الصغرى ، الصغيرة في حساب الإسلام . كان أمر تربية هذه الجماعة الجديدة لتنهض بتکاليفها في خلافة الأرض ، وفي قيادة البشرية وهي لاتقوم بالخلافة في الأرض ، ولا تنہض بقيادة البشرية حتى يتضح لها منهج فريد متفوق على كل ما تعرف البشرية ، وحتى يثبت هذا المنهج في حياتها الواقعية ، وحتى يمحص كيانها تمحيضاً شديداً ، وتتفض عنہ كل خبئة من ضعف البشر ، ومن رواسب الجاهلية ، وحتى يقام فيها ميزان العدل ، لتحكم به بين الناس - مجرداً من جميع الاعتبارات الأرضية ، والمصالح القرية الظاهرة ، والملابسات التي يراها الناس شيئاً كثيراً لا يقدرون على تجاهله !

واختار الله سبحانه هذا الحادث بذاته في ميقاته . . . مع يهودي . . . من يهود التي يذوق منها المسلمون الأمرين إذ ذاك في المدينة ، والتي تولب عليهم المشركين ، وتويد بينهم المنافقين ، وترصد كل ما في جعبتها من مكر ونمرية وعلم لهذا الدين ! وفي فترة حرجة من حياة المسلمين في المدينة ، والعداوات تحيط بهم من كل جانب ، ووراء كل هذه العداوات يهود !

اختار الله هذا الحادث في هذا الظرف ليقول فيه سبحانه للجماعة المسلمة ما أراد أن يقول ، وليعلّمها به ما يريد أن تتعلم .

ومن ثم يكن هناك مجال للبقاء ، ولا للكياسة ، ولا للسياسة ، ولا للمهارة في إخفاء ما يخرج ، وتغطية ما يسوء .

ولم يكن هناك مجال لمصلحة الجماعة المسلمة الظاهرية ؛ ومراجعة الظروف الواقية المحيطة بها ، هنا كان الأمر جداً خالصاً ، لا يتحمل الدهاء ولا التمويه ! وكان هذا الجلد أمر هذا المنهج الرباني وأصوله وأمر هذه الأمة التي تعد لتنهض بهذا المنهج وتنشره ، وأمر العدل بين الناس ، العدل في هذا المستوى الذي لا يرتفع إليه الناس ، بل لا يعرفه الناس ، إلا بوحى من الله ، وعون من الله .

وينظر الإنسان من هذه القمة السامة على السفوح الهاابطة - في جميع الأمم على مدار الزمان - فيراها هنالك . . . هنالك في السفوح . . . ويرى بين تلك القمة السامة والسفوح الهاابطة صخوراً متربدة هنا وهناك ، من الدهاء ، والمراء ، والسياسة ، والكرياسة ، والبراعة ، والمهارة ومصلحة الدولة ، ومصلحة الوطن ، ومصلحة الجماعة إلى آخر الأسماء والعنوانات . فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها . . . الدود . . . وينظر الإنسان مرة أخرى فيرى نماذج الأمة المسلمة - وحدها - صاعدة من السفح إلى القمة تتناثر على مدار التاريخ ، وهي تتطلع إلى القمة ، التي وجهها إليه المنهج الفريد .

أما العنف الذى يسمونه - العدالة - فى أمم الجاهلية الغابرة والحاضرة ، فلا يستحق أن نرفع عنه العطايا فى مثل هذا الجو النظيف الكريم )<sup>(١)</sup> .  
ويعقب - رحمة الله - على الآيات الواردة بهذا الصدد بقوله :

( ثم هو حلقة من حلقات النهج التربوى الحكيم فى إعداد هذ الجماعة ؛ لتكون الأمة التى تقود البشرية بتفوقها التربوى والتنظيمى ، وليعالج فيها مواضع الضعف البشري ، ورواسب المجتمع الجاهلى وليخوض بها المعركة فى ميادينها كلها ، وهو الهدف الذى تتواخاه السورة بشتى موضوعاتها ، ويتولاه النهج القرآنى كله )<sup>(٢)</sup> .

٦ - ونعرض أخيراً صورة المستوى الفائق من التربية ، والتى بلغها مجتمع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كما ورد من قبل حين استشار رسول الله ﷺ الأنصار فى غنائم بنى النضير : « إن أحبيتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله على من بنى النضير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » .

فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا : يارسول الله ، بل تقسمه للمهاجرين ، ويكونون فى دُورنا كما كانوا ، ونادت الأنصار : رضينا وسلمتنا يارسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » .

وقال سيد المهاجرين أبو بكر الصديق :

جزاكم الله يا معاشر الأنصار خيراً ، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوى :

جزى الله عننا جعفرأ حين أزلفت  
بنا نعلنا فى الواطئين فزلت  
أبوا آن يملونا ولو آن أمنا  
تلاقي الذى يلقون منا مللت

إنه مجتمع يبنى على غير طراز سبق فى تاريخ البشرية ، مجتمع التجم فيه أغنىاؤه وفقراوه ، وأصبح يمثل مجتمع الإيثار فى الأرض ، لقد تم التأخرى بدافع ذاتى ، لا بقوه السلاح وإرهاب السلطان ، وقادم الأنصار إخوانهم المهاجرين أرضهم وديارهم وأموالهم بطوعية ومرؤة عجيبين فى تاريخ البشرية ، وها قد مر عام واثنان وثلاثة على هذا الوضع . سنت فرصة للمهاجرين بأن توزع عليهم ثروة ضخمة من فى بنى النضير ، وتحت التجربة الفائقة بنجاح ، وأن الاوان لأن يعود للأنصارى ماله وداره وأرضه ، ورسول الله ﷺ الذى قال من قبل : « تاخروا فى الله أخوين أخوين » هو الذى قال

(٢) المصدر نفسه / ٢٧٥٨ .

(١) في ظلال القرآن / ٢٧٥١ .

الآن : « وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » أو يشتراكوا في الفيء سواء ، وكان الأمر معروضاً على سيدى الأوس والخزرج .

إن ضيقاً يتزل على الرجل أكثر من ثلاثة أيام يتناول الطعام عنده والمبيت ، يبدأ الإحساس لدى الضيف بالثقل والتبرم ، ويستطر الفرصة السانحة ليتحول عنه .

وهذه التجربة ليست ثلاثة أيام ، بل ثلاث سنوات ، والمشاركة في شطر الأموال والأراضي والبيوت ، ويستمع سيدا الأوس والخزرج للتخيير النبوى ، فينطلقان عن موقف موحد : ( يارسول الله بل تقسمه للمهاجرين ، ويكونون في دورنا كما كانوا ) .

ولم يكن الموقف موقف زعامة مفروضة فحسب . لقد كان الموقف أبعد من ذلك ، وأعمق من ذلك : كان موقف الانصار جميعاً هو التأييد المطلق لموقف قيادتهم ؛ لأنهم لم يقولوا فقط : ( سلمنا يا رسول الله ) ، إنما قالوا : ( رضينا وسلمتنا يا رسول الله ) .

هذا المجتمع بهذه المواقف ، وبهذه المعاير ، وبهذا المستوى من البناء في الحب والتفاني والود ؛ حقاً له أن يُثنى رب العزة جل جلاله عليه ، وأن يصبح هذا الثناء قرآناً يتلى في الأرض ، ويُعبد به في الوجود ، فجاء قول الله - عز وجل - يصف المهاجرين الذين ضحوا بدنياهم في سبيل الله : « لِلْفَقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَّخِذُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْنَا نَا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » (١) .

( وجاء قول الله عز وجل يصف الانصار الذين ضحوا بدنياهم لإخوانهم في سبيل الله : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارِ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أَوْتُوا وَيُلْتَرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَايَةٌ وَمَنْ يُوقَ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٢) ) (٣) .

(١) الحشر / ٨ .

(٢) الحشر / ٩ .

(٣) من كتاب المنهج التربوي للسيرة النبوية - التربية الجهادية - للمؤلف ١٠٢/٢ - ١٠٤ .

## غزوة ذات الرقاع

قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد غرة بنى التضير شهر ربيع الآخر ، وبعض جمادى (١) ، ثم غزا نجداً يريد بنى محارب ويني ثعلبة من غطفان ، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى ، ويقال : عثمان بن عفان فيما قال ابن هشام .

قال الحافظ ابن حجر : هذه الغزوة اختلف فيها متى كانت ؟ واختلف في سبب تسميتها بذلك ، وقد جنح البخارى إلى أنها كانت بعد خير ، واستدل لذلك في هذا الباب بأمور سيأتي الكلام عنها مفصلاً ، ومع ذلك فقد ذكرها قبل خير ، فلا أدرى هل تعمد ذلك تسلیماً لاصحاب المغارى أنها كانت قبلها كما سيأتي ، أو أن ذلك من الرواية عنه ، أو إشارة إلى احتمال أن تكون ذات الرقاع اسمًا لغزوتين مختلفتين كما أشار إليه البيهقي ؟ على أن أصحاب المغارى مع جزمهم بأنها كانت قبل خير مختلفون في زمانها ، فعند ابن إسحاق أنها بعد بنى التضير ، وقبل الخندق سنة أربع .. وعند ابن سعد وابن حبان أنها كانت في المحرم سنة خمس ، وأما أبو عشر فجزم بأنها كانت بعد بنى قريطة والخندق وهو موافق لتصنيع المصنف (٢) .

وعند البخارى : قال ابن إسحاق : سمعت وهب بن كيسان سمعت جابرًا (خرج النبي ﷺ إلى ذات الرقاع من نخل فلقى جمّعاً من غطفان فلم يكن قتال ، وأخاف الناس بعضهم بعضاً ، فصلى النبي ﷺ ركعتي الخوف) (٣) .

صلاة الخوف :

(عن صالح بن خوات عن شهد مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف أن طائفه صفت معه ، وطائفة وجاه العدو ، فصلى بالتي معه ركعة ، ثم ثبت قائماً ، وأنقوا لأنفسهم ، ثم انصرفوا فصفعوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ثم ثبت جالساً ، وأنقوا لأنفسهم ثم سلم بهم) (٤) .

(وقال معاذ : حدثنا هشام عن ابن الزبير عن جابر قال : كنا مع النبي ﷺ بنخل

(١) أوردها الواقدى لعشر خلون من المحرم على رأس سبعة وأربعين شهراً من بداية السنة الخامسة .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٤١٧ . (٣) المصدر نفسه ح (٤١٢٧) .

(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٤١٧ / ٤١٢٩ ، ٤١٣٠ .

فذكر صلاة الخوف قال مالك : وذلك أحسن ما سمعت في صلاة الخوف ) (١) .

### محاولة الاغتيال :

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهم - أخبره : ( أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد ، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة في وادٍ كثیر العضاة ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرق الناس في العضاة يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت ظل سمرة فعلق بها سيفه . قال جابر : فنمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئناه ، فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلنا ، فقال لي : من يمنعك مني ؟ قلت : الله . فها هو ذا جالس » ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ ) (٢) .

### جمل جابر :

عن جابر رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ﷺ في غزوة فاطمة بـي جملـي وأعـيا ، فـأـنـى عـلـى النـبـي ﷺ فـقـال : « جـابـر ؟ » فـقـلـت : نـعـم . قـال : « مـا شـائـك ؟ » فـقـلـت : أـبـطـا بـي جـمـلـي وأـعـيـا فـتـخـلـفـت . فـنـزـل بـمحـجـبـه ثـم قـال : « اـرـكـب » فـرـكـبـه ، فـلـقـد رـأـيـه أـنـه عـن رـسـول الله ﷺ قـال : « تـزـوـجـت ؟ » فـقـلـت : نـعـم . قـال : « بـكـرـاً أـم ثـيـيـاً ؟ » فـقـلـت : بـل ثـيـيـاً . قـال : « أـفـلـا جـارـيـة تـلـاعـبـها وـتـلـاعـبـك ؟ » فـقـلـت : إـن لـى أـخـوـات فـأـحـبـبـت أـن أـنـزـوـجـ اـمـرـأ تـجـمـعـهـنـ وـتـعـشـطـهـنـ ، وـتـقـومـ عـلـيـهـنـ . قـال : « أـمـا إـنـكـ قـادـمـ ، فـإـذـا قـدـمـتـ فـالـكـيـسـ الـكـيـسـ » ثـم قـال : « أـتـيـعـ جـمـلـكـ ؟ » فـقـلـت : نـعـم . فـاشـتـراهـ مـنـيـ بـأـوـقـيـةـ . ثـم قـدـمـ رـسـول الله ﷺ قـبـلـيـ وـقـدـمـتـ بـالـغـدـاءـ . فـجـئـنـا إـلـى المسـجـدـ ، فـوـجـدـتـهـ عـلـى بـابـ المسـجـدـ . قـال : « الـآنـ قـدـمـتـ ؟ » فـقـلـت : نـعـم ، قـال : « فـدـعـ جـمـلـكـ فـادـخـلـ فـصـلـ رـكـعـيـنـ » ، فـدـخـلـتـ فـصـلـيـتـ . فـأـمـرـ بـلـالـ أـنـ يـزـنـ لـهـ أـوـقـيـةـ فـوـزـنـ لـى بـلـالـ فـأـرـجـحـ فـيـ المـيزـانـ ، فـانـطـلـقـتـ حـتـىـ وـلـيـتـ . فـقـالـ : « اـدـعـ لـى جـابـرـاً » . فـقـلـتـ : الـآنـ يـرـدـ عـلـىـ الـجـمـلـ . وـلـمـ يـكـنـ شـيـءـ أـبـغـضـ إـلـىـ مـنـهـ ، قـالـ : « خـذـ جـمـلـكـ ، وـلـكـ ثـمـهـ » (٣) .

وقال ابن إسحاق : ( حدثني وهب بن كيسان عن جابر بن عبد الله قال :

خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي ضعيف ، فلما قفل رسول الله ﷺ قال : « جعلت الرفاق تمضي » ، وجعلت أتختلف ،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤١٢٩ / ٧ ، ٤١٣٠ ، ٤١٣١ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٢٦ / ٧ (٤١٣٥) .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٢٦ / ٧ (٢٠٩٧) .

حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال : « مالك يا جابر ؟ » قلت : أبطأ بي جملتي هذا ؛ قال : « أنخه » ؛ قال : فأنخرته ، وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال : « أعطني هذه العصا من يدك ، أو اقطع لي عصا من شجرة ». قال : فعلت . قال : فأخذها رسول الله ﷺ فنكسه بها تحسات ، ثم قال : « اركب » فركبت ، فخرج والله تعالى بعثه بالحق ، يواهن ناقته مواهفة (١) .

قال : وتحديث مع رسول الله ﷺ قال لي : « أتبيني جملك هذا يا جابر ؟ » قال : قلت : يا رسول الله ، بل أهبه لك ، فقال : « لا ، ولكن يعنيه » قال : قلت : فسميه يا رسول الله ، قال : « قد أخذته بدرهم » ، قال : قلت : لا ، إذن تعجبني يا رسول الله ؟ قال : « فبدرهماين » قال : قلت : لا . قال : فلم يزل يرفع لي رسول الله في ثمه حتى بلغ الأوقية . قال : فقلت : فقد رضيت يا رسول الله ؟ قال : « نعم ». قلت : فهو لك ؛ قال : « قد أخذته » قال : ثم قال : « يا جابر : هل تزوجت بعد ؟ » قال : قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : « أئيا أم بكرًا ؟ » قال : قلت : لا ، بل ثيبًا ، قال : « أفلأ جارية تلاعبها وتلابعك ! » قال : قلت : يارسول الله إن أبي أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعاً ، فنكحـت امرأة جامـعة ، تجـمع رؤوسـهن وتقـوم عـلـيـهن ، قال : « أصـبـت إـنـ شـاءـ اللهـ ، أـمـاـ إـنـاـ لـوـ قـدـ جـهـنـاـ صـرـارـاـ ، أـمـرـنـاـ بـجـزـورـ فـنـحـرـتـ ، وـأـقـمـنـاـ عـلـيـهاـ يـوـمـناـ ذـاكـ ، وـسـمـعـتـ بـنـاـ فـنـفـضـتـ نـارـقـهاـ » ، قال : قلت : يارسول الله ما لنا من نمارق قال : « إـنـهاـ سـتـكـونـ ، فـإـذـاـ أـنـتـ قـدـمـتـ فـاعـمـلـ كـيـسـاـ » . قال : فـلـمـ جـهـتـ صـرـارـاـ أـمـرـ رسولـ اللهـ بـجـزـورـ فـنـحـرـتـ ، وـأـقـمـنـاـ عـلـيـهاـ ذـلـكـ الـيـوـمـ . فـلـمـ أـمـسـيـ رسـولـ اللهـ بـكـلـيـةـ دـخـلـ وـدـخـلـناـ : قال : فـحـدـثـ المـرـأـةـ الـحـدـيـثـ ، وـمـاـ قـالـ لـيـ رسـولـ اللهـ بـكـلـيـةـ . قـالـتـ : فـدـونـكـ ، فـسـمـعـ وـطـاعـةـ . قـالـ : فـلـمـ أـصـبـحـتـ أـخـذـتـ بـرـأـسـ الـجـمـلـ فـأـقـبـلـتـ بـهـ حـتـىـ أـنـخـهـ عـلـىـ بـابـ رسـولـ اللهـ بـكـلـيـةـ ، ثـمـ جـلـسـتـ فـيـ المسـجـدـ قـرـيـباـ مـنـهـ . قـالـ : وـخـرـجـ رسـولـ اللهـ بـكـلـيـةـ فـقـالـ : « مـاـ هـذـاـ؟ » قـالـواـ : يـارـسـولـ اللهـ هـذـاـ جـمـلـ جـاءـ بـهـ جـاـبـرـ . قـالـ : « فـأـيـنـ جـاـبـرـ ؟ » قـالـ : فـدـعـيـتـ لـهـ قـالـ : فـقـالـ : « يـاـ إـبـنـ أـنـجـيـ خـذـ بـرـأـسـ جـمـلـكـ فـهـوـ لـكـ » ، وـدـعـاـ بـلـلـاـ فـقـالـ لـهـ : « اـذـهـبـ بـجـاـبـرـ فـاعـطـهـ أـوـقـيـةـ » قـالـ : فـذـهـبـتـ مـعـهـ فـأـعـطـانـيـ أـوـقـيـةـ . وـزـادـنـيـ شـيـئـاـ يـسـيرـاـ . قـالـ : فـوـالـلـهـ مـاـ زـالـ يـنـمـيـ عـنـدـيـ ، وـبـرـىـ مـكـانـهـ مـنـ بـيـتـاـ حـتـىـ أـصـبـحـ أـمـسـ فـيـماـ أـصـبـحـ لـنـاـ ، يـعـنـيـ يـوـمـ الـحـرـةـ ) (٢) .

حارساً الثغر :

قال ابن إسحاق : وحدثني عمى صدقة بن يسار عن عقيل بن جابر عن جابر بن

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ٣ / ٢٢٨ - ٢٩٠ ، ورجال الحديث ثقات .

عبد الله الانصارى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع من نخل ، فأصحاب رجل امرأة رجلٍ من المشركين ، فلما انصرف رسول الله ﷺ فاغلاً أتى زوجها ، وكان غائباً . فلما أخبر الخبر حلف لا يهرب حتى يهرب فى أصحاب محمد ﷺ دمًا . فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ متولاً . فقال : « من رجل يكلونا ليلتنا هذه ؟ » قال : فانتدب رجل من المهاجرين ورجل آخر من الانصار ، فقالاً : نحن يارسول الله ؛ قال : « فكونوا بضم الشعب » . قال : وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب في الوادى ، وهما عمار بن ياسر ، وعbad بن بشر فيما قاله ابن هشام .

قال ابن إسحاق : فلما خرج الرجال إلى قم الشعب قال الانصارى للمهاجرى : أى الليل تحب أن أكفيه : أوله أم آخره ؟ قال : بل أكفى أوله . قال : فاضطجع المهاجرى فنام ، وقام الانصارى يصلى . قال : وأتى الرجل ، فلما رأى شخص الرجل عَرَفَ أنه ربيبة<sup>(١)</sup> القوم . فرمى بسهم ، فوضعه فيه . قال : فتزعمه فوضعه ، وثبت قائمًا . قال : ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه ، قال : فتزعمه فوضعه ، وثبت قائمًا ، ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه قال : فتزعمه فوضعه ، ثم رکع وسجد ثم أهب صاحبه<sup>(٢)</sup> فقال : اجلس فقد أثبته<sup>(٣)</sup> . قال : فوثب . فلما رأهما الرجل عرف أن قد نذرا به . فهرب . قال : ولما رأى المهاجرى ما بالانصارى من الدماء ، قال : سبحان الله ، آفلا أهيبتني أول ما رماك ؟ قال : كنت في سورة أقرؤها ، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها ، فلما تابع على الرمي رکعت فاذنك ، وایم الله لولا أضيّع ثغراً أمنى رسول الله ﷺ بمحظة ، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها<sup>(٤)</sup> .

١ - أما الغزوة ونتائجها وأسبابها والجانب العسكري فيها ، فلم يكن هذا كله ذا بال ، إنما كان الجانب التربوى ، والبناء العقidi والنفسى هو صاحب الشأن الأكبر فيها . وتحدثت ابتداء عن الجانب الحربى والعسكرى فى الغزوة فلا يفوتنا أن نشير إلى أن عطفان تنقسم إلى سلك القبائل الكبرى فى جزيرة العرب ، وقد كانت الاصطدامات معها مبكرة ، وكانت تحارب على طريق البدو فى الصحراء من حيث الكرو والفر ، فتصادم إذا أملت بالنصر ، ويَغُرِ إذا خافت من الهزيمة ، وتتمنع فى رؤوس الجبال

(١) الربيبة : الطليعة الذى يحرس القوم . (٢) أهب صاحبه : أيقطنه من نومه .

(٣) أثب : أصبت ، ومن رواه أثب فمعناه : جرحت جرحًا لا يمكن التحرك معه .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢٩١، ٢٩٠ / ٣ ، وقد أخرجه أبو داود عن محمد بن إسحاق ولم يذكر فيه عمى ، ورواه البخارى فى كتاب الوضوء ١ / ٢٨٠ .

خوفاً من المواجهة ، وغزوة ذات الرقاع لم تكن معركة شاملة مع غطفان كلها ، إنما كانت مع فصيلتين من فصائل غطفان هما : محارب وثعلبة ، وعند الواقدي : بني أثار وثعلبة ، وعند الحافظ ابن حجر أن محارب هم أبناء عم غطفان وليسوا منهم . والذى يعنينا هو : أن هذه الاشتباكات المجزية هيأت المجال فيما بعد للحرب الشاملة ، ونستمع إلى الواقدي يعرض لنا أسباب الغزوة ونتائجها عسكرياً وسياسياً بما يسد ثغرة هذا الجانب ، كما روى عن شيخه قالوا :

( قدم قادم بجلب له فاشترى بسوق النبط وقالوا : من أين جلبت جلبك ؟ قال : جئت من نجد وقد رأيت أثاراً وثعلبة قد جمعوا لكم جموعاً ، وأراكم هادين عنهم ، بلغ النبي ﷺ قوله ، فخرج في أربعمائة من أصحابه ، وقال قائل : كانوا سبعمائة أو ثمانمائة ، وخرج رسول الله ﷺ من المدينة ، حتى سلك على المضيق ، ثم أفضى إلى وادي الشفرة ، وأقام بها يوماً ، وبئس السرايا فرجعوا إليه مع الليل ، وخبره أنه لم يروا أحداً وقد وطروا آثاراً حديثة ، ثم سار رسول الله ﷺ في أصحابه حتى أتى محلاتهم ، فيجدون المحال ليس فيها أحد ، قد ذهبت الأعراب إلى رؤوس الجبال ، وهم يُطِّلون على النبي ﷺ ، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً . والمشركون منهم قريب خاف المسلمين أن يغيروا عليهم وهم غارون ، وخافت الأعراب ألا يربح رسول الله ﷺ حتى يستأصلهم ) (١) .

والذى حدا بمحارب وثعلبة أن يهموا بغزو رسول الله ﷺ عقب أجواء أحد وبشر معونة والرجيع ، ولا ننسى أن عامر بن الطفيلي قد هدد بني غطفان حين جاء المدينة قبل قتل أصحاب بشر معونة وما جرى بهم ليس بعيداً عن أعينهم ، ومن أجل هذا - وحسب طبيعة الأعراب في الغزو والنهب والسلب - لاعجب أن مجدهم يفكرون في غزو المدينة كما فكر قبلهم جيرانهم أسد في غزوها ، وعلى رأسهم طلحة بن خويلد ؛ إذن لقد شهدت هذه الشهور هذه التوترات بين المسلمين وبين هذه القبائل الثلاث الكبرى والتي يمكن أن تهدد المدينة في كل وقت ، وهذه القبائل هي : بني غطفان ، وبنو أسد ، وبنو عامر ، وبني سليم ، إنه احتكاك ذو أهمية كبرى يمكن من خلاله عرض العضلات وسرير القوات ، وبقظة القائد الأعظم ﷺ هي التي تحطم مثل هذه المحاولات الطامنة ، وتجعل العدو يعيد الحساب كثيراً قبل تفكيره في الغزو ، إضافة إلى هذه الصورة ، نجد القبائل المجاورة الصغيرة بدأت تقترب من الإسلام بأعداد كبيرة ، فأسلم التي أسلم منها دفعة واحدة سبعون صحابياً عند الهجرة ، وعلى رأسهم : بريدة بن الحصيب الأسلمي ،

(١) المغارى للواقدى ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

وبدأت وفود عديدة ترد منها إلى المدينة ، وتنضم إلى سلك المهاجرين ، وغفار التي كانت معملاً لتفريخ الإسلام يقوم على رأسه أبو ذر الغفارى رض ويرسل الوفود لتنضم إلى الإسلام ، وقد جعل هذا الداعيان العظيمان قبليتهما بذرة من بور التور ، ومعقلاً من معاقل الإسلام العظيمة ، ولهذا نجد رسول الله صل حين دعا على عصبة وذكوان وعضل والقارة ، لم يتس أن يدعو لهذين المعلميين العظيمين من معامل تفريخ المسلمين فقال: « غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله ، وعصبة عصت الله ورسوله » .

وعن خفاف بن إيماء بن رحضة الغفارى قال : صلى بنا رسول الله صل الفجر ، فلما رفع رأسه من الركعة الأخيرة قال : « لعن الله لحيان ورعلاً وذكوان ، عصية عصت الله ورسوله ، أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها » ثم خر ساجداً ، فلما قضى الصلاة أقبل على الناس ، فقال : « إنني لست أنا قلت هذا ، ولكن الله عز وجل قاله » (١) .

٢ - وطالعنا صلاة الخوف في هذه المعركة ، ولعلها المرة الأولى التي صلّى فيها المسلمون صلاة الخوف ، على اعتبار أنّ زوجة ذات الرقاع تمت في جمادى من السنة الرابعة كما ذكر ابن إسحاق ، والمسلمون لا يأمونون انقضاض الأعراب عليهم من رؤوس الجبال ، لو مضوا جميعاً في صلاتهم ، فأخذوا أهبتهم ، وأنزل الله تعالى على نبيه صل صلاة الخوف ، ليقوى الجيش الإسلامي يقطعاً من أي هجوم مفاجئ (٢) ودللت هذه القضية من جانب آخر ، وكانت فقهًا عظيماً لكل جندي في الجيش على أهمية الصلاة ، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التساهل فيها ، ولا يمكن التنازل عنها ، وكانت فقهًا عظيماً للجيش كله كذلك قضية صلاة الجمعة وأهميتها ، فيصلى كل فريق ركعة مع رسول الله ورکعة وحده ، فينال شرف الاقتداء بالمضطفي - صلوات الله عليه - وينال الفريق الأول شرف افتتاح الصلاة مع رسول الله صل في التكبير ، وينال الفريق الثاني شرف اختتام الصلاة معه عليه الصلاة والسلام في التسلیم ، وبذلك تتدمج الصلاة والعبادة بالجهاد والدم في لحظة واحدة ، ويتكون الجيل الريانى الذى لا ينسى ربه في أي لحظة من لحظات حياته ، بل يكون أكثر ما يكون ذكراً لله وهو يستحر في رماده مع العدو ، وهذا الجيل هو الذى قال الله تعالى له عقب بدر : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا إِذَا لَقِيْتُمْ فِتْنَةً فَاثْبِطُوْا وَأَذْكُرُوْا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ » (٣) .

(١) متفق عليه ، ورواه أحمد والترمذى عن ابن عمر ، وهو في البخارى ٥٤٢ .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢ / ٨٨٠ ، وقال المحقق فيه : « إسناده صحيح ، وأخرجه أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم » .

(٣) الأنفال / ٤٥ .

وهو الذى قال له عقب أحد وعقب محنـة الرجـع ومعونـة : « وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فـي الـأـرـض فـلـيـكـم عـلـيـكـم جـنـاحـاً أـن تـقـصـرـوا مـن الصـلـاـة إـن حـفـتـم أـن يـفـسـدـكـم الـذـين كـفـرـوا إـن الـكـافـرـين كـانـوا لـكـم عـدـوا مـهـيـباً . وـإـذـا كـنـتـ فـيـهـم فـاقـمـتـ لـهـم الصـلـاـة فـلـتـقـمـ طـائـفة مـنـهـم مـعـكـ وـلـيـأـخـذـوا أـسـلـحـتـهـم فـإـذـا سـجـدـوا فـلـيـكـوـنـوا مـن وـرـائـكـ وـلـتـأـتـ طـائـفة أـخـرى لـم يـصـلـوا فـلـيـصـلـوا مـعـكـ وـلـيـأـخـذـوا حـذـرـهـم وـأـسـلـحـتـهـم وـذـالـدـين كـفـرـوا لـو تـقـفـلـونـ عـن أـسـلـحـتـكـ وـأـمـعـنـكـ فـيـمـلـوـنـ عـلـيـكـم مـيـلـة وـأـحـدـة وـلـا جـنـاحـاً عـلـيـكـم إـن كـانـ بـكـم أـذـى مـن مـطـرـ أو كـنـتـ مـرـضـى أـن تـضـعـوا أـسـلـحـتـكـ وـخـذـوا حـذـرـكـ إـن الله أـعـدـ لـلـكـافـرـين عـذـابـاً مـهـيـباً . فـإـذـا قـضـيـتـ الصـلـاـة فـاذـكـرـوا الله قـيـاماً وـقـعـودـا وـعـلـى جـنـبـيـكـم فـإـذـا اطـمـأـنـتـم فـاقـمـوا الصـلـاـة إـن الصـلـاـة كـانـتـ عـلـى الـمـؤـمـنـين كـتـابـاً مـوـقـوتـاً » (١) .

هـذا الجـيل الـذـي تـرـبـى مـن معـنـى النـبـوـة يـقـوم عـلـى صـيـاغـتـه رـسـول الله ﷺ بالـقـرـآن الـكـرـيم أـشـرـف كـتـبـ الله اـخـتـارـهـا خـلـقـهـ ، فـلـم يـنـجـدـ لـحظـة وـاحـدـة أـى اـنـفـصـام بـيـنـ الـعـبـادـةـ وـالـجـهـادـ ، لـنـرـى الجـيلـ الـنـكـدـ فـيـ حـيـاتـنـا الـمـعاـصـرـةـ وـالـذـي يـرـى الـعـبـادـةـ وـالـصـلـاـةـ وـالـذـكـرـ خـاصـةـ بـالـدـارـاوـيـشـ وـأـهـلـ اللهـ - كـمـا يـزـعـمـونـ وـكـذـبـوا فـيـ ذـلـكـ - الـذـين يـسـالـونـ الطـغـاةـ وـيـدـعـونـ لـهـمـ بـطـولـ الـعـمـرـ ، وـنـجـدـ حـاكـمـاً طـاغـيـةـ مـنـ الـعـتـاـةـ الـذـين يـحـكـمـونـ الـمـسـلـمـينـ يـفـتـيـ بـقـتـلـ الـإـسـلـامـيـنـ الـذـين يـحـمـلـونـ السـلاحـ فـيـ وـجـهـ الـعـدـوـ وـوـجـهـ الطـغـاةـ ، وـلـا يـتـسـعـ عـقـلـهـ لـأـنـ يـلـتـقـىـ الدـاعـيـةـ بـالـبـنـدـقـيـةـ فـهـذـا خـرـوجـ عـنـ الـإـسـلـامـ فـيـ زـعـمـهـ « كـبـرـتـ كـلـمـةـ تـخـرـجـ مـنـ أـفـوـاهـهـمـ إـنـ يـقـولـونـ إـلـاـ كـذـبـاً » (٢) .

### ٣- حـارـساـ الـشـغـرـ :

وـنـشـهـدـ التـطـبـيقـ الـعـمـلـىـ لـهـذـاـ الفـهـمـ مـنـ خـلـالـ الصـورـةـ الـخـالـدـةـ التـىـ عـمـرـتـ بـهـاـ كـتـبـ الـحـدـيـثـ وـالتـارـيخـ ، نـشـهـدـ هـذـاـ الفـهـمـ لـلـتـلـاحـمـ بـيـنـ الـعـبـادـةـ وـالـجـهـادـ مـنـ خـلـالـ قـصـةـ عـمـارـ ابنـ يـاسـرـ رـضـيـعـتـهـ الـمـاهـجـرـىـ ، وـعـبـادـ بـنـ بـشـرـ الـأـنـصـارـىـ رـضـيـعـتـهـ حـيـثـ نـشـهـدـ تـفـصـيـلاًـ أـوـضـحـ فـيـ مـغـارـىـ الـوـاقـدـىـ لـذـلـكـ :

(...) فـيـبـنـا رـسـولـ اللهـ ﷺ فـيـ مـسـيـرـةـ عـشـيـةـ ذاتـ رـبـيعـ ، فـنـزـلـ فـيـ شـعـبـ اـسـتـقـبـلـهـ فـقـالـ : « مـنـ رـجـلـ يـكـلـوـنـا اللـيـلـةـ ؟ » ، فـقـامـ رـجـلـانـ : عـمـارـ بـنـ يـاسـرـ وـعـبـادـ بـنـ بـشـرـ ،

(٢) الكـهـفـ / ٥ .

(١) النساءـ / ١٠١ـ١٠٣ـ .

فقالا : نحن يارسول الله نكلوك ، وجعلت الريح لاتسكن ، وجلس الرجال على فم الشعب . فقال أحدهما لصاحبه : أى الليل أحب إليك أن أكفيك ، أو له فتكيني آخره ؟ قال : اكفى أوله . فنام عمار بن ياسر ، وقام عباد بن بشر يصلى ) .

هكذا يفقه الجيل المتأزن كيف يزجي فراغه ويملا وقته ، أما حراس جيلنا النكد ، فيأخذ السيجارة ليشعلها من عقب السيجارة الثانية ، ويفتح الدخان والسم ، أو يجلسون معاً على ورق اللعب ، والترد ، يقاومون بمالهم وأمتهم ومحرسهم ، لكن جيل النبوة ، يتنتظر لحظة يخلو فيها لنفسه ، حتى يخلو بربه فهو في شوق لمناجاته .

وأقبل عدو الله يطلب غرة وقد سكتت الريح ، فلما رأى سواه من قريب : قال : يعلم الله أن هذا لريثة القوم ، فوقع له سهماً فوضعه فيه ، فانتزعه فوضعه ، ثم رماه بأخر فوضعه فيه ، فانتزعه فوضعه ، ثم رماه الثالث فوضعه فيه ، فلما غلب عليه الدم ركع وسجد ، ثم قال لصحابه : اجلس فقد أثبتت .

إن عباداً كوفيته في عالم من الأنس بالله يجعله ينسى أن سهماً قد غُرِّز في جلدِه وأسائل دمه ، وهو يريد أن ينزع هذا الشاغل الذي يشغل عن ربه . ويتابع حديثه بين يدي ربه - عز وجل - وجاء السهم الثاني الذي يناسبه أن تند منه صرخة توقيظ الجيش كله ، وأن يحمل من أقرانه لي تعالج مرضه ، لكن صاحبنا في عالم الريانى الحالم جاء ما يشجى حلمه ، فرمى به سهمه الثاني وانتزعه والدم ينسكب غزيراً منه ، ودمعه ينسكب غزيراً خشية لله - عز وجل - ويتابع جلسته مع ربه وكتاب ربه - عز وجل - وجاء السهم الثالث الذي قد يكون به أجله ، ورمى به سهمه الثالث ، لكن صحا وذكر أنه حارس على ثغر من ثغور المسلمين ، وقد يوتى الثغر من قبله ، ونزلت دمعات الحسرة والشجى في حلقه أن حيل بينه وبين متابعة السورة التي ينادي بها ربه ، فقطعها وركع وسجد وأيقظ صاحبه عمار بن ياسر قائلاً له : اجلس فقد أثبتت - أو قد أثبتت - أى أصابتنى البراحة ، هذا القلب العامر بالإيمان كالجبل الرواسى العامر بالشجاعة كالصخور الصم . لم يرتعب ، ولم يرتعد ، ولم يرتجف ، بل كل ما حركه هو خوفه على ثغر المسلمين ، أما جسده ، وأما دمه ، وأما روحه ، فما له ولهم إن كان ينادي ربه .

ومهما حاولنا أن نصف تلك الحالة ، فنحن أعجز عن وصفها ، أيام وصفه العظيم الذي يقطع كل قول ويفنى عن كل تعليق .

( فقال عمار : أى أخي ، ما منعك أن توقطني به في أول سهم رمى به ؟ ، قال : كنت في سورة أقرؤها وهي سورة الكهف ، فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها ، ولو لا أنى خشيت أن أضيع ثغراً أمرني به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما انصرفت ولو أتى على نفسى ) .

وفي الرواية الأخرى :

وايم الله لو لا أن أضيّع ثغراً أمرني رسول الله بحفظه ، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها .

ونحن نقطع السور أحياناً لطرق خفيف على الباب ، أو لطارق يخطر على بالننا فتنسى كل ما نقرأ ، وصاحبنا حارس الثغر رسول الله تطرقه السهام الثلاثة ، فتنغز في جسده ، وتخرج الدم الفوار منه فلا يستجيب لهذا الطارق ، ولا يطرق قلبه لحظة خوف خاطفة وهو أنيس بربه ومناجاه ربه .

ويقى أن نعرف أن عباد بن بشر هو أحد الأبطال الخمسة الذين ذبحوا كعب بن الأشرف في عقر داره . وأن نعلم أنه قائد حرس المسلمين في المعارك الضخام وقاد خيالهم ، وأن نعلم أنه واحداً من الكُمل الثلاثة من الأوس والذين قالت عائشة - رضي الله عنها - فيهم :

ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً ، كلهم من بنى عبد الأشهل : سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وعبد بن بشر<sup>(١)</sup> .

ابن الشهيد والمدرسة التربوية : جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - الذي طرأ شارباه ، وببدأت ملامح حياته تظهر ، فاز بأكبر نصر في حياته حيث عرض أمره على قائده الأعظم رسوله الحبيب ، بعد أحد فقال : يا رسول الله ، إن منادي نادى إلا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس ، وقد كنت حريصاً على الخروج ، ولكن أبي خلفني على أخوات لي ، وقال : يا بني لا ينبعى لي ولنك أن ندعهن ولا رجل عندهن ، وأخاف عليهن وهن نسبيات ضعاف ، وأنا خارج مع رسول الله رسول الله ، لعل الله يرزقنى الشهادة ، فتخلقتُ عليهم فاستأثره الله بالشهادة ، وكانت رجوتها ، فأذن لي يا رسول الله أن أخرج معك ، فأذن له رسول الله رسول الله وكان الفائز الوحيد في حضور هذه الغزوة .

وها هو اليوم يمضى مع رسول الله رسول الله في هذه الغزوة الثانية وهو سعيد أن يكون جندياً بين هؤلاء المقاتلين ، وكان وهو في فورة شبابه يحرص ما استطاع أن يقترب من رسول الله رسول الله علّه يفوز منه بنظرة ، أو كلمة عابرة تسعده ، وكأنما قد ملك الوجود كله .

ومن هو ، حتى يهتم به رسول الله رسول الله بين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وكل الرصيد الذي يملكه أنه ابن الشهيد عبد الله بن عمرو بن حرام سيد قومه ونقيمهم .

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٣٨/١ ، وقال المحقق فيه : «أخرجه الحاكم ٢٢٩ ٢/٣ ووافقه الذهبى ، وذكره الحافظ في الإصابة ٧٦/١ عن ابن إسحاق ، وقد صرخ فيه بالتحديث » .

وها نحن الآن مع هذا الفتى يعرض علينا صورة حية في لقطات أخاذة عاشها مع قائده الحبيب هي كل ما نعرفه من معالم هذه العزوة :

أ - اللقطة الأولى : إنما لمح رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من أصحابه بفرخ طائر ورسول الله ﷺ ينظر إليه ، فأقبل أبواه أو أحدهما حتى طرح نفسه في يدي الذي أخذ فرخه ، فرأيت الناس عجبوا من ذلك . فقال رسول الله ﷺ :

« أتعجبون من هذا الطائر؟ أخذتم فرخه فطرح نفسه رحمة لفرخه ! والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه ! ». .

ما أروعها من مناسبة تربوية ، وقد شهدوا هذا الطائر وهو يخاطر بنفسه حنوا على فرخه وقد شدت أنظارهم به ، وتعلقت عيونهم وعقولهم وقلوبهم فيه في هذا الجو الشاعري المؤثر ، وفي هذا الاهتمام الأخذ بالأباب تأتي كلمة سيد المربيين لتزرع معنى من معانى العقيدة بحيث يكون جزءاً من الشعور ، بل تحيل الشعور كله ولا يكون كما ملقي في ركن من أركان الذهن البارد؛ بل شعلة تتقد حيث الكينونة الإنسانية كلها متوجهة لهذا المنظر الأخاذ ، يأتي أمام المربيين ليقول لهم في هذه الحالة : « والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه » وإذ بكينونة كل فرد من هذا الجمع ، يضاف إلى رصيده وإلى علمه وإلى كيانه عظمة رحمة الله تعالى بعباده وسعة هذه الرحمة وكان هذا هو الدرس التربوي الأول من لقطة جابر .

ب - اللقطة الثانية : قال جابر : فإنما لفني منصرفنا آتانا رسول الله ﷺ وأنا تحت ظل شجرة فقلت : هلم إلى الظل يا رسول الله . فدنا إلى الظل فاستظل . فذهب لأقرب إليه شيئاً فما وجدت إلا جريراً من قثاء في أسفل الغرارة (١) . قال : فكسرته كسراً ثم قرنته إليه فقال رسول الله ﷺ : « من أين لكم هذا؟ » فقلنا : شيء فضل من زاد المدينة فأصاب منه رسول الله ﷺ .

إنه ما إن استسلم للظل حتى راح غارقاً في تفكيره وهمومه وزوجه التي سيفد إليها ، وما رأى إلا رسوله الحبيب يقترب منه باحثاً عن الظل ، ففقرر كائناً أفاق من غيبوبة ، ترى أليستطيع أن يستضيف سيد الخلق عنده في ظل هذه الشجرة؟ وحتى لا تفوت فرصة عمره سارع ، فقال : هلم إلى الظل يا رسول الله ، وجاءه سيد الخلق ضيقاً يستظل معه في ظل شجرته ، وبنم يكرم حبيبه المصطفى؟ ماذا يقدم له من طعام شهي يؤدى به حق الضيافة لرسول رب العالمين؟!

يقول : فما وجدت إلا جريراً من قثاء في أسفل الغرارة فكسرته كسراً ثم قرنته إليه.

(١) الغرارة : وعاء من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه .

ويبيسم سيد ولد آدم جلذبه الفتى قائلًا: «من أين لكم هذا؟» يوانسه ويهدئ من انفعاله  
له فقلنا: شيءٌ فضلٌ من زاد المدينة.

لكن في هذا السؤال إضافة معنى جديد وتربية جديدة، هذا المعنى هو السؤال عن الطعام من أين جاء؟ أمن حلال أم حرام؟ ولم يذقه عليه الصلاة والسلام حتى تأكد من أنه حلال فضل من زاد المدينة ، ففى كل همسة بناء ، وفي كل كلمة تربية ، وفي كل لحظة تعليم للكتاب والحكمة .

**جـ- اللقطة الثالثة:** وقد جهزنا صاحبنا لنا يرعى ظهرنا وعليه ثوب متخرّق. فقال رسول الله ﷺ : « أما له غير هذا؟ » فقلنا : بلى يا رسول الله ، إن له ثوبين جديدين في العيبة <sup>(١)</sup> فقال له رسول الله ﷺ : « خذ ثوبيك » فأخذ ثوبيه فلبسهما ، ثم أدبر فقال رسول الله ﷺ : « أليس هذا أحسن؟ ما له ضرب الله عنقه؟ » فسمع ذلك الرجل فقال : في سبيل الله يا رسول الله؟ فقال : « في سبيل الله ». قال جابر : فضررت عنقه بعد ذلك في سبيل الله ، وهي تربية من نوع جديد حتى للراعي المعن في الصحراء الذي لا يراه أحد ، وهو الذي يلبس الثوب المتخرّق فيتسائل - عليه الصلاة والسلام - : « أما له غير هذا؟ » فإن كان هذا اللباس عن فاقة فلا شئ فيه . ولم يكن الفقر عاراً في يوم من الأيام ، لكن إن كان يملك غيره موجود منه ثم يصر على ليس هذا الثوب المتخرّق ، فهو الذي لا يرضاه - عليه الصلاة والسلام - لراعي المسلمين ، ويأمره - عليه الصلاة والسلام - أن يأخذ ثوبيه الجديدين . إنها تربية للجيش كله ، فإن كان جابر قد نقلها لأجيال المسلمين في ضرورة الحرص على إبداء النعمة على المسلم ، فقد تناقلها كل أفراد الجيش المسلم آنذاك ، وعرفوا حكمًا جديداً من هو أغلى عليهم من أنفسهم الذي بعث فيهم من أنفسهم ، ليزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، إنهم قبل هذا التوجيه النبوى كانوا في ضلال مبين ، واليوم هم في بؤرة النور ، ومع مصدر النور ينطلق من واقع شخصي مع هذا الراعي الذي لم نعرف اسمه بعد ولن نعرفه . لكن - عليه الصلاة والسلام - يحرص على أن يبني في نفس هذا الراعي حياة مرتبطة مع التوجيه والتربية فيقول له - عليه الصلاة والسلام : « خذ ثوبيك » وما إن يدبر حتى يقول عنه بحيث يسمعه القول :

«أليس هذا أحسن؟ ما له ضرب الله عنقه؟».

وبهذا الدعاء نعرف بما يعمّر قلب هذا الراعي العظيم، إن حب الشهادة والموت في

(١) العيبة : زنبيل من أدم يوضع فيه الشياب .

سبيل الله غدا جزءا من ذرات كيان المسلم ، فسارع راعينا العظيم بقوله: في سبيل الله يا رسول الله ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « في سبيل الله » .

وهكذا يمضي راعينا كائنا هو أسعد خلق الله ، فقد بشر بالشهادة من رسول الله صلوات الله وآله وسلامه ، فما له وللندينا بعد هذه البشرة العظيمة.

ولجابر الصحفي المسلم والإذاعي المسلم والتلفزيوني المسلم رحمه الله الفضل الكبير في هذه اللقطات ، فكائنا هو عرض لكل جزئية صغيرة وكبيرة لدراسة النبوة نحمد الله - عز وجل - على أن حضرها جابر فنقلها لنا مع كل ما فيها من جو محظوظ بها . وتفاعل نفسى رافقها ، وزمان ومكان العرض المناسب فهو لا ينسى أن يقول لنا : إن هذا الراعى قد ضربت عنقه في سبيل الله .

د- اللقطة الرابعة : في بينما رسول الله صلوات الله وآله وسلامه يتحدث عندها إلى أن جاءنا علبة بن زيد الحارثى بثلاث بيضات أداهى فقال: يا رسول الله ، وجدت هذه البيضات فى مفحص نعام فقال رسول الله صلوات الله وآله وسلامه: دونك يا جابر، ما عمل هذه البيضات! فوثبت فعملتهن ثم جنت بالبيض فى قصعة ، وجعلت أطلب خبزاً فلا أجده . قال: فجعل رسول الله صلوات الله وآله وسلامه وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز . قال جابر: فرأيت رسول الله صلوات الله وآله وسلامه قد أمسك يده وأنا أطمن أنه قد انتهى إلى حاجته ، والبيض فى القصعة كما هو ، قال: ثم قام رسول الله صلوات الله وآله وسلامه وأكل منه عامة أصحابنا ، وهذه حفلة غداء على شرف المصطفى صلوات الله وآله وسلامه؛ لأن بيض النعام الذى جاء به علبة بن زيد الحارثى رحمه الله لا يكفى إلا لرجلين أو ثلاثة . أما الطاهى فهو أشب القوم - جابر بن عبد الله - ويقاد يطير عقله من الفرح أن يكون هو خادم رسول الله صلوات الله وآله وسلامه ، وقد قدم البيضات لكن آلمه الا يجد الخبز ليطعم حبيبه المصطفى ، وطقق الأصحاب يغدون حيث رسول الله صلوات الله وآله وسلامه وينداح البيض ، ويأكل الصحب والبيض على ما هو عليه إنها دعوة ربانية ووليمة نبوية يرى المسلمين فيها المعجزة ، وتشهد أعمق قلوبهم ، بالإيمان برسول الله صلوات الله وآله وسلامه ، وتكون للجيل الجديد الذى انضم للإسلام نوراً جديداً يتدفق إلى قلوبهم وتنتمي التربية فى كل شيء ، حتى فى الطعام الشهى واللبس الهنى ، والحديث الرضى ، إنه النور الذى يغمر هذه القلوب الظلماء للهوى فتغدو قلوبنا جديدة عامرة بالإيمان متربعة بالبيتين .

هـ- اللقطة الخامسة: ثم رحنا مبردين . قال جابر : وإنما لنسير إلى أن أدركنى رسول الله صلوات الله وآله وسلامه فقال: مالك يا جابر؟ فقلت: أى رسول الله ، جرى أن يكون لى بغير سوء وقد مضى الناس وتركونى قال: فأناخ رسول الله صلوات الله وآله وسلامه بغيره فقال: « أمعك ماء؟» فقلت: نعم فجنته بعقب من ماء . فنفت فيه ثم نضج على رأسه وظهره وعلى عجزه ،

ثم قال: «أعطني عصا» فأعطيته عصا معى - أو قال: قطعت به غصناً من شجرة. قال: ثم نحشه ثم قرعه بالعصا، ثم قال: «اركب يا جابر». قال: فركبت، فخرج، والذى بعثه بالحق يواهق<sup>(١)</sup> ناقته مواهقة ما تفوته ناقته، مضى الفصل الأول، ونحسب أن اللقطات انتهت، فقد انتهت الجلسة النبوية وانتهى تناول الطعام وراح القوم مبردين، وحاول جابر أن يمضي مع رفقاءه. لكن جمله النكد العاجز يكلُّ من السير ويعجز عن المتابعة ورفاقه يسبقونه وهو يعاني من جمله ذى الحظ العاشر فلا يجاري أحداً من إخوانه الانصار ، إنهم يمرون وهو يتخلف ، ورأى قائده يجري من بعيد ؛ ليطمئن على جنوده ، ويتتأكد من أوضاعهم وأحوالهم ، فإذا هو بجابر يعاني المراارة من جمله النكد والرسول العظيم ﷺ لا يدع أمر جنده لأحد فيؤدِّ أن يطمأن بشخصه على كل جندي من جنوده ، ولا يصدر أوامره لحل مشكلة جابر؛ بل يأتي - عليه الصلة والسلام - مباشرة لهذا الجندي المتخلَّف الذي أرهقه التعب وأضنه المسير ، وخانه جمله في المسير، ووافانا جابر باللقطة حية كاملة بالماء الذي نفث فيه ثم نضج على رأسه وظهره وعلى عجزه وبالعصا التي أطعاه إليها فتخس بها الجمل وقرعه ، ثم بتوجيه الأمر له بالركوب فكانما نشط الجمل من عقاله وغدا ناقة ذلولاً نجبيه ، فهو يواهق ناقه رسول الله ﷺ ويسابقها ، وأى عجب في ذلك .

فقبل سبعة وخمسين عاماً ورسول الله ﷺ طفل في المهد ابن أيام فقط حلَّت بركته على بيت حليمة السعدية كما روت لنا:

فخرجت على أثاث لى قمراء<sup>(٢)</sup> معنا شارف<sup>(٣)</sup> لنا والله ما تبض بقطرة<sup>(٤)</sup> ولا نام ليالنا أجمع من صيينا الذي معنا من بكائه من الجوع ما في ثديي ما يغنى، وما في شارفنا ما يغديه - ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج . فخرجت على أثاثي تلك فقد أدمت<sup>(٥)</sup> بالركب حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفاً وعجاها<sup>(٦)</sup> ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما مثَّا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتاباه إذا قيل لها : إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول: يتيم! وعسى أن تصنع أمه وجده. فكنا نكرهه لذلك . فما بقيت امرأة قدمنا معى إلاأخذت رضيعاً غيري ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله إنى لا كره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً

(١) يواهق: يياريها في السير ويماثيها.

(٢) أثاث قمراء: حماره ذات لون قريب من الخضراء أو بياض فيه كدرة.

(٣) الشارف: الناقة المستنة.

(٤) ما تبض بقطرة: ما ترشح بشيء.

(٥) أدمت: أطالت عليها المسافة لتمهلهم عليها.

.

(٦) العجف: الهزال.

والله لاذهنَ إلى ذلك اليتيم فلا يخذنه قال: لا عليك أن تفعلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . قالت: فذهبت إليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنا لم أجده غيره ، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلى فلما وضعته في حجرى أقبل على ثدياً بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه آخره حتى روى ثم ناما ، وما كنا ننام قبل ذلك ، وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل<sup>(١)</sup> فحلب منها وشرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة . قالت: يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلّم والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة . قالت: فقلت: والله إنى لأرجو ذلك . قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أناى ، وحملته عليها معى ، فو الله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهم ، حتى إن صواحبى ليقلن لى: يا ابنة أبي ذؤيب ويحك أربيعى<sup>(٢)</sup> علينا أليست هذه أنانك التى خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله إتها لها هي . فيقلن: والله إإن لها لشائنا...<sup>(٣)</sup>

فقد حلت البركة على آن حليمة وربعاً وأنانها وشارفها وثديها ، وهو لا يزال فى المهد فكيف به - عليه الصلاة والسلام - وقد جاءه الوحى وهو ينفث الماء ، ويقمع الجمل بالعصا ! إنه النبي المبارك الذى عمَّت بركته إلى الخافقين فلا غرو أن ينشط جمل جابر من عقاله ، ويسابق ناقته .

وـ اللقطة السادسة : وجعلت أتحدث مع رسول الله ﷺ ثم قال: « يا أبا عبد الله ، أتزوجت؟ » قلت: نعم . قال: « بكرأ أم ثيّا؟ » قلت: ثيّا . فقال: « ألا جارية تلاعبها وتلاعبك ! » قلت: يا رسول الله ، بأبي أنت وأمى . إن أبي أصيب يوم أحد وترك تسع بنات ، وتزوجت امرأة جامعة تلم شعثهن وتقوم عليهن . قال: « أصبت ». ثم قال: « إنا لو قدمنا صراراً أمراً بجزور فنحرت ، وأقمنا عليها يومنا ذلك وسمعت بنا فنفضت غارقها ». قال: قلت: والله يا رسول الله ما لنا من غارق . قال: « أما إنها ستكون ، فإذا قدمت فاعمل عملاً كيّسا ». قال: قلت: أفعل ما استطعت .

هذا هو الجيش صاحب المسؤولية والذى لا يجد غذاء ولا كساء ولا ركوبة ويرفع راياته كما فى بعض الروايات ، ويعانى من صعوبات الحياة ومشاقها فلا يصده ذلك عن هدفه ولا ينسى - عليه الصلاة والسلام - فى غمرة هذه المهام الصعبة التى يواجه بها أعنى القبائل وأشرسها لا ينسى وهو فى هذا الخضم الوضع البائس لفتى من الفتىان فى جيشه العظيم ، وهو فى مقتبل العمر يود أن يعف نفسه بالزواج . فيسأله عنه ويذكره

(١) حافل : ممتلة .

(٢) أربيعى : أقيمى وانتظرى .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٨٧ - ١٨٩ ، وقد رواه ابن إسحاق عن جهم بن أبي جهم مولى المارد بن حاطب عن عبد الله بن جعفر .

فيكتبه ويناديه بكتبه يا أبا عبد الله ، ليضعه على قمة مسؤوليته ليكون رجلاً مع الأحداث وكان يمكن أن يتهمي الحديث بجواب نعم ، لكن حديث القلب لا يتهمي ورسول الله ﷺ مع فتاه جابر يود أن يغوص إلى أعماقه كلها فيعالج همومه وغمومه فيسأل: «أبكرأ أم ثياب؟» فيقول: ثياباً ، فقال: «ألا جارية تلاعبها وتلأعبك؟» فهو يريد له أن يسعد وهو في مقتبل عمره بزوج حلوة ملاحة تأخذ بلبه وتقر عينه ، وتغلب حياته سعادة وحبوراً ، لكن جابر دخل معركة الأحداث وهمومها ، ولما قاتله قاتله بعد ، وهو غض طرى فتحدى جابر الذي راح يفدي حبيبه بأبيه وأمه ، وسعادته الآن الغامرة أن رسول الله ﷺ يتحدث معه ، وهذا أكبر شرف يحصل عليه فتى في سنه . فقد فاز وحده بهذه الخلوة ، وهذا الحديث الخاص ، وهذا الاهتمام الكبير فيقول له: وتزوجت امرأة جامعة تلم شعثهن وتقوم عليهن مسؤولية البنات التسع في عنقه ، ويعرف - عليه الصلاة والسلام - جنديه ومعاناته . فيتسم ويقول له: «أصبت» ثم يدعوه إلى أن يفرح بشبابه ، ويذكره بزوجه التي تاقت للقائها بعد فراق استمر خمسة عشر يوماً ، هو الفراق الأول بعد زواجهها منه فيعيده إلى تلك النفسية الصبوره العظيمة التي تتظر قدومه «إنا لو قدمتنا صراراً أمنا بجزور فتحرت ، وأقمنا عليها يومنا ذلك . وسمعت بنا ففاضت ثمارقها» قلت: والله يا رسول الله ، ما لنا ثمارق . قال: «أما إنها ستكون» ويدعوه إلى أن يمارس شهوته في الحلال حين يلقى زوجه ، ويبشره أن سيكون له ثمارق ، وتنتهي أزمته المستعصية .

إنها مناجاة بين صديقين حميمين أكثر منها تنازل من قائد يتسنم في وجه جنديه ويسأله: «كيف حالك؟» إن ذلك الجندي الذي يبلغ من قائدته بسمة أو كلمة ليفرح بها ويغفر بها على أقرانه ، فكيف إذا كان هو سيد ولد آدم وسيد الوجود كله ، إننا لذكر في تلك السن النظرة التي يلقاها لنا قائد الدعوة أو الكلمة العابرة أو الخطوات المعدودة معه ، إننا لنغفر بها أنا تحدثنا مع هذا القائد ، وخطا معنا ذلك الزعيم وتكون لنا دفعاً قوياً في حبه والتمسك به .

بما يقارن هذا كله مع هذا الحديث الشجاعي الهنـى بين جابر - ابن السبعـة عشر ربيعاً - وبين رسول رب العالمين وإمام المرسلين! ورضى الله عن جابر وهو يسعدنا بهذه اللقطات ويدخلنا إلى ذلك الجيش ، وكأنـا نحن هناك بجوارهم نختلس النظر إليـهم ويعـرض علينا بالـلفـاظ حـديثـهم .

زـ.ـ اللقطـةـ السابـعةـ:ـ ثمـ قالـ:ـ «ـبعـنىـ جـملـكـ هـذـاـ يـاـ جـابرـ»ـ .ـ قـلتـ:ـ بلـ هوـ لـكـ يـاـ رسولـ اللهـ .ـ قالـ:ـ «ـلاـ،ـ بلـ بـعـنيـهـ»ـ .ـ قالـ:ـ قـلتـ:ـ نـعـمـ سـمـنـىـ بـهـ .ـ قالـ:ـ «ـفـلـآنـ آخـذـهـ بـدـرـهـمـ»ـ .ـ قالـ:ـ قـلتـ:ـ تـغـبـتـنـىـ يـاـ رسـولـ اللهـ .ـ قالـ:ـ «ـلاـ لـعـمـرـىـ!ـ»ـ قالـ جـابرـ:ـ فـمـاـ زـالـ

يزيدنى درهما حتى بلغ أربعين درهما - أوقية - فقال: « أما رضيت؟ » فقلت: هو لك. قال: « ظهره لك حتى تقدم المدينة ». فلما قدمنا صراراً أمر بجزور فتحررت فاقام به يومه ، ثم دخلنا المدينة .

إننا ندعو قادة الدنيا ليأتوا ويشهدوا هذا الحديث بين جابر ورسول الله ﷺ ويتعلموا كيف تكون صلة القادة بجندتهم ، وكيف تم تربية هؤلاء الجنود ، وكيف تبني شخصياتهم وتعد موهابتهم وطاقاتهم ما هو - عليه الصلاة والسلام - يساوم جابرًا على جمله البعض ، وجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي لا يملك رأس ما له إلا هذا الجمل يعرف أدب الحديث مع قائد ، فيقول له: هو لك يا رسول الله ، فقال: « لا، بل يعنيه » ويعرض - عليه الصلاة السلام - درهماً ثمناً لهذا البعير الأعجم ، فيقول: « جابر » قلت: تغبني يا رسول الله. « قال: لا، لعمري » ، فالجمل بهذا الثمن ليس غبناً ، ودرهم رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطرح به الله تعالى البركة فيعادل آلاف الدرارهم غير أن جابرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السعيد بحديث قائد يرفض الدرهم ، ويطلب بالزيادة حتى يبلغ بها أربعين درهماً ! إن الذي يهمه أن يسعد بكل لحظة تزيد البيع درهماً فتزيد من عمره ثماً وبركة وهو يحدث قائد ، فلمن كان هذا الحظ السعيد أن ينال من رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الوقت كله ، وليكن حتى في المساومة درهماً درهماً لأنه يخشى أن يتنهى الحديث مع قائد ، وتنظر إلى عظمة نفسية المصطفى الذي يداعب جنديه ويساومه فيرفع له السعر درهماً يؤنسه ، ويسعده حتى يبلغ به أربعين درهماً - أوقية - ثم يقول له: « ظهره لك حتى تقدم المدينة » ، ولا غرو فهو يذكر بجابر أبوه العظيم الشهيد الذي كان على رأس المبايعين له في العقبة فهو سيد بن سلمة وكانت اللقطات أن تفوتنا لكن رحمة الله بنا تنتقل إلى الفصل الثالث من هذه المحادث العظيمة .

ح - اللقطة الثامنة: ( قال جابر: فقلت للمرأة: قد أمرني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أعمل عملاً كيساً قالت: سمعاً وطاعة لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدونك فأفعل . قال: ثم أصبحت فأخذت برأس الجمل فانطلقت حتى أتيته عند حجرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجلست حتى خرج فلما خرج ، قال: « أهذا الجمل؟ » قلت: نعم يا رسول الله الذي اشتريت . فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: « اذهب فأعطيه أوقية ، وخذ برأس جملك يا بن أخي فهو لك » ، فانطلقت مع بلال ، فقال بلال: أنت ابن صاحب الشعب؟ قلت: نعم . قال: والله لا عطينك ولا زيدنك فزادني قيراطاً أو قيراطين . قال: فما زال ذلك يشمر ويزيدنا الله به ونعرف موضعه حتى أصيّبها هنا قريباً عندكم بعيوني الجمل ) .

ويمضي جابر يعطينا صورة كاملة عن الساعات القادمة التي أمضاها بعد وصوله

المدينة. فقد أمره رسول الله ﷺ أن يجامع زوجه بالأسلوب النبوى الرفيع: « فإذا قدّمت فاعمل عملاً كيّساً » وهذا الأسلوب الرفيع من الأدب يتربى عليه الجيل المسلم بشبيه وشبايه، ورجاله ونسائه، فزوج جابر - رضى الله عنها - يقول لها زوجها الحبيب التي لقيته بعد حرقه وسوق: قد أمرني النبي ﷺ أن أعمل عملاً كيّساً .

قالت: سمعاً وطاعة لأمر رسول الله ﷺ، فدونك فافعل.

إنها الشهوة والمتعة الحالمة تم على كتاب الله وسنة رسوله، ويأمر رسوله - صلى الله عليه تعالى وأله وسلم.

و قبل الفجر يمضى جابر رضي الله عنه ليأخذ ثمرة صفقته مع رسول الله ﷺ الأوقية ثمن جمله ، وكله خشية أن يبقى معه جمله ولا تتم صفقته . فكما في رواية البخارى فقال: « ادعوا لى جابراً ». قلت : الآن يرد علىَ الجمل ، ولم يكن شيئاً أبغض إلىَ منه . ونجد فى رواية البخارى إضافة نفسية: فجتنا إلى المسجد، فوجدته على باب المسجد قال: « الآن قدّمت؟ » قلت: نعم. قال: « فدع جملك وصل ركتعين ». فدخلت فصليت، فأمر بلاً أن يزن له أوقية . فوزن لى بلال فارجع فى الميزان فانطلقت ، حتى وليت.

لقد مضى جابر رضي الله عنه يسابق الريح . بهذه الأوقية ، التى لم يملك مثلها فى حياته ، وانتهى من هذا البعير الأعجف البغيض . إذ جاءه النداء ، فذهبت فرحته قلت : الآن يرد علىَ الجمل ، ولم يكن شيء أبغض إلى منه . قال: « خذ جملك ولك ثمنه ».

وها هو قد عاد بالسعاد كله ، بأوقية الذهب ، وبالجمل يقضى عليه حاجته ، على بغضه له ، فلو أراد أن يشتري جملًا فقد يفقد نصف رأسماله ولا غنى له عنه .

لكن الجمل ، وقد مسته يد النبوة ، ونفت - عليه الصلاة والسلام - على صدره وعجزه ووجهه ، قد قد غدا جملًا آخر فى قوته ، ولين عريكته ، وأثمر خيراً وبركة للبيت كله كما يقول جابر رضي الله عنه .

فما زال ذلك يشر ويزيدنا الله به ونعرف موضعه حتى أصيب ها هنا قريباً عندكم .  
بقى علينا أن نعرف أن هذا الجمل قد ملا بيت جابر برقة وثمرة ورفة خمسين عاماً بعد ذلك اليوم . لقد كان حدث الجمل فى السنة الرابعة من الهجرة ، أو الخامسة على الروايات الأخرى ، وأصيب هذا الجمل فى وقعة الحرة سنة أربع وستين ، وهى التى أوقعها يزيد بن معاوية بأهل المدينة .

ط - اللقطة التاسعة: قال الواقدى: وحدثنى إسماعيل بن عطية عن عبد الله بن

أنيس عن أبيه عن جابر قال: لما انصرفنا راجعين فكنا بالشغرة. قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر ما فعل دين أبيك؟» فقلت: انتظرت عليه يا رسول الله أن يَجُذَّنْ نخله. قال رسول الله ﷺ: «إذا جذبت فأحضرني». قال: قلت: نعم، ثم قال: «من صاحب دين أبيك؟» فقلت: أبو الشحم اليهودي، له على أبي سقة<sup>(١)</sup> تمر فقال لي رسول الله ﷺ: «فمتي تجذها؟» قلت: غداً. قال: «يا جابر فإذا جذبتها فاعزل العجوة على حدتها واللون التمر على حدتها».

وأربعون درهما ثمن جمل جابر يمكن أن تكفيه مئونته. لكنها لا تخل مشكلة جابر الكبرى، مشكلة دين أبيه. فقد كان جابر عندما لقيه رسول الله ﷺ مهوماً ، فقال له: « يا جابر مالى أراك منكسرًا؟ » قلت: يا رسول الله استشهد أبي قتل يوم أحد، وترك دنّا وعيالاً. قال: « أفلأ أبشرك بما لقى الله به أباك؟ » قال: قلت: بلّى يا رسول الله قال: « ما كلَمَ الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً(٢) » فقال: يا عبدي تمنَّ علىَّ أعطك. قال: يارب تخيني فأقتل فيك ثانية. قال الرب عزوجل: إنه قد سبق مني إنهم إليها لا يرجعون » قال: وأنزلت هذا الآية: « **وَلَا تَخْسِنَ الَّذِينَ قُطِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا** . . . » الآية(٣)(٤) .

وَشَهِدَ عَظِيمٌ أَبْيَهُ يَوْمًا أَحَدًا كَمَا حَدَّثَنَا بِقُولَهُ: لَمَ قُتُلْ أَبْيَ جَعَلَتْ أَبْكِي وَأَكْشَفَ  
الثُوبَ عَنْ وَجْهِهِ، فَجَعَلَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ يَنْهَا نَهْيًّا وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَنْهِ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:  
«لَا تَبْكِ مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تَظْلِمُهُ بِأَجْنَحْتِهَا حَتَّىٰ رَفِعَ»<sup>(٥)</sup>.

وسمع ما قال - عليه الصلاة والسلام - في شهداء أحد وأبيه علي رأسهم:

«لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجوف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتنأكل من ثمارها ، وتلأى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم وأكلهم وحسن مقيلهم . فقالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لثلاث يزهدوا عن الجهاد، ولا ينكروا عن الحرب، فقال الله تعالى: فانا أبلغهم عنكم»<sup>(٦)</sup> . فأنزل

(١) السقة: جمع وسق وهو الحمل ، وبقدره الشعاع يستثنى صاعاً.

138 / 11-65 (5)

1

(٤) الجامع الصحيح للترمذى / ٥ / ٢٣٢ (١٠٣)، وقال فيه: «هذا حديث حسن، غير أنه من هذا الباب».

•

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٤ ص ٨٠ - ج ٧ ص ٣٧٤.

لسيرته النبوية لابن هشام ١٧٠ / ٣ ، وقال المحقق فيه: « صرخ ابن إسحاق بالسماع وستنه متصل ،  
ورجاله ثقات فكأن الحديث صحيحًا »

الله على رسوله ﷺ هذا الآيات: « وَلَا تَعْسِنُ الَّذِينَ قُطِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَخْوَاءَ عِنْدِ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » ، (١) .

سمع هذا كله، وهو سعيد بهذا كله، لكن ما يفعل بدين أبيه. إنه ألم الذي بقى بلا حقه، فقد حل مشكلة أخواته البنات فتزوج الثيب التي ترعاهن كما في رواية البخاري: إن أبي قتل يوم أحد ، وترك تسع بنات كن لى تسع أخوات فكرهت أن أجعل لهن جارية خرقاء مثلهن ، ولكن امرأة عشطهن وتقوم عليهن. قال: « أصبت » (٢) .

وبقيت قضية الدين ليست في أعماق جابر ، بل ذلك في أعماق الحبيب المصطفى ﷺ ، فكان لابد أن يطرح مع جنديه وضع هذا ألم التحيل الجائم على صدره. فسأله: « ما فعل دين أبيك؟ » فقلت: يا رسول الله ، انتظرت أن يجذن نخله. وقال: « إذا جذذت فأحضرني » .

إنه لم يدعه إلى الغرماء ، فسيكون معه لهم يقبلونه أو ينظرونها ، فكل النخل لا يكفي لوفاء الدين ، ولعل موسم هذا العام يفي به ، فلا يبقى يعاني منه إلى الموسم القادم ، وطبع رسوله بحضوره - عليه الصلاة والسلام - أن تنتهي قضية دين أبيه ، وفي رواية البخاري:

وأنا أحب أن يراك الغرماء. فقال: « اذهب فيدير كل عمر على ناحية » .

ومضى جابر والأعمال العراض في صدره أن تنتهي قضية الدين كما انتهت قضية العيال ، ولا شيء أحب على قلبه وأشهى من حضور رسول الله ﷺ هذا المشهد.

ـ اللقطة العاشرة والأخيرة: إنه الفصل الأخير من المشاهد الرائعة التي نقلها لنا جابر رسوله نقلًا حيًّا هو ينقلنا الآن إلى حائط التحيل في المدينة ، وذلك في الفصل الرابع من القصة المثيرة ففعلت الصريحانى على حدة ، وأمهات الجنادين على حدة ، والعجوة على حدة ، ثم عمدت إلى جماع من التمر مثل نخبة وقرن وشقة وغيرها من الأنواع ، وهو أقل التمر فجعلته حبلاً واحداً ثم جئت رسول الله ﷺ فخبرته. فانطلق رسول الله ﷺ ومعه عليه أصحابه فدخلوا الحائط وحضر أبو الشحم ، قال: فلما نظر رسول الله ﷺ إلى التمر مصنفًا قال: « اللهم بارك له » ثم انتهى إلى العجوة فمسها بيده وأصناف التمر ، ثم جلس وسطها ، ثم قال: « ادع غريمك » فجاء أبو الشحم ، فقال: « اكتل » .

(١) آل عمران / ١٦٩ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٤٠٥٣ ج ٧ ص ٣٥٧ .

وعند البخاري صورة نفسية أخرى ولاني أحب أن يراك الغرماء ، فقال: « اذهب فيدير كل تمر على ناحية » ثم دعوته فلما نظروا إليه كأنهم أغروا بي تلك الساعة (١).  
كان الغرماء طمعوا أكثر وهم يرون هذه البيادر من التمر .

فلما رأى ما يصنعون أطاف حول أعظمها بيدهاً ثلاث مرات ثم جلس عليه ، ثم قال: « ادع لي أصحابك ». .

إن جابرًا يرضى بل ويطمح أن يكفى التمر وفاء الدين كما عند البخاري (وأنا أرضى أن يؤدى الله أمانة والدى ولا أرجع إلى أخواتي بتمرة) .

وكما أمر الله تعالى مرابع حليمة السعدية ببركة رسول الله ﷺ وهو طفل في المهد ابن الأيام الأولى من عمره .

( ثم قدمتنا منازلنا من بلادبني سعد وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، وكانت غنم تروح على حين قدمتنا به معنا شباعاً لبنا ) (٢)، فتحلبُ وتشربُ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع. حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعايهـم: وبلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب. فتروح أغنامهم جياعاً ما تبشق بقطرة لبن، وتروح غنم شباعاً لبنا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير .. ) (٣) .

أقول: كما أمرت مرابع حليمة لرسول الله ﷺ في مهدـه، فلا غرو أن يبارك الله تعالى بشعر جابر برقة تحفظ له كل ثمر نخيـله :

( ... قال: « اللهم بارك له » ، ثم انتهـى إلى العجـوة فمسـها بيـده وأصنـاف التـمر ثم جـلس وسطـها ثم قال: « ادع غـريمـك » فجـاء أبو الشـحم فـقال: اـكتـل! فـاكتـال حـقهـ كـلهـ من جـبل واحدـ وهو العـجـوة وبيـقـة التـمرـ كـماـ هوـ ، ثمـ قالـ: « يا جـابرـ ، هلـ بـقـىـ عـلـىـ أـبـيكـ مـنـ شـئـ؟ » قالـ: قـلتـ: لاـ . قالـ: وـبـقـىـ سـائـر التـمرـ ، فـأـكـلـنـاـ مـنـ دـهـراـ ، وـبـعـدـ مـنـهـ حـتـىـ أـدـرـكـتـ الشـمـرـةـ مـنـ قـابـلـ (٤)ـ وـلـقـدـ كـنـتـ أـقـولـ: لـوـ بـعـتـ أـصـلـهـ مـاـ بـلـغـتـ مـاـ كـانـ عـلـىـ أـبـيـ مـنـ الدـينـ ، فـقـضـىـ اللـهـ مـاـ كـانـ عـلـىـ أـبـيـ مـنـ الدـينـ ) .

وفي رواية البخاري: ( ... فـقلـتـ : ثـمـ دـعـوـتـهـ فـلـمـ نـظـرـواـ إـلـيـهـ (أـيـ الغـرمـاءـ) .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٤٠٥٣ ج ٧ ص ٣٥٧ .

(٢) لـبـنـ: مـعـلـةـ لـبـنـ فـضـرـعـهـ .

(٣) السـيـرـةـ النـبـوـيـةـ لـابـنـ هـشـامـ ١ / ١٥١ ، ١٥٢ دـارـ الجـيلـ .

(٤) مـنـ قـابـلـ: مـنـ العـامـ الذـيـ يـلـيـ .

كانهم أغروا بي تلك الساعة. فلما رأى ما يصنعون أطاف حول أعظمها ييدراً ثلاثة مرات. ثم جلس عليه ثم قال: «ادع لى أصحابك» فما زال يكيل لهم حتى أدى الله عن والدى أمانته. وأنا أرضى أن يؤذى الله أمانة والدى ولا أرجع إلى أخواتي بتمرة: فسلم الله البادر كلها، حتى إنى أنظر إلى البادر الذى كان عليه النبي ﷺ كأنها لم تنفس تمرة واحدة (١) (٢) .

وكانت هذه الرحلة الميمونة المباركة برفقة رسول الله ﷺ قد غرست في قلبه ونفسه معانى وأبعاداً وأماداً في تفجر ينابيع الهدى والخير عنده، ليكون أحد القادة الأعلام للأمة فيما بعد ، وخاصة في الجانب العلمي والثقافي ينقل عن رسول الله ﷺ هذا الهدى للأمة لأن الانصار قد تركوا الجانب السياسي والقيادي لإخوانهم المهاجرين.

فكان السادس في الترتيب في عدد الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ. فهو بعد (أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وأنس بن مالك وعاشرة عبد الله بن عباس. فقد روى عن رسول الله ﷺ ألف حديث وخمسين حديثاً (٣) .

ولا عجب أن يقدم لنا هذه الروايات. وقد أصبح المرافق الدائم لرسول الله ﷺ. فقد روى البخاري في تاريخه بإسناد صحيح عن أبي سفيان عن جابر قال: كنت أمنح لاصحابي الماء يوم بدر وعن أبي الزبير أن جابرأ حدثهم قال: غزا رسول الله ﷺ إحدى وعشرين غزوة بنفسه شهدت منها تسع عشرة غزوة (٤) .

ولئن أمضى عمره غارياً مع رسول الله ﷺ، فقد بقى علينا أن نقول: إن الفوز الأكبر الذي حققه في هذه الرحلة خاصة هو دعوة رسول الله ﷺ له بالغفرة خمس وعشرين مرة .

( فلقد رأيتني والنبي ﷺ ليقول : « ما فعل دين أليك ؟ » ، فقلت : قد قضاه الله - عز وجل - فقال : « اللهم اغفر لجابر » ، فاستغفر لى في ليلة خمساً وعشرين مرّة ) (٥) . وفي رواية أحمد : ( استغفر لى رسول الله ﷺ ليلة الجمل خمساً وعشرين مرّة ) . فأى فوز لصاحب اللقطات العشر يعدل هذا الفوز، وأى بناء نفسى يفوق هذا البناء ! .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٤٠٥٣ ج ٧ ص ٣٥٧ .

(٢) اللقطات العشر أخذت تصفيلاً لها ومقاطعها من رواية المغارى للواقدى / ١ / ٣٩٨ - ٤٠٢ .

(٣) جامع السيرة لابن حزم / ٤٠٣ ، ٢٢٦ . (٤) الإصابة في تميز الصحابة / ١ / ٢٢٢١ .

(٥) الواقدى في المغارى / ١ / ٤٠٣ ، وقد رواه أحمد كما ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة / ١ / ٢٢٢ .

## غزو بنى لحيان

انفرد الحافظ الذهبي - رحمة الله - من بين رواة السير جمِيعاً في عرض غزو بنى لحيان بعد غزوته بنى النضير ، واعتمد على نص ابن إسحاق ، رغم أن ابن إسحاق أورد غزوته بنى لحيان في جمادى الأولى سنة ست ، والذى يدفعنا للأخذ بقول الحافظ المحقق الذهبي هو : تألفها مع طبيعة الأحداث والأشياء ، فليس من الطبيعي أبداً أن يمضى رسول الله ﷺ إلى الأخذ بثار خبيب بعد ستين ، ويترك هؤلاء الجرميين دون عقوبة ، والمعهود به ﷺ أن يبادر مباشرة للثأر حتى لا تنقض القبيلة ثانية وتتجرأ على المسلمين . فموقعها الطبيعي إذن بعد شهرين من سرية الرجيع ، وعند بلوغه خبر الغدر ، ونعود بعد هذا إلى رواية الذهبي - رحمة الله .

قال ابن إسحاق : خرج رسول الله ﷺ في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من صلح بنى قريطة إلى بنى لحيان يطلب بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه ، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة .

وقال يونس عن ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن حزم وغيره .  
قالوا :

( لما أصيَّبَ خَبِيبَ وَأَصْحَابَهُ ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَلَباً لِدَمَانِهِمْ لِيَصِيبَ مِنْ بَنِي لَحِيَانَ غِرَّةً ، فَسَلَكَ طَرِيقَ الشَّامِ ، وَوَرَّى عَلَى النَّاسِ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ بَنِي لَحِيَانَ ، حَتَّى تَزَلَّ أَرْضَهُمْ - وَهُمْ مِنْ هُذِيلٍ - فَوَجَدُهُمْ قَدْ حَذَرُوا فَتَمْنَعُوا فِي رُؤُوسِ الْجَبَالِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ أَنَا هَبَطْنَا عُسْفَانَ (١) لَرَأَيْتُ قَرِيشَ أَنَا قَدْ جَئْنَا مَكَةَ » فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَائِتَى رَاكِبٍ حَتَّى تَزَلَّ عُسْفَانَ . ثُمَّ بَعْثَتْ فَارِسِينَ حَتَّى نَزَلَ كَرَاعَ الْغَمَيمِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْهِ (٢) .

فذكر أبو عياش الزرقى أن رسول الله ﷺ صلى بعسفان صلاة الخوف (٣) .

(١) عُسْفَانْ بَلْدَةٌ عَلَى ثَمَانِينَ كِيلَوَاتِ مِنْ مَكَةَ شَمَالًا عَلَى الْجَادَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ( معجم المعامِل الجغرافية للبلاذري ) .

(٢) السيرة النبوية من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي / ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٣) الأرجح أن هذه الصلاة كانت بعسفان قبيل صلح الخديبية كما روى خالد بن الوليد روى وليد وليد وليس في هذه الغزوة ، وهي التي أخرجها أبو داود في كتاب الصلاة ح ١٢٣٦ ، عن أبي عياش الزرقى روى وليد .

وقال بعض أهل المخازى : إن غزوة بنى حبيان كانت بعد قريظة (١) .

وتتمة الرواية في سيرة ابن هشام :

فخرج من المدينة بِكَلَّه واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فيما قاله ابن هشام . قال ابن إسحاق :

فسلك على غراب جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشام ، ثم على محيسن ثم على البراء ، ثم صفق (٢) ذات اليسار فخرج على بين (٣) ثم على صخيرات اليمام (٤) ، ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة . فاغزَّ السير سريعاً حتى نزل على غران (٥) وهي منازل بنى حبيان ، وغران واد بين أبعج وعسفان إلى بلد يقال له : سابة (٦) فوجدهم قد حذروا وتنعوا في رؤوس الجبال ، فلما نزلها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأخطأه من عرتهم ما أراد . قال : « لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جتنا مكة » . فخرج في مائتى راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغيم (٧) ، ثم كرَّ وراح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قافلاً . فكان جابر بن عبد الله يقول :

سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول حين وجه راجعاً : « آييون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون ، أعود بالله من وعاء السفر وكابة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال » .  
(والحديث في غزوة بنى حبيان عن عاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر

---

(١) من الواضح أن البهقى - رحمة الله - في دلائل النبوة هو الذي أثبت نص ابن إسحاق عن الغزوة ، ولا شك أن هناك روایتين عن ابن إسحاق في الغزوة . فالرواية الأولى التي رواها البكائى عن ابن إسحاق والمشتبه في سيرة ابن هشام تقول : (ثم أقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفراً وشهري ربيع ، وخرج في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة إلى بنى حبيان يطلب بأصحاب الرجيع ) ، وعلى هذه الرواية فغزوة بنى حبيان سنة ست بعد غزوة بنى قريظة التي كانت في نهاية السنة الخامسة .

أما الرواية الثانية لابن إسحاق فقد رواها سلمة ويونس بن بكير عنه ، وكما هي عند البهقى في الدلائل : أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان قال : أخبرنا عبد الله بن جعفر قال : حدثنا يعقوب بن سفيان قال : حدثنا عمار قال : حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال : وخرج في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من صلح بنى قريظة إلى بنى حبيان يطلب بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه ) ٣٦٤ / ٣ . فاتفق رواية سلمة وابن بكير عن ابن إسحاق ، وبها أخذ الذهبي والبهقى - رحهما الله - أورداها بعد بنى النضير بعد صلح بنى قريظة وحرب بنى النضير . وأخذ الباقون قوله في الرواية الثانية .

(٢) صفق : عدَّ ومال .

(٣) بين : موضع يبعد حوالي خمس وأربعين كيلو جنوب المدينة .

(٤) صخيرات اليمام : على بعد خمسين كيلو عنها . (٥) غران : يبعد سبعاً وثمانين كيلو عن المدينة .

(٦) سابة : واد يبعد مائة وعشرين كيلو شمالى مكة .

(٧) كراع الغيم : على الطريق بين مكة والمدينة ، وتبعد عن مكة أربعة وستين كيلو .

عن عبدالله بن كعب بن مالك . فقال كعب بن مالك في غزوة بنى حيyan :  
لو أن بنى حيyan كانوا تناظروا <sup>(١)</sup> لقوا عصا <sup>(٢)</sup> في دارهم ذات مصدق  
لقوا سرعان <sup>(٣)</sup> يملا السرب <sup>(٤)</sup> روعه <sup>(٥)</sup> أمام طحون <sup>(٦)</sup> كال مجرة <sup>(٧)</sup> فيلق <sup>(٨)</sup>

لقد كان رسول الله ﷺ حريضا على أن يفاجئ القوم في أرضهم ، ويأخذهم على  
غرة كما أخذوا خيبا وأصحابه ، فالمحاربون لله ورسوله لا يحتاجون إلى إنذار بالغزو بل  
الأصل أن يهاجموا ويبتتوا دون إعلان لذلك ، ولهذا مضى - عليه الصلاة والسلام -  
قاديا الشام حتى من دون أن يعلم أصحابه أنه يقصد القوم ، ومضى قرابة خمسين  
كيلماً في طريق الشام ثم عدل بعدها إلى بنى حيyan .

غير أن القوم يعرفون رسول الله ﷺ ، ويعرفون أنهم بغدرتهم هذه لن ينالوا أمّا  
بعدها أبداً ، فمحمد لا ينام على ثار ، ولا يسكت على ضيم ، ويعرفون أن بنى عمهم  
من هذيل قد قُتل قائدهم سفيان وهو يُعد العدة لغزو محمد ﷺ ، أغتيل وهو بهم  
بالغزو ، فكيف يسكت محمد ﷺ على قتل أصحابه والغدر بهم ، فكلما بدا غبار :  
حل الرعب في قلوبهم ، وتوقعوا غزو محمد - صلوات الله وسلامه عليه - لهم ومن  
أجل هذا تمنعوا في رؤوس الجبال ، وفات رسول الله ﷺ ضربهم .

وهي حكمة ربانية . ألا ينال منهم رسول الله ﷺ ، ولا يقتل منهم ، ولا يدرك  
منهم ثاراً فلعل الله تعالى أراد بهم الخير ، ليدخلوا في دين الله فيما بعد دون أن  
يدخلوا على ضغينة وحقد .

غير أن الحرب المعنوية قد حققت أهدافها ، وشعر بنو حيyan أنهم في قبضة محمد  
ﷺ في أي وقت ، والذى غزاهم مرة يمكن أن يغزوهم ثانية ، وشعروا أن الصورة  
التي انتقلت إليهم عن ضعف محمد غير صحيحة ، فها هم يرون جيشه يملاً أرضهم ،  
وينزل بعياهم ، فلزموا حدتهم والخوف يملاً قلوبهم أن تعود الكراهة ثانية عليهم .

وقرر رسول الله ﷺ هدفاً آخر ، وهو في أرض بنى حيyan :

قرر أن ينقل الحرب المعنوية إلى قريش ذاتها . فقد غدا في منتصف الطريق بين

(١) تناظروا : انتظر بعضهم بعضا .

(٢) العصب : الجماعات .

(٣) السرعان : أول القوم .

(٤) السرب : النفس .

(٥) الروع : الفزع .

(٦) الطحون : كثيبة تطعن كل ما تمر به .

(٧) المجرة : مجرة السماء .

(٨) السيرة النبوية لابن هشام ٣٨٨ / ٣ ، ٣٨٩ .

مكة والمدينة ، فقال - عليه الصلاة والسلام - لصحبه : « لو أنا هبطنا عسفان لرأى قريش أنا قد جتنا مكة » .

وعسفان بجوار مكة ، وهى أقرب من الطائف لها ، فلابد من أن تعلم قريش أن رسول الله ﷺ قادر على أن يتحرك في الجزيرة ، ويصبح في جوار مكة ، ولا يقف له أحد من قادة العرب وأبطالها ، بل خطا الخطوة الأبعد حين بعث الصديق رضي الله عنه في عشر فوارس إلى كراع الغميم ، وليس بينها وبين مكة إلا قرابة الستين كيلو دون أن يخشى أحداً ، ويعتبر أبي بكر رضي الله عنه مقصود . فهو علم عند أهل مكة وما جاورها ، فلابد أن ترتعج مكة للخبر ، وهذا هي رواية الواقدى تحدثنا عن آثار هذه الغزوة في ربوع مكة :

( فأقام يوماً أو يومين وبعث السرايا من كل ناحية ، فلم يقدروا على أحد ، ثم خرج حتى أتى عسفان ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : « إن قريشاً قد بلغهم مسيري ، وأنى قد وردت عسفان ، وهم يهابون أن آتيهم ، فاختر في عشرة فوارس » .

فخرج أبو بكر فيهم حتى أتوا الغميم ، ثم رجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ولم يلق أحداً ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا يبلغ قريشاً فيذعرهم ، ويخافون أن نكون نريدهم » .

وخيبيب بن عدى يومئذ في أيديهم . بلغ قريشاً أن رسول الله ﷺ قد بلغ الغميم ، فقالت قريش : ما أتى محمد الغميم إلا يريد أن يخلص خبيباً . وكان خبيب وصاحبه في حديد موثقين ، فجعلوا في رقابهم الجوامع وقالوا : قد بلغ محمد ضجانان ، وهو داخل علينا فدخلت ماوية على خبيب فأخبرته الخبر ، وقالت : هذا صاحبك قد بلغ ضجانان يريدكم . فقال خبيب : وهل ؟ قالت : نعم . قال خبيب : يفعل الله ما يشاء ! قالت : والله ما يتظرون بك إلا أن يخرج الشهر الحرام ، ويخرجوك فيقتلوك ويقولون : أتى محمداً غراناً في الشهر الحرام ، ونحن لا نستحل أن نقتل صاحبه في الشهر الحرام ؟ وكان مأسوراً عندهم ، وخافوا أن يدخلها عليهم رسول الله ﷺ .

فانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة وهو يقول : « تائبون ، آيبون ، عابدون ، لربنا حامدون اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة على الأهل ، اللهم إني أعوذ بك من وعاء السفر ، وكآبة المقلب وسوء المنظر في الأهل والمال . اللهم بلغنا بلا خصالاً يبلغ إلى الخير ، مغفرة منك ورضوانك » وغاب رسول الله ﷺ عن المدينة أربع

عشرة ليلة . وكان استخلف على المدينة ابن أم مكتوم<sup>(١)</sup> .

ما هي الأهداف التي تحققت وراء هذه الغزوة ؟

١- بث الذعر والخوف في نفوس بنى لحيان ، وإشعارهم بحرمتهم التكرياء ، وابتعادهم عن مواجهة النبي ﷺ فيما بعد لما رأوا من بأسه وقوة جيشه الذي غزاهم في عقر دارهم .

٢- بث الذعر والخوف في القبائل المجاورة الذين بلغتهم الخبر أن شوكة محمد قد خضدت ، وأن قوته قد انتهت على يد قريش وأنه لم يفلت من جيشه إلا القليل . وبذلك تعيد القبائل حساباتها ، وتفكيرها كثيرا قبل أن تقدم على غزو المدينة .

٣- بث الذعر والخوف في قريش بحيث تعرف مدى قوة محمد ﷺ وجرأته أن يأتي إلى حمى مكة وينزل فيها بل تتوقع أن يغزوها في عقر دارها .

٤- ولعل أبعاد هذه المغامرة الجريئة الفريدة بعد أحد قد حطمت نفسية قريش وكان لها المدى الأكبر في ثني عزيمتها عن مواجهة رسول الله ﷺ في بدر الموعده ، وهو الموعده الذي ضربه بعد عام من أحد ، وقد بقى على الموعده قرابة ثلاثة أشهر فقط .

٥- رفع معنويات خبيب وزيد - رضي الله عنهم - بحيث يرون أن محمدا ﷺ لن يرخص دمهم أو يتهاون في أسرهم ، بل يقترب من مكة من أجلهم أو إنقاذهم ، كما يغزو لحيان ويتحقق لهم من الغدر الذي وقع بهم .

٦- التدريب والتربية للجيل القائد كي يتعلم كيف يثار ، وكيف يقاتل ، وكيف يباغت في هذه المدرسة الحربية العليا التي لا نظير لها في الوجود كله .

سرية عمرو بن أمية الضمرى :

١- نشير ابتداء إلى أنه بعد بدر بدأ أفراد من القبائل المجاورة للمدينة يتضمنون للمجتمع الإسلامي ويقيمون فيه فيزيديون من عدد المهاجرين ، ولم يعد المهاجرون من قريش فقط ، بل أصبحوا من نزاع القبائل ، ينضمون بالمجتمع الإسلامي الجديد بأشخاصهم ، ويكون ولازهم مباشرة لله ولرسوله . ويحملون اسم المهاجرين مثل الساقفين الأوليين منهم ، وكان من أبرز من دخل في الإسلام بعض من قاتل بأحد وأبلى بلاء الرجال الأبطال : المزنيان وهب بن قابوس ، وابن أخيه الحارث بن عقبة: ونعرض هنا جهادهما العظيم دون تعليق :

(١) المغارى للواقدى ٢ / ٥٣٦ ، ٥٣٧ .

(وأقبل وهب بن قابوس المزني ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس بغض  
لها من لهما من جبل مزينة فوجدا المدينة خلوفا فسالا : أين الناس ؟ فقالوا : بأحد  
خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش ، فقلالا : لا نبتغي أثرا بعد عين فخرجا  
حتى أتيا النبي ﷺ بأحد فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه ،  
فاغارا مع المسلمين في النهب ، وجاءت الخيل من ورائهم ؛ خالد بن الوليد ، وعكرمة  
ابن أبي جهل ، فاختلطوا فقتلا أشدا القتال . فانفرقت فرقه من المشركين ، فقال  
رسول الله ﷺ : « من لهذه الفرقة ؟ » فقال وهب بن قابوس : أنا يا رسول الله ، فقام  
فروماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع فانفرقت فرقه أخرى فقال رسول الله ﷺ : « من  
لهذه الكتبية ؟ » فقال المزني : أنا يا رسول الله ، فقام فذبها بالسيف حتى ولو ثم  
رجع المزني ، ثم طلعت كتبية أخرى فقال : « من يقوم لهؤلاء ؟ » فقال المزني : أنا يا رسول  
الله ، فقال : قم وأبشر بالجنة ، فقام المزني مسرورا يقول : والله لا أقبل ولا أستقبل ،  
فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه والمسلمون حتى  
خرج من أصاهم ورسول الله ﷺ يقول : « اللهم ارحمه » ثم يرجع فيهم فما زال  
كذلك ، وهم محدثون به ، حتى استملت عليه أسيافهم ورمادهم فقتلوا ، فوجد به  
يومئذ عشرون طعنة برمح ، كلها قد خلصت إلى مقتل ومثل به أربعين مثل يومئذ ، ثم  
قام ابن أخيه فقاتل نحو قتاله حتى قتل ، فكان عمر بن الخطاب يقول : إن أحب ميتة  
آموات عليها لما مات عليها المزني .

وكان بلال بن الحارث المزني يحدث فيقول : شهدنا القادسية مع سعد بن أبي  
وقاص ، فلما فتح الله علينا قسمت بيننا غنائمنا ، فأسقط فتي من آل قابوس من مزينة ،  
فجئت سعدا حين فرغ من نومه فقال : بلال ؟ قلت : بلال ! قال : مرحبا بك من هذا  
معك ؟ قلت : رجل من قومي من آل قابوس ، قال سعد : ما أنت يا فتي من المزني  
الذى قتل يوم أحد ؟ قال : ابن أخيه . قال سعد : مرحبا وأهلا ، ونعم الله بك عينا  
ذلك الرجل شهدت منه يوم أحد مشهدا ما شهدته من أحد . لقد رأيتنا ، وقد أحدق  
بنا المشركون من كل ناحية ، ورسول الله ﷺ وسطنا ، والكتائب تطلع من كل ناحية ،  
 وإن رسول الله ﷺ ليمر بيصره في الناس يتوصّهم يقول : « من لهذه الكتبية ؟ »  
كل ذلك يقول المزني : أنا يا رسول الله ، كل ذلك يردها ، فما أنسى آخر مرة قامها  
قال رسول الله ﷺ : « قم وأبشر بالجنة » ، قال سعد : وقمت على أثره ، يعلم الله  
أنى أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة ، فخضنا حوتهم حتى رجعنا فيهم الثانية ،  
وأصابوه - رحمة الله - ووددت والله أنى كنت يومئذ أصبت يومئذ معه ، ولكن أجلى  
استآخر ، ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطيه وفضلة وقال : اختر في المقام عندنا أو

الرجوع إلى أهلك . فقال بلال: إنه يستحب الرجوع فرجعنا . وقال سعد: أشهد لرأي رسول الله ﷺ واقفا عليه وهو مقتول وهو يقول : رضى الله عنك فإني عنك راض ثم رأيت رسول الله ﷺ قام على قدميه ، وقد نال النبي ﷺ من الجراح ما ناله ، وإنى لأعلم أن القيام ليشّق عليه - على قبره حتى وضع في لحده وعليه بردة لها أعلام خضر ، فعد رسول الله ﷺ البردة على رأسه فخمره فأدرجه فيها طولاً وبلغت نصف ساقيه ، وأمرنا فجعلنا الحرمـل . فجعلناه على رجليه وهو في لحده ، ثم انصرف فما حال أمورـت عليها أحـب إلى من أن ألقى الله تعالى على حال المـزنـي )١( .

٢- وهذا بطلـنا العظيم عمـرو بنـ أمـية الضـمرـيـ منـ بـنـيـ ضـمـرـةـ ،ـ والـذـىـ أـسـلمـ حـينـ اـنـصـرـ المـشـرـكـونـ مـنـ أـحـدـ ،ـ وـكـانـ شـجـاعـاـ ،ـ وـكـانـ أـوـلـ مـشـاهـدـهـ بـثـرـ مـعـونـةـ ،ـ وـلـهـ ذـكـرـ فـيـ عـدـةـ مـوـاطـنـ ،ـ وـكـانـ مـنـ رـجـالـ الـعـرـبـ جـوـداـ وـنـجـدـةـ وـعـاشـ إـلـىـ خـلـافـةـ مـعـاوـيـةـ )٢( .

وقد تعددت مهمته التي انفرد بها وحده كأنفراد عبد الله بن أبيس المتخصص بالعصا في الجنة في قتله سفيان بن خالد الذي كان يجمع الجموع من هذيل وغيرها لغزو المدينة ، وأن يقوم رجل مقام جيش هو أمر نراه يتكرر كثيراً في دولة النبوة ، والهدف الآن هو قائد المشركين أبو سفيان بن حرب الذي يراد اغتياله بعد أن دبر محاولة اغتيال الرسول ﷺ بالمدينة ، وليسير أبو سفيان أن العيون الساحرة المسلمة قادرة على رد المحاولة مباشرة بعد محاولته . وقد أوردتها البيهقي بسنده عن رجاله فقال : (كان أبوسفياـنـ بنـ حـربـ قدـ قالـ لـنـفـرـ مـنـ قـريـشـ بـكـةـ :ـ ماـ أـحـدـ يـغـتـالـ مـحـمـدـاـ فـإـنـهـ يـمـشـيـ فـيـ الـأـسـوـاقـ فـتـرـكـ ثـارـنـاـ،ـ فـأـتـاهـ رـجـلـ مـنـ الـعـرـبـ فـدـخـلـ عـلـيـهـ مـنـزـلـهـ ،ـ وـقـالـ لـهـ :ـ إـنـ أـنـتـ قـرـيـتـنـىـ خـرـجـتـ إـلـيـهـ حـتـىـ أـغـتـالـهـ،ـ فـإـنـىـ هـادـ بـالـطـرـيقـ خـرـيـتـ وـمـعـىـ خـنـجـرـ مـثـلـ خـافـيـةـ النـسـرـ .ـ قـالـ :ـ أـنـتـ صـاحـبـنـاـ .ـ فـأـعـطـاهـ بـعـيرـاـ وـنـفـقـةـ وـقـالـ :ـ اـطـرـ أـمـرـكـ فـإـنـىـ لـاـ آـمـنـ أـنـ يـسـمـعـ هـذـاـ أـحـدـ فـيـنـمـهـ إـلـىـ مـحـمـدـ .ـ قـالـ الـعـرـبـيـ :ـ لـاـ يـعـلـمـ بـهـ أـحـدـ .ـ فـخـرـجـ لـيـلـاـ عـلـىـ رـاحـلـتـهـ ،ـ فـسـارـ خـمـسـاـ وـصـبـحـ ظـهـرـ الـحـرـةـ صـبـحـ سـادـسـةـ .ـ ثـمـ أـقـبـلـ يـسـأـلـ عـنـ رـسـولـ اللـهـ ﷺـ حـتـىـ أـنـىـ الـمـصـلـىـ ،ـ فـقـالـ لـهـ قـائـلـ :ـ قـدـ تـوـجـهـ إـلـيـهـ بـنـيـ عـبـدـ الـأـشـهـلـ ،ـ فـخـرـجـ يـقـودـ رـاحـلـتـهـ حـتـىـ اـنـتـهـىـ إـلـيـ بـنـيـ عـبـدـ الـأـشـهـلـ .ـ فـعـقـلـ رـاحـلـتـهـ ثـمـ أـقـبـلـ يـوـمـ رـسـولـ اللـهـ ﷺـ ،ـ فـوـجـدـهـ فـيـ جـمـاعـةـ مـنـ أـصـحـابـهـ يـحـدـثـ فـيـ مـسـجـدـهـ فـدـخـلـ ،ـ فـلـمـ رـأـهـ رـسـولـ اللـهـ ﷺـ ،ـ قـالـ لـأـصـحـابـهـ :ـ إـنـ هـذـاـ الرـجـلـ يـرـيدـ غـدـراـ .ـ وـالـلـهـ حـائـلـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ مـاـ يـرـيدـ) .

(١) المغازي للواقدي ١ / ٢٧٥ - ٢٧٨ .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر م ٤٤ ص ٢٨٥ ت ٥٧٦ .

فوق ف قال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنا ابن عبد المطلب » فذهب ينحني على رسول الله ﷺ كأنه يسأله . فجده أسيد بن الحضير وقال له : تぬ عن رسول الله ﷺ ، وجد بداخلة إزاره فإذا الخنجر . فقال رسول الله ﷺ : « هذا غادر » وسقط في يدي العربي وقال : دمي يا محمد ، وأخذ أسيد بليبيه . فقال رسول الله ﷺ : « أصدقني : ما أنت وما أقدمك ؟ فإن صدقتنى نفعك الصدق ، وإن كذبتنى فقد اطلعت على ما هممت به » ، قال العربي : فأنا آمن ؟ قال : « فأنت آمن » . فأخبره أبي سفيان وما جعل له . فأمر به فحبس عند أسيد . ثم دعا به من الغد . فقال : « قد أمنتك فاذهب حيث شئت ، أو خير لك من ذلك » . قال : وما هو ؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » قال : فإنيأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، والله يا محمد ، ما كنت أفرق الرجال بما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلى ، وضعفت نفسي ، ثم اطلعت على ما هممت به مما سبقت به الركبان ولم يعلمه أحد ، فعرفت أنك منزع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان . فجعل النبي ﷺ يبتسم ، وأقام أياما ثم استاذن النبي ﷺ ، فخرج من عنده فلم يسمع له بذكر . فقال رسول ﷺ لعمرو بن أمية الضمرى ولسلامة بن حرish : « اخرجا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب ، فإن أصبتما منه غرة فاقتلاه » قال عمرو : فخرجت أنا وصاحبى حتى أتينا بطنه يأجع فقيدنا بعيينا فقال لي صاحبى : يا عمرو هل لك فى أن نأتى مكة ونطوف بالبيت سبعا ونصلى ركعتين ؟ قلت : إنى أعرف مكة إنهم إذا أمسوا انفعوا بأفنيهم ، فأبى أن يطيعنى . فأتينا مكة فطفنا سبعا ، وصلينا ركعتين ، فلما خرجت لقيني معاوية بن أبي سفيان فعرفنى وقال : عمرو بن أمية واحزناه . فأخبر أباه ، فنيد بنا أهل مكة . فقالوا : ما جاء عمرو في خير . وكان رجلا فاتكا في الجاهلية - فحشد أهل مكة وتجمعوا وهرب عمرو وسلمة ، وخرجوا في طلبهما ، واشتدوا في الجبل . قال عمر : فدخلت غارا فتغييت عنهم حتى أصبحت وباتوا يطلبون في الجبل ، وعمى الله عليهم طريق المدينة أن يهتدوا لراحتنا ، فلما كان الغد ضحوة أقبل عثمان بن مالك بن عبيد الله التيمي يختلى لفرسه حشيشا فقلت لسلامة بن أسلم : إن أبصرنا أشعر بنا أهل مكة وقد أقصروا علينا ، فلم يزل يدنو من باب الغار حتى أشرف علينا وخرجت فطعنته طعنة تحت الثدى بخجرى سقط وصاح وأسمع أهل مكة ، فأقبلوا بعد تفرقهم ، ودخلت الغار فقلت لصاحبى : لا تحرك ، وأقبلوا حتى أتوا عثمان بن مالك . فقالوا : من قتلك ؟ قال : عمرو بن أمية . قال أبو سفيان : قد علمنا أنه لم يأت بعمرو خير ، ولم يستطع أن يخبرهم بمكانتنا كان بأخر رقم فمات . وشغلوا عن طلبنا ب أصحابهم يحملونه . فمكثنا ليالٍ في مكاننا ثم خرجنا

فقال صاحبى : يا عمرو بن أمية هل لك فى خبيب بن عدى نزله ؟ فقلت له : أين هو ؟ قال : هو ذاك ، مصلوب حوله الحرس ، فقلت : أمهلنى وتنح عنى فإن خشيت شيئاً فانج إلى بعيرك ، فاقعد عليه واثت رسول الله ﷺ فأخبره الخبر . ودعنى فإني عالم بالمدينه ، ثم اشتدت عليه حتى ملته ، فحملته على ظهرى ، فطرحت الخشبة فما أنسى وقهاً عشرين ذراعاً حتى استيقظوا فخرجوها في طلب أثري ، فأطربت الخشبة فما أنسى وقهاً دب (يعنى صوتها) ثم أهلت عليه من التراب برجلٍ فأخذت بهم طريق الصفراء فأعيوا فرجعوا ، وكنت لا أدرك مع بقاء نفسي . فانطلق صاحبى إلى البعير فركبه ، وأتى النبي ﷺ فأخبره ، وأقبلت حتى أشرفت على الغليل . غليل ضجنان (١) فدخلت في غار فيه معى قوسى وأسهم وختنجر ، فبينا أنا فيه إذ أقبل رجل من بني بكر من بني الذئل أبور طويل يسوق غنماً ومعزى . فدخل على الغار . فقال : من الرجل ؟ فقلت : من بني بكر . فقال : أنا من بني بكر ، ثم : اتكاً فرفع عقيرته يتعنى يقول :

فلست بمسلم ما دمت حيا ولست أدین دین المسلمين

فقلت في نفسي : والله إنّي لارجو أن أقتلك ، فلما نام قمت إليه فقتلته شر قتلة قتلها أحد قط ، ثم خرجت حتى هبطت ، فلما أسهلت في الطريق إذا رجلان بعثهما قريش يتتجسسان الأخبار فقلت : استأسرا فأبى أحدهما فرميته . فلما رأى ذلك الآخر استأسر فشدته وثاقاً ثم أقبلت به إلى النبي ﷺ . فلما قدمت المدينة رأى صبياناً وهم يلعبون وسمعوا أشيائهما يقولون : هذا عمرو . فاشتد الصبيان إلى النبي ﷺ فأخبروه ، وأتيته بالرجل قد ربطت إيهاميه بوتر قوسى ، فلقد رأيت النبي ﷺ يضحك ثم دعا لي بخير كان قدوم سلمة قبل قدوم عمرو بثلاثة أيام (٢) .

١ - انتهت غزوة أحد . وكانت آمال أبي سفيان تترنح في مقتل محمد ﷺ ، ولتفق أمام هذه المناظرة بين أبي سفيان بن حرب وعمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - بعيد المعركة فيما رواه البخاري عن البراء بن عازب - رضى الله عنهما : ( وأنشر أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ؟ : فقال : « لا تجيئوه ». فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال : « لا تجيئوه » قال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا ، فلو كانوا أحياء لاجابوا فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت يا عدو الله ، أبقى الله عليك ما يخزيك ) (٣) .

(١) ضجنان : حرة شمالى مكة يمر الطريق بمنتصفها الغربى على مسافة ٥٤ كيلو على طريق المدينة .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٣٣٣-٣٣٧ / ٣ ، وهو في السيرة النبوة لابن هشام ٤/ ٣٧٢-٣٧٥ .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخاري : ٧/ ٤٤٩ .

وفي حديث ابن عباس عند الطبراني والحاكم فقال عمر : ( كذبت يا عدو الله . قد أبقى الله لك ما يخزيك . إن الذين عدتم لأخياء كلهم )<sup>(١)</sup> وفي السيرة النبوية لابن هشام . ( قال ابن إسحاق . . . فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له أبو سفيان : هل إلى يا عمر . فقال رسول الله ﷺ لعمر : ائته فانظر ما شأنه ، فجاءه فقال له أبو سفيان : أنسدك الله يا عمر . أقتلنا محمدًا؟ قال عمر : اللهم لا ، إنه ليس بسمع كلامك الآن . قال : أنت أصدق عندي من ابن قمثة وأببر - لقول ابن قميثة لهم : إني قتلت محمدا )<sup>(٢)</sup> .

وفي حديث ابن عباس عند الإمام أحمد :

( فإذا أبو سفيان يصبح في أسفل الجبل : أعل هيل مرتين - يعني آلهته - أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : يا رسول الله لا أجيبه ؟ قال : « بلى » . فلما قال : أعل هيل ، قال عمر : الله أعلى وأجل ؟ فقال أبو سفيان : يا ابن الخطاب : إنه قد أنعمت فعال ، فقال : أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن الخطاب ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ فقال عمر : هذا رسول الله ﷺ وهذا أبو بكر ، وما أنتا عمر )<sup>(٣)</sup> .

فمقتل رسول ﷺ له الأولوية الأولى في أهداف الحرب ، ومقتل أبي بكر وعمر له الأولوية الثانية . وكما يقول الإمام الصالحي : ( ولم يسأل عن هذه الثلاثة إلا لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم )<sup>(٤)</sup> .

ومن أجل ذلك كان أهالم الأكبر لأبي سفيان هو : قتل رسول الله ﷺ . فكان ذلك العربي الفدائي الذي عرض على أبي سفيان القيام بأخطر مهمة في دنيا العرب آنذاك . ٢ - وتعود إلى ذهاننا قصة عمير بن وهب الجمحي الذي جاء يقتال رسول الله ﷺ بعد بدر بتأمر سرى بيته وبين سيد قومه من بنى جماعة صفوان بن أمية ، وكلا البطلين فاتكان : عمير شيطان قريش ، وهذا العربي الذي لم نتعرف على اسمه ، وكلاهما وقعت الشبهة فيه ، قبل الإقدام على الاغتيال ، وكلاهما فوجئا بأن رسول الله ﷺ هو الذي يقص عليهما خبر المؤامرة كاملاً ، وكلاهما لا يتمالك أن يسلم خالصاً بقلبه أمام هذه المعجزة ، وإنما الذي تجده عند هذا العربي زيادة عما لدى عمير رغبة هو ذلك الخوف والرعب الذي ملا قلبه ( والله يا محمد ما كنت أفرق الرجال . فما هو أن رأيتك ، فذهب عقلى ، وضعفت نفسي ، ثم اطلعت على ما همت به مما سبقت به الركبان ، ولم يعلمه أحد ، فعرفت أنك منزع ) .

(١) سير المهدى والرشاد للصالحي ٣٢٤ / ٤ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣٦ / ٣ .

(٤) سير المهدى والرشاد ٤ / ٤ .

(٣) مستند أحمد ١ / ٢٨٨ .

وهذا هو حد البطولة في دنيا العرب آنذاك لمن يجرؤ أن يدخل مدينة العدو ، ويصل إلى قيادة هذا العدو ، فلما أن ينجح بجهة ثم يقتل ، وإنما أن يفشل ويقتل ، وإذا بهذا الفاتك يتحول جندياً في جيش النبوة ، وحرص رسول الله ﷺ على هداية الفاتك القادم لقتله يعنيها كثيراً .

ويهمنا أن يبقى دائماً حياً في أذهاننا ، فرسول الله ﷺ هو للناس كافة ، وهو رحمة للعالمين لهؤلاء الذين يحاربونه ، ويقاتلونه ، ويتلمذون لدمه ، ويتلذذون بسفك هذا الدم ، هو رحمة لهم ، فلا بد أن يقدم هذا الدين لهم ، في لحظات تزول الغشاوة فيها عن قلوبهم . فهذا العربي أخذ الأمان قبل أن يسلم ، وكان بإمكانه أن يمضى إلى قومه وقد بعثت لعظمة رسول الله ﷺ ، ثم يترك نهباً للشيطان يؤلهه ويمعنه عن الإسلام ، لكن رسول الهدى والرحمة ، يريد له بعد أن يحصل على أمانه . أن تفتح عيناه لهذا التور ، ويتزاح الركام عن هذا القلب ، فتمس شغافه آيات الله تعالى وهدى رسوله . ( « أو خير من ذلك؟ » قال : ما هو؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » ) . لقد كان هذا العربي . يتظاهر بهذه اللمسة الحانية ، وهذه اللفطة الفاعلة في أعماقه ونفسه ليعلن دخوله في هذا الدين ، ومن هنا نشهد عظمة الصحابة لسيد ولد آدم ، الذي يعرف اللحظات الخامسة في النفس البشرية فيعطيها وقد الإضاعة لها ، ويتصال التيار بالطبع الأعظم ويشرق الإيمان فيها ، فتفندو إنساناً آخر ، ( هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَمِ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ) (١) .

٣ - ونعود إلى هذا العربي الفاتك الجديد : عمرو بن أمية الضمرى الذي لم يمر عليه في دنيا الإسلام أربعة أشهر ، فقد أسلم منصرف الناس من أحد ، ولعظمة معدنه أن يسلم في هذه المرحلة ، يوم يكفر ضعاف الإيمان لهؤلء المحتة التي عانوها في هذه المرحلة ، وبعد المحتة أشرق قلبه بالإسلام فإذا به يمضى جندياً في بشر معونة ، ويكون وحده من دون السبعين هو الذي يقدم إلى رسول الله ﷺ متاجروا كل مخاطر العدو ، لينقل لرسوله محمد ﷺ أنباء المحتة الجديدة في بشر معونة ، ونظر - عليه الصلاة والسلام - بهذه الطاقة الجديدة الضخمة التي انضمت لصفه ، فإذا به يعدد لآخر مهمه في دنيا العرب كذلك آنذاك ، يعده لقتل قائد جيش العدو في مكة . وزعيم المحاربين له . ويرسل معه مرافقاً من الرعيل الأول من أهل بدر وهو : سلمة بن أسلم رضي الله عنه وذلك ليتعاونا معاً في تنفيذ المهمة ، وعمرو بن أمية رضي الله عنه ثعلب الصحراء وأسدتها

(١) الجمعة / ٢ .

الهصور كما يحدث عن نفسه أنه أدرى بحكة من أهلها يدعوه سلامة <sup>رَجُلُ الْمُؤْمِنَةِ</sup> للدخولها في قلب النهار للطواف والصلاحة فيقول : ( إنى أعرف مكانة إنهم إذا أمسوا انفعوا إليها بأفنيتهم ) وهو الوقت المناسب بحيث لا يراهم أحد ، وهو الوقت الأنسب لتنفيذ المهمة . فيقول بعدها <sup>رَجُلُ الْمُؤْمِنَةِ</sup> : فأبى أن يطيعنى ، يا لعظمة التربية ! وما أحوج المجاهدين فى سبيل الله بهذا الدرس ، وعدم فقه هذا الدرس حطم ثورات إسلامية . وقضى عليها . فالبطل عمرو ، والخبير عمرو ، يأبى صاحبه البدرى أن يطيعه وهما اثنان ، فلا يمكن أن يختلفا ، فأطاع عمرو سلامة ، إن الأمر لا يحتمل أن يسير كل واحد منها باجتهاده ، وحين أصر سلامة على رأيه رغم قلة خبرته فما كان من عمرو إلا أن أطاعه ومضى معه للطواف والصلاحة فى الكعبة المشرفة ، ولو كان مثل هذه الحادثة فى غير القيم الإسلامية ، لفتكت عمرو بصاحب سلامة ، ومضى لتنفيذ مهمته ، لكن تربية الأشهر الخمسة هذه فى حضن الإسلام العظيم علمته مفهوم الطاعة ، رغم أن ليس هناك ما يوحى بامرة سلامة <sup>رَجُلُ الْمُؤْمِنَةِ</sup> لكن عمرو الوافد الجديد على الإسلام يدرك فضل سلامة ، وقدمه فى الإسلام ، وبلاه فيه فيتصرف التصرف المناسب للجنود القادة لا القادة الجنود ، ويمضى مع عمرو إلى الطواف والصلاحة .

٤- ووقع ما كان يخشاه عمرو ، حيث رأه معاوية بن أبي سفيان ، وقد سبقت أخبار عمرو إليهم ، إذ تناقلت الركبان خبر سلامة عمرو بن أمية الضمرى من جيش محمد ، وأنه وحده الذى نجى من الموت ، ومهمة الفدائى المسلم ليس هي أن يقتل ، أو أن يستشهد . إن مهمته تنفيذ ما يحمل من مهامات ، ومهمته خدمة هذا الإسلام والذود عنه والجهاد فى سبيله ، إلى آخر لحظة من حياته وفي أى لحظة يأتيه الأجل فلن يخافه لأنّه مقدر ، وعاش عمرو <sup>رَجُلُ الْمُؤْمِنَةِ</sup> هذه التربية عقب أحد . والذى نزلت لتعين مفهوم القدر والأجال والأرزاق فى النفوس . ﴿... قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بَيْوَتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُبِّلُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَصَابِعِهِمْ وَلَيَسْتَأْتِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَعِّضَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلَيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١) .

وعرف معاوية عمرو بن أمية وأنه ما جاء إلا لشر ، وهذا يعني : أن عمور وسلامة بين خيارين ، إما أن يسلما أنفسهما رخيصة لقتل ويتشفى بهم المشركون ، وإنما أن يفوتا هذا الهدف على المشركين خاصة وقد بدأ الصریخ بحكة يطالب بالقبض عليهما ،

(١) آل عمران / ١٥٤ .

وخرجت مكة لذلك ( فقالوا : ما جاء عمرو في خير ، وكان رجلا فاتكاً في الجاهلية ، فحشد أهل مكة وتجمعوا وهرب عمرو وسلمة ، وخرجوا في طلبهما ، واشتدا في الخيل ) .

والقدرة الفائقة للتخلص من المآزرق ، وأن يعجز القوم هربا ، ويفشلوا في القبض عليه هي من سمات الفدائي البقظ ، كما أن قدرة التخطيط في قلب الأزمة سمة أساسية ثانية له ، فكان اللجوء إلى الغار هو الذي عمى على قريش الخبر وعمى عليهم كذلك البحث في طريق المدينة لاستلام الراحلتين الغربيتين على الطريق ، وإلى هنا لوحاد عمرو بن أمية وصاحب سلمة لكانا قمة في العمل الفدائي أن استطاعا الخلوص من براثن العدو الذي وصلا بين يديه وأفلتا منه ، لكن أي طراز هذا عمرو بن أمية ؟ فهل يمضي إلى رسول الله ﷺ وقد نجا بروحه وانتهى الأمر ؟ وأين إذن طاقاته الهجومية في الفتكت بعده ؟ ولم لا يستعملها ؟ آن الأوان لاختبار هذه الطاقة الثالثة ( فلما كان الغد ضحوة أقبل عثمان بن مالك بن عبيد الله التميمي يختلي لفرسه حشيشا . فقلت لسلمة ابن أسلم : إذا أبصرنا أشعر بنا أهل مكة وقد أقصروا علينا ، فلم يزل يدنو من باب الغار حتى أشرف علينا . إنها لحظة التصرف الخامسة إما أن يرى عثمان عمرا وسلمة ، ثم يركض ويصرخ بأهل مكة بالقبض عليهم ، وإما أن يقتل في التو واللحظة . قبل أن ينفذ مهمته . وكانت سرعة المبادرة العظيمة من عمرو فلا يحتمل الموقف التلعثم ولا التلجلج ولا التردد ، لا يحتمل إلا تصرفًا واحدًا ينفذ الموقف . فكان هذا التصرف ( وخرجت فطعته طعنة تحت الثدي بخنجرى فسقط ، وصاح وأسمع أهل مكة ، فأقبلوا بعد ترقهم ، ودخلت الغار فقلت لصاحبى : لا تحرك وهو نحن نلحظ منذ الآن عظمة سلمة رضي الله عنه بعد أن بان له خطأ رأيه في ذلك الطواف نجده يصبح الجندي المطواع لعمرو ينفذ كل ما يوجه إليه ، ولا ينافقشه . فقد أدرك سلمة أنه أمام بطل مغوار وعيقري عظيم وخبير مجريب ، فأصبح هو الذي يطيع ولا يعصى . )

إنهم جنديان من مدرسة محمد ﷺ قديم العهد بالإسلام وأحد أهل بدر ، وحديث العهد بالإسلام ، تلقيا ما يمكن من التربية في هذه المدرسة ، وهو نحن نشهدهما في مهمتهما وهما في أرض العدو ، ورسول الله ﷺ قد تعلق قلبه بهما يتضرر أي خبر عنهما .

وقدر عمرو أن عثمان بعد أن سقط بعيدا قتيلا فلن يكون علامه على وجودهما في الغار لكن التقدير دخل في باب المغامرة حين وصلت قريش إلى القتيل عثمان . وأدركه قبل الموت ليؤكد لهم أن عمرو بن أمية قد قتلها ، ويتدخل لطف الله الربانى بهذين

الصاحبين في الغار حين فاشرت روح القتيل قبل أن تخبر قريشا بمكانتهما ، ولشن لطف الله تعالى بـ محمد ﷺ سيد الوجود وصاحب الصديق فأعمى عنهم الأبصار وقدروا من خلال وجود العنكبوت على باب الغار أنه لم يدخله أحد من قبل ميلاد محمد فجندوا رسوله ترعيهم عين الله ، ويكون هذا اللطف الرباني بأن تفيف روح عثمان التميمي قبل أن يتمكن من دلالة قريش على موقع عمرو وصاحبه - رضوان الله عليهما - وتعلم عمرو وسلمة - رضي الله عنهما - من درس الهجرة النبوية فن التخفى عن العدو، فمكثا في الغار يومين حتى سكن عنهم الطلب ، وأيست قريش منها ، كما فعل - عليه الصلاة والسلام . حيث أقام ثلاثة أيام في الغار وتأكد أن الطلب قد سكن عنه وعن أصحابه ، وإذا عاد الفدائيان إلى المدينة ، وقد نجيا بأنفسهما ، وقتلا رجلا من العدو فهي بطلة كبيرة تسجل في تاريخهما ، لكن هدفهم أكبر من ذلك .

٥ - تركنا جثة خبيب رضي الله عنه على خشبتها وكما تقول رواية أخرى نعرضها فيما بعد: (روى أن المشركين تركوا خبيبا على الخشبة ليراه الوارد والمصادر فيذهب بخبره إلى الأطراف ...) <sup>(١)</sup> ، وهو يريدون بذلك إشعار العرب بقوتهم وإثارة الرعب في صدور المسلمين من جهة ثانية ، وبقيت الخشبة رمزا للغدر الجبان ، ورمزاً لعظمته خبيب الذي انتشرت أخبار دعوته في الآفاق ، وبقيت غصة في حلق المسلمين أن يبقى خبيب مصلوبا على خشبة رضي الله عنه تجحجا بالنصر الأجوف ، وكما تقول روايتنا هذه: (فقال أصحابي : يا عمرو بن أمية ، هل لك في خبيب بن عدى ننزله . فقلت له : أين هو ؟ قال : هو ذاك مصلوب حوله الحرس . فقلت له : امهلنني وتنزع عنى فإن خشيت شيئا فاتحا إلى بعيرك ، فاقعد عليه وانت رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، ودعني فإني عالم بالمدينة ) .

ولا تستبعد أن تكون هذه المهمة السرية قد أبلغها عمرو رضي الله عنه إضافة إلى مهمة قتل أبي سفيان لنجمع بينها وبين رواية الإمام أحمد - رحمه الله - عن عمرو بن أمية والتي يقول فيها : (عن عمرو بن أمية أن رسول الله ﷺ بعثه وحده علينا على قريش ، قال: فجئت إلى خشبة خبيب وأنا أتخوف العيون فرققت فيها ، فحللت خبيباً فوقع إلى الأرض ، فاتبعته غير بعيد ثم التفت فلم أر خبيباً ولكأنما ابتلعه الأرض ، فلم ير خبيب أثراً حتى الساعة) <sup>(٢)</sup> .

أما روايتنا هذه عند البيهقي ففيها ( ثم اشتددت عليه حتى حلت ، فحملته على ظهرى ، فما مشيته به إلا عشرين ذراعاً حتى استيقظوا فخرجوها في طلب أثري ،

<sup>(١)</sup> تاريخ الخميس للديار بكرى ٤٥٨ / ١ ، ٢٨٧ / ٥ .

<sup>(٢)</sup> مسند أحمد ١٣٩ / ٤ ، ٤٥٨ .

فطرحت الخشبة ، فما أنسى وقعاها دبًّا - يعني صوتها - ثم أهلت عليه من التراب برجلي ) .

المهم أن صاحبينا افترقا ، وغدا سلمة رضي الله عنه الجندي المطبع لعمرو ، حيث نفذ توجيهاته كاملة . ( فانطلق صاحبى إلى البعير فركبه ، وأتى النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه فأخبره ) ، وبقيت عملية اقتحام مكة والوصول إلى جثة خبيب الحبيب رضي الله عنه مغامرة جديدة لا يقدر عليها إلا عمرو بن أمية الضميري ، الذي يملك من الجرأة والباهة وسرعة البديهة وخفة الحركة ما يجعله مؤهلاً لهذه المهمة الخطيرة الثانية ، ونجحت المهمة ، وأخذ خبيباً رضي الله عنه وحمله على ظهره ، أو أنه وقع بعد أن فك وثاقه عن الخشبة أو رمى الخشبة ، وكانت الأرض قد صدرت إليها أوامر الله تعالى أن تخضن عبد الحبيب خبيباً وتواريه دون أن يقوم بموارته أحد ، ولشن قامت الملائكة بحمل عامر بن فهيرة رضي الله عنه إلى السماء ووارته في علیين ، وقامت الدبر بحماية رأس عاصم بن ثابت رضي الله عنه من العدو ، ونفذ السيل المهمة المكلف بها من ربها فمضى بعاصم ورأسه بحيث لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك ، فقد قامت الأرض بتنفيذ أمر ربها سبحانه فابتلعته ؛ لأن الوقت لا يتحمل لواراته ودفنه ، فعمرو بن أمية الضميري مبعوث رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه قد يكون مصلوباً عوضاً عن خبيب لو قبضوا عليه ، وقد قتل عثمان بن عبيد الله التميمي ، فلهم ثارات عنده ، غير أن ابن الصحراء الضميري ، مضى أسرع من الريح ، وأنى لهم أن يدركوه . ( فأخذت بهم طريق الصفراء فأعياوا فرجعوا ) .

ونفذ عمرو رضي الله عنه المهمة الثانية من مواراة جثة خبيب وقتل فارساً من فرسان المشركين ومضى عائداً إلى المدينة .

٦ - ولم يكتف رضي الله عنه بهذا الصيد الثمين ، إنما رزقه الله صيداً آخر سبق له . ذاك البكري الذي يرفع عقيرته قائلاً :

ولست مسلم مادمت حيا ولست أدین دین المسلمين

إنه حاقد جديد بين يديه . من أعداء الله في الأرض .

( قلت : والله إنني لأرجو أن أقتلك . فلما نام قمت إليه فقتلته شر قتلتها أحد ) .

وإذ أراد الشرك أن يؤدب العرب بجثة خبيب رضي الله عنه فعمرو بن أمية الضميري يود أن يؤدب الشرك والمشركين بكل مجاهر بالعداوة لله ولرسوله ، فأصبحت حصيلته قتيلين ، ومواراة جثة خبيب الحبيب رضي الله عنه .

٧ - وكانت المفاجأة الجديدة : رجلان من قريش بعثهما عمرو يتحسان الأخبار ، إنهم رجلان وهو رجل واحد . أى شكيمة هذه ؟ وأى قوة هذه ، أن يتحدى الرجلين ، وليس معه إلا قوسه وخنجره ؟ فيقول لهما : استأسرا ، ( فأبى أحدهما فرميته فقتله . فلما رأى ذلك الآخر استأسر ) ، وارتفعت الغنيمة عند عمرو إلى ثلاثة قتلى ، مع أسير ، ومواراة جثة خبيب في المهمة السرية التي مضى بها من قتل أبي سفيان ، واستنقاذ جثة خبيب رض وكل الذي يعرفه صاحبه سلمة عنه أنه تركه يعالج خشبة خبيب ، فإذا به يقود أسيراً ويختلف خلفه ثلاثة قتلى فقط ، وعلمه بواحد منهم وهو القرشي التميمي .

٨ - ونجا بـ المدينة كلها بقدم عمرو الذي كان بحكم المفقود بعد وصول صاحبه قيله بثلاثة أيام ، وتركه داخل مكة ، وليس أشيخ مكة فقط يعرفون فارس الصحراء عمر رض فأشيخ المدينة كذلك يعرفونه ، وأصبح لصبيان المدينة رمزاً للبطولة والشجاعة والتضحية . فما أن سمعوا من أشيخهم بقدوم عمرو حتى مضوا يشتدون إلى الحبيب المصطفى صل يقرون عينه بقدوم فارسه الحبيب وبين يديه الأسير القرشي ، وكانت لحظة السعادة الكبرى ، وقد مثل عمرو بين يدي رسول الله صل ، ومعه الأسير الذي ربط إيهاميه بسيفة قوسه ، والنبي صل يضحك لعودة فارسه إليه ، ولتحقيق تلك الهمات الجسم ، ولعودة هذه الطاقات الضخمة إليه لتكون في خدمة الإسلام من جديد ، ولتكون الأسوة والقدوة للأجيال التي تترى على هذه الشجاعة وهذه الجرأة وهذه النجدة ، ومضى حديث عمرو بن أمية يملاً الآفاق في خدمة الإسلام العظيم ، وكان حسرة وكمنا وغيظاً في قلوب أعدائه .

## غزوة بدر الموعد

١- قال ابن إسحاق : ثم خرج في شعبان إلى بدر لم يعاد أبي سفيان حتى نزله . قال ابن هشام : واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول الانصاري قال : ابن إسحاق : فأقام عليه ليال يتظاهر أبا سفيان ، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية ظهران وبعض الناس يقول : قد بلغ عسفان ثم بدا له في الرجوع ، فقال : يا عشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعنون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإن راجع فارجعوا . فرجع الناس ، فسماهم أهل مكة جيش السوق يقولون : إنما خرجتكم تشربون السوق

وأقام رسول الله ﷺ على بدر يتظاهر أبا سفيان لم يعاده فأناه مخشي بن عمرو الضمرى ، وهو الذي كان وادعه على بنى ضمرة في غزوة ودان ، فقال : يا محمد ، أجبت للقاء قريش على هذا الماء ؟ قال : « نعم يا أبا بنى ضمرة ، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك » قال : لا والله يا محمد ، ما لنا بذلك من حاجة .

فأقام رسول الله ﷺ يتظاهر أبا سفيان ، فمر به معبد بن أبي معد الخزاعي فقال ، وقد رأى مكان رسول الله ﷺ ونادته تهوى به :

قد نفرت من رفقي محمد  
تهوى على دين أبيها الأتلد  
قد جعلت ماء قدید موعدى  
وماء ضجنان لها صحي الغد

وقال عبدالله بن رواحة في ذلك ، قال ابن هشام : أنسدناها أبو زيد الانصاري لكتاب بن مالك :

وعدنا أبا سفيان بدرأ فلم نجد  
ليمعاده صدقأ وما كان وافيأ  
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا  
تركنا به أوصال عتبة وابنه  
لأبى ذميماً وافتقدت المواليا  
وعمراً أبا جهل تركناه ثاوياً

عصيتم رسول الله أَفْ لِدِينِكُمْ  
فَلَئِنِي وَإِنْ عَنْفَتُمُونِي لِقَاتِلٍ أَطْعَنَاهُ  
أَطْعَنَاهُ لَمْ نَعْدَهُ فِينَا بَغِيرَه  
شَهَابًا لَّنَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيلِ هَادِيًّا<sup>(۱)</sup>

٢ - وأما رواية موسى بن عقبة كما ذكرها البيهقي :

( عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب ، وهذا لفظ حديث إسماعيل عن عمه  
موسى قال :

ثم إن رسول الله استنصر المسلمين لموعد أبي سفيان بدرًا ، وكان أهلاً للصدق  
والوفاء بِعَهْدِهِ . فاحتمل الشيطان أولياء من الناس ، فمشوا في الناس يخوّفونهم وقالوا :  
قد أخبرنا وأنتم أن قد جمعوا لكم مثل الليل من الناس يرجون أن يوافقوكم  
فيتهبونكم ، فالخذر الخذر لا تغدو . فعصم الله - عز وجل - المسلمين من تخويف  
الشيطان ، فاستجابوا لله ورسوله ، وخرجوا ببساط لهم ، وقالوا : إن لقينا أبا سفيان  
 فهو الذي خرجنا له ، وإن لم نلقه ابتعنا ببساطتنا ، وكان بدر متجرأً يوافي في كل  
عام . فانطلقوا حتى أتوا موسم بدر فقضوا منه حاجتهم ، وأختلف أبو سفيان الموعد ،  
فلم يخرج هو ولا أصحابه ، وأقبل رجل من بنى ضمرة بينه وبين المسلمين حلف ،  
فقال : والله إن كنا لقد أخبرنا أنه لم يقت منكم أحد فما أعملكم إلى أهل هذا الموسم ؟  
فقال رسول الله بِعَهْدِهِ وهو يريد أن يبلغ ذلك عدوه من قريش : « أعملنا إليه موعد أبا  
سفيان وأصحابه وقتلهم ، وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك حلفكم ثم  
جالدنكم قبل أن نبرح منزلنا هذا ». فقال الضمرى : معاذ الله بل نكف أيدينا عنكم  
ونمسك بحلفكم ، وزعموا أنه مر عليهم ابن حمّام . فقال : من هؤلاء ؟ فقالوا :  
رسول الله وأصحابه يتظرون أبا سفيان ومن معه من قريش ، فخرج يرتعج :

تهوى على دين أبيها الأتلد      إذ نفرت من رُفْقَتِي مُحَمَّد

وعجوة موضوعة كاجلمند      إذ جعلت ماء قديد موعد

وصحّجت مياها ضحي الغد

فذكروا أن ابن الحمام قدم على قريش فقال : هذا محمد وأصحابه يتظرونكم  
لموعدكم . فقال أبو سفيان : قد والله صدق ، فنفروا وجمعوا الأموال ، فمن نشط  
منهم قووه ، ولم يُقبل من أحد منهم دون أوقية ثم سار حتى أقام بمجنة من عسفان

(۱) السيرة النبوية لأبن هشام ٢٩٢/٣ - ٢٩٤ .

ماشاء الله أن يقيم ، ثم اتمن هو وأصحابه فقال أبو سفيان: ما يصلحكم إلا عام خصب  
ترعون فيه السُّمُّ ، وتشربون من اللبن . ثم رجع إلى مكة وانصرف رسول الله ﷺ إلى  
المدينة بنعمة من الله وفضل . فكانت تلك الغزوة تدعى غزوة جيش السويف )١( .

١ - لقد كان موعد بدر الموعد موطن خلاف مثل ذات الرقاع . فقد ذهب الواقدي  
إلى أنها في ذي القعدة ، ( وكانت لهلال ذي القعدة على رأس خمسة وأربعين شهراً ،  
وغاب رسول الله ﷺ فيها ست عشرة ليلة ، ورجع إلى المدينة لأربع عشرة بقيت من  
ذى القعدة ، واستختلف على المدينة ابن رواحة )٢( .

لكن الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : رجح أنها في شعبان كما ذهب إلى ذلك ابن  
إسحاق وموسى بن عقبة أئمة المغازي ، فقال : ( وال الصحيح قول ابن إسحاق : أن ذلك  
في شعبان من السنة الرابعة ووافق قول موسى بن عقبة ، أنها في شعبان ، لكن قال:  
في سنة ثلاثة وهذا وهم . . . ) .

ورجح البهقى كذلك قول الإمامين : ابن إسحاق وابن عقبة فقال :

( وزعم الواقدي : أنه انتهى في هذه الغزوة إلى بدر هلال ذي القعدة على رأس  
خمسة وأربعين شهراً ، وخرج في ألف وخمسمائة من أصحابه ، وقول موسى بن  
عقبة : أنها كانت في شعبان أصح والله أعلم )٣( .

ولشن لم نأخذ بقول الواقدي بموعد الغزوة . لكن أجواء هذه الغزوة لا نجد لها إلا  
عنه حيث يقول :

( لما أراد أبو سفيان أن ينصرف يوم أحد نادى موعد بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس  
الحول . نلتقي فيه فنقتل . فقال رسول الله ﷺ ، لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : « قل نعم إن  
شاء الله » فافتراق الناس على ذلك . ورجعت قريش فخبروا مَن قبلهم بالموعد ، وتهيؤوا  
للخروج وأجلبوا ، وكان هذا عندهم أعظم الأيام لأنهم رجعوا من أحد والدولة لهم ،  
طمعوا في بدر الموعد أيضاً بمثل ذلك الظرف ، وكانت بدر الصفراء مجتمعاً يجتمع فيه  
العرب وسوقاً تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان ليال خلون منه ، فإذا مضت ثمان ليال  
 منه تفرق الناس إلى بلادهم . فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله  
ﷺ وجعل يحب أن يقيم رسول الله ﷺ في المدينة ولا يوافقون الموعد . فكان كل من  
ورد عليه مكة يريد المدينة أظهر له : إنما نريد أن نغزو محمداً في جمع كثيف ، فيقدم

٢) المغاري للواقدي ١ / ٣٨٤ .

١) دلائل النبوة للبيهقي ٣ / ٣٨٤ - ٣٨٦ .

٣) دلائل النبوة للبيهقي ٣ / ٣٨٨ .

القادم على أصحاب رسول الله فيراهم على تجهيز يقول : تركت أبا سفيان قد جمع الجموع وسار في العرب ليسير إليكم لموعدكم ، فيكره ذلك المسلمين ، وبهيمهم ذلك .

٢ - لقد كانت الأرض العربية والقبائل المجاورة تترقب نتائج المعركة بين محمد صلوات الله عليه وآله وسالم وبين قريش ، ولئن عجز أهل مكة عن إنهاء محمد صلوات الله عليه وآله وسالم في أحد كما خططوا . فموعد بدر الموعد الذي عرفته العرب . كان العرب يتربونه ليروا عم ينكشف ، وإن كان هو القبائل المجاورة كلها مع قريش لكنها أدركت ومن خلال الاحتكاك المباشر وغير المباشر أنها غير قادرة على النيل من محمد صلوات الله عليه وآله وسالم وكتائب المهاجرين والأنصار حوله ، وانتشرت في الآفاق أخبار حب أصحاب محمد لمحمد صلوات الله عليه وآله وسالم في قصة خبيب وزيد ، وفي مقتل عاصم وإخوانه ، وفي مقتل أصحاب الرجيع ، وأنه لن يصل أحد إلى محمد ، وفي المؤمنين قلب يخفق أو عين تطرف ، ورسخت هذه المعانى في قلوبهم وعقولهم .

ويدرك أبو سفيان أنه المعنى <sup>الأول</sup> في المعركة ، وأنه هو الذي حدد موعد اللقاء . وهذا الموعد قد أر夫 ، ولا خيار له في المواجهة ، ويستذكر أحداً وما حشد لها من قوى ويستذكر الفشل الذي عاد به دون استئصال شأفة المسلمين ، فتحرك أبو سفيان على خططين :

**الخط الأول :** هو التعبئة للمواجهة ( فنفروا وجمعوا الأموال ، فمن نشط منهم قوله ، ولم يقبل من أحد منهم دون أوقية ثم سار حتى أقام بمجنة من عُسفان ماشاء الله له أن يقيمه ) <sup>(١)</sup> .

**الخط الثاني :** وهو الحرب الدعائية والتخديل للصف الإسلامي على أمل تحطيم أعصاب المسلمين والخيلولة دون قدمهم لبدر الموعد ؛ لأنه أدرك ببعد نظره الحربي ، وهو القائد المجرب . أنه عاجز عن تحقيق أي نصر ، ولن ينشط معه أحد للمواجهة ، ومضى في الحرب السياسية أبعد خطى مما مضى في الحرب العسكرية .

فكان كل من ورد عليه مكة يريد المدينة أظهر له : إنا نريد أن نغزو محمدًا في جمع كثيف ، فيقدم القادر على أصحاب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسالم فيراهم على تجهيز فيقول : تركت أبا سفيان قد جمع الجموع وسار في العرب ليسير إليكم لموعدكم ، فيكره ذلك المسلمين ذلك وبهيمهم ذلك .

وكان نعيم بن مسعود سيد بنى أشجع يمسك العصا من الوسط . فهو يحاول أن يحافظ على صداقة قريش وصداقة محمد صلوات الله عليه وآله وسالم ، وقد مثل النموذج الذى ذكر فى القرآن

(١) المغارى للحافظ النعيمى من كتاب تاريخ الإسلام / ٢٥٠ .

عن هذا النوع من النفاق : « إِلَّا الَّذِينَ يَصْلُوْنَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيَانَقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَسْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا » (١) .

وكان نعيم بن مسعود من هذا الطراز ، وقد رأى قوة محمد وشدة شكيمته ، فليس له مصلحة في مواجهة أحد ، وجاء زائراً لملكة . فاللتقي بأبي سفيان بن حرب زعيم قريش . فأفضى أبو سفيان له بذات نفسه بطبيعة الصداقة بينهما .

( يا نعيم ، إني وعدت محمداً وأصحابه يوم أحد أن نلتقي نحن وهو يبشر الصفراء على رأس الحول وقد جاء ذلك . فقال نعيم : ما أقدمنى إلا ما رأيت محمداً وأصحابه يصنعون من إعداد السلاح والكراع وقد تجلبَ إليه حلفاء الأوس من بلي وجهينة وغيرهم . فتركت المدينة أمس وهي كالمرانة .

فقال أبو سفيان : أحق ما تقول ؟ قال : أى والله .

فجزوا نعيم خيراً ووصلوه وأعانوه . فقال أبوسفيان: أسمعك تذكر ما تذكر ، ما قد أعدوا وهذا عام جدب .

فيقول نعيم مقاطعاً أبا سفيان في حديثه : الأرض مثل ظهر الترس ليس فيها لغير شيء

**فيتاجم أبوسفیان حدیثه قائلًا :**

إنما يصلحنا عام خصب غيداق ترعى فيه الظهر والخيل ونشرب اللبن ، وأنا أكره  
أن يخرج محمد وأصحابه ولا أخرج فيجترئون علينا ، ويكون الخلف من قبلهم  
أحب إلى .

كان أبو سفيان يتكلم ، وقد أعد في ذهنه الخطة السياسية المناسبة في حرب الأعصاب بين الفريقين . فقال لنعيم :

نجعل لك عشرين فريضة<sup>(٢)</sup> ، عشرأ جذاعاً<sup>(٣)</sup> ، عشرأ حفافاً<sup>(٤)</sup> ، وتوضع لك على يدي سهيل بن عمرو .

(٢) الفرضية : التوفيق التي تعطى :

(٣) الجذاع : جمع جذعة وهو من الإبل ما دخل في السنة الخامسة .

(٤) الحقاق : جمع حقة وهو من الإبل ما دخل في السنة الرابعة إلى آخرها وسمى بذلك لأنه استحقه الركوب.

ويضمنها لك . قال نعيم : رضيت - وكان سهيل صديقاً لنعيم - فجاء سهيلاً .  
قال: يا أبا يزيد ، أتضمن لى عشرين فريضة على أن أقدم المدينة فأخذل أصحاب  
محمد؟ قال : نعم . قال : فلاني خارج .

٣ - ولنمض مع سهيل ، ومع خطة أبي سفيان في حربه السياسية ، ودورها في  
الصنف الإسلامي : ( فخرج على بغير حملوه عليه ، وأسرع السير فقدم وقد حل  
رأسه معتمراً . فوجد أصحاب رسول الله ﷺ يتجهزون . فقال أصحاب رسول الله ﷺ :  
من أين يا نعيم؟ قال : خرجت معتمراً إلى مكة . فقالوا : ألك علم بأبي سفيان؟  
قال : نعم تركت أبي سفيان قد جمع الجموع ، وأجلب معه العرب ، فهو جاء بما لا قبل  
لهم به . فأقيموا ولا تخروا ، فإنهم قد أتواكم في داركم وقراركم . فلن يفلت منكم  
إلا الشريد ، وقتل سراتكم ، وأصابوا محمداً في نفسه ما أصابه من الجراح .  
فتريدون أن تخرجوا إليهم فتلقوهم في موضع من الأرض؟! بس الرأي رأيت  
لأنفسكم ، والله ما أرى أن يفلت منكم أحد ، وجعل يطوف بهذا القول في أصحاب  
رسول الله ﷺ حتى رعبهم ، وكره إليهم الخروج ، حتى نطقوا بتصديق قول نعيم أو  
من نطق منهم . فاستبشر بذلك المنافقون واليهود وقالوا : محمد لا يفلت من هذا  
الجمع ! واحتمل الشيطان أولياءه من الناس لخوف المسلمين حتى بلغ رسول الله ﷺ إلا يخرج معه أحد ) .  
وحيث أنا لا نستطيع بناء هذا الوضع النفسي على رواية الواقدي . لكننا نجد عرضاً  
له في القرآن الكريم نفسه الذي يعرض هذه المرحلة من الخوف عند المسلمين، حيث  
يقول - عز وجل - واصفاً الوضع النفسي الذي آل إليه المسلمين ، ودور المنافقين في  
نشره وبث الرعب وتشييط الهمم :

﴿ إِذَا جَاءُهُمْ أَعْرِمُ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفُ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرُّسُولِ وَإِلَى أُولَئِكَ الْأَمْرِ  
مِنْهُمْ تَعْلَمُ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً لَاتَّبِعُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا .  
فَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُلُّ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسْيَ اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَاسَ الدِّينَ كَفَرُوا  
وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا وَأَشَدُ تَكْبِيلًا ﴾ (١) .

ويتحدث سيد - رحمه الله - عن هذا الجو النفسي قائلاً تعقيباً على هذه الآية :  
ومن خلال هذه الآية بالإضافة إلى ما قبلها تبرز لنا ملامح كثيرة في الجماعة

المسلمة يومذاك ، كما تبرز لنا ملامح كثيرة في النفس البشرية في كل حين :

أ - يبرز لنا مدى الخلخلة في الصف المسلم ، وعمق آثار التبطئة والتعويق والتشييط فيه حتى تكون وسيلة الاستهانة والاستجاشة هي تكليف النبي ﷺ أن يقاتل في سبيل الله ولو كان وحده . ليس عليه إلا نفسه مع تحريض المؤمنين ، غير متوقف مضيه في الجهاد على استجابتهم أو عدم استجابتهم ، ولو أن عدم استجابتهم جملة أمر لا يكون ، ولكن وضع المسألة بهذا الوضع يدل على ضرورة إبراز هذا التكليف على هذا النحو ، واستجاشة النفوس له هذه الاستجاشة ، فوق ما يحمله النص - طبعاً - من حقيقة أساسية في التصور الإسلامي ، وهي أن كل فرد لا يكلّف إلا نفسه .

ب - كما يبرز لنا مدى المخاوف والمتاعب في التعرض لقتال المشركين يومذاك ، حتى ليكون أقصى ما يعلق الله به رجاء المؤمنين أن يتولى هو سبحانه كف بأس الذين كفروا . فيكون المسلمون ستاراً لقدرته في كف بأسهم عن المسلمين ، مع إبراز قوة بأس الذين كفروا يومذاك ، والمخاوف المبثوثة في الصف المسلم ، وربما كان هذا بين أحد والختنق ، فهذه أحرج الأوقات التي مررت بها الجماعة المسلمة في المدينة بين المنافقين ، وكيد اليهود ، وتحفظ المشركين ، وعدم اكتمال التصور الإسلامي ووضوحه وتناسقه بين المسلمين .

ج - كذلك تبرز لنا حاجة النفس البشرية ، وهي تدفع إلى التكاليف التي تشغّلها : إلى شدة الارتباط بالله ، وشدة الطمأنينة إليه ، وشدة الاستعانت به ، وشدة الثقة بقدرته وقوته . فكل وسائل التقوية غير هذه لا تجد في حين يبلغ الخطر قمته ، وهذه كلها حقائق يستخدمها المنهج الرباني ، والله هو الذي خلق هذه النفوس ، وهو الذي يعلم كيف تُربى ، وكيف تُقوى ، وكيف تستجاش وكيف تستجيب<sup>(١)</sup> .

ولا شك أن دور نعيم بن مسعود كان دوراً سيئاً في تخذيل الصف المسلم ، ولا ننسى أن المنافقين المبثوثين في الصف ، قد حملوا هذه الدعوة ، ونشطوا في تضليل قوة قريش .

ونقف عند الصف الإسلامي . الذي لم يمر عام له على غزو أحد ، ولا تزال آثار الجراح فاشية فيه ، ولا تزال دماء الشهداء ساخنة في القلوب والنفوس ، ولا تزال آثار المحنّة والنكبة والقتل غالباً الجلو ، فيأتي هذا التشييط ليجد بعض الأذان الصاغية ، ويجد بعض النفوس تتجاوز معه . فكانت التربية القرآنية من السماء في قطع دابر الفتنة أولاً من الجنور : «إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخُوفِ أَذَّاعُوهُ ..» .

(١) في ظلال القرآن ٢ / ٥ / ٧٢٥ .

وإذا كان المنافقون هم الذين يشيرون ذلك فلا عجب فهى مهمتهم ، وهى طبعتهم لكن النص يوحى بتجاوز الكثير من أفراد الصف المؤمن وتناقله لهذا الأمر دون العودة فيه إلى أولى الأمر عامة وإلى النبي ﷺ خاصة .

لابد أن ندرك نقاط الضعف في الصف الإسلامي ، لتشهد طريقة المعالجة القرآنية وطريقة التربية النبوية في اجتثاث هذا الضعف وحربه . فلم يكن المسلمون كملأاً ، خلّصاً ، إنما هم بشر ينالهم الضعف البشري ، وينالهم الخوف البشري ، وينالهم التأثر والرعب البشري فيأتي سيد الخلق إلى هذا الضعف ، فيعالجه بيده الحانية ، وبحكمته البالغة .

وللتتصور قائداً ترزع صفة هذا التزعزع : ( حتى خاف رسول الله ﷺ إلا يخرج معه أحد ) وجاءه القرآن الكريم ، وجاءه جبريل - عليه السلام - ليقول له : « **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ** » .

ثم تكون الخطوة الثانية « ... وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ ... ». .

وفي هذه المرحلة العصبية . تبدو كذلك عظمة تربية جيل القادة .

( جاء أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد سمعا ما سمعا فقا : يا رسول الله ، إن الله مظهر دينه ، ومحظى به ، وقد وعدنا القوم موعداً ونحن لا نحب أن تخلف عن القوم فيرون أن هذا جبن منا عنهم ، فسر لموعدهم ، فوالله إن في ذلك خيراً ) .

هذه هي هيئة أركان حرب النبي ﷺ ، التي قال عنها - عليه الصلاة والسلام - :  
« لو اتفقتما على أمر ما خالفتكمما » .

وحتى هذه اللحظة تبدو خطة أبي سفيان ، وقد نجحت مائة في المائة وحققت أهدافها في تخذيل أصحاب محمد ﷺ عن الخروج للمواجهة .

لكن سيد القادة في الوجود ، وهو يرى صفة الذي سيقاتل به ، ويعرف مدى تأثيره فيه ، وتفاعلاته معه ، وقد رأى ابتداءً رأى هيئة أركان حربه في الإصرار على المواجهة .

فسر رسول الله ﷺ بذلك ثم قال : « والذى نفسي بيده لأنخرجن وإن لم يخرج معى أحد » ، وسرت هذه الكلمة في الصف الإسلامي سريان النار في الهشيم فأحرقت كل مواقف التردد والرعب والخوف ، وكسرت الحاجز النفسي من مواجهة قريش ،

خصوصاً ، وقد وعدهم الله تعالى بقوله : « عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُ  
بَأْسًا وَأَشَدُ تَكْبِيلًا » .

وذلك بعد تحريض المؤمنين ، ويتبع لنا الواقعى وصفه فى رواية عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

( لقد رأينا وقد قُذف الرعب فى قلوبنا . فما أرى أحداً له نية فى الخروج . . . ) .

وأمام تحريض رسول الله ﷺ المؤمنين ، وأمام قوله المصطفى ﷺ : « لا يخرج من  
 وإن لم يخرج معى أحد » ، وأمام استجاشة هذه القلوب المؤمنة من الله عز وجل أعظم  
استجاشة « فَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحْرَضَ الْمُؤْمِنِينَ » .

أمام هذه الأجواء العظيمة من تربية النبوة ومعالجة الضعف والخلخلة فيها سرت  
روح جديدة في الصف الإسلامي وصفها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله :

( حتى نهيج الله تعالى لل المسلمين بصائرهم ، وأذهب عنهم تخويف الشيطان ،  
فخرجوا ) . ومن خلال عظمة القائد ، وعظمة تربيته ، وقدرته على التأثير في صفة ،  
والتحريض المستمر للجهاد ، أحبطت خطة أبو سفيان وباءت بالفشل الذريع .

وحسب أبو سفيان أنه قد حق كل آماله التي صبا بها ، وأن نعيم بن مسعود  
سوف يخذل أصحاب محمد ﷺ ، فعاد راجعاً إلى مكة .

فماذا كانت آثار هذه المسيرة العسكرية ، وأثار استعراض القوة النبوية في أعظم  
مواسم العرب ؟

( وكان رسول الله ﷺ قد خرج في ألف وخمسمائة من أصحابه ، وكانت الخيل  
عشرة أفراط ، فرس لرسول الله ﷺ ، وفرس لأبي بكر ، وفرس لعمر ، وفرس لأبي  
قتادة ، وفرس لسعيد بن زيد ، وفرس للمقداد ، وفرس للحباب ، وفرس للزبير ،  
وفرس لعبد بن بشر .

لقد تضاعف العدد ، وتضاعفت الأفراط خلال أقل من عام ، واستعاد المسلمون  
قوتهم ، ووحدة صفthem ، وانطلقوا نحو بدر الصفراء ، حيث يحدثنا المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن  
جانب من هذا الخروج ، وأثاره في الصف المسلم ، والصف المشرك .

( فحدثني على بن زيد ، عن أبيه قال : قال المقداد : شهدت بدر الموعد على  
فرسى سبعة ، أركب ظهرها ذاهباً وراجعاً ، فلم يلق كيداً ) .

ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، قد بعثنا نعيم بن مسعود لأن يخذل أصحاب محمد عن الخروج وهو جاهد ، ولكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتين ، ثم نرجع . فإن كان محمداً لم يخرج ، بلغه أنا خرجنا ، فرجعنا لأنه لم يخرج فيكون هذا لنا عليه ، وإن كان خرج أظهرنا أن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام عشب . قالوا : نعم ما رأيت ، فخرجت قريش وهم الفان ، ومعهم خمسون فرساً ، حتى انتهوا إلى مجنة ، ثم قال : ارجعوا ) .

#### ٤ - ونعرض صورتين متقابلين للصف الإسلامي عقب بدر وعقب أحد :

بعد بدر بعام ، وحين قدم المشركون غزوة للمسلمين ، وحيث كانت أجواء نصر بدر هي التي ترفرف عليهم رأينا إصرار الشباب المسلم على الخروج للمواجهة ، وكيف كانوا يتسابقون للخروج ، مع أن رسول الله ﷺ كان يدعوهم إلى البقاء في الدرع الحصينة المدينة ، ونقل صورة تلك الحماسة التائحة للمواجهة والخروج ( فقال فتیان أحداث لم يشهدوا بدرًا وطلبو من رسول الله ﷺ الخروج إلى عدوهم ورغبوا في الشهادة وأحبوا لقاء العدو : اخرج بنا إلى عدونا . وقال رجال من أهل السن وأهل النية منهم : حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عبادة : إنما نخشى يارسول الله ، أن يظن العدو أنا كرهنا الخروج إليهم جبنا عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر في ثلثمائة رجل فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كبير ، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا ، ورسول الله ﷺ لما يرى من إخاهم كاره ، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم يتسامون كأنهم الفحول )<sup>(١)</sup> .

كانت هذه صورتهم عقب بدر بعام ، وعقب انتصارات بدر الساحقة ، وكيف كان القائد العظيم يفكك من غلوائهم ويضعهم في صورة خطورة الأمر ويعدهم بالنصر إن صبروا .

أما الصورة اليوم وعقب أحد بعام ، وعقب محبة أحد ، وأثار الدماء والجراح والشهداء ، وأثار التخذيل الذي خطط له أبو سفيان . نجد صورة معاكسة تماماً . ( واحتمل الشيطان أولياءه من الناس لخوف المسلمين ، حتى بلغ رسول الله ﷺ ذلك وتظاهرت به الأخبار عنده حتى خاف رسول الله ﷺ إلا يخرج معه أحد )<sup>(٢)</sup> . ومقالة عثمان رضي الله عنه ( لقد رأينا وقد قُذف الرعب في قلوبنا ، فما أرى أحداً له نية في الخروج ) .

(١) المغارى للواقدى / ١ ، ٣٨٦ / ٣٨٧ .

(٢) المصدر نفسه / ١ ، ٢١٠ ، ٢١١ .

هاتان الصورتان المتقابلتان للصف الإسلامي . عاجلهما - عليه الصلة والسلام - وهو سيد القادة ، وإمام المربيين في الوجود . ففي الوقت الذي كان يكتفى من غلواء واندفاع الشباب نحو الموت في أحد ، كان يصرهم بخطورة الموقف آنذاك ، نجده هنا يحرك هذا الصف نحو المواجهة بصورة انقلابية كاملة ، فيضع فيهم القبلة التي فجرت عنصر الخوف والرعب كله من قلوبهم بقوله : « والذى نفسي بيده لاخرجن وإن لم يخرج معى أحد » .

وبهذين الموقفين استطاع - عليه الصلة والسلام - كسب المعركة .

٥ - وكما رأينا في رواية الحافظ الذهبي : أنهم أقاموا بمجنية بعسان ماشاء الله لهم أن يقيموا ! وذلك تحقيقة لخطة أبي سفيان الآمنة ، وقد أخفوا أنهم لن يخرجوا لأن العام جدب ، لكن عندما تناهت لهم الأخبار بخروج محمد ﷺ وأصحابه . قال أبو سفيان في اختيار البديل الثاني :

ارجعوا لا يصلحنا إلا عام خصب غيداق ، نرعى فيه الشجر ، ونشرب فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإن راجع فارجعوا . فسمى أهل مكة ذلك الجيش جيش السوق . يقولون : خرجوا يشربون السوق .

وحين رجع قريش مهزوزاً خائراً إلى مكة . كان الجيش الإسلامي يتحرك إلى بدر وكان يحمل لواء رسول الله ﷺ الأعظم يومئذ على بن أبي طالب ، وأقبل رجل من بنى ضمرة يقال له : مخشى بن عمرو - وهو الذي حالف رسول الله ﷺ على قومه في غزوة رسول الله ﷺ الأولى إلى ودان - والناس مجتمعون في سوقهم وأصحاب رسول الله ﷺ أكثر أهل ذلك الموسم . فقال : يا محمد ، لقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد فما أعملكم إلى أهل الموسم ؟

فقال رسول الله ﷺ - ليرفع ذلك إلى عدوه من قريش - :

« ما أخرجنا إلا موعد أبي سفيان وقتال عدونا ، وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك العهد ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا » .

فقال الضمرى : بل نكف أيدينا عنكم ونتمسك بحلفك ، وسمع بذلك معبد بن أبي معبد الخزاعي فانطلق سريعاً ، وكان مقيناً ثمانية أيام ، وقد رأى أهل الموسم ورأى أصحاب رسول الله ﷺ وسمع كلام مخشى ، فانطلق حتى قدم مكة . فكان أول من قدم بخبر موسم بدر فسألوه ، وأخبرهم بكثرة أصحاب محمد ، وأنهم أهل ذلك الموسم ، وما سمع من قول رسول الله ﷺ للضمرى وقال : وافي محمد في ألفين من أصحابه ،

وأقاموا ثمانية أيام حتى تصدعَ أهل الموسم . فقال صنوان بن أمية لابي سفيان : قد والله نهيتك يومئذ أن تعد القوم ، وقد اجترؤوا علينا ورأوا أن قد أخلفناهم ، وإنما خلّفنا الضعف عنهم . . . وقال معبد : لقد حملني ما رأيت أن قلت شعراً :

تهوى على دين أبيها الأتلد إذ جعلت ماء قديد<sup>(١)</sup> موعدى  
وماء ضجنان لها ضحى الغد . إذ نفرت من رفقتى محمد  
وعجوة موضوعة كالعنجد<sup>(٢)</sup>

لقد كان أبو جهل يقامر على زعامة العرب من خلال بدر نفسها ، وذلك يوم عرض عليه أن يرجع فاقسم قائلاً :

والله لن نرجع حتى نرد بدرأ ، فتقيم عليها ثلاثة فتشرب الخمر ، ونضرب الدفوف ، وتعزف علينا القيان ويسمع العرب بنا وبمسيرنا هذا فلا يزالون يهابوننا أبداً .

وكان قد قاد يومها ألفاً من قومه ، وهذه بدر اليوم والمسلمون هم سادة أهل الموسم وغلبة أهله ولم يقيموا ثلاثة فقط ، إنما أقاموا ثمانية أيام ، وجاؤوا يتحدون قريشاً في موعدها الذي ضربته وطلبته ، وقريش قابعة في مكة ، خانت بالوعد ، وتراجعت عنه .

وكان هذا تحولاً ضخماً في الساحة السياسية . فلم تكن كل أخبار المعارك الجانبيه تصل إلى العرب . أما موعد بدر فهو موسم حافل يرده العرب من كل موطن ، وأخر الصورة في أذهانهم عن أحد ، ومن خلال دعاية قريش وخلفائها ، وهو ما قاله حليف محمد عليه السلام مخشى بن عمرو الضمرى ، الذي تأثر بالأجواء المسممة وقال :

لقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد .

هكذا سرت الدعاية بعد أحد في أنحاء الأرض العربية ، حتى عند حلفاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وإذا بهم وبالعرب جميعاً يفاجئون بحشد قوامه ألف وخمسمائة من الأبطال . يتظرون لقاء قريش في معركة طاحنة ، وتخاذلت قريش عن ذلك اللقاء .

وكما رأينا نعيم بن مسعود الأشعري من قبل وهو صديق للفريقين محمد عليه السلام وقريش إلا أن هواه مع قريش فهو من غطfan التي تتحرش دائماً بال المسلمين في المدينة ، وتلقى التأديب المناسب ، نرى معبد بن عبد الخزاعي الذي هو صديق الفريقين محمد عليه السلام وقريش ، إلا أن هواه مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد رأيناه بعد أحد ، وفي غزوة

(١) القديد : قرية جامدة بين مكة والمدينة كثيرة المياه . (٢) العنجد : حب الزبيب أو الزبيب الأسود .

حرماء الأسد أنه هو الذي فت في عضد قريش ، وحطّم أعصابها حين صممت على العودة إلى المدينة ، وتحدّث لقريش عن الجمع الذي خرج من المدينة لملاقاتها قائلاً :

تركت محمداً وأصحابه خلفي يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف معه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا فيهم من الحقن عليكم شيء لم أر مثله قط . قال : وبذلك ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل . قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم نستأصل بقيتهم . قال : فإني أنهاك عن ذلك . والله لقد حملني مرأيت أن قلت فيهم أبیاتاً . قال : وما قلت ؟ قال :

كادت تهد من الأصوات راحتني  
تردى بأسد كرام لا تنابلة  
إذا سالت الأرض بالجرد الآبائل  
عند اللقاء ولا ميل معازيل (١)

وكان هذا آخر عهدهم بمعبود الخزاعي - وهو يومئذ مشرك - وهما هو اليوم يعود إليهم بعد عام ليخبرهم عن قوة الجيش الإسلامي ، وأعداده الضخمة ، ويقول شرعاً كما قال من قبل ، وكان الموقف الثاني الحاسم في الحرب النفسية : جوابه عليه السلام لخليفة سيد بنى ضمرة ، مخشي بن عمرو :

« وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك العهد ، ثم جالدناكم قبل أن تبرح من منزلنا هذا » .

فقال الضمرى : بل نكف أيدينا عنكم ونتمسك بحلفك .

وفي إطار الحرب النفسية والإعلامية أرسل كعب بن مالك رض أشعاره تملأ  
الجاج العربية ؛ إذ هي التي تحفظ وتحفظ الصورة العسكرية والسياسية للفريقين في  
الأذهان :

وعدنا أبا سفيان بدرأ فلم نجد  
فأقسم لـو وافيتنا فلقيتنا  
تركنا به أوصال عتبة وابنه  
عصيتم رسول الله أَفِ لدينكم  
فلا نسى وإن عنفتموني لقائل  
أطعناه لم نعدله فينا بغيره

<sup>١)</sup> المغارى من تاريخ الإسلام للحافظ النهبي / ٢٢٥ ، ٢٢٦

أما الروح المعنوية عند المسلمين فقد ارتفعت للأوج ، ووجدوا بأعينهم صدق موعد الله لهم يوم حِرَضُهُم رسول الله ﷺ على الخروج والجهاد في سبيل الله ، وكف الله بأس الذين كفروا فجبنهم عن اللقاء . كما أن الوضع الاقتصادي الصعب الذي يعانون منه قد انفرج انفراجاً كبيراً من خلال تجارات موسم بدر . يحدثنا عن ذلك عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول :

( فلقد خرجت بيضاعة إلى موسم بدر فربحت للدينار ديناراً ، فرجعنا بخير وفضل من ربنا ) . ( فسأر رسول الله ﷺ في المسلمين ، وخرجوا بيضائع لهم ونفقات ، فاتجهوا إلى بدر ليلة هلال ذى القعدة ، وقام السوق صبيحة الهلال فأقاموا ثمانية أيام والسوق قائمة )<sup>(١)</sup> ، وأتوا بأعظم فخر وأجر وثناء من الله العظيم عليهم : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهُم فزادهم إيماناً وقلوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنيعةٍ من الله وفضل لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم »<sup>(٢)</sup> .

(١) المغارى للواقدى ، والمقطفات السابقة كلها منه ١ / ٣٨٤ - ٣٨٩ .

(٢) آل عمران / ١١٣ ، ١١٤ ، وقد ورد أنها نزلت في غزوة حمراء الأسد ولا تعارض في تعدد النزول .

## عودة إلى بيت النبوة

زينب بنت خزيمة زوجاً ووفاة:

كان أعظم من فقد - عليه الصلاة والسلام - في بدر ابن عمه عبيدة بن الحارث  
شيخ المسلمين من بنى هاشم.

( فاما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد حتى قتله ،  
واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه وكر حمزة وعلى بأسافهما  
على عتبة قذفها عليه واحتتملا صاحبهما ، فجازاه إلى أصحابه ) (١) .

ولما جاؤوا به رسول الله ﷺ أضجعوا إلى جانب موقف النبي ﷺ فأفرشه رسول  
الله ﷺ قدمه الشريفة . وقال عبيدة: يا رسول الله لو أن أبي طالب حي لعلم أني أحق  
بقوله:

كذبتم وبيت الله نُبَزِّي مُحَمَّداً      ولَمَّا نطاعنْ دُونَه ونناضل  
وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نُصْرَعَ حَوْلَه      ونذهب عن أبنائنا والخلاف

فقال رسول الله ﷺ : «أشهد أنك شهيد» رواه الإمام الشافعي (٢) .

وبالصفراء توفي عبيدة بن الحارث من مصاب رجله فقالت هند بنت أئالة بن عياد  
ابن عبد المطلب ترتيه:

لقد ضُمِّنَ الصفراء مجدًا وسُوَدَّاً      وحلماً أصيلاً وافر اللب والعقل  
عبيدة فابكيه لأضيف غزية      وأرملة تهوى لأشعث كالجلذل  
وبكيه للأقوام في كل شتوة      إذا احمر آفاق السماء من الم محل (٣)

أما أرمليته زينب بنت الحارث فقد ذُهل عنها وهو يزود عن رسول الله ﷺ وحق  
نبوعه عم أبي طالب :

وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نُصْرَعَ حَوْلَه      ونذهب عن أبنائنا والخلاف

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣١٩ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٤/٥٨ .

(٣) المصدر نفسه ٤/٩٦ .

فبعد فداء رسول الله ﷺ يذهب الفدائيون عن الزوج والولد، لكن رسول الله ﷺ القائد العظيم ، وأبا الأسرة الهاشمية لا يمكن أن ينسى أرملة عبيدة بن الحارث زينب بنت خزيمة أو يذهب عنها، فقد أصبح همها يملأ قلبها وكيانه، وانتظر عاماً كاملاً حتى رقأت دموعها ، وهان مصابها فتقدم إليها خطاباً - عليه الصلاة والسلام - وانتقلت من أن تكون أرملة عبيدة رضي الله عنها لتحظى بأعظم إكرام في الوجود فتكون زوجاً لرسول الله ﷺ، وتعيش في كنفه. إنها السعيدة التي حظت بهذا الفخر، ولو لثمانية أشهر فقط، فقد غدت أمّاً للمؤمنين في الأرض، وكانت وفاتها في ربيع الآخر من العام الرابع للهجرة .

( وفيها توفيت أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث بن... . هلال بن عامر ابن صعصعة القيسية الهازنية العامرية الهمالية - رضي الله عنها - وكانت تسمى أم المساكين لإنسانها إليهم ، تزوجت أولاً بالطفيلي بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، ثم طلقها فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث ، فاستشهد يوم بدر ، ثم تزوجها رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثلث ، ومكثت عنده على الصحيح ثمانية أشهر . وقيل : كانت وفاتها في آخر ربيع الآخر ، وصلى عليها النبي ﷺ ودفنتها بالقبع ولها نحو ثلاثين سنة - رضي الله عنها )<sup>(١)</sup> .

وانضمت إلى السلف الصالح عثمان بن مظعون رضي الله عنه وبنته رسول الله ﷺ رقية التي غيبة المسلمين تحت الثرى ، ومنادي رسول الله ﷺ يملأ المدينة بنصر بدر .

### سيدا شباب أهل الجنة :

أما شهر زواجهما رمضان من السنة الثالثة. فقد شهد عرساً آخر هو ولادة الحسن ابن علي - رضي الله عنهما )<sup>(٢)</sup> .

ولم يخف - عليه الصلاة والسلام - فرحة بهذا الوليد الجديد . فعن علي قال: لما ولد الحسن جاء رسول الله ﷺ فقال: « أروني ابني ما سميتمه » . قلت: « سميتها حرباً قال: « بل هو حسن »<sup>(٣)</sup> .

وكان شبيهاً بالصطفى - عليه الصلاة والسلام - كما قال أنس بن مالك: لم يكن

(١) المغارى من تاريخ الإسلام للحافظ النهى / ١ ٢٥٥ .

(٢) المصدر نفسه / ١ ١٦٤ .

(٣) فضائل الصحابة / ٢ ٧٧٣ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح » .

فيهم أحد أشيه برسول الله ﷺ من الحسن بن علي عليهما السلام<sup>(١)</sup>.

ولم يخف عليه الصلاة والسلام حبه له . فعن البراء بن عازب - رضي الله عنهما - قال: رأيت رسول الله ﷺ واصعاً الحسن بن علي على عاتقه وهو يقول : « اللهم إني أحبك فأحبه » .

وأصبح الحسن حبيب المسلمين جميعاً فهم يرونـه ، وكأنـما يرونـ رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ( فعن عقبة بن الحارث قال: خرجت مع أبي بكر من صلاة العصر بعد وفاة النبي ﷺ بليلـاً وعلى يمنـي إلى جنبـه ، فمرـ بحسنـ بنـ عليـ يلـعبـ معـ غـلامـ فـ احـتمـلهـ عـلـىـ رـقـبـتـهـ وـهـ يـقـولـ :ـ وـاـ بـأـبـيـ شـبـهـ النـبـيـ ،ـ لـيـسـ شـبـهـاـ بـعـلـىـ ،ـ وـعـلـىـ يـضـحـكـ )<sup>(٢)</sup> .

ودعا رسول الله ﷺ لمن يحب حسناً أن يحبه الله فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال لحسن: « اللهم إني أحبك فأحبه، وأحب من يحبه »<sup>(٣)</sup> .

وها هو - عليه الصلاة والسلام - يحمله على المنبر، وينقل لنا أبو بكرة هذا المظـرـ الأسرـ فيـقولـ:ـ رـأـيـتـ رسـولـ اللهـ ﷺ عـلـىـ المنـبـرـ وـهـ حـسـنـ مـعـهـ ،ـ وـهـ يـقـبـلـ عـلـىـ النـاسـ مـرـةـ وـعـلـيـهـ مـرـةـ وـيـقـولـ:ـ «ـ إـنـ أـبـنـيـ هـذـاـ سـيدـ ،ـ وـلـعـلـ اللـهـ أـنـ يـصـلـحـ بـهـ بـيـنـ فـتـيـنـ مـنـ الـسـلـمـيـنـ»<sup>(٤)</sup> .  
وها هو - عليه الصلاة والسلام - يحمله في الطريق، فعن أبي هريرة قال: رأيت النبي ﷺ حاملـ الحسنـ بنـ عليـ علىـ عـاتـقـهـ وـلـعـابـهـ يـسـيلـ عـلـيـهـ .

وكانـ هذاـ درـساـ عـظـيـماـ فـيـ التـرـيـةـ .ـ يـتـعـلـمـ الـسـلـمـيـنـ مـنـ كـيـفـ يـعـالـمـونـ أـبـنـاءـهـ .ـ

ولمـ تـمـ الفـرـحةـ النـبـوـيـةـ .ـ فـهـذـاـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ رـقـيـةـ رـوـيـتـ يـحـبـوـ فـيـ حـضـنـ خـالـتـهـ أـمـ كـلـثـومـ وـيـدـرـجـ فـيـهاـ حـتـىـ يـلـغـ السـادـسـةـ مـنـ عـمـرـهـ ،ـ لـكـنـ سـرـعـانـ مـاـ يـذـبـلـ ،ـ وـيرـىـ فـيـ رسـولـ اللهـ ﷺ أـصـفـارـاـ هـالـهـ .ـ

إنـهاـ السـنـةـ الـرـابـعـةـ التـىـ أـرـفـتـ (ـ وـفـيـهاـ تـوـفـىـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ رـقـيـةـ بـنـتـ رسـولـ اللهـ ﷺ وـأـبـوـهـ عـثـمـانـ رـوـيـتـ عـنـ ستـ سـنـيـنـ ،ـ وـنـزـلـ أـبـوـهـ فـيـ حـفـرـتـهـ) .ـ

لـقـدـ وـعـىـ عـلـىـ يـتـمـ أـمـهـ رـقـيـةـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـاـ .ـ وـكـانـتـ خـالـتـهـ أـمـ كـلـثـومـ هـىـ الـامـ الثـانـيـةـ لـهـ ،ـ وـلـمـ يـكـنـ عـنـدـ عـثـمـانـ أـحـظـىـ مـنـ هـذـيـنـ النـورـيـنـ ،ـ حـيـثـ رـزـقـ مـنـ رـقـيـةـ بـولـدـ

(١) فضائل الصحابة / ٢ ٧٧٥ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».

(٢) المصدر نفسه / ٢ ٧٦٧ ، ٧٦٨ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح وهو في المسند / ٨ ١ .

(٣) فضائل الصحابة للإمام أحمد / ٢ ٧٦٨ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».

(٤) المصدر نفسه / ١ ٧٦٨ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».

تقوم أم كلثوم علي تربيتها، لكن إرادة الله تعالى شاءت أن ينتقل عبد الله إلى جوار الله، وينقطع نسل عثمان من رسول الله ﷺ، ولا راد لقضاء الله.

وعادت الفرحة إلى البيت النبوي من جديد. فهذه فاطمة - رضي الله عنها - ولما يمر عام على ولادة الحسن - رضوان الله عليه - إلا وهي تضع وليداً جديداً. حدثنا على روى عن ولادته:

( فلما ولد الحسين قال: « أروني ابني ما سميتمه؟ » قلت : سميته حربا . قال : « بل هو حسين » ) (١) .

(وفيها وفي شعبان ولد الحسين بن على - رضي الله عنهما) (٢) .

وهو الشهر الذي حمل أفراج بدر الموعد لل المسلمين حيث انقلبوا بنعمة من الله وفضل. وانضم الحسين رضي الله عنه إلى الحسن ، ليكونا زهرة النبي ﷺ في حياته من الولد، بعد فقد ولده عبد الله بن رقية . ( فعن عروة بن الزبير - رضي الله عنها - قال : إن رسول الله ﷺ قبل حسيناً وضمه إليه وجعل يشمه، وعنده رجل من الأنصار فقال الانصارى : إن لي إبناً قد بلغ ما قبله فقط فقال رسول الله ﷺ : « أرأيت إن كان الله نزع الرحمة من قلبك فما ذنبي؟ » ) (٣) .

لقد كان العار على الرجال أن يظهروا هذا الحب للأطفال الصغار حسب تقاليد الجاهلية وأعراافها، بل أن يظهره في بيتهم ، وجاء إمام المربيين - عليه الصلة والسلام - ليقبل ويضم ويشم على الملا، لتفتح هذه القلوب الجاسية على الحب الدافئ الذي ينهل الصبي منه ويتزرع عليه.

وكان - عليه الصلة والسلام - يريد أن يكسر تلك القيود الحديدية من الأعراف الجاهلية على الملا وأمام الناس جميعاً ليتجولوا إلى بؤرة النور هذه.

(فعن عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر، فحملهما، فوضعهما بين يديه ثم قال: « صدق الله ورسوله ﴿إِنَّمَا أُمُّ الْكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَّة﴾ ) (٤) نظرت إلى هذين الصبيان يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » ) (٥) .

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ١ / ٧٧٦ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح » .

(٢) المغازي من تاريخ الإسلام للحافظ النعيمى ١ / ٣٥٢ .

(٣) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢ / ٧٦٩ وقال المحقق فيه: « مرسلاً رجاله ثقات » .

(٤) التغابن / ١٧ .

(٥) المصدر السابق ٢ / ٧٧٠ ، ٧٧١ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح » .

وربط رسول الله ﷺ حب هاتين الزهرتين بحبه وبغضهما ببغضه.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني » يعني حسن وحسين (١).

وينقل لنا أبو هريرة رضي الله عنه منظراً آخر فيقول: خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه حسن وحسين هذا على عاتقه وهذا على عاتقه وهو يلثم هذا مرة ويلثم هذا مرة حتى انتهى إلينا فقال له رجل: يا رسول الله إنك لتحبهمما قال: « من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني » (٢).

وفاز هذان الطفلان بأعظم فخر في الوجود، حدثنا عنه رسول الله ﷺ فيما رواه أبو سعيد الخدري عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » (٣).

وهذه صورة ثالثة ينقلها لنا يعلى العامري : أنه خرج مع رسول الله ﷺ - يعني إلى طعام دعوا إليه. قال: فاستمثل رسول الله ﷺ أمام القوم وحسين مع غلامان يلعب فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذه، فطقطق الصبي يفر هناء وهاهنا مرة فجعل النبي ﷺ يضاحكه حتى أخذه . قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه، والأخرى تحت ذقنه ووضع فاه على فيه وقبله وقال : « حسين مني وأنا من حسين ، اللهم أحب من أحب حسينا ، حسين سبط من الأسباط » .

وإذا كانت سيادة الحسن رضي الله عنه في الدنيا قبل الآخرة قد ارتبطت بأن يصلح الله به بين فتنين من المسلمين ، فإن سيادة الحسين كانت بشهادته ومقتله . كما روى عن عائشة أو أم سلمة (شك وكيع) أن النبي ﷺ قال لإحداهما: « دخل علىَّ البيت مَلِكُ لم يدخل علىَّ قبلها فقال لى: إن ابنك هذا حسين مقتول . فإن شئت آتيك من تربة الأرض التي يقتل بها . قال: فأخرج لى تربة حمراء » (٤) ، وتمر السنون عقب السنين ، ويشور الحسين رضي الله عنه ويشهد رسول الله ﷺ مقتله . كما يحدثنا ابن عباس - رضي الله عنهما - فيقول : (رأيت النبي ﷺ فيما يرى النائم بنصف النهار أشعث أغبر بيده

(١) فضائل الصحابة / ٢ / ٧٧١ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح » .

(٢) المصدر نفسه / ٢ / ٧٧٧ وقال المحقق فيه: « عبد الرحمن بن مسعود البشكري لم أجده من وثقة ولا جرحه . ولكن صحة الحاكم حديثه ووافقه الذهبي . وقال في مجمع الزوائد / ٨ / ١٧٩ : رواه أحمد ورجاله ثقات وفي بعضهم خلاف » .

(٣) فضائل الصحابة للإمام أحمد / ٢ / ٧٧٩ ، ٧٨٠ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح » .

(٤) المصدر نفسه / ٢ / ٧٧٢ وقال المحقق فيه: « إسناده حسن وسعيد بن راشد صدوق » .

قارورة فيها دم فقلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما هذا؟ فقال: دم الحسين وأصحابه ، فلم أزل التقطه منذ اليوم فاحصينا ذلك اليوم فوجدوه قتل فى ذلك اليوم عليه السلام )١( .

### أم سلمة زوج لرسول الله ﷺ :

والذى يقرأ صفة حب النبي ﷺ للطقولة يحسب أنها هي كل حياته - عليه الصلاة والسلام - وها نحن ننتقل إلى صفحة جديدة . فإذا كان الوفاء لعبيدة بن الحارث رضي الله عنه الذى ذهل عن حيلته وقتل فى سبيل الله . أن تزوج حليلته بعد عام من وفاته، فلا غرو أن يهتم رسول الله ﷺ بأمرلة أبي سلمة بن عبد الأسد . ابن عمته برة بنت عبد المطلب ، وأخوه من الرضاعة .

فإن كان قد فقد عبيدة فى بدر، فقد فقد أحب الخلق إليه، عممه حمزة فى أحد، وأخاه من الرضاعة، وهو هو يفقد ابن عمته أبي سلمة بعد أحد .

( وكان أخا النبي من الرضاعة أرضعتهما وحمزة ثوبية مولاية أبي لهب ، ويقال: إنه كان أسلم بعد عشرة أشهر ، وكان أول من هاجر إلى الحبشة ، ثم كان أول من هاجر إلى المدينة ، ولما عَبَرَ إلى الله كان الذى أغمضه رسول الله ﷺ ، ثم دعا له ، وكان قد جرح بأحد جرحا ثم انتقض عليه ، فمات منه فى جمادى الآخرة . فلما توفى تزوجها رسول الله ﷺ حين حلّت فى شوال ، وكانت من أجمل النساء ، وهى آخر نسائه وفاة) )٢( .

ولنمض مع أم سلمة - رضى الله عنها - خطوة خطوة حتى دلفت إلى بيت النبوة .  
ها هي فى حياة زوجها الحبيب تناجيه فتقول ( فيما رواه زياد بن أبي مريم ) قالت أم سلمة لأبى سلمة: بلغنى أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة ، ثم لم تُزُوج ، إلا جمع الله بينهما فى الجنة فتعال أعاهدك ألا تزوج بعدى ، ولا أتزوج بعدى .  
قال: أتطيعينى؟ قالت: نعم . قال: إذا مت تزوجى ، اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً منى ، لا يحزنها ولا يؤذيها . فلما مات قلت: من خير من أبي سلمة؟ فما لبثت وجاء رسول الله ﷺ . فقام على الباب فذكر الخطبة إلى ابن أخيها ، أو ابنها . فقالت: أرد على رسول الله ﷺ ، أو أتقدم عليه بعيالى ، ثم جاء الغد فخطب )٣( .

(١) فضائل الصحابة / ٢ ٧٧ . وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح » .

(٢) المغارى من تاريخ الإسلام للحافظ النهى / ١ ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء / ٢ ٢٠٣ . وقال المحقق فيه: « أخرجه ابن سعد ورجاله ثقات » .

وكانت المحنـة التي هدّتها بوفاة زوجها الحبيب أبي سلمـة . فجاءت إلى النبي ﷺ فزـعـة ولـهـ تـسـفـيـةـ فيما تـقـولـ فيـ هـذـهـ المـصـبـيـةـ :

عن أم سلمـةـ قـالـتـ : مـاـ تـوـفـىـ أـتـيـتـ النـبـيـ وـكـلـلـهـ فـقـلـتـ : كـيـفـ أـقـولـ ؟ قـالـ : (قـوـلـيـ) : اللـهـمـ اـغـفـرـ لـنـاـ وـلـهـ ، وـأـعـقـبـنـاـ مـنـهـ عـقـبـةـ صـالـحةـ» . فـقـلـتـهاـ ، فـأـعـقـبـنـاـ اللـهـ مـحـمـدـاـ وـكـلـلـهـ (١) .

ومـرـتـ أـيـامـ عـدـتـهاـ ثـقـيلـةـ الـوـطـأـ عـلـيـهـ ، لـاـ تـدـرـىـ مـاـ أـكـنـ اللـهـ تـعـالـىـ لـهـ فـيـ غـيـبـهـ ، وـلـاـ تـزالـ ذـكـرـىـ زـوـجـهاـ الشـهـيدـ تـمـلاـ عـلـيـهـ كـلـ حـيـاتـهـ .

وـمـاـ هـىـ إـلـاـ أـيـامـ قـلـائـلـ حـتـىـ تـقـدـمـ لـهـ الصـدـيقـ - رـضـوانـ اللـهـ عـلـيـهـ - خـاطـبـاـ . وـلـمـ تـرـدـدـ . فـاعـتـذـرـتـ بـرـفـقـ عـنـ الزـوـاجـ مـنـ أـعـلـىـ أـصـحـابـ رـسـوـلـ اللـهـ وـكـلـلـهـ كـعـبـاـ .

وـحـيـنـ عـلـمـ عـمـرـ تـكـفـيـةـ الـوـزـيـرـ الثـانـيـ لـرـسـوـلـ اللـهـ وـكـلـلـهـ أـنـ أمـ سـلـمـةـ رـدـتـ أـبـاـ بـكـرـ لـمـ يـجـدـ حـرـجـاـ أـنـ يـتـقـدـمـ إـلـيـهـ خـاطـبـاـ . فـهـىـ مـنـ كـرـامـ نـسـاءـ بـنـىـ الـمـغـيـرـةـ . وـهـىـ بـنـتـ أـبـىـ أـمـيـةـ بـنـىـ الـمـغـيـرـةـ زـادـ الرـكـبـ ، وـإـنـ مـنـ إـكـرـامـ أـبـىـ سـلـمـةـ وـكـلـلـهـ أـنـ يـتـقـدـمـ هـؤـلـاءـ الـقـادـةـ الـأـكـفـاءـ لـهـاـ لـتـعـيـشـ فـيـ كـنـفـهـمـ وـرـعـاـيـهـمـ ، وـازـدـادـ الـأـمـرـ صـعـوبـةـ ، وـتـذـكـرـتـ أـبـاـ سـلـمـةـ وـكـلـلـهـ وـأـيـامـ الـجـهـادـ مـعـهـ وـأـيـامـ الـغـرـبـةـ وـالـوـحـشـةـ ، وـهـىـ تـخـسـ أـنـ جـرـحـهـ لـمـ يـجـفـ بـعـدـ . فـاعـتـذـرـتـ مـنـ عـمـرـ تـكـفـيـةـ .

وـكـانـ مـاـ لـمـ تـكـنـ تـحـلـمـ بـهـ بـنـتـ أـبـىـ أـمـيـةـ . جـاءـهـاـ رـسـوـلـ اللـهـ وـكـلـلـهـ خـاطـبـاـ بـعـدـ صـاحـبـيهـ أـبـىـ بـكـرـ وـعـمـرـ :

( فـعـنـ ثـابـتـ قـالـ : حـدـثـنـىـ أـبـىـ عـمـرـ بـنـ أـبـىـ سـلـمـةـ عـنـ أـبـىـ أـيـهـ قـالـ :

إـنـ أـمـ سـلـمـةـ لـمـ اـنـقـضـتـ عـدـتـهاـ خـطـبـهـاـ أـبـوـ بـكـرـ فـرـدـتـهـ ، ثـمـ خـطـبـهـاـ عـمـرـ فـرـدـتـهـ ، فـبـعـثـ إـلـيـهـ رـسـوـلـ اللـهـ وـكـلـلـهـ . فـقـالـتـ مـرـحـبـاـ : أـخـبـرـ رـسـوـلـ اللـهـ أـنـيـ غـيـرـيـ (٢) وـأـنـيـ مـصـبـيـةـ (٣) وـلـيـسـ أـحـدـ مـنـ أـوـلـيـائـ شـاهـدـ .

فـبـعـثـ إـلـيـهـ : « أـمـاـ قـوـلـكـ : إـنـيـ مـصـبـيـةـ ؛ فـإـنـ اللـهـ سـيـكـفـيـكـ صـيـانـكـ ، وـأـمـاـ قـوـلـكـ : إـنـيـ غـيـرـيـ فـسـادـعـواـ اللـهـ أـنـ يـدـهـبـ غـيـرـتـكـ ، وـأـمـاـ الـأـوـلـيـاءـ فـلـيـسـ أـحـدـ مـنـهـمـ إـلـاـ سـيـرـضـيـ بـيـ » قـالـتـ : يـاـ عـمـرـ ، قـمـ فـرـوـجـ رـسـوـلـ اللـهـ وـكـلـلـهـ .

وـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ : « أـمـاـ أـنـيـ لـاـ أـنـقـصـكـ مـاـ أـعـطـيـتـ فـلـانـةـ رـحـيـنـ وـجـرـتـينـ وـوـسـادـةـ مـنـ أـدـمـ حـشـوـهـاـ لـيـفـ » . وـكـانـ رـسـوـلـ اللـهـ وـكـلـلـهـ يـأـتـيـهـاـ فـإـذـاـ جـاءـ أـحـدـ زـيـنـبـ فـوـضـعـتـهـ فـيـ

(١) سـيـرـ أـعـلامـ الـبـلـاءـ ٢٠٦ وـقـالـ الـمـحـقـقـ فـيـهـ : « إـسـنـادـ صـحـيـحـ وـأـخـرـجـهـ أـحـمـدـ وـمـسـلـمـ وـالـتـرمـذـيـ وـأـبـنـ مـاجـةـ » .

(٢) مـصـبـيـةـ : ذـاتـ صـيـانـ وـأـلـاـدـ صـغـارـ .

(٣) غـيـرـيـ : كـثـيرـةـ الـغـيـرـةـ .

حجرها لترضعها، وكان رسول الله ﷺ حبيباً كريماً يستحب ففعل ذلك مراراً ففطن عمار بن ياسر لما تصنع، قال : فأقبل ذات يوم وجاء عمار وكان أخاه لأمها فدخل عليها فانتشطها من حجرها وقال : دعى هذه المقبوحة المشقوحة التي آذيت بها رسول الله ﷺ. فدخل ، فجعل يُقْلِبَ بصره في البيت يقول : « أين زُنَاب؟ ما فعلت زُنَاب؟ » قالت : جاء عمار فذهب بها . قال : فبني رسول الله ﷺ بأهله ثم قال : « إن شئت أن أسيع لك سبعة للنساء » <sup>(١)</sup> .

( ولابد من الإشارة إلى بعض الملاحظات في هذا الزواج النبوى العظيم :

١- لقد استجاب الله دعوة أبي سلمة وهو يختضر : اللهم اخلفنى في أهلٍ بخير، ومضى إلى ربه شهيداً فكان كافلًّا لأيتامه وراعي أهله رسول الله ﷺ، ويحسن ألا ننسى أن أبي سلمة هو ابن عمّة رسول الله ﷺ، فهو أولى الناس برعاية أهله وولده.

٢- واستجاب الله دعوة أم سلمة أن يدلها الله خيراً من مصيبتها في نفسها كانت أقل من أن تكون زوجاً لرسول الله ﷺ (إنى امرأة قد أدبر سنى وإنى امرأة أم أيتام وأنا امرأة شديدة الغيرة) لكن سيد الخلق لن يدعها لسنها أو لآيتامها أو لغيرتها . فقد جبر حاطرها، ورعى حقها، وأعلمها بكرامتها عنده وعند أهلها .

٣- ويحسن ألا ننسى كذلك أن أم سلمة من بني مخزوم أعز بطون قريش ، وهي التي كانت تحمل لواء الحرب والمواجهة لرسول الله ﷺ . ووراء هذا الزواج تفتتت حقد هذه القبيلة وتقرّب قلوب أبنائهما ، وتوطّنة وتحبب إليهم ليدخلوا في الإسلام بعد أن صاروا أصحاب رسول الله ﷺ .

٤- ويحسن ألا ننسى ذلك الأثاث البسيط الذي كان رسول الله ﷺ يقدمه لأهله رحيبين وجرتين ووسادة . أما الرمح فلطحن الشعر، وأما الجرة فللشرب، وأما الوسادة فللنوم، ونفق إجلالاً أما هذا الأثاث ، ونحن نرى عشرات الآلوف التي تصرف في الأثاث هذه الأيام ، ومن خلاله يقيم الأزواج في كثير من الأحيان <sup>(٢)</sup> .

وقد استفادت - رضي الله تعالى عنها - من هذا الأثاث : فعن المطلب بن عبد الله ابن حنطسب قال : دخلت أمّ العرب على سيد المسلمين أول العشاء عروساً وقامت آخر الليل تطحّن - يعني أم سلمة <sup>(٣)</sup> .

(١) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ وإسناده صحيح كما قال الحافظ ابن حجر : وأخرجه ابن سعد وأحمد والستاني .

(٢) من كتاب ( فقه السيرة التوبية ) للمؤلف .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢ / ٢٠٥ .

٦- وزينب هذه التي تُرْضِعُها أم سلمة هي رضيعة الشهر الأول من عمرها كما تقول أم سلمة - رضوان الله عليها - (فَلَمَّا وَضَعَتْ زَيْنَبْ جَاءَنِي رَسُولُ اللَّهِ فَخَطَبَنِي).

وقد راعى - عليه الصلة والسلام - مشاعر الأمة العظيمة لدى زوجه أم سلمة. فكان يكتفى برفقية زينب ترضع ، ويعود من حيث أتى. لو لا أن عمار بن ياسر رضي الله عنه أخذ زينب إليه فهو حالها وهي الجو للزوجين السعيدين، حيث تحدثنا أم سلمة - رضوان الله عليها - عن هذه الليلة السعيدة فتقول: فجاء النبي ﷺ، فقال: «أين زناب؟» فقيل: أخذها عمار. فقال: «إني آتكم الليلة» قالت: فوضعت ثقالي<sup>(١)</sup> وأخرجت حبات من شعير كانت في جرتني، وأخرجت شحوماً، فعصدته له ثم بات ثم أصبح فقال: «إنَّ بَكَ عَلَى أَهْلِكَ كَرَامَةً، إِنْ شَتَّتْ سَبَعَتْ لَكَ وَإِنْ أَسْبَعَ لَكَ أَسْبَعَ لِنَسَانِي»<sup>(٢)</sup>.

فكان التلطف النبوى العظيم: «أين زناب؟» في اسم التدليل لها واسم التحبب. ثم ترك لزوجه - رضى الله عنها - دون أن يفاجئها بأن تتهيا لاسعد يوم مر عليها منذ أن رأت النور ، وكان الاحتفال العظيم والوليمة الضخمة التي أعدتها لزوجها سيد ولد آدم - عليه الصلة والسلام - حبات من شعير، وأخرجت شحوماً فعصدته له.

ولا بد أن نشهد أثر هذا الوافد الجديد على بيت النبوة، أيم العرب وعكلة بنى مخزوم تدخل ضرة على عائشة وحفصة - رضوان الله عليهما - فتحدثنا الصديقة بنت الصديق عن ذلك فتقول:

(لَا ترْوَجَ النَّبِيَّ أَمْ سَلَمَةَ، حَزَنَتْ حَزَنًا شَدِيدًا لِمَا ذَكَرُوا لَنَا مِنْ جَمَالِهَا، فَتَلَطَّفَتْ حَتَّى رَأَيْتَهَا، فَرَأَيْتَهَا وَاللَّهِ أَضَعَافُ مَا وُصِفتَ لَى مِنْ الْحَسَنِ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِحَفْصَةَ، وَكَانَتَا يَدًا وَاحِدَةً. قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ إِنْ هَذِهِ إِلَّا الْغَيْرَةُ مَا هِيَ كَمَا تَقُولِينِ، وَإِنَّهَا بِجُمِيلَةٍ، فَرَأَيْتَهَا بَعْدَ، فَكَانَتْ كَمَا قَالَتْ حَفْصَةَ. وَلَكِنَّنِي كُنْتُ غَيْرِيَّ).

إنه - عليه الصلة والسلام - يخوض معركة البناء الداخلى على كل الصعد، تربية الطفل، وتربية المرأة، وتربية الرجال، وعائشة أحب خلق الله من النساء لرسول الله صلوات الله عليه وسلم لا يمنعه هذا الحب من أن يؤدى حق الرجالات العظام فى أزواجهن، وحق الدعوة فى الزواج، وحق هذه الزوجات من أن ينهلن من نور النبوة ما يشاء الله أن ينهلن كما تنهل عائشة، ولو أدى ذلك إلى حزن أحب النساء إليه فى الأرض، وتبدو عظمة عائشة التى مر عليها ثلاثة أعوام عروساً فى بيت النبوة ولا تزال ابنة الثلاثة عشر ربيعاً. حيث تفقه حدودها ، وتلتزم أدبها مع المصطفى الحبيب - عليه الصلة والسلام. لكن هذا

(١) ثقالي: ما وقى به الرحمى من الأرض.

(٢) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ٢٠٦/٢ وقال المحقق فيه: «إسناده صحيح».

لا يمنعها أبداً من أن تحافظ على عريتها في فوزها بالحب الأول بقلب المصطفى - عليه الصلاة والسلام - في أرفع أدب بشري، تخاطب به حبيبها بعد زواجه من أم سلمة لتأكد من أن عرينه حبها الأول لم يقتصر بعد .

فعن فاطمة الخزاعية قالت : سمعت عائشة تقول يوماً : دخل على رسول الله ﷺ يوماً فقلت : أين كنت منذ اليوم ؟ قال : « يا حميرة كنت عند أم سلمة » فقلت : ما تشع من أم سلمة ؟ قالت : فبسم . فقلت : يا رسول الله ألا تخبرنى عنك لو أتيت نزلت بعدها ملائكة لم تُرِعَ والأخرى قد رُعِيتْ أيهما كنت ترعى ؟ قال : « التي لم تُرِعْ ». قلت : فأنا لست كأحد من نسائك كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل غيرك . قالت : فبسم رسول الله ﷺ (١) .

ويكفي عائشة - رضي الله عنها - أن تخظى بهذه الابتسامة .

### زينب بنت جحش وزيد بن حارثة :

ومن زوج ابن عمته أم سلمة إلى ابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية : وكان من أهم عمليات البناء للأمة التي يريد لها - عليه الصلاة والسلام - والتي وجه الله تعالى لها نبيه عملية تذويب الفوارق الطبقية في مجتمع تسوده العصبية القبلية والتزعة العشارية ، ولابد أن يتم تنفيذ هذه المهمة من القمة ، حيث تكون القدوة المحذزة ، وأن يتحدث الناس عن إلغاء الفروق بين أفراد الأمة الواحدة هو شيء سهل ، لكن أن يعيشوا هذا الإلغاء هو الامتحان الصعب ، لقد كان - عليه الصلاة والسلام - يرفع من قدر مولاه زيد بن حارثة إلى درجة القيادة العليا ، وعاش الجيل الأول هذا الإلغاء ، ونضوا جنوداً تحت إمرته في أكثر من موقعة ، وأكثر من معركة ، وتحدث عن جبه العظيم له ، وعن كفاءته القيادية فقال في حق ابنته أسامة رضي الله عنه وفي حقه : « إن تعطينا إمارته فقد طعمت في إماراة أبيه ، وائم الله إن كان خليقاً بالإمارة ، وإن كان ملن أحب الناس إلى وإن ابنته هذا ملن أحب الناس إلى بعده » (٢) .

وعرف المسلمون كفاءة زيد وعظمته القيادية . فعن ابن إسحاق قال :

(٣) مابعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلا هو أميرها .

(١) الطبقات الكبرى لأبن سعد ٨ / ٨٠ .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد ، وقال المحقق فيه : « إسناده صحيح » .

(٣) المصدر نفسه ٢/٨٣٥ ، وقال المحقق فيه : « إسناده صحيح إلى أبي إسحاق . ورواه ابن سعد عن عائشة بإسناد حسن وزاد فيه : ولو بقى بعد استخلفه » .

وهذه زينب بنت جحش عريقة النسب أما وأبا . فأمها عقيلة بني هاشم . أميمة بنت عبد المطلب . وأبواها سيد من سادات بني أسد ، من أعرق القبائل العربية ، وقومها بنو أسد في مكة حلفاء بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . تحدثنا عن المحنة الكبرى التي خاضتها عقب وصولها إلى المدينة .

( أخرج الطبراني والبيهقي في سنته ، وابن عساكر من طريق الكمي بن يزيد الأنصي قال : حدثني مذكور مولى زينب بنت جحش قالت :

خطبني عدة من أصحاب النبي ﷺ فأرسلت إليه أخني يشاوره في ذلك قال : « فلما هى من يعلمها كتاب ريها وستة نبيها ؟ » قالت : من ؟ قال : « زيد بن حارثة » فغضبت وقالت : تزوج بنت عمتك مولاك ! ثم أتنى وأخبرتني بذلك . فقالت : أشد من قولها وغضبت ، فأنزل الله تعالى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قُضِيَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَ مِنْ أَمْرِهِمْ » (١) . فأرسلت إليه : زوجنى من شئت ، فزوجنى منه .. (٢) .

ولعل روایة ابن عباس تلقى إضاءة أكثر :

قال العوفى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاة زيد بن حارثة رضي الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأنصية - رضى الله عنها - فخطبها ، فقالت : لست بناكحة ، فقال رسول الله ﷺ : « بل فانكحيه » ، قالت : يا رسول الله ، أوامر في نفسي . في بينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قُضِيَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا » الآية قالت : قد رضيته لي يارسول الله ، منكحا . قال لها رسول الله ﷺ : « نعم » . قالت : إذن لا أعصي رسول الله ﷺ ، قد انكحته نفسي » (٣) .

وقال ابن لهيعة عن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة - رضى الله عنهما - فاستنكتفت منه وقالت : أنا خير منه حسبا ، وكانت امرأة فيها حدة . فأنزل الله تعالى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » الآية كلها . وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان . أنها نزلت

(١) الأحزاب / ٣٦ .

(٢) الدر المثور في التفسير بالتأثر للحافظ السيوطي ٦١٥/٦ .

(٣) تفسير الحافظ ابن كثير ٤٦٣/٥ .

في زينب بنت جحش - رضي الله عنها - حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه فامتنعت ثم أجبت<sup>(١)</sup>.

لقد كان هذا الزواج هزة عنيفة لمجتمع المدينة كله ، ورسول الله ﷺ وهو المربى الأعظم ابتدأ بتنفيذ إلغاء هذه الفوارق في النسب من ابنة عمته ، وأقرب الناس إليه ، ولم يبتدىء بها من الأنصار ، أو من القبائل الأخرى ، ولا شك أن زينب - رضي الله عنها - عانت أعظم محنـة في حياتها يوم تستيقظ فتجد نفسها زوجاً لمولى ، ولم تكن ترى لها كفـأا إلا رسول الله ﷺ أو عليه أصحابه ، وقد كان زيد من علية أصحابه ، وكان لها من قرع الإيمان قلبـه من الموالى . لكن الحس الشعورـي أنه مولـي ، ولن يرتفـع المولـي إلى مستوى المـحرـ.

وفي رواية للبزار عن أسامة بن زيد رضي الله عنه تعطينا صورة عن المـهر ، والمدة التي عاشتها زينـب - رضوان الله عليها - زوجـاً لزيد لا تجدـها إلا عنـده :

فقد أخرج البزار عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه قال : حدثـنى أـسـامةـ بنـ زـيدـ - رـضـىـ اللـهـ عـنـهـماـ - قـالـ : كـنـتـ فـيـ الـمـسـجـدـ ، فـأـتـانـىـ الـعـبـاسـ وـعـلـىـ بـنـ أـبـىـ طـالـبـ - رـضـىـ اللـهـ عـنـهـماـ - فـقـالـ : يـاـ أـسـامـةـ اـسـتـاذـنـ لـنـ عـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ . قـالـ : فـأـتـيـتـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ فـقـلـتـ : عـلـىـ وـالـعـبـاسـ يـسـتـاذـنـ . فـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ : « أـتـدـرـىـ مـاـ حـاجـتـهـماـ ؟ » قـلـتـ : لـاـ ، يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ . قـالـ : « وـلـكـنـ أـدـرـىـ » قـالـ : « فـأـذـنـ لـهـماـ » . قـالـ : يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ جـتـنـاكـ لـتـخـبـرـنـاـ أـىـ أـهـلـكـ أـحـبـ إـلـيـكـ ؟ قـالـ ﷺ : « فـاطـمـةـ بـنـ مـحـمـدـ » ، قـالـ : يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ مـاـ نـسـأـلـكـ عـنـ فـاطـمـةـ . قـالـ : « فـأـسـامـةـ بـنـ زـيدـ بـنـ حـارـثـةـ الـذـىـ أـنـعـمـ اللـهـ عـلـيـهـ وـأـنـعـمـتـ عـلـيـهـ » .<sup>(٢)</sup>

وكان رسول الله ﷺ قد زـوـجـهـ بـابـتـهـ عـمـتـهـ زـينـبـ بـنـ جـحـشـ الـأـسـدـيـةـ - رـضـىـ اللـهـ عـنـهـاـ - وـأـمـهـاـ أـمـيـمـةـ بـنـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ ، وـأـصـدـقـهـ عـشـرـةـ دـنـاـبـرـ وـسـتـينـ درـهـماـ ، وـخـمـارـاـ وـمـلـحـفـةـ وـدـرـعـاـ وـخـمـسـيـنـ مـدـاـ منـ طـعـامـ ، وـعـشـرـةـ أـمـدـادـ مـنـ تـمـرـ . قـالـهـ مـقـاتـلـ بـنـ حـيـانـ ، فـمـكـثـتـ عـنـهـ قـرـيبـاـ مـنـ سـنـةـ أـوـ فـوـقـهـاـ ثـمـ وـقـعـ بـيـنـهـماـ ، فـجـاءـ زـيدـ يـشـكـوـهـاـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ .<sup>(٢)</sup>

لم يكن مثل هذه التجربـةـ الرـائـدةـ أـنـ تـقـعـ فـيـ زـوـاجـ حـرـةـ قـرـشـيـةـ مـنـ مـوـلـيـ لـوـ لمـ يـشـرفـ عـلـيـهـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ ، وـكـانـ الـأـمـرـ قـدـ اـزـدـادـ تـعـقـيـداـ عـنـدـمـاـ نـزـلـ قـوـلـ اللـهـ عـزـ وجـلـ : « مـاـ جـعـلـ اللـهـ لـرـجـلـ مـنـ قـلـبـيـنـ فـيـ جـوـفـهـ وـمـاـ جـعـلـ أـزـوـاجـكـ الـلـاـئـيـ تـظـاهـرـونـ مـنـهـنـ ».<sup>(١)</sup>

(١) تفسـيرـ اـبـنـ كـبـيرـ ٤٦٣/٥ .

(٢) تفسـيرـ اـبـنـ كـبـيرـ ٤٦٦ .

أَمْهَاتُكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنَّ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْرُوْا نَكْمَ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيْكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعْمَدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا )١( .

فلم تعد زوجاً لزيد بن محمد ، إنما غدت زوجاً لزيد بن حارثة ، وقد أبطل النبي في الإسلام ، وأقرت الموالاة « فَإِخْرُوْا نَكْمَ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيْكُمْ » ، ولكن المجتمع الإسلامي راي أول تجربة فعلية له في حرب الفوارق الطبقية ، ويفندها أعلى الناس حسباً ، واقرب الناس إلى رسول الله ﷺ ابنة عمته زينب بنت جحش - رضي الله عنها. ولم يكن العام عاماً سهلاً ، فقد كانت بوادر عدم الوفاق قائمة ، لأن زينب - رضي الله عنها - قبلت الزواج امثلاً ولم تقبله قناعة شعورية . فكان المد الشعوري عندها يدفعها بالحلقة التي عندها لأن تناول من زيد بمسانده ، ويصمت الحب العظيم مرة ومرة ، ويفضي أخرى ولكن الأمر لم يكن أمر لقاء عابر ، إنما هو أمر عشرة دائمة وحياة يومية . ويأتي زيد رضي الله عنه يشكو رسول الله ﷺ زينب . فيقول - عليه الصلاة والسلام -: « أمسك عليك زوجك ، واتق الله » وكان المجتمع الإسلامي قد حدث فيه أمر مواز لزواج زينب بزيد ، فقد نزل القرآن الكريم بتحريم النبي : « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » ، لكن هذا التحريم جعل المجتمع ينفذ الأمر امثلاً فيمتنع الناس عن النبي من جديد ، ويدعوا الابناء بآبائهم الذين اتبعوا إليهم ، أو بأخوتهم في الدين ، لكن العرف يتغلغل في أعماق هذا المجتمع ، وهو عرف النبي ، ونشأ المجتمع كله يعرف زيد بن محمد رضي الله عنه ، ويعامل معه على هذا الأساس .

وإذا كان رسول الله اختار ابنة عمته لتفرضى على عملية فوارق النسب عملياً بعد حربها نظرياً ، فقد اختار الله تعالى رسوله رضي الله عنه ليفرضى على عملية النبي عملياً بعد تحريمها نظرياً في كتاب الله ، والمد الشعوري المتغلغل في أعماق هذا المجتمع يرى زواج رجل من مطلقة متبناه مثل زواجه من مطلقة ابنه فهي من المحرمات عليه ، ومن العسير جداً أن تخلع هذه القناعة من جذورها من خلال النص القرآني مالم يتم على تطبيقه عبدالله ورسوله محمد - عليه الصلاة والسلام .

لقد كانت زينب - رضي الله عنها - هي النموذج التضاحية لإلغاء فوارق النسب .

(١) الأحزاب / ٤ ، ٥ .

وكان رسول الله ﷺ هو النموذج التضاحية لإلغاء موضوع التبني في المجتمع ، ولن يطالب أحد بهذا التنفيذ قبل رسول الله - عليه الصلاة والسلام - بعد أن أعلن أن زيداً مولاه وليس ابنه ، ولن يستطيعه أحد غير رسول الله - عليه الصلاة والسلام - في هز كيان هذا المجتمع كله واستئصال عاداته الباطلة من خلال التنفيذ العملي والإقدام على الزواج من مطلقة متباه ، وكان يحس - عليه الصلاة والسلام - أنه هو المرشح لهذا الأمر . ويخشى وقوعه في كل لحظة فلا يملك إلا أن يطيل أمد زواج زينب بزيد ويقول له كلما شكا له زينب . « أمسك عليك زوجل واتق » ، ويخفى في نفسه - عليه الصلاة والسلام - ما يحس أنه واقع لا محالة . ويخشى الناس في هذه المواجهة ، وهذا التغيير ، والله أحق بالخشية .

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسَكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَأَنْقِلِ اللَّهَ وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبِدِيهِ وَتَغْشِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ... ٤٠ ﴾

وترتفع وتيرة الخلاف بين زينب وزيد - رضوان الله عليهمما - وترتفع خشية النبي ﷺ من وقوع الأمر ، ويخس بالخرج الشديد بتنفيذ زواج الأدعية ، لو فصم الزواج ، ووقع الطلاق وصدر الأمر .

﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدُ مِنْهَا وَطَرَا زَوْجَتَهَا لَكَى لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَذْعَانِهِمْ إِذَا قَضُوا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا . مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلٍ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا . الَّذِينَ يُلْغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشُونَهُ وَلَا يَخْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهُ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ٤١ ﴾ .

وحين يتتجاوز المصطفى ﷺ هذا الحرج أمام المجتمع كله في زواج مطلقة متباه امتثالاً لأمر الله سبحانه ، وينفذه من أعماقه شعوراً ولا يجد في صدره حرج منه ، فسيقدم المؤمنون عند ذلك على هذا الزواج أسوة برسول الله - عليه الصلاة والسلام . إننا بحاجة إلى الوقوف ملياً أمام عمليات البناء هذه ، والتي تعتبر من أعنصر العمليات على الإطلاق ، وهي عمليات استئصال فوارق النسب والاعتداد بها ، وعمليات إبطال التبني الذي يغزو المجتمع آنذاك ويملا فجاجه . وندع بعض النصوص الآن تحدثنا عن كيفية التطبيق العملي لهذا التغيير .

(١) الأحزاب / ٣٧ - ٣٩ .

أ- روى ابن أبي حاتم عن على بن زيد بن جدعان قال : سألني على بن الحسين -  
رضي الله عنهما -

ما يقول الحسن في قوله تعالى : « وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ » فذكرت له .  
قال : لا ، ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها . فلما  
أناه زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليشكوا إلينه قال : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » . فقال : قد  
أخبرتك أني مزوجكها وتخفي - في نفسك ما الله مبديه ، وهكذا رُويَ عن السدي أنه  
قال ذلك <sup>(١)</sup> .

وعلى ضوء هذه الرواية فالامر أمر يقين وليس حداً نفسياً أو تخوفاً شعورياً ، بل  
هو إعلام رباني أن زينب هي من أزواجه عليه الصلاة والسلام .  
ب- قوله تعالى : « لَكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجٍ أَذْعِنْتُهُمْ إِذَا قَضَوْا  
مِنْهُنَّ وَطْرًا » أي : إنما أبحنا لك تزويجها و فعلنا ذلك لثلا يقى حرج على المؤمنين في  
تزويج مطلقات الأدعية .

وذلك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قبل النبوة قد تبني زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان يقال  
له : زيد بن محمد . فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : « وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ  
أَبْنَاءَكُمْ .. » إلى قوله تعالى : « اذْعُوْهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » ثم زاد ذلك بياناً  
وتاكيداً بوقوع تزويج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينب بنت جحش - رضي الله عنها - لما طلقها زيد  
ابن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولهذا قال الله تعالى في آية التحرير : « وَحَلَّاقُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ  
أَصْلَابِكُمْ » <sup>(٢)</sup> ليحتذر من الآباء الداعي . فإن ذلك كان كثيراً فيهم و قوله تعالى : « وَكَانَ  
أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » <sup>(٣)</sup> أي وكان هذا الامر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه ، وهو كان  
لا محالة ، وكانت زينب - رضي الله عنها - في علم الله ستتصير من أزواج النبي  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

لقد مضى في أول السورة إبطال تقليد التبني ورد الأدعية إلى آبائهم ، وإقامة  
العلاقات العائلية على أساسها الطبيعي : « وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ  
بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . اذْعُوْهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنَّ لَمْ

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٦٧ وهو عن على بن هاشم بن مروق (صدقوق) عن ابن عيينة (ثقة فقيه) عن على بن زيد (ضعيف روى له مسلم والبخاري في الأدب المفرد) عن على بن الحسين (ثقة فقيه إمام) .

(٢) النساء / ٢٣

(٣) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج ٥ ص ٤٦٨ .

تَعْلَمُوا آبَاءِهِمْ فَإِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيْكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . )٤( ، ولكن نظام التبني كان له آثار واقعية في حياة الجماعة العربية ، ولم يكن إبطال هذه الآثار الواقعية في حياة المجتمع ليتم بالسهولة التي يمضى بها إبطال تقليد التبني ذاته ، فالتقالييد الاجتماعية أعمق أثراً في الفوس ، ولا بد منس وابق عملية مضادة ، ولا بد من سابق أن تستقبل هذه السوابق أول أمرها بالاستئثار ، وأن تكون شديدة الواقع على الكثيرين ، وقد مضى أن رسول الله ﷺ زوج زيد بن حارثة الذي كان متبناه ، وكان يدعى زيد بن محمد ، ثم دعى إلى أبيه - من زينب بنت جحش ابنة عممة رسول الله ﷺ ليحطم بهذا الزواج فوارق الطبقات الموروثة ، ويتحقق معنى قوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاءُكُمْ » )١( ويقرر هذه القيمة الإسلامية الجديدة بفعل عملى واقعى .

ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك - فيما يُحَمَّلُ من أعباء الرسالة - مؤنة إزالة آثار نظام التبني ، فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة ، ويواجه المجتمع بهذا العمل الذي لا يستطيع أحد أن يواجهه المجتمع به ، على الرغم من إبطال عادة التبني ذاتها .

والله نبيه ﷺ أن زيداً سيطلق زينب ، وأنه هو سيتزوجها للحكمة التي قضى الله بها ، وكانت العلاقات بين زينب وزيد قد اضطررت ، وجاءت توحى بأن حياتهما لن تستقيم طويلاً ، وجاء زيد مرة بعد مرة يشكوا إلى رسول الله ﷺ اضطراب حياته مع زينب ، وعدم استطاعته المضى معها ، ورسول الله ﷺ على شجاعته في مواجهة قومه في أمر العقيدة دون جلجة ولا خشية يحس ثقل التبعية فيما ألهمه الله من أمر زينب ، ويتردد في مواجهة القوم بتحطيم ذلك التقليد العميق فيقول لزيد الذي أنعم الله عليه بالإسلام ، والذى أنعم عليه رسول الله ﷺ بالعقل والتربية والحب ، يقول له : « أمسك عليك زوجك واتق الله » ويؤخر بهذا مواجهة الأمر العظيم الذي يتعدد في الخروج به على الناس كما قال الله تعالى : « وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبِدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْقَبَ أَنْ تَخْشَاهُ » )٢( وهذا الذي أخفاه رسول الله ﷺ في نفسه وهو يعلم أن الله مبديه هو ما ألهمه الله أن سيفعله ، ولم يكن أمراً صريحاً من الله ، وإنما ما تردد فيه ولا آخره ولا حاول تأجيله ، وجلهر به في حينه مهما كانت العواقب التي يتوقعها من إعلانه ولكنه ﷺ كان أمام إلهام يجده في نفسه ، ويتوjon في الوقت ذاته من مواجهته ، ومواجهة الناس به . حتى أذن الله بكلونه . فطلقاً زيد زوجه في النهاية ،

. )٢( الأحزاب / ٣٧ .

. )١( الحجرات / ١٣ .

وهو لا يفكّر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن محمد لا تخل له ، حتى بعد إبطال عادة التبني ، ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأدعية ، إنما كان حادث زواج النبي بها فيما بعد هو الذي قرر هذه القاعدة بعدها قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار .

وفي هذا ما يهدم كل الروايات التي رويت عن هذا الحادث ، والتي تشتبّه بها أعداء الإسلام قديماً وحديثاً وصاغوا حولها الأساطير والمفترىات .

إنما كان هذا الأمر كما قال الله تعالى : « فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرَا زَوْجُنَّا كَهَا لَكَنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَانِهِمْ إِذَا قَضُوا مِنْهُنَّ وَطَرَا » وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة حملها رسول الله ﷺ فيما حمل ، وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهة حتى ليتردد في مواجهته بها ، وهو الذي لم يتزدد في مواجهته بعقيدة التوحيد ، وذم الآلهة والشركاء وتخطئة الآباء والأجداد : « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً » (١) ، لا مرد له ، ولا مفر منه . واقعاً محققاً لا سبيل إلى تخلفه ولا الخيدة عنه (٢) .

جـ - ونعود إلى زينب - رضي الله عنها - وقد غدت مطلقة من زيد ، ولم يؤذها ذلك فقد استحالـت الحياة بينهما على عظم تقديرها له ، لكنها كانت تتـضرـر العـيـب المجهولـ، فـهيـ لا تـدرـىـ نـصـيبـ منـ تـكـونـ ، وزوجـ منـ تـكـونـ بعدـ انـقـضـاءـ عـدـتهاـ ، وـقدـ يـخـطـرـ بـذـهـنـهاـ الـكـثـيرـ الـكـثـيرـ ، أما رسول الله ﷺ فـهيـ مـطـلـقـةـ اـبـنـهـ مـنـ قـبـلـ . فلا يمكن أن يـقـعـ هـذاـ الزـوـاجـ ، لكنـهاـ لاـ تـعـلـمـ مـاـ اـدـخـرـهـ اللـهـ تـعـالـىـ لـهـ مـنـ الـخـيـرـ ، مـكـافـأـةـ لـهـ عـلـىـ اـمـتـالـ أـمـرـ نـيـبـهاـ فـيـ زـوـاجـهـاـ مـنـ زـيـدـ رـجـلـهـ .

فعن أنس رضي الله عنه قال : ( لما انقضت عدة زينب بنت جحش قال رسول الله ﷺ لزيد ابن حارثة : ما أجد أحد آمن عندي أو أوثق في نفسي منك . ائـتـ إلىـ زـيـنـبـ فـاخـطـبـهاـ عـلـىـ ) .

قال : فانطلقـ زـيـدـ فـأـتـاهـاـ وـهـيـ تـخـمـرـ عـجـيـنـهاـ . فـلـمـ رـأـيـتـهاـ عـظـمـتـ فـيـ صـدـرـيـ فـلـمـ أـسـطـعـ أـنـ أـنـظـرـ إـلـيـهـ حـيـنـ عـرـفـتـ أـنـ رـسـوـلـ اللـهـ رـجـلـهـ قـدـ ذـكـرـهـ . فـوـلـيـتـهـ ظـهـرـيـ ، وـنـكـصـتـ عـلـىـ عـقـبـيـ وـقـلـتـ : يا زـيـنـبـ أـبـشـرـيـ ، إـنـ رـسـوـلـ اللـهـ رـجـلـهـ يـذـكـرـكـ . قـالـتـ : مـاـ أـنـتـ بـصـانـعـةـ شـيـئـاـ حـتـىـ أـوـامـرـ رـبـيـ . فـقـامـتـ إـلـىـ مـسـجـدـهـ ، وـنـزـلـ الـقـرـآنـ : « فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرَا زَوْجُنَّا كَهَا لَكَنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَانِهِمْ إِذَا قَضُوا مِنْهُنَّ وَطَرَا » (٣) .

(١) الأحزاب / ٣٧ .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب م ٥ ج ٢٢ ص ٢٨٦٨ ، ٢٨٦٩ .

(٣) الإمام أحمد (١٩٥/٣) ومسلم .

وأول مؤامرة لربها أن تخر ساجدة شكرًا لله على طلب رسول الله ﷺ لها .  
فعن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال : لما أخبرت زينب بتزوج رسول الله ﷺ لها سجدت (١) .

وكانت تود أن تعطى جواباً بعد استخارة الله - عز وجل - بهذا الأمر كما علمها الحبيب المصطفى ﷺ الاستخاراة في الأمور كلها . ففتحت وقد طلبتها سيد ولد آدم لتكون زوجاً له كان جوابها : ما كنت بصانعة شيئاً حتى أؤمر ربى .

وانتهت صلاتها ، وأحسست أنها ملكت الدنيا بأسرها ، فـأـيـ خـيرـ فـيـ هـذـاـ الـوـجـوـدـ يـعـدـ هـذـاـ الـخـيـرـ ؟ـ وـرـأـتـ قـلـبـاـ يـخـفـقـ مـنـ السـرـورـ وـالـفـرـحـةـ وـالـرـضـاـ مـالـمـ تـحـسـ بـهـ إـلـاـ عـنـ إـسـلـامـهـاـ ،ـ فـنـذـرـتـ اللـهـ عـالـىـ أـنـ تـصـومـ شـهـرـيـنـ شـكـرـاـ للـهـ عـلـىـ هـذـهـ الـخـطـوـبـةـ .ـ

فـعـنـ إـبـرـاهـيمـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ جـحـشـ يـقـولـ :ـ (ـ قـالـتـ زـينـبـ بـنـتـ جـحـشـ :ـ لـمـ جـاءـنـىـ الرـسـوـلـ بـتـزـوـيجـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ إـيـابـىـ جـعـلـتـ اللـهـ عـلـىـ صـومـ شـهـرـيـنـ ..ـ )ـ (ـ ٢ـ)ـ .ـ وـبـيـنـمـاـ هـيـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـةـ لـاـ تـدـرـىـ أـهـىـ فـيـ الـيـقـظـةـ أـمـ فـيـ الـنـامـ ،ـ وـقـدـ غـمـرـتـهـاـ السـعـادـ ؟ـ إـذـ بـهـ تـفـاجـأـ بـرـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ فـوـقـ رـأـسـهـ وـهـيـ مـتـبـذـلـةـ قـدـ بـرـزـ شـعـرـهـاـ وـصـدـرـهـاـ ،ـ فـتـوـجـثـتـ وـقـالـتـ :ـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ بـلـاـ خـطـبـةـ وـلـاـ شـهـادـةـ .ـ

قال : « الله المزوج ، وجبريل الشاهد » .

وـذـكـرـ كـمـاـ وـرـدـ فـيـ روـاـيـةـ الطـبـرـانـيـ وـالـبـيـهـقـيـ وـابـنـ عـسـاـكـرـ عـنـ الـكـمـيـتـ بـنـ زـيدـ الأـسـدـيـ :

( . . . فـطـلـقـنـيـ فـبـتـ طـلـاقـيـ ،ـ فـلـمـ اـنـقـضـتـ عـدـتـ لـمـ أـشـعـرـ إـلـاـ وـالـنـبـيـ ﷺـ يـدـخـلـ عـلـىـ وـأـنـاـ مـكـشـفـةـ الـشـعـرـ ،ـ فـقـلـتـ :ـ هـذـاـ أـمـرـ مـنـ السـمـاءـ .ـ فـقـلـتـ :ـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ بـلـاـ خـطـبـةـ وـلـاـ شـهـادـةـ .ـ قـالـ :ـ «ـ اللهـ المـزـوجـ وـجـبـرـيلـ الشـاهـدـ »ـ (ـ ٣ـ)ـ .ـ

وـصـدـقـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ ،ـ فـلـعـلـ الـخـطـوـبـةـ التـىـ أـرـسـلـ بـهـ زـيـداـ كـانـتـ قـبـلـ نـزـولـ الـآـيـةـ ،ـ وـرـاحـ -ـ عـلـيـهـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ -ـ يـتـلـوـ عـلـيـهـ الـقـرـآنـ الـعـظـيمـ مـنـ رـبـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ يـسـتـعـرـضـ قـصـتهاـ مـعـ زـيـداـ وـزـوـاجـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ مـنـهـاـ .ـ

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَنْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَأَنْتَ اللَّهُ وَتَعَالَى  
فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبِدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ تَخْشَى هَذَا فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَأَ زَوْجَتَكَهَا

(١) ، (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٢/٨ .

(٣) الدر المثور في التفسير بالمانور للحافظ السيوطي ٦١٥/٦ .

لِكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجٍ أَدْعَيْتُهُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً<sup>(۱)</sup> .

وكل الذى كان يعنينا من الآية : « زوجناكها » .

لقد زوجها الله تعالى نبيه من السماء ، وبالها من مكرمة لم يصل إليها مخلوق تعرف : أن ينزل أمر زواجه في آية قرآنية يتلوها المؤمنون في الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وحمدت ربها أن أطاعت نبيها ، وامثلت أمره ، وتزوجت متباهة وملوأه ، ولو لا تلك المحنـة لما كانت تلك المكرمة ، ولم تجد في الآية ما يتراعها ويؤنبها على حدتها مع زيد ، لكنها رأت مقام زيد رسول الله عند الله عز وجل ، حتى ليذكر باسمه في كتاب الله .

وكان لابد لهذا الزواج الذي عقده رب العزة جل جلاله وشهد عليه الرسول الأمين جبريل من وليمة ينداعي إليها المسلمون فرحاً بهذه الزواج ، (فما أولم رسول الله رسول الله على امرأة من نسائه ما أولم عليها ، وذبح شاة)<sup>(۲)</sup> .

وفي رواية الإمام أحمد ومسلم : ( فاقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله رسول الله فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله رسول الله وأطعمتنا عليها الخبز واللحم .

والله تعالى هو الذي زوجها رسوله رسول الله ، وهو الذي أطعم المسلمين بهذا الزواج كما يحدثنا أنس رسول الله فهو زواج من السماء وطعام من السماء .

فنع ثابت البناني قال : قلت لأنس بن مالك ، كم خدمت رسول الله رسول الله ؟ قال : عشر سنين قلم يغير على شيء أساءت ولا أحسنت . قلت : فأخبرنى بأعجب شيء رأيت منه في هذه العشر سنين ما هو ؟ قال :

لما تزوج رسول الله رسول الله زينب بنت جحش ، وكانت تحت مولاه زيد بن حارثة ، قالت أم سليم : يا أنس ، إن رسول الله رسول الله أصبح اليوم عروساً ، وما أرى عنده من غذاء ، فهلüm تلك العكة فتناولتها فعملت له حسماً من عجوة في تور من فخار قدر ما يكفيه وصاحبته ، وقالت : اذهب به إليه فدخلت عليه بذلك قبل أن تنزل آية الحجاب ، فقال : « ضعه » فوضعته بينه وبين الجدار . فقال لى : « ادع أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً » وذكر ناساً من أصحابه سماهم ، فجعلت أعجب من كثرة من أمرني أن أدعوه وقلة

(۲) الطبقات الكبرى لابن سعد ۱/۳۰ .

(۱) الأحزاب / ۳۶ .

الطعام ، إنما هو طعام يسير ، وكرهت أن أعصيه ، فدعوتهم فقال : « انظر من كان في المسجد فادعه » فجعلت آتى الرجل وهو يصلى أو هو نائم فأقول : أجب رسول الله ﷺ فإنه أصبح اليوم عروساً ، حتى امتلاً البيت . فقال لى : « هل بقى في المسجد أحد؟ » فقلت : لا . قال : « انظر من كان في الطريق فادعهم » . قال : فدعوت حتى امتلأت الحجرة . فقال : هل بقى من أحد؟ قلت : لا يا رسول الله . قال : « هلْ التور(١) ». فوضعته بين يديه ، فوضع أصابعه الثلاثة فيه وغمزه وقال للناس : « كلوا باسم الله » فجعلت أنظر إلى التمر يربو وإلى السمن كأنه عيون تنبع حتى أكل كل من في البيت ، وكل من في الحجرة ، وبقي في التور قدر ما جئت به ، فوضعه عند زوجته ، ثم خرجت إلى أمي لاعجبها بما رأيت . فقالت : لا تعجب ، لو شاء الله أن يأكل منه أهل المدينة كلهم لاكلوا ، فقلت لانس : كم تراهم بلغوا؟ قال : أحداً وسبعين رجلاً ، وأنا أشك في اثنين وسبعين(٢) .

وفي رواية ابن أبي حاتم : ( فقلت : يا أبا عثمان كم كانوا؟ ) فقال : كانوا زهاء ثلاثة(٣) .

وكانت دعوة رسول الله ﷺ هذا الجم الغفير مقصودة ، لأن الزواج لم يعلن في مجتمع المدينة من خلال خطبة مسبقة أو حدث عام فلا بد أن يشهد أكثر المؤمنين هذا الحدث العظيم الذي تم بلا خطوبة ولا مهر وبلا شهود ويكونوا هم الشهود فيه . وكانت المدينة تستعد لحدث أكبر يرتبط بهذا الزواج الحالد وكان هذا الحدث كثيراً ما ألقى الوزير الثاني في الأمة عمر رضي الله عنه بالنسبة لآزواج رسول الله ﷺ جميعاً .

لقد كان عمر يغار على نساء رسول الله ﷺ وتذكر عائشة - رضوان الله عليها - فتقول : كنت أكل مع النبي ﷺ حيساً في قعب - فمر عمر فدعاه فأكل فأصابت أصابعه إصبعي فقال : جس أو أوه لو أطاع في يكن ما رأتكن عين(٤) .

( وقد قال البخاري : حدثنا مسعود عن يحيى بن حميد عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب يا رسول الله : يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمرات المؤمنين

(١) التور : وعاء الفخار الذي وضع فيه الحيس .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ١٠٤ ، ١٠٥ ، وقد رواه سعيد بن منصور (ثقة مصنف) عن محمد بن عيسى العبدى (صدوق) عن ثابت البينى (ثقة عابد) عن أنس رضي الله عنه .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٩٠ / ٥ وهي رواية مسلم عن أنس ح ٩٤ ، ج ٣ ص ١٠٥١ .

(٤) السادس .

بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب (١) وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ  
بزيسب بنت جحش التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه . يحدثنا أنس بن مالك عن ذلك  
فيقول :

”بَنْيَ عَلَى النَّبِيِّ بَنْيَ بَنْيَ بَنْتِ جَحْشَ بَنْيَ بَنْتِ جَحْشَ بَنْيَ  
فِي جَمِيعِ قَوْمٍ فِي الْكُلُونِ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجْعَلُونَ فِي أَكْلُونِ وَيَخْرُجُونَ فَدُعِيَتْ حَتَّى مَا أَجَدَ  
أَحَدًا أَدْعُوكُلَّتْ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، مَا أَجَدَ أَحَدًا أَدْعُوكُلَّتْ فَقَالَ : «فَارْفَعُوا طَعَامَكُمْ» وَبَقَى  
ثَلَاثَةَ رَهْطَ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ فَخَرَجَ النَّبِيُّ بَنْيَ فَانْطَلَقَ إِلَى حَجَرَةِ عَائِشَةَ فَقَالَ :  
«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ» فَقَالَتْ : «وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، كَيْفَ  
وَجَدْتُ أَهْلَكَ بَارِكَ اللَّهُ لَكَ فَتَقْرَى حَجَرَ نِسَائِهِ كُلَّهُنَّ يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ وَيَقْلِنُ  
لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةَ ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ بَنْيَ فَإِذَا ثَلَاثَةَ مِنْ رَهْطِ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ ، وَكَانَ  
النَّبِيُّ بَنْيَ شَدِيدَ الْحَيَاةِ ، فَخَرَجَ مُنْتَلَقًا نَحْوَ حَجَرَةِ عَائِشَةَ فَمَا أَدْرِي أَخْبَرَتْهُ أَوْ أَخْبَرَ أَنَّ  
الْقَوْمَ قَدْ خَرَجُوا ، فَخَرَجَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رَجُلَهُ فِي أَسْكَفَةِ الْبَابِ دَاخِلَهُ وَأَخْرَى خَارِجَهُ  
أَرْخَى السِّرَّ بَيْنِهِ وَبَيْنِهِ وَأَنْزَلَتْ آيَةَ الْحِجَابِ . (٢) فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : «يَا أَهْلَهَا الَّذِينَ آتَيْنَا  
لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَّهُ وَلَكُمْ إِذَا دُعِيْتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا  
طَعَمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْبِلُونَ لِحَدِيثِ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَغْسِلُونَكُمْ وَاللَّهُ لَا  
يَسْتَغْسِلُهُمْ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا مَأْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقَلْبِكُمْ  
وَلَقَلْبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذِنُوا رَمَسْوُلُ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ  
عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا» (٣) .

(١) وزاد الإمام عيسى عن طريق جعفر بن مهران عن عبد الوارث فيه قال : وزينب  
جالسة في جانب البيت قال : وكانت امرأة قد أعطيت جمالاً وبقي في البيت ثلاثة ) (٤) .  
ونعود إلى رواية مسلم ( قال : قلت لآنس : عددكم كانوا ؟ قال : زهاء ثلاثمائة .  
وقال لي رسول الله ﷺ : « يَا آنِسَ هَاتِ التُورَ » قال : فدخلوا حتى امتلأت الصفة  
والحجرة فقال رسول الله ﷺ : « لِيَتَحَلَّقُ عَشْرَةُ عَشْرَةَ وَلِيَأَكِلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا يَلِيهِ » قال :  
فأكلوا حتى شبعوا فخرجت طائفه ودخلت طائفه حتى أكلوا كلهم فقال لي : « يَا آنِسَ

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر ج ٤٧٩٠ ص ٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٥٢٧ ح ٤٧٩٣ .

(٣) الأحزاب / ٥٤ .

(٤) فتح الباري للحافظ ابن حجر ج ٨ ص ٥٢٩ . وقد وفق رحمة الله بين الأحاديث الصحيحة الواردة وخاصة بين  
(حس) أم سلمة ، وشيع المبشر والنعمان . واحتمال أن هذا كان جميماً في الوليمة .

ارفع » قال : فرفعت فما أدرى حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت قال : وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ ورسول الله جالس وزوجه مولية وجهها إلى الحائط فقلوا على رسول الله ﷺ فخرج رسول الله فسلم على نسائه ثم رجع فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد أثقلوا عليه . قال : فابتدرروا الباب فخرجوا كلهم وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخي الستر ودخل وأنا جالس في الحجرة فلم يلبث إلا قليلاً حتى خرج على وأنزلت هذه الآية فخرج رسول الله ﷺ وقرأهن على الناس ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَّهُ وَلَكُنَّ إِذَا دَعَيْتُمْ فَادْخُلُوهُ فَإِذَا طَعَمْتُمْ فَاتَّشِرُوا وَلَا مُسْتَقْبِلُونَ لِحَدِيثِ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِنِي النَّبِيُّ ﴾ إلى آخر الآية (١) . قال الجعد : قال أنس بن مالك : أنا أحدث الناس عهداً بهذه الآيات وحجبن نساء النبي ﷺ (٢) .

ونعود إلى القلب المكلوم قلب عائشة - رضي الله عنها - وقد جاءها في شهر واحد أثقل ضرتين على الإطلاق: أم سلمة بنت أبي أمية المخزومية ، وزينب بنت جحشن الأسدية وابنة عممة النبي ﷺ في احتفال سماوي بهذا الزواج وهي ابنة الثلاثة عشر ربيعاً من عمرها لا تقوى على هذه الهموم العضال ، وإن كانت قد تأدبت بالأدب النبوى العظيم فقد سلم عليها - عليه الصلاة والسلام - أول ما سلم فقالت - رضي الله عنها - وعليك السلام ورحمة الله ، كيف وجدت أهلك بارك الله لك . يقول الحافظ الذهبي - رحمة الله - : وفيها - أى السنة الرابعة - تزوج النبي ﷺ أم المؤمنين هند بنت أبي أمية ... ثم تزوج بعدها بأيام يسيرة بنت عمته أم الحكم زينب بنت جحشن بن رقاب الأسدى ... وفيها نزلت آية الحجاب (٣) ولم يمر على شوال الذي دخل رسول الله ﷺ بعائشة فيه إلا ستان فإذا بشوال السنة الرابعة وذى القعدة محملاً هاتين العظيمتين إلى البيت النبوى .

(١) الأحزاب / ٥٤ .

(٢) مسلم ح ٩٤ ج ٢ ص ١٠٥١ .

(٣) المغازي من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي ١/ ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

## تربيه وجهاد مع إطلاله السنة الخامسة

غزوه دومة الجندل :

(قيل: سميت بدمى بن إسماعيل - عليه السلام - لكونها كانت متزلاً ، ودَوْمَة بالفتح موضع آخر . وهذه الغزوَة كانت في ربيع الأول . ورجع النبي ﷺ قبل أن يصل إليها ولم يلق كيداً .

وقال المدائني: خرج رسول الله ﷺ في المحرم يريد أكيدر دومة ، فهرب أكيدر وانصرف النبي ﷺ (١) .

(قال ابن إسحاق: ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة فاقام بها أشهراً حتى مضى ذو الحجة ، وولى تلك الحجَّة المشركون وهي سنة أربع من مقدم رسول الله ﷺ المدينة ثم غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل .

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى .

قال ابن اسحاق: ثم رجع رسول الله ﷺ قبل أن يصل إليها، ولم يلق كيداً فاقام في المدينة بقية سنته (٢) .

الغريب لا نجد في كتب السيرة الرئيسية تفصيلات عن هذه الغزوَة التي تعتبر من أشق الغزوَات التي تحرك بها - عليه الصلاة والسلام - نحو دومة الجندل، وذلك في وسط وشمال الجزيرة العربية . وتکاد تكون من الحدود المتاخمة للشام ، والسلطة فيها لقيصر . فأكيدر دومة نصراني يحكم دولة باسم قيصر . ولم يمض - عليه الصلاة والسلام - هذه المسافات الشاسعة في الأرض بجيشه لجب ، والعدو يحف به من كل جانب ، ودومة الجندل تبعد عن دمشق خمس ليالٍ بينما تبعد عن المدينة أكثر من عشر ليالٍ ، وهكذا يزداد التساؤل عن هذه الغزوَة العجيبة ولا نجد إجابات تلقي الإضاءات المناسبة عليها إلا من خلال رواية الواقدي .

ويتفق الواقدي مع ابن إسحاق على تاريخها فيقول:

(١) المغارzi من تاريخ الإسلام للحافظ النعيمي ١ / ٢٥٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٩٧ .

غزوة دومة الجندي في ربيع الأول على رأس تسعه وأربعين شهراً .

ويحدثنا عن فترة الغياب الطويلة عن المدينة فيها فيقول:

خرج رسول الله ﷺ خمس ليالٍ يقين من ربيع الأول ، وقدم لعشر بقين من ربيع الآخر ، وهذا يعني: أنه غاب عن المدينة خمساً وعشرين ليلة ، ولا غرابة في ذلك . فبعد دومة الجندي الشاسع الضارب في الصحراء يحتاج هذا الزمن الطويل للخروج والعودة .

ثم ينقل لنا الأسباب الموجبة للغزوة فيقول كما يروى عن شيوخه :

( أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أدنى الشام ، وقيل له : إنها طرف من أفواه الشام ، فلو دنوت منها كان ذلك مما يُفرِّع قيسراً ، وقد ذكر له أن بدومة الجندي جمعاً كثيراً ، وأنهم يظلمون من مرّ بهم من الضاحفة . وكان بها سوق عظيم وتجار ، وضوى إليهم قوم من العرب كثير ، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة ).

لقد كانت خطة الرسول القائد ﷺ ترمي إلى أهداف عديدة وراء هذه الغزوة ، فهي غزوة ، وحرب استطلاعية تمسح الجزيرة العربية ، وتتعرف على مراكز القوى فيها ، وهي حرب إعلامية تأتى على أعقاب بدر الموعد ، وتستثمر انتصارتها ، وبعد وجود ذلك الجيش القوى في بدر والذى أثبت أنه سيد أهل الموسم ، وقلب الصفحة الإعلامية التي راحتها قريش بعد أحد ، أنه لم يبق من المسلمين أحد ، فتأتى هذه الغزوة لتعطى أبعاداً أضخم ، وأماماً أوسع للقوة النبوية المتوفّرة في الساحة العربية .

وهي حرب عسكرية ت يريد أن تصد هجوماً محتملاً على المسلمين حيث ضوى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة ، فندب رسول الله ﷺ الناس ، وهي حرب سياسية ، ت يريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أحد لتصد المدينة وتستبيحها .

وهي فوق هذا كلّه ، وأهم من هذا كله ، دوره تربوية رائعة وقادية و شاملة على رأسها رسول الله ﷺ ، وبين يديه ألف من أصحابه ، فيتلقون فيها في كل لحظة دروساً في الطاعة والانضباط ، ودروسًا في التدريب الجسّي والعسكري والتحمل لمشاق الحياة وصعوباتها ، وأحكاماً وفقها في الحلال والحرام ، وعمليات صهر وتذويب لقواعد الجيش الإسلامي في بوتقة واحدة خارج إطار العشيرة ، وخارج كيان القبيلة ؛ حيث أخذت تند إلى المدينة عناصر كثيرة من أبناء القبائل المجاورة ، والتخلّى عن الأطر القبلية وعصباتها

للانصهار في بوتقة الأمة الواحدة التي تجعل الولاء لله ورسوله ، وفوق هذا كله تتبع الفرصة بجبل بدر الرائد أن يقوم بمهمة التربية للواديين الجدد وتعليمهم وتنقيفهم ، كما تتبع الفرصة لكشف ضعاف النفوس ، ومن له صلة بعسكر النفاق من خلال مراقبة تصرفاته وكلامه وسلوكه . إنها ليست ساعات محدودة أو أيامًا معدودة ، بل هي دورة قرابة شهر ، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كل الطبائع وكل التوانع وكل المعارك ، فيتلقها - عليه الصلاة والسلام - ليصوغها برقق وتوذة وحكمة على ضوء الإسلام ، ويعلم الجبل الرائد فن القيادة ، وعظمة السياسة ؛ لأنه سيكون كل فرد منه فيما بعد على رأس جيش في صحاري الأرض وفيافيها ماضيا في نشر الإسلام ، وتقديمه واقعاً حيّاً للناس قبل تقديمه فكراً خالصاً لهم ؛ لهذه الأهداف مجتمعة كانت هذه الغزوة العظيمة ، والتي نشهد بعض تفصيلاتها ينقلها لنا المؤرخ الواقدي الإمام في التاريخ والترجم :

( فتدب رسول الله ﷺ الناس ، فخرج في ألف من المسلمين ، فكان يسير بالليل ويكمن النهار ، ومعه دليل له من بنى عذرة يقال له : مذكور ، هاد خربت ، فخرج رسول الله ﷺ مذداً للسير ونكباً عن طريقهم ، ولما دنا رسول الله ﷺ من دومة الجندل ، وكان بيته وبينها يوم أو ليلة سير الراكب المعتق قال له الدليل : يا رسول الله ، إن سوائهم ترعى فأقام لى حتى أطلع لك ، قال رسول الله ﷺ : «نعم» ، فخرج العذرى طليعة حتى وجد آثار النعم والشاء وهم مغربون ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره ، وقد عرف مواضعهم ، فسار النبي ﷺ حتى هجم على ماشيتهم ورعايهم ، فأصاب رسول الله ﷺ من أصاب ، وهرب من هرب في كل وجه ، وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفقوا ، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم ، فلم يجد بها أحداً ، فأقام بها أياماً ، وبث السرايا وفرقها حتى غابوا عنه يوماً ثم رجعوا إليه ، ولم يصادفهم منهم أحداً ، وترجع السرية بالقطعة من الإبل ، إلا أن محمد بن مسلمة أخذ رجلاً منهم ، فأنهى به النبي ﷺ فسأله عن أصحابه فقال : هربوا أمس حيث سمعوا بأنك قد أخذت نعمهم ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام أيامًا فأسلم ، فرجع النبي ﷺ إلى المدينة ، وكان استعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى .

لقد كانت معركة صامتة ، وتربية هادئة ، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصحراء يتربى ويستقف ويتدرّب ، ويتحسن ويقوم ليكون هذا استعداداً لمعركتين قادمتين من أعنف معارك هذه المرحلة ، وهي : غزوة بنى المصطلق ، وما تلاها من آثار إيجابية وسلبية ، ثم غزوة الخندق التي مثّلت قمة التخطيط المعادي للإسلام ، وكان الھوى بعدها إلى المنحدر ، ولم تكن غزوة دومة الجندل إلا إعداداً عسكرياً نفسياً وتربوياً لهذه المواجهة .

ومن مخططات التربية كذلك أن يكون والى المدينة سباع بن عرفة الغفارى فى تجربة جديدة من نوعها لأول مرة ، فهو ليس أوسيًا ولا خزرجيًا ولا قرشيا بل من غفار الذى كانت تعتبر من سراق الحجيج عند العرب ، فلابد لهذا الجيل أن يتربى على الطاعة والانضباط للأمير أيا كان شأن هذا الأمير ، ولابد أن تذوب الفوارق الطبقية فى القبيلة والعشيرة ، ويختضن الأوس والخزرج والقرشيون لامير من غفار ، ولاشك أن الكثير من المنافقين لا يزالون فى المدينة ، وقد يكون عبد الله بن أبي على رأسهم ، وهم أعجز من أن يشكلوا استعصاء أو مواجهة للأمير الذى ولاه الرسول - عليه الصلاة والسلام - والمؤمنون الموجودون قادرون على أن يكتبوا جماح هذا الاستعصاء ، ولو لا ثقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكفاءة أميره وعبريته وقدرته على الإدارة الخازمة ، ولو لا ثقته بالجيل الذى رياه ؛ لما أقدم على هذه الإمارة ، إنه يربى - عليه الصلاة والسلام - وهو غائب عن المدينة فى تحويل أبناء العشائر والقبائل إلى أبناء الأمة الواحدة المسلمة التى تسمع وتطيع ، ولو كان عليها عبد حبشي كان رأسه زيبة ما أقام فيها كتاب الله .

غزوہ المیسیع  
مدرسۃ تربویۃ

قال ابن إسحاق: (فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ومحمد ابن يحيى بن حبان كل قد حدثني بعض حديث بنى المصطلق قالوا:

بلغ رسول الله ﷺ أن بنى المصطلق يجمعون له، وقادتهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ. فلما سمع رسول الله ﷺ بهم خرج إليهم، حتى لقيهم على ماء لهم يقال له : المريسيع من ناحية قَدِيد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتلوها فهزم الله بنى المصطلق، وقتل من قتل منهم، ونقل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه) (١).

وعن سفيان بن عيينة قال: سمع عمرو جابر بن عبد الله يقول: كنا مع النبي ﷺ في غزوة فكسع<sup>(٢)</sup> رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: يا الأنصار! وقال المهاجر: ياللهـما هاجرـين! فقال رسول الله ﷺ: « ما بال دعوى الجاهلية؟ » قالوا: يا رسول الله؛ كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: « دعوها فإنها متنـة » فسمعها عبد الله بن أبي فقال: قد فعلـوها ، والله لئن رجـنا إلى المدينة ليخرجـن الأـعـزـ منها الأـذـلـ ، قال عمر: دعـنى أـضـربـ عنـقـ هذاـ المـنـاقـ فـقالـ: « دـعـهـ ، لا يـتـحدـثـ النـاسـ أـنـ مـحـمـدـ يـقـتـلـ أـصـحـابـهـ »<sup>(٣)</sup> .

وعن زيد بن أرقم قال: كنت في غزوة فسمعت عبد الله بن أبي بكر يقول: لا تنفقوا

<sup>٤٠٢</sup>) السيرة النبوية لأبيه هشام / ٣ .

(٢) كسر أحدهما الآخر : ضرب دبره ، وعجيزته بيد أو رجل أو سف .

(٣) مسلم / ٥ (٦٣) . (٤) المصدر نفسه / ٥ (١٩٩٨) .

على من عند رسول الله حتى ينفروا من حوله ، ولئن رجعنا من عنده ليخرجون الأعز منها الأذل ، فذكرت ذلك لعمي أو لعمر فذكره للنبي ﷺ ، فدعانى فحدثته ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلقوا ما قالوا ، فكذبوني رسول الله ﷺ وصدقه . فأصابني هم لم يصبوني مثله فقط ، فجلسست في البيت ، فقال لي عمي : ما أردت إلى أن كذب رسول الله ﷺ ومقتلك ، فأنزل الله تعالى : « إِذَا جَاءَكَ

**الْمُنَافِقُونَ** (١) ببعث إلى النبي ﷺ فقرأ فقال : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدَ » (٢) .

وفي رواية عنه قال : خرجنا مع النبي ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة فقال عبد الله بن أبي لاصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفروا من حوله . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجون الأعز منها الأذل . فأتيت النبي ﷺ فأخبرته . فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسألة فاجتهد يمينه ما فعل ، قالوا : كذب زيد رسول الله ﷺ . فوقع في نفسى مما قالوا شدة حتى أنزل الله - عز وجل - تصديقي في : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ » فدعاهم النبي ﷺ ليستغفروا لهم فللوّا رؤوسهم ، وقوله : « خُشْبُ مُسَدَّدَةً » (٣) قال : كانوا رجالاً أجمل شيء (٤) .

وفي رواية ثالثة عن جابر - رضى الله عنهما : (....) وكانت الانصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد (٥) .

يقول الحافظ ابن حجر في تعقيبه على بعض هذه الروايات : (ووقع عند الطبرى من وجه آخر عن عمرو بن دينار عن جابر : أن رجالاً من المهاجرين كسع رجالاً من الانصار برجله ، وذلك عند أهل اليمن شديد ، والرجل المهاجرى هو : مهيجاة بن قيس - ويقال ابن سعيد - الغفارى وكان مع عمر بن الخطاب يقود له فرسه ، والرجل الانصاري هو : سنان بن وبرة الجھنمي حليف الانصار ، وفي رواية عبد الرزاق عن عمر عن قتادة مرسلأ : أن الانصاري كان حليفاً لهم من جهينة ، وأن المهاجرى كان من غفار ، وسماهما ابن إسحاق في المغازى عن شيوخه ، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عقيل عن الزهرى عن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت أنهاهما أخباره أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع وهى التي هدم فيها رسول الله ﷺ مناة الطاغية التي كانت بين قبا المشليل وبين البحر فاقتتل رجلان ، فاستعلى المهاجرى على الانصاري ، فقال حليف

(١) المتفقون / ١ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨ ص ٦٤٤ ح (٤٩٠٠) .

(٣) المتفقون / ٨ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨ ص ٦٤٧ ح (٤٩٠٣) .

(٥) المصدر نفسه ح (٤٩٠٥) .

الأنصار: يا معشر الانصار، فتداعوا إلى أن حُجز بينهم. فانكفا كل منافق إلى عبد الله ابن أبي فقالوا : كنت تُرجح وتدفع ، فصرت لا تضر ولا تنفع ، فقال: لمن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ذكر القصة بطولها، وهو مرسل جيد ... قوله: ( فعلوها؟ ) هو استفهم بحذف الأداة . أى فعلوها؟ أى الآية، أى . شركناهم فيما نحن فيه فأرادوا الاستبداد به علينا ، وفي مرسل قتادة: فقال رجل منهم عظيم النفاق: ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: ( سُمِّنَ كُلُّكُّ يَا كُلُّكُّ ). وعند ابن إسحاق .. فقال عبد الله بن أبي: أو قد فعلوها؟ نافرنا وناشرنا في بلادنا ، والله ما مثلنا وجلاليب قريش هذه إلا كما قال القائل: ( سُمِّنَ كُلُّكُّ يَا كُلُّكُّ ). قوله: ( فقام عمر فقال: يارسول الله ، دعني أضرب عنقه) في مرسل قتادة: مر معاذًا أن يضرب عنقه. وإنما قال ذلك ؛ لأن معاذًا لم يكن من قومه. قوله: « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»: أى أتبعاه ، وفي مرسل قتادة: « لا والله لا يتحدث الناس » زاد ابن إسحاق فقال: مر معاذ بن بشر بن وقش فليقتله. فقال: « لا . ولكن آذن بالرحيل »، فراح في ساعة ما كان يرحل فيها . فلقيه أسيد بن حضير فسأله عن ذلك فأخبره. فقال: فأنت يارسول الله الأعز وهو الأذل، قال: ويبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتي النبي ﷺ فقال: بلغنى أنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه. فقال: « بل تُرقِّبَ بِهِ وَتُحْسِنَ صَحْبَتِهِ » . قال: فكان بعد ذلك إذا أحدث الحديث كان قومه هم الذين ينكرون عليه، فقال النبي ﷺ لعمر: « كيف ترى؟ » ووقع في مرسل عكرمة عند الطبرى: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي قال للنبي ﷺ: إن والدى يؤذى الله ورسوله، فذرنى حتى أقتله ، قال: « لا تقتل أبياك ». قوله: ثم إن المهاجرين كثروا بعد هذا مما يؤيد تقدم القصة... والله أعلم(١) .

قوله: ( باب ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجُنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ الآية (٢) .  
كذا لأبي ذر ، وساق غيره الآية إلى: ﴿ ... يَعْلَمُونَ ﴾ ذكر فيه حديث جابر الماضي ... ولعله أشار بالترجمة إلى ما وقع في آخر الحديث المذكور ، فإن الترمذى لما أخرجه عن ابن أبي عمر عن أبي سفيان بأسناد حديث الباب قال في آخره وقال : غير عمرو بن دينار فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي: والله لا ينقلب أبي إلى المدينة حتى يقول : إنك أنت الذليل ورسول الله ﷺ العزيز. ففعل ، وهذه الزيادة أخرجها ابن إسحاق في المغازى عن شيوخه، وذكرها أيضًا الطبرى من طريق عكرمة) (٣) .

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٦٤٩/٨ ، ٦٥٠ .

(٢) المنافقون / ٨.

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٦٤٩/٨ ، ٦٥٢ .

على آثار غزوة بدر الموعده، حيث كان المنافقون يراهنون على انتهاء الإسلام وال المسلمين فيها وهم يقولون: محمد لا يفلت من هذا الجمع ، والمجاجأة الصاعقة التي أذهلتهم بعودة الجيش سالماً غائماً مظفراً من هناك فكانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُطِئنَ لَهُنَّ أَصَابَتْكُمْ مُضِيَّةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذَا لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً . وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَانَ لَمْ تَكُنْ بِيَنْكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ يَا لَيَتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَلَأَلْوَرْ فَوْزاً عَظِيمًا 〉 .

وكان يمكن أن يشاركون في غزوة دومة الجندل، لكن بعد الشقة والمسافة الشاسعة أبعدتهم عن المشاركة ، وعاد الجيش ثانية بالأسلاب والغنائم وقد غزا جنود قيسار في عقر دارهم ولم يمسسه سوء ، عاد حزب النفاق ليراجع موقفه، وخاصة بعد أن فقد أنصاره من بنى قينقاع وبني النضير، وسمع بجمع بنى المصطلق من خزاعة ، وتحرك المسلمين لمواجهةه، فسارعوا إلى المشاركة في هذه الغزوة طمعاً في الغنائم، ومحاولة لضرب الصف الإسلامي من الداخل ، أما المؤمنون: فهم مدعاون للجهاد ابتعاد مرضاه الله تعالى فقط: ﴿ فَلَيَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ تُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا 〉 .

ويجعل الله تعالى القتال في سبيل الله تحرير للمستضعفين في الأرض: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلَدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبِّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا 〉 .

ويبقى في النهاية سبلان للجهاد: سبل الله ، وسبيل الطاغوت: ﴿ الَّذِينَ آتَوْا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتَلُوا أُولَئِكَ الشَّيْطَانَ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا 〉 (١) .

قالوا: وخرج مع رسول الله ﷺ بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قط مثلها، ليس لديهم رغبة في الجهاد إلا أن يصيروا من عرض الدنيا ، وقرب عليهم السفر .

وحديثنا في المرسيع يقدم ذروة مخططات حزب النفاق في ضرب الصف الإسلامي ، ويبيّن كذلك دور التربية وعظمتها في مواجهة هذه المخططات . هذا وإن مثلت غزوة الخندق ذروة مخططات المشركين واليهود في حرب الإسلام وأهله ، وابتدا الانحدار من هذه الذروة فكذلك الأمر بالنسبة لحزب النفاق في المرسيع ، ومتتابعة

(١) النساء - ٧٢ - ٧٦ .

المخططات خطوة خطوة ، ومتابعة كيفية مواجهة هذه المخططات ، وحربها لتعطينا نقاطاً علامة في خط السير على عظمة المنهج التربوي الذي يمضي به - عليه الصلاة والسلام - في هذه الأمة الوسط ، وأن هذا البناء لم يأت دفعة واحدة ، ولم يأت بمعجزة خارقة إنما جاء من معالجة واقعية كان يمكن أن تؤدي بالأمة كلها لو لا عبرية المواجهة الخالدة لسيد ولد آدم ، وأن العدو الذي واجه الإسلام ليس عدواً ساذجاً ولا مغفلًا ولا سهلاً ، إنما مثل كذلك عبرية نادرة في قيادة الباطل .

ونعود بعد هذه الملاحظات إلى الوقوف مع كل خطوة :

١ - وكما كانت غزوة دومة الجندي دوره تدريبية صامته استمرت قرابة شهر ، وكان الصف الإسلامي الخالص هو الذي يتلقى هذه التربية جاءت غزوة المرسيع سهلة المنازل بالنسبة لهذا الصف الذي مضى بعيداً ، وأمعن في الصحراء قبل ثلاثة أشهر أو أقل .  
(في سنة خمس خرج رسول الله ﷺ يوم الإثنين لليلتين خلتا من شعبان ، وقدم المدينة لهلال رمضان وغاب شهرًا إلا ليلتين) .

ويحدثنا الواقدي عن شيوخه عن خطوات السير الأولى فيقول:

(إن بني المصطلق من خزاعة كانوا يتزلون ناحية الفرع وهم حلفاء في بني مدلح ، وكان رأسهم وسيدهم الحارث بن أبي ضرار ، وكان قد سار في قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ وجعلت الركبان تقدم من ناحيتهم فيخبرون بمسيرهم ) ولأن خزاعة بشكل عام عيبة نصح لرسول الله ﷺ مسلمهم وشركهم ، فقد كان هذا التجمع خروجاً عن المأثور في فرع من فروع خزاعة . فأراد - عليه الصلاة والسلام - أن يثبت من الأمر ويتأكد من صحته (فبعث بريدة بن الحصيب الإسلامي يعلم علم ذلك ، واستاذن النبي ﷺ أن يقول فاذن له . فخرج حتى ورد عليهم ما هم فوجد قوماً مغوروين قد تالبوا وجمعوا الجموع . فقالوا: من الرجل؟ فقال: رجل منكم . قدمت لما بلغنى من جمعكم لهذا الرجل فأسيئ في قومي ومن أطاعنى ف تكون يدًا واحدة حتى تستاصره قال الحارث بن أبي ضرار: فتحن على ذلك فجعل علينا قال بريدة: أركب الآن فاتيكم بجمع كثيف من قومي ومن أطاعنى فسروا بذلك منه ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم .

٢ - وبالجيش الإسلامي اليوم غيره بالأمس . فخيالاته اليوم ثلاثة فرسان ، وعدده ينوف عن الألف .

( فندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم ، فأسع الناس للخروج

وقادوا الخيول وهم ثلاثة في المهاجرين منها عشرة وفي الأنصار عشرون . ولرسول الله ﷺ فرسان ، وكان على - عليه السلام - فارساً ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبد الله ، والمقداد بن عمرو ، وفي الأنصار : سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وأبي عيسى بن جبر ، وقناة بن العم ، وعويم بن ساعدة ، ومعن بن عدى ، وسعد بن زيد الأشهلي ، والحارث بن حزم ، ومعاذ بن جبل ، وأبو قتادة ، وأبي بن كعب ، والخباب بن المنذر ، وزياد بن ليدي ، وفروة ابن عمرو ، ومعاذ بن رافعه بن رافع ) .

٣- وتقى الدعوة إلى الله تعالى هي الهدف الرئيسي الذي يسبق القتال :

أ- ( فأتي يومئذ برجل من عبد القيس ، فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « أين أهلك ؟ ». قال : بالروحاء . قال : « أين تريد ؟ » قال : إياك جئت لا ومن بك وأشهد أن ما جئت به هو الحق وأقاتل معك عدوك » ، قال له رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي هداك للإسلام » . قال : يا رسول الله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة في أول وقتها » . قال : فكان الرجل بعد ذلك يصلى حين تزيع الشمس ، وحين يدخل وقت العصر ، وحين تغرب الشمس لا يؤخر الصلاة إلى الوقت الآخر .

ب- وهذا وافق آخر لعله هو الذي دفع القيسى للإسلام . هذا الوافق هو : مسعود ابن هنية قال : لقيت رسول الله ﷺ بيقعاء فقال : « أين تريد يا مسعود ؟ » قال : قلت : جئت لأن أسلم عليك وقد اعتنقني أبو تميم . قال : « بارك الله عليك أين تركت أهلك ؟ ». قال : تركتهم بموضع يعرف بالخذوات والناس صالحون ، وقد رغب الناس في الإسلام وكثير حولنا . قال رسول الله ﷺ : « فلله الحمد الذي هداهم » ، ثم قال مسعود : يا رسول الله ، قد رأيتني أمس ولقيت رجلاً من عبد القيس فدعوه إلى الإسلام فرحب به فيه فأسلم . فقال رسول الله ﷺ : « لإسلامه على يديك كان خيراً لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت » ثم قال : « كن معنا حتى نلقى عدونا وإلى أرجو أن ينفلنا الله أموالهم » . قال : فسرت مع رسول الله ﷺ حتى غنمته الله أموالهم وذاريهم .

ج- ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع وهو الماء فنزله ، وضرب لرسول الله ﷺ قبة من أدم ومعه من نسائه عائشة وأم سلمة ، وقد اجتمعوا على الماء ، وأعدوا وتهيؤوا للقتال . فصف رسول الله ﷺ أصحابه ، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر رضي الله عنه وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه ثم أمر رسول الله ﷺ عمر بن

الخطاب ~~رسول الله~~ فنادى في الناس : قولوا : لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم .  
ففعل عمر بن الخطاب ~~رسول الله~~ فأبوا .

ولابد أن يتربى هذا الجيل كله على أن الدخول في الإسلام هو الهدف ، وليس قتل العدو هو الهدف ، وأن النصر الحقيقي هو في امتداد هذا الدين في كل حضر ومدر وتغلغله في الأفاق أعظم بكثير من قتل العدو وإيادته .

٤- ولكن هذا لا يعني الغفلة عن تحركات العدو . فالبيقظة والوعي ومعرفة العدو . تختصر الزمن وتقلل التضحيات فإن كان مسعود ~~رسول الله~~ لقى رسول الله ~~رسول الله~~ بيقوعه فأسلم وعزز خط الدعوة ، فهذا آخر يجده المسلمون بيقوعه ويقتل ، فيعزز خط الجهاد والالتحام مع العدو .

قال الواقدى : فلما نزل بيقوع أصاب عيناً للمشركين فقالوا له : ما وراءك ؟ أين الناس ؟ قال : لا علم لي بهم ... فقال عمر بن الخطاب : لتصدقون أو لا صربين عنك .  
قال : فأنا رجل من بني المصطلق ، تركت الحارث بن ضرار قد جمع لكم الجموع وتجلى إليه ناس كثير ، وبعثنى الآن لأتبه بخبركم ، وهل تحركتم من المدينة . فأتى عمر بذلك رسول الله ~~رسول الله~~ فأخبره الخبر فدعاه إلى الإسلام وعرضه عليه فابى ، وقال : لست بمتابع دينكم حتى أرى ما يصنع قومي إن دخلوا في دينكم كنت كأحدهم ، وإن ثبتوا على دينهم فأنا رجل منهم . فقال عمر : يا رسول الله ، أضرب عنقه فقدمه رسول الله ~~رسول الله~~ فضرب عنقه . فذهب الخبر إلى بني المصطلق . فكانت جويرية بنت الحارث تقول بعد أن أسلمت : جاءنا خبره ومقته ومسير رسول الله ~~رسول الله~~ قبل أن يقدم علينا النبي ~~رسول الله~~ فسىء أبي ومن معه وخافوا خوفاً شديداً ، وتفرق من كان قد اجتمع إليهم من أبناء العرب ، فما بقي معهم أحد سواهم .

وبعد هذا الرعب الذي نزل ببني المصطلق تحدثنا جويرية - رضى الله عنها - بالرعب  
الثاني :

أتانا رسول الله ~~رسول الله~~ ونحن على المريسيع فأسمع أبي يقول : أتانا ما لا قبل لنا به  
قالت : فكنت أرى من الناس والخيل ما لا أصف من الكثرة ، فلما أسلمت ، وتزوجني  
رسول الله ~~رسول الله~~ ورجعنا ، جعلت أنظر إلى المسلمين فليسوا كما كنت أرى . فعلمت أنه  
رعب من الله تعالى يلقيه في قلوب المشركين فكان رجل منهم قد أسلم وحسن إسلامه  
يقول : لقد كنا نرى رجالاً يپضاً على خيل بلق ما كنا نراهم قبل ولا بعد .

٥- ثم كانت المعركة :

( فكان أول من رمى رجل منهم بسهم فرمى المسلمين ساعة بالنبل ، ثم إن رسول

الله ﷺ أمر أصحابه أن يحملوا ، فحملوا حملة رجل واحد فما أفلت منهم إنسان ، وُقتل عشرة منهم وأسر سائرهم ، وسيّى رسول الله ﷺ الرجال والنساء والذرية وغُنِّمت النعم والشاء ، وما قُتل أحد من المسلمين إلا رجل واحد . وكان أبو قتادة يحدث قال: حمل لواء المشركين يومئذ صفوان ذو الشقر . فلم تكن لى بأهبة حتى شدّت عليه وكان الفتح ، وكان شعارهم: يا منصور أمت أمت<sup>(١)</sup> .

( وروى الواقدي عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي جهم قال: أمر رسول الله ﷺ بالأسرى فكتفوا وجعلوا ناحية ، واستعمل عليهم بُريدة بن الحبيب الإسلامي ، وأمر بما وُجد في رحالهم من رِثَة المتع ، والسلاح فجمع وعُمد إلى النعم والشاء فسيق ، واستعمل عليهم شُقُران مولاهم ، وجمع الذرية ناحية واستعمل على المقسم - مقسم الخامس - محمية بن جزء الزبيدي قالوا : فاقتسم السبي وفرق فصار في أيدي الرجال ، وقسمت الرِّثَة وقسم النعم والشاء وعدلت الجзор بعشر من الغنم ، وبيت الرِّثَة فيمن يزيد وأسنهم للفرس سهم ولصاحبه سهم ، وللراجل سهم ، وكانت الإبل ألفي بعير ، وخمسة آلاف شاة ، وكان السبي مائتي أهل بيت فصارت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، فكتابتها على تسع أوaci ذهب<sup>(٢)</sup> .

٦- لقد ضاهأت غزوة المريسيع غزوة بدر بانتصاراتها العظيمة على العدو الخارجي ولقي الحارث بن أبي ضرار وقومه المفترون بقوتهم ما لا قبل لهم به ، ورأوا رجالاً بيضاً على خيل بلق لم يروهم من قبل ولا من بعد وما هي إلا ساعة ، وأصبح القوم كلهم سبايا بيد المسلمين ، وأغنم الله تعالى المسلمين نعمهم وشاءهم . هذا الانتصار العسكري ، أما الانتصار العقدي فقد كان أعظم من هذا بكثير ، وتضليل الانتصار العسكري كثيراً أمامه .

قال ابن إسحاق: ( وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشمام أو لابن عم له فكتابته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملائحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه . فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها .

قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها وعرفت أن سيرى رسول الله ﷺ منها ما رأيت . فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقة

(٢) المصدر السابق ١ / ٤١٠ .

(١) المغازي للواقدي ١ / ٤٠٧ .

في السهم ثابت بن قيس بن الشمام أو لابن عم له، فكتابته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي . قال : « فهل لك في خير من ذلك؟ » قالت : وما هو يا رسول الله؟ قال : « أقضى عنك كتابتك وأتزوجك » قالت : نعم يا رسول الله ، قال : « قد فعلت » قالت : وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية ابنة الحارث ابن أبي ضرار ، فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ وأرسلوا ما بأيديهم ، قالت : فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيته من بنى المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها برقة منها) (١) .

قال ابن هشام : ( ويقال : لما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة بنى المصطلق ومعه جويرية بنت الحارث وكان بذات الجيش دفع جويرية إلى رجل من الأنصار وديعة، وأمره بالاحتفاظ بها ، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، فاقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته ، فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التي جاء بها إلى الفداء فراغب في بعيرين منها فغيّهما في شعب من شعاب العقيق ثم آتى إلى النبي ﷺ ، وقال له : يا محمد أصبتني ابتي ، وهذا فداها . فقال رسول الله ﷺ : « فأين البعيران اللذان غيّبتهما بالعقيق في شعب كذا وكذا؟ » فقال الحارث : أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك محمد رسول الله، فوالله ما اطّلع على ذلك أحد إلا الله ! فأسلم الحارث وأسلم معه ابناه له وناس من قومه ، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما فدفع الإبل إلى النبي ﷺ ودُفعت إليه ابنته جويرية فأسلمت وحسن إسلامها فخطبها رسول الله إلى إياها فزوجه إياها) (٢) .

لقد انتقلت جويرية أمًا للمؤمنين في الأرض بعد أن كانت إحدى السبايا الإماماء . ولا أروع من أن ينقل لنا حديثها ضررتها عائشة - رضي الله عنها - التي لم تخف مشاعرها وغبطها من رؤيتها لجمالها الفائق ، وأن رسول الله ﷺ سيرى منها مثل ما رأت وبذلك يدخل وافد جديد ثالث ثقيل إضافة إلى أم سلمة وزينب بنت جحش - رضي الله عنهما - لكن هذا لم يمنع أن ترتفع فوق مشاعرها التي صرحت بها (فكرهتها) لم يمنعها ذلك من أن تتحدث عن أعظم مآثرها ، فهي أعظم امرأة بركة في قومها فيما نادى علم عائشة أم المؤمنين ، وهي التي تحدثنا أن المسلمين قد أعتقوا مائة أهل بيته بهذا الزواج ، مما يمكن لل المسلمين أن يأسروا أصهار رسول الله ﷺ ، وقد أدّت هذه العملية

(١) السيرة النبوية لابن هشام . وقال فيه المحقق : « الحديث حسن فقد صرخ ابن إسحاق بالتحديث ٤٠٨ / ٣ . »

(٢) المصدر نفسه ٣ / ٤١٠ ، وقد رواه البيهقي في الدلائل عن موسى بن عقبة ، والالأول أصح من الثاني .

في تحريرهم لهذه القربي ، والمصاهرة أدت بهم أن يتضمنوا إلى الصف الإسلامي جنوداً فيه بعد أن كانوا عدواً لدوداً حاذداً يود أن يثار وينتفم .

ولله در الصديقة بنت الصديق التي قدمت لنا هذه المأثرة العظيمة الخالدة لضرتها التي كانت سبباً في اعتناق قومها وإسلامهم ، وإن كان ليس بين يدينا سبباً مباشراً لهذا الإسلام إلا الرواية الثامنة التي تحدثت عن سبب إسلام الحارث وابنه وقومه .

وتحدثنا جوهرية - رضى الله عنها - عن الأثر النفسي في هذا الإعتناق لها ولقومها فتقول :

(رأيت قبل قدوم النبي ﷺ بثلاث ليالٍ كان القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجري فكرهت أن أخبر بها أحداً من الناس ، حتى قدم رسول الله ﷺ فلما سمعنا رجوت الرؤيا ، فلما اعتنقني وتزوجني ، والله ما كلّمه في قومي حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم وما شعرت إلا بخارية من بنات عمي تخبرني الخبر ... )<sup>(١)</sup> .

إنها ظاهرة جديدة تبرز لأول مرة في المواجهة بين المسلمين وخصومهم أن يتضمن الخصوم جميعاً إلى الإسلام بعظامه السلوك النبوى ، وعقرية فن التعامل معهم ، ليكون هذا خطأ من خطوط المنهج النبوى في التربية .

٧- ويطالعنا في هذه الغزوة كذلك خط جديد من خطوط التربية عانى منه الجيش الإسلامي كله في أطول غياب عن المدينة الذى امتد قرابة شهر كامل .

فعن ابن محيريز سمع أبا سعيد يقول : غزونا مع رسول الله ﷺ بنى المصطلق فسبينا كرائم العرب ، وطالت علينا العزبة ، ورغبتنا في الفداء ، فاردنا أن نستمتع وننزل فسألنا رسول الله ﷺ فقال :

« لا عليكم إلا فعلوا ما كتب الله خلقَ نَسْمَةٍ هِيَ كائنةٌ إلى يوم القيمة إلا ستكون » . متفق عليه عن قتيبة عن إسماعيل<sup>(٢)</sup> .

في حين يدى المسلمين الفاحفين خير كرائم العرب سبايا ، وهذا يعني : أن فداءهن سيكون باهظاً ، وهم في حاجة ماسة إلى المال لكن العزوية الطويلة التي عانوا منها تدفعهم إلى الاستمتاع بالسبايا ولو لم يعزلوا فقد فاتهم الفداء ، لأنها تصبح أم ولد له لا يجوز بيعها ولولها يعتقها ، فأذن لهم رسول الله ﷺ بالاستمتاع بهؤلاء السبايا والعزل خارج

(١) المغازي للواقدى / ١ / ٤١٢ .

(٢) المغازي من تاريخ الإسلام للحافظ النعيمى / ١ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، وورد في صحيح البخارى / ٥ / ٥٤ كتاب المغازي ، وكتاب النكاح ، وفي صحيح مسلم كتاب النكاح باب حكم العزل ١٠٦١ / ٣ (١٤٣٨) .

أرحمهم، وكان هذا الإذن تصحيحاً عقدياً في نفوسهم، أن الخالق والبارئ سبحانه إذا قدر خلق نسمة فسيعجز المرء عن العزل. ولئن تقول هذه الرغبة في العزل دونه خاصة وأن اليهود كانوا يجعلون الأسباب هي التي تخلق، ولابد من تصحيح هذه العقيدة في الصف الإسلامي كما يحدثنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فيقول:

(قال رجل من اليهود: وخرجت بجارية لى أيعها في السوق، فقال لي: يا أبا سعيد! لعلك تزيد بيعها ، وفي بطنها منك سخلة! قال: قلت: كلا إنى كنت أعزل عنها. فقال: تلك المؤذنة الصغرى. قال: فجئت رسول الله صلوات الله عليه وسلم فأخبرته بذلك . فقال: «كذبت اليهود! كذبت اليهود! ») (١).

وفي رواية أحمد: «كذبت اليهود ، إذا أراد الله أن يخلقه لم تستطع أن ترده» (٢).

ونشير بعدها إلى أنها أمام بشر حُبست طاقتهم الجنسية فهم مثلنا فهم يبحثون عن تفريح هذه الطاقة في الحلال، ولسنا أمام ملائكة ولم يتمكنوا من الصبر حتى يعودوا إلى بيوتهم وأزواجهم ، وهم بشر كذلك فهم يرغبون في الفداء فجهد خمس سنوات من الضنك والجهاد ، لا يمنعهم أن يحرصوا على إزالة هذه المعاناة وتحسين وضعهم المادي ؛ ليكون عوناً لهم على متابعة الطريق وإمام المربين صلوات الله عليه ينطلق بهم من بشرتهم هذه، ويلبي عندهم هذه الرغبات بتوجيه الله تعالى وتسديده . وأى إغفال لهذه الطاقات الحبيسة في المجتمع سيودي بالمجتمع إلى الضياع والانحراف والتفلت ، والتعامل مع واقع النفس البشرية هو خط أصيل وعميق من خطوط المنهج النبوى الإسلامي في التربية .

٨ - وها نحن ندخل إلى عرض الصفحة المقابلة بعد أن عرضنا في الفقرات السابقة الجوانب المشرقة في الغزوة وأثارها الإيجابية. نجدنا الآن ملخصين .. إلى عرض أكبر محنة تعرض لها الصف الداخلى من قبل العدو الداخلى ، حزب التفاق ورأسه المخطط له عبد الله بن أبي . ويمقدار ما رأينا عظمة الانتصار على العدو الخارجى بمقدار ما سعرض ضخامة المحنة داخل البيان الداخلى من العدو الداخلى المتثبت في الصف الإسلامي ، ونعرض ابتداء صفحة فردية لتنقل بعدها إلى عرض الصفحة الجماعية :

(وكان هاشم بن صبابة قد خرج في طلب العدو فرجع في ريح شديدة وعجاج ، فتلقي رجلاً من رهط عبادة بن الصامت يقال له : أوس فظنَّ أنه من المشركين فحمل عليه فقتله ، فعلم بعد أنه مسلم فأمر رسول الله صلوات الله عليه وسلم أن تُخرج دينه) (٣).

(١) المخاري للواقدى / ١ / ٤١٣ .

(٢) مسنـدـ أـحـمـدـ / ٣ / ٥٣ .

(٣) المخاري للواقدى / ١ / ٤٠٨ .

وقدِّم مقيس بن صُبَابَة مسلماً فيما يظهر فقال: يا رسول الله جتنك مسلماً، وجتنك أطلب دية أخي قُتل خطأ ، فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه هشام بن صبابَة؛ فاقام عند رسول الله ﷺ غير كثير، ثم عدا إلى قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكة مرتدًا فقال في شعر يقوله:

تضرج ثوبيه دماء الأخادع<sup>(١)</sup>  
شفى النفس أن قد مات بالقاع مسندًا  
تلّم فتحميّنى<sup>(٢)</sup> وطاء المضاجع  
وكنت إلى الأوّلَانَ أول راجع<sup>(٣)</sup>  
حللت به وترى<sup>(٤)</sup> وأدركت ثورتى<sup>(٥)</sup>  
ثأرت به فهرًا وحملتْ عقلَه<sup>(٦)</sup>  
سراة بنى النجار<sup>(٧)</sup> أرباب فارع<sup>(٨)</sup>

إنها ظاهرة خطيرة أن يتظاهر بالإسلام رجل ثم ينفض بعدها من الخلف ، وبعد أن أخذ دية أخيه فيقتل قاتل أخيه خطأ ، ويعود إلى مكة مرتدًا يتبااهي بذلك ، (وكتب إلى الأوّلَانَ أول راجع) وبعد وصوله إلى مكة . فقد انتهت سلطة رسول الله ﷺ عليه ، ولم يملك - عليه الصلاة والسلام - أكثر من إهدار دمه ، ولا شك أن قريشاً تحفل كثيراً بهذا الإنجاز ، وتفرح به ، وتود أن تنشر هذه الظاهرة ظاهرة التظاهر بالإسلام ، وقتل المسلمين والردة والهرب إلى مكة ، ويعطي الأمر انطباعاً شيئاً في الصف الإسلامي ، وقد سبّه مرتدًا ذلك الأنصارى المنافق الذى افاضحت سرقته ، وقال الله تعالى فيه بعد أن فرّ مرتدًا إلى مكة :

﴿وَمَن يُشَاقِّ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَسِّعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوكِهِ مَا تَوَكَّلَىٰ وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾<sup>(٩)</sup>.

لكن الطبيعة العربية عموماً تأبى هذا الخلق ، ومن أجل ذلك لم تأخذ هذه الحادثة الفردية مستوى الظاهرة الجماعية العامة ، إنما كل الذي تم حادثة كل عام تقريباً . ومع هذا فلم تغفر لهم تلك ، وحين حُقِّت دماء مكة كلها بما فيها أعدى العدو ، ومجرمى الحرب ، لم تغفر لهؤلاء المرتدين هذه الرلة ، فقال - عليه الصلاة والسلام - كما روى مصعب بن سعد عن أبيه ( لما كان يوم فتح مكة أمنَ رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وأمرأتين وقال: « اقتلواهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة ، عكرمة بن أبي

(١) الأخادع: عروق في القفا ، وإنما هما أندغان.

(٢) تحميّنى : تتعنى.

(٣) الوتر: طلب الثار.

(٤) ثورتى: ثارى.

(٥) العقل: الدية.

(٦) سراة بنى النجار: خيارهم.

(٧) فارع: اسم حصن لهم.

(٨) السيرة النبوية لابن هشام ٤٠٦ / ٣.

(٩) النساء : ١١٥ .

جهل ، وعبد الله بن خطل ، ومقيس بن صبابة ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح . فاما ابن خطل فأدرك وهو متعلق بالاستار فاستيق إلهي سعيد بن حويرث ، وعمار بن ياسر فسبق سعيد عمارة فقتله ، وأما مقيس فقتلوه في السوق ، وأما عكرمة فركب البحر ، وذكر قصته ثم أسلم<sup>(١)</sup> .

وفي رواية : فأمر رسول الله ﷺ بقتله أى : مقيس فقتله رجل من قومه يقال له : نميلة بن عبد الله بين الصفا والمروة .

٩ - ذلك الصدام البسيط الذي يقع بين متنازعين - ويمكن أن ينتهي ساعته - كما حدثنا عنه جابر رضي الله عنه كما في رواية مسلم : ( اقتل غلاماً من المهاجرين وغلام من الأنصار فنادي المهاجر : يالله المهاجرين ، ونادي الأنصار : يالأنصار فخرج رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية؟ » قالوا : لا ، يا رسول الله ، إلا أن غلامين اقتلا فكسح أحدهما الآخر قال : « فلا بأس لينصر الرجل أخيه ظالماً أو مظلوماً إن كان ظالماً فلينه فإنه له نصر ، وإن كان مظلوماً فلينصره » ) .

وهكذا أطلق - عليه الصلاة والسلام - فهماً جديداً للنصرة وهو يريد أن يبني أمة تتطلق من الحق لا من الهوى ، ويريد أن يجتث جذور العصبية العميم على الباطل والتي صورها المثل العربي الجاهلي أبدع تصوير ، فقال : انصر أخيك ظالماً أو مظلوماً .

وصحح عليه الصلاة والسلام هذا الفهم المغلوط في الانحراف ، واعتبر النصر الحقيقي للظالم هو في كفه عن ظلمه ، وليس في عونه على ظلمه ، وبذلك تبطل دعوى الجاهلية .

أطلق - عليه الصلاة والسلام - كلمته الخالدة في هذا الجيل الذي رياه وكانت كافية تماماً في عملية البناء ، وضمن المستوى الذي وصل له الصف المسلم من التربية ، وكان بإمكان هذه الكلمة أن تنهي المشكلة وتغلق الخلاف ، وتلوم الظالم أو تعاقبه من قيادته نفسها من المهاجرين أو الأنصار ، وقبل أن نخوض لابد أن نشير إلى هذا الخط العظيم الذي خطه عليه الصلاة والسلام في التربية لاستصال نوازع العصبية ، وذلك بوقف المسلمين جميعاً جبهة واحدة في وجه الظالم ، يكفونه عن ظلمه ، وأول من يواجهه ويكتبه عشيرته الأدنون ، وقيادة عشيرته ، ضمن إطار المصالحة ومسح جراح القلوب .

(١) المغازي من تاريخ الإسلام للحافظ التميمي ، وذكره عن أسباط عن السدى عن مصعب بن سعد عن أبيه ، وجميع رجاله ثقات إلا السدى فهو ضعيف ، ولكن له طرقاً ترقعه إلى مرتبة الحسن كما قال المحقق فيه : « في السيرة النبوية لابن هشام ٤/٧٥ » .

١٠ - غير أن الذين انضموا للصف لأول مرة بعد أحد، وبعد أقل من عام قدموها بهمة خطيرة وهي ضرب الصف من الداخل، وقد بقوا بعيدين حتى أحاط بهم المسلمون من كل جانب وفتوا تحجعهم الذي بلغ ثلث الجيش ، وأصبح ظاهر الأمر أن الصف الإسلامي غفر زلتهم ، وعاد ابن أبي فأخذ وضعه الطبيعي بعد جريمته تلك يوم أحد، ولم يُظهر على الساحة إلا الولاء للإسلام وأهله خاصة بعد أن فقد حلفاءه، وقد أعز نصيرين له هما : بنو قينقاع ، وبني النضير ، أما ما يكتبه في ذات نفسه فهو في الدهاليز المظلمة، وفي المجموعات الخاصة التي تباهي كرهها للإسلام، وقد بدأت مؤامراتها في تهييجه لاستغلال هذه الحادثة البسيطة من الخلاف بين المهاجرى والأنصارى .

وقد استغلت المشهد الدرامي من الإساءة كما في الرواية الأخرى التي رواها الحافظ الذهبي في مغازيه عن زيد بن أرقم قال : ( غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا ناس من الأعراب فكنا نبتدر الماء ، وكانت الأعراب يسبقوننا فيسبق الأعراب أصحابه فيما الحوض ، ويجعل حوله حجارة ويجعل النطع حتى يجيء أصحابه ، فأتى الأنصارى فأخرى زمام ناقته لتشرب فمنعه فانتزع حجرًا ففاض الماء ، فرفع الأعراب خشبة فضرب بها رأس الأنصارى ، فشجه فأتى عبد الله بن أبي فأخبره فغضب .. )<sup>(١)</sup> .

( وفي رواية عبد الرزاق عن معاذ عن قتادة قال : فانكفا كل منافق إلى عبد الله ابن أبي فقالوا : كنت تُرجى وتدفع فصرت لا تضر ولا تنفع .. ) .

ونلاحظ من هاتين الروايتين الصحيحتين ما يلى :

أ - ظاهرة انضمام الأعراب الذين حول المدينة إلى الإسلام وتكتشفهم سواد المهاجرين ، وأنهم لم يتلقوا التربية الكافية بعد فهم يسابقون على الماء وبجزوه ، ولعل بعضهم أسلم حديثاً بعد انتصارات المسلمين الأخيرة وبعد غروة بدر الموعد ، ولا يزالون يتصرفون بالطريقة الجاهلية بالاستئثار بالماء لقومهم وعشائرهم دون الآخرين ولم تتح بعد لهذه الأعداد التربية الكافية .

ب - إن الأنصارى الذى اصطدم مع الأعراب المهاجر - حسب رواية الذهبي - هو أقرب إلى معسكر التفاق منه إلى المعسكر الإسلامي ، والذى يدفعنا لهذا المعنى هو : أنه عندما شج رأسه مضى إلى عبد الله بن أبي يستتجده .

ج - وكان العملية مبنية ومصطنعة فى إثارة هذه المواجهة مع الأعراب ليحولوها إلى معركة مصطنعة بين المهاجرين والأنصار ، لأن جوء الأنصارى إليه أعقبه انكفاء

(١) المغازى من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي ٢٦٥ / ١ وقد أوردها بسند رجاله ثقات .

المنافقين إليه ليعطوه المبرر في تأجيج نار العداوة بين الفريقين.

١١- ولا بأس، أن ننقل مقالة ابن أبي كما استقصاها الواقدى والبيهـة التي قيلت

فيها:

( وكان ابن أبي جالساً في عشرة من المنافقين ، ابن أبي ، ومالك ، وداعس ، وسويد ، وأوس بن قيظى ، ومحتب بن قشير ، وزيد بن الصامت ، وعبد الله بن نبيل . وفي القوم زيد بن أرقم غلام لم يبلغ - أو قد بلغ - فبلغه صياح جهجاه : يا آل قريش ، فغضب ابن أبي غضباً شديداً وكان ما ظهر من كلامه وسمع منه أن قال : والله ما رأيت كال يوم مذلة ، والله إن كنت لكارها لوجهى هذا ولكنَّ قومى غلوبونى ، قد فعلوها قد كاثروا نا ونافرونا في بلادنا ، وأنكروا متننا . والله ما صرنا جلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . والله لقد ظنت أنى سأموت قبل أن أسمع هانقاً يهتف بما هتف به جهجاه وأنا حاضر لا يكون لذلك مني غير ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنا الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضر من قومه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحـلتـمـوـهـمـ بـلـادـكـمـ فـنـزـلـوـاـ مـنـازـلـكـمـ وـأـسـيـتـمـوـهـمـ فـيـ أـمـوـالـكـمـ حـتـىـ اـسـتـغـنـواـ !ـ أـمـاـ وـالـلـهـ لـوـ أـمـسـكـتـمـ مـاـ بـأـيـدـيـكـمـ لـتـحـولـوـاـ إـلـىـ غـيرـ بـلـادـكـمـ ثـمـ لـمـ يـرـضـوـاـ بـاـعـاـ فـعـلـتـمـ أـنـفـسـكـمـ أـعـرـاضـاـ لـلـمـنـاـيـاـ فـقـتـلـتـمـ دـوـنـهـ فـأـيـتـمـ أـوـلـادـكـمـ ، وـقـلـتـمـ وـكـثـرـواـ ، فـقـامـ زـيدـ بنـ أـرـقـمـ بـهـذـاـ الـحـدـيـثـ كـلـهـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ .ـ فـقـدـ أـوـضـحـ هـذـاـ الـكـلـامـ كـلـ ماـ يـنـفـهـ اـبـنـ أـبـيـ مـنـ حـقـدـ وـكـيدـ لـلـإـسـلـامـ وـأـهـلـهـ وـأـنـهـ لـوـ نـجـحـ فـيـ ضـرـبـتـهـ هـذـهـ لـشـقـ الصـفـ الإـسـلـامـيـ وـدـمـرـهـ ، وـيـشـيرـ كـلـامـهـ إـلـىـ أـنـ الجـوـ الإـسـلـامـيـ قـدـ طـغـىـ عـلـيـهـ ، وـلـمـ يـعـدـ لـهـ مـنـاصـ منـ المـشـارـكـةـ فـيـ هـذـهـ الـغـزوـةـ وـلـوـ مـكـرـهـاـ (ـوـالـلـهـ إـنـ كـنـتـ كـارـهـاـ لـوـجـهـىـ هـذـاـ بـلـكـنـ قـوـمـىـ غـلـوبـونـىـ )ـ ، وـرـكـزـ كـثـيرـاـ عـلـىـ مـوـضـعـ كـثـرـةـ الـمـهـاجـرـينـ ، وـكـيفـ هـمـ الـآنـ يـتـاـصـرـوـنـ عـلـيـهـمـ ، وـبـلـغـتـ مـعـ الـقـمـةـ أـنـ يـأـتـىـ بـهـذـاـ التـشـيـهـ الـلـئـيمـ الـذـيـ يـنـعـمـ عـمـاـ فـيـ نـفـسـهـ مـنـ كـفـرـ مـعـشـشـ فـيـهـ ، وـهـوـ يـتـكـلـمـ عـنـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ وـصـاحـبـهـ هـذـاـ الـكـلـامـ ، (ـوـالـلـهـ مـاـ صـرـنـاـ جـلـاـبـيـبـ قـرـيـشـ هـذـهـ إـلـاـ كـمـاـ قـالـ القـائلـ : سـمـنـ كـلـبـكـ يـأـكـلـكـ .ـ إـنـهـ عـبـرـىـ فـيـ بـثـ الـأـحـقـادـ وـتـزـيـقـ الصـفـوفـ وـهـىـ مـدـرـسـةـ شـاسـ بـنـ قـيـسـ الـذـىـ اـبـدـأـهـاـ فـيـ بـدـاـيـةـ الـهـجـرـةـ ثـمـ أـغـلـقـتـ أـبـوـابـهـ بـعـدـ .ـ لـكـنـ الـآنـ يـرـيدـ أـنـ يـحـطـمـ أـمـةـ رـعـاـهـاـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ بـيـدـهـ الـحـانـيـةـ خـمـسـ سـنـينـ حـتـىـ اـشـتـدـ صـلـبـهـاـ وـاستـقـامـ عـودـهـاـ ، وـلـوـ كـانـ الدـعـوـةـ الـتـىـ بـنـهـاـ اـبـنـ أـبـيـ فـيـ غـيرـ هـذـهـ الـأـمـةـ لـحـوـلـتـ وـاقـعـهـاـ حـرـبـاـ ضـرـوـسـاـ تـأـكـلـ الـأـخـضـرـ وـالـبـاـسـ فـهـوـ يـبـحـثـ عـنـ الـجـذـورـ لـيـقـتـلـهـاـ (ـهـذـاـ مـاـ فـعـلـتـ بـأـنـفـسـكـمـ ، أـحـلـتـمـوـهـمـ بـلـادـكـمـ ، فـنـزـلـوـاـ مـنـازـلـكـمـ ، وـأـسـيـتـمـوـهـمـ فـيـ أـمـوـالـكـمـ حـتـىـ اـسـتـغـنـواـ .ـ )ـ ، وـهـاـ هـوـ يـدـعـوـهـمـ إـلـىـ اـقـتـلـاعـ هـذـهـ الشـجـرـةـ وـهـىـ يـافـعـةـ ، (ـلـوـ أـمـسـكـتـمـ مـاـ بـأـيـدـيـكـمـ لـتـحـولـوـاـ

إلى غير بلادكم) ، وإذا كانت هذه الشجرة الباسقة قد سقطت بدماء الشهداء من المهاجرين والأنصار هامو يحول القضية إلى جريمة كبرى يعاقب عليها الخونة المارقون (ثم لم يرضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضًا للمنايا فقتلتم دونه . فأيتمتم أولادكم وقللتكم وكثروا) .

لكن أهم ما في الحديث وما نقله جبريل من فوق سبع سموات قوله:

﴿ لَا تُتَفَّقُوا عَلَىٰ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ﴾ .

﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجُنَّ الْأَعْزَمَ مِنْهَا الْأَذَلُّ ﴾ (١) .

١٢ - وقد أطمن ونفت ما في نفسه من سم لدى هؤلاء الأعزاء العشرة عليه من المنافقين دون أن يلقى بالاً إلى هذا الغلام الصغير الذي يسمع الحديث وهو يعرف أنه يحبه إذ يقول زيد الغلام رسول الله : والله ما كان في الخزرج رجل واحد أحب إلى من عبد الله بن أبي ، والله لو سمعت هذه المقالة من أبي لنقلتها إلى رسول الله رسول الله .

وابن أبي مطمئن إلى أركان حزبه ، وقد فشا الشر في الجيش ، واستدعاى التحقيق في صحة المقالة ( فأرسل رسول الله رسول الله إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلقو ما قالوا . فكذبته رسول الله رسول الله وصدقه فأصابني هم لم يصبن مثله هم فقط ) .

لقد وصف القرآن الكريم قادة النفاق بأنهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتُمُ تَعْجِبُكَ أَجْسَاهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَائِنُهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ ﴾ (٢) .

فهم في مظاهرهم من اللباقة والكياسة والجمال ما يبهر الآخرين ، وعندما يأتون فيحلفون اليمان أمام رسول الله رسول الله أنهم ما قالوا وأن هذا غلام يهم ويتوهم ويخترع ، وحين نرى أن القوم صدقوا عبد الله بن أبي فيما قالوا وكذبوا الغلام ، خاصة ومع ابن أبي شهوده الذين حلفوا معه أنه ما قال هذا الكلام ، يعني: أن لابن أبي لا يزال مركزاً في قومه ، وموقعًا في قبيلته يجعلهم يجاملونهم ويصدقونه ، لكن المعنى الأبعد هو أن ابن أبي قد استعاد وضعه ومركزه بعد هزة بنى قينقاع وجريمة أحد ، وأمل المسلمين أن يكون قد أفلح عن نفاقه وانضم إلى الصف الإسلامي ، ولم يجد أتباعه حرجاً من الثقة فيه بعد تعدل المواقف ، فالإسلام يجب ما قبله ، ويعزل الخطأ السابق ولعله أسلم من

جديد فدخل في رحمة الله :

(٢) المنافقون / ٤ .

(١) المنافقون / ٧ ، ٨ .

» إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدُّرُكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَنَنْجَدُ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا  
وَأَصْلَحُوا وَأَعْصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ  
أَجْرًا عَظِيمًا » (١) .

فَكَمَا تَقُولُ الرِّوَايَاتُ الصَّحِيحَةُ فِي الْبَخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ :

(فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَاصِحَّابِهِ فَحَلَّفُوا مَا قَالُوا . فَكَذَّبَنِي  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ ، فَأَصَابَنِي هُمْ لَمْ يَصِبُنِي مُثْلَهُ قَطُّ ، فَجَلَسَ فِي الْبَيْتِ فَقُالَ لِي  
عَمِي : مَا أَرْدَتُ إِلَى أَنْ كَذِّبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَقْتَكَ... ) .  
وَكَبَارُ الْقَوْمِ يَدْفَعُونَ عَنِ ابْنِ أَبِي .

(وَجَعَلَ الرَّهْطَ مِنَ الْأَنْصَارِ يُؤْبِنُونَ الْغَلَامَ وَيَقُولُونَ : عَمِدَتْ إِلَى سِيدِ قَوْمِكَ تَقُولُ  
عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ ، وَقَدْ ظَلَمْتَ وَقَطَعْتَ الرَّحْمَ... ) (٢) .

(ثُمَّ إِنَّ ابْنَ أَبِي أَتَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « يَا ابْنَ أَبِي إِنَّ كَانَتْ سَلْفُكَ مِنْكَ  
مَقَالَةٌ فَتَبِّعْ » فَجَعَلَ يَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَالَ زَيْدٌ وَلَا تَكَلَّمْتَ بِهِ ! وَكَانَ فِي قَوْمِهِ  
شَرِيفًا فَكَانَ يَظْنُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ ) (٣) .

١٢ - لَكُنَّا نَلَاحِظُ مِنْ طَرِفِ آخَرِ انْهِسَارَ مَدِ النَّفَاقِ بِشَكْلٍ وَاضْعَفَ فَبَعْدَ أَنْ اتَّخَذَ  
زَعِيمُ النَّفَاقِ مَوْقِفَهُ الْأَوَّلَ مَعَ بَنِي قَبْنَيَّاعَ وَأَكْرَهَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَيَاءً فِي إِطْلَاقِ رَجَالِهِمْ ،  
لَمْ يَعْتَذِرْ عَنِ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ فَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ وَشَخْصِهِ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُخْطَطِ ، وَعِنْدَمَا اتَّخَذَ  
مَوْقِفَهُ الثَّانِي يَوْمَ أَحَدٍ وَانْفَصَلَ بِثَلَاثِ الْجَيْشِ وَقَامَ قَوْمُهُ فَأَجْلَسُوهُ عِنْدَمَا قَامَ يَنَافِقُ وَيَدْعُو  
قَوْمَهُ لِنَصْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، خَرَجَ غَاضِبًا وَلَمْ يَعُدْ ، وَلَمْ يَعْتَذِرْ عَنِ مَوْقِفِهِ بِلَ كَانَ  
يَشْتَمِّ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَيَدْلِلُ عَلَى صَحَّةِ مَوْقِفِهِ بِتَتَاجِحِ الْمَعرَكةِ . أَمَّا يَوْمُ فَقَدْ اخْتَلَفَتِ  
الصُّورَةُ تَامًا وَقَدْ غَزَا الإِسْلَامَ الْقُلُوبَ وَلَمْ يَعُدْ هُنَاكَ وَجْدٌ لِحَرْبِ الإِسْلَامِ ، أَوْ النَّيلُ  
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَىِّ شَخْصِيَّةٍ مَهْمَا عَلَا كَعْبَاهَا وَارْتَفَعَ سَهْمَهَا وَنَقْلَ وَزْنَهَا ، وَمِنْ  
أَجْلِ ذَلِكَ شَجَدَ ابْنُ أَبِي الزَّعِيمِ الْأَوَّلِدِ فِي مَرْحَلَةِ مِنَ الْمَراحلِ يَأْتِي مَعَ أَتَبَاعِهِ يَتَنَصَّلُونَ  
مِنْ كَلَامِهِمْ ، وَيَحْلِفُونَ الْأَيْمَانَ الْمَغْلُظَةَ عَلَى أَنَّهُمْ مَا قَالُوا هَذَا الْكَلَامُ ، وَيَتَبَرَّوْنَ إِلَى  
اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الْمَوْاجِهَةِ ، وَعَاجِزُونَ عَنِ اتَّخَادِ الْمَوْاقِفِ  
الْمَعَادِيَّةِ ، بَلْ أَصْبَحَ جَلْهُمْ أَنْ يَرْضَى عَنْهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَلَاَنْ بِشَاشَةِ الْإِيمَانِ لَمْ  
تَخَالَطْ قُلُوبُهُمْ ، لَمْ يَجِدوا حِرجًا فِي حَلْفِ الْأَيْمَانِ فَلَوْ كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَرَّةٌ إِيمَانٌ بِنَبِيِّهِ

(٢) (٣) المغازى للواقدي ٤١٧ ، ٤١٨ .

(١) النساء : ١٤٥ ، ١٤٦ .

رسول الله ﷺ وأن الله مطلّع على سرائرهم ومطلع على خفاياهم لما تحرّروا على  
القسم بهذه الأيمان ، ولما أقدموا عليه ، وهم يعرفون أنهم سيفضحون فيما بعد ، وأنه  
ستنكشف أوراقهم بالوحى الإلهي .

ومن خلال هذه المقارنة ورغم خطورة هذه المقالة نشعر أن جهد ثلات سنين بعد  
أحد ، قد استطاع أن يفتت معسكر النفاق ويكسر شوكته وتحديه وانتقل النفاق من أن  
يكون حزبًا يعمل علّا ويتخذ الموقف المعادية ووراءه الجموع الكثيرة التي وصلت إلى  
ثلث الجيش يوم أحد إلى حزب سرى يعمل في الخفاء ، ويتحرك في الظلام ، ولم تكن  
الثقة بشخص ابن أبي والّتي بربّت في تصديق القوم له ثقة تقوم على شخصه في حرب  
الإسلام وأهله إنما ثقة به أن عاد شخصًا نظيفًا مخلصًا للإسلام ويجاهد في سبيله ،  
وحرص المسلمين على ابن أبي بزعامته وموهبه ومركزه أن يوظف هذا كله في سبيل  
الله جعلهم ينكرون هذا الحديث ، وفي أعماقهم أمل ورجاء لا يكون هذا صحيحاً .  
فهذا يعني أن في الصفة الإسلامية رجل بهذا الموقع والجاه والمال ، لا يزال حرباً على  
الإسلام وأهله .

إن مجرد مسارة ابن أبي والذين معه إلى المثلول بين يدي رسول الله ﷺ ، وخلف  
الأيمان المغلظة على أنهم ما قالوا ما عندهم زيد ، يعني: أن ابن أبي زعيم النفاق  
ووراءه قومه وحزبه قد انتهى من المجتمع ولم يبق إلا ابن أبي الرعيم المسلم الذي يخدم  
هذا الدين ، وي العمل من أجله ، وأن الساحة لم تعد تقبل رأياً يحارب الإسلام ، ويعادي  
ليس بقوة السيف ، إنما بقوّة انتصار هذه العقيدة ، وعظمّة تأثيرها على النفوس ، فلم  
يُتّخذ - عليه الصلة والسلام - آية عقوبة ب شأن ابن أبي بعد انسحابه من أحد مع حزبه ،  
ولم يصدر حكاماً بالإعدام تناول ثلث هذا الجيش ، وهم الفارون من الزحف ، ولم يبع  
السجون بهم ليلقوا أنواع العذاب والنكال ، لم يلقوا شيئاً من هذا ولو سار - عليه  
الصلة والسلام - في هذا المسار ل كانت عملية الهدم للمجتمع هي التي تؤتي أكلها ،  
ولا شتعلت نار الحرب بين الأوس والخزرج . ولخسر الصفة الإسلامية كثيراً من أفراده  
ولا تزال العصبية لها دورها وأثرها وخطورها ، صحيح قد يتتصّر رسول الله ﷺ ظاهراً  
في قمع حركة التمرد وسيطر تماماً على الموقف ، ولكنه سيخسر بالتأكيد الكثير من  
 أصحابه وأنصاره ، وسيتحطم المجتمع تحت مطارق العصبية القبلية ، والقرآن الكريم  
الذى ينزل على عبد الله تعالى ورسوله هو الذى وضع خطة مواجهة هذا التمرد .

فمضى القرآن الكريم المتزل على قلب محمد ﷺ يفضح النفاق والمنافقين ،  
ويهاجم الموقف والعقائد المنحرفة ، ويدع الحديث عن الأشخاص والأعيان ، ويفتح

المجال الرحب أمام الانضمام إلى المجتمع المسلم دون قيد أو شرط واندفع المؤمنون الأولون من المهاجرين والأنصار، ومن جيل بدر، يتصلون بأقاربهم وأصدقائهم ومعارفهم من تجمع النفاق ، ليزيلوا الغيش عن قلوبهم ، والعمه عن نفوسهم ، ويتمكنوا بحسن معاملتهم وعظمة معادتهم أن يقيموا هذه القلوب من جديد إلى المعسكر الإسلامي .

إن كثيراً من الدعوات والأمم، والجماعات تتحطم حين تكون عاجزة عن صهر الأعداد الجديدة الوافدة إلى الصفر بالصف ، وتربية الأفراد برفق ليرتفعوا إلى مستوى القاعدة الصلبة ؛ لتجعل من هذه الأعداد الجديدة امتداداً لقادتها الصلبة في الأرض . وحين تعكس الصورة وتعجز القيادة العظيمة ووراءها الراعي الأول من استيعاب هذه القواعد الجديدة ، ويسود التذمر والنقد ، وتفقد الثقة عندئذ يبدأ الراعي الأول بالتزلل ، والتراجع ، ويبدأ العدو الأكثر يغلب الجموعة المخلصة ، فتنتقل أمراض الوافدين الجدد إلى الصفر الأول ، ويؤذن البناء بالانهيار وحين تقف القيادة متفرجة عاجزة عن التغيير ، ويصبح همها المحافظة على ذاتها وشخصها وكيانها وتبدأ بإدانة المخالفين ومعاقبتهم ، تكتب بيدها نهاية حياتها وحياة الجماعة الجديدة التي تقودها ، وما أحراها ونحن نحاول استئناف الحياة الإسلامية من جديد ، ببناء الجماعة الجديدة على خطى الجماعة النموذج في المدينة ، أن توقف كثيراً عند عملية البناء والتربية التي قامت في مجتمع قتلته العصبية منذ آلاف السنين ، وعجز أن ينتقل من مستوى القبلية والعشيرة إلى مستوى الأمة ، وحتى قبيل وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة كانت معركة بعثة بين الأوس والخزرج ، والتي أفت قوى الفريقين ، وقتلت شبابها تحت راية العصبية .

إنها لمعجزة حقيقة يبحث عنها الإنسان في عملية بناء الأمم ، ويرى عظمة هذه المعجزة في عظمة بناء النفوس ، وعظمة صياغة القلوب ، وعظمة تربية الرجال لا ليكونوا جنوداً عاديين فحسب ، بل ليكونوا قادة يقودون البشرية كلها إلى النور .

٤ - ونعود إلى غلامنا العظيم زيد ، هذه البذرة المفتحة التي استنشقت عبير الإسلام وصحت عليه ، والتي لم تلوث بأية عقدة من عقد الزعامة والعصبية والهوى ، والتي لامس القرآن قلبها مباشرة دون حواجز أو عوائق أو قيود ، وهو يمثل صورة هذا المجتمع الوليد الذي آمن بالله تعالى ، وشهد بعينيه سيد الخلق . كيف يفعل . وكيف يربى وكيف يعبد ، وكيف يتلقى الوحي ؟ لنصل من خلال ذلك إلى صورة جديدة من صور المنهج التربوي النبوى للأمة ، وذلك من خلال نقاط علامه تلقى الضوء على شخصه كنموذج للبراعم الجديدة التي تنمو في ظل الإسلام .

أـ - فقام زيد بن أرقم بهذا الحديث كله إلى رسول الله ﷺ . فأخبره الخبر، فكره رسول الله ﷺ خبره، وتغير وجهه ثم قال: « يا غلام، لعلك غضبت عليه! » . قال: لا والله لقد سمعته منه . قال: « لعله أخطأ سمعك! » قال: لا يا نبى الله! قال: « لعله شبه عليك! » ، قال: لا والله لقد سمعته منه يا رسول الله )١( .

إنه إمام المربيين - عليه الصلاة والسلام - لابد أن يتأكد من صحة النقل قبل المحاكمة والاتهام والتحقيق ، و طفل لم ينchez البلوغ ، محتمل أن يخترع هذا الكلام لغضب عنيف ، أو قلة وعي وفهم للمقال ، أو استرادة ؛ لأن جرح النفوس الكبيرة لا يلائم بسهولة ، فإن يبدأ التحقيق لمقالة صبي قد تجرح كبرياء الرجال ، وتزعزع الثقة بين الكبار في الاستجابة لدعوى طفل صغير ، لم يبلغ الحلم بعد ، وحين ينظر الآخرون إلى الجانب الصعب في قضية الصبي زيد ، نظر إلى الجانب العظيم فيها ، فقد قبل عليه الصلاة والسلام بعد أن تأكد من غلامه المؤمن وصدقه أن يستدعي أكبر الرؤوس للتحقيق معها بناء على الاتهام الموجه من طفل ، وهذا إكبار عظيم له يفخر بها كل صبي مسلم أن يرى سيد الخلق - عليه الصلاة والسلام - يستدعي أعظم الشخصيات لتحاسب انطلاقاً من دعوى هذا الطفل العظيم .

وحين لا يصدقه - عليه الصلاة والسلام - ليس تكذيباً له ، لكنها كذلك عظمة القضاء . فالدعوى تحتاج إلى شاهد إثبات ، وتوطأ الشهود جمیعاً على تكذيب زيد ، وحلقوه أن عبد الله بن أبي لم يقل هذا المقال وخلف ابن أبي ومعه شهوده ، فلا يملك رسول الله ﷺ إلا أن يصدق هؤلاء الحالفين ويكتذب هذا الطفل أو يرد دعواه بتعير أدق . فالإثبات دائمًا بالشهادة أو اليمين ، البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر ، وعجز زيد ﷺ أن يقيم البينة ، ثم كان اليمين على من أنكر ، وقد المكر يميناً وبينة ، دعواه ، فسقطت الحجة الأولى ، ثم كان اليمين على من أنكر ، وقد المكر يميناً وبينة ، فليس أمام سيد القضاة في الوجود ، إلا أن يقر بصحة كلام الحالفين ويرد دعوى زيد ، إنها عظمة هذا الدين وعظمة هذه التربية ، فليس للقناعة الشخصية دور في القضاء ، وليس للهوى وجود فيه ، ويكفيانا في هذا الصدد دستور القضاء العظيم الذي سنته - عليه الصلاة والسلام - حيث يشير إلى أن الحكم بالدعوى من القاضى لا يعني دوماً أنها صحيحة . كما يقول - عليه الصلاة والسلام - فعن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون أحن بحجه من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه . فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً، فإنما أقطع له بقطعة من النار » )٢( .

(٢) أخرجه مسلم ١٣٣٧ / ٣ ( ١٧١٣ ) .

(١) المغارى للواقدى ٤١٧ / ٢ .

وفي رواية « فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها . . . »<sup>(١)</sup>  
وما لم يأت الوحي من السماء فلا يملك - عليه الصلاة والسلام - إلا أن يحكم  
بالظاهر ، ويدع السرائر لرب العالمين .

ب - والذى يعنينا من شخص زيد رضي الله عنه كلمته العظيمة الحالدة التى تعطينا صورة  
من صور عظمة التربية للطفل المسلم . الذى يبدو أكبر من سنه ، وأكبر من شخصه ،  
وأكبر من هواه فهو يقول : ( ووالله لقد سمعت منه ، ووالله ما كان فى الخزرج رجل  
واحد أحب إلىَّ من عبد الله بن أبي ، ووالله لو سمعت هذه المقالة من أبي لنقلتها إلىَّ  
رسول الله صلوات الله عليه وسلم ) .

فقد أصبح ولاؤه لله ورسوله وحده ، فوق الآب والأم والعشيرة . ويعرف أن  
انتقامه لهذا الدين أعظم بكثير من انتقامه للخزرج . وكم الفرق شاسع بين هؤلاء العناة  
العشرة الذين تواطؤوا على تكذيب زيد ، وأقسموا الأيمان ببراءة عبدالله بن أبي ، وكيف  
يمكن أن يقارن هؤلاء مع طفلنا العظيم زيد الذى ارتفع فوق هواه ، وفوق عشيرته ،  
وفوق ذاته ، وعرف أن دينه يطلب منه التزاماً كاملاً فى أن ينقل كل ما يسمع لا لصديقه  
ولا لقريبه . فهو يعلم منهج التربية فى النقل .

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِنِّي أُولَئِكُمْ مِّنْهُمْ نَعْلَمُ اللَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعُتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾<sup>(٢)</sup> .

ج - ومع أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم ردَّ دعوته ، هو أرجى بالله تعالى من كل أحد ، وهو  
يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله إذ يقول بعد كلمته السابقة : ( والله لو سمعت هذه  
المقالة من أبي لنقلتها إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم ) يقول بعدها :

( وإنى لارجو أن ينزل الله تعالى على نبيه حتى يعلموا أنا كاذب أم غيرى . أو يرى  
رسول الله صلوات الله عليه وسلم تصدق قولى ، وجعل زيد يقول : ( اللهم أنزل على نبيك ما يصدق  
حديثى )<sup>(٣)</sup> . فهو واثق بربه ، وهو فقيه فى دينه يعرف الحدود بين العبودية والربوبية ،  
ويعرف أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم عبد لله ورسوله ، لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله تعالى ،  
فراح يلتجأ إلى ربه ويصرع له أن يعلم نبيه بصدقه .

(١) آخر جه مسلم / ٣ ١٣٣٨ / ٥ / ١٧١٣ .

(٢) النساء / ٨٣ .

(٣) المغارى للواقدى ٤١٧ / ٢ ، أوردتها بستان رجاله ثقات .

والذين يعلمون الناس التوحيد ، ويتحدثون عن العقيدة في الآلاف المؤلفة من الكتب والأشرطة والمحاضرات والخطب ندعوهم جميعاً أن يتلمسوا هذه العقيدة من هذا الطفل العظيم الذي تستفيد من جهة أن ينقل لقائده الحبيب ما سمعه من ابن أبي ولو كان أبوه قالها لنقلها رسول الله ﷺ ، فهو أعظم الحب في هذا الوجود. هو هو نفسه وقد ردَّت كلمته من رسول الله ﷺ وأخذ ظاهراً بيمين الكبار من قومه. لم تهتز عقيدته ، ولم يحقد على هذه الإهانة من قومه ولم يأسف أن نقل الخبر للمصطفى - عليه الصلاة والسلام - كان يعلم فوق هذا كله أن رب السموات والأرض الواحد الأحد الفرد الصمد الذي يعلم الغيب هو الذي يصدق مقولته ويرى نبيه صدقه.

إن كل هذا الحب وكل الفداء وكل التفاني بشخص رسول الله ﷺ من زيد لم يرفع رسول الله ﷺ عنه فوق مقام العبودية وبقي مقام الوحدانية والربوبية واضحاً ساطعاً جلياً في نفسه يلتجأ إليه عندما تقف الدنيا كلها ضده ، ولو كان مع هذه الدنيا رسول الله - صلوات الله وسلامه - عليه فهو لا يعلم من الغيب إلا ما يعلمه الله.

هذه هي التربية على العقيدة ، من خلال النصوص الحية الفاعلة المؤثرة وليس من خلال الموعظ الباردة والتوجيهات الصارمة ، والأوامر الصادرة وتوزيع التكفير والتفسيق على الأمة.

ونشهد أدب زيد كذلك رسول الله في حديثه عن الذين كذبوا ، فلم يفقد توازنه ، وهو في أرهب محنة يلقاها في حياته ، ولم يطلق لسانه سباً وشتماً وتشهيراً ، إنما اكتفى بقوله: ( وإنى لارجو أن ينزل الله تعالى على نبيه حتى يعلموا أنا كاذب أم غيري ) .  
لله أنت أيها النموذج الخالد ! إن الطفل في مثل هذه السن ، لا يكون محقاً ، ويكون كاذباً ، ويحلف الأيمان المغلظة على صدقه ، ويشهر لسانه في النيل من يكذبوا ، ويلتجأ إلى البكاء أحياناً والسفاهة أحياناً أخرى للوصول إلى مأربه وتصديقه وهو يعلم أنه كذوب.

أى مستوى من التربية هذا وصل له أبناء هذا الجيل العظيم ، أن يكتفوا بهذا الأدب الجم فلا ينالوا من الكذبة العشرة ولا يترجمونهم بالحجارة ، ولا يصرخون في وجوههم إنما يكتفون بالقول: ( وإنى لارجو أن ينزل الله تعالى على نبيه حتى يعلموا أنا كاذب أم غيري ) .

وحين نبحث عنمن يشرف على تربية زيد لا نفاجأ بهذا المستوى ، فهو يتم في حجر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وعبد الله هو : شاعر رسول الله صلوات الله عليه وسلم وهو أحد النقباء الاثنى عشر ، وهو أحد البذررين ، وهو قائد عظيم من قادة الرعيل الأول ، فلا بد أن يربى مثل هذا النموذج العظيم .

د - ولتتابع تحليلاً في أعماق هذا الغلام العظيم الذي كتبه الكبار الكبار وعظم الاجسام والاحلام وصار في موقع التأييب حتى من عبد الله بن رواحة رضي الله عنه جاء الوحي من رب السموات والأرض ليُدفن قيماً ويُحيى قيماً ، جاء ليُدفن قيم الجاه والزعامة والقوة في العشيرة والمال وبيني قيم الحق في هذا الوجود ولو كان على لسان طفل مراهق ، ولنعش هذه اللحظات السعيدة مع خفقات قلب زيد :

( في بينما رسول الله صلوات الله عليه وسلم يسير من يومه ذلك ، وزيد بن أرقم يعارض النبي صلوات الله عليه وسلم براحته يريد وجهه في المسير ورسول الله صلوات الله عليه وسلم يستحبث راحتته فهو منفذ في السير إذ نزل عليه الوحي . قال زيد بن أرقم : فما هو إلا أن رأيت رسول الله صلوات الله عليه وسلم تأخذه البرحاء ويعرق جبينه وتتقلل يدا راحتته حتى ما كاد ينقلها ، عرفت أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم يوحى إليه ، ورجوت أن يكون قد نزل عليه تصديق خبri . قال زيد بن أرقم : فسرى عن رسول الله صلوات الله عليه وسلم . فأخذ بأذني وأنا على راحتلى حتى ارتفعت عن مقعدي ويرفعها إلى السماء وهو يقول : « وَقَاتَ أَذْنِكَ يَا غَلَامَ ، وَصَدَقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ » ، ونزل في ابن أبي السورة من أولها إلى آخرها وحده « إِذَا جَاءَكَ »<sup>(١)</sup> ، فهو يعرف رسول الله صلوات الله عليه وسلم أنه بشر مثل هذا البشر ، لكنه فوق هؤلاء البشر جميعاً ؛ لأنه يوحى إليه من دونهم ، وهو يعرف صورة الوحي ، وتتقلل وطأة راحتته حتى ما تستطيع السير ، فخفق قلب زيد أن يكون هذا الوحي بشأن حدسيه ، وليس هذا من باب إعجابه بذاته أو حرمه على شخصه بمقدار حرمه على دين الله عز وجل ، وحرمه على شخص رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، من كيد الكاذبين ، وتأمر المتأمرين بالخلفاء ، فخطورة هذا الكلام هي التي دعته أن ينقله إلى قائد الأعلى - عليه الصلاة والسلام - وكم يغطيه أن يسيراً ابن أبي والطواحيت الذين معه برآء صادقون ، وهم الدجالون الكاذبون المحاربون لله ورسوله .

وصدق رجاء الطفل المؤمن ، وأعلنها رسول الله صلوات الله عليه وسلم مدوية . فهو يرفعه ليراه

(١) آئي سورة « المنافقون » .

ال القوم ويراه الجيش كله ، ويراه الذين اتهموه بالكذب والاختلاق ، رفعه فوق راحلته ، ليعلن للجيش كله صدقه ، وبراءته ، وتصديق الله تعالى لحديثه ، وانتصر الغلام الصغير الصادق على الطواغيت الكبار الحاجرين بتصديق رب العالمين وكانت سورة « المنافقون » .

١٥ - وتزل القرآن الكريم لينهى عبد الله بن أبي وحزبه إلى الأبد ، ويخرجهم من الصف الإسلامي :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهُدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَاحًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتُمْهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَائِنُهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِحَّةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوُّ فَاحذِرُهُمْ فَاتَّلِمُ اللَّهُ أَتَنِي يُؤْفِكُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْرَا رُؤُوسُهُمْ وَرَأْيُهُمْ يَصْدُرُونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنَقِّبُوْا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلَلَّهِ خَرَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجُنَّ الْأَعْزَمَ مِنْهَا الْأَذْلَلَ وَلَلَّهِ الْعَزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخْرَتْنِي إِلَى أَجْلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدِقَ وَأَكْنِ مِنْ الصَّالِحِينَ . وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَهُ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾<sup>(١)</sup> .

نزلت هذه السورة فقلبت المواريز جميعاً ، وانتهى عبد الله بن أبي الزعيم عند المسلمين ، وإن كان لم ينته ولن ينتهي عند المنافقين .

(فَمَرَّ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامتِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي عَشِيهِ رَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الرَّبِيعِ وَقَدْ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ فَلَمْ يَسْلُمْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ مَرَّ أَوْسُ بْنُ خَوْلَى فَلَمْ يَسْلُمْ عَلَيْهِ فَقَالَ أَبْنَ أَبِي : إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ قَدْ تَعَالَمَ عَلَيْهِ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَأَنْبَأَهُ وَبَكَّاهُ بِمَا صَنَعَ وَمَا نَزَلَ

(١) سورة « المنافقون » .

من القرآن إكذاباً لحديثه، وجعل أوس بن خولي يقول: لا أكذب عنك أبداً حتى أعلم أن قد تركت ما أنت عليه وتبت إلى الله إنا أقبلنا على زيد بن أرقم نلومه ونقول له: كذبت على رجل من قومك حتى نزل القرآن بتصديق حديث زيد وإكذاب حديثك، وجعل ابن أبي يقول: لا أعود أبداً<sup>(١)</sup>.

لقد فضح القرآن ابن أبي والمرهط الذين تتابعوا معه فقال عنهم : ( الكاذبون ) و ( الفاسقون ) و ( يؤفكون ) و ( الكافرون ) و ( لا يفهون ) و ( لا يعلمون ) ، فأى شيء بقى لهم بعد هذه الأوصاف ، وماذا بقى لهم بعد ذلك في الصف الإسلامي وقد وصفهم الله تعالى بهذه الأوصاف ؛ إنه السقوط المريع الذي لا تقوم بعده لهم قائمة في حس كل مسلم ، من أدنى طفل فيه إلى الشيخ الفاني والمرأة العجوز . وإن كان أكبر الأوصاف التي تغسلهم بالعار عند المنافقين أنهم الكاذبون وأنهم الأفاكون المفترون ، فقد يختلف الرجال . وتصطرب العقائد ، لكن الكذب عند العرب إسقاط للرجال . فهذا أبو سفيان وهو بين يدي هرقل ، ويستطيع أن يكذب ويفترى على محمد ما يحلو له . لكنه يخشى السبة عند العرب أن تشتهر عنه كذبة واحدة .

( ثم قال لترجماته : قل لهم : إنني سائل هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه . فوالله لو لا الحياة من أن يأثروا على كذباً لكذبت عنه)<sup>(٢)</sup> .

( قال : فهل كتمت تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ . قلت : لا . قال : فهل يغدرُ ؟ قلت : لا . ونحن منه في مدة ولا ندرى ما هو فاعل فيها . قال : ولم تَمْكِنْي كلمة أدخلُ فيها شيئاً غير هذه الكلمة)<sup>(٣)</sup> .

لقد جرت الدماء أنهاراً بين رسول الله ﷺ وقريش ، وأقصى ما استطاع أبوسفيان أن يناله من رسول الله ﷺ ويطعن به في ظهره أن قال : ونحن في مدة ولا ندرى ما هو فاعل فيها ، والكذب سقوط للرجال في أي مجتمع كان ، سیان كان ، المجتمع جاهلياً أو إسلامياً . فكيف يكون إذن سقوط ابن أبي وصحبه بعد هذه الآيات !!

يقول الحافظ ابن حجر بصدق تعليقه على مقالة أبي سفيان : فوالله لو لا الحياة من أن يأثروا على كذباً لكذبت عنه يقول :

وفيه دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب إما بالأخذ عن الشرع السابق ، أو

(١) المغاري للواقدي / ٢ - ٤٢٠ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري / ١ ( ٣١ ) ( ٧ ) .

بالعرف ، وفي قوله : (يأثروا) دون قوله : (يكتنبو) دليل على أنه كان واثقاً منهم بعدم التكذيب لو كذب لاشتراكم معه في عداوة النبي ﷺ ، لكنه ترك ذلك استحياءً وأنففة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا فصیر عند سامعي ذلك كذاباً . وفي رواية ابن إسحاق التصریح بذلك ولفظه (فوالله لو كذبت ما رددوا على) . ولكنني كنت امرأة سيداً انكرت عن الكذب ، وعلمت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك عنى ثم يتحدثوا به فلم أكذبه )<sup>(١)</sup> .

## ١٦- ولقف بعد أمم عظمة مواجهة الموقف من المصطفى ﷺ :

قال ابن إسحاق : (فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال: يا نبى الله. والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها ، فقال له رسول الله ﷺ : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم » . قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : « عبد الله بن أبي » . قال : وما قال ؟ قال : « رعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعز منها الأذل» ، قال : فأنت يا رسول الله والله تخوجه إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز ثم قال: يارسول الله ، ارقق به ، لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتووجه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً ) .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا من الأرض فوقوا نياماً وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي )<sup>(٢)</sup> .

لقد أمر بالسير مباشرةً منذ أن تحدث زيد بن أرقم بالحديث ، وبعد حلف ابن أبي وأصحابه ، وقبل أن ينزل القرآن بهذا الشأن ، لأن طبيعة المجتمعات أن تتناقل الحديث بغض النظر عن صدقه وكذبه خصوصاً وأن أسبابه المباشرة تلك المشادة بين المهاجرى والأنصارى ، والذى كان - عليه الصلاة والسلام - يرى بحسه أن ذيولها

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ج ١ ص ٣٥٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤٠٤/٣ ، وقد رواه ابن إسحاق عن محمد بن يحيى بن حبان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة كما في المغارى للذهنى ١ / ٢٦٤ .

قد انتهت بالإصلاح بين المتخاصلين ، وتحديد خط المواجهة التربوي بنصر الاخ ظالماً أو مظلوماً. فلما وردت هذه الأخبار ، تحرك الناس جميعاً بأمر رسول الله ﷺ ، ولشهد موقفين لسيد الأوس أسد بن حضير ، وسيد المهاجرين عمر بن الخطاب ، تعقيباً على هذه الحادثة ولم تتضح أبعادها بعد .

قال ابن إسحاق: (فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله . فقال له رسول الله ﷺ : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ! لا ولكن أذن بالرحيل » ، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه فحلف بالله ما قلتُ ما قال ، ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريعاً عظيماً . فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حدثيه ولم يحفظ ما قال الرجل حديثاً على ابن أبي ، ودفعاً عنه) .

إن عمر رض الخبير الأول في المنافقين لم يرتفع عنده ابن أبي لحظة واحدة ، وهو الخبير بالرجال ومستوياتها ، ولم يتغير رأيه فيه لحظة واحدة منذ دخل المدينة ، وعندما سمع كلام زيد لم يشك لحظة واحدة بصحة مقالة زيد عن ابن أبي ، والحل الأمثل عنده قتله . غير أنها نجد هنا على غير عادته فهو الذي يعرض نفسه دوماً ليقتل من نافق إلا هنا ، وحين نبحث عن السر في ذلك نلحظ معنىًّا عظيماً فيه ، فعمر رض طرف في القضية ، وغلامه جهجه الغفارى هو الذي اختلف مع سنان بن وبرة الأنصارى ، فعرض نفسه ليقتل ابن أبي يعني: أنه يثار شخصه وتنفسه والطبيعة البشرية تنتظر مثل هذه الفرصة لتنقض على خصمها فتبيده وتسعد بالخطأ الذي يصيب منه مقتلاً .

غير أنها في مدرسة العقيدة نجد عالماً آخر غير هذا العالم لا نجد له أبداً إلا في مدرسة النبوة والتي تجعل الغضب لله لا للذات ، وليس عمر من الضعف رض بحيث يمالئ في دين الله فيسكن عن قول ابن أبي وهو يعرف دوره الخبيث الخطير في الصد لكنه اكتفى أن يحيط ابن أبي على عباد بن بشر ليقوم عباد رض بقتله ،

واختيار عباد من عمر ، رغم معرفته أن عباداً من الأوس يتناسب مع طبيعة عمر رسول الله  
 فهو يعرف أخاه عباداً أنه لا تأخذه في الله لومة لائم ، لكن قيادة الخزرج لها رأى بابن  
أبي تختلف عن قيادة المهاجرين وقيادة الأوس .

وكان الجواب النبوى العظيم لعمر : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل  
 أصحابه؟ » .

فليس الامتناع عن قتل ابن أبي أنه لا يستحق القتل ، وليس الامتناع عن قتله  
خوفاً من عشيرته ، ولكن الامتناع عن ذلك هو خط تربوى جديد نفقهه فى هذا المنهج  
هو : أن السمعة السياسية للجماعة المسلمة يجب أن يحافظ عليها ، فالحرب  
المعنوية أشد عنفاً من الحرب المادية ، وأن يمضى العدو في الحديث عن الصراعات  
الداخلية في الجماعة المسلمة ، هو أكبر سلاح نسلمه إياه يطعن به هذه الجماعة .  
ومحمد رسول الله الذى فداء أصحابه بمجدهم وأرواحهم ، والذين هبوا أعظم شهادة  
اعتراف من أبي سفيان بتضحياتهم حيث قال : ( والله ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب  
 أصحاب محمد محمداً ) هذه الشهادة الواقعية لا يناسب أن تُنسق بأن محمداً بدأ  
ينقض على أصحابه الذين آلوه ونصروه ، وراح يمنع بهم قتلاً وذبحاً .

هذا هو الموقف : « فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ » . والموقف  
المقابل للحفاظ على سلامة الصف الداخلى : « ولكن أذن بالرحيل ». فسوف يسود  
اللغط ، ولا يجد الناس حدثاً لهم إلا قاله ابن أبي ، ورسول الله رسول الله يريد وأد هذا  
الحديث وعدم الخوض فيه .

فسار بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى  
آذنهم الشمس ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً ،  
وإنما فعل ذلك رسول الله رسول الله ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث  
عبد الله بن أبي .

إنه التوازن العجيب والفقه الأعظم في بناء الأمة ، من حيث الحفاظ على  
سمعتها الخارجية ، والحفاظ على ذاتيتها الداخلية ، وعمل اللفظ في الصفة  
أسرع من الهزيمة فيه ، وأفتك من السيف فيه ، ولا بد أن يجئ هذا اللفظ ، ولن  
تُحلَّ القضية بتعليمات ونصائح وأوامر تطالب الصفة بالابتعاد عن الخوض في هذا

ال الحديث ، وما هكذا تعالج الفتنة ، إنما كانت المعالجة الجذرية في هذا السير العنيف ، العنيف منذ منتصف النهار ، وحتى طيلة الليل إلى ضحى اليوم الثاني ، وإشغالهم بهماتهم الأصلية عن الفراغ الذي يقتل الصفة ، وينبغي حين لا يجد حدثاً إلا الطعن والغيبة وتكرار المسأل .

إن كثيراً من الجماعات لقتلت من خلال طاقاتها المعلولة حيث يفرغ الناس للجهاد ولا جهاد ، ويجتمع القوم ولا عمل ، ولا شغل يشغلهم إلا اللغط في أخطاء الصفة ووقوع الخلافات ، وسريان الإشاعات . أقول هذا وفي الواقع العملي الذي عنته تجربة تحطم إحدى الجماعات المجاهدة في عصرنا الحاضر لعجز قيادتها عن ملء فراغها وعجزها عن الاستفادة من طاقاتها وتشغيلها ، فتحولت هذه الطاقات للصراعات الداخلية ، فشلت صفتها ووجهت طاقاتها لتغذيه هذا الخلاف والشقاق الذي استمر سنين قبل أن يتلاشى .

ونعود إلى الموقف الثاني من سيد الأولس أسيد بن حضير . الذي لم تكن لديه عقدة عبد الله بن أبي زعامة وهو يعرف أنه لم يتغير منذ أن استلب ملكه ، حيث يأتي أسيد إلى رسول الله ﷺ وقد فوجئ بمسير رسول الله ﷺ في ساعة منكراً ما كان ليُسر فيها فعلم رسول الله أن حدثاً جللاً قد وقع فجاء إلى حبيبه محمد ﷺ وسأله متعجبًا : يا نبى الله ، والله لقد رحت في ساعة منكراً ما كنت تروح في مثلها فقال رسول الله ﷺ : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم ! » قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : « عبد الله ابن أبي » قال : وما قال ؟ قال : « زعم أنه إن رجع المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . قال : فأنت يا رسول الله ، والله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً .

فأسيد رسول الله يعلن ابتداء لرسول الله ﷺ أن عبد الله بن أبي أفل واذل من أن يقدر عمل شيء في المدينة ، والمهاجرون والألوس والخزرج يد واحدة ضده .

ولكن أسيد رسول الله الذي ترفع عن ثاراته الجاهلية ، وعن الطعن في خصم من خصومه في الجاهلية ، كان يدعو إلى موقف معاكس من موقف عمر رسول الله يدعو إلى

الرفق معه ، ويبين لرسول الله ﷺ وجهة نظره ، وهى : أن جنون العظمة وعقدة  
الزعامة عند ابن أبي هى التى تحركه ، ولن يستطيع أن ينطلق من قاعدة الإيمان وهو  
يرى رسول الله ﷺ قد استتبه الملك ، ولا يرى من المصلحة موقف القتل الذى رأه  
عمد ، وهو موقف الذى رأه - عليه الصلاة والسلام - من عبد الله بن أبي .

حين كان عمر رض طرفاً في التزاع ، أبعد نفسه من أن يكون هو القاتل لزعيم المنافقين واختار عباد بن بشر لينفذ ذلك ، لكنه وهو الوزير الثاني في الدولة يرى استئصال هذه الجثثومة من المدينة ؛ لأنها هي بؤرة الشر.

وحيث كان أسيد بن حبيب طرقاً في التزاع أبعد نفسه من أن يطرح فكرة القتل، ودعا إلى الرفق مع هذا الرعيم وهو غير متهم في الولاء له ، وبينه وبين ابن أبي ثارات وثارات دفنهما الإسلام إلى غير رجعة ، وكان القائدان العظيمان عمر وأسيد - رضي الله عنهما - ينطلقان من مصلحة الإسلام ، وينطلقان بعيداً عن ذاتيهما في مواجهة المشكلة.

ونشير أخيراً إلى أن رسول الله ﷺ، لم يكن لديه شك في صدق زيد ، ومن أجل ذلك حدث خاصته وأركان دولته بالأمر قبل أن ينزل الوحي من السماء ، وقبل أن يأتي زيد فيحلف ما قال ، ويعلم - عليه الصلاة والسلام - أن هذين القائدين من الكتمان والسرية ، بحيث لا يطلع على حديثهما أحد في الوجود لأنه سر رسول الله ﷺ، واختارهما لحفظه فلن يفشياه.

<sup>١٧</sup> وكانت المعالجة الثالثة مع المؤمن العظيم عبد الله بن عبد الله بن أبي.

قال ابن إسحاق : ( فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تزيد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلاً . فمرنـى به فأنا أحـمل إليك رأسه ، فـوالله لـقد عـلمـتـ الخـزـرـجـ ماـ كـانـ لـهـ مـنـ رـجـلـ أـبـرـ بـوـالـدـهـ مـنـىـ ،ـ وـإـنـىـ أـخـشـىـ أـنـ تـأـمـرـ بـهـ غـيـرـىـ فـيـقـتـلـهـ ،ـ فـلـاـ تـدـعـنـىـ نـفـسـىـ أـنـظـرـ إـلـىـ قـاتـلـ عـبدـ اللهـ بـنـ أـبـىـ يـمـشـىـ عـلـىـ الـأـرـضـ فـىـ النـاسـ ،ـ فـأـقـتـلـهـ ،ـ فـأـقـتـلـ رـجـلـ مـؤـمـنـاـ بـكـافـرـ فـادـخـلـ النـارـ فـقـالـ ﷺ :ـ «ـ بـلـ نـتـرـفـ بـهـ ،ـ وـنـحـسـ صـحـبـتـهـ مـاـ يـقـيـ مـعـنـاـ »ـ (١)ـ .ـ

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٠٥ / ٣ ، وقال المحقق فيه: « صرخ ابن إسحاق بالسماع ، وستنه منقطع ، ورواه الطبراني ورجاله الصحيح إلا أن عروة بن الزبير لم يدرك عبد الله كما في مجمع الزوائد ٩ / ٣١٨ » .

ونجد تتمة الرواية عند الواقدي: ( لقد علمت الخزرج ما كان رجل أبْرَ بوالد مني ، وما أكل طعاماً منذ كذا وكذا من الدهر ولا يشرب شراباً إلا بيدي ، وإنى لأشنى يا رسول الله ، أن تأمر غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يعشى في الناس فاقتله فأدخل النار وعفوك أفضل ، ومنك أعظم . قال رسول الله ﷺ : يا عبد الله ، ما أردت قتله ، وما أمرت به ، ولنحسن صحبته ما كان بين أظهراً ) .

فقال عبد الله : يا رسول الله إن أبي كانت هذه البحرة قد اتسقوا عليه ليتوّجهوا عليهم ، ف جاء الله بك ، فوضعه الله ورفعنا بك ، ومعه قوم يُطيفون به ويدركون أموراً قد غالب الله عليها )<sup>(١)</sup> .

هذا هو العز الأول الذي يرکن إليه عبد الله بن أبي ، وقد غرّه ما رأى من برّ ابنه به حتى ليكون الخادم المذلل له لطعامه وشرابه ، وكانت المفاجأة الصاعقة له أن يستعدّ ابنه ليطيح رأسه عن جسده لو أمر رسول الله ﷺ بذلك ، ويقى في ذهن عبد الله بن أبي أن يجد من ينصره في المدينة فقد كان يهدى بحزبه هناك : لئن عدنا إلى المدينة ليخرجنا الأعز منها الأذل . فماذا كان عند دخولها؟ .

(ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة - أى ابن عبد الله بن أبي - واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه : وراءك . فقال : مالك ويلك؟ فقال : والله لا تجبر من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إما يسير ساقه ، فشكاه عبد الله بن أبي ابنه فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ﷺ فقال : أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن )<sup>(٢)</sup> .

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده ( حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا أبو هارون المدنى قال : قال عبد الله بن أبي بن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل ، قال : وجاء النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل أبي ، فوالذي بعثك بالحق ما تاملت وجهه قط

(١) المغارى للواقدى : ٤٢١ / ٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٧ / ٢٣ تفسير سورة « المنافقون » .

هية له ، ولكن إن شئت أن آتيك برأسه لأنني أكره أن أرى قاتل أبي<sup>(١)</sup> .

وندح للإمام السهيلي التعليق على هذه الحادثة بقوله : ( وذكر مقالة عبد الله ابن أبي ، وأن ابنته عبد الله بن عبد الله استأذن النبي ﷺ في قتل أبيه من أجل تلك المقالة ، وفي هذا العلم العظيم والبرهان النير ، من أعلام النبوة . فإن العرب كانوا أشد خلق الله حمية وعصباً ، فيبلغ الإيمان بهم ونور اليقين في قلوبهم إلى أن يرغب الرجل منهم في قتل أبيه وولده تقرباً إلى الله ، وتزلقاً إلى رسول الله ﷺ مع أن رسول الله ﷺ أبعد الناس نسباً منهم ، وما أخر إسلام قومه وبين عمه وسبق إلى الإيمان به الأبعد ، إلا لحكمة عظيمة ؛ إذ لو بادر أهله وأقربوه إلى الإيمان به لغيره : قوم أرادوا الفخر برجل منهم وعصبوا له ، فلما بادر إليه الأبعد ، وقاتلوا على جبه من كان منهم أو من غيرهم ، عُلِّم أن ذلك عن بصيرة صادقة ، ويقين قد تغلغل في قلوبهم ورهبة من الله أزالت صفة قد كانت سدكت<sup>(٢)</sup> في نفوسهم من أخلاق الجاهلية لا يستطيع إزالتها إلا الذي قطر القطرة الأولى ، وهو القادر على ما يشاء ، وأما عبد الله بن عبد الله : فكان من كتاب النبي ﷺ وكان اسمه الحباب ، وبه كان يكنى أبوه فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، مات شهيداً باليمامة رضي الله عنه .

( وروى الدارقطني مسندًا أن النبي ﷺ مرَّ على جماعة فيهم عبد الله بن أبي فسلم عليه ثم ولَّ ، فقال عبد الله : لقد عثا ابن أبي كبيشاً في هذه البلاد . فسمعها ابنه عبد الله فاستأذن النبي ﷺ في أن يأتيه برأس أبيه فقال : « لا لكن بِرَّ أباك »<sup>(٣)</sup> .

لقد كانت هذه الآيات إيدائنا بأقول نجم عبد الله بن أبي ، وكانت قد قتلته معنوياً لا جسدياً ، ومن أجل ذلك وبعد دخول المدينة ، و موقف ابنته منه ، تغير حاله ليعلّى من الاحتراق البطئ في قومه (وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلت يوم قلت لى اقتله ، لارعدت له أُنفُ ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ

(١) تفسير ابن كثير ٧ / ٢٣ تفسير سورة « المنافقون » .

(٢) سدكت : ثبتت ولزمت .

(٣) الروض الافت للسهيلي ٤ / ١٨ .

أعظم بركة من أمرى) (١)(٢) .

١٨ - وجاء القتل الثاني لعبد الله بن أبي بوفاة كبير حلفائه وأنصاره في المدينة، فقد تركنا الجيش وقد استسلم للنوم بعد مسيرة مphin قرابة عشرين ساعة أو تزيد.

( فما نزلوا حتى ما يسمع لقول ابن أبي في أفواههم يعني - ذكرا - وإنما أسرع رسول الله ﷺ بالناس ليدعوا حديث ابن أبي ، فلما نزلوا وجدوا مس الأرض فوقعوا نياً ، ثم راح رسول الله ﷺ بالناس مبرداً فنزل من الغد ماءً يقال له : بقعاء فوق النقيع ، وسرح الناس ظهرهم فأخذتهم ريح شديدة ، حتى أشفق الناس منها ، وسألوا عنها رسول الله ﷺ ، وخافوا أن يكون عبيدة بن حصن خالفاً إلى المدينة ، وقالوا: لم تهجر هذه الريح إلا من حدث ، وإنما بالمدينة الذراري والصبيان ، وكانت بين النبي ﷺ وبين عبيدة مدةً . فكان ذلك حين انقضائها فدخلهم أشد الخوف ، فبلغ رسول الله ﷺ خوفهم ، فقال رسول الله ﷺ: «ليس عليكم بأس منها ، ما بالمدينة من نقب إلا عليه ملكُ يحرسه ، وما كان ليدخلها عدو حتى تأتوها . ولكنه مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة ، فلذلك عصفت الريح ». وكان موته للمنافقين غيظاً شديداً ، وهو زيد بن رفاعة بن التابوت ، مات ذلك اليوم .

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهم - قال: كانت الريح يومئذ أشد ما كانت قط إلى أن زالت الشمس ثم سكت آخر النهار . قال جابر : فسألت حين قدمت قبل أن أدخل بيتي: من مات؟ قالوا : زيد بن رفاعة بن التابوت . وذكر أهل المدينة أنهم وجدوا مثل ذلك من شدة الريح حتى دفن عدو الله فسكت الريح .

وحدثني عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال : قال عبادة بن الصامت يومئذ لابن أبي : أبا حباب ، مات خليلك ! قال: أى أخلاقي؟ قال : من موته فتح للإسلام وأهله . قال : من؟ قال : زيد بن رفاعة بن التابوت . قال : يا ويلاه . كان والله وكان ! فجعل يذكر فقلت : اعتصمت بالذنب الآخر ، قال : من أخبرك يا أبا الوليد

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤٠٦ ، وقال المحقق فيه: « صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده متقطع » .

(٢) مقتطفات من المنهج التربوي للسيرة النبوية « التربية الجهادية » للمؤلف ٢/١٦٧ - ١٦٩ .

بموته ؟ قلت : رسول الله ﷺ أخبرنا الساعة أنه مات هذه الساعة . قال : فأسقط في يديه ، وانصرف كثيراً حزيناً . قالوا : وسكت الريح آخر النهار فجمع الناس ظهورهم <sup>(١)</sup> .

لقد تبعت الأحداث ، فالمسيير الليلي المضني مع طرفى النهار أمس واليوم ، واستيقاظ الناس فى اليوم الثانى على هذه الريح الشديدة التى لا تشغلى الإنسان إلا بذاته ، وينسى أن حدث جانبي يناله ، وجواب رسول الله ﷺ عن وفاة زيد بن رفاعة حيث تقع المعجزة الربانية فى وقتها المناسب لتحول الحديث بعد هدوء الريح إلى وفاة سيد المنافقين ، وكيف كان ابن أبي يعتصم به ، قضت على القالة فى مهدها ، وأطفأت الفتنة إلى غير رجعة . والتلخواف الذى ساد فى النفوس من أن يكون عينة ابن حصن قد نقض المهد ، ومضى نحو المدينة ، وليس فى المدينة إلا الذرارى والنساء ، ثم يلم هذا الخوف ودفعه بهذا التطمئن النبوى العظيم ، الذى ينطلق بالروحى من عند الله :

( ما بالمدينة من نقب إلا عليه ملك يحرسه ، وما كان لعدو أن يدخلها حتى تأتها ) .

بدل هذا الوضع خوفهم أمنا ، وقلقهم يقيناً وطمأنينة . فقد فرحوا مرتين ، فرحا بوفاة زيد الذى كانت وفاته فتحا للإسلام وأهله ، وفرحا بالحراسة الإلهية التى تحفظ ذراريهم ونساءهم فى غيابهم ، فما من نقب فيها إلا وعليه ملك يحرسه ، وفرحا بعودتهم منصورين على أعداء الله ، ويانطفاء فتنة ابن أبي حين خذله ابنه أقرب الناس إليه ، والذى كان هو أكبر كتف يستند إليه ، وهو المستعد للإطاحة برأسه . « **وَيَوْمَئِذٍ يُفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ** » <sup>(٢)</sup> .

أما عبد الله بن أبي قلقد قتل ثلاث مرات :

**الأولى** : بعد أن فضحه القرآن وكذبه ، وصدق زيد بن أرقم .

**الثانية** : حين وصله استعداد ابنه لقتله ، ويوم أن وضع السيف على عنقه ليعرف بأنه الأذل ، وأن محمداً هو الأعز ، ولم يدعه يدخل المدينة حتى أذن له رسول الله ﷺ .

**الثالثة** : يوم مات كنهه وساعدته زيد بن رفاعة بن التابوت ، الذى كان موته كما

(٢) الروم / ٤ ، ٥ .

(١) المغارى للواقدى ٢ / ٤٢٣ ، ٤٢٢ .

قال عبادة رَوَيَ فتحاً للإسلام وأهله وكان من بنى قينقاع، وكان قد أظهر الإسلام وكان كفراً للمنافقين.

ولا أدل على هذا المقتل من الصورة التي انتهى إليها ابن أبي بعد المرسيع (وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعتابونه وياخذونه ويعنفونه) وقد مركزه بين الخروج إلا من بقى منافقاً مغوصاً عليه بالتفاق فهو يلوذ به، وتحرر الشباب المتررجي من أي تأثير له عليهم، حيث قضى المنهج التربوي في البناء أن يبقى وحده في الساحة أما لو قتل فيصبح الرعيم المظلوم، وينال من التعاطف من القريب والبعيد إشفاءاً عليه، وغدا الورقة الخاسرة.

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لوزيره الثاني ويحدثه عن أبعاد هذا المنهج، وعن نتائج هذه الخطوة :

«كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلت يوم قلت لي اقتله، لأرعدت له أثفُ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته». قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم بركة من أمري .

وباتت المدينة ظاهر الأمر على النصر المجل شاهد عرس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأهله وتشهد إطلاق سراح بنى المصطلق ودخولهم في الإسلام؛ ليتحرك عبد الله بن أبي في كيد الظلام، وينفذ أعظم مؤامرة داخلية في الصف، انتقاماً لما ناله من قتل.

## زعيم النفاق ينتقم « حديث الإفك »

عن ابن شهاب قال: (حدثني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن أبي وقاص وعبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة - رضى الله عنها - زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، وكلهم حدثني طائفه من حديثها وبعضهم كان أوعى بحديثها من بعض ، وأثبتت له اقتصاصاً ، وقد وعيت من كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة قالوا: وقالت عائشة:

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أفرغ بين أزواجه، فايتهن خرج سهمنا خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأفرغ بيتنا في غزوة غزاهما فخرج فيها سهمني فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أنزل الحجاب ، فكنت أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه تلك ، ووقف ودنونا من المدينة قافلين ، آذن ليلة بالرحليل فقمت حين آذنوا بالرحليل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلي فلمست صدرى فإذا عقد لي من جزع ظفار<sup>(١)</sup> قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسنى ابتغاوه قالت : وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونى فاحتلوا هودجي فرحلوه على بعيري الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون أنى فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن<sup>(٢)</sup> ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة<sup>(٣)</sup> من الطعام فلم يستتر القوم خفة الهدوج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيمنت متزلى الذى كنت فيه، وظلت أعلم سيفقدونى فيرجعون إلى. فيينا أنا جالسة في متزلى غلبتني عيني فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الزكوني من وراء الجيش. فأصبح عند متزلى ، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رأني ، وكان رأني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاجه حين عرفني ،

(١) جزع ظفار: المجرى خرز يمانى، وظفار: مدينة باليمن قرب صنعاء.

(٢) لم يهبلن: لم يُسْمَّنْ والهِبْل: الضخم المسن .

(٣) العلقة: ما يتبلغ به من الطعام .

فخمرت وجهي بجلبابي ، والله ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهو حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يدها ، فقمت إليها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول ، فهلك من هلك ، وكان الذي تولى كِبَرَ الإفك عبد الله بن أبي بن سلول . قال عروة : أخبرت أنه كان يشاع ويُتحدث به عنده فِقْرَه ويستمعه ويستوشه ، وقال عروة أيضاً : لم يسم من أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لـ لهم ، غير أنهم عصبة ، كما قال الله تعالى . وإن كِبَرَ ذلك يقال : عبد الله بن أبي بن سلول . قال عروة : كانت عائشة تكره أن يُسبَّ عندها حسان وتقول إنه الذي قال :

# فیان ابی ووالدہ و عرضی لعرض محمد منکم وقاء

قالت عائشة: فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهرًا والناس يفيسون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك ، يُرييني في وجمي ألا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل على رسول الله ﷺ فسلم ثم يقول: «كيف تيكم ؟ (١) » ثم ينصرف فذلك يريني ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت حين نفهت ، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع (٢) وكان متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن نتخد الكنف قريباً من بيوتنا ، قالت : وأمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط . وكنا نتأذى بالكتف أن نتخدها عند بيوتنا . قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر ابن عامر حالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في قرطها فقالت: تعس مسطح ، فقلت لها : بش ما قلت ، أتبين رجلاً شهد بدرأ؟ فقالت: أى هناءه (٣) ، ولم تسمعي ما قال؟ قالت ، قلت: ماذا قال؟» فأخبرتني بقول أهل الإفك . قالت: فازدادت مرضًا على مرض ، فلما رجعت إلى بيتي دخل رسول الله ﷺ فسلم ثم قال: «كيف تيكم؟ فقلت له: أناذن لي أن آتني أبوى؟ قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما . قلت: فأذن لي رسول الله ﷺ ، فقلت لأمي: يا أمته ، ماذا يتحدث الناس؟ قالت :

(١) تيكم : إشارة لعائشة رضي الله عنها .

(٢) الملاصق : جمع منضم وهو الموضع الذي يتخلل فيه لفظاء الحاجة .

يا بنتي ، هونى عليك فوالله لقلمما كانت امرأة قط وضيئه عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت ، فقلت : سبحان الله ، أوَ لَقَدْ تَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقا لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى ، قالت : ودعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استثبت الوحي يسألهمَا ويستشيرهمَا على فراق أهله . قالت : فاما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ الذي يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم له من نفسه ، فقال أسامة : أهلك ولا نعلم عليهم إلا خيرا ، وأما على فقال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك . قالت : فدعا رسول الله ﷺ ببريرة فقال : « أى بريرة ، هلرأيتى من شئ يربيك ؟ » فقالت له ببريرة : والذى بعثك بالحق ما رابنى عليها شيئاً أغصبه<sup>(١)</sup> ، غير أنها جارية حديثة السن تمام عن عجبن أهلها فتأتى الداجن فتأكله .

قالت : فقام رسول الله ﷺ من يومه ، فاستغذر من عبد الله بن أبي وهو على المنبر ، فقال : « يا معاشر المسلمين ، من يعذرني من رجل قد بلغنى عنه أذاه في أهلى ، والله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجالاً ما علمت عليه إلا خيرا وما يدخل على أهلى إلا معنى » قالت : فقام سعد بن معاذ أخو بنى عبد الأشهل ، فقال : أنا يا رسول الله أعتذرك ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمراك ، قالت : فقام رجل من الخزرج ، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذنه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج . قالت : وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببتك أن يقتل فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد ، فقال لسعد ابن عبادة : كذبت لعمر الله لقتلته . فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، قالت : فثار الحيان الاوس والخرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر قالت : فلم يزل رسول الله ﷺ يخفظُهم حتى سكتوا وسكت قالت : فبكيت يومي ذلك كله لا يرقا لى دمع ، ولا أكتحل بنوم . قالت : وأصبح أبوای عندي وقد بكى ليترين ويوماً لا يرقا لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى لاني لاظن أن البكاء فالق كبدى فيينا أبوای جالسان عندي وأنا أبكى . فاستأذنت على أمراة من الانصار ، فاذنت لها ، فجعلت تبكي معى قالت : فيينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قبلها ، ولقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأنى بشىء قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : « أما بعد يا عائشة إنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسأرثك الله ، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ،

(١) أغصبه : أغيه .

فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه<sup>١</sup> ، قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته  
 قلص دمعي ، حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب رسول الله ﷺ عن فيما  
 قال ، فقال أبي : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت لأمي : أجيبي رسول  
 الله ﷺ فيما قال . قالت أمي : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت : وأنا  
 جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً . إنني والله لقد علمت ، لقد سمعتم هذا  
 الحديث حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به ، فلthen قلت لكم إنني بريئة لا تصدقونني ،  
 ولthen اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أنني بريئة - لا تصدقونني فوالله لا أجد لي ولهم  
 مثلاً إلا أبا يوسف حين قال : « فَسِيرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعْنَى عَلَىٰ مَا تَصْفُونَ »<sup>(١)</sup> ثم  
 تحولت فاضطجعت على فراشي والله يعلم أنني حيتند بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ،  
 ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزل في شأني وحنياً يتلى ، لشأني في نفسى كان  
 أحقر من أن يتكلّم الله في بأمر ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرؤني  
 الله بها . فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى  
 أنزل عليه فأخذته ما كان يأخذه من البرحاء<sup>(٢)</sup> ، حتى إنه ليتحدّر منه العرق مثل الجمان<sup>(٣)</sup>  
 وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه قالت : فسرّى عن رسول الله ﷺ  
 وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلّم بها أن قال : « يا عائشة ، أما الله فقد برأك »  
 قالت فقالت لى أمي : قومي إليه ، فقلت ، والله لا أقوم إليه ، فإني لا أحمد إلا الله -  
 عز وجل - قالت : وأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عَصَبَةٌ مِنْكُمْ . . . » العشر  
 آيات<sup>(٤)</sup> . ثم أنزل الله تعالى هذا في براءتي . قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على  
 مسطح بن ثلاثة لقرباته منه وفقره : والله لا أتفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي  
 قال لعائشة ما قال فأنزل الله تعالى : « وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ . . . » إلى قوله :  
 « غَفُورٌ رَّحِيمٌ »<sup>(٥)</sup> . قال أبو بكر الصديق : بلى والله إنني أحب أن يغفر الله لي . فرجع  
 إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة :  
 وكان رسول الله ﷺ سأله زينب بنت جحش عن أمر لزينب : « ما علمت وما  
 رأيت؟ » فقالت : يا رسول الله أحمى سمعي وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً قالت  
 عائشة : وهي التي كانت تسامي<sup>(٦)</sup> من أزواج النبي ﷺ فعصمتها الله بالورع . قالت :  
 وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك ، قال ابن شهاب : وهذا الذي بلغنى

(١) يومن / ١٨ .

(٢) البرحاء : الحمى وغيرها وشدة الألم منه .

(٣) الجمان : الفضة .

(٤) التور / ١١ .

(٥) التور / ٢٢ .

(٦) تسامي : تفاخرني وتضاهيني .

من حديث هؤلاء الرهط . ثم قال عروة : ( قالت عائشة : والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول : سبحان الله فهو الذي نفسي بيده ما كشفت من كتف أثني قط . قالت : ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله ) <sup>(١)</sup> .

وعن الزهرى قال : قال لى الوليد بن عبد الملك أبلغك أن علياً كان فيما قد ذكر عائشة ؟ قلت : لا . ولكن أخبرنى رجلان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر ابن عبد الرحمن الحارث أن عائشة - رضى الله عنها - قالت لهما : كان علياً مسلماً فى شأنها ، فراجعوه فلم يرجع ، وقيل : مسلماً بلا شك فيه ، وعليه كان أصل العتق كذلك <sup>(٢)</sup> .

وعن مسروق بن الأجدع قال : حدثتى أم رومان - وهى أم عائشة - رضى الله عنهما - قالت : بينما أنا قاعدة أنا وعائشة إذ وليت امرأة من الانصار فقالت : فعل الله بفلان وفعل بفلان فقالت أم رومان : وما ذاك ؟ قالت : ابنى فيما حدث الحديث ، قالت : وما ذاك ؟ ، قالت : كذا وكذا ، قالت عائشة : سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قالت : بنا نفس <sup>(٣)</sup> ، فطرحت <sup>٤</sup> عليها ثيابها فغطتها . فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال : « ما شأن هذه ؟ » . قلت : يا رسول الله ، أخذتها الحمى بنا نفس . قال : « فعل في حدث تحدث به ؟ » ، قالت : نعم . فقدت عائشة فقالت : والله لئن حلفت لا تصدقونى ، ولئن قلت لا تعذرونى ، مثلى ومثلكم كيعقوب وبينه : والله المستعان على ما تصفون قالت : وانصرف ولم يقل شيئاً . فأنزل الله عذرها . قالت : بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك <sup>(٤)</sup> .

وفي رواية ابن إسحاق ( ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ، وكانوا من أفضح بالفاحشة فضرموا حدهم ) <sup>(٥)</sup> .

قال ابن إسحاق : ( ثم إن صفوان بن المعطل اعرض حسان بن ثابت بالسيف حين بلغه ما كان يقول فيه ، وقد كان حسان قال شعراً يعرض بابن المعطل فيه وبين أسلم من العرب من مُصر فقال :

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ٧ / ٤٣٥ - ٤٣٦ ( ٤١٤١ ) .

(٢) المصدر نفسه برقم ( ٤١٤٢ ) .

(٣) حمى بنا نفس : حمى الرعدة .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧ / ٤٣٥ برقم ( ٤١٤٣ ) .

(٥) المصدر نفسه برقم ( ٢٢ ) .

أمسى الجلايب قد عزوا وقد كثروا  
وابن الفُريعة أمسى بيضة البلد  
فاعتبره صفوان بن المعطل فصربه بالسيف ثم قال كما حدثني يعقوب بن عتبة:  
تلقَّ ذباب السيف عنى فانسى      غلام إذا هوجيت لست بشاعر<sup>(١)</sup>

قال ابن إسحاق: ( وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي: أن ثابت بن قيس بن الشمام وتب على صفوان بن المعطل حين ضرب حسان، فجمع يديه إلى عنقه بحبيل، ثم انطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال: ما هذا؟ قال: أما أعجبك ضرب حسان بالسيف! والله ما أراه إلا قد قتله. قال له: عبد الله بن رواحة: هل علم رسول الله ﷺ بشيءٍ مما صنعت؟ قال: لا والله. قال: لقد اجترأت، أطلق الرجل . فأطلقه، ثم أتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فدعا حسان وصفوان بن المعطل . فقال: ابن المعطل: يارسول الله آذاني وهجانى فاحتملنى الغضب فضربته . فقال رسول الله ﷺ لحسان : « أحسن يا حسان ، أشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام ». ثم قال: « أحسن يا حسان في الذي أصابك ». قال: هي لك يا رسول الله)<sup>(٢)</sup>.

قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن إبراهيم: أن رسول الله ﷺ أعطاه عوضاً عنها بيرحاء وهي قصر بنى حديلة اليوم بالمدينة، وكانت مala لابي طلمة تصدق بها إلى رسول الله ﷺ، فاعطاها رسول الله حسان في ضربته . وأعطاه سيرين أمة قبطية . قالت: وكانت عائشة تقول: لقد سئل عن ابن المعطل فوجدوه رجلاً حصوراً ما يائى النساء ثم قتل بعد ذلك شهيداً<sup>(٣)</sup> .

١- عائشة - رضوان الله عليها - بنت الثلاثة عشر ربيعاً جاءها في عام واحد ما يهد الجبال فقد تزوج رسول الله ﷺ خلال عام ثلاثة من أزواجه كن ضرائر لها ولهن من المنزلة الأثيرة عند رسول الله ﷺ ما لا يوصف . فقد تزوج أم سلمة بنت أبي أمية ، زاد الركب عقيلة بنى مخزوم ومن المجاهدات العظيمات اللاتى هاجرن إلى الحبشة وإلى المدينة، وذات جمال أسر رأتها عائشة - رضى الله عنها - أضعاف ما وصف لها بشدة الغيرة منها .

وتزوج زينب بنت جحش ابنة عمته الأثيرة لديه ، والتي كان زواجها بأمر من الله

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٢ / ٣ ، ٤٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ٤٢٣ / ٣ ، ٤٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ٤٢٤ / ٣ .

تعالى . فالعاقد : الله - عز وجل - والشاهد : جبريل ، وهى التى كانت تساميها عند رسول الله ﷺ وتضاهيها كما ذكرت فى أكثر من مناسبة .

وتزوج جويرية بنت الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق ، وهى التى منذ أن رأتها كرهت موقفها بين يدى رسول الله ﷺ كما تقول عنها ( وكانت امرأة حلوة ملحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه فأت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتها وقلت سيرى منها مثل ما رأيت ) وكلما ارتفعت مأثر المرأة كان أشد على قلب عائشة الصغير ، ومن أكبر مأثرها ما وصفتها بها عائشة - رضى الله عنها - ( فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها ) .

وبدأت تنازع عن عريتها وهو قلب زوجها سيد الخلق - محمد صلوات الله عليه - من أن يقتسمه أحد ويحل محله كما تنازع اللبوة عن عريتها ، وتواجه خيرة نسوة الأرض خوفاً أن يحللن مكانها .

وفي آتون هذه المعركة جاءها ما أنساها كل هذه الهموم الثقال العossal ، جاءها حديث الإفك ، ونؤكد ابتداءً أن الحديث جرى على أعقاب غزوة بنى المصطلق كما تذكر رواية البخارى الثانية والتى رواها تعليقاً فى تفسير سورة النور  
فعن عائشة قالت : أن النبي ﷺ كان إذا أراد سفراً أقزع بين نسائه . فأقع بيتنا فى غزاة المريسيع ، فخرج سهمى ، فهلك فى من هلك .

وكذلك قال ابن اسحاق والواقدى وغيرهما : إن حديث الإفك كان فى غزوة المريسيع (١) .

كما تشير روایات أخرى أن سهتما وسهم أم سلمة - رضى الله عنهم - كان فى هذه الغزوة قالت عائشة : ( يا ابن أخي إن رسول الله ﷺ كان إذا خرج فى سفر أقزع بين نسائه ، فايتهن خرج سهتما خرج بها ، وكان يحب إلا أفارقها فى سفر ولا حضر . فلما أراد غزوة المريسيع أقزع بيتنا فخرج سهمى وسهم أم سلمة فخرجنَا معه ، فغنمَ الله أموالهم وأنفسهم ثم انصرفنا راجعين ) (٢) وإن كانت الروایات الصحيحة لم تشر إلى ذلك .

لقد كانت سعيدة جداً أن تفرد بها رسول الله ﷺ وحدها خلال قرابة شهر تحس

(١) الواقى من تاريخ الإسلام للذهبي / ٢٦٩ .

(٢) الواقى في المغازى / ٤٢٦ .

أنها وحدها هي التي تغلاً وجوده بحبها ، وأكمل الله تعالى سعادتها بانتصار المسلمين في الغزوة وغنيمتها أموالهم وذارياتهم ونساءهم ، فلم تشبهها معركة قط من قبل إلا غزوة بدر ، وأهم ما نشير إليه في هذه الفقرة هي عظمة النبوة ، فهو عليه السلام على أرجح الأقوال لم يكلّف بالقسمة بين نسائه ولكنه تطيساً لقلوبهن فعل ذلك ، وكان يؤثر هذا الجانب على هواه وكلفة الشديد بعائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها .

(وقال آخرون: بل المراد بقوله: « تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ » الآية <sup>(١)</sup> ، أي : من أزواجك لا حرج عليك أن ترك القسم لهن ، فتقدم من شئت وتؤخر من شئت وتحاجم من شئت وتترك من شئت ، هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأبي رزين وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ومع هذا كان النبي صلوات الله عليه وسلم يقسم لهن) <sup>(٢)</sup> .

.... ومن هنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات ، وفي النساء اللاتي عندهن أنه **خير** فيهن إن شاء قسم ، وإن شاء لم يقسم ، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي ، وفيه جمع بين الأحاديث ولهذا قال تعالى: « ... ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ وَلَا يَحْزُنَ وَلَا يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ » أي: إذا علمت أن الله قد وضع عنك الخرج في القسم فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لاجناح عليك في أي ذلك فعلت ، ثم مع هذا تقسم لهن اختياراً منك ، لا أنه على سبيل الوجوب ، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك ، واعترفن بملكك عليهن في قسمتك لهن ، وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن . وقوله تعالى: « بِوَاللهِ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » أي: الميل إلى بعضهن دون البعض مما لا يمكن دفعه كما قال الإمام أحمد .. عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله صلوات الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: « اللهم هذا فعلني فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » ورواه أهل السنن الاربعة من حديث حماد بن سلمة وزاد أبو سلمة بعد قوله: « فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يعني: القلب . واستناده صحيح ورجاته كلهم ثقات ؛ ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى: « وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا » أي بضمائر السراير **« حَلِيمًا »** أي: يحلم ويغفر <sup>(٣)</sup> .

وكان لابد من الإشارة هنا إلى عظمة إمام المربيين الذي يؤثر طيب قلوب نسائه على هواه الذي لم يخفه عليه السلام في عائشة ، ومن جهة ثانية ليكون القدوة لامته عليه السلام بعد وفاته فقد قسم وعدل باختيار منه فكيف من يجب عليه ذلك؟!

(١) الأحزاب / ٥١ .  
(٢) تفسير ابن كثير ٥ / ٤٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ٥ / ٤٨٥ .

٢- ونحن أمام فتاة هي سيدة نساء الدنيا ، وفضلها عليهن كفضل الشريد على سائر الطعام وذلك بعد الأربع ( خديجة وفاطمة وأسية ومريم بنت عمران )<sup>(١)</sup> . وأمام اهتماماتها بصفتها أثني يعز عليها أن تفقد عقداً غالياً عليها، فلم تتمالك يوم فقدته أن تركت هودجها وراحت تسأل عنه ، وكم نحن بحاجة إلى الوقوف طويلاً مع هذه الحاجات الكامنة في تركيب الأنثى وفطرتها من حبها للزينة وحرصها عليها، وجزعها إن فقدت عقداً أو سواراً عزيزاً عليها ماذا تفعل؟

إنه الإسلام العظيم من الخالق العظيم وهو أدرى بمن خلق، وهو أدرى - جل وعلا - بما فطر عليه المرأة من هذا الحب، حتى ليبرز عند سيدة النساء وأميرتهن - عائشة رضوان الله عليها.

رجعت تلتمس العقد الذي انسلا من عنقها دون أن تشعر ودون أن تستأذن ودون أن تعلن ، وتحرك الركب دون أن يشعروا بغيابها عن الهودج ، وتلحظ من روایة الواقدي تفاصيل تفصي على هذا التصرف وضوحاً أكثر. فنفاسة العقد عندها أنه رافقها طيلة حياتها منذ دخلت على رسول الله ﷺ فيه ( وكانت أمي أدخلتني فيه على رسول الله ﷺ فلما قضيت حاجتي انسلا من عنقى فلا أدرى به ، فلما رجعت إلى الرجل ذهبت التمسه في عنقى فلم أجده ، وإذا العسكر قد نفصوا<sup>(٢)</sup> إلا عيرات ، وكنت أظن أنني لو أقمت شهراً لم يبعث بيعرى حتى أكون في هودجي فرجعت في التماسه فوجدته في المكان الذي ظنت أنه فيه ، فحبسني ابغاوه وأتى الرجال خلافى فرحلوا البعير وحملوا الهودج وهم يظنون أنني به فوضعوه على البعير ولا يشكرون أنني فيه ، وكنت قبل لا أتكلم إذ أكون عليه فلم ينكروا شيئاً فقادوا بالزمام وانطلقوا .

واشارة ثانية إلى اهتمامات الأنثى المركوزة في فطرتها وهي : حرصها على جمال قوامها ، ونحافة جسمها كما تشير عائشة - رضي الله عنها - ( وكان النساء إذ زاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام ) والعلقة هو : ما يسد جوعهن ، ويحرصن على تخفيف وزنهن بذلك فشهوة الجمال تفوق عندهن شهوة الطعام ، ومن أجل ذلك لم يحس الرجال وما يحملان الهودج بالفرق فيه بين وجود عائشة - رضي الله عنها - وعدم وجودها لخفة وزنها ولعدم حديثها أو كلامها. فليس هناك ما يشير أبداً إلى غيابها عن الهودج . ( فلم يستتر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكانت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل فساروا ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ) .

(١) صحيح البخاري / ٧ ٤٣٥ ( ٤١٤٣ ) .

(٢) نفصوا : تحركوا .

٣ - ويا لعظمة هذه الجارية الحديثة السن التي ندعوا الأبطال ليتعلموا منها رباطة جأشها، وقوة قلبها وشجاعتها ( فجئت متألهم وليس به منهم داعٍ ولا مجيب فتمت منزلى الذى كت به وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلى ، فيينا أنا جالسة فى منزلى غلبتني عيني فنمت ) أى قلب لهذه الفتاة الصغيرة وهى وحدها فى العراء والصحراء ، وليس فى المعسكر داعٍ ولا مجيب والليل ظلمة رهيبة ويرد قارص ، وعلى فطرتها وسجينها تحدثت فلا تبكي ولا تصرخ ولا تذعر ولا ترجف ولا ترتد ، أى طينة هذه ابنة أبي بكر الصديق؟ هي تربية أعظم بيت فى هذا الوجود ، تربية رسول الله ﷺ الذى تعهدناها منذ التاسعة ، وتربية الصديق رضي الله عنه الذى تعدنا حتى التاسعة . وبلغ من شجاعتها وقوة قلبها أن غلبتها عينها فنامت ، وأى نوم لم يأكل الخوف قلبها ، إننا نلقى من الرجال لا من النساء فقط فى مثل هذا الليل البهيم الحالك ، وهذا البرد الشديد القارص ما يجعل الرجال الكبار يخشون وي الخافون وابنة الثالثة عشرة تغلبها عينها فنام فى هذه اليد. إننى يشهد الله أحس بعجز كامل عن وصف هذه النفسية العظيمة العالية العجيبة ويكفيها حديثها نفسه فهو فى غنى عن أى تعلق ، وهو درس لكل فتاة فى الأرض ، كيف تواجه الأزمات ، وكيف تتصرف فى المحن ، وكيف تعامل مع النوازل العظام ؟ فلا أدل على طمأنينة قلبها من قوله : وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلى ، وهذه الطمأنينة هي التى دفعتها لا تغادر مكانها ، وفي ذلك غاية الحكمة ؛ لأنهم حين يفتقدونها لا شك سوف يأتون لإحضارها - رضى الله عنها.

٤- وشاءت الأقدار الربانية أن يتخلّفَ رجل من المسلمين وهو: صفوان بن المغطى السلمى رضي الله عنه فى مهمّة نبوية كلف بها وهو البحث عن مخلفات المعسكر. كما فى رواية الواقدى ( وكان صفوان بن المغطى السلمى ثم الذكوانى على ساقية الناس من ورائهم . فادلچ فأصبح عند منزلى فى عمایة الصبح ) أو كان فى حاجة خاصة له كما تشير بقية الروايات ، وتقول رواية البخارى : ( وكان صفوان بن المغطى السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى ) وها هو صفوان رضي الله عنه كذلك فى عمایة الصبح ، وهو يحسن أنه مسؤول عن هذا الإنسان المتخلّف عن المعسكر ، ونقف مع رواية البخارى التى تشير إلى أنه لم ينطق أى كلمة حين رأى سواد الإنسان القائم وعرف أنها ظعينة رسول الله ﷺ :

( فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رأى ، وكان رأى قبل الحجاجب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فغمزت وجهى بجلبابى ، والله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وهو حتى آنذاك راحلته فوطئ على يدها فقمت إليها فركبتها ،

فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول .

سأله أهل الأرض جميعاً هل عندكم مثل هذه التربية لزوجة رسول الله ﷺ ولصاحب رسول الله ، يلتقيان في عمادة الصبح ، وترتفع العفة عندهم ، بل والله تشرف العفة بهم أن يصمتا فلا تستيقظ إلا على استرجاعه ، وتفقه ضرورة الركوب على الراحلة ، وتركها ويمضي بها دون أي كلمة وأي سؤال ، وهي تتلطف بجلبابها منذ أن أحست به فتغطي وجهها ، وهو يكتفى بالاسترجاع هذه هي التربية العظيمة لأبناء هذا الجيل وبيناته ، فهو يعرف بكتابته أن زوج رسول الله ﷺ في عهده وفى أمانته ، وهو على استعداد أن يقتل ويقطع ويمزق لحماتها من كل سوء .

وعظمة رسول الله ﷺ في نفسه ، وعظمته حرمة أزواجه تشنل لسانه فلا ينطق بكلمة ، ومن جهة ثانية فزوج رسول الله ﷺ التي ترى الدنيا كلها ببرجالها أقل من ذبابة . وما تنطق بكلمة إكراماً لزوجها سيد ولد آدم . إنها مدرسة واحدة تخرج منها هذا الجيل بإشراف المصطفى - صلوات الله عليه - ومن الصبح حتى الظهيرة لم تنطق بكلمة ولم ينطق بكلمة ، فمن هؤلاء ؟

إننا نشهد في هذه المدرسة التي شاءت إرادة الله تعالى أن تقع المحنـة فيها ، نشهد قيمة الأنوثة ، و قيمة الشجاعة ، و قيمة العفة و قيمة الحكمة و قيمة التربية ، تحدثنا عنها أدبية عصرها وأدبية الاعصر كلها : عائشة بنت الصديق وزوج رسول رب العالمين في بلاغة قل نظيرها في التاريخ .

٥ - ومن هذا المجتمع العفيف النظيف الشريف إلى ذلك المجتمع الدينـس الرجيـس الآسن ، الذي يقوده عبد الله بن أبي وقد اكتمـلت ذـله وصغارـه على يـد ابنـه الذـي أخـبه الإسلام بعد أن أخـبه ابنـ أبي . وكيف يـضع السـيف على عـنق أبيـه في ذاتـ الله ، وثـارـاً لـرسـولـ اللهـ ﷺ فلا يـجوزـ إلىـ المـديـنةـ حتـىـ يـعـتـرـفـ أـنـ الذـلـلـ وـأـنـ مـحـمـداـ العـزـيزـ ، وـلاـ يـدـخـلـهـ إـلـاـ بـإـذـنـ رـسـولـ اللهـ - عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ - وـهـاـ هوـ ابنـ أبيـ بكلـ ماـ يـمـلـكـ منـ حـقـدـ وـماـ يـمـلـكـ منـ غـيـظـ ، وـماـ يـمـلـكـ منـ كـيدـ ، وـماـ يـمـلـكـ منـ عـبـرـيـةـ ، يـجـدـ هـذـاـ المـنـظـرـ ، عـائـشـةـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـاـ - تـأـتـيـ وـحـدـهـ مـعـ صـفـوـانـ بـنـ الـمـعـطـلـ السـلـمـيـ ، وـتـرـكـ عـلـىـ جـملـهـ ، فـمـاـ هـذـاـ؟

قالـتـ : ( فـهـلـكـ فـيـّـ مـنـ هـلـكـ ، وـكـانـ الذـيـ تـولـىـ كـبـرـ الإـلـفـ عبدـ اللهـ بنـ أبيـ بنـ سـلـولـ . قالـ عـرـوةـ : أـخـبـرـتـ أـنـهـ كـانـ يـُشـاعـ وـيـتـحدـثـ بـهـ عـنـهـ فـيـقـرـهـ وـيـسـمـعـهـ وـيـسـتوـشـيـهـ ) . (وروى أبو معشر عن الزهرى قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال: الذي تولى كبره منهم على. فقلت: لا: حدثني سعيد وعروة وعلقمة وعيid الله كلهم سمعوا

عائشة تقول: الذى تولى كبره عبد الله بن أبي قال: فقال لى: فما كان جرمه؟ قلت: سبحان الله! أخبرنى رجلان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول: كان مسلما فى أمرى) أخرجه البخارى <sup>(١)</sup> .

فإذن نحن أمام مجرم تولى كبر هذا الحديث وصاغ أحداه لكن أخطر ما فيه أنه استطاع أن ينفذ إلى الصفة الإسلامية من خلاله ، وهنا تكمن جسامته الأمر ، فقد حاول فى غزوة المربيع أن ينفذ فعجز ، واستطاعت قيادة الأوس والخزرج أن تتجاوز استثناءات الجاهلية. أما هنا فالامر أكبر والطبيعة البشرية لابد من عرضها من خلال حديث رسول الله ﷺ لعلم كيف استطاع ابن أبي أن يضرب على وتر هذه الطبيعة ونحب في ذلك.

أخرج مسلم عن صفية بنت حمى - رضى الله عنها - قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً فأتته أزوره ليلاً ، فحدثته، ثم قمت لأنقلب فقام معى ليقلبنى <sup>(٢)</sup> . وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد فمرّ رجلان من الانصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رسليكم» <sup>(٣)</sup> إنها صفية بنت حمى » فقالا: سبحان الله! يا رسول الله! قال: «إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكم شرًا » أو قال « شيئاً » <sup>(٤)</sup> .

وفي رواية أخرى لمسلم عن أنس: (أن النبي ﷺ كان مع إحدى نسائه فمرّ به رجل ، فدعاه فجاء. فقال: «يا فلان، هذه زوجتى <sup>(٥)</sup> فلانة » فقال: يا رسول الله ، من كنت أظن به فلم أكن أظن بك فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » <sup>(٦)</sup> ) <sup>(٧)</sup> .

(١) المفارى فى تاريخ الإسلام للحافظ النعى / ١ ٢٧٨ .

(٢) ليقلبني: ليردنى إلى منزلى.

(٣) على رسليكم: أى على ميتكم فى المشى فما ها هنا شيء تكرهاته .

(٤) مسلم / ٤ ١٧١٢ (٢٤) ٢١٧٥ .

(٥) هذه زوجتى : هكذا فى جميع النسخ وهى لغة صحيحة وإن كان الأشهر حذفها وبالحذف جاءت آيات القرآن .

(٦) (إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ) قال القاضى وغيره : قبل على ظاهره ، وأن الله تعالى جعل له قوة وقدرة على الجرى فى باطن الإنسان وفي مجرى دمه ، وقيل هى على الاستعارة لكترة إغوائه ووسوسته فكانه لا يفارق الإنسان كما لا يفارق دمه . وقيل إنه يلقى وسوسته فى مسام لطيفة من البدن ففصل وسوسته إلى القلب .

(٧) مسلم / ٤ ٣٩ (٢٣) ٢١٧٤ .

فتغلغل الشيطان في النفس البشرية لابد أن يقذف فيها شرًا حين ترى رجلاً مع امرأة ليست من محارمه يقود بها جمله وحيدين في الصحراء دون أن يتعرف على الظروف التي أدت لذلك ، ومعرفة المصطفى ﷺ بهذا الشر المستطير الذي يلقيه الشيطان في النفس البشرية ، حدا به أن يوقف الرجل ، أو الرجلين من الانصار ليؤكد لهما أنه وافق مع زوجته صفة بنت حبي - رضوان الله عليها - واقشعر جسد المسلم قائلاً: من كنت أظن به فلم أكن أظن بك ، وصدق الانصارى والأنصاريان لكنه الاحتياط من مواطن الشبهة والبعد عنها.

وقد تدفع الخاطر السئ مرة ومرة ، ولكن الشيطان المجرم يلح ألف مرة حتى يجد لها في القلب موقعاً . طالما أنه يجري مجرى الدم ، ويتجدد بجريانه ، والمسلم يجب أن يكون يقطاً فيدفع وسوسة الشيطان ، وقد اختلفت المواقف من هذه الحادثة .

وأعلاها قمة كان موقف عمر رضي الله عنه الوزير الثاني لرسول الله ﷺ على شديد غيرته وشديد بطشه بالمنافقين والذين يردون موارد الشبه .

( فعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: لما استثبت الوحي استشار الصحابة فقال له عمر رضي الله عنه : من زوجها لك يا رسول الله؟ قال: «الله تعالى» قال : أفترض أن الله دلس عليك فيها؟ سبحانك ربى هذا بهتان عظيم ، فنزلت )<sup>(١)</sup> .

فقد كان عمر رضي الله عنه يرى استحالة وقوع هذا الأمر وأسماه (البهتان العظيم) ونزل به الوحي .

المستوى الثاني: الذى يبرئ عائشة - رضي الله عنها - وقد مثله نموذجان ، ورأت الكذب فيما يُقال :

أ- أبو أيوب الانصاري رضي الله عنه . فقد روى ابن إسحاق عن بعض رجال بنى النجار أن أباً أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أباً أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب. أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ما كنت لافعله قال : فعائشة والله خير منك .

ب- نموذج بريرة - رضي الله عنها - كما في رواية البخاري الثانية: (وجاء رسول الله ﷺ ومعه أناس من أصحابه فسألوا جارية لى سوداء كانت تخدمنى فقالوا: «أخبرينا ما علمك بعائشة» فقالت: والله ما أعلم منها شيئاً أعيش من أنها ترقد ضحى حتى إن الداجن - داجن أهل البيت - تأكل خميرها، فأداروها وسألوها حتى فضلت

(١) السيرة الخلية ٦١٣/٢ .

فقالت: سبحان الله! والذى نفسى بيده ما أعلم على عائشة إلا ما يعلم الصانع على  
نبر الذهب الأحمر . فكان هذا وما شعرت).

ويقول أبي أيوب رضي الله عنه نزل ثناء الله تعالى على أمثال ومستويات هذا النموذج:  
﴿لَوْلَا إِذْ سَمِّعْتُهُ ظَنَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِلْفَكُ مِنْ بَنِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

المستوى الثالث: وهو الذى برأ عائشة من هذا الإلفك وذكر الخير الذى يعرفه فيها،  
وقد مثله نموذجان كذلك هما:

أ - أسامة بن زيد رضي الله عنه: (قدعا رسول الله صلوات الله عليه وسلم على بن أبي طالب وأسامه بن زيد حين استثبت الوحي يستأمرهما في فراق أهله فاما أسامة : فأشار على رسول الله صلوات الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم لهم في نفسه من الود فقال أسامة: يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيرا ).

ب - زينب بنت جحش - رضى الله عنها - : (وكان رسول الله صلوات الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمرى فقالت: أحمنى سمعى وبصرى ما علمت إلا خيراً، وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبي صلوات الله عليه وسلم فعصمتها الله بالورع ، وهذا النموذج أثنى الله تعالى عليه كذلك فى كتابه الكريم، ودعا المسلمين لأن يكونوا أصحابه فقال: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِّعْتُهُ قَلْمَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ تَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup>).

المستوى الرابع: وهو الذى لم ينف أصل الأمر فكل بشر يتعرض للخطأ لكنه دعا للتثبت والتحقيق وقد مثله على - رضوان الله عليه - وحفظ لسانه من الخوض فى الأمر.

وأما على فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثیر ، وأسائل الجارية تصدقك . فدعا رسول الله صلوات الله عليه وسلم بريرة فقال: أى بريرة: هلرأيت من شيء يربيك؟ قالت: لا والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغصبه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله ).

هذه النماذج الأربع دخلت فى إطار ثناء الله - عز وجل - ولا بد من الوقوف ملياً مع موقف على رضي الله عنه وكيف دخل فى إطار الثناء الربانى مع الإشارة للبن موقفه من هذا الأمر.

(١) التور / ١٦ .

(٢) التور / ١٢ .

كما تشير رواية البخاري رَوَاهُ عَنْ أَبِيهِ أَسْمَاءَ وَعَلَيْهِ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ دعا أسمة وعليها يستشيرهما في فراق أهله ، وكما هو اللفظ في نص عائشة : ( يستأمرهما في فراق أهله ) وقد نظر على رَوَاهُ عَنْ أَبِيهِ أَسْمَاءَ من جانب غير الجانب الذي انطلق منه أسمة - رضوان الله عليهما - فالجانب الذي استحوذ على اهتمامه هو نفس المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ وقد أهمه وأغمه هذا الأمر ، وهو لا يرى أن يملا هذا الأمر حياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ هماً وغمًا . والله تعالى لم يضيق على نبيه ، وليس هي المرأة الوحيدة في الدنيا والنساء غيرها كثيرة ( يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثيرة ) ولو وقف الأمر عند هذا الحد ؛ لخرج على رَوَاهُ عَنْ أَبِيهِ أَسْمَاءَ من إطار الموقف الثلاثة ؛ لأن الأمر يعني : احتمال وقوع الأمر بناء على هذه المشورة ، لكن عظمة عائشة - رضي الله عنها - وذروة بلاغتها نقلت لنا الموقف كاملاً وهو الجانب الثاني من الجواب ( وسائل الجارية تخبرك ) فأقرب الناس لعائشة والقص الناس بها وأدرى الناس بها ، جاريتها التي تعيش معها صباح مساء ، ويريد على - رضوان الله عليه - أن يتزع من نفس نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ ، الهم والغم بالاطمئنان إلى سلامته الموقف ، أو احتمال وقوعه من خلال جواب الجارية ، وكانت إشارة على رَوَاهُ عَنْ أَبِيهِ أَسْمَاءَ هي التي أزاحت الهم عن نفس الحبيب المصطفى - صلوات الله عليه - وحسنت الأمر في قضية فراق أهله ، فجاء جواب الجارية - رضوان الله عليها - حاسماً في نفي وقوع هذا الأمر واحتمال وقوعه ، وقالت : والذي نفسي بيده ، ما أعلم على عائشة إلا ما يعلم الصانع على تبر الذهب الأحمر .

( وهذا الكلام الذي قاله على حمله عليه ترجيع جانب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ لما رأى عنده من القلق والغم بسبب القول الذي قيل .... وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة : لم يجزم على بالإشارة بفراتها ؛ لأنها عقب ذلك بقوله : وسل الجارية تصدقك ، ففوض الأمر في ذلك إلى نظر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ فكانه قال : إن أردت تعجيل الراحة ففارقها ، وإن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطلع على براءتها ؛ لأنه يتحقق أن بريرا لا تخبره إلا بما علمته ، وهي لم تعلم من عائشة إلا البراءة المضحة ، والعلة في اختصاص على وأسمة بالمشاورة ؛ أن علياً كان عنده كالولد لأنه رباء من حال صغره ثم لم يفارقها ، بل وازداد اتصاله بتزويع فاطمة فلذلك كان مخصوصاً بالمشاورة فيما يتعلق بأهله لمزيد اطلاعه على أحواله أكثر من غيره ، وكان أهل مشورته فيما يتعلق بالأمور العامة أكابر الصحابة ، كائي بكر وعمر ، وأما أسمة فهو كعلى في طول الملازمة

وروايتا البخارى لا تشيران إلى ضرب على لبريرة - رضوان الله عليهما - إنما تشيران إلى السؤال فقط، وكان هذا الجواب، ولو أخذنا برواية ابن إسحاق. لكن هذا يدعم صحة الرأى الذى أشرنا إليه ، وضرب الجارية وإصرارها على تبرئة عائشة ، يمسح نهائيا من نفس رسول الله ﷺ أى أثر لهاذا الحديث وينفى وقوعه ، ومن أجل هذا وجدهنا - عليه الصلة والسلام - وبناء على استشارة على وأسامه - رضوان الله عليهما - والتحقيق مع الجارية فصعد المنبر، ويتحدث عن براءة أهله، وينال من الذين يخوضون في هذا الحديث، وحمى على <sup>رسول الله</sup> سمعه وبصره وحفظ لسانه فلم ينطق بشئ في هذا الموضوع .

**المستوى الخامس :** الذين لم ينفوا وقوع الأمر ولم يثبتوه، لكنهم لم يخوضوا فيه، ولم يقيسوا الأمر على أنفسهم وأزواجهم كما فعل أبو أيوب <sup>رسول الله</sup> بل لم تستبعدوا ذلك إنما حفظوا لسانهم عن الخوض فيه ، وهذا أمر جماهير المسلمين .

**المستوى السادس :** الذين خاضوا بالإفك وتحذثروا به من داخل الصف الإسلامى، وكان على رأسهم ثلاثة هم : مسطح بن ثانية ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش . وهم الذين جاء القرآن بذم موقفهم والتشنيع عليه، ثم جاء بحدهم بعد ذلك ، وهم من قادة وسادة الصف الإسلامى ويتبرؤون أعظم الواقع فيه . فحسان بن ثابت شاعر رسول الله <sup>رسول الله</sup> وأعظم المدافعين عنه وعن الإسلام ، ومسطح بن ثانية من جيل بدر ، ومن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وربيب أبي بكر الصديق <sup>رسول الله</sup> ، وحمنة بنت جحش زوج الشهيد مصعب بن عمير ، ثم زوج عبد الرحمن بن عوف ، من خيار الجيل الأول ، وهؤلاء الثلاثة هم الذين حدوا وقال الله تعالى فيهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِلْكَ فَعَصَبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ... لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شَهِدَاءَ فَلَذَّ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهِدَاءِ فَلَوْلَا كَفَ عَنَّ اللَّهِ هُمُ الْكَادِرُونَ . لَوْلَا فَضَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمْ سَكُمْ فِي مَا أَضَضْتُمْ فِيهِ عَذَابًا عَظِيمًا . إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِالْأَسْتِكْمِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هَيْنَا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ... يَعْظُمُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(٢) .

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ٤٦٨ - ١١ . (٢) آيات حديث الإفك في سورة النور / ١١ - ٢١ .

ولعل مسؤولية الصف المسلم في قاعدته العريضة أنه لم يقف كله موقفاً موحداً في المواجهة والرفض ، فاكتفيت به صامتة لا تستبعد وقوع الأمر ولا تخوض فيه . إنما ذكر القرآن أعلى مستوياته وذكر أدنى مستوياته ، ولم يتحدث عن الصف العريض فيه إلا باللهم ؛ لأنه لم يقل مثل مقال أبو أيوب « **لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِلْفَكُ مُبِينٌ** ». .

المستوى السابع: وهو المستوى الذي فجر الحدث وسرّ النار، وأضرم الخطب ومدّها بالوقود المستمر على أمل أن يدمّر هذا الصف، وهو خارج هذا الصف ، وهو مستوى عبد الله بن أبي ، والذي اكتفى القرآن بقوله فيه: « **وَالَّذِي تَوَلَّ كِبِيرَةً مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ». .

٦- وهنا نرى مكمن نجاح ابن أبي أن الصف لم يقف سداً منيعاً أمام فريته . وذلك لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق وسرعان ما يقذف في النفس الشر، وجاءت هذه الحادثة المثيرة للشبهة، والمثيرة للتساؤل . فركبها ابن أبي ، وقال القرآن الكريم عن جميع المستويات ، الدنيا على تفاوتها القول الفصل : « **لِكُلِّ اغْرِيَتِهِمْ مَا اكتَسَبَ مِنَ الْأَثْمِ** » ابتداءً من لم يستبعد وقوعه، أو صمت عن القالة فيه . أو شارك بلسانه بتزوير قليل أو يسير، أو خاض فيه خوضاً، أو تعاطف مع الخائضين فلكل أمرٍ منهم ما اكتسب من الإثم .

لكن النجاح الأكبر الذي حققه ابن أبي ، هو في إفساد الصف الداخلي وتواتر العلاقات فيه، ورفع هذا التوتر إلى درجة المواجهة والقيام بتصرات فردية من نماذج عالية في الصف دون إذن رسول الله ﷺ ، وهذا الحد من الخلل لم يحدث إطلاقاً منذ أن دخل رسول الله ﷺ المدينة ، ولنشهد عظمة إمام المربيين في مواجهة هذا الخلل ، ورأب الصدع في الصف المخلخل .

١- فقام رسول الله ﷺ فاستعد من عبد الله بن أبي بن سلول . فقال وهو على المنبر: « يا عشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاء في أهلي ، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرا ولا يدخل على أهلي إلا وهو معنٍ ». فقام سعد بن معاذ وهو أخوبني عبد الأشهل فقال: يا رسول الله أعتذر لك ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت: فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمّه من فخذنه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا . ولكن احتملته

الحمية فقال: كذبت لعمرو الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحبب أن يُقتل . فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمرو الله لقتلته . فإنك منافق تجادل عن المنافقين . قالت: فثار الحيآن الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر . قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخوضهم حتى سكتوا وسكت .

لو كان هذا الحديث مع أى ملك من ملوك الدنيا لأرسل مخبراته فقطعت مئات الآلسنة وقطعت مئات الرؤوس وسجن الآلاف من الذين يخوضون في عرض البيت المالك ، لكننا أمام رسول رب العالمين ، الرحمة المهداة للبشرية ، ومربي هذه البشرية على الخير ، وداعيها إلى الله سبحانه ، ومخرجها من الظلمات إلى النور .

فقد هدَّ الحديث رسول الله ﷺ وأغمَّ ذاته الشريفة أن يتناول الحديث أحب خلق الله إليه عائشة - رضي الله عنها - وصمت عن الحديث لعله يتنهى ويكتف الوالغون فيه عن الحديث فيه ، لكنه زاد انتشاراً ، والتربية الربانية تدع النفوس تتفاعل مع الحديث سلباً أو إيجاباً دون أى تدخل من الوحي ، لتنكشف النفوس والمعادن على حقيقتها ، ورسول الله ﷺ البشر ، لا يستطيع أن يقطع بشيء ما لم يأته الوحي من السماء ، وشاءت إرادة الله تعالى أن يمضي شهر كامل على أعصاب المصطفى ﷺ ، فاحتمل ما لم يحتمله بشر على الوجود ، ولو كان في غير بيته لكان حراً في التصرف ، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، حتى لا يكون الأمر ثاراً لذاته الشريفة ، وهو المبدأ من الهوى ، وهو الإنسان الكامل في الوجود ، ومضى ﷺ في الخطوات التالية التي تعطينا المنهج التربوي في مواجهة الخلل الداخلى في الصف فيما يتعلق بالقيادة وبشخص القائد .

ب- التمهيل قبل إصدار الحكم : والرصد للأقوال ومصادرها وطبيعتها ونخل هذه الأقوال والتعرف على مصادرها ودوافعها ، وتعتبر هذه من أهم المراحل الازمة وأدتها بحيث لا تتدخل فيها الأهواء الشخصية ، ولا التوجيه المباشر في التحقيق ليخدم هدفاً معيناً ، ولا الرغبة البشرية بحيث يندفع التحقيق في تلبية هذه الرغبة ، فقد مضى قرابة شهر كامل ، ولم تشر عائشة - رضي الله عنها - إلى أى تصرف أو حكم أو موقف من رسول الله ﷺ في هذا الموضوع ، إنما كانت مرحلة تقصص وسماع للأخبار ، وتعرف على دوافعها ووقائعها .

ج- مرحلة الاستشارة : وذلك على المستويات العليا الموضوعية بعيدة عن الصلة بالحدث نفسه ، فالامر الوحيد الهام الذى لم يستشر فيه رسول الله ﷺ الصديق هو أمر حادثة الإفك ، فقد حفظ - عليه الصلاة والسلام - مشاعر هذا الاب العظيم من أن

تخدش ، ولو كان هو وزير الاول ، ويعرف - عليه الصلاة والسلام - أن الصديق لن يتمكن أن يشير بشيء فهو مثل رسول الله ﷺ بالنسبة لهذا الأمر ، لا يملك نفيًا ولا يملك إثباتًا ، إنما جأ - عليه الصلاة والسلام - إلى الوزير الثاني عمر رضي الله عنه فهو حال من الغرض في هذا الأمر ، وجأ إلى على وأسامه ، وهما ذوي قرابة ماسة في البيت النبوي ومن أهل بيته ﷺ وأدرى الناس بطبياعه ومداخله ، وقد أشرك على رضي الله عنه بريرة التي تصل بعائشة صلة يومية مباشرة . وانتهت الاستشارة بالتجاه التبرئة والبعد عن الريبة ، وأنها - رضي الله عنها - كما قالت بريرة : والذى نفسى بيده ما أعلم عن عائشة إلا كما يعلم الصانع عن تبر الذهب الأحمر .

د - مرحلة المواجهة : وذلك بعد التقصي والاستشارة ، حيث وقف - عليه الصلاة والسلام - قاتلًا وهو مطمئن : « من يعذرني من رجل قد بلغنى عنه أذاء في أهلي ، والله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرا » . رسول الله ﷺ يقصد عبد الله بن أبي فهو الذي يسرّ الحرب ويشعل النار ويضرم الحطب ، ومن خلال تقصيه ﷺ كان يود مواجهة ابن أبي بالذات من قومه كما تقول عائشة - رضوان الله عليها - فقام رسول الله ﷺ فاستغفر من عبد الله بن أبي وهو على المنبر ، وأدب النبوة الخالدة ، الابتعاد عن تجريح الأشخاص ، فلم يذكره باسمه إنما ذكره بقوله : « من يعذرني من رجل » دون ذكر اسم ذلك الرجل ، وهو معروف لدى المسلمين جميعاً ، وما موقفه بالمربيع بسر .

هـ - مواجهة المضاعفات الناشئة عن المواجهة : وتكلم سعد بن معاذ رضي الله عنه فلم يخرج عن أدب النبوة بكلمة واحدة ، وكان جوابه واضحًا بينًا صريحًا دون أن يتأل من أحد . قال رضي الله عنه : أنا يا رسول الله أعتذرك ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه فهو سيد الأوس ، ولا يرى جزاء لهذه الفربة إلا ضرب العنق ، وهو يملك صلاحيته على قومه ، وسينهى الأمر بلحظة واحدة . إنها قمة التخلّى عن الذات ، وتقديم طاعة الله ورسوله على الأهل والعشيرة والولد ، وأن لسعد إلا تأخذه في الله لومة لائم .

( وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ) فحافظ على أدب الأخوة بينه وبين الخزرج فقال : ( وإن كان من إخواننا ) والفرق كبير بين أن يقول : ( من الخزرج ) أو يقول : من إخواننا من الخزرج ، فهي روح هذا الدين التي اختلطت بدم سعد وعصبه وعظمته ، فلا يذكر الخزرج إلا بقوله : ( إخواننا ) بعد أن كانوا أعدى العدو ، ولم يشر رضي الله عنه إلى ضرب عنقهم ، وإنما ترك الأمر لرسول الله ﷺ ، ورواية البخاري أدق من رواية ابن إسحاق فعند ابن إسحاق :

( قال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، إن يكونوا من الأوس نكفيكم ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج ، فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب عناقهم . وفي هذا النص شئ من الإثارة للخزرج يحتمل ثورة سعد بن عبادة رَوَاهُ عَنْ أَبِيهِ أما رواية البخاري فتنفع بالأدب الجم مع الخزرج ) .

قال سعد بن معاذ : ( ... فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ففعلنا أمرك ) ، لكتنا نرى ثورة سعد بن عبادة لم تكن أسبابها استثارته في النيل من عبد الله بن أبي ، إنما اتجه ذهنه إلى حسان بن ثابت رَوَاهُ عَنْ أَبِيهِ وحسان هو من هو في الأنصار كعباً وموقعًا وسيادة ، وأم حسان بنت عممه من فخذه ، ولم ينبهنا إلى هذا المعنى إلا الأديبة العظيمة عائشة - رضى الله عنها - فهي التي قالت لنا ابتداء : ( فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ فاستغفر من عبد الله بن أبي وهو على المنبر ) وهي التي قالت انتهاء : فقام رجل من الخزرج ، وكانت أم حسان بنت عممه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج . وعندنا إذن سوء تفاهم حول الشخص الذي يطلب - عليه الصلاة والسلام - الإعتذار منه ، وعندنا تعبئة معنوية من عبد الله بن أبي في الموضوع ، ولا نتصور أبداً أن تكون ثورة سعد دفاعاً عن ابن أبي وهو الذي سقط في الحمأة السابقة ، وفضحه القرآن أيما فضيحة . إنما كانت ثورته لحسان بن ثابت شاعر الرسول العظيم والذي خاض في الإفك . وتعميد عائشة - رضى الله عنها - الامر إلى أن أم حسان قريبة سعد فهي ( القريبة بنت خالد بن ..... ثعلبة ) ، قوله : من فخذه بعد قوله : بنت عممه إشارة إلى أنها : ليست بنت عممه حانياً ، لأن سعد بن عبادة يجتمع معها في ثعلبة ) (١) .

وأندفاع أسيد بن حضير للنذود عن سيد قومه وبين عممه سعد كان فيه كذلك استثارة لحميته في مواجهة سعد بن عبادة فقال : كذبت لعمرو الله لقتلته فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تجادل عن المناقفين .

ووقع أسيد رَوَاهُ عَنْ أَبِيهِ بالظن الذي وقع به سعد ؛ حيث فهم سعد بن عبادة خطأً أي : أنه يجادل عن عبد الله بن أبي ، ومن أجل ذلك اندفع قاتلاً : لقتلته ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تجادل عن المناقفين .

وفي رواية البخاري الثانية ( قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ في خطيباً فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل ثم قال : « أما بعد أشيروا على في ناس أبنوا (٢) أهلى ، وايم الله ما

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨ / ٤٧٢ . (٢) أبنوا : عابورهم ورمومهم بخلة سوه .

علمت على أهل من سوء ، وأبنوهم بن والله ما علمت عليه من سوء فقط ، ولا يدخل بيتي فقط إلا أنا حاضر ولا غبت في سفر إلا غاب معى » ، فقام سعد بن معاذ فقال: ائذن لي يا رسول الله أن نضرب عناقهم ، وقام رجل من بنى الخزرج وكانت أم حسان من رهط ذلك الرجل فقال: كذبت ، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحيبت أن تضرب عناقهم ، حتى كاد يكون بين الأوس والخزرج شر في المسجد وما علمت )١( .

فقد نفذ الشيطان في لحظة ضعف بشرية ، وأدخل ظن السوء في قلب سيدى الأوس والخزرج : سعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير ، وتفاعل كلمة القائدين فانطلقت شراراً يتلذذ في قلوب جماهير الأوس والخزرج ، وعلا اللغط والخلاف ، وتثاروا الحيان .

ها هو رسول رب العالمين يرى هذا الامتحان الجديـد ، والشر الأكـبر يقع بين الحـيين ، أـحب أـنصارـه إـلـيـه ، وفـي لـغـط يـمـس شـرـفة العـظـيم ، فـما يـنـحـاز إـلـى أحد ويرتفـع فوق بـشـريـته ليـكون هـدـفـه الأـعـظـم هو تـجاـوز هـذـا الشـرـخ ، وـتفـادـي هـذـا الكـارـثـة ، فـتـاـورـ الـحـيـانـ الأـوسـ والـخـزـرجـ حتـى هـمـوا أـنـ يـقـتـلـوا وـرـسـولـ اللـهـ ﷺـ قـائـمـ عـلـىـ النـبـرـ فـلـمـ يـزـلـ ﷺـ يـخـفـضـهـمـ حتـى سـكـنـوا وـسـكـتـ ، وـإـنـهـ الـرـمـةـ الـأـوـلـىـ مـنـذـ خـمـسـ سـنـوـاتـ التـيـ يـفـقـدـ فـيـهـاـ سـعـدـ بنـ عـبـادـ ﷺـ حـلـمـهـ وـهـذـاـ مـاـ تـعـنىـ عـائـشـةـ - رـضـوانـ اللـهـ عـلـيـهـ - بـقـولـهـاـ: ( وـكـانـ قـبـلـ ذـلـكـ رـجـلـاـ صـالـحاـ )ـ أـيـ: لـمـ يـعـرـفـ عـنـ هـذـهـ الـحـمـيـةـ مـنـ قـبـلـ ، فـهـوـ التـقـيـبـ الـعـظـيمـ الـذـىـ وـجـهـ طـاقـاتـ الـأـنـصـارـ وـالـخـزـرجـ لـفـدـاءـ هـذـاـ الدـيـنـ . وـحـينـ نـسـتـرـجـعـ مـسـتـوىـ التـرـبـيـةـ الـعـظـيمـ الـفـائقـ نـجـدـ هـذـهـ زـلـةـ لـاـ تـنـاسـبـ أـبـداـ مـعـهـمـاـ فـكـلـاهـمـاـ كـانـاـ يـتـسـابـقـانـ وـيـتـنـافـسـانـ فـيـ الـفـداءـ وـالـجـهـادـ وـالـتـضـحـيـةـ ، وـلـمـ يـكـنـ لـيـقـعـ فـيـهـمـ ذـلـكـ التـنـافـسـ الـجـاهـلـيـ لـلـغـضـبـ لـلـذـاتـ وـالـتـأـرـ لـلـنـفـسـ ، وـجـوابـ أـسـيدـ ﷺـ السـيـدـ الثـانـيـ لـلـأ~وسـ لـمـ يـكـنـ عـلـىـ مـسـتـوىـ الرـفـيـعـ لـلـتـرـبـيـةـ الـرـبـانـيـةـ الـنـبـوـيـةـ الـعـظـيمـةـ لـهـذـاـ الجـيلـ .

وتاريخهما كلـهـ يـنـضـعـ باـسـتـعـلـانـهـمـاـ عـنـ هـذـهـ الصـغـائرـ طـيـلةـ حـيـاتـهـمـاـ ، فـماـ نـدـتـ منـ سـعـدـ ، وـلـاـ نـدـتـ منـ أـسـيدـ طـيـلةـ هـذـهـ السـنـوـاتـ الـخـمـسـ بـادـرـةـ أوـ زـلـةـ مـثـلـ هـذـهـ الـبـادـرـةـ ، وـهـذـهـ زـلـةـ وـلـعـلـهـاـ تـكـوـنـ قـدـ بـرـزـتـ مـنـ رـجـلـ عـادـيـ مـنـ غـمـارـ الـأ~وسـ وـالـخـزـرجـ أوـ مـنـ رـعـيمـ الـمـنـافـقـينـ كـمـاـ شـهـدـنـاـهـاـ ، أـمـاـ ظـهـورـهـاـ مـنـ أـعـظـمـ قـادـةـ هـذـاـ الجـيلـ ، فـهـىـ لـمـ تـظـهـرـ مـنـ فـرـاغـ ، إـنـاـ ظـهـرـتـ مـنـ التـعـبـةـ الـعـنـيـفـةـ التـيـ يـقـودـهـاـ اـبـنـ أـبـيـ وـرـاءـ الـكـوـالـيـسـ ، وـقـدـ كـانـ الـأ~وسـ بـعـدـيـنـ جـداـ عـنـ مـثـلـ هـذـهـ التـنـدـيـةـ ، وـلـيـسـ فـيـ صـفـهـمـ أـمـثالـ اـبـنـ أـبـيـ فـقـيـ صـفـهـمـ نـظـيفـاـ مـنـ قـالـةـ السـوـءـ هـذـهـ ، أـمـاـ فـيـ صـفـ الـخـزـرجـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ نـنـكـرـ أـبـداـ أـنـ اـبـنـ أـبـيـ نـجـحـ

(١) فـتـحـ الـبـارـىـ شـرـ صـحـيـعـ الـبـخـارـىـ لـلـحـاـفـظـ اـبـنـ حـبـرـ / ٨ـ ٤٧٧ـ ٤٨٧ـ .

في إيجار الصدور، وبث الفتنة واستجواب له من كرام الصف من استجواب ، على تنوّع المستويات التي ذكرناها سابقاً ، وكان اتجاه النبي ﷺ هو فصل ابن أبي عن قومه ، لكن الامر سرى باتجاه آخر ؛ حيث فهمه سعد أنه يتعرض للمسلمين الصالحين من قومه ، وأن يرى القتل يقع فيهم ويشيكا فلم تحمله نفسه في ذلك.

غير أن قيادة النبوة العظيمة الخالدة التي ربت هذا الجيل ، والتي سيطرت على فتنة الرئيسى هي نفسها التي بقىت تهدى هذه النفوس الثائرة التي اشتعل نار الحمية فيها حتى سكتوا ، وكأننا مع هذه النفس الخالدة. نفس أعلى البشرية كعباً وعظمة وشعوراً، تكاد تفعم من الألم ، فهو يريد أن يبتز فتنة الحديث في أهله ، إذ تشتعل الفتنة في أكبر قياداته ، وإذا الصف المترافق الملتزم المتحد يتخلخل ويتوتر ويستعد للمواجهة ، فنسى الهدف الأول الذي غدا صغيراً أمام خسارة جيشه والصفوة من صحبه ، وليت شعرى أى المحتين أعظم وأشد وقعاً على نفسه الشريفة - صلوات الله عليه !

والله تعالى شأنه يدع الجيل يخوض كما يشاء ، لتبلغ المحنة ذروتها ، وكان ابن أبي اليوم في أحلى أعراسه ، وقد تحققت أعظم أحلامه في تغيير هذا الصف الذي عجز خمس سنوات عن التفاذ داخل هذا السد المنبع والسور العظيم ، وهو اليوم يجد القيادات الكبرى تغصب ، وتستجيب الجماهير لها في ثورة عارمة كان يمكن أن تأكل الأخضر واليابس ؛ لو لا تغلغل حب النبي ﷺ في أفتدتهم فاستجابوا لتوجيهاته وصمتوا لتهذبته ، ولا شك أن هذه التبيجة قد أكلت قلب ابن أبي أن فوت القائد العظيم عليه هدفه .

وـ مرحلة المفاحة مع صاحب الشأن : وجا إليها رسول الله ﷺ حل نهائى أن يفتح أم المؤمنين في الأمر وأى مستوى من الثقة بين رسول الله ﷺ وبين زوجته !

لقد رأى رسول الله ﷺ عائشة تدخل المدينة راكبة على جمل صفوان بن العطاء السلمي ، وبكيفي هذا المنظر لرجل آخر أن يأتي بالسيف فيقطع رأس عائشة وصفوان عن جسديهما وانتهى الأمر .

فهي الغيرة العميماء التي لا تعرف العذر لأحد ، ولو كان عندنا أعلى مستوى من الحلم في الأرض ، من أى بشر لضبط أعصابه التي تشتعل فيها النار حتى يأتي المساء ويأوى إلى زوجه فيسألها عن جلية الخبر ، لكننا مع سيد ولد آدم ﷺ ، وقد رأى هذا المنظر وهو أعرف الناس بزوجة عائشة - رضى الله عنها - وثقته فيها لا يمكن أن تتزحزح قيد أملة ، يصبر رسول الله ﷺ شهراً كاملاً لا يفتخها بشيء ، وهي لطيفة ربانية ، فالله تعالى الذي جبل نبيه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » (١) وشامت

(١) القلم / ٤ .

إرادته سبحانه أن يستمر حديث الإفك شهراً ليأخذ كل أبعاده ، وتنكشف النفوس كلها لتأتي التربية بعدها وقد برزت كل الأخطاء ، وبرزت كل المحننات ، وبرزت كل الفضائل كذلك ، فماذا يجرى بأعصاب هذه الجارية الحديثة السن لو عرفت بلوغ الناس فى عرضها شهراً كاملاً دون موقف ؟ إنها فى أقل من يومين أصابتها الحمى ، وفي أقل من يوم كانت تبكي حتى تظن أن البكاء فالق كبدها ، ولا يرق لها دمع فكان اللطف الربانى بحبه المصطفى ﷺ أن لم يصل الخبر إلى مسامعها إلا فى اليومين الأخيرين قبل الوحي ، والمدينة تضع بحديثها وتلغو فى عرضها وهى لا تدرى ، ولعل مرضها والوعكة التى ألمت بها حدثت برسول الله ﷺ أن يصبر عليها الشهر كله ، ويراعى وضعها الصهى والنفسى فلا يحدثها بشيء مما يخوض به الناس ، وحاول اجتناث الامر وتأجيل المفاجحة ، لكننا شهدنا تفاقم الأوضاع عبر تلك المعالجة ، وفيه ملاطفة الزوجة وحسن معاشرتها والتقصير من ذلك عند إشاعة ما يقتضى التقصى وإن لم يتحقق ، وفائدة ذلك : أن تتضمن لتغير الحال فتعذر أو تعرف ، وأنه لا ينبغي لأهل المريض أن يعلمونه بما يؤذى باطنه ؛ لثلا يزيد ذلك فى مرضه ، وفيه السؤال عن المريض ، وإشارة إلى مراتب الهجران بالكلام والملاطفة ، فإذا كان السبب محققاً فيترك أصلاً ، وإن كان مظنونا فيخفف ، وإن كان مشكوكاً فيه أو محتملاً فيحسن التقليل منه لا للعمل بما قيل ، بل لثلا يظن بصاحب عدم المبالغة بما قيل في حقه ؛ لأن ذلك من خوارم المروءة <sup>(١)</sup> .

٧ - وجدنا مساقين إلى أن نقف مع قلب هذه الفتاة الصغيرة كيف كان وقع الخبر عليه ، فهى لاحظت شيئاً لا يتناسب مع مستوى الحب لها من حبها المصطفى - عليه الصلاة والسلام ، فقدمنا المدينة ، فاشتكىت حين قدمت شهراً ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ، وأنا لاأشعر بشيء من ذلك ، وهو يربينى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل على رسول الله ﷺ ، ثم يقول : « كيف تيكم ؟ » ثم ينصرف فذاك الذى يربينى ولا أشعر بالشر ، ولا تعرف سر خفة هذا اللطف ، وهى لم تذب فى ضميرها شيئاً يقتضى هذا العتب ، وهو - عليه السلام - لا يفتخها بشيء . ولو كان من أمر يقتضى المفاجحة لفعل ، وهي كذلك لم تسأله ، وهى الفتاة المدللة المدللة التى عودها - عليه الصلاة والسلام - على أن تترع منه كؤوس الود واللطف والحب فترتع منها ما شاء الله لها أن تترع ، ثم كانت تلك الخرجة القاتلة ، يوم خرجت مع خالتها أم مسطوح بن أثابة تبرز . وراعها أن تدعوا أم مسطوح على ابنها مرتين بالتعasse ، وهو البدرى العظيم ، وبطبيعة التربية

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٤٧٩/٨ .

التي تلقتها في بيت الصديقية ، ثم في بيت النبوة لم تصبر على سباب رجل من أهل بدر ، فقالت خالتها بعنف : بش ما تقولين أتبسين رجالاً شهد بدرأ؟ ! قالت : أى هناء أو لم تسمعين ما قال؟ قالت : قلت : وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك .

ما أعتقد أن عائشة مرّ عليها في حياتها أعنف من هذه الكارثة ، حتى ولا زواج رسول الله ﷺ بضرائرها . وطعن الشريف البريء بعرضه الموت أهون عليه منه ، وخاصة عندما يكون من ابن خالتها مسطح البدرى العظيم ، ومن الناس كلهم ومن المجتمع كله .

أما في رواية ابن إسحاق فتحدث عن هول الصدمة فتقول : فوالله ما قدرت على أن أفضي حاجتي ، ورجعت فوالله ما زلت أبكي حتى ظنت أن البكاء سيصدع كبدى . وفي رواية البخارى الثانية : وركبتني الحمى فحممت . وعند الطبرانى ياسناد صحيح قالت : لما بلغنى ما تكلموا به هممت أن آتى قلنا فأطرح نفسى فيه (١) .

لكنها لا تزال تتمالك ، فعادت مسرعة إلى البيت والتقت بحبيها المصطفى ، وهى لا تخرو أن تفاححه بهذا الحديث ، ولا تدرى أعنده علم به أم لا ؟ فازدادت مرضًا على مرضى ، فلما رجعت إلى بيته ودخل على رسول الله ﷺ فقلت : أناذن لي أن آتى أبي ، وفي رواية هشام بن عروة المعلقة : قلت : أرسلنى إلى بيت أبي فأرسلنى إليهم فقلت لأمى : يا أمي ما يتحدث الناس؟ قالت : يا بنتي هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئه عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها .

إنه قلب الأم الذى ينفطر لصاب ابتها وما تملك أن تفعل شيئاً لها ، ولم تنطلق لتب وتشتم وتلعن وتضرب ثاراً لابتها وكرامة بيتها . إنما اكتفت أن تخف عن هذه البنية الصغيرة التي لا تقوى بعد على الهم بأن تذكر لها أن كيد الكاذبين وحسد الحاسدين لما تلقى عند رسول الله ﷺ من حظوة وما تجد من حب فهى فانقة الجمال وضرائرها كثر ، وتود أن تحصر ذهن الصديقة عائشة بهذا الاتجاه . ونجد هناك روایتين آخرتين تحدث عن أثر الصدمة عن القلب المكلوم - قلب عائشة - ففى رواية هشام ابن عروة عن عائشة - رضوان الله عليها - : (فدخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفل وأبا بكر فوق البيت يقرأ فقلت أمى : ما جاء بك يا بنتي فأخبرتها وذكرت لها الحديث ، وإذا هو لم يبلغ منها ما بلغ منى ، فأخبرتها وذكرت لها الحديث فقالت : يا بنتية خفضى عليك الشأن فإنه والله لقلما كانت امرأة حسنة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدناها وقيل فيها ) وزاد الأمر تعقيداً وهى مستمرة فى التشيح والبكاء أن دخلت امرأة من

(١) المصدر السابق / ٨ . ٤٦٦

الأنصار عليهن ، كما في رواية مسروق عن عائشة ( فقالت: فعل الله بفلان و فعل  
فلان فقالت أم رومان : وما ذاك؟ قالت: ابني فيمن حدث الحديث؟ قالت: وما ذاك؟  
قالت: كذا وكذا . قالت عائشة: سمع رسول الله ﷺ قال: نعم . قالت:  
وأبوبكر؟ قالت: نعم . فخررت مغشياً عليها فما أفاقت إلا وعليها حمى . فطرحت عليها  
ثيابها فغضطتها ، وفي رواية الأسود عن عائشة: فالقت على أمي كل ثوب في البيت) .  
فقد تمالكت - رضى الله عنها - عند سماع حديث الناس لكنها خرت مغشياً عليها  
عندما علمت أن رسول الله ﷺ وأبا بكر قد بلغهما الخبر ، فالامر من الاتساع والشمول  
بحيث وصل إلى زوجها وأبيها ، وهي البريئة الطاهرة العفيفة النظيفة لكن كيف تثبت  
ذلك.

وفي رواية هشام بن عمرو عن عائشة: واستعربت فبكى ، فسمع أبو بكر صوتي  
وهو فوق البيت يقرأ ، فقد أفاقت من غشيتها وهي ترتعد من الحمى ، وقد طرح عليها  
كل فرش البيت بما تهدا ، والبكاء هو السلوان الوحيد والمتنفس لحرقة القلب لطى ناره ،  
وأدى للبكاء أن يبرد هذه النار المستعرة !! (فنزل فقال لأمي: ما شأنها؟ قالت: بلغها  
الذى ذكر بشأنها ففاضت عيناه . قال: أقسمت عليك أى بنتية إلا رجعت إلى بيتك  
فرجعت . ولقد جاء رسول الله ﷺ بيته فسأل عن خادمتى فقالت: والله ما علمت  
عليها عيباً إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها فاتتها بعض  
 أصحابه فقال: أصدقى رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به . فقالت: سبحان الله !  
والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصانع على تبر الذهب الأحمر . ويبلغ الأمر إلى ذلك  
الرجل الذى قيل له فقال: سبحان الله أو الله ما كشفت كتف أثني قط . قالت عائشة:  
فقتل شهيداً في سبيل الله وأصبح أبوای عندي فلم يزال حتى دخل على رسول الله  
ﷺ وقد صلى العصر ) (١) .

ولكن من الصعب إلى العصر فقد تطورت أمور ضخمة اهتز لها كيان النبي ﷺ  
وأطفأ أضخم فتنة شهدتها - عليه الصلاة والسلام - منذ أن وطئت قدماء الشريفة المدينة  
بين أحب الناس إليه الأوس والخزرج ، ولكن ما كادت تعالج هذه القضية وهذا سيد  
الأوس والخزرج وكفت جماهير الأوس والخزرج ، حتى وقعت الحوادث الفردية التي  
كان يمكن أن تفجر الموقف من جديد .

وعائشة - رضى الله عنها - لا تملك شيئاً تثار به لنفسها مما افترى الناس عليها  
فسلوانها الدمع ، ويبلغ بها همها أن تفك فى أن تطرح نفسها بقليل خلاصاً من هذا

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر / ٤٨٨ تفسير سورة النور (٤٧٥٧) .

الباء الطام . وقد اعتبرتها الحمى فذبحتها أكثر وأكثر ، وها هي الآن تقف الوقفة الكبرى في تاريخها ، والتي ينهد أمامها أعظم الرجال وهي الفتاة الصغيرة حديثة السن بنت الثالثة عشرة من عمرها المبارك .

وحتى إذا صليت العصر دخل رسول الله ﷺ وأنا بين أبيي أحدهما عن يميني ، والآخر عن شمالى . فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « أما بعد يا عائشة إن كنت ظلمت أو أخطأت أو أساءت فتوبى وراجعي أمر الله واستغفرى » فوعظنى وبالباب امرأة من الانصار قد سلمت ، فهى جالسة بباب البيت فى الحجرة وأنا أقول : الا تستحق أن تذكر هذا ، والمرأة تسمع حتى إذا قضى كلامه قلت لأبى وغمزته : الا تكلمه؟ فقال : وما أقول له؟ والنفت إلى أمى فقلت : الا تكلميه؟ فقالت : وماذا أقول له؟ فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت :

أما بعد ، فوالله لئن قلت لكم أن قد فعلت والله يشهد أنى لبريئة ما فعلت لتقولنَّ قد باهت به على نفسها واعترفت به ولئن قلت لم أفعل والله يعلم أنى لصادقة ما أنت بمصدقى ، لقد دخل هذا فى أنفسكم واستفاض فىكم ، وما أجد لى ولكن مثلاً إلا قول أبى يوسف العبد الصالح - وما أعرف اسمه يومئذ - : « فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » (١) (٢) .

إنها يومان يعادلان العمر كله ، فقد جاءت عائشة ترتعد من الحمى بأمر أبيها إلى بيتها ، وجاء معها الصديق أبوها وأم رومان أمها فباتا عندها تلك الليلة ولا يدريان هل تفيض روحها من الأسى هذه الليلة أم لا ؟

واستمرت عندها حتى العصر لا يرفا لها دمع ولا يكتحل جفونها بنوم . وكيف تناه شريفة الأرض وقد تحدث الناس بشرفها ! وبلغ ذلك زوجها وأباها ولم يفعل شيئاً ، فلم يمنع أحداً من الكلام ، ولم يعاقب عليه الصلاة والسلام أحداً خاصاً فيه وماذا تفعل فهل من نصير لها فى هذا الوجود إلا رب السموات والأرض؟! ولكن جسدها التحيل كم يحمل من هذه المراة ، وراح تراجع الساعات الأولى وتحسن شيئاً من خطتهم يوم خرجت لعقدها ، ولم تستأند وكل ما نزل بها من أجل البحث عن هذا العقد . ترى أتصل العقوبة من ربها سبحانه لها على هذا الذنب أن تبقى معلقة هكذا والناس يلغون في عرضها وشرفها !؟

لقد حدثتنا عن أعمق ذاتها ، هذه الأعمق التي تكونت فيها من خلال نفاسة

(١) يوسف / ١٨ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر / ٤٨٨ (٤٧٥٧) .

معدنها وعظمة تربيتها ، لقد كان أملها ورجاؤها بالله وحده سبحانه فهو الذي يبرئها ولن يدعها ، غير أنها كانت أحقر في شأنها من أن ينزل الله فيها قرآناً يتلى ، لكن لعل رسول الله ﷺ يرى رؤيا يعرف براءتها بها ، وهو هو نص لفظها : ( ولكن والله ما كنت أطمن أن الله تعالى منزل في شأنى وحياناً يتلى لشأنى في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها ) .

إنها زوجة رسول رب العالمين ، وحبيبة الأثيرية عنده وبينت الصديق أبي بكر ، وهذا كله لم يدخل الغرور في قلبها ، وهي المظلومة المتهمة في عرضها . فما بناء نفسي في الدنيا يبلغ هذا التوازن وهذا السمو . لقد كانت في نفسها أحقر من أن ينزل الله بها قرآناً ، ولكنها من جهة أخرى هي أكبر في ميزان الله من أن يترك الله تعالى رسوله فلا يعلمه براءتها .

وها هي ترى الآن رسول رب العالمين يدعوها إلى التوبة إن قارت شيئاً مما يقوله الناس ، لقد طعنت اللبؤة الجريحة طعنة في قلبها ، وكما تحدثنا في رواية أخرى : تظهر اللبؤة العظيمة الخالدة في ثاباً هذا الجسد الناحل ، وأن الأولان لها أن تقول كلمة الفصل في أروع بيان وأعظم عرض .

وكما في رواية ابن إسحاق قالت : فوالله ، ما هو أن قال ذلك فقلص دمعي حتى ما أحس منه شيئاً وذلك بعد أن كان البكاء هو رفيق يومها وليلتها ، فلم يجف لها دمع ، ولم تكتحل عينها بنوم ، أما وهذه اللحظة فهي البطلة فعلاً التي تحمل وحدها عبء مواجهة الموقف ، وبجوارها أغز من عليها في الوجود ، لم ترتم على أرجلهما تشنج وتبكى وتملا الدنيا عوياً وصرخاً أنها بريئة ، ولم ترتم على أقدام زوجها ، فتقسم الآيمان المغلظة أنها ما ارتكبت خططاً ولا ذنبًا فهذا شأن الضعف ، أما شأن الرجال ، وشأن الأبطال فشيء غير هذا كله . لقد تصاغر أمام بطولتها كل أعظم الرجال ، انتظرت لحظة جواب أبيها ودعته إلى الإجابة فلم يجب شيئاً ، وهي الجارية الحديثة السن التي تنام عن عجينها فتائى الداجن فتأكله ، آن الأولان لتتكلم أمّا أم المؤمنين في الأرض ، وأن تتكلّم رببة رسول الله ﷺ التي عاشت ثلاث سنوات تنهل من خلق المصطفى ﷺ وتربى به ، وأن أن تتكلّم ابنة الصديق التي رأت النور في قلب النور ، فلم تفتح عينيها على هذا الوجود إلا والإسلام يعمّ بيته ودارها ، آن الأولان أن تتكلّم ثمرة تربية الصديقية ، ثم ثمرة تربية النبوة التي صاغت بيدها أعظم وأشرف لبناء هذا الوجود .

رمت وراء ظهرها كل هذه الدنيا، ووقفت معتصمة برب السموات والأرض، رب العزة جل جلاله، دونها وهن، دونها ضعف ، دونها تشنج ، دونها صرخ ، دون أن تفقد وعيها فتشتم وتسب وتحنّ لهذه الفريدة دون هذا كله في أعصاب أصلب من الحديد وأقوى من الجبال، وفقت لتقول بهدوء الجبال الرواسي : وإنى والله لقد علمت لقد سمعت هذا الحديث قد استقر في نفوسكم وصدقتم به، ولthen قلت لكم : إنني ببربرة لا تصدقونني، ولthen اعترفت لكم بأمر الله يعلم إبني منه ببربرة تصدقوني فوالله لا أجده لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف « فَصَبَرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » ثم تحولت فاضطجعت على فراشي.

لقد قالها يعقوب - عليه الصلاة والسلام - وهو يواجه أكبر أكذوبة انتهت بفقد ابنه يوسف : « وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيمِيهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » (١).

وليس بين عائشة ويعقوب إلا النبوة . أما عظمة المواجهة وعظمة الصبر وعظمة التجدد فكلها تتبع من معين واحد مع فارق السن فتجربة يعقوب - عليه الصلاة والسلام - بعد اثنى عشر كوكباً غدوا رجال الأمة ، وتجربة عائشة بعد ثلاثة عشر ربيعاً تتمثل كل وجودها على هذه الأرض وتقول عن نفسها : (والتعمست اسم يعقوب فلم أجده) وفي رواية : ( وأننا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ) فهي لم تحفظ اسم يعقوب - عليه الصلاة والسلام - بعد ، ولكن قصة يوسف قد أشربت في قلبها، وغدت جزءاً من كيانها وراعتها الصبر الجميل من أبيه على فراقه وكيد إخوته ، وها هي تواجه الدنيا كلها ، وتواجه أكبر محبيها في الوجود - زوجها وأباها وأمها - حين يجد هذا الحديث مسلكاً إلى قلوبهم لتقول : « فَصَبَرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » . وتعود فتضطجع على فراشها وتحسم الأمر .

إنها عائشة يوم تتلتف بجلبابها في الصحراء ، وفي الليل الدامس ، وهي عائشة يوم لا تنطق بكلمة حتى تأوى إلى بيتها قبل الظهر ، وهي عائشة الائش التي تبكي لما أصابها حتى تظن أن البكاء يفلق كبدها ، وتتجبر غصص وألام الاتهام وهي البربرة العفيفة الطاهرة ، وهي عائشة التي تقلص دمعها فما تحس منه قطرها ، ثم تقول كلمتها وتحول فتضطجع على فراشها .

وجاء الوحي وجاءت رحمة رب السموات والأرض : (فَوَاللَّهِ مَا رَأَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) يوسف / ١٨ .

مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدى منه العرق مثل الجمان وهو في يوم شات ، من ثقل القول الذي أنزل عليه ) .

وحتى هذه اللحظات التي يشعر من هولها جسد المؤمن ، لم تنس الصديقة - رضي الله عنها - أن تحدثنا عن المشاعر فيها .

أما هي فكانت تأمل نزول البراءة من السماء ، لكنها كما قالت : كانت أحقر في نفسها من أن ينزل الله بها قرأتا يتلى ، لكنها لم تنس - رضي الله عنها - مشاعر القلبين اللذين أشفقا عليها أكثر منها تقول - رضي الله عنها - : ( فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فالله ما فزعـت ولا بالـيت ، قد عـرفـتُ أـنـي بـريـة ، وـأـنـ الله - عـزـ وـجـلـ - غـيرـ ظـالـمـي ، وأـمـاـ أـبـوـاـيـ فـوـالـذـيـ نـفـسـ عـائـشـةـ بـيـدـهـ ، مـاـ سـرـىـ عـنـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ حـتـىـ ظـنـتـ لـتـخـرـجـنـ أـنـفـسـهـمـاـ فـرـقـاـ ) (١) من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس (٢) .

ومن أعظم لحظات المحنـةـ إـلـىـ أـعـظـمـ آـيـاتـ السـعـادـةـ .

فسـرـىـ عنـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ وـهـوـ يـصـحـكـ فـكـانـتـ أـوـلـ كـلـمـهـ تـكـلـمـ بـهـاـ أـنـ قـالـ :  
«ـيـاعـاشـةـ ، أـمـاـ اللـهـ فـقـدـ بـرـأـكـ» . قـالـتـ : فـقـالـتـ لـىـ أـمـىـ : قـوـمـىـ إـلـيـهـ فـقـلـتـ : لـاـ وـالـلـهـ لـاـ  
أـقـوـمـ إـلـيـهـ فـلـانـىـ لـاـ أـحـمـدـ إـلـاـ اللـهــ . عـزـ وـجـلـ - وـأـنـزـ اللـهــ . عـزـ وـجـلـ - : «ـإـنـ الـذـينـ  
جـاءـوـاـ بـالـإـلـفـكـ عـصـبـةـ مـنـكـمـ . . . .» (٣) العـشـرـ آـيـاتـ ثـمـ أـنـزـ اللـهـ تـعـالـىـ هـذـاـ فـيـ بـرـاءـتـىـ .

وفي رواية عباد بن عبد الله بن الزبير في البخاري :

( وـنـزـلـ الـوـحـىـ سـاعـةـ قـضـيـتـ كـلـامـىـ ، فـعـرـفـتـ وـالـلـهـ الـبـشـرـ فـىـ وـجـهـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ )  
قبلـ أـنـ يـتـكـلـمـ فـمـسـحـ جـبـهـ وـجـيـبـهـ ثـمـ قـالـ : «ـأـبـشـرـىـ يـاـ عـائـشـةـ فـقـدـ أـنـزـ اللـهـ عـذـرـكـ» ،  
وـتـلـاـ الـقـرـآنـ ، فـكـنـتـ أـشـدـ مـاـ كـنـتـ غـضـبـاـ ، فـقـالـ لـىـ أـبـوـاـيـ : قـوـمـىـ إـلـيـهـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ ،  
فـقـلـتـ : وـالـلـهـ لـاـ أـقـوـمـ إـلـيـهـ وـلـاـ أـحـمـدـ إـلـيـاـكـماـ ، وـلـكـنـىـ أـحـمـدـ اللـهـ الـذـىـ بـرـأـنـىـ . لـقـدـ  
سـمـعـتـ فـمـاـ أـنـكـرـتـ وـلـاـ جـادـلـتـ وـلـاـ خـاصـمـتـ ) (٤) .

لـقـدـ وـضـعـتـ عـذـرـاـ وـخـطـأـهاـ وـنـفـسـهاـ بـيـنـ يـدـيـنـاـ ، فـقـدـ قـالـتـ فـىـ أـشـدـ حـالـاتـ غـضـبـهاـ:  
( وـالـلـهـ لـاـ أـقـوـمـ إـلـيـهـ وـلـاـ أـحـمـدـ إـلـيـاـكـماـ وـلـكـنـىـ أـحـمـدـ اللـهـ الـذـىـ بـرـأـنـىـ ) . فـقـدـ اـتـصـلـ  
قـلـبـهاـ فـيـ هـذـهـ الـلـحـظـاتـ الـخـالـدـةـ بـرـبـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ وـحـدـهـ ( وـأـشـارـتـ إـلـىـ إـفـرـادـ اللـهـ

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤١٧ ، ٤١٨ .

(٤) فتح الباري ٤٨٨ / ٨ (٤٧٥٧) .

(١) فـرـقـاـ : خـوفـاـ .

(٣) التورـ / ١١ .

تعالى بقولها: فهو الذى أنزل براءتى . فناسب إفراده بالحمد فى الحال ولا يلزم منه ترك الحمد بعد ذلك ) .

إنها العبودية الخالصة لله تعالى وحده فى هذه اللحظات الخالدة فى تاريخها ، والخبيب المصطفى ﷺ يدرك غضبها ، فيضحك بشرًا وسعادة بهذه البراءة . قال الزمخشري : لم يقع فى القرآن من التغليظ فى معصية ما وقع فى قصة الإفك بأوجز عباره وأأشبعها ؛ لاشتماله على الوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام القول فى ذلك واستثناعه بطرق مختلفة وأساليب متقدمة كل واحد منها كاف فى بابه ، بل ما وقع منها فى وعيد عبدة الأوثان إلا بما هو دون ذلك ، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ وتطهير من هو منه بسييل (١) .

٨ - فتنة جديدة : أما صفوان بن المuttle السلمى فقد فقد صوابه أمام اتهامه وأخذ سيفه ومضى إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه الذى يغوص فى الحديث ويلغى فى عرضه وما أن رأه حتى علاه بالسيف قائلاً :

تلق ذباب السيف مني فلأنى      غلام إذا هوجيت لست بشاعر  
وكادت ضربة السيف تأتى على حسان فقتله .

( وكان صفوان بن المuttle قد كثُر عليه حسان فى شأن عائشة وقال يعرض به :  
أمسى الجلاليب قد عزوا وقد كثروا      وابن الفريعة أمسى بيضة البلد (٢) )

فاعتراضه صفوان ليلة وهو آت من عند أخواله ببني ساعدة ، فضربه بالسيف على رأسه ، فيعدو عليه ثابت بن قيس فجمع يديه إلى عنقه بجعل أسود ، وقاده إلى دار بني حارثة ، فلقيه عبد الله بن رواحة . فقال : ما هذا؟ فقال : ما أعجبك ! عدا على حسان بالسيف ، فوالله ما أراه إلا قد قتله ، فقال : هل علم رسول الله ﷺ بما صنعت به؟ فقال : لا . فقال : والله لقد اجترأت ، خل سبيله ، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له فقال : « أين ابن المuttle؟ » فقام إليه فقال : ها ندنا يا رسول الله ، فقال : « ما دعاك إلى ما صنعت؟ » . قال : آذانى وكثُر على ولم يرض حتى عرض بي فى الهجاء فاحتمنى الغضب وهاؤندا فما كان على من حق فخذنى به ، فقال

(١) المصدر السابق / ٨ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ .

(٢) قال السهيلي فى الروض الأنف : الجلابى : الغريب . وبيبة البلد : يعني منفرداً وهي كلمة يتكلم به فى المدح تارة ، وفي معنى القلّ أخرى يقال : فلان بيضة البلد أى أنه واحد فى قومه عظيم فيهم ، وفلان بيضة البلد يريد أنه ذليل ليس معه أحد .

رسول الله ﷺ: «ادعوا إلى حسان» فأنى به، فقال: «يا حسان اتشوهت (١) على قومي أن هداهم الله للإسلام يقول: تنفست عليه يا حسان، أحسن فيما أصابك» فقال: هي لك يا رسول الله. فأعطاه رسول الله ﷺ سيرين القبطية، فولدت عبد الرحمن بن حسان وأعطيه أرضًا كانت لأبي طلحة تصدق بها (٢) على رسول الله ﷺ (٣).

رغم إطفاء النار قبل يومين بين سيدي الأوس والخررج. لكننا نرى الآن مضاعفات خطيرة وتصيرات فردية تقع لأول مرة من الجيل الأول جيل بدر وليس من المتألقين. فصفوان رحمه الله البدرى العظيم الذى يعرف حق عائشة أم المؤمنين وأنها زوج رسول رب العالمين وهو على استعداد أن يقطع جسده ذرة دون أن يمس أحد شرف المصطفى وعرضه بكلمة. فاما أن يتهم هو فى ذلك ، فأخذته الحمية التى ملكت عليه كل كيانه وحدَّث نبِيَّ صلوات الله عليه بما فى ذاته :

( آذانى وكثير على ولم يرض حتى عرض بي فى الهجاء ، فاحتمنى الغضب وها إنذا فما كان على من حق فخذنى به ). وفي عالم أهل الأرض فالذى يدفع إلى ضرب حسان بالسيف هو الزعيم المطعون فى عرضه فالاصل أن يبعث الزعيم أحد جلاوزته أو رجال مخابراته أو يصطنع قضية مع الذى يتجرأ على ذاته وعلى زوجته فيقتضها ، فيبعث إليه من يقتله ، أو يهدده بالقتل إن نطق بكلمة واحدة .

أما فى عالم النبوة ، وفي آفاق هذا الدين ، وعند أعظم شخصية فى هذا الوجود ، وعند الرحمة المهدأة للبشرية - كل البشرية - نجد هذا الموقف فى تمري العدل بعيداً عن جرحه الغائر ، وبعيداً عن الطعنة النجلاء فى عرضه - عليه الصلاة والسلام - بعيداً عن هذا كله يعالج الموقف - عليه الصلاة والسلام .

وقبيل المعالجة ، فلا بد من أن نعرض تتمة التصيرات الفردية الخطيرة إذ أعقب ثورة ابن المعلم السلمى ثأر ثابت بن قيس رحمه الله لحسان فينقض على صفوان فجمع يديه إلى عنقه بحبل أسود غليظ واعتقله .

ها هو خطيب الرسول صلوات الله عليه المقصع ، يثار لشاعر رسول الله صلوات الله عليه العظيم ، ويأسر ضاربه بالسيف ، والثلاثة بدريون ويأتى الشاعر الثانى ابن رواحة رحمه الله فيرى حسان

(١) تشهوت على قومي: أي أصبحت ذلك من فعلهم حين سميتهم الجلايب من أجل هجرتهم إلى الله ورسوله .

(٢) في السيرة: تصدق بها إلى رسول الله صلوات الله عليه وهي من أصح منها في المغارى : تصدق على .

(٣) المغارى في تاريخ الإسلام للذهبي ١ / ٢٨٠ ، وهي في السيرة لابن هشام ٣ / ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

وقد طعن ، وصفوان وقد أسر ، فيهوله الموقف لكنه عضو في حكومة محمد عليه السلام فهو أحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة ، فلا بد أن يتصرف بالحكمة البالغة التي لا تزوم الأمر ، قال : ما هذا؟ فقال ثابت : ما أعجبك ! عدا على حسان بالسيف فوالله ما أراه إلا قد قتله .

فقال : هل علم رسول الله صلوات الله عليه وسلم بما صنعت به؟ قال : لا ، فقال : والله لقد اجترأت ، خل سبيله ، فقد كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه على مستوى المسؤولية المناطة به ، وأطلق سراح صفوان ، وأعاد الأمر برمه إلى القائد الأعظم عليه السلام ، وأوقف مسلسل الفتنة بعظمة التربية والنبوغ لديه وانعقدت المحكمة فعرض صفوان ما عنده وأبدى استعداده لتنفيذ كل عقوبة دون أن تأخذنه الحمية أو يجادل بالباطل أو يماحلا ، فرزة الرجل العظيم تبقى زلة (فما كان على من حق فخذلني به) ثم يعود بعدها إلى مستوى عظمته ، وإلى مستوى تربيته التي تلقاها على يد نبيه محمد صلوات الله عليه وسلم ، ويتخلل عن لحظة الحمية الجاهلية التي نزلت به دون أن يسوق مئات الصفحات في الدفاع عن خطأه ، وفي تبرير موقفه ، ويستغل عاطفة قائد الجريح لما أصحابه من الحديث عن أهله و يأتي المتهم الثاني حسان رضي الله عنه إنه هو وروح القدس معه في هجاء المشركين هو الذي يخوض في الحديث ، ويستجيب للنفس ابن أبي في نفح روح الفتنة من جديد يوم عجز عنها في المريسيع وقال : فعلوها وكاثرنا في بلادنا ، هاهو حسان يخوض أكثر وأكثر في الفتنة ، وينثر بروح ابن أبي فيقول مقالته :

**أمسى الجلاليب قد عزوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى بيضة البلد**

وأت هذه الفتنة أكلها ، فدفعت بصفوان لضرب حسان بالسيف ، وحدث ثابت  
لاعتقال صفوان ، غير أن حكمة ابن رواحة أوقفت تسلسل الفتنة .

وسيد ولد آدم ، وسيد البشرية بين يديه حسان شاعره الفذ ما باله اليوم يقلب ظهر الجن . وارتفع عليه الصلاة والسلام فوق جراحاته ، وفوق نزيفه ، وترك جانباً ليتابع عملية التربية في خنق روح العصبية المنتنة فقال : « يا حسان أتشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام » . يقول : « تفست عليهم يا حسان » .

ونعود هنا لتعم هذه الحادثة من روایة الواقدى وذلك بعد انعقاد المحاكمة : (فقال حسان : يا رسول الله ، شهر على السيف في نادى قومى ، ثم ضربنى لأن اموت ، ولا أرىنى ألا ميتاً من جراحتى ، فأقبل رسول الله صلوات الله عليه وسلم على صفوان فقال : « ولم ضربته وحملت السلاح عليه » ، وتغيظ رسول الله صلوات الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله ، آذانى وهجانى وسفه على وحسدنى على الإسلام ، ثم أقبل على حسان فقال : « أسفنت على

قوم أسلموا؟ ثم قال رسول الله ﷺ: «احبسوا صفوان، فإن مات حسان فاقتلوه به»، فخرجوا بصفوان (١).

ومضى صفوان رَبِّ الْفَلَقِ ليتال عقوبة تجاوزه الحد، وضربه حسان بالسيف وصفوان يثار لنفسه ويثار لرسول الله ﷺ.

و هنا نعرف المنعطف الذى كمله البشرية بالإسلام فى قضية من أكثر القضايا حساسية فى التاريخ البشرى، فى قضية العدل، ورسول الله ﷺ وليس لديه بيئة على براءة عائشة - رضوان الله عليها - وحسان يخوض فى عرضها بين الناس، وصفوان يتقم لهذا الحديث الشائن فلا يملك - عليه الصلاة والسلام - وهو القائد الذى بيده من يضره بمهجته وروحه ، ويكفيه إشارة واحدة منه ليطاح برأس حسان المفت . إنه وهو إمام العدل فى الوجود ، وقبل أن يكون عنده البيئة يأمر بحبس صفوان بحسان فإن مات فاقتلوه .

وتتعلم البشرية ، ويتعلم الجيل الأول أبلغ دروسه على الإطلاق ، كيف يرتفع القاضى عن ذاته وعن شخصه وعن جرحه ليطبق النص المباشر : «إن مات صاحبكم فاقتلوه » .

وتابع مع هذا الجيل مواقفه الضخام التى شهدتها فى عملية البناء .

فبلغ سعد بن عبدة ما صنع صفوان، فخرج فى قومه من الخزرج حتى أتاهم فقال: عمدتم إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ تؤذونه وتهجونه بالشعر، وتتشمونه فغضب لما قيل له، ثم أسرتوه أربع الإسار ورسول الله بين أظهركم؟! قالوا: فإن رسول الله ﷺ أمرنا بحبسه، وقال: «إن مات صاحبكم فاقتلوه ». قال سعد: والله إن أحب إلى رسول الله ﷺ للغفو، ولكن رسول الله قد قضى بينكم بالحق، وإن رسول الله ليحب أن يترك صفوان ، والله لا أريح حتى يطلق، فقال حسان: ما كان لي من حق فهو لك يا أبا ثابت. وأبى قومه ، فغضب قيس ابنه غضباً شديداً فقال: عجبًا لكم ما رأيتم كاليلوم! إن حسان ترك حقه وتابون أنتم ! ما ظننت أن أحداً من الخزرج يرد أبا ثابت في أمر يهواه ، فاستحينا القوم وأطلقوه من الوثاق ) .

وها نحن هنا أمام معدن سعد بن عبدة رَبِّ الْفَلَقِ سيد الخزرج عامة، وسيد بنى ساعدة خاصة وهو يدخل مع قومه فى الخبرية الرابعة :

« خير دور الانصار أربعة : بنو التجار، وبنو عبد الأشهل، وبنو الحارث بن

(١) المغازي للواقدى / ٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

الخزرج، وينو ساعدة، وفي كل دور الانصار خير » .

وسعد بن عبادة هو الذي أخذته الحمية قبل يوم، وقال كلمته لسعد في أول زلة تبرز منه منذ إسلامه : كذبت لعمرو الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، وعاد سعد إلى هدوئه، ورأى عظَم الزلة التي وقع فيها ، وأضاءات له معالم القضية ، فليس الأمر أمر الأوس والخزرج ، ولكنه أمر رسول رب العالمين يشكو من يؤذيه في أهله ، وأمر عبد الله بن أبي الذي يضرم النار بالخطب لتشتعل الفتنة . إن الأمر أمر شرف رسول الله ﷺ ، وأمر عرضه ، فكيف يكفر عن هذه الزلة؟!

وجاءت المناسبة ، فهذا صفوان بن المغيرة السلمي ، أسير بيد الخزرج رهنا بحسان ابن ثابت « فإن مات فاقتلوه » ولو كان الأمر أمر حمية تسيطر ، فهذه فرصة ذهبية للثأر من صفوان ضارب حسان والذي ثار من أجله سعد في الأمس ، ولكن الأمر أن الله تعالى أذهب عنهم حمية الجاهلية ، ويزعزع المعدن التفيس وراءها معدن سعد.

قال: ( عمدتم إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ تؤذونه وتهجونه بالشعر وتشتمونه . فغضب لما قيل له ، ثم أسرتموه أقبح الإسار ، ورسول الله ﷺ بين أظهركم؟! ) .

لقد رأى ما فعل الغضب به بالأمس ، وكيف دفعه إلى شتم أخيه في الله أسيده ، وكانت المعركة تختدم بين الحبيبين نتيجة هذا الغضب ، ولم يفعل رسول الله ﷺ شيئاً سوى تهدئة وتخفيف هذه الثورة العارمة ، وترك قضيته الأولى حفاظاً على وحدة صفة . ترك عرضه لله حتى لا يؤزم القضية ، وتفسر بانحياز رسول الله ﷺ للأوس دون الخزرج ، ثم يرى سيد الخلق يرتفع عن ذاته ، وبدل أن يأمر بحبس حسان الذي يلغو في عرضه ، يحبس صفوان الذي نال من حسان بالجرح والأذى.

جاشت هذه المعانى جميعاً في ذهنه ، ورآها فرصة سانحة يغسل بها كل آثار نوره الأمس . قالوا: فإن رسول الله ﷺ أمرنا بحبسه وقال: « إن مات صاحبكم فاقتلوه » . وسعد جزء من الحكومة النبوية ووزير فيها ، مثل عبد الله بن رواحة فهو أحد النقباء الآثنى عشر.

قال: والله إن أحب إلى رسول الله ﷺ للعفو ، ولكن رسول الله قد قضى بينكم بالحق ، وإن رسول الله ليحب أن يترك صفوان ، والله لا أbring حتى يُطلق . إن ما يحبه رسول الله ﷺ أعظم عند سعد بن عبادة من الحق الذي يحكم به لقومه . وحسان رَوَاهُ ما يحبه سيد قومه سعد أحب إليه من حقه فقال : ما كان لي من حق فهو لك يا أبا ثابت . ولا تزال الحمية في نفوس الخزرج ، فأبوا قول سعد وحسان .

وتدخل داهية الأنصار وحكيتهم قيس بن سعد بن عبادة واصطعن الغضب ليصل إلى هذه الروح العالية من الحب والتسامح تسود بين المهاجرين والأنصار قال: عجبًا لكم ما رأيتم كاليلوم إن حسان ترك حقه وتباون أنتم، ما ظننت أن أحداً من الخزرج يرد أبداً ثابت - يعني سعداً - في أمر يهواه.

ومن هذه الحمية في الحفاظ على حق حسان إلى حمية تفيد أمر زعيمهم سعد، وبهذه الإثارة استحبوا القوم وأطلقوا صفوان بل لابد من إكرامه،

وتعلم سعد بن عبادة من نبيه ﷺ ألا يكتفى بإطلاق صفوان بل لابد من إكرامه، كما فعل رسول الله ﷺ مع حسان:

فذهب به - أى صفوان - سعد إلى بيته فكساه حلة ثم خرج صفوان حتى دخل المسجد ليصلّى فيه، فرأه رسول الله ﷺ، فقال: « صفوان؟ » قالوا: نعم يا رسول الله ﷺ. قال: « من كساه؟ » قالوا : سعد بن عبادة. فقال: « كساه الله من حل الجنة ». وقررت عين رسول الله ﷺ إلى ثمرة تربتة وعظمته جنده ، وأن ما جرى بالأمس زلة من الشيطان ، ولم يكتف سيد الخزرج بأن يكسو صفوان ضارب حسان بالحللة. بل ذهب أبعد من ذلك في رأب الصدع، وذبح العصبية والانطلاق من روح هذا الدين العظيم، قال لحسان بن ثابت: لا أكلمك أبداً حتى تذهب إلى رسول الله فتقول: كل حق لي قبل صفوان فهو لك يا رسول الله. ومضى حسان تفيذاً لأمر عميد قومه ، حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، كل حق لي قبل صفوان بن المعطل فهو لك ، فقال: « قد أحسنت وقبلت ذلك » وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فأعطاه رسول الله ﷺ أرضاً براحاً وما حولها ، وبقي يقر له ذلك الموقف سنين حتى جاءته سيرين هدية من النجاشي . فأهداها له ، وقام سعد فاكرم حساناً، وأعطاه حائطاً كان يجد مالاً كثيراً عوضاً له عما عفا من حقه . لقد عادت الروح الحقيقة فسرت في الصف الإسلامي وانتشرت تلك السحابة العارضة من الأسى والتوتر الذي زرعه ابن أبي .

ولم ينس عليه الصلة والسلام أن يمسح ما بين زعيمى الأوس والخزرج :

( ومكث رسول الله ﷺ أيامًا ، ثم أخذ بيده سعد بن معاذ في نفر ، فخرج يقود به حتى دخل به على سعد بن عبادة ومن معه ، فتحدثا عنده ساعة وقرب سعد بن عبادة طعاماً فأصاب منه رسول الله ﷺ وسعد بن معاذ ومن معه ، ثم خرج رسول الله ﷺ فمكث أيامًا ، ثم أخذ بيده سعد بن عبادة ونفر معه ، فانطلق به حتى دخل منزل سعد

ابن معاذ ، فتحديثاً ساعة وقربَ سعد بن معاذ طعاماً فأصاب رسول الله ﷺ وسعد بن عبادة ومن معهم، ثم خرج رسول الله ﷺ وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ؛ لأن يذهب ما كان في أنفسهم من ذلك القول الذي تقاولاً )١( .

لقد صفت التفوس، وعاد جو الحب والود بين الحبيبين العظيمين : « **وَالْفَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** » )٢( .

إنها الإرادة الربانية التي اختارت يد النبوة لتصوغهم على هدى هذا الدين، ويروح هذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وماذا عن القضية الرئيسية وبعد براءة عائشة - رضي الله عنها - من فوق سبع سموات ، وكانت قرآناً يتلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وبقدر ما كان التشريع والتأبيب لمن خاض في عرضها حتى إنه كان أشد من تشريع عبادة الأوثان، بمقدار ما كان الثناء العطر على الفتاة الصغيرة حدثة السن ، والتي تجاوب رب العزة جل جلاله فبرأها ، وأنزل حكم قاذفها بالسوء ، ورأرت عائشة انتصار حقها وعقوبة قاذفها ، على التو قالت :

( لما تلا رسول الله ﷺ القصة التي نزل بها عذري على الناس نزل فامر برجلين وامرأة من تكلم بالفاحشة في عائشة فجلدوا الحد . قال: وكان رماها ابن أبي ومسطح وحسان وحمنة بنت جحش )٣( . وعن ابن إسحاق: ثم أمر بمسطح بن ثابتة وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا من أفحص بالفاحشة فضربوا حدتهم )٤( .

٩ - المجتمع الفاضل : ويقى عندهنا نقطتان ، لابد من إلقاء الضوء عليهما ، نشهد فيما عظمة عائشة بنت الصديق . وعظمة الصديق خير المسلمين بعد رسول الله ﷺ .

أما عظمة عائشة - وهي ابنة الثالثة عشرة - فقد بلغ بها الورع حدًا يفوق سادة البشرية في الورع ، فعلى عظم ما اتهمت به ، وما افترى عليها به ، استطاعت - وهي في هذا السن - أن تفصل ضرتها زينب عن أختها حمنة فتبرئ الأولى وتدين الثانية ، ونحن نجد في عالمنا المعاصر كبار الرجال يستقطون في هذا الامتحان ، حين يطعنون بأعز

(١) المغارى للواقدى / ٢ / ٤٣٥ .

(٢) الأنفال / ٦٣ .

(٣) المغارى في تاريخ الإسلام للحافظ النبهى / ١ / ٢٧٩ نقلاً عن ابن هشام .

(٤) السيرة النبوية لأبن هشام / ٣ / ٤١٨ وقد رواها الترمذى في التفسير ج ٥ / ٣١٨١ . وقال: « هذا حديث حسن غريب » .

ما عندهم إفكًا وافتراء ، فيفقدون صوابهم ، ويبحثون عن خصومهم ليلصقوا بهم التهم ، ويقولوا لهم ما لا يقولون ثارًا لذواتهم وأشخاصهم دون تحرٍ للحق ، ونحو للصواب ويستحيل أن يبرُّوهم من التهم حين يجدون أقاربهم يتحدثون باتهامهم.

فعائشة - رضي الله عنها - وهي ترى حمنة أخت زينب تدخل من بيت وتخرج من بيت ، وتحدث الإفك في عائشة ، حسب طبيعة المرأة وسنها إن كانت في أعلى مستويات موضوعيتها فسوف تقول : إن هذا الحديث هو بإيحاء أختها زينب تدفع أختها في الخفاء وتسلل من مسؤوليتها . وكلما تدنى مستوى الموضوعية ابتدأ الافتتان والظن ، بحيث يصل إلى تحجيم كلام حمنة كله لزينب أنها تقوله ، فهي الضرة الرئيسية ، لكننا أمام فتاة تربت وترعرعت في أشرف بيئتين في الوجود : بيت الصديق ، وبيت النبي ﷺ ، وامتزجت طبيتها بهذه التربية ، فهي تصل الأفق الأعلى في التجرد يوم تفصل فصلاً كاملاً بين زينب وأختها حمنة فتقول :

( وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقالت: أحلم سمعي وبصرى ما علمت إلا خيرا ، وهي التي كانت تسامي من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهللت فيمن هلك من أصحاب الإفك )<sup>(١)</sup> .

وهي نفسها التي تبرئ علياً رضي الله عنه من تولى كبر الحديث وقد سمعته يشير على رسول الله ﷺ بقوله: النساء غيرها كثير، وسائل الجارية تخبرك . فلم يدفعها كلامه إلى النيل منه .

فعن الزهرى قال: ( كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال: الذى تولى كبره منهم على ، فقلت: لا . حدثنى سعيد وعروة وعلقمة وعييد الله ، كلهم سمع عائشة تقول: الذى تولى كبره عبد الله بن أبيه . قال: فقال لي: ما كان جرمك؟ فقلت: سبحان الله! أخبرنى رجالان من قومك : أبو سلمة بن عبد الرحمن ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: أنهما سمعاً عائشة تقول: كان مسلماً في أمري ، أخرجه البخارى)<sup>(٢)</sup> . وفي رواية: مسلماً ، وفي رواية : مسيطاً .

وهي التي تبرئ حسان رضي الله عنه ولا ترضى أن تذكره بسوء ، وهو الذى خاض فى الإفك وجلد فيه ، فعن هشام عن أبيه قال: ( ذهبت أسب حسان عند عائشة فقالت: لا تسبه ، فإنه كان ينافع عن رسول الله ﷺ . وقالت عائشة: استاذن النبي ﷺ في

(١) ٢) المغارى في تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي ١/ ٢٧٨ .

هجاء المشركين . قال : كيف بنسبي ؟ قال : لأسنك منهم كما تسل الشعرا من العجين<sup>(١)</sup> .

لم يستطع أفراد الجيل الثاني - وهم الملوك وأمراء المؤمنين فيه - أن يصلوا إلى مستوى ابنة الثالثة عشرة من العمر في الجيل الأول .

فهذا الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين وهو من يحمل على أهل البيت بعد حرب معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معهم ، ويحمل إرث خلاف بنى أمية وبنى هاشم ، يقول - فما يرويه الزهرى عنه :

( قال لى الوليد بن عبد الملك : أبلغك أن علياً كان فيمن قذف عائشة ؟ قلت : لا . ولكن قد أخبرنى رجلان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث أن عائشة - رضى الله عنها - قالت لهما : كان على مسلمًا في شأنها فراجعوه فلم يرجع وقيل مسلمًا لا شك فيه وعليه كن فى أصل العتيق كذلك )<sup>(٢)</sup> .

( وفي رواية عبد الرزاق : كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال : الذى تولى كبره منهم على . قلت : لا . ولكن حدثنى سعيد بن المسيب وعروة وعلقمة وعييد الله ، كلهم عن عائشة قال : الذى تولى كبره عبد الله بن أبي قال : فما كان جرمه )<sup>(٣)</sup> .

وهذا هشام بن عبد الملك أخو الوليد يعتقد ذلك وهو أمير المؤمنين ( فأخرج يعقوب بن شيبة فى مسنده عن الحسن بن على الحلوانى عن الشافعى قال : حدثنى عمى قال : دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له : يا سليمان ، الذى تولى كبره من هو ؟ قال : عبد الله بن أبي . قال : كذبت هو على . قال : أمير المؤمنين أعلم بما يقول . فدخل الزهرى فقال : يا ابن شهاب من الذى تولى كبره ؟ قال : ابن أبي ، قال : كذبت ، هو على . فقال : أنا أكذب لا أبا لك . والله لو نادى مناد من السماء : أن الله أحل الكذب ما كذبت . حدثنى عروة وسعيد وعييد الله وعلقمة عن عائشة أن الذى تولى كبره عبد الله بن أبي ، فذكر له قصة مع هشام فى آخرها : نحن هيئنا الشيخ )<sup>(٤)</sup> .

فكمال المسلمين من بنى أمية لما يحملون فى أنفسهم من ضغينة على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسم فى قلوبهم أن علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قذف عائشة - رضى الله عنها - بل أكبر من ذلك أنه هو الذى تولى كبر هذا الحديث . نعرض هذا ، ونعرض الفتاة العظيمة الخالدة صاحبة الشأن .

(١) فتح البارى للحافظ ابن حجر / ٧ / ٤٣٦ ( ٤١٤٥ ) .

(٢) فتح البارى للحافظ ابن حجر / ٧ / ٤٣٥ ( ٤١٤٢ ) .

(٣) المصدر نفسه / ٧ / ٤٣٦ .

(٤) المصدر نفسه / ٧ / ٤٣٧ .

وهي التي خاض القوم في عرضها، يصل بها التجدد والتقوى أرفع المستويات في الوجود، فتبرئ علياً بِعَوْنَاحَة وهي التي سمعته يقول: النساء غيرها كثيرة. وسائل الجارية تخبرك، وتبرئ حسان ، وقد جلد فيها من أن يكون هو الذي تولى كبر الحديث. بل تستقبله وتحتفى به ؛ لأنه كان ينافح ويندو عن رسول الله - صلوات الله عليه - وتبرئ زينب بنت جحش ضررتها التي كانت مهاجرتها في تلك المرحلة، فتنقل عنها قولها لها: (أحمدى دينى وعرضى ما علمت عليها إلا خيراً) . وتقول عنها: (فقد عصمتها الله بدينه فلم تقل شيئاً) .

إنها الصديقة بنت الصديق سليلة بيت سيد المسلمين ، وخيرهم على الأرض بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أما أبوها بِعَوْنَاحَة فتحدثنا عنه العظيمة الحالدة فتقول: (.. قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح بن أئلاته لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال: فأنزل الله تعالى : « ولا يأتِ أهلوا الفضلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ » إلى قوله « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » ) (١) قال أبو بكر الصديق: بلى والله إنما لاحب أن يغفر الله له لى . فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً ) (٢) .

لقد جرحت بشريه الصديق يوم رأى أقرب الناس منه رحماً، وأقرب الناس منه إحساناً ، لا يرعى هذا الرحم ، ولا يرعى هذا الإحسان ، ويبلغ في عرض عائشة - رضي الله عنها - قرينته وزوجة نبيه ، وجاء الوحى من السماء بعقوبته مع حسان وحمنة ثمانين جلدة .

وقال الصديق: بعد أن برأ الله تعالى ابنته من السماء: والله لا أنفق على مسطح أبداً بعد الذي قال في عائشة ما قال. لم يقلها الصديق بِعَوْنَاحَة قبل نزول البراءة وصمت على جرح القريب الأقرب :

وحرج ذوى القربي أشد مضاضة      على المرأة من وقع الحسام المهد

إنه ليس قريباً فقط ، بل مقيمًا في بيت الصديق. في هذه اللحظات البشرية لم يتمالك الصديق نفسه أن يقول هذا القول ثاراً لعرضه المستباح ، وغضباً لكرامته المثلومة. قرر إيقاف النفقة على مسطح ، ويجلس الصديق بجوار المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد كفت الألسنة، وحدَّ القاذفون، وأصبحوا محط نظر الشزر من المؤمنين الصادقين، وغدا الصديق لا يستطيع أن يرى هؤلاء الثلاثة الذين آذوه في عرضه وفي ابنته وأحب الناس إليه.

(١) التور / ٢٢ .

(٢) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٧ / ٤٣٤ ( ٤١٤١ ) .

وها هو ينظر في وجه رسول الله ﷺ يتحدرّ منه الجمان ، وتأتيه غاشية الوحي ، ترى أى جديد بعد حديث الإفك ، وهل هناك جوانب مخبأة يود القرآن أن ييرزاها ، حتى إذا سرّى عن رسول الله ﷺ ، إذا هو يبتسم صلوات الله عليه وسلم ويتلّو :

﴿ وَلَا يَأْتِلُ (١) أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةُ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمَهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَيَعْفُوا وَلَيَصْفُحُوا أَلَا تَعْجُبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ويصغي الصديق ثم يتتبّه كأنما لسعته حية ، إن الحديث عنه والنداء من رب العزة له ، فهو الذي منع النفقة عن مسطح . والله تعالى يدعوه ويسأله ويع - ضه قائلا له : ﴿ وَلَيَعْفُوا وَلَيَصْفُحُوا أَلَا تَعْجُبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. ﴾ وصرخ بلاوعي : بلّي والله إنّي لأحب أن يغفر الله لي .

لقد جاءت هذه الآية لتمسح كل جراح قلبه ، وتكون ببساطة لفواهه ، فيقسم ثانية : ( والله لا أنزعها منه أبدا ) .

إنه ابن القرآن وقد تعلم من نبيه المصطفى ﷺ يوم أقسم المسلمين ليمثلن بثلاثين رجلاً من المشركين لما رأى ما بحمزة رض فجاء القرآن الكريم ليقول لنبيه : ﴿ وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَرَبْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَرَبْكُ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الدِّينِ اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُّخْسِنُونَ ﴾ (٢) .

فقال رسول الله ﷺ : « نصیر ولا نعاقب » .

وفي رواية : فكفر رسول الله ﷺ عن يمينه وأمسك عن ذلك . وخلق الصديق هو من مشكاة النبوة ، وهو أكثر خلق الله تأسياً بهدى رسول الله ﷺ فلم يراجع ولم يناقش . لقد عزم على ألا يتزعها منه أبداً بعد عتاب الله له في ذلك ، لكن الأمر الأبعد وراء نزول هذه الآية ، ووراء العفو والصفح الشخصي ، وإعادة النفقه هو طى صفحة الإفك كلها من المجتمع الإسلامي ، فقد نزل القرآن وببرئت الطاهرة المطهرة ، وعوقب القاذفون وهم قمم في هذا المجتمع ، فهل يعزّلون عنهم؟ أم تسقط عضويتهم في المجتمع لهذه الجريمة؟ أم يُنفون من المدينة وتترنّع عنهم صلاحياتهم ويمارسون العزل الاجتماعي والسياسي وقد نالوا من رئيس الدولة المسلمة وقدفوا عرضه؟ ماذا يحل بهؤلاء الثلاثة

(١) يأْتِلُ : من الآية وهو الحلف .

(٢) النحل / ١٢٦ - ١٢٨ .

الكبار بعد هذا الموقف من البهتان العظيم؟

لقد جاء القرآن الكريم على التو بعتاب الصديق على موقفه ليعلن أن هؤلاء الثلاثة هم من المهاجرين في سبيل الله ، ولم يفقدوا أي ميزة كانوا يملكونها ، ولا يجوز أن يفقدوها ، ويتبعون مهماتهم ومسؤولياتهم على ما هي عليها في المجتمع وهم من النخبة القيادية فيه . ولا يجوز أن يبني أي موقف بعد الحد عليهم على ضوء هذه الآية ، فمسطح في بيت الصديق ينفق عليه ، وحسان شاعر الإسلام العظيم ، بل كرمه رسول الله ﷺ وأهداء سيرين فيما بعد ، لغفوه عن ضربته من صفوان ، وحمنة بنت جحش أرملة شهيد الإسلام مصعب بن عمير وزوج أحد العشرة المبشرين عبد الرحمن بن عوف فيما بعد ، وهم في مواقعهم ، لا يتزعزع منهم شيء .

إنها عظمة الإسلام . التي برأت عائشة الطاهرة المطهرة أولاً .

وعظمة الإسلام التي أمرت بإيقاع الحد على ثلاثة من كبار المسلمين علينا أيام الأشهاد ، ولم تشفع لهم سابقتهم دون إيقاع العقوبة عليهم ، وهم السادة العظام ، وعظمة الإسلام التي أمرت بعودتهم إلى مواقعهم بعد العقوبة وطى صفحة الماضي كله . ومشاركتهم في الجهاد الإسلامي في سبيل الله .

بينما يبقى المنافقون خارج الصاف ، لا يدخل أحدهم للصف الإسلامي إلا بعد ثبوت توبته واستقامته سلوكياً بعد إعلان التوبة ، وتخليوا عن الاعتصام بغير الله ، وتبرأوا من الولاء لغير الله .

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتَنَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١) .

وها نحن نقف على اعتاب الخندق في هذا الجزء كما وقفتنا على اعتاب بدر في الجزء السابق آخذين بترجيع الحافظ ابن حجر - رحمة الله - الذي قال بعد استعراض الروايات جميعاً (فيظهر أن المرسيع - المصطلق - كانت سنة خمس في شعبان لتكون قد وقعت قبل الخندق ؛ لأن الخندق كانت في شوال من سنة خمس أيضاً ، فتكون بعدها فيكون سعد بن معاذ موجوداً في المرسيع ورمى بعد ذلك بسهم في الخندق ومات من جراحته في قريظة ) (٢) .

(١) النساء / ١٤٦ .

(٢) الفتح / ٧ . ٤٣٠ .

## الخطوط العريضة في التربية<sup>(١)</sup>

من أبواب بدر إلى أبواب الخندق وهي المرحلة التي تناولنا الحديث عنها في هذا الجزء واستغرقت ثلاث سنوات ، من رمضان في السنة الثانية للهجرة ، إلى ذي القعدة في السنة الخامسة للهجرة . والتي تم خلالها بناء الجيل الأول من التابعين بإحسان للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، نلاحظ هذه الخطوط العريضة في البناء والتربية :

### الخط الأول: التربية بالمعركة وال الحرب :

وهذه من المعالم الأولى للعهد المدنى ، فالمراحل السابقة قبيل بدر لم تكن المواجهة فيها شاملة ، وكانت غزوة بدر الكبرى أولى المعارك الشاملة بين المسلمين وبين أعدائهم . والحديث عن الحرب والمواجهة شيء ، والمواجهة شيء آخر ، يتم من خلالها اختبار عنصري الشجاعة والصبر ، واختبار قوة الإيمان كذلك ، وقد أشار القرآن لذلك في آيات آل عمران في قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبُّتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ . وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَوَّنُ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَتَظَرَّفُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وأشار إلى ذلك في سورة النساء بقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَبْلَ لَهُمْ كُفَّارًا أَيْدِيهِمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمْ الْفَتَالَ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَعْشَيْةَ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لَمْ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفَتَالَ لَوْلَا أَخْرَجْتَنَا إِلَى أَجْلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلِمُونَ فَإِلَّا . أَيْتَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ . . . 〉<sup>(٣)</sup> .

وسواء كانت نتيجة المعركة شهادة أو جراحًا غائرة في سبيل الله ، أو غذائم وأسلاب بعدها ، فكل هذه معامل ضخمة للتربية لا يكاد يعادلها معلم آخر .

### الخط الثاني: التربية بالمناورات الحربية :

والمناورات : مصطلح عسكري يعني التدريب على الحرب بالذخيرة الحية ، دون

(١) لا بد من الإشارة إلى أن أعظم معالم التربية في المجتمع الإسلامي الأول كانت من خلال القرآن الكريم ، وحيث أفردنا الأجزاء الثلاثة الأولى للتربية الجهادية من خلال القرآن الكريم ، فتتحدث عنها عن التربية النبوية المباشرة لهذا الجيل القرآني النبوى الغيريد في التاريخ .

(٢) آل عمران / ١٤٢ ، ١٤٣ . (٣) النساء / ٧٧ ، ٧٨ .

وجود العدو . وقد رأينا كثيراً من الغزوات قام رسول الله ﷺ على رأسها ليواجه عدواً فلم يلق عدواً ولم يلق كيداً، إنما كانت دورات عنيفة في قلب الصحراء تكشف الأخلاق والآنفوس والإيمان ، فتلتقطها يد النبوة بالعناية والرعاية والتوجيه ، إضافة إلى عظمة الصحبة النبوية مع سيد ولد آدم ، ورؤبة القدوة العليا حية بين ظهارائهم ، فتقتبس هذه النماذج النور من منبع النور لتشع بعد ذلك هدىً على العالمين .

### الخط الثالث: التربية والتدريب على الشوري :

وذلك في مجتمع تسوده دكتاتورية رئيس القبيلة ، ليشعر كل فرد في هذا المجتمع الجديد أنه ليس صفرًا أو نكرة أو رقمًا ، يطلب منه أن يقبل فقط ، بل هو إنسان له رأيه وله قناعته وله وزنه ، وقد أخذت الشوري صوراً شتى في عمليات البناء :

**الصورة الأولى:** أن يطلب رسول الله ﷺ الرأي من فريق محدد بعينه ، كما هو الحال في بدر ، يوم أربع على سماع رأي الأنصار في مواجهة قريش ، وهم غير ملزمين بالمواجهة حسب نصوص بيعة العقبة ، وتقدم قادة الأنصار فأذروا برأيهم إضافة إلى رأي قيادات المهاجرين ، وقرر المواجهة على ضوء ذلك قائلاً: «إن الله وعدنى إحدى الطائفتين ، فامضوا وأبشروا ، والله لكمى أنظر إلى مصارع القوم».

**الصورة الثانية:** أن يطلب رسول الله ﷺ الرأي من الأمة جميعاً : جنود وقيادات كما جرى قبل غزوة أحد ، فشارك الأحداث والشيخوخ والشباب في الرأي دون أن يحظر على أحد ، بل ارتفع الأمر أكثر بأن أخذ رسول الله ﷺ برأي الشباب والأحداث بصفتهم عنصر الفداء والتضحية وليلعلم القيادات الإسلامية في الأرض بعد ذلك كيف تستشير وتقيم وزناً لنتائج الشوري والاتجاه الغالب والرأي العام في صفوتها .

**الصورة الثالثة:** أن يستمع إلى الشوري ولو لم يطلبها كما جرى في بدر ، حيث قام الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت هذا المنزل الذي نزلت ، فهو منزل أنتلكه الله ، ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه ، أم هو الرأي وال الحرب والمكيدة ؟ قال: «بل هو الرأي وال الحرب والمكيدة» قال: يا رسول الله ، إن هذا ليس لك منزل فانهض بنا حتى نأتي أدنى ماء من القوم فنزله ونغير ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ، فشرب ولا يشربون .

فاستحسن النبي ﷺ ذلك من رأيه ، وأمر بالقلب فغورت ، وبنى حوضاً وملاه ماء ، هكذا تكون المجتمع العربي الشوري لأول مرة في التاريخ .

### الخط الرابع: التربية بإبراز النموذج :

وقد رأينا هذه الصورة يوم انفعل أبو حذيفة بن عتبة رض وقال في سورة غضب

عنيفة: نقتل آباءنا وأعمامنا وندع عم محمد، والله لئن لقيت العباس عم محمد لا جحنه بالسيف.

واكتفى - عليه الصلاة والسلام - بمعالجة هذا الوضع، وإعادة أبي حذيفة لصوابه بأن قال لعمر: « يا أبا حفص أضرب وجه عم محمد بالسيف؟ ». .

فقال عمر: يا رسول الله ، دعني أضرب عنقه ، فلقد نافق.

ولم يوجه كلمة واحدة لأبي حذيفة المسلم العظيم، والذي أفاق من ضياعه على ضوء مقالة عمر ، وقال: والله ما زلت أصوم وأصلى وأصدق، وما أنا بأمن من تلك الكلمة وما أرى يكفرها عنى إلا الشهادة.

واندفع بعدها ليمحو تلك الخطية بأن يطلب مبارزة أبيه في الحرب، استجابة لداعى العقيدة ثم يرى آباء وعمه وأخاه وهم يُلقون في القليب، ويتابع رسول الله ﷺ تربيته بلديه العظيم، وقد رأى تغير وجهه، فقال: « يا أبو حذيفة، هل رابك من مصرع أبيك شيء؟ ». فقال: والله ما شركت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أرى له حلماً وفضلاً ، فلما مات على الكفر آلمى ما رأيت . ثم أنهى حياته شهيداً في اليمامة رض.

وكان في الممكن لو اتبع غير هذا الأسلوب مع أبي حذيفة أن يقتل مرتدًا ، والعياذ بالله.

#### الخط الخامس: التربية بالإعراض :

وذلك عندما يرى الخطأ - عليه الصلاة والسلام - يقع من أحد أصحابه فيعرض عنه، قال سلمة: يا رسول الله لم تزل عنى معرضاً منذ كنا بالروحاء في بدأتنا، فقال رسول الله ﷺ: « أماً ما قلت للأعرابي: وقعت على ناقتك فهي جبلى منك ، ففحشت وقلت ما لا علم لك به ، وأماً ما قلت في القوم ، فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله ترهدها ». فاعتذر إلى النبي ﷺ ، فقبل منه رسول الله ﷺ مدرته ، فكان من عليه أصحابه.

#### الخط السادس: التربية بالترغيب بالأخرة :

وذلك في قلب المعركة، وساعات المواجهة مع العدو. فها هو - عليه الصلاة والسلام - يقول في بدر: « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » ، ثم يقول : « والله ما يقاتل القوم اليوم رجلٌ مقبلٌ غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ». .

فقال عمير بن الحمام - أخو بنى سلمة - وفي يده تمرات يأكلهن: - بخ بخ ، أَفَمَا

بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل.

وذلك الأفق الوضيء الآخر الذي يحرض أكثر ما يحرض على مرضاه الله. وهو عوف بن الحارث الذي جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! ما يضحكك الرب من عبده؟ قال: «غمسه يده في العدو حاسراً» فنزع درعاً كانت عليه فقدتها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وذلك الموقف يوم أحد حيث أخذ ﷺ سيفاً وقال: «من يأخذ مني هذا السيف بحقه» فبسط كل إنسان منهم يقول: أنا، أنا. فقال: «من يأخذته بحقه؟» فاحجم القوم، فقال له أبو دجانة سماك: أنا أخذته بحقه، قال: فأخذته فلق به هام المشركين. أخرجه مسلم.

#### الخط السابع: تربية الأسرى:

والأسرى مشركون، وقد روى رسول الله ﷺ هؤلاء الأسرى ، واتبع معهم الأساليب المتعددة التي تتناسب مع أشخاصهم ونمادجهم:

أ- قتل مجرمي الحرب منهم: (ثم قتل رسول الله ﷺ ومعه الأسرى فيهم عقبة ابن أبي معيط والنضر بن الحارث.... ثم قتل النضر بن الحارث العبدري بالصفراء. فقال عقبة حين أمر النبي بقتله: من للصبية يا محمد؟ قال: «النار». فقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وقيل: على كتلته).

وعن الشعبي قال: لما أمر النبي ﷺ بقتل عقبة قال: أقتلني يا محمد من بين قريش؟ قال: «نعم، أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي وغمزها، فما رفعها حتى ظنت أن عيني ستندران. وجاء مرة أخرى بسلى شاة فالقاء على رأسى وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى » (١).

ب- إحسان معاملتهم جميعاً: (قال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدثني نبيه ابن وهب العبدري قال: لما أقبل رسول الله ﷺ بالأسرى فرقمهم على المسلمين وقال: «استوصوا بهم خيراً» قال نبيه: فسمعت من يذكر عن أبي عزيز بن عمير ، قال: كنت في الأسرى يوم بدر فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «استوصوا بالأسرى خيراً» ، فإن كان ليقدم إليهم الطعام، مما يقع في يد أحدهم كسرة إلا رمى بها إلى أسيره، ويأكلون التمر. فكنت أستحب فآخذ الكسرة فأرمي بها إلى الذي رمى بها إلى، فيرمى بها إلى) (٢).

(١) المغارى للنبي: ٦٤، ٦٥، وسلى الشاة: أمعاؤها.

(٢) المصدر نفسه: ١١٩.

وقد حدث هذه المعاملة الكريمة بأبي عزيز أن يسلم فيما بعد.

جـ- الفداء بالمال: (ثم بعثت قريش في فداء الأسرى، فقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو فقال عمر رضي الله عنه: دعنى يا رسول الله أنزع ثني سهيل بن عمرو، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً فقال: «لا أمثل به فِيمَثُ الله بي، وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمه» .)

فقام في أهل مكة بعد وفاة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه بنحو من خطبة الصديق رضي الله عنه وحسن إسلامه...<sup>(١)</sup>.

دـ- المُّبدون فداء: ( ومن الأسرى: أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى، كان يحتاجاً ذا بنات، قال للنبي صلوات الله عليه وآله وسلامه: قد عرفت ألا مال لي، وأنى ذو حاجة وعيال، فامن علىَّ. فمنْ عليه وشرط عليه أن لا يظاهر عليه أحداً)<sup>(٢)</sup>.

ولكن أبو عزة غدر، وظاهر المشركين على رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، فامتن الله تعالى منه يوم أحد، ووقع أسيراً بيد المسلمين فضررت عنقه.

هـ- الذين فدوا أنفسهم بتعليم أولاد المسلمين: وذلك في مجتمع يقبل على العلم والنور والهدى، وأصبح بين يديه كتاب الله تعالى، فما أحوجه إلى القراءة والكتابة بعد أن كانوا الأميين من بين الأمم.

(روى ابن سعد عن الشعبي قال: كان أهل مكة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهم فدائوه، وكان زيد بن ثابت مَنْ عَلِمَ)<sup>(٣)</sup>.

وـ- ولا ننسى تلك الكلمة الحالدة التي أرسلها صلوات الله عليه وآله وسلامه وهي كلمة وفاء للمطعم بن عدى الذي كان أكبر نصير للدعوة بعد أبي طالب لطرق مسامع مكة، حين يرون قتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط:

قال: «لو كان المطعم بن عدى حياً لوهبت له هؤلاء التنتى» أى : الأسرى.

#### الخط الثامن: استئارة الطاقات الكامنة :

حيث يحدد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه الهدف ، ويدع للطاقات الإيمانية الكامنة أن تتفجر وتبدع ، وهذه نماذج من ذلك:

(١) المغازي للذهبي : ٦٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٧١ .

(٣) سبل الهدى والرشاد /٤ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

(فها هو يقول عليه الصلاة والسلام: «من لکعب بن الأشرف؟ فقد آذانا بالشعر.  
وقوی المشركين علينا» فقال محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله. قال: «فأنت»<sup>(١)</sup>.  
(كان أبو عفك اليهودي يحرّض على رسول الله ﷺ ويقول الشعر، وكان قد نجم  
نفاقه فقال رسول الله ﷺ «من لى بهذا الخبيث؟» فقال سالم بن عمير وكان قد شهد  
بدرًا: على ندر أن أقتل أبو عفك أو أموت دونه)<sup>(٢)</sup>.

(وكانت عصماء بنت مروان تعيب الإسلام وتؤذى رسول الله، وتحرض عليه،  
وتقول الشعر، وكانت تطرح المحايض في مسجد بنى خطمة. فأهدر رسول الله ﷺ  
دمها، فنذر عمير بن عدى، لتن رجع رسول الله ﷺ من بدر إلى المدينة ليقتلنها)<sup>(٣)</sup>.  
وقد نجحت هذه المهام جميعاً كما مرّ معنا من قبل، وبذلك أفسح عليه الصلاة  
والسلام مجال التنافس في الجهاد والبطولات، وأبرز الطاقات المكتونة لتعمل كلها في  
سبيل الله.

#### الخط التاسع: تكليف الأبطال بالمهام الصعبة :

وهذه نماذج من ذلك :

أ - في سرية أبي سلمة بن عبد الأسد إلى قطن : (.. فلما بلغ ذلك رسول الله  
ﷺ دعا أبي سلمة رضي الله عنه وقال: «اخرج في هذه السرية فقد استعملتك عليها» ، وعقد له  
لواء ، وقال: «سر حتى ترد أرض بنى أسد بن خزيمة فأغرس عليهم قبل أن تلاقى عليك  
جماعهم ، وأوصاه بتقوى الله عز وجل وبن معه من المسلمين خيرا»<sup>(٤)</sup>.

ب - قال عبد الله بن أنيس رضي الله عنه : (دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إنه بلغنى أن  
سفيان بن خالد بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني وهو بنخلة أو عرنة فأنه فاقته  
فقلت: يا رسول الله صفة لمحت أعرفه ، فقال: «آية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته  
هبيه ، وفرقت منه ، ووجدت له قشريرة ، وذكرت الشيطان» . قال عبد الله : وكنت  
لا أهاب الرجال . فقلت: يارسول الله! ما فرقتك من شيءٍ قط. فقال: «بلى ، آية ما  
بينك وبينه ذلك أن تجد له قشريرة إذا رأيته»<sup>(٥)</sup>.

ومضي ابن أنيس رضي الله عنه ونفذ مهمته كما مر معنا من قبل.

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٨ .

(١) المغارى للنهاى : ١٦٠ .

(٤) المصدر نفسه / ٤ / ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) المصدر نفسه / ٤ / ٣٦ .

(٥) المصدر نفسه / ٤ / ٥٧ .

جـ - سرية عمرو بن أمية وسلمة بن أبي أسلم لقتل أبي سفيان: (فقال رسول الله ﷺ لعمرو بن أمية الصمرى ولسلمة بن أسلم بن حريش: « اخرجنا حتى تأتينا أبو سفيان ابن حرب ، فإذا أصببنا منه غرة فاقتلاه ») (١).

وشهدنا تفاصيل السرية من قبل ، وكيف فاتهما قتل أبي سفيان ، لكن عمراً روى <sup>رسول الله</sup> أنقذ خشبة خبيب <sup>رسول الله</sup> التي قتل وصلب عليها ، ثم غيبته الأرض معها ، وكيف قتل أربعة من المشركين وهو قادم في طريقه .

#### الخط العاشر: التربية بالقدوة :

لقد كان عليه الصلة والسلام كواحدٍ من أصحابه ، وإذا حل الخطر بال المسلمين فهو في قلب الخطر وهو أقرب ما يكون من العدو .

وهذه نماذج من ذلك :

أـ قال على <sup>رسول الله</sup> : لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله وكان أشد الناس يأساً (٢) .

وفي رواية عند الإمام أحمد عن على <sup>رسول الله</sup> قال : ( كنا إذا أحمر البأس ولقي القوم القوم ، اتقينا برسول الله <sup>رسول الله</sup> ، مما يكون من أحد أدنى إلى القوم منه) (٣) .

بـ - روى البيهقي عن المقداد بن عمرو <sup>رسول الله</sup> ذكر حديثاً في يوم أحد ، وقال: فأوجعوا والله فيما قتلاً ذريعاً ، ونالوا من رسول الله <sup>رسول الله</sup> ما نالوا ، ألا والذى بعثه بالحق إن (٤) زال رسول الله <sup>رسول الله</sup> شبراً واحداً ، وإن له فى وجه العدو ، ويفنى إليه طائفة من أصحابه مرة وتفترق مرة عنه ، فربما رأيته قائماً يرمى عن قوسه ، ويرمى بالحجر حتى تهاجزوا ، وثبت رسول الله <sup>رسول الله</sup> في عصابة ثبت معه (٥) .

وقال محمد بن عمر: ( ثبت رسول الله <sup>رسول الله</sup> مكانه ما يزول قدمًا واحدًا بل وقف في وجه العدو ، وما يزال يرمي عن قوسه حتى تقطع وتره ، وبقيت في يده منه قطعة تكون شبراً في سبة القوس ، فأخذ القوس عكاشه بن محسن ليوتره له ، فقال: يا رسول الله لا يبلغ الوتر . فقال: « مُدْهَ فَيْلِغُ » ، قال عكاشه: فوالذى بعثه بالحق ملدوته حتى بلغ ، وطوبت منه ليتين أو ثلاثاً على سبة القوس ، ثم أخذ رسول الله <sup>رسول الله</sup> قوسه ، فما

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٣ / ٦٩ .

(٢) إسناد الإمام أحمد ١ / ١٥٦ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٢٩١ ، ٢٩٢ .

زال يرمى به وأبو طلحة يستره متربساً حتى تحطم القوس، وصارت شظايا، وفنيت نبله.. ورمى بالحجارة، وكان أقرب الناس إلى العدو<sup>(١)</sup>.

جـ - وروى الإمام أحمد وابن سعد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير وكان أبو لبابة وعلى زميلي رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وكان إذا كانت عقبة رسول الله صلوات الله عليه وسلم (أى نوبته في السير وقيادة البعير بزميليه) قالا: اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك ، فيقول: « ما أنتما بأقوى مني على المشي ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكم » .

قال في البداية: وهذا قبل أن يرد رسول الله صلوات الله عليه وسلم أبو لبابة من الروحاء ثم كان زميلاه علياً وزيداً<sup>(٢)</sup> .

#### الخط الحادى عشر: التضحية بأقرب الناس إليه :

فعندما يكون خطر الموت قائماً فأقرب المقربين له هم أبطال المواجهة.

وهذه نماذج من ذلك :

أـ - قال ابن عقبة وابن سعد وابن عائذ: ولما طلب القوم المبارزة وقام إليهم الثلاثة (من الأنصار) استحبى رسول الله صلوات الله عليه وسلم من ذلك، لأنه أول قتال التقى فيه المسلمون والمرشكون ، ورسول الله صلوات الله عليه وسلم شاهد معهم، فاحب رسول الله أن تكون الشوكة لبني عمه وقومه فقالوا: من أنت؟ قالوا: رهط من الأنصار. فقالوا: أκفاء كرام ، مالنا بكم من حاجة . ثم نادوا : يا محمد ، أخرج لنا أκفاءنا من قومنا ، فناداهم رسول الله صلوات الله عليه وسلم: « ارجعوا إلى مصافكم وليقم إليهم بنوعهم » .

قال ابن إسحاق : فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: قم يا عبيدة بن الحارث<sup>(٣)</sup> وقم يا حمزة<sup>(٤)</sup> ، وقم يا على<sup>(٥)</sup> - وكان على معلمًا بصوفة بيضاء - فقاتلوا بحقكم الذي بعث به نبيكم إذ جاؤوا بياطليم ليطفئوا نور الله ، فلما قاموا ودنوا معهم قالوا: من أنت؟ تكلموا ، فقال عبيدة : أنا عبيدة ، وقال حمزة : أنا حمزة ، وقال على : أنا على . قالوا : نعم أκفاء كرام . فبارز عبيدة ، وكان أحسن القوم عنبة بن ربيعة ، وباز حمزة شيئاً ، ويبارز على الوليد بن عنبة . فاما حمزة فلم يمهل شيئاً أن قتلها ، وأما على فلم

(١) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٢٩١ ، ٣٩٢ . (٢) المصدر نفسه ٤ / ٤٠ ، ٤٠ .

(٣) عبيدة هو ابن عم رسول الله صلوات الله عليه وسلم الحارث بن عبد المطلب.

(٤) حمزة: هو عمه وأخوه من الرضاعة. (٥) على: هو ابن عمه وأخوه في الدنيا والآخرة.

يمهل الوليد أن قتله ، وانختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلهاما أثبت صاحبه ، وضرب شيبة رجل عبيدة فقطعها ، وكر حمزة وعلى بأسيافهم على عتبة فدققا عليه واحتملوا صاحبها .

ب - سرية زيد بن حارثة إلى القردة : (فخرج <sup>(١)</sup> بهم على طريق ذات عرق ، فبلغ رسول الله ﷺ أمرهم ، فأرسل زيد بن حارثة في مائة راكب فاعتربوا لهم بالقردة فأصابوا العير ، وأفلت أعيان القوم ، وأسرروا رجلين أو ثلاثة ، وقدموا بالعير على رسول الله ﷺ فخمسها ، فبلغ الخمس قيمة عشرين ألف درهم ، وقسم الباقى على أهل السرية ) <sup>(٢)</sup> .

لقد كان زيد بن حارثة آنذاك هو زيد بن محمد حيث تبناه - عليه الصلاة والسلام - ولم يكن التبني حرم يومئذ ، وكانت السرية إلى أرض العراق سيراً في مجاهيل وبيد لا يقطعها إلا الرجال الأشداء .

وليس سرية أبي سلمة بن عبد الأسد التي تحدثنا عنها من قبل إلا نموذجاً من ذلك ، فأبُو سلمة ابن عمّة رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة ، ولم ينته الأمر عند قيادتهم للسرايا ومبارزتهم للخصوم ، فقد سقط هؤلاء القادة شهداء في سبيل الله . فهذا عبيدة بن الحارث يستشهد في بدر ، وذاك حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله يستشهد في أحد ، وذاك أبو سلمة بن عبد الأسد يستشهد على أعقاب جراحه في أحد .

#### الخط الثاني عشر: التربية بالقدوة في استئصال العادات الجاهلية :

فقد اختار رسول الله ﷺ ابنة عمته زينب ليقضى بزواجها على فوارق النسب ، وزوجها من مولاه زيد بن حارثة .

قال العوفى عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهم - قوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ <sup>(٣)</sup> الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد ابن حارثة رسول الله فدخل على زينب بنت جحشن الأسدية - رضى الله عنها - فخطبها . فقالت : لست بناتك حتى ، فقال رسول الله ﷺ : « بلى فانك حيه » . قالت : يارسول الله

(١) الذى خرج بقافلة قريش ( فرات بن حيان العجلان ) خبير الصحراه .

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ ، ٥١ .

(٣) الأحزاب / ٣٦ .

أُوامر في نفسي؟ ففينما هما يتحدثان أُنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » (١) . قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منك حًا؟ قال رسول الله ﷺ : «نعم». قالت: إذن لا أعصي رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسي (٢) .

واختاره الله تعالى ليتزوج مطلقة متبناه ليقضي على عادة التبني:

عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي بن الحسين - رضي الله عنهم - ما يقول الحسن: في « وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبِدِيهِ » (٣) فذكرت له. فقال: لا، ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد رَجُلَةً ليشكوها إليه ، قال: « اتق الله وأمسك عليك زوجك » ، فقال: قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه، وهكذا روى عن السدى أنه قال نحو ذلك (٤) .

### الخط الثالث عشر: تربية المنافقين :

هذه الظاهرة الخطيرة التي برزت في الصف الإسلامي، وكان يمكن لها أن تودي بالصف الإسلامي كله، لو لا عظمة التربية القرآنية والنبوية التي فلّشت حزبهم وفتّته.

وذلك من خلال الخطوات والأساليب التالية:

أـ استبعاد قتلهم ابتداء: عن زيد بن ثابت قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد رجع ناس خرجوا معه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فرقين، فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم. فنزلت: « فِيمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَتَبْغُونَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلُ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا » (٥) متفق عليه (٦) .

وقال محمد بن عمر : ( فمشى - أى عمر بن الخطاب - إلى رسول الله ﷺ ليستأذنه في قتل من سمع ذلك منه من اليهود والمنافقين ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عمر، إن الله مظهر دينه، ومعز نبيه، ولليهود ذمة فلا أقتلهم ». قال: فهو لاء المنافقون يا رسول

(١) الأحزاب / ٣٦ .

(٢) الأحزاب / ٣٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٥ / ٤٦٧ وأوضحت الآية أن المطلوب هو القذوة حيث قال عز وجل في نهايتها « ... لَكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَذْعَانِهِمْ إِذَا قَعَدُوا مِنْهُنَّ وَطَرَا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مُقْرُولاً » .

(٤) المغارizi للذهبي : ١٦٧ .

(٥) النساء / ٨٨ .

الله: فقال رسول الله ﷺ: « أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟ » قال: بلى يا رسول الله، وإنما يفعلون ذلك تعوداً من السيف، فقد بان لك أمرهم وأبدي الله أضفانهم عند هذه النكبة ، فقال رسول الله ﷺ: « نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» (١) .

ب - مفاصلتهم: ( وقال ابن أبي نجح عن مجاهد : « مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْغَيْبَ مِنَ الظَّيْبِ » (٢) وقال: ميزهم يوم أحد ) (٣) .

وعندما خرج عليه الصلاة والسلام لمواجهة المشركين في حمراء الأسد ، بعد أحد بيوم واحد ( أمر بلاً أن ينادي: أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس . . . . وقال ابن عقبة: وأتى عبد الله بن أبي رسول الله ﷺ فقال: أنا راكب معك ، فقال: « لا » .

قال ابن إسحاق وابن عمر: ( وأتى جابر بن عبد الله رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، إن مناديك نادى : أن لا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس ، وقد كنت حريصا على الحضور ، ولكن أبي خلفني . . . ) (٤) .

ج - فتح صفحة جديدة معهم: وذلك بعد مرور ستين من المفاصلة؛ ليتاح لهم تكفير أخطائهم وتغيير مواقفهم حيث أتيح لابن أبي زعيمهم أن يحضر غزوة بنى المصطلق ، وهي أول غزوة يحضرها بعد غزوة أحد.

وقدّر الله تعالى أن يفضح ثانية على رؤوس الخلاقين إلى يوم الدين ، في موقفه الذي نال به من رسول الله ﷺ ومن المسلمين ، حيث كان آئنا من نقل حديثه فأركان حزبه العشرة كانوا معه ، ولم يتبعه إلى ذلك الصبي الصغير زيد رضي الله عنه والذي كان في إيمانه أكبر من التفاق كلّه.

د - فضحهم من خلال القرآن الكريم دون ذكر أسمائهم: إذ جاءت سورة (المافقون) كلها تتحدث عن جرائمهم، وبقيت قرأتنا يتلى إلى يوم القيمة ، وكان رسول الله ﷺ يقرؤها يوم الجمعة دائمًا على رؤوس الأشهاد ، حتى يكتبهم ، ويحول دون أن يخدع بهم أحد.

ه - امتناع النبي ﷺ عن قتل قائدتهم الذي ثبت جريمته بنص القرآن: وقد أبدي

(١) المغارى للواقدى ١ / ٣١٨ .

(٢) آل عمران / ١٧٩ .

(٣) المغارى من تاريخ الإسلام للنعمى : ١٦٧ .

(٤) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٤٣٩ .

ابن عبد الله بن أبي المؤمن العظيم استعداده لقتل أبيه بأمر رسول الله ﷺ : (بلغنى يا رسول الله أنت قاتل أبي ، فإن كنت لا بد فاعلاً فأنا آتاك برأسه).

و- ترك عقوبته للمؤمنين من قومهم: حيث قام عبد الله بن عبد الله بن أبي تونثة بتنفيذ هذا الإذلال له ، وهو الذى لم تعرف الأنصار أبى بأبيه منه ، ووضع السيف على عنق أبيه وقال :

والله لن تجوز - تدخل المدينة - حتى يأذن لك رسول الله.

وفي رواية : (حتى تقول بأنك أنت الذليل وأن محمداً هو العزيز) .

ز- قتلهم المعنى: حيث انقض الكثير من أتباع عبد الله بن أبي عنه، بعد افتضاح موقفه، وتقلص حزبه، ولجأ إلى المؤامرات بالخفاء والسر بعد التحدى السابق لله ولرسوله، وأصبح من كان حوله على استعداد لقتله ، لو أمرهم رسول الله ﷺ بذلك.

(وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحديث كان قومه الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلت يوم قلت لي: اقتلها ، لارعدت له آنفاً لو أمرتها اليوم بقتلها » . قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى ) (١) .

الخط الرابع عشر: المحافظة على السمعة السياسية والعسكرية :

وهي تدخل في صميم التربية. ونقدم نموذجين لذلك :

النموذج الأول: يوم قال الفاروق عمر تونثة لرسول الله ﷺ بشأن ابن أبي: مر به عباد بن بشر فليقتله.

فقال له رسول الله ﷺ: « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » (٢) .

إنها المحافظة التامة على السمعة السياسية، والفرق كبير جداً بين أن يتحدث الناس عن حب أصحاب محمد محمداً، ويركدون على ذلك بلسان قائدتهم الأكبر أبي سفيان:

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٠٦/٣ .

(٢) المصدر نفسه ٤٠٣/٣ .

ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد مخدداً<sup>(١)</sup> . وبين أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، ولا شك أن وراء ذلك محاولات ضخمة ستم في محاولة الدخول إلى الصف الداخلي في المدينة من العدو ، بينما هم يائسون الآن من قدرتهم على شيء أمام ذلك الحب وتلك التضحيات.

النموذج الثاني : المحافظة على السمعة العسكرية ، وذلك في إصراره - عليه الصلاة والسلام - على الخروج إلى بدر الموعد .

ولو كان سيخرج وحده ، وكيف تخاذلت قريش ، وانهارت سمعتها على إثر ذلك ، وفي نزوله إلى عسفان ، وبعث أبي بكر والفرسان العشر إلى كراع الغميم ، وتحدث رسول الله ﷺ أن السبب في ذلك هو إرهاب قريش ، والمحافظة على السمعة العسكرية العالية للجيش الإسلامي :

« إن قريشاً قد بلغهم مسيري وأتى وردت عُسفان وهم يهابون أن آتיהם فاخرج في عشرة فوارس » ، فخرج أبو بكر فيهم حتى بلغ كراع الغميم ، ثم رجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ولم يلق أحداً فقال: « إن هذا يبلغ قريشاً فيذعرهم ، ويختلفون أن تكون نزيدهم »<sup>(٢)</sup> .

وكان هذا بعد محتلة أحد بثمانية أشهر ، وذلك للرد على ادعاءات قريش وانتصاراتها.

#### الخط الخامس عشر: بث الدعاة لنشر الدعوة :

ورغم أن هؤلاء الدعاة جمِيعاً قد قتلوا لكن الأصل هو الحرص على نشر الدعوة في إسلام الناس هو الهدف الرئيسي ، وليس قتلهم ، غير أن الطواغيت الذين يحكمونهم هم الذين يتحولون بين وصول الدعوة إليهم ، فما أن سنتحت سانحة لرسول الله ﷺ إلا وعوا خيرة أصحابه لنشر دعوته .

( فعن محمد بن إسحاق قال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة .. فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك ، يفهوموننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شعائر الإسلام . فبعث رسول الله ﷺ معهم نفراً ستة من أصحابه وهم: مرثد بن أبي مرثد العنوي حليف حمزة بن عبد المطلب ، وخالد بن الباري الليشي حليف بنى عدى ابن كعب ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلع .. وخبيب بن عدى .. وزيد بن الدئنة .. )

(١) السيرة النبوية لأبي هشام ٣/٤٥ . (٢) المغارى للواقدى ٢ / ٥٣٦ .

وعبد الله بن طارق (وهؤلاء من الأنصار) وأمّر عليهم مرثد بن أبي مرثد... )<sup>(١)</sup> .  
 وبالهدف نفسه أرسل رسول الله ﷺ القراء السبعين لأهل نجد، وهي أكبر كتبية  
دعوية مضت لتنشر هذا الدين في أكبر قبائل العرب.

قال ابن إسحاق: ( حدثني أبي إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمن بن  
الحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم ، وغيره من أهل العلم قالوا:

قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر - ملاعب الأسنة - على رسول الله ﷺ  
المدينة، فعرض عليه رسول الله الإسلام، ودعاه إليه، فلم يسلم ولم يبعد عن  
الإسلام، وقال: يا محمد ، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى  
أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك. فقال رسول الله ﷺ: «إنى أخشى عليهم أهل نجد ».  
قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعهم فليدعوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة المعتق ليموت في أربعين  
رجالاً من أصحابه من خيار المسلمين، منهم الحارث بن الصمة، وحرام بن ملحان ،  
وعروة بن أسماء، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر  
الصديق ، في رجال مسمين من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا ببشر معونة ، وهي  
بين أرض بني عامر وحرة بني سليم كلا البلدين منها قريب ، فلما نزلوها بعثوا حرام  
ابن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيلي ، فلما أتاهم لم ينظر في  
كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بني عامر ، فأبوا أن يجيئوه إلى ما  
دعاهم إليه ، وقالوا: لن نخفر أبا براء ، وقد عقد لهم عقداً وجواراً . فاستصرخ عليهم  
قبائل من بني سليم من عصبية ورجل وذكون ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوها حتى غزوا  
القوم فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيفهم ، ثم قاتلوهم حتى قتلوا  
من عند آخرهم - يرحمهم الله - إلا كعب بن زيد ، فإنهم تركوه وبه رقم فارت من  
بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً - يرحمه الله )<sup>(٢)</sup> .

صحيح أنهم لم يدعوا بلسانهم ، لكنهم دعوا بدمائهم ، وانتشرت أخبار ثباتهم ،  
وحجتهم لرسول الله ﷺ وحبهم للموت ، واعتباره فوزاً لهم ، وكرامتهم فيمن صعد إلى  
السماء ، أو جاءه القطف من العنبر ، وصارت أحاديث السماء في المضارب العربية ،  
وكوّنت أرضية لهذا الدين في أعماق العرب ، وأن محمداً وأصحابه طراز فريد من

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٤٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ٣ / ٢٦٠ ، ٢٦١ وهو عند البخاري ومسلم .

البشر، وثقلهم بدينهم وتمسکهم به، واستعدادهم للموت في سبيله يفوق كل وصف.  
لقد زرعت البذرة الأولى في نفوس العرب نحو الإسلام، وهم يحاولون قتلها،  
لكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولكل أجل كتاب.

#### الخط السادس عشر: تحويل الفانكين المحاربين إلى دعاة مؤمنين :

فهذه الطاقات الرهيبة التي تتجند لصالح الشرك، لو أتيح لها أن تفقه الإسلام  
لتحولت إلى جنود في دعوة الله - عز وجل - وهذا ما حرص عليه رسول الله ﷺ أن  
يقع، بحيث يبقى هم الأول إيصال النور إلى قلوب المحاربين قبل إيصال السيف إلى  
أعنقهم.

فهذا عمير بن وهب - الملقب بشيطان قريش - يأمر سيفه فشحد له وسمًّا، ثم  
انطلق إلى المدينة ليقتل رسول الله ﷺ ، ولما وصل إلى المدينة (دخل عمر على رسول  
الله ﷺ فقال: يا نبي الله ، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه .  
قال: « فأدخله على ». فأتى عمر حتى أخذ بحملة سيفه في عنقه فلقيه بها ، وقال  
لرجال من كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده.  
واحدروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ ،  
فلما رأه رسول الله ﷺ وعمر أخذ بحملة سيفه في عنقه. قال : « أرسله يا عمر، ادن  
يا عمير ». فدنا ، ثم قال: انعموا صباحاً - وكانت تجية أهل الجاهلية بينهم. فقال  
رسول الله ﷺ : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، السلام تجية أهل  
الجنة »، فقال: أما والله يا محمد ، إن كنت بها لحديث عهد. قال: « فما جاء بك  
يا عمير؟ » قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه. قال: « فما بال  
السيف في عنقك؟ » قال: قبحها الله من سيف ، وهل أغنت عنا شيئاً: قال:  
« أصدقني ، ما الذي جئت له؟ » قال: ما جئت إلا لذلك ، قال: « لا بل قعدت أنت  
وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتني أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لو لا دين  
على وعيال لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل صفووان بدينك وعيالك ؛ على أن تقتلني  
له ، والله حائل بينك وبين ذلك » قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول  
الله نكذبك بما تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم  
يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنني لا أعلم ما أثارك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني  
للإسلام ، وساقني هذا المساق. فقال رسول الله ﷺ : « فقهوا أنحاكم في دينه ، وأقرئوه  
القرآن ، وأطلقوا له أسيره » ، ففعلوا ثم قال: يا رسول الله ، إنني كنت جاهداً على  
إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله ، وأنا أحب أن تاذن لي ، فأقدم مكة ،

فأدعوهم إلى الله تعالى ، والى رسوله ﷺ ، والى الإسلام لعل الله يهديهم ، والاًذية لهم في دينهم كما كنت أؤذى أصحابك في دينهم ، فاذن له رسول الله ﷺ فل الحق بحكة... فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالقه أذى شديداً . فاسلم على يديه ناس كثير ) (١) .

والحادثة في غنى عن أي تعليق . وهذه الحادثة الثانية:

( كان أبو سفيان بن حرب قد قال لنفر من قريش بمكة : ما أحد يقتل محمدًا ، فإنه يمشي في الأسواق فتدرك ثارنا . فاتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله ، وقال له : إن أنت قويتني خرجت إليه حتى أغتاله فإني هاد بالطريق خربت ، ومعي خنجر مثل حافية النسر ، قال : أنت صاحبنا ، فأعطيه بغيراً ونفقته ، وقال : اطوا أمرك ، فإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فيتمه إلى محمد ، قال العربي : لا يعلم به أحد... فدخل - على محمد ﷺ - فلما رأه رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « إن هذا الرجل يريد غدرًا والله حائل بينه وبين ما يريد » . فوقف فقال : أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنا ابن عبد المطلب » ، فذهب ينحدر على رسول الله ﷺ كأنه يساره فجده أسد بن حضير وقال له : تぬ عن رسول الله ﷺ ، وجد بداخلة إزاره ، فإذا الخنجر فقال رسول الله ﷺ : « هذا غادر » وسقط في يدي العربي . وقال : دمي يا محمد ، وأخذ أسد يلقي ، فقال رسول الله ﷺ : « أصدقني ما أنت؟ وما أقدمك؟ فإن صدقتي نفعك الصدق ، وإن كذبتي فقد أطلعتُ على ما هممت به ». قال العربي : فانا آمن؟ قال : « فأنت آمن » ، فأخبره بخبر أبي سفيان وما جعل له ، فأمر به فحبس عند أسد ، ثم دعا به من الغد فقال : « قد أمنتك فاذهب حيث شئت ، أو خير لك من ذلك ! » ، قال : وما هو؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » قال : فإنيأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، والله يا محمد ، ما كنت أفرق الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلى ، وضاعفت نفسى ، ثم اطلعت على ما هممت به مما سبقت به الركبان ، ولم يعلمه أحد ، فعرفت أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان ، فجعل النبي ﷺ يبتسم ، وأقام أيامًا ثم استاذن النبي ﷺ فخرج من عنده فلم يسمع له بذكر ) (٢) .

#### المخط السابع عشر: الزواج طريق لنشر الدعوة :

وتحدثنا عن هذا الزواج عائشة - رضي الله عنها - ضرة جويرية - رضي الله عنها - فتقول : ( لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث -

(٢) دلائل النبوة لابن مثام / ٢ ٣٧٤ .

(١) السيرة النبوية لابن حبّان / ٣ ٣٣٤ .

سيد بنى المصطلق - في السهم ثابت بن قيس بن الشمام أو لابن عم له ، فكتابته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحة ، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها ، قالت عائشة : فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها ، وعرفت أن سيرى منها ﷺ ما رأيت ، فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوّقعت في السهم ثابت بن قيس أو لابن عم له فكتابته على نفسى ، فجئتك أستعينك على كتابتى ، قال : «فهل لك من خير من ذلك؟» قالت : وما هو يا رسول الله؟ قال : «أقضى عنك كتابتك وأتزوجك» قالت : نعم يا رسول الله ، قال : «قد فعلت» .

قالت : وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية ابنة الحارث ، فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ وأرسلوا ما في أيدهم قالت : فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيته من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها<sup>(١)</sup> .

صحيح أن الرواية لم تتحدث عن إسلام بنى المصطلق ، فنأخذ الرواية الثانية التي روتها ابن هشام ، وتحدث فيها عن إسلام الحارث وبعض قومه ، والثابت أن بنى المصطلق جميعاً دخلوا في الإسلام ، بعد إسلام سيدتهم الحارث بن أبي ضرار ، وفيهم نزل قول الله عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُضِبِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِين﴾<sup>(٢)</sup> .

حيث جاء الحارث وقدم صدقاته ، وصدقات قومه للنبي - عليه الصلاة والسلام . لقد كان الزواج هو الذي كسر أقفال هذه القلوب التي أنعم عليها بالعتق إكراماً لرسول الله ﷺ وذلك قبل أن تدخل في الإسلام ، وفتحت مغاليق القلوب له على ضوء هذه المعاملة .

#### الخط الثامن عشر: الاستفادة من الطاقات الجديدة :

هناك من أسلموا قبيل بدر وأحد ، ودخلوا المعركة ، وبعضهم استشهد فيها ، وهذا عمرو بن أمية الضمري يسلم بعد أحد ، فيبعثه رسول الله ﷺ خلال أشهر عيناً وحده

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، وقال المحقق فيه : «حديث حسن» .

(٢) الحجرات / ٦ .

إلى مكة لينفذ جثة خبيب رضي الله عنه وليرغث أبا سفيان بن حرب ، فخبيب بن يساف رضي الله عنه يقول: أتيت رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وهو يرید غزواً، أنا ورجل من قومي لم نسلم فقلنا: إننا نستحب أن يشهد قومنا مشهداً لا نشهده. قال: « أسلمتما؟ » ، قلنا: لا، قال: « إننا لا نستعين بالشركين على المشركين » ، فأسلمتنا، وشهادنا معه، فقتلـت رجلاً، وضربني ضربة، وتزوجـت ابنته بعد ذلك <sup>(١)</sup> .

#### الخط التاسع عشر: القضاء على العصبية الجاهلية وتصعيد مفهومها :

وهي التي برات أشد ما تكون في بني المصطلق، وقد برات مرة واحدة قبل بدر، وحدينا عن هذه المرحلة:

بينما المسلمين على ماء المرسيع وقد انقطع الحرب، وهو ماء ظنون <sup>(٢)</sup> إنما يخرج في الدلو نفسه، أتى سنان بن وير الجهنمي وعلى الماء جمع من المهاجرين والأنصار فأدلى دلوه، وأدلى جهجاه بن مسعود الغفارى أجير عمر بن الخطاب دلوه، فالتبست دلو سنان ودلو جهجاه، وتنازعوا فضرب جهجاه سنانًا فسال الدم. فنادى سنان: يا للأنصار، ونادى جهجاه: يا للمهاجرين، وفي لفظ: يالقريش، فأقبل جمع من الحسين، وشهروا السلاح حتى كادت أن تكون فتنة عظيمة، فخرج رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه فقال: « ما بال دعوى الجاهلية؟ » فأخبر بالحال فقال: « دعواها فإنها متنة، ولينصر الرجل أخاه ظالماً كان أو مظلوماً فإن كان ظالماً فلينته، وإن كان مظلوماً فلينصره » <sup>(٣)</sup>. وإن جماعة من المهاجرين كلموا عبادة بن الصامت، وجماعة من الأنصار كلموا سنانًا فترك حقه.

كلمة واحدة من فم النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه أوقفت حرباً: « دعواها فإنها متنة ». ولا تزال الأمة اليوم تعج بهذه العصبيات القبلية والوطنية والقومية ، وتفترق أحزاباً وطوائف وشيعاً ودولًا. وهي أعجز من أن تحـل شيئاً من هذه العصبيات، بل تزداد اشتعالاً وحرقاً لكيان الأمة وتكوينها، بل ويصطلي الدعاة بثارها مثل غيرهم، فيتوزعون منازع شتى. ويعصبـهم ما يصيب مجتمعهم الجاهلي من نكسـات وتقـزـ وخلافـات ، وهم الأمل المرجـي بإحياء الأمة.

ويصعد النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه مفهوم النصر، فنصر الظالم هو كفـه عن ظلمـه، فهو نصرـه على نفسه وعلى شـيطـانـه وعلى عـصـبيـته، ونصرـ المـظلـومـ عـونـه ، ولو كانـ منـ غـيرـ قـبـيلـتهـ ولو

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢ / ٥٠١ ، وقد أخرجه أـحمد وـابـنـ سـعد .

(٢) ماء ظنون: ماء قليل.

(٣) هذا المعنى هو نفس حديث رواه الإمام أـحمد والـبخارـي والـترـمذـي: « اـنصـرـ أـخـاكـ ظـالـماًـ أوـ مـظلـومـاًـ ». قـيلـ: كيفـ أـنصـرـ ظـالـماًـ؟ قالـ: « تـحـجزـهـ عـنـ الـظـلـمـ فـإـنـ ذـلـكـ نـصـرـهـ » .

كان من غير عشيرته، فأخوة الإسلام هي الميزان التي يوزن بها الناس والأشخاص والقيم والأعراف، والعصبية عصبية ، سيان كانت في الإسلام أو الجاهلية ، فهي في الجاهلية بين أوس وخرج أو بين قبيلة وأخرى، وهي في الإسلام بين المهاجرين وبين الأنصار ، وكلا الكلمتين مستحدثتان في ظل النبوة ، ومع ذلك فقد اعتبرها - عليه الصلاة والسلام - عصبية جاهلية. وقال عنها: « دعواها فإنها متنّة » ، وليس عصبية الاتباع للجماعات الإسلامية اليوم ، والتي تقوم على نصرها ظالمة أو مظلومة بالفهم الجاهلي ، إلا صورة عفنة من هذه الصور.

#### الخط العشرون: القضاء على الخونة المتماليئين مع العدو :

فعصماء بنت مروان التي كانت تعيب الإسلام وتؤذى رسول الله ﷺ وتحرض عليه وتقول الشعر، وتطرح المحايض في مسجد بنى خطمة، أهدر رسول الله ﷺ دمها فقتلها عمير بن عدي ، وأبو عفك اليهودي الذي كان يحرّض على رسول الله ﷺ ويقول الشعر ، وقد نجم نفاقه قصد إليه سالم بن عمير ، فقتله بعد أن قال عليه الصلاة والسلام: « من لى بهذا الحديث؟ » .

وكعب بن الأشرف ، وكان شاعراً يؤذى رسول الله ﷺ وبهجوا الصحابة - رضي الله عنهم - ويحرّض عليهم الكفار ، وقد مضى إلى مكة بعد بدر يحرضها ، وبيكى قتلاها لعلهم يتدبون ويخرجون معه لغزو رسول الله ﷺ - وراح يشّبّ بالنساء المسلمات ، وخاصة بأم الفضل زوج العباس عم النبي ﷺ . فقال عليه الصلاة والسلام: « من لى بكمب بن الأشرف فقد آذى الله ورسوله » ، وفي رواية « فقد آذانا بشره وقوى المشركين علينا ». فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله. قال: « أنت له فافعل إن قدرت على ذلك » .

ولابد من الإشارة أن عملية القتل هذه جزء من التربية، فيقاء هؤلاء الخونة يسرحون ويمرحون ويبثون الشبهات، وينالون من الإسلام والمسلمين، يعني : أن التربية النبوية تقاوم وتعاق، ويعنى : أن لهؤلاء الخونة شوكة يلجم إلية ضعاف النفوس، ويكونون جيوباً خائنة داخل المجتمع الإسلامي، وينشرون الشبهات والإشاعات في شعرهم وحديثهم ، فيصبح المجتمع الإسلامي نهبة للزعازع، تهب عليه الرياح من كل مكان، والعدو يتربص به من كل جانب ، يود أن ينفذ إلى ثغرة فيه، فلو بقيت هذه الثغرات لأنهار المجتمع الإسلامي ، وتهاوت حصونه وتمزق الولاء عند أفراده بين الجاهلية والإسلام والعصبية ، والمجتمع الإسلامي النموذج يقبل الحوار والجدال ،

فَلِأَهْلِ الْكِتَابِ حَقُّهُمْ فِي الْوُجُودِ فِي هَذَا الْمَجَمُوعِ ، وَالْقُرْآنُ يَدْعُونَا إِلَى جَدَالِهِمْ بِالْتِقْنَى  
هِيَ أَحْسَنُ ، وَمَا دَعَا إِلَى الْحَوَارِ مَرَّةً إِلَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلُ مَنْ يَلْبِسُ .

وَقَدْ دَعَاهُمْ إِلَى الْحَوَارِ مَرَّاتٍ فَخَنْسُوا ، وَكَثِيرًا مَا يَعْرِضُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ نَمَادِجَ مِنْ  
هَذَا الْحَوَارِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ ، لَكِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ هُؤُلَاءِ ، وَهُمْ مَوَاطِنُونَ فِي الدُّولَةِ  
الْمُسْلِمَةِ ، يَجِبُ أَنْ يَكُونُ وَلَاؤُهُمْ لَهَا لَا لِأَعْدَانِهَا ، وَإِلَّا فَقَدُوا حَقَّ الْمُوَاطِنَةِ ، وَعَلَى  
هَذَا كَتَبُوا الْمَوَاثِيقَ وَالْعَهُودَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ . أَمَّا التَّشْهِيرُ وَالنَّيلُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالاعْتِصَامُ  
بِالْعَدُوِّ وَالْتَّعَاوُنِ مَعَهُ ، وَتَحْدِي الْمُسْلِمِينَ فِي مَشَاعِرِهِمْ وَشَعَائِرِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ فَهُوَ أَمْرٌ أَخْرَى .  
إِنْ حَرَيْةَ الْعِقِيدَةِ مَكْفُولَةٌ لِلْجَمِيعِ ، وَحَرَيْةَ الرَّأْيِ الْآخَرِ وَالْحَوَارِ مَعَهُ سَمَّةٌ مِنْ سَمَّاتِ  
هَذَا الدِّينِ ، لَكِنْ هَجَاءُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ وَتَحْرِيْضُ عَدُوِّهِ عَلَيْهِ ، وَالْتَّعَاوُنُ السَّافِرُ مَعَهُ  
أَمْرٌ أَخْرَى ، يَعْلَجُ بِالصُّورَةِ الَّتِي تَخْسِمُهُ مِنْ جُذُورِهِ وَتَهْدِمُهُ فِي أُوكَارِهِ .

**الخط الحادى والعشرون : العدل المطلق الذى قامت به السموات والأرض :**

فَاللَّهُ تَعَالَى يَعَاذُبُ رَسُولَهُ ﷺ مِنْ أَجْلِ مَظْلَمَةٍ وَقَعَتْ عَلَى فَرَدٍ يَهُودِيٍّ أَعْزَلٍ،  
وَيَتَرَكُ قُرْآنًا بِذَلِكَ يَتَلَقَّى إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ لِيَكُونَ درَسًا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَرْضِ :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلنَّاسِ  
خَصِيمًا . وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَلَا تُجَادِلْنَاهُ عَنِ الدِّينِ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ  
الَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴾ (١) .

فِرَبِّهِ تَعَالَى يَدْعُوهُ إِلَى الْاسْتَغْفَارِ وَيَنْهَاهُ - بِأَبِيهِ هُوَ وَأَمِي - عَنِ الْجَدَالِ عَنِ الْأَنْصَارِ  
الَّذِينَ أَرَادُوا إِيْقَاعَ تَهْمَةِ السُّرْقَةِ بِهَذَا الْيَهُودِيِّ الْأَعْزَلِ ، وَهُوَ ﷺ لَا يَعْلَمُ الغَيْبَ ، وَقَدْ  
جَاءَ الْمُتَهَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَقَدْ وُجِدَتِ السُّرْقَةُ فِي بَيْتِ الْيَهُودِيِّ ، إِذَا وُضِعَتِ فِي لِإِثْبَاتِ التَّهْمَةِ  
عَلَيْهِ ، وَمَعَ كُلِّ هَذِهِ الْبَيِّنَاتِ فَلَمْ يَعْفُ رَبُّ الْعِزَّةِ - جَلَّ جَلَالَهُ - نَبِيُّهُ مِنَ الْعَتَابِ ، وَعَتَابِ  
الْرَّبِّ سَبْحَانَهُ لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَأَحَبِّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ ، لَيْسَ لِلْخَطَاةِ فِي الْحُكْمِ ، بَلْ لِعَلَهِ لِمَلِيهِ  
الْقَلْبِ فِي تَصْدِيقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَكْذِيبِ الْيَهُودِيِّ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَرِيدُ لَنَبِيِّهِ أَنْ يَكُونَ لِلْخَلْقِ  
كَافِي وَلِيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ فَقْطًا .

ثُمَّ كَانَ الْخَطَابُ بَعْدَهَا لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا فِي الْأَرْضِ ؛ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفْضِحُ الظَّالِمِينَ  
وَهُوَ حَرْبٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ حَمْلَةِ كَتَابِهِ وَمِنْ الْمُؤْمِنِينَ بِدِينِهِ ، فَرَاحَ الْقُرْآنُ يَصْفِ  
هُؤُلَاءِ الْمُتَوَاطِئِينَ : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعْهُمْ إِذَا يُبَيِّنُونَ مَا لَا

(١) النَّسَاءُ / ١٠٥ - ١٠٧ .

يرضى من القول وكان الله بما يعلمون محيطاً . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيمة أم من يكثون عليهم وكيلاً ) (١) وهو تهديد رعيب رهيب لهؤلاء الخونة، وقد سماهم القرآن خونة آثمین ، مثل الحديث عن خونة اليهود الذين صدر الحكم بقتلهم كما مر في الفقرة الآنفة الذكر. ويفسح لهم الفرصة الأخيرة للتوبة والاستغفار والإنابة قبل أن يسلخوا من هذا المجتمع : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا وَيَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ يَجِدُ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمًا . وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيَّنَا فَقَدْ احْتَمَلَ بِهَتَانَاهُ وَإِثْمًا مُبِينًا » (٢) أي بريء : مهما كان لونه وجنسه ودينه فهو بريء ولا يدان بالتهمة حتى ثبت عليه، والمتهم آياً كان جنسه ودينه ولو أنه فقد احتمل بهتانا وإثماً مبيناً ، ثم يعود إلى رسوله وحبيبه ومصطفاه ، فيحدثه بنعمته الله عليه وفضله ، أن أعلمه بالوحى المنزل بخيانته هؤلاء وتضليلهم : « وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهُمْ طَافِقَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُلُوكُمْ وَمَا يُضْلُلُنَّ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنَزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » (٣) كل هذا الفضل العظيم الذي أسبغه على رسوله أن حال دون مظلمة تقع على يهودي أعزل من حبيبه ومصطفاه :

« لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعُلْ ذَلِكَ أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسُوفَ تُؤْتَهُ أَجْرًا عَظِيمًا » (٤) .

والذى لا يقبل بحكم الله . ولا يقبل بعدالة الإسلام التي ترفض الظلم من جذوره كما قال - جل من قائل - في الحديث القدسى :

« يَا عَبَادِي ، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مَحْرُمًا فَلَا تَظَالِمُوا » (٥) .

الذى لا يرضى بالعدل المطلق الحالى فى هذا الوجود فليجد له أرضًا غير دولة الإسلام ، وهذا ما حدا بالأنصارى المتهم ، أن يرتد عن الإسلام ويهرب إلى مكة منضمًا إلى العدو ، فقال الله تعالى بحقه : « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى

(١) النساء / ١٠٨ ، ١١٢ - ١١٠ .

(٢) النساء / ١١٤ .

(٣) النساء / ١١٣ .

(٤) البخارى ومسلم وهو عند مسلم ٤ / ٢٥٧٧ (١٩٩٤) .

وَيَبْعِيْغُ غَيْرَ سَيْلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوكِهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ (١)

فإن إقامة العدل في دولة الإسلام مقدمة على سلامه الصف الداخلي، والعدل لفرد أعزل لا حول له ولا طول؛ لكن الله ناصره ولو كان يبغضه فلا يظلمه، ولا يرضي حبيبه ومصطفاه أن يظلمه.

وبهذا العدل قامت السموات والأرض.

### الخط الثاني والعشرون: رعاية حقوق أفراد الأمة :

وإذا راعت حقوق المواطنين العزل ، فلابد أن تكون رعاية الحقوق عامة خاصة بعد التضحيات العظيمة التي قدّمها الأنصار ، فالشهداء السبعون في أحد ، والشهداء السبعون في بدر معونة ، وشهداء الرجيع هي أكبر أرقام على الإطلاق في تاريخ النبوة ، ونشأ عن هذا الاستشهاد أوضاع كثيرة من الحقوق فأرامل الشهداء وأبناؤهم وذوى أرحامهم ، فنزلت سورة النساء تعالج هذه الأمور جميعاً في كل ما يتعلق بالزواج والطلاق والإرث والوصية ، فتدمل الجراح وتؤاسي النفوس ، وتحفظ حقوق الصغار والكبار من الضياع ، وتفتح صفحة جديدة أمام الأرامل لتعاود حياتها من جديد ، وتغض المؤمنين على التعدد ، لاحتضانهن فيعيش المجتمع كله أسرة واحدة يتبادل هناءه ومسراته ، ويتبادل أفراده وألامه ، ويقوم الحبيب المصطفى ﷺ على رأس هذا المجتمع السعيد ، فنساء الأنصار يُمضين ليتهن ي يكن على حمزة ؛ لأن حمزة لا بوأكي له ، ورسول الله ﷺ يكون القدوة ويتجاوز حبه الخاص وعواطفه العظيمة لعائشة لرعايتها المجتمع الكريم ، فيتزوج أم سلمة ، وزينب بنت خزيمة ، وحفصة بنت عمر ، وكلهن أرامل شهداء ، ويتحقق في قوله المصطفى - عليه الصلاة والسلام - : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكت منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهور » . فقد كانت هذه الصورة واقعاً حياً لهذا الجيل الفريد في التاريخ لم تشهد له البشرية مثلاً على الإطلاق.

وما قصة جمل جابر، ودين أبيه ورعايتها رسول الله ﷺ له عنا بعيد ، فهو ابن الشهيد العظيم عبد الله بن عمرو بن حرام .. وما جواب رسول الله ﷺ للشكلى العظيمة أم سعد بن معاذ : « يا أم سعد أبشرى وبشرى أهلهم : أن قتلهم ترافقاً في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهليهم ». قالت: رضينا يا رسول الله ومن يكى عليهم بعد هذا؟! يا رسول الله ادع لمن خلفوا ، فقال: « اللهم أذهب حزن قلوبهم ، واجبر

(١) النساء / ١١٥ ويراجع تفسيرها في الظلال .

مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خلقوا » أقول : ما هذه المواساة إلا ب باسمًا شافياً لجرحى القلوب ، أما جرحى الأبدان الذى يملؤون كل فج في المدينة ، فجاء حديث المصطفى ﷺ لهم شفاءً لجراحهم المتندقة ودمائهم المتفجرة : « وليس من مجروح إلا يأتي يوم القيمة جرحة كأغزر ما كان ، اللون لون دم والريح ريح مسك ، فمن كان مجرورًا فليقير في داره وليداؤ جرحة ولا يبلغ معنى بيته عزيمة مني » وإنما فسيضمنون جميعاً مع حبيهم المصطفى الجريح إلى بيته يصغون إليه ، ويستمعون منه ، فهو أغلى عليهم من كل شيء في حياتهم.

ومع رعاية الحقوق يبلغ مجتمع الإيثار القمة التي تتصادر أمامها كل المثل وكل الحضارات وكل المجتمعات بعد غزوة بنى النضير ، يريد عليه الصلاة والسلام أن يوقف عملية التضحية من الانصار لأخوانهم المهاجرين والتي كان المهاجرون فيها مثلهم الأعلى ؛ حيث تركوا أرضهم وديارهم ( فلما غنم رسول الله ﷺ بنى النضير دعا ثابت بن قيس ابن شناس فقال : « ادع لي قومك » ، قال ثابت : الخزرج يا رسول الله؟ قال : « الانصار كلها » . فدعا له الاوس والخزرج فتكلم رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل ، ثم ذكر الانصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وإثارةهم على أنفسهم ، ثم قال : « إن أحبتكم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله تعالى علىَّ من بنى النضير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم » ، فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ - رضي الله عنهم وجزاهما خيرا - فقالا : يا رسول الله ، بل تقسمه بين المهاجرين ، ويكونون في دورنا كما كانوا ، ونادت الانصار - رضي الله عنهم وجزاهم الله خيرا - رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارحم الانصار ، وأبناء الانصار » ، وتقدم سيد المهاجرين أبو بكر الصديق ليجزل الثناء على إخوانه الانصار ، فقال : جزاكم الله يا معاشر الانصار خيرا ، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوبي :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت  
بنا فعلنا في الواطئين فزلت  
أبوا أن يسلونا ولو أن أمتنا  
تلاقى الذي يلقون منا ملأت (١)

فحق فيهم جميعاً قول الله عز وجل : « **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ**

(١) سبل الهدى والرشاد ٤٦٢ / ٤ ، ٤٦٣ .

اللهُ وَالَّذِينَ آتَوْا وَنَصَرُوا أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ (١) .

هذا في حق السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وفي حق هذا الجيل الجديد الذي نشأ بعد بدر وهو يقتفي آثار قادته ، وينضم للمجتمع الجديد ، فقد قال الله تعالى فيهم : « وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكُمُ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمُ أُولَئِي بِعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ (٢) .

ولقد شهدنا في هذا الجزء كيف تمت تربية هذا الجيل الجديد من التابعين بإحسان للسابقين الأولين ، وكيف أصبح مجتمعاً واحداً موحداً « فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ۝ ، وقد اخترنا الخطوط العريضة لشخصياتها في نهاية المطاف ، وهناك خطوط كثيرة مبثوثة في ثنايا الكتاب ، وهذا نوع الأخ القارئ على اعتاب غزوة الخندق إلى الجزء التالي بإذن الله حيث نشهد المنهج التربوي للسيرة النبوية ، ونشهد به بناء الجيل القيادي الفريد في التاريخ .

والله أسأل أن يجنبني العثار ويغفر لى الزلات ، وأن ينفعنى بهذا الكتاب ، وأرجو دعوة صالحة لى من أخ كريم قرأ فانتفع ، فدعوه المؤمن لأنجيه بظاهر الغيب مستجابة ، وأن ينفع به الدعاة العاملين المجاهدين فى سبيله ، إنه على ما يشاء قادر ، وبالإجابة جدير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

غرة ربيع الثاني ١٤١٤ هـ

مكة المكرمة

(١) الأنفال / ٧٤ .

(٢) الأنفال / ٧٥ .

## الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
	* الإهداء
٥	انتقاءات من بدر
٨	* التربية أثناء المعركة
٣٠	الراكبون الثلاثة
٣٠	ما يضحك رب من عبده
٣١	ركضا إلى الله
٣١	رسول الله أول المقاتلين
٣٢	رسول الله أول المستغثين
٣٢	ما أنا بأمن تلك الكلمة
٣٦	فكان من عليه أصحاب
٤٠	أن يمس جلدي جلدك
٤٣	إني وجدت ما وعدني ربى حقا
٤٤	رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله
٤٨	* الأسرى ومدرسة التربية
٥١	المطعم بن عدى والأسرى
٥٤	مقتل النضر وعقبة
٥٦	الشوري في الأسرى
٦٠	العباس عم رسول الله ﷺ
٦٥	وزينب بنت رسول الله
٦٨	إسلام عمير بن وهب (شيطان قريش)
٧٠	العلم خير من المال
٧٤	ظهور النفاق والمنافقين (المدينة بعد بدر)
٧٤	مقتل عصماء بنت مروان
٧٥	مقتل أبي عفك اليهودي
٧٦	

٧٦	في غزوة بنى قينقاع
٧٨	بناؤه <small>عليه السلام</small> بعائشة
٧٩	بناء على بفاطمة رضي الله عنهم
٧٩	غزوة السوق
٨٢	غدر بنى قينقاع ومواجهتهم
٨٥	بروز حرب المنافقين
٨٨	وها هو سيد الخلق بين موقفين
٩٣	أعراس المدينة
٩٦	عرس فاطمة سيدة نساء العالمين
١٠٣	* العام الثالث في المدينة
١٠٣	أهل الصفة
١٠٤	غزوة قراردة الكلدر
١٠٥	غزوة غطفان بذى أمر
١٠٦	غزوة بنى سليم ببحران بناحية الفرع
١٠٧	قتل كعب بن الأشرف
١٠٨	شأن سرية القردة
١٣٨	* المدينة قبل أحد
١٤٨	توبة قريش للمواجهة
١٥٢	رسول الله <small>عليه السلام</small> يربى القيادات
١٧٠	طبيعة الصف الإسلامي في أحد
١٧٥	النفاق وقادته
١٧٩	* الأيام الأربع بعد أحد
١٧٩	ذكر دعائه <small>عليه السلام</small> بعد الواقعه يوم أحد
١٧٩	ذكر رحيل النبي <small>عليه السلام</small> إلى المدينة
١٨٢	ذكر إظهار المنافقين واليهود الشماتة والسرور بما حصل لل المسلمين
١٨٢	ذكر إرادة عبد الله بن أبي الخطبة ومنع المسلمين له من ذلك
١٨٣	ذكر ما نزل من القرآن في شأن أحد
١٨٣	غزوة حمراء الأسد
١٨٨	اليوم الأول
١٩٦	اليوم الثاني

٢٠٤	اليوم الثالث
٢١٠	وقفة عند أحد وشهادتها
٢١٥	* تحرير الخمر
٢٢٧	ختام السنة الثالثة
٢٢٩	* انتصارات المحرم في السنة الرابعة
٢٢٩	سرية أبي سلمة إلى بنى أسد
٢٤٧	* محثنا صفر « سرتا بثر معونة والرجيع »
٢٥٤	مقتل خبيب بن عدى
٢٦٣	سرية بثر معونة
٢٧٨	البدريون
٢٧٨	الأحديون
٢٧٩	* ربيع الأول وإخراج بنو النضير
٢٩٨	* غزوة ذات الرقاع
٢٩٨	صلوة الخوف
٢٩٩	محاولة الاغتيال
٢٩٩	جمل جابر
٣٠٠	حارسا الغر
٣٠٦	ابن الشهيد والمدرسة التربوية
٣٠٧	اللقطة الأولى
٣٠٧	اللقطة الثانية
٣٠٨	اللقطة الثالثة
٣٠٩	اللقطة الرابعة
٣٠٩	اللقطة الخامسة
٣١١	اللقطة السادسة
٣١٢	اللقطة السابعة
٣١٣	اللقطة الثامنة
٣١٤	اللقطة التاسعة
٣١٦	اللقطة العاشرة
٣١٩	* غزوة بنى حيyan
٣٢٣	سرية عمرو بن أمية الضرمي

٣٣٥	* غزوة بدر الموعد
٣٤٩	* عودة إلى بيت النبوة
٣٥٠	سیدا شباب أهل الجنة
٣٥٤	أم سلمة زوج لرسول الله
٣٥٨	زینب بنت جحش ، وزيد بن حارثة
٣٧١	* تربية وجهاد ، مع إطلالة السنة الخامسة
٣٧١	غزوة دومة الجندل
٣٧٥	* غزوة المریمیع مدرسة تربوية
٤١٠	* زعيم التفاق يتقىم « حديث الإفك »
٤٠١	* الخطوط العريضة في التربية
٤٠١	الخط الأول: التربية بالمعركة وال الحرب
٤٠١	الخط الثاني: التربية بالمناورات الحربية
٤٠٢	الخط الثالث: التربية والتدريب على الشورى
٤٠٢	الصورة الأولى
٤٠٢	الصورة الثانية
٤٠٢	الصورة الثالثة
٤٠٢	الخط الرابع : التربية بإيراز النموذج
٤٥٣	الخط الخامس : التربية بالإعراض
٤٥٣	الخط السادس : التربية بالترغيب بالأخرة
٤٥٤	الخط السابع: تربية الأسرى
٤٠٥	الخط الثامن : استئثار الطاقات الكامنة
٤٥٦	الخط التاسع : تكليف الأبطال بالمهمات الصعبة
٤٥٦	أ - سرية أبي سلمة بن عبد الأسد
٤٥٦	ب - سرية عبد الله بن أنس
٤٥٧	ج - سرية عمرو بن أمية وسلمة بن أبي أسلم
٤٥٧	الخط العاشر : التربية بالقدوة
٤٥٨	الخط الحادى عشر : التضحية بأقرب الناس إليه
٤٥٩	الخط الثاني عشر : التربية بالقدوة في استئصال العادات الجاهلية
٤٦٠	الخط الثالث عشر : تربية المنافقين
٤٦٢	الخط الرابع عشر : المحافظة على السمعة السياسية والعسكرية

٤٦٣	الخط الخامس عشر: بث الدعاة لنشر الدعوة
٤٦٥	الخط السادس عشر: تحويل الفاتكين المحاربين إلى دعاة مؤمنين
٤٦٦	الخط السابع عشر: الزواج طريق لنشر الدعوة
٤٦٧	الخط الثامن عشر: الاستفادة من الطاقات الجديدة
٤٦٨	الخط التاسع عشر: القضاء على العصبية الجاهلية وتصعيد مفهومها
٤٦٩	الخط العشرون: القضاء على الخونة التماثلين مع العدو
٤٧٠	الخط الحادى والعشرون: العدل المطلق الذى قامت به السموات والأرض
٤٧٢	الخط الثانى والعشرون: رعاية حقوق أفراد الأمة
٤٧٥	* الفهرس